

الكتاب الأول

في معرفة الله تعالى والخلق

تأليف

الحمد لله الذي هدانا لهذا

الجزء الأول والشأن

الناشر مكتبة النجاشي بالناصرة



تاريخ الألبان في عهد المرابطين والموحدين

تأليف
المؤرخ الألفاني يوسف أسباع

ترجمه وعلق عليه
محمد عبد الله غنيان

الجزء الأول

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

الطبعة الثانية
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م
جميع الحقوق محفوظة للناسر

رقم الإيداع ٩٥٨٧ / ٩٦

الترقيم الدولي 3-20-5046-977

الناسر
مكتبة النحاسجي بالقاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لبث تاريخ الأندلس أو تاريخ اسبانيا المسلمة ، كما تعرضه الروايات والمصادر الإسلامية مجهولاً من الغرب حتى أواخر القرن الثامن عشر ؛ وكان المؤرخون الأسبان قلماً يتناولون هذا القسم الهام من تاريخ اسبانيا القوي بشيء من الإفاضة ، فإذا تناولوه كان جل اعتمادهم على المصادر النصرانية ، وهي جيماً شديدة التأثير بالموامل والاعتبارات القومية والدينية .

وفي أواخر القرن الثامن عشر ، وضع العلامة الغزيرى اللبناى الذى يعرفه البحث الغربى باسم Casiri - بتكليف الحكومة الاسبانية - فهرساً جامعاً باللاتينية لمجموعة المخطوطات العربية بقصر الاسكوريال ، ظهر فى مجلدين كبيرين بين سنتى ١٧٦٠ و ١٧٧٠^(١) وكشف مؤلفه بما نقل فيه من نبذ تاريخية وجغرافية وأدبية ، سواء بأصلها العربى أو مترجمة إلى اللاتينية ، عن أهمية هذه المجموعة وقيمتها بالنسبة لتاريخ اسبانيا المسلمة ، وتاريخ اسبانيا فى عهد الدول الإسلامية

(١) Casiri : Bibliotheca Arabico - Hispana Escorialensis (المكتبة العربية

الاسبانية بالاسكوريال)

بوجه عام . وعندئذ اتجهت عناية البحث الغربى لأول مرة إلى مراجعة هذه المصادر العربية ، والتنقيب فيها عن كل ما يتعلق بتاريخ اسبانيا المسلمة وتاريخ الحضارة الاسلامية ، وخواص المجتمع الاسلامى ؛ وظهر أثر هذه العناية بالأخص في بعض الآثار النصرانية الجامعة التي ظهرت في ذلك الحين مثل كتاب أندريس Andrés في « أصول الأدب »^(١) ، وكتاب ماسدى Masdeu المسمى « بالتاريخ النقدي لاسبانيا والحضارة الاسبانية »^(٢) ، وهو يعنى فيه عناية خاصة بالتحدث عن الحضارة الأندلسية والتفكير الاسلامى في اسبانيا المسلمة . ثم جاء المستشرق الاسبانى يوسف كوندى Condé ، فوضع مؤلفه الشهير « تاريخ دولة العرب في اسبانيا Historia de la Dominacion de los Arabes en Espana » مشتقاً من المصادر العربية ، في ثلاثة مجلدات كبيرة ظهرت بين سنتى ١٨١٠ و ١٨١١ ؛ ومع أن كوندى ينقل كثيراً من الروايات العربية بلا دقة وتمحيص ، ويقع في كثير من الأخطاء التاريخية ، فان مؤلفه اعتبر وقت صدوره فتحاً جديداً في التاريخ الاسبانى ، وكان في الواقع أول مؤلف أوروبى يعرض على الغرب تاريخ الأندلس وفقاً لوجهة النظر الاسلامية .

ومن ذلك الحين بدأت المصادر العربية تتخذ مكانتها إلى جانب المصادر النصرانية في كل بحث يتعلق باسبانيا المسلمة ؛ وظهرت في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، عن تاريخ الأندلس عدة مؤلفات أوربية جديدة ، عنت بمراجعة المصادر الاسلامية عناية حسنة ، وعنى المستشرقون في نفس الوقت بنشر الآثار العربية المتعلقة بتاريخ الأندلس . فنشر العلامة السويدى تورنبرج Tornberg كتاب « روض القرطاس » لأبى الحسن على بن أبى زرع ، مقروناً بترجمة لاتينية (أوبساله سنة ١٨٤٣) ، ونشر العلامة الهولندى رينهارت دوزى

Andrés, Juan: Dell'origine progressi, estado attuale d'ogni Littrature (١)

(في أحوال الآداب وتقدمها وأحوالها الخاصة) (7 vols, Parma 1783 - 799)

Masdeu : Historia critica de Espana y de la cultura espanola (1783 - (٢)

R. Dozy الجزأين الأول والثاني من كتاب « البيان المغرب » لابن عذارى المراكشي (ليدن سنة ١٨٤٨ — ١٨٥١)، ووضع المستشرق الإسباني جاينجوس Gayangos ، ترجمة انكليزية لكتاب نفح الطيب للمقرى نشرت بعناية الجمعية الآسيوية الملكية البريطانية بين سنتي ١٨٤٠ و ١٨٤٣^(١) ، ثم نشر الجزآن الأول والثاني من نفح الطيب بالعربية في ليدين ، ونشرت لها ترجمة فرنسية (سنة ١٨٥٥ ١٨٦٢) ، ونشر المستشرق الانكليزي جونز Jones ترجمة انكليزية للقسم الخاص بفتح الأندلس من تاريخ ابن عبد الحكم « أخبار مصر وفتوحها » (جنتنجن سنة ١٨٥٨) ، ونشر المستشرق الألماني ميلر Mueller كتاب « أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر » مع ترجمة ألمانية (ميونيخ سنة ١٨٦٣) ، ونشرت بعد ذلك في أواخر القرن التاسع عشر بعناية المستشرقين طائفة كبيرة من الآثار العربية الأندلسية ، كان في مقدمتها المكتبة الأندلسية التي ظهرت في عشرة مجلدات كبيرة من سنتي ١٨٨٣ و ١٨٩٥

ومؤلف كتابنا هذا المؤرخ الألماني يوسف اشباخ Joseph Aschbach ينتمي إلى هذه المدرسة التي عنيت منذ أوائل القرن التاسع عشر بدراسة التاريخ الأندلسي على ضوء المصادر العربية . وقد ولد في هكست من أعمال ناساو بألمانيا في سنة ١٨٠١ ، وتولى تدريس التاريخ في جامعة فرنكفورت ، ثم في جامعة بون ، ودرس العربية ، وعنى بدراسة تاريخ إسبانيا المسلمة عناية خاصة ، ووضع في ذلك مؤلفين أولها : « تاريخ الأمويين في إسبانيا » Geschichte der Omajaden in Spanien في مجلدين ، وهو يتناول تاريخ الأندلس منذ الفتح حتى سقوط الدولة الأموية وقيام دول الطوائف ؛ والثاني : « تاريخ إسبانيا والبرتغال في عهد سيادة المرابطين والموحدين » Geschichte Spaniens und Porbugals, zur

(١) وقد نشرت هذه الترجمة بعنوان History of the Mohammedan Dynasties in Spain (تاريخ الدول الإسلامية في إسبانيا) ، وهي تتضمن الجزئين الأول والثاني من نفح الطيب .

في مجلدين Zeit der Herrschaft der Almorariden und Almohaden أيضاً ؛ وهو يتضمن تاريخ الأندلس ، وتاريخ اسبانيا بوجه عام ، منذ قيام دول الطوائف حتى انحلال دولة الموحدين ، وتاريخ المغرب أيضاً في ظل دولتي المرابطين والموحدين ؛ وهو الذي نقدم اليوم إلى القارئ القسم الأول منه متضمناً لتاريخ الأندلس والمغرب في عهد المرابطين ، وقيام دولة الموحدين ، وتاريخ قشتالة وباقي الممالك الاسبانية النصرانية في تلك الفترة . وأما القسم الثاني فيتضمن تاريخ الموحدين حتى سقوط دولتهم ، وعرضاً لسياسة المرابطين والموحدين ونظمهم في الحكم والإدارة وتاريخ الممالك النصرانية المعاصرة . والكتاب بقسميه كما يقول لنا المؤلف في مقدمته ، تنمة لكتابه الأول « تاريخ الأمويين في اسبانيا » . وقد ظهر هذا الكتاب بمدينة فرنكفورت بين سنتي ١٨٣٣ و ١٨٣٧ ؛ ومع أنه قد مضى على ظهوره أكثر من مائة عام ، فإنه لا يزال محتفظاً بكثير من قيمته ، فهو يعتمد على المصادر الاسلامية ، وينتفع بها انتفاعاً كبيراً بالرغم مما يرد فيه أحياناً من خطأ أو تحريف ؛ على أن أهم ما يمتاز به في نظرنا هو دراسته للمصادر النصرانية إلى جانب المصادر الاسلامية ، وتمحيص الروايات من الجانبين وتقدير وجهات النظر المختلفة ، وهي ميزة لها قيمتها في دراسة التاريخ الأندلسي ، لأن التواريخ العربية قلما تعنى بدراسة المصادر النصرانية ، كما أن التواريخ النصرانية الحديثة لبثت من جانبها معرضة عن الانتفاع بالمصادر العربية حتى ظهر معجم الغزيري ، واتجهت الأنظار إلى الانتفاع بمجموعة الاسكوريال حسبنا بينا ، هذا إلى ما يمتاز به الكتاب من حسن الترتيب والتبويب ، وخصوصاً في أخبار ملوك الطوائف ، وما يتخلله من مواطن التحليل والنقد المتزن .

هذا وقد رأيت استكمالاً للبحث أن أذيل الكتاب بطائفة من الهوامش والتحقيقات والشروح ، استندرا كما لمواطني التحريف ، وإتماماً لتمحيص المصادر ، وتحقيقاً لبعض النصوص والأعلام ، معتمداً في ذلك على مجموعة كبيرة من المصادر الاسلامية التي لم يتبع لمؤلف الكتاب أن ينتفع بها ؛ كذلك رأيت نظراً

لتباين الأعلام الأندلسية العربية والأفريقية الجغرافية والتاريخية ، ونظراً لما يقع فيها من التحريف في معظم التراجم والدراسات المتعلقة بتاريخ الأندلس ، أن أضع لهذه الأعلام فهرساً يضم الأعلام العربية ومقابلها الأفريقي ، ليكون مرشداً يفتتح به القراء والمشتغلون بدراسة التاريخ الأندلسي .

ولا يسعني في الختام إلا أن أتقدم بالشكر إلى صديقي العلامة الأستاذ أحمد أمين لما تفضل به من قراءة الترجمة وما أبداه من ملاحظات قيمة ، وأن أنوه بما للمهد الخليلي بتطوان وبيت المغرب بالقاهرة من فضل مشكور في نشر هذا الكتاب ضمن مجموعة الآثار الإسلامية والأوربية المتعلقة بتاريخ المغرب والأندلس ، التي يملأن لنشرها ، وتعميم نفعها .

محمد عبد الله عنانه

القاهرة في ١٨ ذي القعدة سنة ١٣٥٨
الموافق ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٩

الكتاب الأول

تاريخ الأندلس

منذ سقوط الدولة الأموية

إلى مقدم المرابطين

الفصل الأول

تاريخ الممالك الإسبانية النصرانية

منذ اتحاد مملكتي ليون وقشتالة

إلى تقسيم مملكة البشكنس

(سنة ١٠٢٧ - ١٠٧٦ م) - (٤٧٨ - ٥٤٦ م)

مضت ثلاثة قرون استمر فيها تفوق دولة الإسلام في شبه الجزيرة الإسبانية (الأندلس)، وكادت الممالك النصرانية التي أقامها السكان الجبليون في أشتوريش وبسكونس^(١)، ووطدوا دعائمها تُسحق غير مرة؛ بيد أنها كانت إزاء الخطر تكافح بقوى مضاعفة، وحب متقد للحرية، والدين والوطن، وتنتصر دائماً على أعداء لا حصر لهم، قد فقدوا في النهاية قوامهم في قتال بعضهم بعضاً. وفي أوائل القرن الحادى عشر الميلادى، اضمحل سلطان الأمويين في اسبانيا بعد ازدهاره، وسما في الوقت نفسه شأن سانشو (سانجة) الملقب بالكبير، فيما وراء الجبال البرينية (جبال البرت أو البرتات)^(٢)، ومكنت له قواء المظفرة من بسط

(١) أشتوريش: هي الاسم العربى لولاية «أستورياس» (Asturias)، وبسكونس أو بسكونية هي الاسم العربى لولاية «بسكاي» (Biscaya). وقد آثرنا أن نرجع في الترجمة إلى الأعلام الجغرافية العربية وأن نقرنها عند الضرورة بمقابلها الأفرنجى، وسنضمها في نهاية الكتاب في ثبت عام مقرونة بأصولها الأفرنجية.

(٢) تسمى الجبال البرينية أو جبال البرنيه (Pyrenees) في الجغرافية العربية بجبال البرت أو البرتات بالاشتقاق فيما يظهر من كلمة (Puertos) أى الأبواب، ومن ثم فقد سميت أيضاً بجبال الأبواب، ويشار إليها أحياناً بأنها «الجبل الحاجز بين الأندلس وبين بلاد أفرنجية»

سيادته على اسبانيا النصرانية من جبال البرنيه إلى ما وراء شنت ياقب ؛ ومن بحر بسكونس حتى نهر دويره (نهر دورو) مما يلي هضبة الجزيرة الوسطى عند وادى الرملة الوعر^(١) . وكان يحكم قشتالة ونافارا (بلاد البشكنس)^(٢) سانشو وولده فرديناند . ولم يكن الملك برمود الثالث (برمند) صاحب ليون سوى تابع لسانشو . ولاح أن الفرصة قد سنحت ليسحق النصرارى بأيسر أمر ، تلك الدول الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة الأموية . بيد أن ملك نافارا ما كاديوحده بين القوى النصرانية حتى أدركه الموت في سنة ١٠٣٥ م ؛ وقسمت مملكته بين أبنائه الأربعة ، وتصدع بذلك سلطان النصرانية وما كان يلتئم ، وأدّى تفرّق النصرارى الأسبان على هذا النحو الخطر إلى نجاة الأندلس المسلمة من فناء محقق ، واستمر علم الهلال خفاقاً على شبه الجزيرة زهاء خمسمائة عام أخرى قبل أن يفيض أمام أعدائه .

١ — فرديناند الأول وإخوته

ولما توفى سانشو أصبح ولده الثانى فرديناند (فرداند) ملك قشتالة^(٣) بعد ذلك بعامين ، ملكاً على ليون وجليقية وأشتوريش وما إليها ، على أثر وفاة صهره الملك برمود الثالث في موقعة «تامارون» (Tamaron) ، وغدا بذلك أقوى ملك في اسبانيا . أما إخوته الثلاثة فكانوا يحكمون ممالك صغيرة لا تسكاد تعدل ثلث مملكته ؛ فحكم جارسيا (غرسية) أكبر أولاد سانشو الوطن الأصلى نافارا من

«العملى» ، أو جبل البرت الحاجز بين الأندلس والأرض الكبيرة ، أو يقال لها «الحاجز» (راجع وصف الأندلس للإدريسي طبعه Saavedra) ، ونجح الطيب (مصر) ج ١ ص ٦٤ و ٦٥ و ٦٦ ، ومعجم ياقوت (مصر) تحت كلمة أندلس) .

(١) وادى الرملة (Gaudarrama) .

(٢) يسمى العرب ولاية نافارا (Navarra) « بلاد البشكنس » (Bascons) ، وأحياناً

تسمى « نبرة » ، (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٧٩ وصبح الأعشى ج ٥ ص ٢٣٤) .

(٣) ويسمى صاحب البان المغرب قشتالة ، وهو أقرب لأصلها الأفرنجى (Castille)

(ج ٣ ص ٢٣٢) .

غرب البرنيه إلى مصب الأيبرو (أبرة) . وحكم راميرو ولد سانشو غير الشرعى ، مما يلى ذلك فى شقة ضيقة من الأرض تمتد من باب شزروا (Roncesvalles) إلى «اينكا وآرا» (Einca & Ara) بإسم ملك أراجون (أرغون)^(١) ، وحكم كونزالو منطقة أصغر هى ولاية سوبراب فى أواسط البرنيه . وأما فى شرق البرنيه فكانت تقع إمارة (كونتية) برشلونة أو قطلونية ممتدة على شاطئ البحر حتى مصب الأيبرو ويحكمها ريموند رينجار الأول ؛ وبذا بلغت الممالك النصرانية الأسبانية فى ذلك الحين خمساً .

ولكن اسبانيا المسلمة منذ انهار صرح الدولة الأموية بسبب الحروب الأهلية وأطاع الولاة ، انقسمت إلى دول مستقلة أكثر عدداً . فكان يحكم فى المدن الكبرى وفى الولايات أمراء (أو ملوك) يتبعهم عدد من الولاة والقضاة . وكان بعض هؤلاء الولاة يحاولون الاحتفاظ باستقلالهم عن كل سيادة ، ولم يكن ذلك ممكناً إلا إذا رأى جيرانهم الأقوياء هذا الاستقلال فى صالحهم . وكان أهم هذه الدول ، فى قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة وبطليوس وطليطلة وسرقسطة . وكانت تحالف بعضها بعضاً أو تخاصم بعضها بعضاً ، حسبما تمليه بواعث الأثرة التى تسير أولئك الأمراء .

ولم يكن الأمراء النصارى يخشون جانب الدولة الإسلامية بعد أن مضت إرباً وسادتها الفوضى . وقد أضاع أولئك الأمراء الفرصة السانحة لحشد قوى النصرانية المجتمعة ، وانتزاع شبه الجزيرة كلها من أيدى أعدائهم فى الدين ، وغلب عليهم التباغض والتحاسد فأثروا أن ينشقوا الحسام بعضهم ضد بعض ، فى حروب مغربة مروعنة على أن يشهروا الحرب على الإسلام .

ليس أخطر على الدول من اضطرام الأمراء بشهوة الفتح . ذلك أن كل شعور بالعدالة والإنسانية والإخاء والإيمان ، يغيب عندئذ فى سبيل الطموح إلى حكم دولة أوسع مدى . ولن يحجم الأمير عندئذ عن ارتكاب أى أمر فى سبيل تحقيق

(١) تعرف أراجون فى الرواية العربية ببلاد أرغون أو أرغن أو أرغونه أو الثغر الأعلى .

هذه الغاية . وهكذا نجد أنفسنا فيما يتعلق بطموح أبناء سانشو الكبير وأحفاده إلى الفتح ، أمام معترك من الجرائم والشناعات التي يرتجف المرء لدكرها فرقا ، إذا استطاع أن يتتبعها بجميع تفاصيلها . ولكن التاريخ مع الأسف لا يحتفظ غالباً للخلف إلا بآثام القرون الذاهبة . ومن خير الإنسانيّة أن يطوى ذكر هذه الآثام في ثنايا النسيان إلى الأبد . ذلك أنه يخالجنّا عندئذ شيء من الشك المحمود في صحة أشنعها وأروعها ذكراً ؛ ومن ثمّ فإنه ليس لنا أن نشكو من أن الروايات القليلة التي انتهت إلينا عن الحروب الدموية التي وقعت بين أبناء سانشو ، تنبئنا بالقليل عنها ، وإن كانت تسمح لنا بأن نتكهن بالكثير منها .

مضى عام على توحيد « فرديناند » لتاجي « قشتالة وليون » ؛ وفي الوقت نفسه اتحدت مملكتنا « أراجون » و « سوبراب » الصغيرتان . وكان « كوزالو » يحكم فقط منطقة هي أجدر بأن تسمى بالولاية من أن تسمى بالملكة . وقد كان حكمه لها فيما يظهر سبب موته المبكر . ذلك أنه عاد ذات يوم من الصيد فقتل في كمين غادر دبره أحد أتباعه . وتولى « راميرو » (رزمير) أخو القتل غير الشرعي وملك أراجون حكم « سوبراب » بموافقة شعبها ، ولم يحصل فرديناند وجارسيا أخوا كوزالو الشرعيان على شيء منها ، وهو ما يحاول الكتاب المتأخرون تفسيره بأن سوبراب تقع بجوار أراجون وأصلح لها أن تضم إليها ، وهو تفسير غير مقنع . وقد قيلت أقوال كثيرة عن السبب الذي حمل فرديناند وجارسيا وهما أقوى من راميرو على العدول عن المطالبة بحقوقهما في سوبراب . والظاهر أن الأمور سارت بسرعة مكنت راميرو من احتلال الولاية قبل أن يصل نبأ وفاة كوزالو إلى أخويه الكبيرين . كذلك كان فرديناند مشغولاً قبل كل شيء بتوطيد ملكه في مملكته الجديدة ، فلم يستطع يومئذ مغادرتها . أما جارسيا فقد كان يومئذ يهجم إلى رومة طبقاً لتقاليد عصره ، وكان من الضروري أن يكون ملك نافارا حاضراً بشخصه إذا أراد أن يختاره أهل سوبراب .

وقويت نفس راميرو بنجاح خطوته الجريئة ، فنسى روابط الدم والدين ليقوم

بفتوحات أخرى ، وتحالف مع أعداء دينه ولاية تطيلة ووشقة وسرقسطة المسلمين ، وأخذ يدبر الخطة لإسقاط ملك نافاراً والاستيلاء على مملكته . ولكن التوفيق حالف هذه المرة ملك نافاراً . ومع أن راميرو استطاع في البداية أن يقتحم حدود نافاراً دون معارضة نظراً لمفاجأتها بالحرب ، فإن قلعة « تاافالا » استطاعت أن تعترض سيره المظفر ، وتمكن جارسيا خلال الوقت الذي استغرقه حصار القلعة أن يحشد جنده ، وأن ينقض على خصمه تحت جنح الظلام وعلى غرة من الحراس . وهكذا هوجم الأرجونيون وهم نيام ، وهزموا هزيمة شنيعة قبل أن يتمكنوا من تقلد سلاحهم . ولم يتمكن راميرو من النجاة إلا بشق النفس ، فألقى بنفسه فوق صهوة جواد عار ولاذ بالفرار ناجياً بحياته ، ومُزق معظم جيشه قتلاً وأسراً . وعند الفجر خرج سكان القلعة فأجهزوا على الجيش المنهزم ، ولم يفر بما فاز به راميرو من الفرار سوى القليل . وكان بين الفارين قادة الجند المسلمين وقليل من أتباعهم ؛ ولا ريب أن هذه الواقعة حدثت بعد احتلال سوبراب (بعد سنة ١٠٣٨ م على الأقل) ، وذلك بالرغم مما يرويه البعض من أنها حدثت قبل ذلك . والظاهر أنها حدثت في سنة ١٠٤٢ م .

ومع أن راميرو فقد من جراء هذه الهزيمة معظم مملكته ، واضطر أن يلجأ إلى شعب الجبال الوعرة ، في ريبا جرسا وسوبراب ، ليتقى هناك مطاردة أعدائه بكل مشقة ، فإننا نراه بعد ذلك بأعوام قلائل يعود فيسترد كل أراضيه ومدنه ؛ ولا نعرف — مما انتهى إلينا من التفاصيل القليلة عن تطور الحوادث — كيف حدث ذلك . بيد أنه من المحقق فيما يظهر ، أنه لم يكن ذلك بفضل تسامح من أخيه أورشى .

وفي تلك الأثناء استطاع فرديناند خلال معارك ظافرة خاضها مع جيرانه المسلمين ، أن يوسع حدود مملكته توسيعاً كبيراً . فبعد أن قام بمكافحة أشرف ليون الثائرين الذين أبوا الاعتراف بحكمه ، وقد كانوا فيما يظهر من أقارب الأسرة الملكية السابقة ، وإخضاعهم أو إبعادهم ، سار في جيش حسن العدة إلى

سمورة (زامورا) التي تقع اليوم في شمال البرتغال ، والتي افتتحها المسلمون قبل ذلك بنحو خمسين عاماً ، ليحاول استردادها . وبعد أن استولى على بعض قلاع الحدود ، زحف على بازو (فيزى) وانزعها عنوة وصيرها حطاما ، واسترق من نجا من سكانها من الموت ، ولم تأخذه في أعداء دينه رأفة ولا إنسانية ؛ ومتى كان ثمة ثأر خاص للبنفس القوى ، فإن القتل المجرد لا يكفي ، ومن ثم فإن الراى الذى قُتل بسهامه الملك الفونسو الخامس أثناء حصار بازو قبل ذلك بمشرة أعوام ، عوقب أروع عقاب ، فبعد أن قطعت يده ورجلاه عذب حتى أسلم الروح ؛ وعلى هذا النحو أيضاً افتتح فرديناند لاميجو ، وعدة قلاع أخرى أقل أهمية ، وأسكن النصرارى في تلك الأنحاء ليكونوا سداً منيعاً ضد غزوات المسلمين^(١) .

وشجع ظفر النصرارى في محاربة أمير بطليوس وأتباعه ملك قشتالة على القيام بغزوات ممائلة ضد أميرى طليطلة وسرقسطة ، ولم يقتصر نجاحه في ذلك على استعادة حدود قشتالة القديمة عند جبال وادى الرملة الوعرة ، وتهديده طليطلة وسرقسطة بالحصار ، بل كان أيضاً أن صاحبي طليطلة وسرقسطة فضلاً أن يدفعوا الجزية إلى فرديناند ، وأن يكفلا بذلك عونه لها في حروبهما ضد جيرانهما المسلمين ، على أن يخوضا معه وهو ملك النصرانية القوى ، حروبا لاشك في سوء عواقبها . وهكذا فرض فرديناند سلطانه على أعدائه ، ثم عمد في ظل السلام إلى العناية بالإصلاحات الداخلية . في سنة ١٠٥٠ م دعا إلى اجتماع كنسى في « جويانسا » اعتبر في نفس الوقت مجلساً نيابياً ، وشهده فضلاً عن الملك والملكة سانشا وعدة من الكبراء تسعة أساقفة بينهم يوحنا أسقف بنبلونة ممثلاً لملككة نافارا . وقوانين هذا الاجتماع أو البرلمان « كورتيس » (Cortes) ليست مهمة من الوجهة الكنسية

(١) وقعت هذه الغزوة في سنة ١٠٥٧ م ، وكانت الحصون والمدن التي استولى عليها فرديناند يومئذ من أملاك أمير بطليوس ابن الأفطس . وفي تلك الغزوة استولى فرديناند على جميع الحصون التي كان النصور بن عامر قد افتتحها من أعمال قشتالة القديمة ، ولا تقدم المراجع العربية إلينا عنها تفصيلاً شافياً (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ والبيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ ودوزى (جديد) ج ٣ ص ٧٤) .

فقط ، ولكنها مهمة أيضاً بالنسبة لتاريخ نظم الحكم في قشتالة . ومما قضت به أن يعمل في جميع الأديار بدعوة القديس بندكت ، وأن يحرم على رجال الدين حمل السلاح ، والزواج ، أو شهود مآدب الزواج ، ولكن أيسح لهم أن يحتكموا إلى الأساقفة . وحصلت الكنيسة على امتيازات كثيرة أخرى في مقدمتها أنه لا يمكن الاستيلاء على أملاكها بمضى المدة . ونظراً لأنه يوجد في بعض المدن مزيج من السكان من مختلف العقائد ، فقد رأى للتمييز بين النصراني واليهود والمسلمين ، أن يشدد في الاحتفال بيوم الأحد . وشدد في تحريم التعامل مع اليهود والأكل معهم . ومما يدل أيضاً على تغلغل أثر الشرائع القوطية ، تجديد القانون الذي يقرر بأن المجرم إذا صار على قيد ثلاثين خطوة من عتبة الكنيسة ، أصبح تحت حماية القضاء الكنسي ؛ كذلك أمر القوامس (الكونتات) ونوابهم في القضاء الجنائي وهم المسمون (Mirini) أن يحرصوا على تحرى العدالة والحق وفقاً لكتب الأحكام القوطية ، وأن تطبق في نفس الوقت في مملكة ليون قوانين الفونسو الخامس المسماة : (Bueno fueros) ، وفي مملكة قشتالة تطبق لوائح الكونت سانشو المسماة (Benefactorias) . كذلك أمر سكان ليون وقشتالة أن يلزموا الولاء والطاعة لفرديناند شأنهم من قبل نحو ألفونسو وسانشو ، وقضى بمعاينة المجرمين والعصاة بفقد الشرف والمنصب ، وبالنفى من الكنيسة .

وهكذا نرى أن الكنيسة لم تقتصر على أن تعمل لتوطيد هيبة الملوكية ، بل نراها بالأخص تعمل على توجيه السلطة الدنيوية إلى تطبيق العدالة ، وعلى استئصال شأفة الخرافات والسحر من عقول الكافة . وهذا ما تؤيده لنا القوانين التي صدرت في الاجتماع الذي عقد في شنت ياقب سنة ١٠٥٦ م .

هذا وبينما كان فرديناند يبسط بين أعداء النصرانية روع جيوشه ، ويمالج في نفس الوقت تنظيم مملكته المتحدة ، كان أخواه الملكان راميرو وجارسيا يشتغلان آناء ببناء الكنائس والأديار ، وآناء بمحاربة المسلمين على ضفاف الأيبرو . وإن الروايات السقيمة الموجزة التي وصلتنا عن تاريخ نافارا وأراجون في تلك

الفترة لتتركنا بالنسبة لمعظم الحوادث في ظلام دامس . بيد أنه يبدو من المحقق أن أكبر الأخوين وهو جارسيا كان أضعفهما شأنًا ، فهو إذا استثنينا غزوة قلهرّة لم يقيم بفتوح ما ، هذا بينما قام راميرو بفتوح ذات شأن ، وعقد مع الولاة المسلمين محادثات زادت قوة وبأسًا .

وكان جارسيا يضطرم حسداً لرؤية أخيه الأصغر فرديناند يفوز بهذه المملكة الشاسعة ، وتلك الفتوحات الهامة ، ويطمح إلى امتلاك هذه الأراضي . وكان يعمل على الفتك الغادر بأخيه ليرقى عرش إسبانيا النصرانية . فأوغر بتبليغ ملك قشتالة بأنه مريض على فراش الموت ، وأنه يرجو رؤية أخيه للمرة الأخيرة . فبادر فرديناند إلى رؤية أخيه دون أن يظن به سوءاً . بيد أنه فطن أثناء السير إلى مشروعه الغادر ، أو نرى إليه ، فارتد إلى مملكته مسرعاً قبل أن يتمكن ملك نافارا من تنفيذ مكيده ، وقد أقسم بأن ينتقم من ذلك الأخ الذي نسي روابط الدم وحقوق الضيافة المقدسة . ولم يفطن جارسيا إلى أن أخاه قد وقف على مشروعه ، ولم يرتب في الأمر حينما دعاه فرديناند إلى زيارته ، بعد ذلك بأعوام قلائل ، فما كاد يصل إلى أرض قشتالة حتى هوجم وأسر . ولكن سرعان ما استطاع الفرار من أسره والعود إلى مملكته^(١) .

وهكذا نشبت بين الأخوين تلك الحرب التي كانت تنذر منذ بعيد بالوقوع . ولم يكتف جارسيا بالتحالف مع راميرو الذي لبث حتى هذه الآونة ألد أعدائه ، على سحق أخيهما ، ولكنه استعان على تقوية جيشه بجنود مرتزقة من المسلمين استأجرها من ابن هود أمير سرقسطة . وحاول الأحبار عبثاً نصيح الأخوين المعتدين ، وسال الدم ، واجتاح جارسيا أرض قشتالة ، وتابع سيره حتى « أتابورتا » على مقربة من برغش (برجوس) وهناك نشبت الموقعة في سبتمبر سنة ١٠٥٤ . وكان ثبات فرديناند وعنف الهجوم الذي قام به فرسان ليون ، وهم حرس الملك

(١) بيدى كوندى ربه في قصة هذا الكمين ؟ بيد أنه لا يقدم إلينا سبباً آخر عن نشوب الحرب بين الأخوين (الترجمة الفرنسية ج ٢ ص ١٧١) .

السابق برمود الثالث ، من عوامل النصر الحاسمة . وكان جارسيا يقاتل بشجاعة غير مكترث للخطر ، فأصابته طعنة من فارس يدعى سانشو فورتيز كان من جنده ، وهجره إلى أخيه لأنه أغوى زوجه ؛ واحتاط به جنده المخلصون حتى لا يقع في يد أعدائه ، وأسلم الروح بين ذراعي كاهنه ؛ وركن النافاريون (البشكنس) إلى الفرار . ويقال إن فرديناند أمر بالكف عن مطاردتهم حقناً لدماء النصارى ، وأن تقتصر المطاردة على المرتزقة المسلمين الذين مزقوا قتلاً وأسرأ .

وأسفر هذا النصر عن اتساع مملكة قشتالة ، واحتل فرديناند كل أراضي مملكة نافارا الواقعة على ضفة الأيبرو اليمى . أما بقية نافارا وهى جزؤها الأكبر الواقع فيما وراء الأيبرو حتى غرب البرنيه ، فقد تركه لولده الملك المتوفى سانشو الرابع ، الذى رفعه النافاريون إلى العرش عقب موت أبيه .

وتوجس راميرو ملك أراجون شراً لنمو سلطان فرديناند على هذا النحو ، سيما وقد غدت حدود قشتالة أقرب إليه ؛ وكان يخشى انتقام أخيه لسبيين : أولهما مسألة الجند المرتزقة التى أعارها لجارسيا ، والثانى ما كان بينه وبين أخيه من خلاف على تقاضى الجزية من بعض المدن الإسلامية الواقعة فى ولاية سرقسطة . وقد كان فى وسعه أن يعتمد على مناعة الأماكن الجبلية فى أراضيه ، ولكنه كان يشعر أنه لا يستطيع بمفرده أن يرد عادة الفتح من جانب أخيه ؛ ومن ثم فقد حمل الخطر المشترك ملكاً نافارا وأراجون على توثيق تحالفهما فى لقاء تم بينهما على الحدود فى دير ليرا (سنة ١٠٥٧ م) . واتخذ صورة تحالف ضد المسلمين وهو فى الواقع ضد فرديناند .

ولما كان ملك قشتالة وليون قد عاد إلى توجيه عنايته لمحاربة المسلمين ، فقد رأى الحليفان من الصواب أن ينتهزا هذه الفرصة ليعملا على تقوية جيوشهما . وكذلك عنى راميرو بتنظيم الشؤون الكنسية فى مملكته ، وذلك فى اجتماع عقد فى « چاقة » سنة ١٠٦٠ فيما يظهر . وتدل القوانين التى وضعت فى هذا الاجتماع على مبلغ ما حققه الأخبار فى أراجون من نفوذ قوى . وهو اجتماع نستطيع أن

نعتبره بلانكا في نفس الوقت ، إذ شهدته تسعة من الأساقفة ، والملك وولى
عهده ، وعدة من كبراء أراجون . وفيه اعتبرت چاقا مركز أسقفية ، وأخرج
الكهنة من اختصاص القضاء المدني ، وتقرر أن يرسل إلى رومة عشر إيراد
الدولة سواء من المال أو المحاصيل ، وكذا عشر الجزية التي تحصل من مسلمي
سرقسطة وتطيلة ؛ وهدد المخالفون بمقوبة النفي الديني . والظاهر أن الذي حل
راميرو على التزامه بهذه الجزية لرومة ، هو تخوفه من فرديناند ، إذ تصبح
أراجون بذلك تحت حماية زعيم الكنيسة ، وهي وسيلة لجأت إليها مملكة البرتغال
فيما بعد لتحمي استقلالها من عدوان قشتالة . هذا وقد كانت قوانين هذا الاجتماع
الكنسي هي الأساس الذي استند إليه البابا جريجوري بعد ذلك بقليل في مطالبة
اسبانيا كلها بأداء الجزية .

على أننا نرى راميرو بدلا من أن ييذل وسمه لاجتناب الحرب مع فرديناند ،
يسمى إليها بنفسه . ذلك أنه لما علم أن فرديناند قد سار غازيا إلى إشبيلية ، ولما
كان يخشاه من أن نجاح فرديناند يزيد في قوته ويجعله أكثر خطراً على ممالك
البرنية الصغرى ، سار لمهاجمة المسلمين في سرقسطة ووشقة وتطيلة ، وقد كانت
من قبل تدفع الجزية إلى أراجون ، ثم تحولت عنها لتغدو تابعة لملك قشتالة القوى ؛
ولم يلق راميرو كبير معارضة في البداية ، لأن المسلمين لم يتحوطوا لمهاجمته ،
ولكنهم لم يحجموا عن طلب المعونة من ملك قشتالة صاحب الجزية عليهم ، ولم
يستطع فرديناند أن يلبي نداءهم بنفسه لأنه لم يرد أن يقطع غزوته لإشبيلية ؛
ولكنه أرسل لمعاونة ابن هود صاحب سرقسطة ولى عهده سانشو على رأس
جيش من الليونيين والقشتاليين ومعهم فيما يروى « السد » البطل الشهير^(١) ،
وبادر الجيش المتحد من المسلمين والتبصاري بالزحف على قلعة جرادوس التي كان
يحاصرها الأرجونيون . ونشبت بين الفريقين على مقربة من جرادوس معركة

(١) هو الفارس القشتالي رودريجو أوراي دياز دي ييفار المشهور في التواريخ النصرانية

باسم « السد » (Cid il Campeador) ، وتعرفه الرواية العربية باسم « السيد الكبيطور » .

شديدة هزم فيها راميرو وقتل . ويقال إن المسلمين مثلوا بمجته دون أن يعترض . على ذلك أحد من النصارى مما يدل على شناعة التباغض بين الفريقين النصرانيين . بيد أن المؤرخين الأسبان المتأخرين ينكرون هذه الواقعة ، بل ينكرون قصة الموقعة كلها ، ويقولون إن راميرو مات بعد ذلك بأربعة أعوام موتاً طبيعياً (سنة ١٠٦٧ م) . على أنه لا يوجد ما يحمل على الأخذ بهذا القول ، خصوصاً وأن الرواية العربية تقص علينا أن الأمير أحمد بن هود صاحب سرقسطة قتل « رذمير » في موقعة دموية في سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٨ م)^(١) ويوجد على قبر راميرو في دير القديس يوحنا في « بنيا » كتابة مفادها أنه توفي في ٨ مايو سنة ١٠٦٣ ؛ وهكذا لقي إخوة فرديناند الثلاثة مصارعهم ، فقتل كونزالو في كمين غادر ، وهلك جارسيا وراميرو في معارك نشبت ضد الجيوش الليونية والقشتالية .

ولا تحدثنا الرواية عما إذا كان فرديناند قد أفاد من مصرع راميرو أرضاً جديدة . بيد أننا نعرف أن سانشو (شأنجه) ولد الملك القتييل تولى في الحال عرش أراجون واستطاع بمؤازرة شعبه وحبه ، أن يحمي حدود مملكته ضد النصارى والمسلمين على السواء .

وفي تلك الأثناء كان فرديناند قد اختتم حربه ضد إشبيلية ظافراً ، واضطر أميرها لما آنس من روعة الجيوش النصرانية ، أن يتمهد بدفع الجزية السنوية لملكة قشتالة وليون . وبعد أن عقد فرديناند بموافقة كبار المملكة الصلح مع المسلمين ، عاد إلى مملكته ومعه رفات القديسين يوستا وروثينا ليدفنهما في كنيسة يوحنا في ليون حيث كان المدفن الملكي .

وحملت هذه الغزوة الموقعة وما نشب بيد الأمراء المسلمين من معارك ، وما كان من تنافسهم على ابتياع العون من ملك النصارى ، فرديناند على التفكير في مشاريع أخرى ، أهم وأبعد مدى ؛ فسار في العام التالي (سنة ١٠٦٤) إلى مدينة

(١) لم نجد في المراجع العربية ذكراً لهذه الواقعة . ويقول لنا المؤلف في تعليقاته إنه نقل هذه الرواية عن كوندى .

قلمرية (قوامبرة) في البرتغال ، واستولى عليها بعد حصار دام ستة أشهر ، وأرغم أمير بطليوس كما أرغم أمير إشبيلية من قبل ، على دفع الجزية^(١) ، وقدم إلى كنيسة ياقب (شدت ياقب) حامي اسبانيا قسطاً كبيراً من الفنائم ؛ ثم سار إلى ولاية بلنسية وافتتحها لحساب تابعه وحليفه المأمون بن ذى النون أمير طليطلة ، واختص نفسه بلاريب بقسط من ثمار ظفريه ؛ ثم عاد الملك الشيخ إلى ليون عاصمة ملكه مثقلاً بالفنائم وهو شاعر بدو أجله . ولما اشتد عليه المرض طلب أن يحمل إلى كنيسة يوحنا المعمدان الجديدة ، وكانت حافلة بآثار القديسين . وهناك وضع الجواهر الملكية والتاج والصولجان على الهيكل الكبير ، وجثا مصلياً وهو يقول : « رباه لقد منحتني القوة والشرف ، وأنا اليوم أردتها إلى يديك فامنحني غفرانك ورحمتك » ، ثم أمر أن يلبس الملابس الخشنة وأن يحثي المهشم على رأسه . وما كاد يحمل إلى قصره حتى توفي في اليوم التالي في ٢٧ ديسمبر سنة ١٠٦٥ م بعد أن حكم قشتالة سبعة وثلاثين عاماً ، وحكم ليون وتوابها ثمانية وعشرين عاماً ..

وكان فرديناند الأول من أعظم ملوك اسبانيا ؛ وقد ظفر في جميع الحروب التي خاضها ، وأرغم أمراء طليطلة وإشبيلية وبتليوس على الخضوع ودفع الجزية ؛ ولم يكن في حروبه مع ملوك ليون ونافارا وأراجون ظافراً فقط ، ولكن الحظ حالفه حتى قتل الثلاثة في الحروب التي خسروها ، واستأثر هو وحده باجتناء ثمرات النصر . ولم يك ثمة ريب في أن الأمراء المسلمين الذين أرغموا على أداء الجزية ، كانوا يعتبرون من أتباعه ، ولكن الأمر لم يكن كذلك بالنسبة لسانشو الرابع ملك نافارا وسانشو الأول ملك أراجون ، فهما وإن لم يحكما على جميع الأراضي التي كانت لأبويهما من قبل ، كانا مستقلين عن سيادة قشتالة . ومع

(١) في المراجع العربية أن فرديناند استولى على مدينة قلمرية من يد ابن الأفطس أبوبكر المظفر سنة ٤٥٦ هـ ، وهي توافق التاريخ الميلادي الذي يورده المؤلف (١٠٦٤ م) ، (راجع البيان المغرب ج ٣ ص ٢٣٨ و ٢٣٩) .

ذلك فالظاهر أن فرديناند كان يسمى في أواخر حياته لملهما على أداء الجزية . ومما يدل على ذلك اتخاذ فرديناند لقب « القيصر » وذلك عقب انتصاره على أخيه جارسيا منذ سنة ١٠٥٦ على الأقل . وكان يرى بذلك إلى التدليل على سيادته لجميع اسبانيا ، ويرى بالأخص إلى معارضة دعاوى القيصر هنري الثالث إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة . ولم يكتف في ذلك بالاعتراض بقوة على صفة هنري الثالث كزعيم للأُم النصرانية ، وصاحب الجزية على جميع الملوك النصراري ، ولكنه ذهب إلى حد تأييد البابا إسكندر الثاني ، ضد منافسه البابا هونوريوس الثاني في الانتخاب البابوي ، وهونوريوس هو البابا الذي اختاره الإمبراطور هنري الرابع (سنة ١٠٦١) باعتبارها حامى الكنيسة وفقاً للحقوق التي آلت إليه من أبيه هنري الثالث^(١) .

وكانت خلال فرديناند تحمل طابع عصره بصورة قوية . ففي ميدان الحرب يبدو فارساً أكثر منه ملكاً ، وفي شؤون الدولة نرى البغض الشخصي أو الحب على أهم القرارات . وكان عقب المعارك التي يخوضها مع المسلمين من غير رأفة ولا إنسانية ، يبادر فيأتي أمام هياكل الكنائس والأديار بالهبات الثمينة . وكانت تحمله من أن لآخر نزعاً من التقى والزهد والورع ، فيلجأ إلى دير ساهاجون ؛ وهناك يشاطر الرهبان حياتهم دون فارق ويضع نفسه تحت طاعة كهراء الدير . بل كان أثناء مقامه بقصره في ليون يشهد الصلاة في الكنيسة الكبرى مع الأحرار بانتظام . وكان كثير البر بالفقراء ، ومن ثم نراه يخصص الغنائم التي يحصلها من الحروب بشق النفس ، لتخفيف آلام الفقر والبؤس والعناية بالكنائس والأديار .

(١) كان الإمبراطور هنري الرابع عند اضطراب المركة الانتخابية البابوية بين إسكندر وهونوريوس سنة ١٠٦١ طفلاً في الحادية عشرة ، وكانت أمه الإمبراطورة أنجيس وصية عليه ، ولما انتخب البابا إسكندر الثاني لكرسى البابوية عارض في ذلك حزب الإمبراطورية ولم يعترف به . واختار للبابوية هونوريوس . ولكن هونوريوس لم يكن « بابا » إلا بالاسم فقط ، وقد حاول غير مرة أن يزحف على رومة ليجلس مكان خليفته إسكندر الثاني فلم يفلح ، وتوفي سنة ١٠٧٥ دون أن يجلس بالفعل على كرسى البابوية .

وبالرغم من المحن التي جازتها اسبانيا من جراء انقسام المملكة النصرانية ، فإن أحداً لم يعتبر بهذه الحقيقة . ووقع فرديناند في نفس الخطأ الذي وقع فيه أبوه سانشو الكبير ، وترتب على وقوعه نفس النتائج المحزنة . نعم لقد عنى فرديناند بتربية أولاده أيما عناية ، ولكن ماذا يجدى ذلك في تقويم خالق الجنوبيين المضطرم ؟ وقد حذا فرديناند حذو أسلافه السيئ ، ورأى اجتنباً لكل نزاع بين أبنائه الذين يعرف حدة نفوسهم أن يقوم في حياته بتسوية يحاول أن يحسم بها عوامل النزاع من أساسها . بيد أنها كانت هي سبب الحرب الأهلية فيما بعد . ذلك أنه في سنة ١٠٦٤ قبل وفاته بعام استدعى في ليون مجلساً للشورى ، وفيه قرر بموافقة الأساقفة وكبراء المملكة ، أن يقسم أراضيه بين أبنائه الثلاثة ، فاختص سانشو أكبرهم بقشتالة والسيادة على المسلمين من رعايا صاحب سرقسطة (ابن هود) الذي يؤدي الجزية لقشتالة ويخضع لها . واختص ألفونسو^(١) بليون واشتوريش وحق الجزية السنوية التي يؤديها صاحب طليطلة (ابن ذى النون) ؛ واختص أصغرهم جارسيا بجليقية والبرتغال اللذين ضما إلى مملكة واحدة ، وحق الجزية على أمير إشبيلية (ابن عباد) وأمير بطليوس (ابن الأنطس) ؛ وأسند حق الإشراف على الأديار في جميع المملكة إلى ابنتيه الدونا أوركا والدونا إلفيرا ؛ واختصت أوركا فوق ذلك بمدينة سموره (زامورا) وهي قلعة منيعة على نهر دويرة ؛ واختصت إلفيرا بمدينة تورو وأماكن أخرى على دويرة .

٢ — أبناء فرديناند الأول

سانشو ، وألفونسو ، وجارسيا

واستطاعت أرملة فرديناند الدونا سانشا بما لها من السلطة أن تسهر مذى حياتها على وحدة المملكة ، ولكن ذلك لم يطل سوى عامين . وما كادت أم الملوك

(١) وفي الرواية العربية أذفونش أو أذفونش ، ويسميه ابن خلدون بتسمية أصح هي الفنش (ج ٤ ص ١٨٢) .

الثلاثة تتبع زوجها إلى القبر ، حتى انطلقت أهواء الإخوة الجامحة من عقالها ؛ وكان سانشو ملك قشتالة^(١) الذى استولى أيضاً على جزء من اشتوريش ، وعلى الجزء الذى غنمه فرديناند من نافارا يضطرم سخطاً لأنه وهو أكبر إخوته لم يضع يده على مملكة أبيه كلها ، فحاول بادی 'ذى بدء أن ينتزع من ابني عمه سانشو ملك نافارا وسانشو ملك أراجون ، بعض مدن الأيبرو العليا فلم يفلح ؛ بيد أنه لم يخسر شيئاً من مدنه أو أراضيه فيما يظهر بالرغم من كونه قد هُزم في موقعة مالقديا (قيانا فيما بعد) سنة ١٠٦٧ م . ثم انقلب من هذه الحرب إلى مقاتلة أخويه ألفونسو وجارسيا ، أملاً في أن يخوض معهما معركة يسيرة خصوصاً وقد اغتئم حلف كثير من أتباعهما . ونشبت بين الفريقين مدى ثلاثة أعوام حرب ضروس خربت وديان ليون وقشتالة . والتحم الفريقان في موقعتين دمويتين ، الأولى في بلاتنادا في ليون (١٨ يولييه سنة ١٠٦٨) ، والثانية في جليباريس الواقعة على نهر كاريون في قشتالة (١٥ يولييه سنة ١٠٧١) وتكبد كلاهما خسائر فادحة ، ولكن دون أن يحرز النصر أحد منهما . ولقد كان ألفونسو في الموقعة الأخيرة في مركز المتفوق ، ولكن حرصه على حقن الدماء حال دون تمتعه بشمرات ظفره ، بل أدى إلى اضطراب أمره ؛ ذلك أنه لم يشأ مطاردة جيش سانشو الفار ، وترك جنده الليوينيين والجليقيين يحتفلون بالنصر دون تحوط وتدبر ، ومكن ذلك سانشو من اغتنام الوقت لجمع جنده ثانية ونزل حسبما تقول الرواية عند نصيح قائده « السد » البطل الأشهر ، فانقض على جيش ألفونسو ليلاً وأوقع به هزيمة ساحقة ، واستطاع ألفونسو أن ينجو بحياته ، ولكنه لم ينج من الأسر وأبقى سانشو على حياته ، نزولاً على رجاء أختها الكبرى أوراكا ؛ ولكن ألفونسو اضطر أن ينزل لأخيه عن عرش ليون ؛ وزج إلى ظلمات دير ساهاجون ؛ وهناك استطاعت أخته الماكرة أوراكا أن تدبر فراره ؛ وبادر الأمير الفار بالالتجاء إلى تابعه ابن ذى التون

(١) ويسميه صاحب البيان المغرب شانشه (ج ٣ ص ٣٢) ، ولكن التسمية العربية الغالبة هي شانشه .

صاحب طليطلة فاستقبله بالترحاب والتكريم^(١).

ولم يكن حظ جارسيا ملك جليقية والبرتغال بأفضل من حظ ألفونسو ، وكانت مهمة إسقاطه هيمنة على سانشو خصوصاً وقد قضى بطغياناً واصطفائه لوزير يفضيه الشعب على كل ولاء ومحبة له في أرضه . وما كاد سانشو يظهر على حدود جليقية حتى هب الشعب فقتل ذلك الوزير البغيض أمام عيني ملكه (جارسيا) ، وانضم إلى عدوه (سانشو) كثير من الكبراء والناقلين الذين أعتهم مطاردته . والظاهر أن جارسيا فر دون أن يحاول معالجة حظه بالحرب ، فنادر مملكته في سرية فقط من حرسه ، وسار إلى تابعه ابن عباد أمير إشبيلية ، وهكذا تم لسانشو الاستيلاء على مملكتي أخويه .

ورأى سانشو أن يقطع على أخويه كل سبيل ، وأن يحول دون عودهما مع المرتقة المسلمين أو يجعل على الأقل عودهما أمراً شاقاً ، ولكن كان يعوزه لتحقيق ذلك الاستيلاء على قلعتي سمورة وتورو المنيعتين الواقعتين على نهر دويرة ، وقد كانتا في يدي أخته أوركا وإثيرا ، وهما تعطفان على الأخوين الفارين . كذلك كان قد احتشد في هاتين القلعتين عدد جهم من الفرسان الليونيين والجليقيين يترقبون الفرصة للملازمة لكي يعودوا فيدخلوا أرض الوطن شاهرين الحسام . ورفضت الأختان ما عرضه عليهما سانشو من تمويضهما عن القلعتين بأراض أخرى ، وتدرعتا بالشجاعة فلم تعبأ بما توعد به من أخذها بالنار والسيوف . ومع أن تورو سقطت في أيدي القشتاليين لضعف حصونها ، فإن أوركا سيدة سمورة لم تخش بأساً ، وركنت إلى معونة الفرسان الشجعان الذين يحمونها بقيادة البطل آرياس كوزاليس ؛ وهكذا قامت مدينة واحدة بمقاومة سيد الممالك الثلاث وكانت قبره . ذلك أن سانشو حاول أن ينتزع سمورة عنوة فلم يفلح فعول عندئذ أن يأخذها بالحصار ، ولكنه سقط قتيلاً في كمين نظم لاغتياله (٤ أكتوبر سنة ١٠٧٢) ، ولم يكن بعيداً عن تدبير اخته أوركا أو أخيه ألفونسو أو تدبيرهما معاً .

(١) يشير صاحب البيان المغرب إلى هذا الحادث (ج ٣ ص ٢٣٢) .

وفي الحال ارتدّ الجيش المحاصر هلعاً عن أسوار سمورة عقب وفاة مليكه . وبادرت أوركا فبعثت إلى ألفونسو وهو في طليطلة تنبئه بخلو العرش ، وتدعوه إلى العود بأسرع ما استطاع . أما الروايات التي انتهت إلينا عن حكم الملك سانشو وعن ارتقاء أخيه العرش والتي اشتق معظمها من الشعر والقصص ، فتسبغ على هذه العودة كثيراً من ألوان الخيال المفرق ؛ بيد أنها ليست من التاريخ في شيء . ولقي ألفونسو حين عودته إلى ليون مملكته القديمة اعترافاً تاماً بحقوقه الملكية ؛ ولكنه لقي أعظم الصعاب في قشتالة وفي الأراضي التي كانت تابعة لمملكة نافارا من قبل ، فقد اشترطنا لكي يلي ألفونسو العرش أن يقسم في حفل رسمي أنه يرى من كل تبعة في مقتل سانشو ؛ فلما أعلن ألفونسو استعداده لأداء هذا القسم لم يتقدم أحد من كبراء قشتالة لتلقيه إياه إلا الكونت رودريجو دياز دي بيثار المعروف بالسد الكمبيادور وقائد جيوش سانشو ، فإنه تطوع لأداء هذه المهمة ولقن الملك اليمين مرتين فأدّاها ألفونسو على مضض ولم يغفر للسد قط جرأته ، وهكذا أعلن ألفونسو أيضاً ملكاً على قشتالة .

وفي تلك الأثناء عاد الملك البعد جارسيا (غرسية) أيضاً إلى مملكته جليقية ؛ والظاهر أن نزاعاً نشب بين الأخوين بخصوص قشتالة التي كان جارسيا يدعى جزءاً منها . ونزل ألفونسو على نصيح أخته الساكرة أوركا ، فدعا أخاه إلى لقاء زعم أنه لتسوية النزاع بالتفاهم . ولكن جارسيا ما كاد يمثل إلى مكان اللقاء حتى رأى أنه غدا أسير ألفونسو وأدرك مبلغ خديمته (فبراير سنة ١٠٧٣) ، وأنفق جارسيا في حصن لونا المنيع في ليون زهاء ثمانية عشر عاماً يرسف في أغلاله . ولم يشأ ألفونسو أن يحمل أغلاله خشية انتقامه إلا بعد أن أكد له الأطباء قرب موته . ولكن الأمير المنكود أبى ذلك قائلاً إنه خل أغلاله طوال هذه المدة ، وإنه يريد أن يحملها معه إلى القبر . وفي رواية أنه مجل موته بقطع شرايينه وذهب إلى القبر وهو يلعن أخاه (مارس سنة ١٠٩٠) .

وهكذا فإن ألفونسو السادس لم يعتبر بمحنه وعثار جده ، فيفسدوا أكثر

اعتدالاً ورفقاً ؛ ولكنه استطاع بالخيانة والجريئة أن يجمع الممالك الثلاث تحت عرشه . كذلك استطاع بعد أعوام قلائل أن يضم إلى مملكته بعض أراضي مملكة نافارا الواقعة على نهر أيبرو (أبرة) .

والظاهر أن سانشو الرابع ملك نافارا لم يكن يحكم سوى مملكة صغيرة . ذلك أن فرديناند استولى بعد وفاة أبيه جارسيا على الأراضي الواقعة على ضفة أيبرو اليمنى ، ولم ينل سانشو عرشه إلا بفضل مناعة جباله وتعلق شعبه به . كذلك لا ريب في صحة الرواية القائلة بأنه عقد حلفاً مع مسلمي سرقسطة ضد أراجون . ذلك لأنه كان يخشى من هذا الجانب أكثر مما كان يخشى من جانب قشتالة . ولم يكن يجمع كلمة الأسماء فيما وراء البرنيه سوى خصومة قشتالة . أما فيما عدا ذلك فقد كانوا يخاضعون بعضهم بعضاً ، وكان سانشو يكفل بذلك حماية عرشه من الأعداء الخارجين . بيد أنه لقي مصرعه على يد أقرب الناس إليه . ذلك أن ريموند وأرمزده — أسوة بما فعله ألفونسو وأوراكا ضد سانشو ملك قشتالة — أملا أن يحققا بالاغتيال مثل هذه الأمنية . فحدث أثناء الصيد أن كان الملك يرقب من صخرة عالية أفقية مصرع خنزير برى ، فانقض عليه القتل وطعنوه من وراء وألقوا به من حلق فسقط مهثماً (سنة ١٠٧٦ م) . ولكن النافاريين سخطوا لهذه الجريمة أيما سخط ، ورفعوا إلى العرش سانشو الثاني ملك أراجون ، وذلك بالرغم من استدعاء ريموند ملك قشتالة القوى . ونفذ ملكا أراجون وقشتالة إلى نافارا وتفاهما على اقتسامها بالرغم من وجود ولدى الملك القتل القاصرين . فاستولى الفونسو على القسم المحاذي لنهر أيبرو المشتغل على ولايتي ريويابسكونية واستولى سانشو على الجزء الواقع على البرنيه ، وهو أكبر القسمين وفيه العاصمة بنبلونة ، وفر ريموند إلى أمير سرقسطة حيث قضى حياته المثقلة باللعن في غمر الظلام . أما ولدا سانشو الرابع فقد أبقاهما ألفونسو في ليون لينشأ في بلاطه .

٣ — ريموند برنجار الأول كونت برشلونة

بينما كانت الممالك الأسبانية تتحول على هذا النحو بالإرهاب والعنف والقتل والحرب الأهلية إلى مملكتين هما قشتالة وأراجون ، ويحرز سلطان النصرانية بذلك تفوقاً ذا شأن على سلطان المسلمين ، كانت أسبانيا النصرانية تاقى عضداً في ولاية برشلونة أو قطلونية التي كان يحكمها طوال هذه الفترة الكونت ريموند برنجار المسمى ريموند الكبير (من سنة ١٠٣٥ — ١٠٧٦ م) . ولم يظهر الكونت فقط كأحد حماة النصرانية يقاتل المسلمين بشجاعة ، ويتنزع منهم الأراضي الواقعة على الضفة اليمنى لنهر « لورجات » ، ويفرض الجزية على صغار أمراءهم المجاورين له ، ولكنه استطاع أيضاً أن يزيد في قوة إمارته وذلك بأن ضم إلى برشلونة ولاية أوجرل مرة أخرى ، ثم ضم إليها ولاية قرقشونة^(١) الواقعة في الناحية الأخرى من البرنية ، وذلك بشرائها من ابنتي صاحبها الكونت روجر الثالث (سنة ١٠٦٧) . ولم يكن ضم هذا الجزء الهام من أراضي لانجدوك إلى قطلونية فقط ممهداً الطريق لغنم أعظم ، ولكنه أسفر بالأخص عن نتيجة كانت فيما بعد ذات أهمية خاصة وهي إعادة الصلة بين فرنسا وقطلونية ، بعد أن انقطعت من بينهما منذ استقلال قطلونية ، وتهيئة السبيل بذلك لنزوح الفرسان الفرنسيين المجاهدين الذين ألفوا في محاربة المسلمين مطمح مثلهم الخيالية ، والذين هرعوا في سرايات كبيرة لمساعدة أمراء أسبانيا النصارى ، في حروبهم ضد المسلمين وعاونوهم على تحقيق أعظم الفتوحات .

كذلك كانت قطلونية فيما يتعلق بالإصلاحات الداخلية قدوة تحتذى لجميع أسبانيا ، فقد رأى ريموند برنجار أن القوانين القوطية التي تطبق في الولاية لم تعد تتفق مع سير الأحوال فاستدعى جمعية من الكبراء عقدت في برشلونة سنة ١٠٦٨ ، ووافق هذا البرلمان الذي شهدته زوجه وواحد وعشرون من الكبراء على لائحة

(١) هي كاركاسون الحديثة (Carcassonne) ، وهي من مدن البرنية الفرنسية .

جديدة تسمى « عرف برشلونة » (Usages de Barcellona) لتكون قانوناً يطبق إلى جانب القانون القوطى الذى كان يطبق وحده من قبل . كذلك حاول ريموند أن يحد من حق القوة الذى كان يلجأ إليه الفرسان فى غاراتهم ، وذلك بواسطة الاحتكام إلى « سلام الله » ، واستدعى لذلك جمعية أخرى شهدها فضلاً عن الكبراء والأخبار نواب عن المدن وهى أول جمعية أوربية مثلت فيها الطبقة الثالثة . وأعيد حق الالتجاء إلى الكنيسة الذى نبذه الفرنج ، واتخذت قرارات للبر بالمساكين والعزل ، وحماية الزراع من ظلم الأقوياء .

أما الحملة التى بعثها الكونت ريموند لمعاونة أمير إشبيلية على افتتاح بلنسية من يد أمير طليطلة ، فترتبط ارتباطاً شديداً بتاريخ الإمارات المسلمة ، ومن ثم فإنه يجدر بنا أن نقص تاريخ هذه الإمارات بادىء ذى بدء^(١) .

(١) يجمال ابن خلدون تاريخ إمارة برشلونة فى فقرة موجزة فى ختام حديثه عن الممالك النصرانية (ج ٤ ص ١٨٥) .

الفصل الثاني

تاريخ الدول الإسلامية

التي قامت على أنقاض الدولة الأموية في اسبانيا

كانت أسرة أمية ذات الحول والسلطان — وهي التي بسطت خلافتها من دمشق ، حكمها على العالم الإسلامي ، والتي استطاعت بعد سقوطها على يد بني العباس ، أن تحكم اسبانيا أحد أقطار دولتها الشاخنة ، وأن تقيم بها دولة باهرة ، ظلت بضعة قرون — قد انتهت رياستها كما ينتهي كل شيء في هذا العالم وحاق النقمة بمقبتها ، ففاضوا في زوايا التاريخ دون أن يتركوا لهم أثراً .

وإن دولة تسقط صرعى نقائصها ، وليس من جراء ظفر أعدائها الخارجين ، لا تثير في الواقع كبير عطف . بيد أنه مما يدعو إلى التأمل ، أن يكون سقوط الدولة القديمة ، مهداً لنشوء بذور وحدات جديدة . ذلك لأن كل هدم في الواقع إنما هو عمل من أعمال الإنشاء والتجديد .

لقد ذهبت الخلافة الأموية في اسبانيا ضحية لغطرسة الحرس الخلفي وبغيه ، وأطاع الولاة ، وانحلال شعب فقد حبه وولاءه للأسرة الحاكمة القديمة ؛ فمن كان ذا بأس ووجهة كان ينجح إلى استخدام قواه ، لافي سبيل الدولة ، وإنما لتحقيق مجده الشخصي . وهذه الأحزاب التي تقاسمت أشلاء الدولة وقادتها بذلك إلى الدمار ، لم تمت بذهاب الدولة الأموية ، وإنما كان ذهابها في الواقع بدء النضال فيما بينها ؛ وانقسمت الدولة الإسلامية في اسبانيا بادي ذي بدء إلى دويلات

عديدة حتى كان لكل مدينة تقريباً أميرها المستقل ، متخذاً لقب الملك أو الأمير أو الوالى أو القاضى ، تبعاً لحجم المدينة أو المنطقة التى يحكمها . ولكن سرعان ما تبين أن هذه الحال لا يمكن أن تطول ؛ أولاً : لما كان يجيش به الجميع من الأطماع ، وثانياً : لتباين القوى والرياسات . ذلك أن الأقوى كان يحاول أن يبطش بالأضعف ، فيحاول الأضعف أن يدرأ الخطر بالتحالف مع جار أقوى ، يندو تابماً له ويماونه على إحراز النصر على عدوها المشترك أو يهزم معه . هذا إذا لم تنجده معونة الأمراء النصارى ، وهى معونة يؤجرها بثمن غال .

وهكذا تكونت بعد معركة دامية بين الأحزاب ، من هاته الدويلات الإسلامية العديدة ، أربع دول رئيسية غلبت على جميع الدويلات الأخرى أو تحالفت معها . ففي جنوب اسبانيا ، فى غرناطة وفى جزء من الأندلس غلب الحزب الأفريقى (المغربى) الأدارسة أو بنو حمود أصحاب مالقة ، وحالفهم أميراً غرناطة وقرمونة ؛ وكانوا فضلاً عن ذلك يحكمون عدة مدن فى شمال المغرب مثل مليلة وطنجة وسبتة . وكان بنو عباد أمراء إشبيلية يخوضون الحرب مع الحزب الأفريقى بلا انقطاع حتى تم لهم الظفر . وكانوا قد غلبوا بالحرب والحديمة على جميع الأمراء والولاة فى جنوب غربى اسبانيا . واضطر أميراً قرطبة وبطليوس إلى الانضواء تحت لوائهم حلفاء أو مغلوبين ، ولم يقف فى سبيل محاولة بنى عباد الاستيلاء على اسبانيا المسلمة كلها سوى بنى ذى النون أمراء طليطلة الأقوياء ، الذين حكموا أواسط أسبانيا . بيد أنهم لم يحققوا ذلك إلا على حساب استقلالهم . ذلك أنهم كانوا يدفعون الجزية لملك قشتالة التماساً لمونه ضد خصومهم . وأما الفريق الرابع الذى حكم فى شرق اسبانيا فكان أضعف من الباقين وحدة وأقلهم استقلالاً . ذلك أنه كان طبقاً للظروف يعقد التحالف مع الأدارسة أو مع بنى عباد أو مع بنى ذى النون . وكان بنو عامر فى بلنسية ومرسية نظراً لموقعهما الجغرافى أكثر اضطراباً لهذا القلب من بنى هود والتجيين ، سادة سرقسطة وتطيلة ووشقة .

١ — الأدارسة أو بنو حمود

وحلفاؤهم في جنوبي اسبانيا

كان الأدارسة الذين يرجعون نسبهم إلى علي بن أبي طالب وفاطمة ابنة النبي (ص) قد أسسوا منذ أواخر القرن الثامن الميلادي دولة في المغرب كانت عاصمتها فيما بعد مدينة فاس . وقد سقطت دولتهم تحت ضربات الدولة الأموية الأندلسية والدولة الفاطمية اللتين تعاقبتا في غزوها وإخضاعها في القرن العاشر ؛ وعاش بعض أفراد الأسرة المعزولة في مصر والمغرب واسبانيا . فلما اضطرت اسبانيا المسلمة في أوائل القرن الحادي عشر ، بالحرب الأهلية ، ولّى بعض الأحزاب المتنافسة عليّ بن حمود سليل الأدارسة الذي كان حاكماً لسبتة ، قيادة الجيش الأفريقي (المغاربية) ، (وكان أخوه القاسم بن حمود قد ولى في عهد الخليفة هشام المؤيد ولاية الجزيرة ومالقة) ، ثم نادوا به خليفة وحاكماً لاسبانيا المسلمة (١٠١٥ م)^(١) . ومن ذلك الحين سمي الأدارسة بالأندلس بالعلويين أو بنو حمود . ومع أن علياً لم يلبث أن مات بعد ذلك بعامين ، في مؤامرة دبرت لقتله ، فإنه كان قد وطد العرش لأسرته ، وانتخب للعرش بعده أخوه القاسم بن حمود ، ولكن حدث لسوء الحظ أن اضطرم الصراع حول العرش بين القاسم وبين ابن أخيه يحيى . ففقد بنو حمود الخلافة ، واستردّها الأمويون لدى قصير^(٢) . وانقض

(١) تولى علي بن حمود الخلافة في المحرم سنة ٤٠٧ هـ ، وهو ما يوافق يونيه سنة (١٠١٦ م) ، وتلقب بالمتوكل على الله .

(٢) كان خروج يحيى بن حمود على عمه القاسم الملقب بالمأمون في سنة ٤١٢ هـ ، وفرّ القاسم من قرطبة ودخلها يحيى وتلقب بالعتلى ؛ ثم عاد القاسم فدخل قرطبة في ذى القعدة سنة ٤١٣ هـ ، واسكن اضطراً إلى مغادرتها لثورة قامت بها في جمادى الثانية سنة ٤١٤ هـ . وعول أهل قرطبة على رد الأمر لبني أمية ، وبايعوا عبد الرحمن بن هشام المستظهر في رمضان سنة ٤١٤ هـ ، فلم يلبث أن خرج عليه من أسرته حفيد للناصر يدعى محمد بن عبد الرحمن فقتله لثلاثة أشهر من ولايته ، وجلس على العرش وتلقب بالمستكني بالله ، وهو والد ولادة الشاعرة الأندلسية الشهيرة ، ولكنه أقصى عن قرطبة لسته أشهر فقط من خلافته ، ثم اغتاله أحد أنصاره . وعادت قرطبة إلى طاعة يحيى المعتلى ؛ ثم خرجت عن طاعته ، ورد الأمر =

من حول القاسم جميع أنصاره ، ووقع في أسر ابن أخيه يحيى بن علي . ولم يستطع يحيى أن يسترد خلافة قرطبة بادي ذي بدء ، ولكنه استطاع أن يحتفظ بأراضيه وثرى مالقة والجزيرة وبطنجة وسبتة في إفريقية . ولما عادت قرطبة إلى طاعته للمرة الثانية واتخذ لقب الخلافة مرة أخرى ، ثار عليه والي إشبيلية القوي القاضي ابن عباد ، ونشبت بينهما حرب قتل فيها يحيى (٤٢٧ هـ - ١٠٣٦ م) . وأقام أخوه إدريس نفسه أميراً مستقلاً على مالقة والجزيرة وبعض ثغور العدو المقلبة الجنوبي إسبانيا ، وذلك أثناء خلافة هشام الثالث (المتعمد بالله) بعد نفيه من قرطبة . واشتهر إدريس من بين ألقابه المتعددة بلقب المتأيد بالله .

وتاريخ إدريس هذا ، وتاريخ خلفائه ، فياض بالتناقضات ؛ والروايات العربية المختلفة لا تتكاد تتفق في شأنه على شيء ، بل إنها لا تتفق حتى على تعاقب الأمراء ، وعلى مدد حكمهم ؛ فالحروب المستمرة بين الأدارسة أنفسهم في سبيل السلطان ، وتداول الملك بالسيوف ، وانقسام الأسرة الحاكمة إلى فرعين ، أحدهما مركزه في مالقة ، والآخر في الجزيرة ، وعود الأمراء المزعولين إلى العرش ؛ واتحاد الأراضي المنفصلة تحت حكم أمير واحد ؛ ذلك كله مما يلقي كثيراً من الغموض على تاريخه لا نعرفه سوى معرفة ناقصة مما انتهى إلينا من الشذور والروايات المشوهة^(١) .

ومع أن إدريس المتأيد أحسن السيرة في حكمه (سنة ١٠٢٧ - ١٠٣٩ م) ، وحاول أن يهدئ ثورة الأنفس باستدعاء الأمراء المنفيين ، وإعلان العفو الشامل ؛ ومع أن الشعب قد أحبه لكثرة بره وإحسانه ، وأحبه العلماء والمثقفون لتعظيمه العلوم والآداب ، فقد ثار عليه ابن عمه محمد بن القاسم بن حمود ، واستطاع بواسطة

١- لبنى أمية مرة أخرى ، وبيع هشام بن محمد الأموي ، ودخل قرطبة سنة ٤٢٠ هـ . وتلقب بالمتعمد بالله ، وخلع بعد عامين لولايته ، ففر إلى الثغر الأعلى ولحق بابن هود صاحب سرقسطة حتى توفي سنة ٤٢٧ هـ ، وهو آخر ملوك بني أمية بالأندلس .

(١) الواقع أن الروايات المتعلقة بتاريخ الأدارسة في الأندلس كثيرة الغموض والتناقض . ويراجع في ذلك ابن الأثير ج ٩ ص ٩٢ - ٩٦ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٥٤ و ١٥٥ و ج ٦ ص ٢٢١ ، وأبو الفداء ج ٢ ص ١٤٥ و ١٤٦ ، ونفح الطيب ج ١ ص ٢٠٢ و ٢٢٤ و ٢٢٥ ، والمراكم ص ٣٣ - ٣٩ .

الجند الرقيق الذين كانوا يؤلفون بالجيش فرقة خاصة أن يستولى على الجزيرة ، وأن يقيم بها حكومة مستقلة . ثم إن ابني أخيه يحيى وهما إدريس والحسن ، وكانا معتقلين بسبته ، استطاعا أن يفرا من سجنهما بمؤازرة بعض الزعماء من حراسهما لقاء أمل في تحقيق جاه أو مطمع ؛ وفي تلك الأثناء قتل إدريس التأييد ، وليس بعيداً أن يكون قتله أمراً مدبراً ؛ ولكن إدريس والحسن اختلفا على الملك واقتتلا . فأما إدريس وهو الملقب بالعالى ، فقد أيدته القائد ابن بُقْتَنَه في مالمقة وأعلنه أميراً عليها . وأما الحسن فقد أعلنه الحاجب نجبا الصقلي أميراً على سبته ؛ ثم جاز إلى أسبانيا يحاول الاستيلاء على مالمقة ؛ فلما لم يوفق في محاولته ، رأى أن يقنع بمقد معاهدة تقسم بها أراضي المملكة ، ويحتفظ بمقتضاها إدريس بن يحيى بمالمقة وما إليها ؛ ويحتفظ الحسن بن يحيى بالثغور الأفريقية ، وسرعان ما ظهر أن الحاجب نجبا إنما يعمل لنفسه . ذلك أنه لم يمض سوى قليل حتى قتل الحسن في سبته بتعريضه ، بعد أن اتخذ كل أهبة لإنجاح مشروعه الفادر . وتزوج من أرملة الحسن ، واستولى على أراضي الأدارسة في إفريقية بواسطة جيش ضوعفت أرزاقه ونادى عليها بإمارة محمد بن القاسم (المهدى) أمير الجزيرة ، وقد تردد في البداية بين قبول الإمارة تحت ظل الحاجب القوى وبين معاونة بنى عمه . ولما وطد نجبا سلطانه في إفريقية ، عبر البحر في أسطول كبير إلى أسبانيا ، واستطاع بالغدر والخيانة أن ينتزع مالمقة ، وأن يأسر إدريس بن يحيى (سنة ١٠٥٣ م) .

فلما وقف محمد بن القاسم أمير الجزيرة على فعلة الحاجب ، بادر بالزحف في جنده إلى مالمقة ليعاقب العصاة ، ولم يذخر الحاجب وسماً في التأهب لمحاربتة . بيد أنه مالبث أن رأى في روع تردد الجند في تأييده ، فاضطر أن يسعى لسلامة نفسه ، وبادر إلى مالمقة لكي يقضى على الأمير الأسير إدريس بن يحيى ، ثم يمتنع هنالك حتى يأتيه المدد من إفريقية ؛ بيد أنه قُتل قبل أن يصل إلى المدينة بيد جماعة من الزعماء الموالين للأدارسة ؛ وفي الحال بادر هؤلاء إلى مالمقة فأطلقوا سراح إدريس بن يحيى المعتلى ، ورفعوه إلى العرش مرة أخرى (أواخر سنة ١٠٥٣ م) .

ولم يكن باديس المظفر أمير غرناطة أقل عوناً لإدريس على استرداد عرشه من الزعماء الأدارسة . ومن ثم فإنه يبدو من الخطأ الواضح ما تذهب إليه بعض الروايات العربية من أن الأمير باديس صاحب غرناطة قد افتتح مالقة ونزع إدريس عن عرشه (في سنة ١٠٥٣ م) ^(١) . وحكم إدريس الثاني بعد ارتقائه للمرة الثانية عدة أعوام ، وبسط سلطانه على جميع الأراضي التي كانت تابعة للأدارسة ، ومنها الجزيرة انتزعها من محمد المهدي لما أساء في حقه ، ونفاه إلى إفريقية . بيد أنه مالبث أن ذهب ضحية لبغض أسرته ؛ ذلك أن محمد بن إدريس وهو من عقب محمد ابن القاسم بن حمود صاحب الجزيرة ائتمره ونزعه عن العرش وألقاه إلى السجن ، فلبث يرسف فيه أعواماً حتى توفى سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٨ م) . ولسنا نعرف إن كان محمد هذا هو نفس محمد المهدي الذي تولى الحكم قبل ذلك بأعوام ، ثم أسقطه إدريس بمعاونة صاحب غرناطة ، وبعث به إلى المنفى في إفريقية ؛ فإنه من المتعذر علينا أن نتحقق من ذلك نظراً لتماثل الأسماء وإيجاز الرواية وغموضها ^(٢) . وقد كانت هذه المعارك المستمرة بين الأدارسة أنفسهم أهم الأسباب التي أدت إلى سقوط دولتهم على يد بني عباد أمراء إشبيلية ، الذين استطاعوا بما لهم من قوة شاحخة ، أن يبسطوا سلطانهم على جنوب أسبانيا كله . وخلف محمد القاسم أكبر أولاده الثمانية وتلقب بالمستعلي ، وأنفق كل وقته في حروب مستمرة مع إشبيلية ، وسقطت الجزيرة في يد بني عباد سنة ٤٦٤ هـ (١٠٧٢ م) ^(٣) ؛ ثم سقطت مالقة في

(١) لم يذكر لنا المؤلف أين استقى هذه الرواية . على أنه يلوح لنا أن الأمر قد اختلط عليه هنا ، والواقع أن باديس صاحب غرناطة قد استولى فعلاً على مالقة ، ولكن بعد ذلك بأعوام قلائل إذ انتزعها من يد محمد بن إدريس المستعلي سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٧ م) ، والمستعلي هو آخر من تولاها من بني حمود (راجع نفع الطيب ج ١ ص ٢٠٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٢١٨) .

(٢) محمد بن إدريس المشار إليه هنا إنما هو شخص آخر وهو الملقب بالمستعلي . أما محمد ابن إدريس الأول فهو الملقب بالمهدي ، وكانت ولايته سنة ٤٣٨ — ٤٤٦ هـ (١٠٤٧ — ١٠٥٤ م) .

(٣) القاسم المشار إليه هنا هو القاسم بن محمد بن حمود ، وهو آخر ولاية بني حمود ولم =

أيديهم بعد ذلك بثلاثة أعوام . وعندئذ اضطر الأدارسة إلى الفرار إلى إفريقية . حيث بقيت لهم بعض الثغور . أما سلطانهم في اسبانيا فقد انتهى من ذلك الحين . وكان حلفاء الأدارسة أمراء مالقة وأتباعهم في معنى من المعاني ، أمراء غرناطة وألبيرة وجيَّان وأصحاب قرمونة واستجبه ؛ وكان هؤلاء يشدون أزر مالقة في حروبها مع إشبيلية ؛ وكان مؤسس إمارة غرناطة الزعيم البربري زاوى بن زيري بن مناد الصنهاجى الملقب بالمنصور ؛ وخلفه في حكمها ابن أخيه حبوس بن ماكسن (٤٢٠ هـ — ١٠٢٨ م) على أن يبقى مرتبطاً بمخالفة مالقة على محاربة قرطبة وإشبيلية ، وقد كانتا مصدرراً لأعظم خطر على غرناطة ؛ ومن ثم بادى حبوس وأمير مالقة ، إلى إغاثة محمد بن عبد الله البرزالي أمير قرمونة واستجبه ، حينما هاجمه ابن عباد أمير إشبيلية ، فبعد أن افتتحت قرمونة ، وحوصرت استجبه ، ظهرت في الميدان أمداد مالقة وغرناطة ؛ ومع أن بداية المعركة كانت سيئة بالنسبة للجيش المتحالفة ، فإن أمير غرناطة الذى اشتبك بجيشه في معركة دموية ضد الإشبيليين استطاع أن يوقع بهم هزيمة فادحة وأن ينقذ قرمونة . بل استطاع أن يوغل في أراضى صاحب إشبيلية وأن يشخن فيها ؛ على أنه حدث بعد ذلك أن اضطرت مالقة بالقلال عقب موت إدريس المتأيد ؛ وكذلك توفى حبوس بن ماكسن روح هذه الحركة (٤٢٩ هـ — أواخر سنة ١٠٣٨) فدب الخلاف بين الجيوش المتحالفة وأخذت ترى بعضها بعضاً بالخيانة ، وأصبح من اليسور على الإشبيليين عندئذ أن ينهزوا هذه الفرصة لتنظيم قواهم المختلة . وخلف حبوساً ولده باديس المظفر ، فعنى بادى ذى بدء بتوطيد سلطانه قبل أن ينزل إلى ميدان الحرب واستطاع إدريس الثانى (العالى) بمعاونته القوية أن يستعيد عرشه في مالقة ؛ ولبث باديس مدى حكمه الطويل (من سنة ١٠٣٨ إلى سنة ١٠٧٢ م) في حرب دائم مع إشبيلية يقتتل مع بنى عباد بلا انقطاع ، بالتحالف مع أمراء مالقة وقرمونة واستجبه ؛

== يتلقب بالمستعلی ، وكانت ولايته فاصرة على الجزيرة وحدها . وقد نزعا منه المعتضد بن عباد سنة ٤٤٩ هـ أو سنة ٤٥٠ هـ (سنة ١٠٥٨ م) ، وليس في سنة ٤٦٤ هـ كما يقول المؤلف .

وحدث أن هزم إسحاق بن سليمان الذي خلف محمد البرزالي في حكم قرمونة ، وأخذت المدينة (سنة ١٠٥٣م) ، ولم يستطع حلفاؤه استعادتها يومئذ من صاحب إشبيلية ، ولكن بنى عباد لم يستطيعوا أن يحققوا لأنفسهم ظفراً يذكر ضد جيوش غرناطة ومالقة ؛ ومن ثم فقد عمدوا بالخيانة والدس إلى إثارة الخلافات الداخلية ، لا فيما بين الحلفاء وحدهم ، بل وفي قلب الأسر الحاكمة ذاتها ، لكي يحطموا بذلك قوى خصومهم ؛ ومن الواضح أن اضطراب سلطان الأدارسة من جراء تقلب العرش بتلك الصورة المنيعة ، يرجع بالأخص إلى الدسائس الخفية التي كان يحوكمها أمراء أشبيلية .

فلما انتهز الأمير محمد المعتمد صاحب إشبيلية فرصة الاضطراب في جنوب اسبانيا ، واستولى على الجزيرة واستجبه ومالقة (سنة ١٠٧٥م) وقضى بذلك على سلطان الأدارسة وأتباعهم أصحاب استجبه ، أضحت غرناطة وما يتبعها من أراضي أليرة وبياسة وجيان على وشك الوقوع في قبضة الفاتح ، ولكن وقوع إشبيلية نفسها في يد ألفونسو السادس وحليفه الأمير المأمون بن ذى النون صاحب طليطلة ، اضطر بنى عباد أن يتركوا فتوحهم في ولاية غرناطة ؛ وكان يحكم غرناطة يومئذ أمير ذكى شجاع هو عبد الله بن بلسكين بن باديس خلف باديس المظفر وحفيده ، وكان قد استقل بعد ذهاب دولة الأدارسة بغرناطة وجيان وبياسة وأليرة واستمر في حكمها حتى نزع المرابطون سلطانه عنها .

٢ — بنو عباد ملوك إشبيلية وحلفاؤهم بنو جهور أصحاب قرطبة

وبنو الأفطس أصحاب بطليوس في جنوب غربي الجزيرة

كان أمير إشبيلية أقوى ملوك الطوائف أو أمراء أسبانيا المسلمة ، الذين قاموا على أنقاض الخلافة الأموية . وينتمى بنو عباد إلى أصل من أصول الشام . وقد وفدت أسرهم إلى الأندلس في أواسط القرن الثامن (الميلادي) . ولما قامت الحروب الأهلية التي أدت في أوائل القرن الحادى عشر إلى سقوط الدولة الأموية

ظهر عميدهم إسماعيل بن عباد بين زعماء الأندلس بالحكمة والثراء والوجاهة الملوكية . وكان المبهدون من قرطبة يلقون منه في إشبيلية كل عون وحماية . وقد اصطنع لنفسه بفيض جوده ، ورقة خلالة ، كثيرآ من الأصدقاء والأتباع . وهذا النفوذ الكبير الذى كان يتمتع به إسماعيل ، هو الذى حمل الخليفة الإدريسي ، القاسم ابن حمود على أن يعتمد على معاونة إشبيلية ، وعلى أن يعين ابنه أبا القاسم محمدآ ، من بعده والياً لإشبيلية . فلما اضطرت الحرب الأهلية ، واضطر الخليفة ، أن يغادر الحاضرة قرطبة ، استخلص محمد لنفسه سيادة إشبيلية بالعرف والعنف والخدمة (سنة ٤١٣ هـ — ١٠٢٢ م) وعاونوه في مشروعه جماعة من الزعماء الأقوياء ، فأقطعهم بعض الأراضى على أن يؤدوا له الجزية ؛ وهكذا وثق علاقتهم به وضمهم إلى جانبه . ومع أنه يدين إلى الأدارسة قبل كل شىء بولايته ، فإنه ما لبث أن انقلب عدوهم الألد . ولم يقتصر على أن كان أول من جاهر بالثورة والانفصال عن خلافة قرطبة ، بل استطاع أيضاً أن يظهر تفوقه على الخليفة يحيى بن على بن حمود في معركة نشبت بينهما بجوار إشبيلية هزم فيها الخليفة وقتل (سنة ١٠٢٦ م) واستمر محمد من بعد ذلك يسطر سلطانه على نواحي الأندلس ، بينما كانت البقية الباقية من بنى أمية في قرطبة تمزق بعضها بعضاً ويخرج الحكم من يدها .

ولما اضطر هشام الثالث آخر الخلفاء الأمويين ، إلى الفرار من قرطبة من جراء خيانة وزرائه وبطائنه ، قبض على زمام الحكم أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور ، وكان كأسلافه من أكابر رجال الدولة ؛ وكان قد ولى الوزارة أو الحجابة لهشام وقبض على زمام الحكم من قبل . فلما خلا العرش طمح إلى استخلاص الملك لنفسه ، وهى غاية كانت تقتضى كثيراً من الحكمة والبراعة والدهاء فى مثل هذا الطرف الذى اضطرت فيه العواصف بين مختلف الأحزاب ، وأراد كل أن يأمر ، ونكل الجميع عن الطاعة .

ورأى ابن جهور أن يضم الزعماء المتوئمين الطامعين إلى حكومته ، وأن يكبح جراح الأحزاب ، فدعا العظماء إلى مشاركته فى شؤون الحكم ، وبذا أنشأ للدولة

نوعاً من الدستور الأرستقراطي ، وهو نوع من نظم الحكم يندر أن نراه في الدول الإسلامية ، ولم يتمتع قط بحياة طويلة . وقد انتهى ابن جهور نفسه إليه بتأثير الظروف . ذلك أنه كان من حسن السياسة أن يكسب صداقة الزعماء الأقوياء الذين لم يك من الميسور إخضاعهم بقوة السلاح ، بمنحهم بعض الامتيازات ، وإشراكهم في مجلس الدولة . وكانت هذه « الجماعة » التي ألفت من أكابر رجال الدولة وأوجههم ، تختص بالنظر في شؤون الدولة العليا . وكان ابن جهور يعتبر لها رئيساً فقط . بيد أنه ما لبث أن اتخذ منها في يده أداة يوجهها كيف شاء . وكان لهذا النظام ميزة خاصة ، هي أن يستطيع أن ينسب إلى هذا المجلس الأعلى من تصرفات الحكومة ، كل ما هو بغيض وصارم ، وأن ينسب لنفسه منها ، ما يقبله الشعب ويرضاه . بيد أنه لا ريب أيضاً أنه استطاع أن يغم رضى القروطين بما حققه من إصلاحات عديدة . ذلك أنه خفض الضرائب الفادحة التي كان يقتضيها بذخ الأمويين وتبذيرهم ، تخفيضاً عظيماً ، وألغى البعض منها بتاتا . وسار في حياته الخاصة سيرة قناعة ومجانبة للإسراف ، وجنح إلى البساطة والاعتدال . بل لقد أبى بأدى ذى بدء أن يسكن في القصور الملكية ، تفادياً لما يقتضيه ذلك من كثرة الحشم ، واستطاع أن يحقق بإقالة رجال الحاشية ، وهم جبهة كبيرة ، وفراً عظيماً في النفقة . وأصلح القضاء الذي انهارت دعائمه في أواخر الدولة الأموية من جرّاء انتشار التجسس والرشوة ، وأقام جماعة قليلة من المحامين ذوى رواتب كالقضاة ، ألفوا مصالحهم في سرعة إنجاز القضايا ، وتبسيط سير العدالة بقدر المستطاع . ورأى فيما يتعلق بمزاولة الطب ، أن يبعد عن المدينة كل الأدعياء وألا يسمح بمزاولته إلا لمن جاز الامتحان أمام لجنة من أكابر الأطباء . وأنشأ شرطة بارعة تسهر على حسن تموين المدن بالمواد الغذائية ، وعلى رخص أسعارها . وعهد إلى الجند الشعبي (المليشيا) الذي درب خلال الحرب الأهلية بالسهر على أمن المدينة وسكينةا . ورصد إيرادات الدولة ونفقاتها في جرائد سنوية تذاع على الشعب ، وفرض على جباة الضرائب والمكوس (الجمارك) رقابة

صارمة . وهكذا تمتعت المدينة التي عانت مصائب الحرب الأهلية حقبة طويلة بنعم السلام والرخاء في ظل حكومة رفيقة عادلة ، وازدهرت العلوم والتجارة والصناعة ، وقامت فوق الأطلال الدارسة والميادين الخربة مرة أخرى ، أبنية شاذة يعمرها قوم سمداء يدعون لسلطانهم بطول البقاء^(١) .

وإذ كانت قرطبة من قبل عاصمة اسبانيا المسلمة فكذلك كان جمهور يطمح إلى توسيع سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يغدو مثلاً كان عليه سلطان الأمويين من قبل ؛ وكانت هذه أمنية جريئة خصوصاً إذا ذكرنا أن سلطانه لم يكن يشمل بعد قرطبة سوى مدن قلائل ، وأن ولاية الأقاليم الذين أقاموا أنفسهم أمراء مستقايين كان في وسعهم أن يردوا أطلع جمهور عن أراضهم بالسيف . والواقع أنه لم يك ثمة عماد لأي حق أو دعوى في السلطان سوى القوة والعنف . ولما أرسل جمهور إلى أمراء مالقة وغرناطة وإشبيلية وطليلة ومرقسطة وبطليوس وبلنسية ، يدعومهم إلى الاعتراف بطاعته لم يتنازلوا حتى بالرد عليه . وحاولوا أن يذيعوا في جميع أنحاء اسبانيا مختلف الإشاعات عن حكمه الظالم . أما جمهور فكان من جانبه يتجاهل استقلالهم ومزاعمهم ، ويمتدح في رسائله إليهم ، غيبتهم وعنايتهم بتأييد السلام في الأقاليم الموكولة إليهم ، وكون توطيد دعائم الدولة لا يكون إلا بالطاعة والاتحاد .

وكان أقلهم اكتراثاً بدعاوى جمهور أبو القاسم محمد بن عباد أمير إشبيلية ، وكان يومئذ قد انتهى من حصار قرمونة وافتتاحها . بيد أنه لما هرع أميراً مالقة وغرناطة إلى إغاثة البرزالي صاحب قرمونة ، وهزما جيش إشبيلية ، وهددا إشبيلية ذاتها ، رأى محمد أن في مخاصمة جمهور خطراً كبيراً عليه ، وفكر في حيلة يتق بها شر أعدائه . ورأى لكي يسمغ على قضيته مسحة الحق ، وبغتهم

(١) تفيض الرواية العربية في مناقب الوزير جمهور وفي رفيع خلاله وبارع حكمه ، وتصف لنا نظام الجماعة التي أنشأ في قرطبة وبرناجه الإصلاح في كثير من الإيجاب والتقدير . يراجع في ذلك بالأخص ابن الأبار في كتاب الحلة السراء من ١٦٨ . والبيان المغرب ج ٣ ص ١٨٦ نقلاً عن ابن حيان .

تأييد الشعب في جميع الولايات ، ثم لكي يقضى بالأخص على زعامة جهور في قرطبة ، أن يذيع في كل مكان أن الخليفة هشاما الثاني (المؤيد) (الذي أذيع موته مرة من قبل ورفع ثانية إلى العرش)^(١) لم يقتل كما يتوهم الناس ، ولكنه ما يزال حيا يقيم في أشبيلية ، وأنه دعا محمداً إلى إغاثة وعونه ؛ ثم أمر فدعي لهشام في الخطبة على جميع منابر إشبيلية ، ونقش اسمه على السكة بها . وطلب إلى جميع المسلمين المخلصين أن يلزموا الولاء لسيدهم الشرعي ، وأن يعترفوا به خليفة لهم . كما طلب إلى رؤساء الأقاليم والمدن أن يقيموا له البيعة . بيد أن مزاعم محمد لم تلق بين الأمراء كبير تأييد ، ولم يقبلها سوى بنى عامر أصحاب بلنسية ومرسية ، فوعدوا وحدثهم بالإعانة والطاعة . أما الباقيون فقد استقبلوا دعوة محمد إلى المعونة بالسخرية ، ولو ظهر هشام الحقيق فيما بينهم لما أطاعوه . على أن محمداً استطاع مع ذلك أن يحقق غايته من بعض الوجوه ، فقد بث الشجاعة في نفوس أصدقائه وبث التفرقة إلى أعدائه ، ورد سيرهم المظفر إلى إشبيلية . كذلك أثارت دسيسة محمد في قرطبة قلاقل وثورات ضد حكم جهور ، وشغل جهور بقمعها ، فلم يكن بوسعه أن يتقدم لمقاتلة محمد . وكذا أثارت الفتنة في مالقة بين الأدارسة حول العرش ، وهزم الأدارسة وحليفهم صاحب غرناطة في ميدان الحرب (٤٢٩ هـ - ١٠٣٨ م) . وبذا أنقذ محمد ، وكافأ محمد قائده الكبير أيوب بن عامر ابن يحيى اليحصبي الذي حقق له النصر ، فأقطعه حكم ولده^(٢) وجزيرة شلطيئش ، على أن يؤدي الجزية .

وكان ثمة في جنوبي غربي الأندلس ، فضلا عن مملكتي إشبيلية وقرطبة ،

(١) تختلف المصادر العربية في مصير الخليفة هشام المؤيد اختلافاً كبيراً ، وتقدم إلينا عن موته واختفائه وظهوره روايات كثيرة متناقضة ؛ وتختلف أيضاً في شأن هذه الواقعة التي يشير إليها المؤلف ؛ فالبعض يرى أنها من حيل ابن عباد وتمويهاته ، مثل ابن حيان (البيان المغرب ج ٣ ص ١٩٨) ، وابن الأثير (ج ٩ ص ٩٧) ، وأن ابن عباد اخترع هذه القصة اختراعا ليستعين بها على أمره ويهدد خصومه ؛ ويرى البعض مثل أبي الفداء أنها واقعة حقيقية (ج ٢ ص ١٤٧) .

(٢) ولده Huelva ، ويطلق عليها أحياناً اسم « أوبه » .

بنو الألفس يقيمون في بطليوس مملكة ذات شأن ، ويرجع الفضل في قيامهم على عرشها إلى سابور الفارسي ، مولى الخليفة الحكم الثاني (المستنصر) ووالى مقاطعة الغرب في عهد هشام الثاني (المؤيد) . وعهد سابور بولاية ماردة إلى فتى من مكناسة هو عبد الله بن مسامة بن الألفس التجيبي وأولاده ثقتة ، وكان يستشير في جميع شؤون الحكم . ولما توفى سابور أثناء الحرب الأهلية ، نادى عبد الله بن الألفس بنفسه أميراً مستقلاً في « الغرب » (غرب الأندلس) وتلقب بالنصور^(١) ، واتخذ بطليوس مقراً لحكومته ، وكان له حلفاء أقوياء في بني عمه التجيبيين أمراء سرقسطة (بني هود) . ولم يكثر ابن الألفس لدعوة ابن جهور إياه إلى الطاعة . ولكي يوطد ملكه في المنطقة التي تشمل بطليوس وماردة وباجة وباجة وقورية وأشبونة وشلب وما إليها ، عين ولده أبا بكر محمد ولياً للعهد ، وهو الذي تلقب فيما بعد بالظفر .

وكما حاول أيوب وأحمد ابنا أحمد والى لبلة (سنة ١٠١٩ م) أن ينشئا بالأندلس في ولبة وجزيرة شلطيلى ولبة إمارة مستقلة ، وهى إمارة سرعان ما تطلع بنو عباد وبنو الألفس إلى إخضاعها ، فكذلك قامت إمارة صغيرة أخرى جنوبى البرتغال هى إمارة شنتيمرية (ساتنا ماريا) الغرب (الغربية) من أعمال ولاية الغرب الحالية وقاعدتها مدينة اكسونيه ، ويحكمها الوزير أبو جعفر أحمد بن سميد ، وصهره سميد بن هارون اعتماداً على حق الوراثة . أما شنتيمرية الشرق (الشرقية) وأرضها المعروفة بالسهلة المتاخمة لولاية طليطلة ، فكان يحكمها هذيل بن خاف بالوراثة عن جده الحاجب عز الدولة أبو محمد هذيل بن رزين ، وعاصمتها شنتيمرية الشرق^(٢) ، وكان أميرها يستظل بحماية بنى ذى النون أمراء طليطلة .

وبينما كان جهور أمير قرطبة يطمح إلى امتلاك شنتيمرية الشرق ، كان

(١) فى أبى الفداء (٢ ص ١٤٨) ، وابن الأثير (٩ ص ٩٩) أن الذى تلقب بالنصور هو الفتى سابور .

(٢) هى التى تعرف فى الجغرافية الحديثة باسم Albarracin ، وهو تحريف لاسم حكمها من بنى رزين .

بنو عباد يطمحون إلى امتلاك شنتمرية الغرب ، وسرعان ما رجحت كفة بنى عباد رجحانا قويا بتحالفهم الوثيق مع العاصريين سادة الساحل الشرقى (بلنسية ومرسية) ، وعدل أبو القاسم محمد بن عباد في أواخر عهده عن دعواه بأن هشاما الثانى حى يقيم فى قصره ، ولكنه عمد إلى قصة أخرى كان يرجو من ورائها النجاح ، فزعم أن هشاما توفى حقيقة ، ولكنه اختاره لولاية عهده ، وعهد إليه بالانتقام لما حل به من المحن ، واعتمد بنو عامر على ذلك الزعم الواهى فعملوا على توثيق تحالفهم مع بنى عباد ؛ وهكذا أصبحت هزيمة الأدارسة أمراً محققاً بعد أن صار الهجوم عليهم ممكناً من الناحيتين .

بيد أن ابن عباد ما كاد يجتهد في الأهبة لمحاربة الأدارسة وحلفائهم حتى أدركه الموت (٤٣٣ هـ - ١٠٤٢ م) تخلفه في الحكم ولده أبو عمرو عباد بن محمد وتلقب بالعتضد بالله . وقد اشتهر العتضد بوفرة ذكائه ، كما اشتهر بوسامته وروعة قوامه ؛ وكما أسبغت عليه شهرته بالقريض والغزل المضطرم والشجاعة والبذخ صورة أمير من أمراء الفروسية ، فكذلك نراه يصمم هذه الصورة المثلى بشنيع فجوره . ورائع قسوته ، وبالغ استهتاره بالدين . ومع أنه كان يشغف حباً بزوجه ابنة مجاهد العاصري صاحب دانية والجزائر الشرقية (البليار) ، فإنه كان يحتفظ بسرب من الحظايا يضم سبعائة أو ثمانمائة امرأة ؛ وبالرغم من أنه كان ينفق أموالاً عظيمة على الأبنية الشاخنة ولا سيما القصور والقلاع ، فإنه كان يترك المساجد خراباً ولا يعنى بإنشاء شئ منها خلافاً لما جرت عليه سنن أمراء المسلمين . وقد كان يغمر خاصة أصدقائه بعطفه وجزيل صلاته ، ولكنهم لم يأمنوا قط روعة الموت على يده . ذلك أن بذخه الطائل كان يقتضى أموالاً عظيمة ، وكان ينتزعها من أولئك الذين أثروا مما أولاهم من مناصب ووهبهم من عطايا . وقد قضى بالموت على معظم وزرائه ونزع أملاكهم ليستعين بها على بذخه المغرق . وكانت تنتظم في أبهاء قصره أقذاح من جاجم الموتى محلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، فيذكر أهل بطائته دائماً برؤيتها ما يهددهم من روعة المصير^(١) ، وأما إزاء جيرانه فقد كان العتضد كثير

(١) إن هذه الصورة الباهرة القائمة التي يقدمها إلينا المؤلف عن العتضد بالله العبادي =

الدهاء والخديعة لا يترك فرصة سانحة إلا انتهزها لتوسيع أملاكه . وكان يوجه جل اهتمامه إلى الأدارسة باعتبارهم أخطر أعداء إشبيلية . بيد أنه لم يغفل أيضاً شأن قرطبة وطليطلة ، وكان يرى أن اشتباكهما في حرب مما يعود عليه بأكبر نفع ، إذ يستطيع عندئذ أن يتحول من محالفتهم إلى افتتاحهما بأيسر أمر .

٣ — بنو ذى النون

كانت طليطلة في أواسط اسبانيا يومئذ أقوى دولة إسلامية في شبه الجزيرة . ولسنا نعرف بالتحقيق أول من حكمها عقب انهيار الدولة الأموية . فالبعض يقول إن ابن يعيش كان أول أمير استقل بها عن حكومة قرطبة . ولكن معظم الروايات تجمع على أن الذى حكمها بعد ذلك هو إسماعيل بن عبد الرحمن بن عاصم من بنى ذى النون أعلن نفسه أميراً عليها وتلقب بنصر الدولة المظفر (بعد سنة ١٠٣٠ م على ما يظهر)^(١) . وتلقى إسماعيل بالسخرية دعوة جهور أمير قرطبة

== هى نفس الصورة التى رددتها التواريخ الإسلامية كلها والأندلسية منها بنوع خاص لا مبالغة فيها ولا إنغراق . وقد أجملها لنا ابن بسام صاحب النخبة في العبارات القوية الآتية : « قطب رعى الفتنة ، ومنتهى غاية الحنة ، ناهيك من رجل لم يثبت له قائم ولا حصيد ، ولا سلم منه قريب ولا بعيد ، جبار أبرم الأمر وهو متناقض ، وأسد فرس الفلا وهو رايبس ، مهوور تتحماه الدهاة ، وجبان لا تأمنه الحكاة ، متعسف اهتدى ، ومنبت قطع فابقى ... » . وكان قد أوتى أيضاً من جلال الصورة وتعام الحلقة ونظام الهيئة وسبابة البنان وتقوب الدهن وحضور الخاطر وصدق الحدى ما فاق على نظرائه ، ونظر مع ذلك في الأدب قبل ميل الهوى به إلى طلب السلطان أدنى نظر بأزكى طبع ... أعطته سجيته على ذلك ما شاء من تحيير الكلام وقرض قطع من الشعر ذات طلاوة في معان أمده فيها الطبيعة وبلغ فيها الإرادة . وكان على جرأته في لإحكام التدبير لسلطانه ذا كلف بالنساء فاستوسع في اتخاذهن وخلق في أجناسهن ، فأنتهى في ذلك إلى مدى لم يبلغه أحد من نظرائه ... « أوردها ابن خلكان في ترجمة المعتضد منسوبة لابن بسام (ج ٢ ص ٣٧) ووردت في البيان المغرب منسوبة لابن حيان (ج ٣ ص ٢٠٧) . وأما ما قيل في قسوته وبطشه برجال الدولة وقصة الجاهل الذى كانت ترين ساحة قصره فيراجع فيه المراكشى (ص ٥٠ و ٥١) . ويراجع أيضاً دوزى (ج ٣ ص ٤٣ و ٤٩) .

(١) كان مؤسس دولة بنى ذى النون في طليطلة لإسماعيل بن عبد الرحمن يلقب بالظافر وليس بالمظفر ؛ وكان بدء دولته فيها سنة ٤٢٧ هـ (١٠٣٦ م) (ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ ، وأبو الفداء ج ٢ ص ١٤٧) .

إياه إلى الطاعة تحت ظل الحكومة المركزية ، ونصح إليه بأن يقنع بإغضائهم عن اغتصابه ، وكون بعض الزعماء الضعفاء يعترفون بطاعته . وأما هو فليس يدين بالطاعة لأحد سوى الله .

ولما رأى جمهور أنه لا يستطيع نظراً لضعفه أن يفرض طاعته على الأمراء الأقوياء بالسيف ، تذرع بالروية والحزم وآثر أن يجرب قواه مع بعض الزعماء الأصاغر ؛ وكانت محاولته الأولى ضد صاحب السهلة الذي أبى أن يعترف بسلطان قرطبة ، فهاجمته قوة من الفرسان القرطبيين ، وأخضعت إمارته الضعيفة بسرعة ؛ وعندئذ استغاث الأمير المعزول وهو هذيل بن رزين بصاحب طليطلة ؛ وكان إسماعيل بن ذى النون ينظر بعين التوجس إلى كل توسع من جانب قرطبة ، فبادر بغوث ابن رزين ، ولم يمض سوى قليل حتى استعادت قواته السهلة ورُدت لأمرها وأخذ يهدد قرطبة ذاتها .

وكانما كل شيء كان ينذر بسقوط قرطبة ، ففي نفس اللحظة التي كانت الحاجة فيها أشد ما تكون إلى حاكم قوى ، توفى الأمير النابه جمهور ، ذلك الذى نعمته الشعب بأبى الوطن والدافع عن الدولة (سنة ٤٣٥ هـ — ١٠٤٣ م) . ومن سوء الطالع أن ابنه الوليد محمد بن جمهور الذى خلفه فى الحكم ، لم يكن رجل هذا المأزق الصعب . أجل كان الوليد عاقلاً عادلاً ، ولكنه كان ضعيفاً مريضاً لا يقوى على أعباء الرياسة . وسرعان ما ظهر أن يديه الضعيفتين لم تكونا أهلاً للقبض على زمام الحكم فى تلك الآونة العصيبة ؛ ورأى محمد أن يجتنب حرباً غير مأمونة العواقب ، فعرض الصلح على صاحبي طليطلة والسهلة ، ولكنهما رفضا عرضه بإباء ، فاضطر عندئذ أن يخوض رغم إرادته حرب حياة أو موت .

وهكذا أثخنت مدى أعوام فى المنطقة الواقعة بين قرطبة وطلطيلة حرب طاحنة ؛ وكانت الهزيمة ستغدو فيما يظهر مصير ابن جمهور ، لو لم يقيم فرديناند الأول ملك قشتالة وليون بغزو أراضى طليطلة غير مرة ، ورغم ابن ذى النون بذلك على عقد الهدنة مراراً مع قرطبة . فلما خضعت طليطلة لقشتالة والتزمت بأداء

الجزية ، واستطاعت بذلك أن تغنم السكينة وأن تعتمد على عون القشتاليين وقت الحاجة ، عادت إلى محاربة قرطبة بنجاح ، سيما وقد حالفها على قتال قرطبة بنو عامر أصحاب بلنسية .

٤ — بنو عامر والتجدييون وبنو هود في شرق اسبانيا

كان الشاطي^١ الأسباني من مصب نهر أيبرو (أبره) جنوباً حتى ثغر المرية على مقربة من الجزائر الشرقية (البليار) قد اقتسمته دويلات عدة تجمعها جميعاً رابطة التحالف ، وتعترف برياسة أمير بلنسية أبو الحسن عبد العزيز المغافري حفيد الحاجب المنصور محمد ابن أبي عامر ؛ ومع أن المنصور وأتباعه من بني عامر كانوا أول سبب في سقوط الدولة الأموية ، فإنهم انحازوا بعد ذلك منذ حروب الفتى خيران العامري ضد الأدارسة إلى جانب بني أمية . على أن الخليفة الإدريسي على بن حمود بعد هزيمته لخيران (سنة ١٠١٨ م) أقطع مع ذلك قريه الفتى زهير العامري ولاية دانية . واستطاع زهير خلال الحرب الأهلية بمعاونة بعض الزعماء الماريين أن يستولى على ثغر المرية بسهولة ، وقد كان يحكمها يومئذ محمد بن القاسم الفيرواني من قبل أمير إشبيلية ؛ وهكذا بسط زهير حكمه على جميع الشاطي^٢ الممتد من مرسية إلى المرية وعلى الجزائر الشرقية . وكان يحكم دانية من قبله على بن مجاهد ، ويحكم ابن عمه أبو الجيش عبد الله ، وأحمد بن رشيق الجزائر الشرقية (البليار) وأبو بكر أحمد مرسية^(١) ، أما بلنسية فكانت مستقلة يحكمها أبو الحسن عبد العزيز حفيد المنصور (منذ سنة ١٠٢٣ م فيما يظهر) وكانت تربطه بزهير بحالفة وثيقة ؛ فلما توفي زهير أو قتل في المرية بعد حكم طويل قام صديقه

(١) إن أول من استقل بدانية هو مجاهد العامري الملقب بالموفق ، واستقل بها سنة ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) ، وخلفه ولده على بن مجاهد الملقب بإقبال الدولة سنة ٤٣٦ هـ (١٠٥٤ م) . وأما عبد الله فكان يلي جزيرة ميورقة من قبل عمه مجاهد ؛ وأبو بكر صاحب مرسية هو أبو بكر أحمد بن طاهر (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٥ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠١ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ١٥٥ وما بعدها) .

عبد العزيز الملقب بالنصور بالأمر من بعده ، وبسط حكمه على الثغور الممتدة من المرية حتى مصب أبره (سنة ١٠٥١ م) . وكان من أتباعه أيضاً الزعيمان العامريان لبون صاحب مربيطر ، ومبارك صاحب شاطبة^(١) . وكذلك وثقت أواخر التحالف بينه وبين التجييين أصحاب سرقسطة ، بواسطة التعاهد والمصاهرة ، ثم أقطع المنصور ولاية المرية لصهره وزوج ابنته معن أبي الأحوص ابن والى وشقة^(٢) .

ولا ريب أن سادة ولاية سرقسطة (الثغر الأعلى) كان مركزهم أشد حرجاً من مركز أى أمير آخر من أمراء اسبانيا المسلمة ؛ وكان يتبعهم ولاية وشقة ولاردة وطرطوشة ، وهم من بنى تجيب ؛ وقد اختلف فيما إذا كان بنو هود أمراء سرقسطة ينتمون إلى فرع من بنى تجيب ، أم أنهم ينتمون إلى أصل آخر ، والأول هو الأرجح والأصح . كذلك اختلفت الرواية في شأن أمراء سرقسطة الأوائل . والمعروف أنه حينما اضطرت الحرب الأهلية التي انتهت بسقوط الدولة الأموية ، استطاع المنذر بن يحيى التجيبي أن يستقل بشؤون سرقسطة منذ سنة ٤٠٥ هـ — ١٠١٤ م ثم أعلن نفسه أميراً عليها وتلقب بالنصور . والروايات القليلة التي انتهت إلينا عنه يناقض بعضها بعضاً . بيد أنه يلوح لنا من المحقق ، أنه لا صحة للرواية العربية القائلة بأن حكمه قد امتد حتى سنة ١٠٣٩ م . وأن هشاماً الثالث آخر الخلفاء الأمويين قد لجأ إليه واستظل بضيافته ، وأنه قتل بيد بعض أقاربه أثناء رحلة له إلى غرناطة . ويبدو من الأصح أن موت المنذر كان في سنة ١٠٢٦ م على الأكثر ، وأن ولده يحيى الملقب بالمظفر الذي لا تذكره معظم الروايات قد خلفه

(١) مربيطر هي بالأفريقية Murviedro وهي Sagonto الحديثة ، وقد كان صاحبها أبو عيسى بن لبون (ابن الأبار في الحلة السيرة ص ١٨٦) ، وتراجع أخبار مبارك العامري صاحب شاطبة في البيان المغرب ص ١٥٨ وما بعدها .

(٢) هو ذو الوزارتين أبو الأحوص معن بن محمد بن صمادح التجيبي صاحب المرية ولورقة وياسة وجيان ، وكانت له ولابنه أبي يحيى بن معن الملقب بالمتعصم بالمرية دولة زاهرة دامت زهاء نصف قرن ، واشتهرت بحماية الشعر والأدب (سنة ٤٣٣ — ٤٨٤ هـ) .

في الحكم ، ثم انتزى عليه سليمان بن أحمد بن هود والى لاردة ، فانتزع سرقسطة ؛ وحكمها بنو هود من ذلك الحين . وعلى أى حال فلا بد أن يكون ذلك قد حدث قبل سنة ١٠٣١ م ، إذ تجمع الروايات الوثيقة على أن هشاماً الثالث قد لجأ في هذه السنة إلى سليمان بن هود أمير سرقسطة واستظل برعايته وحمايته^(١) . واتخذ سليمان لقب المستعين بالله ، ووطد دعائم استقلاله بقوة وشجاعة ضد النصارى والمسلمين على السواء . ورفض ما طلبه إليه جهور من الاعتراف برياسته ؛ واعترف ولاية وشقة وطرطوشة وغيرها من المدن القريبة من سرقسطة بسيادة بنى هود ، بعضها طوعاً والبعض الآخر كرهاً . وإذ كان التحالف وثيقاً بين التجيبين والعامريين لما بينهما من صلة القرابة ، فقد كان بوسع سرقسطة التي عانت كثيراً من غزوات جيرانها النصارى ، أن تعتمد على معاونة بلنسية ، هذا إذا لم تنقذها الحروب الأهلية بين القطلونيين والقشتاليين والأرجونيين والنافارين (البشكنس) . وناضل ولد سليمان وخلفه أبو جعفر أحمد المقتدر (٤٣٧ هـ - ١٠٤٦ م) بمثل حزمه وشجاعته ؛ بيد أنه اضطر أخيراً لكي يتقى غلبة البشكنس والأرجونيين والقطلونيين ، أن ينضوى تحت لواء فرديناند الأول ملك قشتالة ، وأن يؤدي له الجزية ، وأن يكفل بذلك معونته ضد جميع أعدائه .

(١) تختلف الرواية العربية في شأن منذر بن يحيى التجيب صاحب سرقسطة ، فالبعض يقول إنه حكمها حتى سنة ٤١٤ هـ ، وخلفه في حكمها ولده يحيى الملقب بالمظفر ، واستمر في حكمه حتى سنة ٤٣١ هـ (١٠٣٩ م) حيث انتزعها منه سليمان بن هود وقتله (ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ، وابن الأثير ج ٩ ص ١٠٠) . ولكن البعض الآخر يفضل ذكر المظفر ويقول لنا إن منذراً استطال حكمه حتى سنة ٤٣٠ هـ ، وأنه قتل بيد رجل يدعى عبد الله بن حكيم غلب على سرقسطة حيناً ثم انتزعها منه سليمان بن هود سنة ٤٣١ هـ (البيان المغرب ٣ ص ١٧٨ و ١٧٩) . وأما ما يشير إليه المؤلف من التجاء هشام الثالث الأموي الملقب بالمعتمد إلى صاحب سرقسطة ، فقد حدث ذلك سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١ م) حسبما يذكر المؤلف ، ولكن قبل تغلب ابن هود عليها ، وكان التجاؤه إلى منذر أو ولده المظفر .

الفصل الثالث

حروب الطوائف بمؤازرة النصارى

حتى افتتاح ألفونسو السادس لطليلة

(سنة ٤٣٣ - ٤٧٨ هـ) - (١٠٥١ - ١٠٨٥ م)

١ - تفوق أمير طليلة

هكذا كانت حال الدول الإسلامية في النصف الثاني من القرن الحادى عشر : كانت فيما بينها أشد خصومة وتطاحنًا من النصارى ، ولم تكن تتورع عن التحالف مع الدول النصرانية أو أن تستمد عونها نظير الجزية . وحتى صاحب أواسط اسبانيا الأمير القوى المأمون يحيى بن ذى النون الذى خلف أباه سنة ١٠٤٣ م ، لم يكتف باغتنام عون حليفه القوى عبد العزيز بن أبى عامر ، فعمد إلى استئجار الفرسان القشتاليين ليطش بمحمد بن جهور أمير قرطبة . وقد كان سقوط ابن جهور محققاً لو أنه اجترأ على لقاء الحلفاء واتقاء العاصفة بمفرده ؛ ومن ثم فقد اضطر على مضض أن ينزل عن دعواه فى سيادة اسبانيا المسلمة كلها ، وأن يعترف باستقلال جيرانه وخصومه ، بنى عباد أصحاب إشبيلية ، وبنى الألفس أصحاب بطليوس ، وأن يدعوهم إلى معاونته ضد طليلة ، التى كانت تهددهم جميعاً بالويل . ومع أن المعتضد بن عباد كان يشترك يومئذ مع الأدارسة فى معارك شديدة فانه بادر مع ذلك إلى قبول التحالف المرغوب ، إذ رأى فيه وسيلة طيبة لتوسيع سلطانه . أما أمير بطليوس فقد كان أقل أثره وهوى . ذلك أنه ما كاد ابن جهور

يعترف بسيادته على « الغرب »^(١) حتى بادر بوضع قواته رهن تصرفه .
وقد أثار هذا الحلف الذى عقد بين أمراء جنوب غربي اسبانيا الثلاثة (سنة ١٠٥١م) بالأندلس حرباً عظيمة ، كان من نتائجها أن زاد سلطان بنى عباد ووجاهتهم زيادة كبيرة . وأراد الأمراء الأصاغر ، أصحاب لبلة وولبة وجزيرة شلطيش واكسونيه ، الانضمام إلى هذا الحلف ؛ ولكن ابن عباد عارض في قبولهم كخلفاء مستقلين ، في حين أنهم يستظلون بسيادته . بيد أنهم عقدوا مع ذلك فيما بينهم تحالفاً وثيقاً ، وفوضوا عبد العزيز اليحصبي صاحب لبلة (الذى خلف أحمد منذ سنة ١٠٤٢)^(٢) في أن يعقد باسمهم محالفة خاهة مع قرطبة ، يتعهد الجميع بمقتضاها أن يتعاونوا في الدفاع عن أنفسهم . وتطبيقاً لهذا التحالف سار الجميع في قواتهم إلى قرطبة لإنجاحها . وعندئذ عمد ابن عباد إلى انتهاز هذه الفرصة ، فاكتفى بأن أرسل إلى محمد بن جمهور خمسمائة فارس ، وزحف في جيش قوى على لبلة وولبة وجزيرة شلطيش واكسونيه ، واستولى عليها ؛ ولذا أمراءها بالفرار اتقاء الأسر أو الموت ، وأسلمها ابن عباد إلى أسر الأمراء الفارين ، على ألا تعتبر هذه النحلة ذات صفة شخصية ، بل تعتبر مقابل خدماتهم ، فلا تكون الجزية ورائية ، وإنما يزاوّل بمقتضاها حقه في السيادة باختيار خلفائهم . ومن ثم فقد عهد ابن عباد إلى والى لبلة الجديد عبد الله بن عبد العزيز ، بالقيام بمحاربة قرمونة ، خارجها وافتتحها سنة ١٠٥٣ كما قدمنا .

أما الحرب بين طليطلة وقرطبة ، فقد لبثت بضعة أعوام تتخللها معارك مضطربة تدور سجالاتها بين الفريقين . بيد أنها استتجالت في النهاية بالنسبة لمحمد ابن جمهور إلى وجهة محزنة . ذلك أن المأمون صاحب طليطلة ، بعد أن اجتمع

(١) ولاية الغرب Algarve أو غرب الأندلس .

(٢) في إيراد ولاية لبلة على هذا النحو خطأ أو تحريف . ذلك أن أول ولايتها للمستقلين هو أحمد بن يحيى اليحصبي الملقب بتاج الدين ، وخلفه في الحكم أخوه محمد بن يحيى اليحصبي (سنة ١٠٤١ م) وتلقب بعز الدين ، ولا يوجد بين ولاية لبلة من بنى يحيى من اسمه عبد العزيز .

لديه من جراء تحالفه مع بلنسية والسهلة وقشتالة ، كثير من الجند المرتقة ، سار إلى لقاء أعدائه في معركة حاسمة ، واستطاع أن يوقع بقوات قرطبة وبطليوس وإشبيلية المتحدة هزيمة شديدة . ثم ظهر بجيشه الظافر أمام أسوار عاصمة الأندلس القديمة ، وضرب في الحال حولها الحصار . ولم يك ثمة سبيل لإيقاد قرطبة إلا أن تبادر إشبيلية إلى إغاثتها ، فبعث محمد ابنه عبد الملك إلى إشبيلية ليطالب حليفه ابن عباد ، بأن يبعث إليه المدد على جناح السرعة ، لكي يرغم المأمون على رفع الحصار ؛ فتردد ابن عباد في البداية ، ولكنه لما رأى قرطبة قد أشرفت على السقوط بعث لإنجادها جيشاً قوياً تحت إمرة ابنه محمد وإمرة قائده ابن عمر (ابن عمار)^(١) وزودها بخطة وأوامر سرية خاصة ، فهوجم الجيش المحاصر واضطر إلى رفع الحصار بعد معركة دموية ، ثم ارتد أدراجة مسرعاً ، وخرج القرطبيون فطاردوا أعداءهم وأتموا بذلك هزيمة الطليطيين .

وهنا رأى قائد الأشبيليين (ابن عمار) الفرصة سانحة لتنفيذ خطة سيده السرية ، فبينما كان جيش قرطبة لا يزال مشغولاً بمطاردة العدو بإمرة عبد الملك ابن جمهور ، سار ابن عمار إلى المدينة ، ولم يظن إنسان بالحلفاء سوءاً ، ودخلها دون معارضة واحتل مراكزها الحصينة ، قبل أن يفتن القرطبيون إلى أن

(١) يحددنا المؤلف في غير موضع عن « ابن عمر » Ibn Omar قائد المعتمد بن عباد أو مبعوثه . وقد استطعنا أن نقطع في الحال بأن إيراد الاسم على هذه الصورة به تحريف ، وأنه يجب أن ينصرف إلى ابن عمار وزير المعتمد ؛ وهو أبو بكر محمد بن عمار الشاعر الأشهر وكان من رجالات الأندلس ومن أوفرهم ذكاء وبراعة ودهاء . وزير المعتمد ، وتولى تصريف مهامه السياسية ، وكان يرافق حملاته ويسهر على نجاحها بحسن تدبيره . وما زال يخدم المعتمد حتى سخط عليه لأمر بدرت منه واعتقله ثم قتله (سنة ٤٧٩ هـ - ١٠٨٦ م) . وقد كان فيما يظهر مرافقاً لحملة ابن عباد التي أوفدها لنجدة قرطبة ليفصرف على تنفيذ أوامره السرية في انتزاعها بعدئذ من بني جمهور . ولم يكن قائداً لأنه ليس من رجال الحرب ، وكان يقود هذه الحملة خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين (البيان المغرب ص ٣ و ٢٦٠ ، ودوزي ص ٩٧ و ٩٨) . وكذلك كان شأن ابن عمار في مرافقته حملات ابن عباد الأخرى إلى شرق الأندلس كما سيجيء ، فقد كان يتولى فيها ناحية الإشراف والتوجيه عند المآزق . ويشير المؤلف إلى « ابن عمر » في عدة مواضع ، وقد صححناها في سياق الكلام . (راجع في حياة ابن عمار وشعره ثلاث العقيان ص ٨٣ وما بعدها ، والمراكشي ص ٥٩ وما بعدها) .

أصدقاءهم قد انقلبوا عليهم . وكان الأمير محمد بن جهور مريضاً طريح الفراش ، فوق أسيرا في يد أعدائه ، ولم يمش بعد هذه الخيانة المروعة سوى أيام قلائل . ولم يكن مصير ابنه عبد الملك بأفضل من مصيره ، فقد عاد من مطاردة الطليطلين إلى قرطبة ، فألقى أبوابها مغلقة دونه . ولما طُلب إليه التسليم أدرك في الحال ما ارتكبه الحلفاء الغادرون من خيانة أثيمة . واستشاط سخطا ووجدا ، فألقى بنفسه أمام قوة كبيرة تحدى به من كل صوب . ولبث يقاتل قتال المنتقم اليائس حتى أثنى جراحا ، وسقط من فوق جواده مغشيا عليه ، ثم توفى في الأسر بعد ذلك بأيام وهو يصب اللعنات على ابن عباد وعلى أهل قرطبة الذين استقبلوا الخونة طائمين (سنة ٤٥٢هـ - ١٠٦٠م) ، وهكذا انتهت دولة بني جهور في قرطبة ، ولما يمش على قيامها ثلاثون عاما في محنة محزنة حقا ، وهي محنة افتدى بها الأولاد الأبرياء خيانة أبيهم جهور للخليفة هشام الثالث (المعتمد بالله) .

وعندئذ غدا أمير إشبيلية أقوى أمراء اسبانيا المسلمة ، وعمد ابن عباد إلى استرضاء زعماء الأراضى المفتوحة بجليل الصلات ، وإلى اجتذاب الشعب بمختلف المكآب والحفلات ومصارعة الوحوش . وسرعان ما نسى الناس حكم بني جهور الصالح . بيد أنه كان ثمة شخص يتوق إلى الانتقام ، هو الحارث بن الحكم قائد الجيش القرطبي . وكان قد انسحب مع فرسانه إلى مدينة الزهراء مقام الحلفاء الأمويين السالف ، فلما وقف على مصرع بني جهور غادر ظاهر قرطبة وسار إلى المأمون صاحب طليطلة ، خصيمه الذي طالما حاربه من قبل ، وعرض عليه خدماته ضد العدو المشترك ، فاستقبله المأمون مغتبطا ، واتحد الاثنان بعد الخصومة وأخذا يدبران مكا هلاك عدوهما الظافر .

وكان المأمون يرى جزعا قوة صاحب إشبيلية في ازدياد مستمر . ذلك أن حروبه مع الإدارة كانت تكمل بالظفر المستمر . وقد انضم إليه معظم الزعماء العاصريين أمراء قسطلون ومريبطر (مفيدور) وشاطبة والمرية ودانية . ولما فرغ المأمون من أهبة الحربية دعا صهره (زوج ابنته) عبد الملك المظفر ، الذي

خلف أباه عبد العزيز في حكم بلنسية (٤٥٢ هـ - ١٠٦٠ م) إلى معاوته بالجند . ولكن عبد الملك اعتذر عن إجابته نزولاً على نصيح وزيره محمد بن مروان ، واحتج بأن وقوف معظم العاصريين إلى جانب إشبيلية ، يجعل إقدامه على هذه المعاونة خطراً على بلنسية ، فلما وقف المأمون على جواب صهره ، وخشى من جهة أخرى أن ينضم إلى ابن عباد جهاز جيشه سرا ، وعقد تحالفاً مع الملك فرديناند الأول صاحب السيادة عليه . وانقضت القوات المتحدة بسرعة البرق على بلنسية ، ولم يستطع البلنسيون مقاومة للفرسان القشتاليين ذوى الدروع الحديدية ، وسقطت ولاية بلنسية كلها في يد المأمون (اكتوبر سنة ١٠٦٥) . ولم ينفذ حياة عبد الملك سوى تدخل زوجته ابنة المأمون فأبقى المأمون عليه وأقطعته حكم « شلبة »^(١) : وأما صاحب النصيح المشؤم الوزير ابن مروان فقد أثر الانتحار حتى لا يشهد بحنة سيده ، التى يحمل بعض تبعها . وبعد أن نظم المأمون حكومة بلنسية وعين واليها ، عاد إلى طليطلة وقد ضم قوات بلنسية إلى قواته استعداداً لمحاربة ابن عباد . ولكن حالت دون إتمام أهبة بعض الشؤون . ذلك أن الملك فرديناند الأول صاحب قشتالة الذى كانت واقعة بلنسية آخر غزواته المظفرة توفى بعد ذلك بأشهر قلائل . وثار من جراء تقسيم مملكته بين أبنائه الثلاثة ، حروب شديدة ، وانتهز المأمون من جانبه فرصة اضطراب المملكة النصرانية ، فتكل عن أداء الجزية التى تعهد بها لملك قشتالة ، وأدى ذلك فى الوقت نفسه إلى حرمانه من معاونة النصارى ، وهى معاونة لم يكن يستطيع دونها لقاء أمير إشبيلية ، فلما تم الأمر لسانشو (شانجه) واستولى على مملكة أبيه كلها (سنة ١٠٧٠ م) فر أخواه إلى الأمراء المسلمين ، والتجأ أحدهما

(١) تسمى الروايات العربية هذه الواقعة التى ترتب عليها سقوط بلنسية بواقعة بطرنة Paterna . وقد اختلف فى مصير عبد الملك المظفر بعد سقوط عاصمته ، والممول عليه أن صهره المأمون اعتقله فى قرية شنت بريه من أعمال طليطلة وقتل ، أو فى قلعة قونفة من أعمال بلنسية ، أو فى قلعة أفليش ، (راجع البيان المغرب ٣ ص ٢٥٢ و ٢٦٧ و ٣٠٣ ، ودوزى ٣ ص ٧٩ والمراجع) . أما رواية المؤلف فقد نقلها عن كوندى وهى رواية ضعيفة . وأما مدينة شلبة Xelba أو Chelva الحديثة ، فهى مدينة صغيرة تقع شمال غربى بلنسية ، وهى غير مدينة شلب فى غرب الأندلس .

وهو جارسيا (غرسية) ملك جليقية إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية ، والتجأ الثاني وهو ألفونسو (ادفنش) ملك ليون إلى المأمون صاحب طليطلة .

وكان المعتمد بن عباد أمير إشبيلية قد توفى أثناء ذلك (سنة ٤١١ هـ — مارس سنة ١٠٦٩م) توفى في السابعة والخمسين من عمره بعد حكم زاهر دام سبعة وعشرين عاما . ويقال إن حزنه العميق على وفاة ابنته الحسنة طاهرة قد جعل بموته ؛ خلفه في حكم إشبيلية قرطبة وقرمونة ولده الشجاع محمد الملقب بالمعتمد على الله . وكان فارسا ذا بأس (وكان يرتدى في الحرب درعا من اللازورد الأزرق مرصعا بنجوم من الذهب تحيط بهلال مذهب) ، وقد حالفه حسن الطالع في حروبه مع الأدارسة وحلفائهم ؛ وفي حفل بيعته تسمى بالمظفر والمؤيد بالله مضافة إلى لقبه^(١) .

وكان المعتمد بن عباد كأبيه المعتمد يتمتع بجلال باهرة ؛ بيد أنه كان مثله يجيش بأهواء وضیعة . وكان يفتنم بذكائه وشجاعته وجوده تقدير الشعب وثقته . وكانت جهوده في سبيل تعويض الذين نكبتهم قسوة أبيه ، تحيط حكمه بحب الأكار والأصاغر على السواء . بيد أنه كان مثل أبيه في نظر الفقهاء مستهترا بالدين ، يستبيح شرب الخمر ويبيحه للجند في الميدان ، وكان شاعرا طائر الصيت يمدق عطفه ورعايته على العلماء ، وينافس في ذلك صديقه معز الدولة صاحب المرية .

ولما تولى المعتمد حكم إشبيلية ، كانت بقية الدول الإسلامية الأخرى بالجزيرة قد حطمتها الحروب الداخلية أو غزوات النصارى . فلم يكن أمام المعتمد من يخشاه إذا استثنينا أمير طليطلة الذي كان يحكم بنفسه في نفس الوقت ، وكان تفوق هذين الأميرين على باقي الأمراء عظيم جدا حتى إنهما استطاعا أن يرغما باقي الأمراء على الوقوف إلى جانب أحدهما أو الآخر . ولما رأى المأمون أن إشبيلية مشغولة بحروبها المستمرة مع الأدارسة ، وأن بنى الأفضس يقتتلون فيما بينهم بزعماء يحيى النصور وخصيمه عمر المتوكل على الحكم عقب وفاة محمد بن عبد الله

(١) تلب أبو القاسم محمد بن عباد بالمعتمد على الله ، والظاهر بمول الله ، (المراكشي ص ٥٤) .

المظفر ، وأن بنى هود والتجيبين في ولاية سرقسطة يشتبكون مع جيرانهم
النصارى في معارك دموية مستمرة ، رأى الفرصة سانحة للعمل ، والانقضاض
على العاصرين أصحاب تدمير ومرسية حلفاء إشبيلية وانتزاع تلك الأراضي منهم ،
بحجة أنه وهو أمير بلنسية صاحب السيادة عليها .

وما كاد المعتمد يقف على فعلة المأمون حتى أرسل قائده الشجاع ابن عمار
وأبا بكر بن عمرو والى تدمير وأحمد بن طاهر والى مرسية على رأس قوة من
الفرسان لإنجاد مرسية . ولما كانت هذه القوة أضعف بكثير من القوة التي بعثها
المأمون ، فقد جمع زعماء مرسية مبلغ عشرة آلاف من الذهب استأجر بها ابن
عمار مددا من الكونت ريموند برنجار أمير برشلونة ، وبعد أن تبادل الفريقان
العهود والرهائن سار ريموند على رأس قوة مختارة من الفرسان مختاراً بلنسية إلى
مرسية ، وهناك انضم إلى جيش إشبيلية الصغير ؛ ولكنه ما كاد يقترب من
مرسية حتى تولته الدهشة واعتقد أنه قد غدر به ، إذ رأى حول المدينة عدة آلاف
من الطليطلين يحاصرونها ؛ وعندئذ صرح بأنه من العبث الخطر أن يهاجم بتلك
القوات الصغيرة جيشاً يضم قوات طليطلة وبلنسية وقونفة ودانية ومربيطر
وشاطبة وسنتمرية والسبلة ، وتعاونوه فرق كبيرة من المرتزقة من قشتالة وجليقية ،
وأعلن انسحابه في الحال ، وأنه لا يستطيع الانتظار حتى يأتى المدد من إشبيلية .
ولكن الجبن نصف الهزيمة ؛ وقبل أن يتمكن القطلونيون من الانسحاب اضطروا
إلى خوض المعركة مع جنود المأمون (١٠٧٣م) وأصيبوا مع حلفائهم الأشبيليين
بهزيمة شنيعة ولذا المنهزمون بالفرار في مختلف الأنحاء ، وحصل المأمون بهذا
النصر الباهر على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى ، ونادى بنفسه في الحال أميراً
عليها . وبذا أصبح هذا الأمير القوى يسيطر على أواسط اسبانيا كلها وهو ما يعادل
نحو ثلث أراضيها .

وفي ذلك الحين أيضاً انتهت الحرب الأهلية التي نشبت في اسبانيا النصرانية
عقب وفاة سانشو ملك قشتالة ، وأمر أخيه جارسيا ملك جليقية على يد الملك

ألفونسو السادس ؛ ولم ينس ألفونسو أنه لقي أثناء محنته من أمير طليطلة كل حماية ورعاية ، فعقدت عندئذ بين ألفونسو السادس والمأمون محالفة بتبادل المعونة والدفاع ، وتعاهد الأميران على أن يرتبطا معاً برباط الصداقة الوثيق .

وبدا عندئذ هلاك صاحب إشبيلية ألد أعداء طليطلة ، أمراً لا مناص منه . ورأى المأمون ألا يترك لابن عباد فرصة لكي يقوى نفسه بالتحالف مع بني هود أصحاب سرقسطة ، وبني الأفطس أصحاب بطليوس ، وأن يقضى نهائياً على الأدارسة حسبما كان يعتزم ، فبادر بمهاجمة خصمه من ثلاث جهات ، لكي يحكم تسديد الضربة إلى قرطبة . وبينما زحف القائد ابن لبون صاحب مرسية ظافراً صوب جيان ، وسار جيش آخر إلى حدود سرقسطة ليرقب حركات ابن هود ، وتظاهر الجيشان كل بأن الحرب واقعة في الناحية التي قصدها ، إذ هاجم الفرسان الطليطليون بقيادة الحارث بن الحكم والمرزقة القشتاليون قرطبة على غرة ، فسقطت في أيديهم دون مقاومة . ولكن نشبت بين الفريقين في الزهراء في ظاهر قرطبة معركة دموية . ودافع حرس ابن عباد ، وهم من المغاربة بقيادة ابنه سراج الدولة عن القصور الملكية دفاعاً شديداً ، حتى أثنى قائدهم الشجاع جراحاً وأسلم الروح . وأمر الحارث أن يرفع رأس الأمير القاتل على رمح ، وأن يطاف به في شوارع قرطبة ، وأن ينادى : هذا انتقام الله ، ويا لروعة انتقامه ، لمقتل الأمير عبد الملك بن جهور .

وسرعان ما زحف معظم جيش طليطلة على إشبيلية ، ولم يكن بها يومئذ سوى قوة يسيرة ، لأن المعتمد كان قد سار في معظم قواته إلى مالقة لافتتاحها من يد الأدارسة . وتوج زحف المأمون السريع بالظفر التام ، فاقتحم إشبيلية (٤٦٨ هـ ١٠٧٥ م) ، ولم يلق معارضة إلا أمام القصر ؛ ودافع عنه الحرس دفاعاً قوياً ، حتى سحق ومزق أمام الكتلة الغالبة ، واحتوى أمير طليطلة الظافر على جميع أموال بني عباد ، وفرقها بين جنده جزاء شجاعتهم وهمتهم ، ولكنه حرص على ألا يمس نساء المعتمد بسوء (١) .

(١) إن هذه الواقعة ، أي واقعة استيلاء المأمون بن ذي النون على إشبيلية ووفاته =

بيد أن المأمون ارتكب خطأ فادحاً ، إذ لم يتم الحرب كلها بسرعة . ذلك أنه بدلا من أن يسمى بمد فتح المدينتين تَوْأ إلى لقاء ابن عباد في ميدان الحرب ، لبث في إشبيلية ستة أشهر دون عمل . وفي أثناءها استطاع المعتمد أن يختتم حربه مع الأدارسة بالظفر التام ، إذ استولى على الجزيرة وعلى مالقة ذاتها ، وقضى بذلك على سلطان الأدارسة في الأندلس ، واستطاع أيضاً أن ينتزع بعض البقاع من عبد الله بن بلكين بن باديس صاحب غرناطة . وفي الوقت نفسه كان المقتدر بن هود صاحب سرقسطة وحليف ابن عباد يقاتل جند المأمون بنجاح ، ويهدد بالنسيه ؛ ومن ثم فإن المعتمد لبث قوى الأمل . ومع أن عاصمته قد سقطتا في يد أعدائه ، فإنه لم يخالجه شك في أنه مستعيدهما . وما كاد ينتهي من حرب الأدارسة ، حتى سار في معظم قواته ليسترد عاصمته ، ولم يك ثمة شك في أن سكانها المخلصين له سيبدون أزره ؛ ولذا ما كاد يضع الحصار حول إشبيلية حتى بدأ يحالفه حسن الطالع . ذلك أن المأمون بن ذى النون توفي لمرضه وهرمه في شهر ذى الحجة سنة ٤٦٨ (يونيه ١٠٧٦ م) ، وتوفي قبله ابنه هشام نائبه في الحكم وولى عهده ؛ وعهد المأمون قبل وفاته بالحكم إلى ابنه الثاني يحيى الملقب بالقادر بالله الذى يصفه البعض بأنه حفيده^(١) . ولما كان يحيى لا يزال حدثاً ، فقد عين للوصاية عليه حتى يبلغ الرشد ، بعض الولاة ، والحارث بن الحكم ، والملك ألفونسو

== بها ، ثم استرداد المعتمد لها ، وما يتعلق بذلك من التفاصيل التى يوردها المؤلف فى هذا المقام قد اشتمت جميعها من كوندى ومصادر أفرنجية أخرى . وهى رواية لا سند لها ولا تشير إليها المصادر الإسلامية بكلمة . والظاهر أن الأمر يتعلق هنا بخلط بين هذه الواقعة المزعومة وبين واقعة حقيقية أخرى ، وهى استيلاء المأمون على قرطبة ووفاته بها ثم استرداد ابن عباد لها . وهذه هى الواقعة التى تؤيدها المصادر الإسلامية ، فقد استولى المأمون على قرطبة سنة ٤٦٨ هـ بمعاونة مغامر ومتآمر يدعى جرير بن عكاشة ، ثم توفي بها بعد دخولها بأيام قلائل ، وقيل إنه توفي مسموماً . فارتد جنده عنها إلى طليطلة ، وعاد ابن عباد فاسترد قرطبة وانتقم من قتلة ولده . ولم تخرج لإشبيلية من قبضة بنى عباد قط حتى استولى عليها المرابطون سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) ، (راجع ابن الأثير ج ٩ ص ٩٩ ، وابن خلدون ٤ ص ١٥٩ و ١٦١ ، والمرآة كسى ص ٤٤ وما بعدها ، وراجع أيضاً دوزى ٣ ص ١٠٠ و ١٠١) .

(١) هو يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذى النون ، وهو فعلا حفيد يحيى المأمون ، (ابن خلدون ٤ ص ١٦١) .

السادس ؛ وكان المأمون يثق بالفونسو ثقة خاصة ، ويعتبره أعز أصدقائه ، وأعظم
عُضد لطيطة ، ولم يخطر بباله أنه سيجنح بعد ذلك إلى نقيض ما كان يؤمل .
وكان موت المأمون إيذاناً بأفول طالع بنى ذى النون . وكانت طليطة إبان حياته
أعظم دول أسبانيا المسلمة ، وكانت مبعث البذخ والبهاء . وقد اشتهر المأمون
بالأخص بما شاهده من الأبنية الشاخنة التي انتهى إلينا عن بنائها كثير من القصص
المفروق ، ومنها ما حكى أنه ابتنى في نهر تاجه قصر يستطيع الجالس فيه أن يرى
من عروشه البلورية الأسماك تشق النهر .

٢ — تفوق أمير إشبيلية

لم يستطع جند المأمون أن يصبروا طويلاً على المقاومة بالرغم من أن موت
أميرهم قد أخفى عنهم مدى حين ، وبالرغم مما أبدى قادتهم من الشجاعة والبراعة
في رد هجمات المعتمد ؛ ومن ثم فقد آثروا ترك المدينة بعد إذ رأوا ما يجب
لإخضاع أهلها من كبير جهد ؛ واستطاعت قوى الفرسان الكثيفة أن تشق
لجند طليطة بين الجيش المحاصر طريقاً ؛ وأن تمكنه من الوصول إلى قرطبة دون
خسارة كبيرة . بيد أن عود الجند القشتاليين إلى أوطانهم نظراً لاقتراب الشتاء ،
وظهور بعض القلاقل في المناطق التي افتتحتها طليطة ، حملاً قادة القادر على
مواصلة السير . وبقي الحارث بن الحكم في قرطبة والياً لها ، وهو يعنى نفسه أن
يستقل بحكمها بالرغم من قلة جنده .

ولكن لم تتح له فرصة لتحقيق أطاعه ؛ ذلك أن المعتمد الذى حالفه التوفيق
في حصار إشبيلية بادر بالاستفادة من ظفـره ، فظهر أمام أسوار قرطبة قبل أن
يعلم أحد بمغادرته لأشبيلية . وفى الحال أدرك الحارث أسيفاً أن أهل قرطبة
يؤثرون أمير إشبيلية على حكمه وحكم القادر . ورأى الخيانة والغدر من أولئك
الذين كان يمتبرهم أنصاره ، فلاذ بالفرار صوب طليطة . ولكنه فر متأخراً ؛
وما كاد المعتمد يدخل قرطبة على رأس جيشه فى موكب رائع ، حتى انقلب إلى
دته مطار فى سرية من الفرسان وأدركه غير بعيد . ثم طعنه بجربته فى ظهره طمعة

نفذت إلى صدره ، وذلك انتقاماً لموت ابنه سراج الدولة . وعلقت جثته فوق سارية على قنطرة قرطبة وشنق إلى جانبه كلب مبالغة في الإهانة وترك الحارث ولداً هو أحمد عينه القادر والياً لقلمة رباح^(١) .

وهكذا غادر طليطلة حسن طالعتها وتحول عنها إلى أمير إشبيلية ولم يكتف ابن عباد باستعادة المدن والأراضي التي فقدتها ، بل عمد فوق ذلك إلى انتزاع مرسية وبلنسية من القادر . ذلك أنه بعث وزيره الماكر ابن عمار إلى تلك المنطقة ليعمل على إثارة العاصريين على بني ذى النون ؛ وسرعان ما رفع عبد الملك بن عبد العزيز صاحب شلبه ، وأمير بلنسية السابق علم الثورة^(٢) ، واستطاع أن يسترد بلنسية وسيادته القديمة عليها بلا صعوبة . ولما توفي بعد ذلك بقليل (سنة ١٠٧٠هـ - ١٠٧٨م) خلفه في حكمها ولده أبو بكر . ولكنه كان في الواقع أكثر خضوعاً لابن عباد منه كأمر مستقل . غير أن ابن عمار لم يستطع أن يكسب عبد الرحمن بن طاهر وإلى مرسية بمثل هذه السهولة ، وكان حليفاً مخلصاً لبني ذى النون ، فاضطر أن يضرب الحصار حول المدينة مدى حين حتى نفذت أقواتها واضطر ابن طاهر إلى التسليم (سنة ١٠٧٩م) . ورأى ابن عباد أن يعاقبه على مقاومته فنزع منه ولاية المدينة وأعطاه لابن عمار جزاء له على جهوده الموفقة في خدمته .

ولكن المعتمد لم يكن ليطمئن إلى هذا الظفر كله ما دام في وسع القادر صاحب طليطلة أن يعتمد على معاونة ملك قشتالة . وكان يرى أنه لا بد من إبعاد هذا الحليف القوي عن بني ذى النون ، مهما كلفه ذلك من عظيم التضحية ، إذا أراد أن يغم سيادة إسبانيا المسلمة كلها ؛ ولو أنه استطاع أن يظفر بصداقة ألفونسو السادس وعمل ألفونسو من جانبه على تهديد طليطلة وشغلها ، لكان من المحقق

(١) راجع الهامش السابق ، ويورد دوزي واقعة مطاردة ابن عباد للحارث وقتله والتبيل بجثته منسوبة لابن عكاشة ، فهو الذي طورد وقتل ومثل بجثته وهو الأرجح (ج ٣ ص ١٠١) .
(٢) أشرنا في هامش سابق إلى اختلاف الرواية في مصير عبد الملك المنصور صاحب بلنسية بعد سقوطها في يد المأمون وإلى أن شلبه المقصودة هنا هي غير مدينة شلب في غرناطة الأندلس .

أن تنتمرجيوشه المظفرة على الإماراتين الباقيتين ، وهما إمارة بني باديس في غرناطة وإمارة بني الأفطس في بطليوس . ثم إن بني هود في سرقسطة لا بد أن يخضعوا لسلطانهم ، نظراً لأن الأعداء المجاورين يحدقون بهم من كل صوب ؛ وكان المقتدر ابن هود يحكم سرقسطة منذ سنة ١٠٤٦ م ولم يتح له إنقاذ ملكه من أطاع راميرو الأول وسانشو الأول ملكي أراجون إلا بمعاونة المرتزقة القشتاليين سنة (١٠٦٣ م) ثم بالتحالف مع البشكنس (نافار) . بيد أنه خسر كل ما غنمه من المزايا في معارك استمرت أعواماً . ذلك أن سانشو الأول ملك أراجون ضم معظم نافار إلى مملكته وأخذ يهاجم أراضي سرقسطة بقوى كبيرة ويستولى على قلاع الحدود واحدة بعد أخرى .

ومن ثم كانت الظروف كلها مواتية لأطاع أمير إشبيلية . بيد أنه أدرك أنه لا بد أن يبادر إلى عقد التحالف مع ملك قشتالة قبل أن يسبقه إليه أمير آخر . ومع أنه توقعاً لأسوأ النتائج ، وهي أن يأبى ألفونسو أن يترك حلفه القديم مع بني ذى النون ، قد جدد علائق الصداقة مع أمير برشلونة علي بن عمار وإلى مرسية ، وعرض أموالاً كثيرة لاستئجار الجند المرتزقة ، فإنه رأى من الأصح والأوفق لخطته ، أن يسعى بكل ما وسع إلى صداقة ملك قشتالة وليون ، إذ هي أدعى إلى النجاح بلا ريب . فبحثت مشاوضه البارع ابن عمار إلى ليون وكانت يومئذ مقر الملك قشتالة ، وفاز ابن عمار بأن يعقد بين ألفونسو وبين سيده معاهدة يتعهد بها ملك قشتالة أن يعاون أمير إشبيلية بالجند المرتزقة ضد جميع أعدائه المسلمين ، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة مقادير كبيرة من المال . ويتعهد بالأخص بما هو أهم ، وهو ألا يعترض مشروع ألفونسو في افتتاح طليطلة . وهكذا ضحى المعتمد بمقل إسبانيا المسلمة ، لكي يفوز ببسط سيادته على الإمارات التي لم تخضع له بعد وهي إمارات غرناطة و بطليوس وسرقسطة .

وذهب ألفونسو السادس ابن عمار منظم هذه المعاهدة خاتمين ثمينين جزاء جهوده . ومع أنه لا صحة لما يروى من أن ملك قشتالة تزوج في هذه المناسبة

بسيطة ابنة المعتمد توثيقاً للتحالف ، فإنه من المرجح أن ألفونسو استطاع على أثر هذه المحالفة أو في مخالفة تالية (سنة ١٠٩١ م) أن يضمها إلى زوجه كخطية له ، وهو تشبه بالتقاليد الإسلامية كان ذايعاً بين أمراء أسبانيا النصرانية ، بالرغم مما كانت تثيره الكنيسة ضده من شدد الاحتجاج^(١) .

٣ - افتتاح ألفونسو السادس لطليلة

وفي سنة ١٠٧٩ م أعلن ألفونسو الحرب على طليلة اعتماداً على المعاهدة المعقودة ، وذلك بالرغم من أنه لقي في طليلة من قبل ملاذاً وحماية من مطاردة أخيه سانشو وبالرغم من أنه لبث إلى تلك الآونة يرتبط ببني ذى النون بروابط الصداقة ، وقد أقسم أن يعاون ولد المحسن إليه على الاحتفاظ بأملأكه . نسي الأمير الظمى إلى الفتح كل ما يفرضه العرفان والصداقة ، وتفرضه اليهود ، واستعان بمفرقة لنواحي طليلة أيام إقامته منفياً بها ، على الفدر بأولئك الدين أولوه حمايتهم ورعايتهم ؛ وقد شعر المؤرخون النصرارى بلارب بفداحة هذا العدوان ، فلم يذكروا شيئاً عن التحالف بين ألفونسو وأمير إشبيلية والتزموا الغموض في رواية الحادث حتى لا تبدو شناعته .

وكان الأمير القادر بالله قبل أن يبدأ ألفونسو محاربة طليلة ، قد اضطر إلى مغادرة المدينة فراراً من عواقب ثورة قامت بها ، ومن المرجح جداً أن زعماء الثورة استدعوه حينما بدأ ملك قشتالة غزوته لأراضى طليلة .

(١) استقى المؤلف هذه الرواية من بعض المصادر اللاتينية والنصرانية حسبما بين في تعليقاته (ج ١ ص ٣٨١) وترد فيها اسم ابنة المعتمد هكذا Zaida أو Ceida . وهي رواية تحمل سباً الإغراق والبطلان . وإذا لم يكن من المعقول أن يرضى أمير مسلم عظيم كالمعتمد ابن عباد أن يزوج ابنته من أمير نصرانى ، فإنه مما لا يقبله العقل مطلقاً أن يرضى أن تكون ابنته خليفة غير شرعية لمثل هذا الأمير ؛ وإذا لم يكن ابن عباد يقيم في مثل هذا التصرف الدائن وزناً للاعتبارات الدينية والفرعية ، وهو في ذاته مما لا يقبل ، فن المستحيل عليه ألا يحسب أعظم حساب لنتائج السياسية ، وأقلها أن يضطرم شعبه السلم بالثورة عليه وأن يسحقه ويسحق أسرته .

وفي ذلك الحين كان أمير إشبيلية قد سار في جيشه إلى غرناطة ليخضع أميرها عبد الله بن بلكين بن باديس إلى سلطانه ؛ وكان المقتدر بن هود أمير سرقسطة يرى الخطر يشتد عليه يوماً فيوماً من سانشو الأول (شأنجه) ملك أراجون ، خصوصاً بعد أن سقطت في يده قلاع الحدود بوليه وجرادوس وبترابادا وأرجويداس ومونزون ، واحدة بعد الأخرى ، ومن ثم فإنه لم يستطع لإنجاد طليطلة من بين الأمراء المسلمين سوى أمير بطليوس يحيى بن الأفطس الملقب بالمنصور ، فجمع قواته وسار إلى لقاء ألفونسو ؛ وكان ألفونسو قد أثنى عندئذ في ولاية طليطلة حتى صيرها قفراً بلقما ، ولم يكن يبني بهذا العيث والتخريب ، سوى تجريد القلاع من كل وسيلة للحصول على القوات . ومن ثم فإنه لما شعر باقتراب المنصور ، ارتد أدراجه ، فعاد المنصور عندئذ بجيشه إلى حيث أتى ؛ ولم يمض سوى قليل حتى توفي مبكياً عليه من شعبه (٤٧٣ هـ - ١٠٨٢ م)^(١) خلفه أخوه أبو محمد عمر بن محمد المتوكل ، وكان والياً ليابرة (إفورا) وجعل ولده الفضل والياً على ماردة وولده الآخر العباس والياً ليابرة .

وفي العام التالي عاد ألفونسو فعات في بسائط طليطلة وخرّبها مرة أخرى . وكان المعتمد قد استطاع عندئذ أن ينتزع جيّان وأوبدة وبياسة ومرتوس من آل باديس أمراء غرناطة ؛ ومع أنه لم يستطع أن يسير قواته ضد طليطلة ، فإنه سيرها نحو الغرب ، وزحف على بطليوس ، وبذا استطاع أن يحول دون معاونة بني الأفطس للقادر ؛ وكانت بالنسبة قد عادت بعد وفاة أميرها أبي بكر إلى ولائها نحو طليطلة ولكن شغلها أمير دانية . وأما سرقسطة فكان أميرها العالم الباسل المقتدر بن هود قد توفي (٤٧٣ هـ - ١٠٨١ م) . وخلفه في حكمها ولده يوسف

(١) في هذا التاريخ تحريف ، وقد توفي المظفر أمير بطليوس في سنة ٤٦٠ هـ (١٠٦٨ م) وخلفه ولده يحيى المنصور واستمر في الحكم نحو أربعة أعوام . ثم خلفه ولده الثاني عمر الملقب بالمتوكل واستمر في الحكم حتى سقطت بطليوس في أيدي المرابطين سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) . وعلى ذلك فقد كان أمير بطليوس وقت غزو النصارى لأراضي طليطلة هو عمر المتوكل (ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٠ ودوزي ٣ ص ٢٣٩) .

ان أحمد المؤمن . وكان المؤمن يرى وجوب معاونة القادر بن ذى النون معاونة قوية حتى لا تقع سرقة ذاتها فريسة للنصارى أو لابن عباد ، ولكن نضاله المستمر ضد أراجون و برشلونة ، لم يكن يمكنه من أن يستمر ضد قشتالة قوة يعتد بها . بيد أنه حاول أن يقضى على ألفونسو فى كمين دبره . وذلك أنه أوعز إلى حاكم حصن روضة المنيع أن يتظاهر ضده بالثورة وأن يستدعى إليه ألفونسو لى يتسلم منه الحصن بنفسه ، ثم يفاجئه بالاعتقال والأسر . ولكن ألفونسو ارتأب فى الأمر فلم يحضر بنفسه ، وأرسل ولدى أخيه ملك نافار اللذين ربا فى بلاطه مع جماعة من أكابر قشتالة لاستلام مفاتيح القلعة . وهناك انقض المسلمون عليهم وقتلهم عن آخرهم ؛ ولم يستطع ألفونسو أن يثأر لهذه الخيانة الأثيمة لمناعة القلعة واستحالة أخذها .

واستطالت الحرب أعواماً وألفونسو يعيش فى بسائط طليطلة أياً عيث وقد انتسف كل زروعها وأقواتها ، واستولى على كثير من أماناتها الحصينة . وفى العام السادس لبدء الحرب زحف على طليطلة ذاتها بجيش ضخم وضرب الحصار حول المدينة الزاخرة وقطع كل علائقها مع الخارج . وكان يحى القادر أميراً مترفاً يؤثر العيش الناعم على حياة الحرب والنضال ، ولم يكن لقسوته وبطشه ، يتمتع حتى بحب شعبه ؛ ومع ذلك فقد حاول أن يبذل آخر وسيلة للدفاع عن ملكه فاستنهض بنى الأفطس لغوثة وقد أغاثوه من قبل ، واضطروا ألفونسو إلى الانسحاب ؛ وكان عمر التوكل يواجهه عندئذ خطر إشبيلية ، ومع ذلك فقد رأى من واجبه ألا يترك القادر لمصيره ، فبعث ولده الفضل إلى ماردة بجيش لا تقا ذ طليطلة ؛ ولكن جيش ألفونسو كان يفوقه عدة وعدداً . وبذا هزم الفضل فى جميع المعارك التى خاضها ، واضطر أن يعود إلى ماردة ، وقلبه فياض بالأسف والحسرة إذ كان يرى أن سقوط طليطلة قد غدا أمراً مقضياً ، وأنه سيجبر معه أسبانيا المسلمة كلها إلى الهلاك .

ولما رأى القادر نفسه محروماً من كل عون ، ورأى ما يهدد شخصه من شعب

عزّت أقواته ، عرض على ألفونسو أن يدفع الجزية ، وأن يعترف بسلطانه ، وأمل بهذا الثمن أن يفتدى العاصفة التي تنذر به بالهلاك ؛ ولكن ملك قشتالة أبى كل عرض فى هذا السبيل ، وأصر على وجوب خضوع المدينة وتسليمها دون قيد ولا شرط ؛ ولم يلق الشجعان القلائل الذى نادوا بالموت فى سبيل الحرية والاستقلال استحساناً ولا تأييداً من الشعب ، وقد كان يتوق إلى التخلص من يؤسه . وهكذا أصبح القادر عاجزاً عن الدفاع واضطر أن يسلم المدينة بعد أن تعهد ألفونسو لسكانها بتأمين أنفسهم وكافة أموالهم ، وأن يبقى مسجدها الجامع مفتوحاً للصلاة ، وأن يستبقى المسلمون شرائعهم وقضائهم ، وأن يسمح لهم بالهجرة إلى الأراضى الإسلامية ، وأن يحملوا أموالهم دون معارضة . وهكذا سلمت قلعة المدينة ، وكذلك جميع نقطها الحصينة إلى ملك قشتالة ، وتعهد المسلمون بأن يؤدوا له جميع المكوس التى كانت تؤدى إلى بنى ذى النون .

ودخل ألفونسو السادس عاصمة القوط القديمة (طليطلة) فى السابع والعشرين من محرم سنة ٤٧٨ الموافق ٢٥ مايو سنة ١٠٨٥ . وعادت طليطلة إلى حظيرة النصرانية بعد أن حكمها المسلمون ثلاثمائة واثنين وسبعين عاماً ؛ واتخذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين ، وغدت بذلك عاصمة اسبانيا النصرانية ؛ ولم يمض قليل حتى عاد أسقف طليطلة إلى تبوء منصبه كرئيس للكنيسة الأسبانية كما كان الشأن أيام المملكة القوطية . ولما كانت طليطلة دائماً منزل كثير من النصارى واليهود ، فقد تناقص عدد سكانها المسلمين بسرعة . ذلك أن كثيراً من النصارى هرعوا إليها عندئذ من أنحاء قشتالة وليون ؛ ومن جهة أخرى فقد هجرها كثير من المسلمين ممن تبعوا أميرهم القادر إلى بلنسية التى منحت إليه ولايتها ، إما طوعاً أو كرهاً بمعاونة ألفونسو . وهكذا اختتمت دولة بنى ذى النون فى طليطلة .

وكان سقوط طليطلة ضربة قاضية على التفاهم بين ألفونسو وأمير إشبيلية . ذلك أن ملك قشتالة لم يقنع بالاستيلاء على تلك القاعدة الهامة ، ولكنه استولى

أيضاً على جميع الأراضي الواقعة على ضفتي نهر التاجه ، وعلى قلاع مدريد (مجرى) ومقودة ووادي الحجارة وقلعة رباح ، بل غدا يهدد قرطبة وماردة وبطليوس ؛ وهكذا جزع المعتمد وساوره الندم على تحالفه مع ملك النصارى ، وصب جام غضبه أولاً على الوزير ابن عمار الذي عقد هذا الحلف ، والذي اشتهر يومئذ بمقدرته في ميدان الحرب ، كما اشتهر بروعة شعره ، وبراعته في عقد العلاقات السياسية . فقبض عليه وألقاه في السجن ، ثم أمر به فأعدم بالرغم من عديد خدماته وشفاعة العظماء من أصدقائه ، بل قيل إن المعتمد هو الذي تولى إعدامه بنفسه^(١) .

وكتب المعتمد إلى ألفونسو ألا يتمدى في فتوحاته طليطلة ، فإن هو فعل فإن ذلك يعتبر خرقاً للتعاهد ؛ ولكن ملك قشتالة لم ير في إنذار حليفه ما يحمله على وقف سيره المظفر ، وأجاب المعتمد بقوله إنه يملك ولاية طليطلة بالاشتراك مع صديقه الأمير يحيى القادر صاحب بلنسية . ولكي يدل على أنه من جانبه مخلص لشرط التحالف أرسل إليه خمسة فارس من ذوى الدروع الحديدية لمعاونته في محاربة غرناطة ؛ ولكن المعتمد ، وقد غدا يرتاب في جميع تصرفات ألفونسو ، خشى أن يكون هؤلاء الفرسان الذين قدموا لجأه إلى جوار إشبيلية دون دعوة منه ، قد قدموا ليذبوا له مكيدة ما ، فبادر بمقد الصلح مع غرناطة لكي يمود الفرسان النصارى في الحال من حيث أتوا .

وما أن وصلوا إلى طليطلة حتى أبدى ألفونسو دون حرج أنه ينوى افتتاح الولايات المسلمة كلها ؛ ولما أبى المعتمد أن يسلم إلى ملك قشتالة بعض حصون من ولاية طليطلة كانت في يده ، أعلن ألفونسو ضده الحرب ، كما أعلنها على جميع الأمراء المسلمين ؛ ورأى الأمراء المسلمون بعد فوات الوقت كيف قدموا بأنفسهم من جراء تفرقهم إلى عدوهم الوسيلة لتقوية سلطانه عليهم .

وزحف ألفونسو على سرقسطة بآدى ذى بدء ؛ والواقع أن أميرها المؤمن لم يكن ليستحق لوماً على تقاعسه عن نجدة طليطلة ؛ ذلك أنه مثل بنى الأفطس ،

(١) راجع الهامش عن ابن عمار ص ٥١ .

بذل كل ما يستطيع لغوث القادر ، ولكن جهوده لم تكن شيئاً ؛ وكان ملك أراجون وقوامس^(١) قطلونية يهاجمونه بلا انقطاع ، ويشغل في الوقت نفسه بمحاربة أمراء دانية وقسطلون المسامين ، فلم يكن بوسعه أن يحشد قواه في نقطة بذاتها ، وقد أبدى في معارك لاردة ووشقة ضرراً وبديعة من البسالة ، ولكن جهوده لم تتوج بالظفر . ثم شهد قبيل موته سقوط طليطلة وهزه المصاب ، فحزن لموته جميع المسامين المحلصين أياً حزن ؛ ذلك لأنهم فقدوا بفقد عضداً لديهم ؛ وفي الروايات الشعرية ما يفيد أن الفارس القشتالي المنفى السيد الكنبيطور قد عاش في كنفه عدة أعوام^(٢) وحارب من أجله ضد النصاري والمسلمين على السواء ، بيد أن معظمها ينتظم في سلك القصة ولا يدخل في حيز التاريخ .

وخلف المؤتمن ولده أبو جعفر أحمد الملقب بالمستعين بالله (٤٧٧هـ - ١٠٨٥م) وما كاد يلي الحكم حتى أغار عليه ألفونسو ، وأخذت سرسطة مهددة بمصير كمصير طليطلة ؛ وهنا رأى الأمراء المسلمون جميعاً شبح السقوط ماثلاً أمام أعينهم ، فاتحدوا لأول مرة واجتمعت كلمتهم على أن يضعوا حداً لفتوح ألفونسو . وإذا كانت قواهم مجتمعة لا تكفي لرد عدوانه ، فقد اتفقت كلمتهم على الاستنجاد بالرايطين في إفريقية واستدعاهم إلى الجزيرة .

(١) القوامس في الرواية العربية جمع قومس مشتقة من اللاتينية Comes وهي السكونت وأحياناً يعبر عنها بكلمة قط (راجع ابن خلدون ٤ ص ١٨ و ١٨١ و ١٨٢) .
 (٢) كان السيد الكنبيطور (الكيميادور) يتقلب في خدمة بني هود وقد خدم المؤتمن أعواماً ، واشترك في حروب كثيرة .

الفصل الرابع

نشأة المرابطين

وأسباب عبورهم إلى اسبانيا

(من سنة ٤٤٢ — ٤٤٧٨ هـ) (١٠٥٠ — ١٠٨٥ م)

١ — عبد الله بن ياسين

كان اللمتونيون الذين اشتق اسمهم من توبهم البسيط « اللمت » يرجعون أصلهم مثل أقربائهم من بني كدالة ومسطاسة^(١) إلى قبيلة صنهاجة التي نزحت من بلاد العرب إلى المغرب^(٢) وكانوا من البدو الرحل يتنقلون في صحارى إفريقية من واحة إلى أخرى حتى انفصلوا في النهاية عن باقي القبائل ، ونزلوا في قاصية غربي إفريقية على مقربة من المحيط الأطلانطي^(٣) . وكانوا يجهلون العلوم والفنون والكتابة ، ويجهلون تعاليم الإسلام بالرغم من مجاورتهم للأمم الإسلامية ، وكان دينهم « المجوسية »^(٤) ، وقد حرموا تذوق الرفاهة التي تخلقها حضارة الإنسان ، ولكنهم كانوا أيضاً بمنجاة من الرذائل التي تترتب عادة على ارتفاع مستوى الحياة

(١) يورد المؤلف اسم مسطاسة محرفاً « مسطافة » ، وهناك قبيلة أخرى من قبائل صنهاجة تسمى « مسوفة » ، ولكن الأرجح أنه قصد الأولى . وكدالة تكتب أحياناً جدالة . (راجع روض القرطاس (طبع أوروبا) ص ٧٥ ، وابن خلدون ٦ ص ١٤٤ ، والاستقصاء للسلاوي ١ ص ٩٨ ، وأبو الفداء ص ١٧٤) .

(٢) راجع ابن خلدون ٦ ص ١٥٣ ، وروض القرطاس ص ٧٥ .

(٣) يعرف المحيط الأطلانطي في الجغرافية العربية بالبحر المحيط والبحر الأعظم وبحر اقنايس وبحر الظلمات وغيرها .

(٤) راجع ابن خلدون ٥ ص ١٨١ .

البشرية؛ وكما حدث في العصر القديم بالنسبة لاناخرسيس الاسكيتي^(١)، فقد خرج يحيى بن إبراهيم الممتوني في أواسط القرن الحادى عشر الميلادى لتحصيل المعارف التى تنقص قومه فى البلدان الأخرى ، فتجول فى بلاد المغرب ورحل إلى بلاد العرب ، ووقف على مبادئ الإسلام ، وكذا على العلوم والمعارف التى كانت ذائعة فى العالم الإسلامى فى هذا العصر ؛ وكان يحز فى نفسه ما يراه من شدة تأخر قومه عن الأمم المتقدمة . وقد عقد العزم على ألا يدخر وسعاً فى تثقيف الممتونيين فى صحاريهم بعالم الإسلام ، وتعريفهم بمزايا المدنية ؛ وكان يحتاج فى ذلك إلى عالم مسلم ، فوقع على بغيته أثناء مقامه بالقيروان على يد فقيه من معارفه ، وألقى طلبته فى رجل يضطرم غير تلك المهمة الشاقة ، أعنى تثقيف أولئك البدو الصحريين هو عبد الله بن ياسين^(٢) . وكانت قبائل لمتونة وكدالة ومسطاسة تعرف باسم مشترك هو : « الملتمون » وذلك إما لأنهم كانوا يتخذون فى أعراسهم نوعاً خاصاً من الحجاب ، أو لأنه حدث ذات مرة فى بعض حروبهم ، أن نساءهم كن يقاتلن معهم بحجبات حتى يحسبن فى عداد الرجال^(٣) ؛ واستقبل « الملتمون » الرسول الجديد عبد الله بفتور ، ولكن دروسه ما لبثت أن نفذت إلى فلوب البدو البسطاء ، وما لبث أن رفعه أولئك المسلمون الجدد إلى أعظم مقام واتخذوه سيدهم وحاكمهم . ثم دانت معظم قبائل الصحراء لعبد الله تارة بالإنقاذ وتارة بالسيف ، واجتمعت تحت لوائه . وأعلن زعيم الملتمين نفسه أبو زكريا يحيى بن عمر أنه تلميذه وتابعه ، وقنع من الزعامة بقيادة المجاهدين « فى سبيل الله » إلى ميدان الحرب ، فاختاره عبد الله وهو الإمام وصاحب الأمر ، أميراً وقائداً ، وأطلق على الملتمين اسماً جديداً هو « المرابطون » (أى الذين يتماهدون على أن ينحسروا أنفسهم لخدمة

(١) هو فيلسوف من سيكيثيا نرح إلى اليونان ليتعلم فيها ، ويقال إنه كان صديقاً لصولون ، وقد اشتهر بوفرة الذكاء والحكمة .
(٢) هو عبد الله بن ياسين الكزولى أو الجزولى (روض القرطاس ص ٧٨ و ٧٩ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٢ و ١٨٣ ، والاستقصاء ١ ص ١٠٠) .
(٣) الاستقصاء ١ ص ٩٨ .

الله أو بمعنى آخر مشتق من كلمة «الرابطة» المسلمون الورعون المنقطعون للعبادة^(١) وبث الدين الجديد في أهل الصحراء حماسة واضطراماً ودفعهم زعمائهم إلى الفتح ، فسارعوا من نصر إلى نصر . وكان المغرب الأقصى (موريتانيا) قد استقل عن إسبانيا المسلمة في أوائل القرن الحادى عشر ، وبسط آل زيرى من قبيلة زناتة سلطانهم على معظم أرجائه ، فغمرتة جيوش المرابطين الضخمة ، وكانت تتألف من فرسان مهرة ، وتضم بالأخص صفوفاً من المشاة البارعين في فنون القتال ؛ وتؤلف الخطوط الأولى من صفوف من أشجع الجند المشاة يحملون حرايا بالغة الطول . وكان المرابطون يحرزون النصر بجرأتهم وجلدهم في كل حرب تقريباً . وكان ممثل زعيمهم وهو يتقدمهم محارباً في أول الصفوف يذكي شجاعتهم وبسالتهم . على أن هذا الإغراق في الجرأة من جانب القائد يحجب أبى زكريا لم يكن مما يرضى الإمام عبد الله بن ياسين حتى أنه أمر به ذات يوم فعوقب على تهوره بالجلد عشرين سوطاً^(٢) . ومع ذلك فإن أبا زكريا لم يفارقه شغفه بخوض المعارك في صميم لظاها ، حتى سقط ذات يوم قتيلاً مقاتلاً في إحدى الوقائع . ولكن جنده أحرزوا النصر مع ذلك .

فاختار الإمام بما له من السلطة العليا ، أخاً أبى زكريا أبا بكر بن عمر مكانه ؛ وفي العام التالى لقي عبد الله حتفه حينما كان يغزو ضد أهل تامسنا ، ويقا تل دون تحوط ، واثقا في حظه وطالعه (٤٥١ هـ — ١٠٥٩ م)^(٣) .

وكان مؤسس الدولة المرابطية يضطرم بتمصب مفرق استطاع أن يبشه في قبائل الصحراء ، وكان يرى سحق جميع الذين لا يتلقون تعاليمه كلها دون قيد ولا شرط ، وكثيرا ما فعل ذلك متى توفرت له الوسيلة . وكان شديد التقشف في مأكله ومشربه . وكان خطيبا موهوبا قوى التأثير والإقناع ، واسع العلم والمعرفة

(١) هذا التفسير تنقصه الدقة فالمرابطون مشتقة من الرابطة . وأصل معنى الرباط إرتباط الخيل بإزاء العدو في الثغور ، ومنه المرابط وهو من لازم الثغر لدفع العدو ، أخذنا من قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، اصبروا وصابروا ورابطوا ، واتقوا الله لعلكم تفلحون » .

(٢) راجع روض القرطاس ص ٨١ .

(٣) راجع روض القرطاس ص ٨٤ .

يرى فيه البدو البسطاء مخلوقا فوق البشر ، وبلغ من نفوذه لدى هذه الجموع البدائية أن استطاع أن يقودها لفتح أهل المغرب والقبائل البربرية ؛ وكانت تعاليمه غاية في البساطة تسير جنبا إلى جنب مع نظم الدولة البسيطة . وكانت أخضر واجبات الرباط الورع تنحصر في الصلاة والزكاة وأداء العشر . وكانت الغنائم التي تحصل في الحرب بعد أن يفرز منها خمس الإمام توزع على المجاهدين فتحفزهم بذلك إلى الغزو والظفر من جديد .

٢ — فتوح يوسف بن تاشفين في إفريقية

ولما توفي عبد الله بن ياسين قبض أبو بكر على زمام الحكم دون شريك ، ولم يكن قبل ذلك سوى قائد للإمام ؛ ولما كانت مدينة « إفريقية » (١) التي جعلها الأمير — وهو اللقب الذي اتخذها أبو بكر — مقامه قد أخذت تضيق بجموع صحبه الزاخرة فضلا عن سوء موقعها ، فقد رأى أن يختار موقعا آخر يبتنى فيه عاصمة جديدة للملك ، وسرعان ما ظفر بهذا الموقع في بسيط حافل بالزرع والماء ؛ وأقيمت به غير بعيد قصور ومنازل عديدة ، وسميت المدينة الجديدة « مراکش » . ومع أن أبا بكر لم يشرف على بنائها ، بل أشرف عليه خلفه ، فإنه يجب أن يعتبر مع ذلك مؤسس هذه المدينة الشهيرة ، وكان تأسيسها على الأرجح في أوائل سنة ٤٥٤ هـ — ١٠٦٣ م .

ذلك أن أبا بكر بينما كان مشغولا باختطاط عاصمته الجديدة ، إذ نشبت حرب أهلية بين قبيلتي كدالة ولتونة ، فهرع إلى الصحراء لكي يحول بتدخله دون أن تبطش إحدى القبيلتين بالأخرى ، وكانت كلتاها تقاتل الأخرى بمنتهى الشكال والشدة دون أن تتضح أسباب هذه الخصومة . ولما تعذر إقناع القادة من الفريقين بعقد الصلح ، بادر الأمير إلى نجدة لتونة في خيرة جنده نصره لها على خصومها ، واستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن ترقوت من قبيلة صنهاجة على العاصمة الجديدة وأمره أن يتم تخطيطها وبناءها (١) .

(١) راجع في تأسيس مراکش روض القرطاس ص ٨٩ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٤ والاستقصاء ١ ص ١٠٧ وما يورده في ذلك من مختلف الروايات .

وبينما كان أبو بكر يقاتل كدالة في الصحراء ، عمده يوسف بن تاشفين إلى توطيد سلطانه في المغرب الأقصى . وكان هذا الرجل الذي خلق للزعامة يجمع بين جمال الطلعة والجسم ، وبين أبدع المواهب العقلية . وكان يتمتع بأوفر قسط من الذكاء والرأى الثاقب والشجاعة وبعد النظر ، وهى أخص صفات الزعامة ؛ وكانت شهامته وشغفه بالحرب ، وقد كان يقودها بفطنة وحسن طالع ، يسبغان عليه خلال الفروسية ؛ وكان جوده وولائه ، واحتقاره لمظاهر الترف في اللبس والسكن ، تكسبه محبة شعبه ، وتقوى في نفوسهم من جهة أخرى عواطف التوقير والشرف التى وطنتها صرامته وعدالته ؛ وقد بلغ من اعتداله وتقشفه أنه لم يكن يأكل سوى خبز الشعير ولحم الإبل ، ولا يشرب سوى لبن الإبل ؛ وإلى هذا الاعتدال والتقشف يرجع الفضل فيما كان يتمتع به من صحة بديمة . وفى كونه قد عاش مائة عام ، وهو عمر نادر البلوغ^(١) .

وابتلى يوسف فى مراكن مسجداً بديماً ، وقصراً حصيناً ، وعدة أبنية أخرى (سنة ٤٦٣ هـ - ١٠٧٠ م) ، بيد أنه لم يهمل شأن الحرب ؛ وكان لديه فضلاً عن حرسه الخاص المؤلف من ألفى عبد اشتراهم من ساحل غيانه ، وفضلاً عن قوة أخرى تسهر على شخصه ، مؤلفة من بضعة مئين من الصقالة النصارى من اسبانيا يخذقون فنون القتال ، جيش ضخم يضم زهاء مائة ألف مقاتل ، وينقسم إلى خمسة جيوش ؛ فإذا دقت الطبول سارت الجيوش المختلفة تحت أعلامها الخاصة لمقاتلة العدو فى أكمل نظام . وقادها يوسف ببراعة ، فقلبت على أنحاء موريتانيا (المغرب الأقصى) كلها ، وافتتحت مدينة فاس الحصينة ، وملأ يوسف خزائنه بالمال مما أصاب فى غزواته المظفرة ، وبالأخص مما انتزع من اليهود الذين كانوا يقطنون المغرب يومئذ بكثرة ، وكان يشتد فى مطاردتهم .

أما أبو بكر فبعد أن أتم حربه ضد كدالة ، وفاز بالنصر عليها ، وقاد جيشه

(١) كان مولد يوسف بن تاشفين سنة أربع مائة من الهجرة ووفاته سنة خمس مائة . راجع فى لشأته وخلاله روض القرطاس ص ٨٧ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٤ وما بعدها ، والحلل الموشية (طبع تونس) ص ١٢ وما بعدها .

المظفر حتى قلب بلاد السودان قفل راجعا إلى مراکش (سنة ٤٦٦ هـ - ١٠٧٣ م) ولما اقترب من المدينة دعا يوسف إلى لقائه متظاهرا بصداقته ، وكان قد وقف على أطماعه وعظيم فتوحه وقواته معترضا أن يجرده من الولاية التي قلده إياها بالغدر لا بالعنف ، فسار يوسف إلى لقائه في مكانه بجيش ضخم ، فارتاع أبو بكر ، ورأى أنه لم يبق له من السلطان سوى الاسم ، وأعلن في الحال استعداده لأن يترك لابن عمه مملكة المرابطين كلها وعاصمتها مراکش ، وأن يقنع بحكم اللمتونيين في الصحراء ، فلم يتردد يوسف في قبول هذا العرض ، وفي الحال أخذ البيعة لنفسه من جمهرة الزعماء الحاضرين ، وارتد أبو بكر إلى اللمتونيين في الصحراء . وهنا تختلف الروايات في مصيره ، فيقول البعض إنه لبث هنالك يحارب قبائل السود المجاورة مدى ثلاثة أعوام حتى توفي في سنة ٤٦٩ هـ - ١٠٧٦ م ويقول البعض الآخر إنه عكف على الأهبة للحرب لأنه لم يستكن إلى فقد سلطانه ، وأنه سار إلى محاربة يوسف ، ونشبت بينهما معركة هزم فيها أبو بكر ، وأن النفاذ لم يشعر بنحو المحسن إليه بشيء من العرفان فأمر بإعدامه^(١) .

وكان يوسف بن تاشفين يبسط سلطانه يومئذ في شمال غربي إفريقيا على مملكة تمتد من حدود غيانه خلال الصحراء ، وخلال موريتانيا (مراكش) حتى البحر الأبيض المتوسط ، ويحدها المحيط الأطلنطي من الغرب ، ويحدها من الشرق ولاية قرطاجنة (تونس) التي كانت تنضوي يومئذ تحت لواء خلفاء مصر الفاطميين . وفي سنة ١٠٧٠ م سقطت في يده طنجة ، وكانت في يد الإدارة الذين أخرجوا من مالقة . وعاونوه في أخذها المعتمد بن عباد أمير إشبيلية نكاية في أعدائه ، فبعث السفن لمحاصرتها من البحر ، وحاصرها يوسف من البر حتى سقطت ، ولم ينقصه سوى سببة ، للاستيلاء على جميع بلاد العدو المقابل لشاطئ الأندلس .

ولما امتد سلطان المرابطين نحو المشرق بافتتاح تونس (سنة ٤٧٢ هـ - ١٠٨٠ م)

(١) تضع الرواية العربية وفاة أبي بكر سنة ٤٨٠ هـ . راجع في لقائه بيوسف ومصيره روض القرطاس ص ٨٧ ، وابن خلدون ٦ ص ١٨٤ ، والاستقصاء ١٠٦ ص ١٠٦

سقطت سبتة كذلك في أيديهم ، بعد حصار طويل (سنة ١٠٨٤ م) ؛ وهنا بدت شبه الجزيرة الأسبانية لهذا الأمير المطبوع على الظفر فتحتا يسير النزال ، لا سيما وقد دعاه أهلها المسلمون لنجدتهم ضد النصارى .

٣ . — الأخطار المحدقة بالإسلام في اسبانيا

اجتمعت كلمة ألفونسو السادس ملك قشتالة وسانشو الأول ملك أراجون ونافارا (نبره) ، وكذلك الكونت برنجار ريموند فيما يظهر ، على سحق الدولة الإسلامية في اسبانيا . ذلك أنه بالرغم من أن المسلمين قد حكموا معظم أرجاء الجزيرة زهاء أربعائة عام ، فقد كان النصارى يرون أن حقوقهم ما تزال قائمة عليها ، وأن أرض اسبانيا ما تزال ملكا لهم ، ولم يكن يخالفهم شك في أنهم سوف يستعيدون الجزيرة كلها ذات يوم ، ويخرجون الفاتح الأجنبي منها . وكان ألفونسو السادس يرى أن هذا اليوم قد حل . ذلك أن الممالك النصرانية نبذت عندئذ كل خصوماتها ومعاركها التي كانت فيما مضى تشل قواها ، وأخذت تسد كل قواها مجتمعة ضد أعداء النصرانية . وكان من الميسور عقد هذه الوحدة ، فبذم بعيد لم تجتمع أطراف المملكة النصرانية كما اجتمعت يومئذ ، إذ كان ألفونسو السادس يحكم جليقية وجزءا من البرتغال وأشتوريش وليون وقشتالة وبسكونية ؛ وكان سانشو راميريز يحكم أراجون ونافارا ، وكان الكونت برنجار ريموند يحكم برشلونة وأورجل ؛ وإذن فقد كان النصارى الأسبان على حق في أمانهم ، خصوصا بعد أن سقطت طليطلة الحصن العظيم في أيديهم ، وكانت أعظم معقل للدولة الإسلامية في اسبانيا ، وكان كل شيء يبدو عندئذ ممكنا .

وبينا سار إلى الأندلس جيش ضخم من جليقية وليون وانتزع مدينة قورية من بنى الأفطس ، ووصل إلى بسائط إشبيلية ، فأحرق قراها واتسف حقولها ، وسارت قوة من الفرسان إلى شذونة ، ثم اخترقت جزيرة طريف قاصية اسبانيا حتى البحر ، إذ حاصر القشتاليون بمعاونة جنود من الأرجونيين والقطوليين ، وضعهم ألفونسو تحت قيادته فيما يظهر ، قلعة سرقسطة الحصينة ؛

وسقوط سرقسطة يضع منطقة الايبرو (ابره) كلها حتماً في يد النصارى ، ويجعل الشواطئ الأسبانية مما على البحر الأبيض عرضة لغزواتهم .
 وأثنى النصارى في ولاية سرقسطة كلها بالنار والسيوف ، ولم يكن يردم في الحرب أى اعتبار إنسانى ما دام الأمر متعلقاً بأعداء الدين ، ولكن الحصون الإسلامية قاومتهم مقاومة شديدة ، وتلقى المؤمن بن هود وعدا بوصول المدد السريع من إخوانه المسلمين في جنوب الجزيرة . بيد أن النصارى كانوا يشددون الضغط على سرقسطة يوماً بعد يوم ، وكان المسلمون في شبه الجزيرة يرتجفون جميعاً لاحتمال سقوط هذا المعقل المنيع ، وكانت قواتهم وأهباتهم في حالة يرثى لها وكانت دون قوى النصارى ، ومن ثم فقد كانوا بلا ريب يتطلعون إلى عون من الخارج . عندئذ اتجهت أبصارهم إلى قوة المرابطين الناهضة في إفريقية ، وكانوا قد استولوا على بعض مدن الأندلس دون معارض ، وعولوا على استدعائهم والتماس عونهم وغوثهم^(١) .

وكان المعتمد بن عباد وهو يومئذ أعظم أمراء الأندلس يتحمل بتصرفه الطائش في معاونة ألفونسو على محاصرة طليطلة أكبر تبعة في تلك النكبة التي نزلت به وبإخوانه المسلمين . بيد أنه غدا بعد أن تبين خطأ أوفرهم نشاطاً في العمل على تحطيم صولة النصرانية ، وكان يرى مثل باقى الأمراء والولاة المستقلين أن قواهم قاصرة لا تكفى . ففي خلال مؤتمرين عقد أولهما في إشبيلية ، وثانيهما في قرطبة اتفق الأمراء المسلمون على أن رسالوا سفيراً إلى يوسف بن تاشفين في إفريقية يلتمسون عونه وغوثه . أجل عارض البعض في ذلك ولا سيما عبد الله ابن سكوت والى مالقة ، وكان يرى أن المرابطين أشد خطراً عليهم من النصارى وأنه ما يزال من اليسور أن ترد عادية النصارى بالاتحاد والثابة ، ولكن معظم الأمراء كانوا يائسين من الاعتماد على قواهم ، فأنحوا باللوم على عبد الله ساخطين ، بل رماه بعضهم بالخيانة ، وعهدوا إلى المتوكل أمير بطليوس ، وكان يومئذ أعلم

(١) في روض القرطاس تفصيل حسن لغزوات النصارى في تلك الفترة (ص ٩٢) .

أمراء الأندلس ، بأن يكتب إلى يوسف رسالة يصف فيها ما يلقاه المسلمون من
النصارى من المحن ، ويلتمس إليه أن يبادر بنفوسهم قبل أن تقع الطامة الكبرى ،
ووقع هذه الرسالة ثلاثة عشر من الأمراء المستقلين ؛ فلما وصلت الرسالة إلى يوسف
تشاور في أمرها مع أكابر الزعماء والقربى فيما يجب صنعه . ورأى هؤلاء القادة
الذين خرجوا حديثاً من القفر ، ولم يسمعوا من قبل باسم النصارى ، ولم يعلموا
أن للإسلام مثل هذا العدو القوي ، أنه يجب زولاً على حكم الدين أن يبادر
المسلم إلى غوث المسلم ضد أعداء الدين .

على أن زعيم المرابطين وقد صقلته التجارب وبلغ ذروة النضج ، (وكان يومئذ
قد جاوز السبعين) لم ير أن واجبه يقتصر في ذلك على النزول عند بواغث الغيرة
الدينية ؛ ونظراً لنقص معرفته بالجزيرة وبالمدو المنتظر وكونه يخشى أن محاربة
النصارى الأسباب قد لا تسفر عن النجاح المحقق ، فقد رأى أن يتبع في ذلك
نصح كاتبه عبد الرحمن^(١) وهو أندلسي المولد يعرف الجزيرة وشؤونها حق المعرفة ،
فشرح له عبد الرحمن ما يعترض الحرب في الجزيرة من عظيم الصعاب ، لأن معظم
الجزيرة في يد النصارى ، والجزيرة ذاتها وعرمة البسائط تعترضها جبال صعبة المسالك
تحول دون الفتوح السريعة ، ويمكن تشبيهها بسجن يندر أن يستطيع الداخلون
إليه الخروج منه . وتساءل الكاتب أى صداقة تربط سيده بأولئك الأمراء ؟
وأى قربى تحمله على غوثهم ؟ وأى ضمان قدموه إليه ؟ قال : فإذا انتصر عليك
الأعداء فقد يقطع عليك طريق العودة إلى إفريقية بأيسر أمر . ومن ثم فنصحني
إليك هو أن تخطر أمير إشبيلية أنك لا تستطيع العبور إلى إسبانيا قبل إخلاء
حصن الجزيرة ، وبذا تملك موضعاً أميناً تشغله حامية مخلصه ، وتبقى في كل وقت
على اتصال دائم بإفريقية^(٢) .

(١) هو كما في الحلل الموشية عبد الرحمن بن أسبط ، وكان أندلسياً من أهل المرية

(ص ٣٢) .

(٢) يورد ابن الخطيب نص الحديث الذي أدلى به عبد الرحمن إلى يوسف فيما يأتي :

« فقال (أى عبد الرحمن) له أيد الله الأمير تعمرون الثمن ، وسبعة أثمان يهرها النصارى ، =

وفى ذلك الحين الذى وجهت فيه الرسالة إلى أمير المرابطين بطلب الغوث ، وانتظرت منه الأمداد ، كان ملك قشتالة لا يزال يشحن فى أراضي المسلمين ، وفضلاً عما كانت تشعر به سرقسطة كل يوم من ازدياد الضغط عليها وكونها كانت تحارب جيرانها العامين ، كان بنو الأفطس إزاء خطر داهم . ذلك أن ألفونسو كان يندهم بتخريب جميع مدائنهم إذا أبوا الخضوع لسلطانهم المظفر . وقد رد الأمير العالم عمر المتوكل صاحب بطليوس على مطالبه برسالة طويلة ، بيد أنه لم يحجم عن المضى فى غزوانه وفتوحه^(١) .

٤ — غلبة ألفونسو السادس على أسبانيا المسلمة

وبينا كان يوسف بن تاشفين يتردد فى العبور إلى أسبانيا إما لأنه لم يستكمل أهبته أو لأن الحصون المطلوبة لم تسلم إليه ، حاول عدة من الأمراء بأداء الجزية وتسليم حصون الحدود أن يحصلوا على مهادنة ألفونسو ولو إلى حين . ولم ينجح أمير إشبيلية نفسه من ذلك الإذلال المهيئ . وبعث ألفونسو إلى إشبيلية سفيراً تسميه الرواية العربية بقرمط البرهانس^(٢) ومعه إلى المعتمد رسالة تفيض بكبرياء وصلفاً ينعت فيها نفسه بالقيصر ومسيد الشعبين ، وإمام الشريعتين^(٣) . وتقول

== وهى (أى أسبانيا) منيعة مريجة سجن لمن دخلها لا يخرج منها إلا تحت حكم صاحبها ؛ وإن أنت جزت إليها وحصلت فيها ما يكون لك فى نفسك من شئ ، وهو الرجل الذى استدعاك ما بينك وبينه عتاب قديم ولا صداقة متصلة ، ويتقن إذا نضى الله الفرض من العدو أمرك بها ، والحال كما ترونه ، والنظر إليكم ، فاكتبوا إليه (أى إلى المعتمد) فإنه لا يمكنك الجواز إلى أن يعطيك الجزيرة الخضراء فتعجل فيها ألقالك وأجنادك ، ويكون الجواز بيدك متى شئت « (الحلل الموشية ص ٣٢) .

(١) راجع نص هذه الرسالة فى الحلل الموشية (ص ٢٠ و ٢١) ، وهى رسالة تفيض بشجاعة ولأباء ونبل .

(٢) هكذا ورد اسم السفير فى خطاب ألفونسو السادس إلى المعتمد ، حسبما ينقله إلنسا ابن الخطيب فى الحلل الموشية (ص ٢٢ و ٢٣) ، ولكن يلوح لنا أن هناك تحريفاً فى كلمة « القرمط » والأرجح أنها كلمة « القومط » البرهانس ، (أى السكونت) وهو بالأفريقية (Alvar Fanez) وقد كان من أكابر قادة ألفونسو ورجال دولته .

(٣) ألفاظها كما وردت فى الحلل الموشية « من الإنبيطور ، ذى اللتين الملك المفضل الأدفلس بن شانجه » ولعل الإنبيطور هنا هو الإمبراطور .

الرواية العربية إن المعتمد أجاب على هذه الرسالة برسالة أشد كبرياء وعنفًا ولكنها تذكر مع ذلك أن المعتمد اضطر لإزاء تردد يوسف في العبور إلى إسبانيا أن يؤدي جزية مشينة ، ومن ثم فإنه يحق لنا أن نرتاب في صحة هذه الرسالة^(١) . وكان مع سفير ألفونسو قمرط البرهانس يهودى بارع في شؤون النقد يدعى ابن شاليب ، والظاهر أن ألفونسو وقع غير مرة على مال زائف مما يقبضه من جزية الأمراء المسلمين ، فأمر اليهودى أن يفتن إلى ذلك فيما يقبضه من المعتمد ، فلما حمل إليه الوزراء مال الجزية التى يجب أن يؤديها المعتمد إلى ملك قشتالة أبى أن يتقبله دون فحص للتحقق من صحته ، فأثار ذلك نقاشا حادا ، وحاول السفير تسوية الخلاف فاقترح أن يقدم ابن عباد بدل المال المطلوب سفنًا حربية بقيمة الجزية لأن اليهودى مأمور ألا يتسلم المال دون فحص وتحقيق .

ولكن المعتمد ازداد غضبًا لأقوال السفير وصاح بأنه لا يستطيع أن يحتمل بعد طغيان النصارى الأوغاد بل قيل إنه بطش بالسفير خلافا لما يقضى به قانون الأمم (القانون الدولى) . وفى بعض الروايات العربية أن المعتمد فقأ عيني السفير بنفسه وقتل رفاقه وهم ثلاثمائة ، ولم ينج منهم سوى ثلاثة لاذوا بالفرار . وضرب اليهودى حتى غشى عليه ثم صلب ؛ ولكن توجد ثمة رواية عربية أخرى أوثق من هذه (والروايات النصرانية لا تذكر شيئًا عن الحادث) مفادها أن المعتمد كان أقل خشونة فى معاملة السفير . ذلك أن السفير كان يقيم مع حاشيته فى الخيام فى ظاهر إشبيلية ، فأنسل إلى خيمة اليهودى بعض العبيد الصقالبة وقتلوه والنصارى الذين كانوا معه . وكان ذلك بأمر المعتمد بلا ريب . أما حياة السفير فقد حفظت نزولا على قانون الأمم ، وأردت السفير إلى طليطلة وهو يتوعد بنقمة مولاه^(٢) .

(١) ورد فى الحلل الموشية نص هذه الرسالة ، وفيها ينمى ابن عباد على ألفونسو كبرياءه وصفاته ويرد إليه وعيده (ص ٢٣ — ٢٥) .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه السفارة وما وقع للسفير النصرانى وزميله اليهودى ابن شاليب فى الحلل الموشية ص ٢٥ و ٢٦ ونفج الطيب ص ٢٧٠ وابن خلكان ص ٣٩ وابن الأثير ص ٩٨ والاستقصاء ص ١١٣ ؛ والروايات العربية تختلف فى بعض التفاصيل ولكنها تتفق فى هذه السفارة وفى غايتها ، راجع أيضاً دوزى ص ١١٩ .

وتبين المعتمد بمد التأمل الهادئ سوء تصرفه ، ونصح الوزراء بأن يُصَوَّر الحادث كفورة سخط جاش بها الشعب ضد اليهودى لما أبداه من عدم الثقة ، وأن يمد ألفونسو بالترضية الكافية وذلك اتقاء للمعاصفة التى تبدو قريبة فى الأفق ؛ ولكن المعتمد كان يرى رأياً آخر فاستدعى ابنه الرشيد ، وكان قد أخذه البيعة بولاية عمه ، وأفضى إليه بأنه إذ يستحيل عليه مقاومة أطماع ألفونسو وطفياه بالسيف يعتزم أن يستدعى المرابطين إليه ، وأنه يؤثر أن يسحق على يد إخوانه فى الدين على أن يسحقه ألفونسو اللعين . وحديث المعتمد مع ولده يشف عن السبب الذى حمل يوسف بن تاشفين على التريث فى إجابة دعوة أمراء الأندلس ؛ ذلك أنه طلب تسليم حصن الجزيرة فى الأندلس وهو من أراضى أمير إشبيلية ، فتردد المعتمد فى تحقيق طلبه ، ولكن المعتمد رأى عندئذ أنه يجب أن يختار بين أن يسحق على يد ألفونسو وأن يلقى بنفسه فى يد المرابطين . ولما بين الأمير الرشيد لوالده ما ينطوى عليه التجاؤء إلى المرابطين من الخطر أجابه المعتمد بما يأتى : « أى بنى والله لا يسمع عنى أبداً أننى أعددت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى ، فتقوم على اللعنة فى منابر الإسلام مثل ما قامت على غيرى » فى حرز الجلال والله عندى خير من حرز الخنازير ^(١) .

٥ — يوسف بن تاشفين يعتزم العبور إلى اسبانيا

وبادر المعتمد فأرسل إلى المغرب سفارة تحمل رسالة بخطه وفيها ينعت سلطان المرابطين « بأمر المؤمنين » . وكان يوسف قد تلقب بأمر المؤمنين قبل ذلك بقليل نزولاً على رغبة الزعماء وشفعه بلقب « ناصر الدين » ، وكانت هذه خطوة ذات شأن ، ذلك أن أحداً لم يجروء على ادعاء الخلافة قبل ذلك إلا إذا كان من سلالة النبي (ص) أو ادعى ذلك على الأقل . ومع ذلك فقد كان يوسف يعترف

(١) هكذا وردت فى الحلل الموشية (ص ٢٨) ، وقد أوردها المؤلف بشيء من الزيادة فى العبارة الأخيرة هكذا : « وتالله يا بنى لاني لأؤثر أن أرمى الجلال لسلطان مراکش على أن أغدو تابعاً لملك النصارى وأن أؤدى له الجزية » . وراجع أيضاً ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٣ فى ترجمة يوسف بن تاشفين . وما قاله ابن عباد بهذه المناسبة موضع خلاف . والمتفق عليه هو أنه قال إن رعى الجلال خير من رعى الخنازير .

بدعوة خليفة بغداد العباسي ، بل قيل في بعض الروايات العربية إن الخليفة المستظهر بالله قد عينه أميراً على إفريقية ، وأحيط هذا التعمين بجميع الرسوم والتقاليد المرعية (١) .

ويصف المعتمد في كتابه (إذا صح النص الذي انتهى منه إلينا) ما وصل إليه المسلمون في الأندلس من جراء خلافهم وتفرق كلمتهم من حال يرثى لها ويتحدث عن ألفونسو ملك قشتالة في أعنف لهجة ، ويذكر كيف أنه في كل يوم ينقض على أراضي المسلمين كالكلب السعور فيعيث فيها ، ويفتح الحصون ، ويسبي السكان ، ويشخن في كل شيء دون أن يهب أحد من أمراء الأندلس لغوثهم والدفاع عنهم ، وذلك بالرغم من أنهم يرون بأعينهم محنة ذويهم وأصدقائهم وجيرانهم ؛ وينسب المعتمد هذا الخور والتخاذل إلى اعتدال جو الأندلس ، وإلى الشغل بالملاذ ، وإلى الحمامات ذات الماء العطر ، وإلى المال كل الشهية والعيش الناعم الرغد ، ويرجو ألا يتردد يوسف وهو سيد أمم عظيمة وملك ضخم في أن يعبر إلى أسبانيا ، وأن يقاتل ذلك العدو الذي يطارد المؤمنين بكل ما يملك من غدر وخديعة قاصداً نحو الإسلام في أسبانيا (٢) ، وكتب الوزير أبو بكر (٣) كتاباً بنفس المعنى يؤكد فيه بحق أن انهيار سلطان المسلمين في أسبانيا لا يرجع إلا إلى تفرقهم وتخاذلهم ، وأنه بينما يقوى النصراني بالاتحاد ويتزعجون أراضي المسلمين ومعاقبتهم بالعنف والخديعة وبالوعيد والوعد بالسيف والإقناع ، إذا يقوى المسلمون تنضب يوماً بعد يوم . وقد غصت المساجد المتروكة بالقساوسة من أعداء

(١) وردت هذه الرواية في ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨ وراجع الحلل الموشية ص ١٦ .
(٢) راجع نص هذا الخطاب الذي ينسب لابن عباد إرساله إلى يوسف بن تاشفين في الحلل الموشية ص ٢٨ و ٢٩ ، وقد لحصه المؤلف تلخيصاً حسناً ؛ وقد أشار إليه في روض القرطاس (ص ٩٢) .

(٣) جاء في الحلل الموشية أن أبا بكر هذا الذي تنسب إليه هذه الرسالة هو «أبو بكر ابن الجند» (ص ٢٨) ، ولكن يلاحظ من جهة أخرى أن أبا بكر بن زيدون ولد الشاعر الأشهر أبو الوليد بن زيدون الخزومي كان يومئذ من وزراء المعتمد بن عباد ، وكان بين رسل المعتمد وسفرائه إلى يوسف بن تاشفين ، ولعله هو كاتب الرسالة المشار إليها (راجع ابن خلكان ج ١ ص ٥٤ ، ونفع الطيب ٢ ص ٥٢٦) ، أما نص هذه الرسالة فقد ورد في الحلل الموشية (ص ٣٠ و ٣١) .

الدين ، ونشرت الصلبان فوق المنائر التي كان يتلى فيها الأذان من قبل ، وأخذت النواقيس تقرع للقداس بعد أن كان يدعى للصلاة . ويختتم الوزير كتابه بقوله إن يوسف قد غدا معقد الآمال وإنه يعتقد أن الله قد اصطفاه لإنقاذ الإسلام^(١) . ولما كان يوسف قد أبدى أنه لا يستطيع العبور إلى أسبانيا إلا إذا أعطى له حصن الجزيرة فقد ارتضى أمير إشبيلية هذه التضحية بالرغم من اعتراض ولده الرشيد . وأرسل المعتمد إلى يوسف ينبئه بهذا القبول . ثم أرسل إلى ولده يزيد الراضى بالله وإلى الجزيرة بأمره بأن يسلم المدينة إلى المرابطين الذين يعينهم ابن تاشفين لتسلها^(٢) .

ثم رأى المعتمد أن يسمى إلى اجتذاب زعيم المرابطين إليه خاصة ، وأن يحمله على التعجيل بمقدمه إلى أسبانيا ، فسار إلى زيارته بالعدوة خفية فألفاه في مكان يبعد عن سبتة بثلاثة أيام يقوم بأهبات عسكرية عظيمة ، ولم يكشف المعتمد عن شخصه حتى جاز إلى قصر الأمير ، ثم طلب إلى رجال الخالص أن يخطروا أمير المسلمين بأن ابن عباد يقف ببابه ، فذعرا ابن تاشفين وظن أن المعتمد قدم في جيشه ولكنه أدرك في الحال خطأه ، واستقبل المعتمد بود وترحاب ، وسرعان ما أشار إليه أن يعود إلى أسبانيا ليقوم بإعداد المؤن اللازمة للجيش الذى يعده للعبور إلى الأندلس . فعاد ابن عباد إلى إشبيلية مستاء لخيانة المسمى الذى قصد وهو أن يحمل يوسف على أن يختاره نائبا من قبله لأسبانيا المسلمة . وعلى أثر ذلك أمر يوسف بعبور جيشه من سبتة إلى الجزيرة^(٣)

(١) تشير الرواية العربية إلى مراسلات أخرى وجهت من أمراء الأندلس إلى يوسف (ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٢) .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٦ ونفع الطيب ج ١ ص ٤٧ .

(٣) في هذه الرواية بعض الغموض ، فالمتفق عليه أن ابن عباد عبر إلى المغرب لزيارة يوسف بن تاشفين . ولكن المختلف عليه هو ما إذا كانت هذه الزيارة قد حدثت قبل موقعة الزلاقة أو بعدها . والرواية الثانية أرجح وهو أن ابن عباد عبر إلى المغرب بعد الزلاقة ليستمد عونه في بعض شؤونه (راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٩٠) . ويأخذ دوزي بهذه الرواية (ج ٣ ص ١٣٤) ويورد المراكشى (ص ٧٠) وصاحب روض القرطاس (ص ٩٣) الرواية الأولى وهي التي أخذ بها المؤلف .

الكتاب الثاني

سيادة المرابطين في شبه الجزيرة

في عصرى ألفونسو السادس ملك قشتالة

وألفونسو المحارب ملك أراجون

الفصل الأول

فتوح المرابطين في اسبانيا

في عهد يوسف بن تاشفين وولده على

حتى موقعة اقلش

(من سنة ٤٧٩ هـ - ٥٠٢ هـ) - (١٠٨٦ - ١١٠٨ م)

١ - حملة يوسف لإنجاد الأندلس ضد ألفونسو السادس

في شهر ربيع الآخر سنة أربع مائة وتسع وسبعين من الهجرة الموافق أغسطس سنة ١٠٨٦ م عبر يوسف بن تاشفين بجيشه من سبتة . وما كادت السفن تنشر قلاعها حتى صعد يوسف إلى مقدم سفينته وبسط ذراعيه نحو السماء ودعا ربه قائلاً : « اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيراً وصلاً للمسلمين فسهل عليّ جواز هذا البحر ، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا أجوزه » . وروى المسلمون الاتقياء أن البحر ما لبث أن هدأ وجازت السفن سراً في أبدع جو إلى شاطئ الأندلس . وما كاد يوسف يعبر إلى الشاطئ حتى صلى مفتتحاً عمله باسم الله ^(١) ، ثم تسلّم قلعة الجزيرة الخضراء التي تعهد بتسليمها المعتمد وأنى هنالك لاستقباله والاحتفاء بمقدمه جميعاً كبيراً من القضاة والفرسان وعلى رأسهم صديقه محمد المعتمد أمير إشبيلية ^(٢) ، وأراد المعتمد أن يترجل عن جواده وأن يقبل يد يوسف إشارة

(١) هكذا ورد دعاء يوسف في روض القرطاس وروايته في جواز السفن على أثر ذلك في ريج طبية وصلاة يوسف على أثر عبوره هي المقصودة هنا (راجع ص ٩٣) .
(٢) تختلف الرواية الإسلامية في هذه الواقعة فالبعض يقول إن المعتمد بن عباد استقبل =

بمخضوعه ، ففعله يوسف من ذلك لأنه لم يكن سيد القوم بعد ولم يكن سوى حليفهم ، مؤثرا أن يفرض طاعته على الجميع في فرصة أخرى . وإذا كانت الجزيرة مفتاح إسبانيا فقد أمر بتحسينها أتم تحصين ورتب بها حامية مختارة لتسهر عليها ، وشحنها بمقادير عظيمة من الأقوات والدخائر لكي تغدو ملاذا آمنا يلتجئ إليه إذا منيت حملته بالفشل^(١) ، ثم غادرها في جيشه إلى إشبيلية . وكان كل أمير من أمراء الأندلس قد تعهد بأن يجمع ما في وسعه من الجند والمؤن ، وأن يسير إلى مكان معين في وقت معين . وكان أمير إشبيلية قد عنى عناية خاصة بإعداد مقادير عظيمة من المؤن تسكني لتزويد جيش ضخم ، واستطاع بذلك أن يسبق زملاءه الأمراء في اغتنام عطف يوسف . ولبت أمير المرابطين في إشبيلية ثمانية أيام فقط يرتب أثناءها قواته وينتظر مقدم الأمراء الأندلسيين في قواتهم . وقبل السير تركت جميع الأتقال والعتاد التي لا حاجة إليها . ثم غادر الجيش إشبيلية مخترقا أراضي أمير بطليوس ، وكان أخوه المستنصر قد عنى بجمع الجند والخيول والدواب . ورتبت القوات على النظام الآتي : سار في الطليعة فرسان المرابطين وعدتهم عشرة آلاف يقودهم أبو سليمان داود بن عائشة ، وتلهم قوات الأندلس يقودها المعتمد أمير إشبيلية . وكانت قوات الأندلس تؤلف وحدها جيشا خاصا منفصلا عن جيش المرابطين المؤلف من جند إفريقية . وسار من بعدهم بيوم جيش المرابطين يقوده يوسف بن تاشفين ، وكان ينزل في المساء في الحملة التي يغادرها أمير إشبيلية في الصباح ، ووصلت الجيوش على هذا النحو إلى « أرطوشة » على مقربة من بطليوس وليبت هنالك ثلاثة أيام^(٢) .

= يوسف في الجزيرة وهي رواية المراكشي (ص ٧٠) وصاحب روض القرطاس (ص ٩٣) وابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٦) والبعث الآخر يقول إن المعتمد استقبل يوسف في إشبيلية ولم يستقبله في الجزيرة الخضراء (راجع ابن الأثير ١٠ ص ٢٢ والحلل الموشية ص ٣٧ ونفع الطيب ٢ ص ٢٧ والاستقصاء ج ١ ص ١١٥) والأولى هي الأرجح فيما يظهر .

(١) راجع الحلل الموشية ص ٣٥ .

(٢) أرطوشة Artosa كما في الرواية الأفرنجية ، ولكن الرواية الإسلامية تقول « طرطوشة » ، وظاهر أنها تقصد بلدة أخرى غير نهر « طرطوشة » الشهير في مقاطعة سرقسطة (راجع روض القرطاس ص ٩٤ والاستقصاء ج ١ ص ١١٦) .

وفي تلك الأثناء كان نبأ مقدم المرابطين إلى اسبانيا قد وصل على جناح السرعة إلى معسكر النصارى أمام أسوار سرقسطة ، وكان الملك ألفونسو السادس قد سير إليها معظم قواته لكي يمجل بسقوطها ، ولم يحمله على رفع الحصار عنها سوى الخوف على عاصمته طليطلة وعلى أراضيه الجنوبية . فعقد مجلسا من كبراء مملكته ، ثم حشد قواته ، وقام بأهبات حربية عظيمة ، ليخوض المعركة مع فاتحى إفريقية بنجاح . وإذ كانت الحنة تملى بالاتحاد فقد تحالف مع سانشو راميرز^(١) Sancho Ramirez ملك أراجون وصاحب بنبلونه والكونت برنجار ريموند ، وكان الأول يشغل يومئذ بمحاصرة طرطوشة ، وكان الثانى يتأهب لغزو بلنسية ، فمدل كل منهما عن مشروعه ، وانضما بقواتهما إلى ألفونسو ، وكان قد حشد قوات عظيمة من جليقية وليون وبسكونية واشتوريش وقشتالة ، ومن الأراضى الإسلامية التى فتحت أخيرا ، ووفدت فى الوقت نفسه لنجدة النصارى الأسبان سريات من الفرسان ، من ولايات فرنسا الجنوبية من لاجدوك وجويانه وبرجونه وبروفانس مؤملة أن تجنى بمقاتلة أعداء الدين مغانم عظيمة ، وأن تحقق سلام روحها . وتقول الرواية العربية ، وهى تبالغ أحيانا فى أقوالها ، إن جيش ألفونسو كان يبلغ زهاء مائة ألف من المشاة وثمانين ألفا من الفرسان ، منهم أربعون ألفا من ذوى العدد الثقيلة ، والباقون من ذوى العدد الخفيفة . ومن هؤلاء نحو ثلاثين ألف فارس من المسلمين من رعايا ألفونسو . أما الرواية النصرانية فإنها تلتزم الصمت إزاء عدد النصارى أسوة بالرواية العربية إزاء عدد المسلمين ، ولكنها تقدر عدد الجيش الإسلامى بضع مائة ألف أو تقول إنه كان لا يحصى عديده كجيش من الجراد المنتشر . وقد تقترب من الحقيقة إذا قدرنا قوات كل فريق بنحو مائة وثلاثين ألفا إلى مائة وخمسين ألفا . ذلك أن جيش المرابطين الذى قاده يوسف إلى اسبانيا لا يحتمل أن يزيد كثيرا على سبعين ألف مقاتل ، ويمكن أن يقدر ما حشده أمراء الأندلس بمثل هذا العدد . ولم يك ثمة ما يحمل النصارى

(١) هو المعروف فى الرواية العربية بأبن رذير .

على أن يحشدوا للقتال أكثر مما حشد أعداؤهم سيما وقد استطاعوا بعد ذلك بقليل أن يحشدوا مثل هذا الجيش مرة أخرى^(١).

وعسكر الجيشان المتحاربان على قيد بضعة أميال من بطليوس في سهل تتخلله الأحرار، وتسميه الرواية العربية بالزلاقة أو السهلة وتسميه الرواية النصرانية «سكرالياس» sacralias و فرق بين الجيشين نهر صغير تسميه الرواية العربية بنهر حجير^(٢) وضرب يوسف محلاته (معسكره) وراء ربوة عالية منفصلا عن محلة الأندلسيين^(٣) وعسكر الأندلسيون أمام النصارى، وكانت جموع فرسانهم التي لا تدرك نهايتها الأبصار تبعث إلى قلوب الأمراء الأندلسيين اليأس من النجاح والظفر.

وكان احتشاد هذه الجموع الهائلة مع ما كانت تحمل من مؤن قليلة يهدد الجيشين بالجوع إذا طال مكثهما في تلك البقعة، ومن ثم فقد أرسل يوسف إلى ألفونسو كتابا يخبره فيه بين ثلاث: إما أن يعتنق الإسلام، أو يؤدي الجزية لأمر المرابطين، فإذا أبى الاثنين فعليه أن يبادر بالأهبة إلى القتال، وأنه أى أمير المرابطين القوى قد عبر بنفسه إلى اسبانيا ليوفر على ملك النصارى هذا العناء وليلقاه بنفسه. وقد شاء الله أن يجمع الآن بينهما في ميدان واحد،

(١) هذه تقديرات مبالغ فيها، وتبدو مبالغة الرواية النصرانية بنوع خاص حين تقدر المسلمين بمئات الألوف. كذلك تقدم إلينا بعض الروايات الإسلامية مثل هذه التقديرات المبالغ فيها بالنسبة للنصارى، ففي رواية مثلا أن النصارى كانوا مائتي ألف راجل وثمانين ألف فارس (راجع روض القرطاس ص ٩٠، وفي سياق الرسالة التي قيل إن يوسف بعث بها إلى الغرب عقب النصر ص ٩٧)، وفي الحلل الموشية أن النصارى كانوا ثمانين ألفا، منهم أربعون ألفا من ذوى الدروع الثقيلة (ص ٣٨). ولكن الروايات الإسلامية المعتدلة لا تذهب في التقدير إلى هذا الحد، فعلا يقدر ابن الأثير جيش النصارى بمخمين ألف مقاتل (ج ١٠ ص ٥٢)، وفي رواية أخرى أن النصارى كانوا أربعين ألفا غير الأتباع (نفع الطيب ص ٥٢٨)، وفي الحلل الموشية أن المسلمين كانوا ثمانية وأربعين ألفا نصفهم من الأندلسيين ونصفهم من المرابطين (ص ٣٨)؛ ويقول المراكشي إن المسلمين كانوا عشرين ألفا فقط (ص ٧١)، وعلى أى حال فإنه يستخلص من الروايات المختلفة أن عدد المسلمين كان أقل من عدد النصارى، (راجع أيضاً دوزى ج ٣ ص ١٢٧).

(٢) ويسميه صاحب روض القرطاس نهر بطليوس (ص ٩٤).

(٣) روض القرطاس (ص ٩٤)، والاستقصاء (ج ١ ص ١١٦).

وذلك لكي يقضى على طغيان النصارى وجشعهم^(١).

فلما قرأ ألفونسو الكتاب ألقاه على الأرض مغضباً وقال للرسول : اذهب فقل لولائك إننا سنلتقي في ساحة الحرب . وأما عن يوم اللقاء فقد كتب ملك النصارى إلى أمير المرابطين ما معناه : « إن غدا يوم الجمعة وهو يوم المسلمين ولست أراه يصلح للقتال واليوم التالي وهو السبت يوم اليهود ومنهم كثيرون في المعسكرين وإذا فلست أختاره للقتال أيضاً . كذلك استأختر اليوم التالي وهو يوم الأحد لأنه يوم النصارى ، وعلى ذلك فإني أقترح للقاء يوم الاثنين ففيه يستطيع كل منا أن يجاهد بكل قواه لإحراز النصر دون الإخلال بيومه » فوقع هذا الاتفاق من يوسف موقع الرضى وتحدد للقاء يوم الاثنين ٢٦ أكتوبر سنة ١٠٨٦ وهو الموافق ١٥ رجب سنة ٤٧٩هـ^(٢).

ولكن ألفونسو كان يرى وفقاً لمبدأ ذميم ، أنه يحق له أن يلجأ في الحرب إلى كل خدعة ، وأن ينكث بالعهد المقطوع فيقاتل قبل اليوم المضروب ليفاجئ العدو وليتمكن بذلك من هزيمته . ومن ثم فقد اعتزم أن يلجأ إلى مثل هذه الخديعة وأن يختار للقتال يوم الجمعة وهو يوم المسلمين .

بيد أن المسلمين بالرغم من إرجاء موعد القتال إلى ما بعد أيام لم يدخروا وسعاً في التحوط ضد أية مفاجأة . وكان المعتمد أمير إشبيلية يرتاب بنوع خاص في نيات ملك قشتالة سيما وقد خبر من قبل خدعه في الحرب ، وعانى من جرائها

(١) تورد الرواية الإسلامية ملخص كتاب يوسف إلى ألفونسو فيها يأتي : إنه بعث كتاباً على مقنصي السنة يعرض على الأذفونش الدخول في الإسلام أو الحرب أو الجزية ، ومن فصول كتابه : « بلغنا يا أذفونش أنك دعوت في الاجتماع بك وتمنيت أن يكون لك فلك تهر البحر عليها إلينا ، فقد أجزناه إليك ، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ، وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » (راجع الحلل الموشية ص ٣٥ ، وابن خلكان ص ٢ ، ونفع الطيب ص ٢٧٥ ، والاستقصاء ١١٤) ؛ هذا مع خلاف يسير في العبارات بين مختلف الروايات .

(٢) تشير الرواية الإسلامية إلى رسالة ألفونسو ليوسف (أو لابن عباد) في هذا المعنى (المراكشي ص ٧٢ ، والحلل الموشية ص ٣٩ ، ونفع الطيب ص ٢٧٩) ، وراجع أيضاً دوزي (٣ ص ١٢٩) .

غير مرة ، فبث عيونه بالليل ليرقبوا كل حركة في معسكر النصارى ، ووقف هؤلاء على أهبة النصارى للقتال فارتدوا مسرعين إلى المعتمد ، وكان قد أعد جنده للنزال قبل أن يتحرك جند ألفونسو من محلتهم . وفي الحال أخطر يوسف أيضاً بحركات النصارى وكان يقود المعسكر الثانى والقلب والجيش الاحتياطى .

وكان ألفونسو قد قسم جيشه إلى قسمين ، فسير أولهما بقيادة الكونت جارسيا والكونت رودريك وانقض هذا الجيش بمنتهى العنف على معسكر الأندلسيين بقيادة المعتمد ، وأمل ألفونسو أن يبعث بذلك الهجوم المفاجئ الروع والاضطراب فى صفوف العدو . ولكن شد ما دهش النصارى إذ رأوا أمامهم قبل أن يصلوا إلى المعسكر الأندلسى ، جيشاً من المرابطين قوامه عشرة آلاف فارس بقيادة داود ابن عائشة وهو من أشجع قادة يوسف وأقدرهم . أجل لم يكن فى وسعه أن يصمد لكثرة النصارى وعنف هجومهم وذلك بالرغم من اعتماده على قوة كبيرة من رماة السهام والنبال ، ولكنه استطاع على الأقل بوقفته الباسلة أن يحطم من عنف هجمة النصارى وأن يرغمهم بذلك على الارتداد إلى خط دفاعهم الثانى . ولم يكن ذلك بالطبع دون خسارة فادحة لحقت بالرابطين واضطرتهم إلى الارتداد فيما بعد . وعهد ملك قشتالة بقيادة جناحى جيشه إلى سانشوراميرز صاحب أراجون والكونت برنجار ريموند ، وتولى هو قيادة القلب بنفسه . واقرن زحف النصارى وهجومهم بصياح حربى مروع وقرع هائل للطبول . وكان أمير إشبيلية يصطحب معه منجماً فسأله عن سير الموقعة فأجابه فى البداية بما يثبط الهمم ولكنه عاد فبشره بحسن العاقبة ولم يكن لديه شك فى نصر المسلمين^(١) ومع ذلك فقد هاله ما رأى من انقضااض العدو على معسكره فى مثل هذه الجموع الضخمة وبث منظر الفرسان النصارى فى دروعهم الحديدية — وكانهم كتل من السحب القائمة ، يهوون بسيوفهم على الأندلسيين كالبرق — بين الأمراء الأندلسيين أيما روع ، فأيقنوا بالهلاك قبل خوض المعركة ولاذوا جميعاً بالفرار المشين . وطوردت

(١) يشير ابن الخطيب فى الحلال الموشية إلى قصة ابن عباد مع منجمه (ص ٣٩ — ٤٠) .

الصفوف الفارة في غير انتظام حتى أسوار بطليوس ، بيد أن فرسان إشبيلية يقودهم أميرهم الشجاع المعتمد استطاعوا نوعاً أن ينقذوا شرف مسلمي الأندلس ، وكان أولئك الفرسان وقد أحاطت بهم من كل صوب آلاف مؤلفة من فرسان العدو يقاتلون كالأسود المجروحة ، ويؤازرهم الفرسان المرابطون بقيادة داود ابن عائشة وهم الذين قاتلوا في البداية بمنتهى البسالة والجلد ؛ وهكذا استطاعوا أن يصمدوا لهذه المعركة الهائلة مدى حين .

وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر حينما رأى مقاومة المعتمد تضعف تباعاً ورأى حركة الفرار تتسع بين المسلمين شيئاً فشيئاً . وكان جيش المرابطين بقيادة يوسف ابن تاشفين يربط في المحلة الثانية وراء أكمة عالية تحجبه عن أنظار النصارى ، ولم يكن قد اشترك في المعركة بعد . ولم يشترك فيها مع الجيش الأندلسي من الإفريقيين سوى الآلاف العشرة من الفرسان المرابطين بقيادة داود ابن عائشة ؛ ولكن ألفونسو ظن لسوء طالعته خطأ أنه قد خاض المعركة مع قوى الأعداء جميعها .

ففي تلك الآونة الحاسمة وثب الجيش المرابطى المظفر إلى الميدان في الوقت الذي أخذت فيه قوى النصارى في الهبوط ، وأرسل يوسف لغوث المعتمد عدة فرق من زناتة وغيرها من البربر بقيادة أبي بكر وعزز بذلك جانب الأندلسيين في معركة مالت إلى هزيمتهم ، وبادر في الوقت نفسه بالزحف في حرسه الضخم من اللتوينيين والمرابطين ، وقد كان عماد ظفروه في جميع حروبه الإفريقية . واستطاع بحركة بارعة أن يباغت معسكر ألفونسو وأن يحدق به . وكان ألفونسو يدفع جنده في غمرة المعركة دائماً إلى الأمام ، حتى استطاع أن يوقع الهزيمة بالمعتمد ، وأن يلجئه إلى الفرار بالرغم من قدوم النجدة المرابطية لغوثه ؛ وبينما هو مشتغل بمطاردة العدو المنهزم ، إذا به يقع فجأة على جموع فارة من النصارى ، وقد كان أولئك حرس معسكره ، فانقض عليهم يوسف بجيشه الزاخر واضطروهم إلى الفرار . وعلم النصارى مع الروع أن يوسف قد احتوى المعسكر النصراني وفتك بمعظم حراسه واستولى على جميع ما فيه من نفائس ، وأحرق الخيام وغث المتاع .

وما كاد ألفونسو يقف على هذا النبأ حتى ترك مطاردة الأندلسيين ومن معهم من المرابطين ، وارتد من فوره ليسترد معسكره الذي انتزعه يوسف وليوقع الهزيمة هناك بأعدائه . ولكن يوسف لم ينتظر حتى يهاجمه ألفونسو بل انقض في جموعه المظفرة على النصارى كالسيل يحمل من يصادره . ومع أن النصارى كانت قد خبت قواهم من استتالة النضال ، فإنهم قاتلوا قلب الجيش الأفريق بشجاعة وجلد حتى أن يوسف بالرغم من عنف وثبته وجدة قواه بدأ يرتاب في بلوغ النصر ، فأخذ يثب بجواده السريع بين جنده من صف إلى آخر وهو يذكي حماسهم للقتال ويقول : « يامعشر المسلمين اصبروا واصبروا دائماً في هذا الجهاد المقدس . ولقد نقص الله عدد المشركين ، وإن الجنة مثوى الشهداء ، وإن اخوانكم الذين استشهدوا لينعمون بأعظم ضروب السعادة في جنات الخلد »^(١) ولم يكن تشجيع يوسف لجنده بقدرته أقل من كلماته ، فقد كان في مقدمة الصفوف يخوض غمار المعركة في ذروة لظاها ، وقد قتلت تحته أفراس ثلاث ، وكأنما كانت تحميه من الطمان يد العناية . وقاتل المرابطون في هذا اليوم وهم يضطرمون شوقاً إلى الاستشهاد ، وكأنما كانوا يجردون في طلب الموت في أعماق صفوف العدو حتى يفوزوا بنعيم الخلد . كذلك قاتل النصارى في هذا اليوم العصيب بإخلاص يضطرم للدين وللوطن . ودام القتل الدريع بضع ساعات ، وسقطت ألوف مؤلفة وقد حصدهم الموت حصاد الهشيم ، وغمر دم القتلى ساحة الحرب ، وغرق بعض الساقطين في دم الأولى قتلوهم . وأخيراً بدت طلّات الموقعة الحاسمة قبيل دخول الظلام ؛ وكان أمير إشبيلية وداود ابن عائشة قد لاحظا عند ارتدادهما في اتجاه بطليوس أن ألفونسو قد كف عن المطاردة فجأة ؛ ومرعان ماعلم كيف مال

(١) المفروض أن المؤلف يقصد هنا إلى معاني العبارات التي خاطب بها يوسف جنده في ذلك الموقف ، وعلى أي حال فإن الرواية الإسلامية تصف هذا المنظر بما يأتي : « وكان أمير المسلمين على فرس أنقى يمر بين ساقات المسلمين يحرضهم ويقوى نفوسهم على الجهاد والصبر ويقول : « يامعشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين ، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة ، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والفتنة » ، فقاتل المسلمون في ذلك اليوم قتال من يطلب الشهادة ويرغب في الموت (روض القرطاس ص ٩٥) .

النصر إلى جانب يوسف ، فجما قواتهما وهروا إلى الميدان مرة أخرى ؛ وهكذا هوجم النصارى من الجانبين في وقت واحد ، وهكذا حقت عليهم الهزيمة ولم يبق أمامهم إلا أن يقاتلوا قتال اليأس أو أن يركنوا إلى الفرار . على أن الظافرين في يومهم لم يفكروا في مسألتهم إلا في موت شريف وذلك بعد أن أفل طالهمم كل الأفول . ولما جن الليل وبسط الظلام حجاباً على السهل الذي غطى بالجمش والدماء ، ركزت فلول ضئيلة من الجيش النصراني إلى الفرار ، وهلكت البقية في موت مجيد من أجل الوطن والدين .

وأصيب الملك ألفونسو من طعنة حربة بجرح شديد في فخذه ، وكان يقاتل بشجاعة فائقة ويقود الصفوف بنفسه ؛ ولم يرد أن يعيش بعد الهزيمة ، ولم توجد قطرة ماء يروى بها الجريح عطشه المروع ، وأخيراً وقع بعضهم على قليل من النبيذ فسقوه للملك ؛ وقاده بالرغم منه زهاء خمسمائة فارس وحلوه معهم إلى ربوة عالية ، وانحدروا منها تحت جناح الظلام حتى مدينة قورية .

وتعرف الرواية العربية هذه الموقعة المزدوجة التي استمر لظاها في يوم ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م الموافق ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ باسم واحد هو موقعة الزلافة^(١) ، وهو اسم السهل الذي وقعت فيه ؛ وتسمى الرواية النصرانية الموقعة الأولى التي نشبت ضد أمير إشبيلية وداود ابن عائشة بموقعة « رودا » ، وتعرف الموقعة المروعة التي نشبت ضد يوسف بموقعة « ساكرالاس » . ويبدو من الإيجاز الذي يلتزمه الرواة النصارى إزاء هذا النصر العظيم للإسلام على النصرانية

(١) تختلف الرواية الإسلامية في تحديد تاريخ موقعة الزلافة ، فيقول ابن خلكان (تقلا عن اليباسي) إنها كانت يوم الجمعة ١٥ رجب سنة ٤٧٩ هـ (ج ٢ ص ٤٨٤) ، ويتفق ابن الأثير معه في السنة ولكنه يقول إنها كانت في أوائل رمضان (ج ١٠ ص ٥٣) ، ويقول المراكشي إنها كانت في ١٣ رمضان سنة ٤٨٠ هـ (ص ٧٢) ، ويقول ابن خلدون إنها كانت سنة ٤٨١ هـ (ج ٦ ص ١٨٦) ؛ ولكن ورد في روض القرطاس (ص ٩٦) وفي الحلل الموشية (ص ٤٠ — ٤١) أنها كانت يوم الجمعة ١٢ رجب سنة ٤٧٩ هـ وهذا اليوم يوافق ٢٣ أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ، وهو التاريخ الذي تضعه الرواية النصرانية للموقعة ، وهي بذلك أصبح الروايات ، راجع أيضاً دوزي (ج ٣ ص ١٢٩) والمواشم .

في شبه الجزيرة مرة أخرى كيف يتناول المهزومون سير هزائمهم في غضاضة وإحجام ؛ وهذا الإيجاز والغموض اللذان أحاطا بالرواية النصرانية هو السبب في كونها قد جعلت من الموقعة الواحدة موقعتين مختلفتين تبعاً للزمان والمكان .

والظاهر أن عدد القتلى في الزلافة كان فادحاً جداً ، ويعترف النصارى أنفسهم بأنه قد سقطت منهم جموع عظيمة . على أنه يبدو من الإغراق ما تقصه الرواية العربية من أن عدد القتلى والأسرى من النصارى قد بلغ مائة وثمانين ألفاً . وأن ألفونسو لاذ بالنجاة إلى طليطلة في مائة فارس فقط ، وأن المسلمين لم يفقدوا سوى ثلاثة آلاف مقاتل^(١) ؛ بيد أنه من الواضح أن خسارة المسلمين لم تكن أقل بكثير من خسارة النصارى^(٢) .

وقضى المسلمون ليلتهم في ساحة القتال فوق أكداس القتلى والجرحى ، وقد امتزجت أناشيد نصرهم بأنين المحتضرين وزفرائهم . فلما بزغ الفجر أداوا صلاة الصبح في السهل الدامى ، ثم حشدوا جموع الأسرى وجمعوا الأسلاب والفنائم لقسمتها . وأعد يوسف من عمله الدامى لجيشه منظرًا مدهشاً مروعا ؛ ذلك أنه أمر برؤوس القتلى من النصارى فحزت وصفت في ساحة القتال على شكل أمهرام ، ثم أمر فأذن للصلاة من فوق أحدها . وقد جمعت على هذا النحو عشرون ألف رأس ، وهو عدد يبدو بعيداً عن المبالغة . ولكن الذى تطبعه المبالغة هو ما يقوله بعض الرواة المسلمين من أن يوسف قد أرسل من هذه الرؤوس عشرة آلاف إلى إشبيلية ، ومثلها إلى قرطبة ، ومثلها إلى بلنسية ، وعشرة آلاف إلى سرقسطة ومرسية ؛ وأرسل أربعين ألف رأس لتوزيعها على مدن المغرب ؛

(١) هذه رواية صاحب روض القرطاس (ص ٩٦) .

(٢) راجع أقوال الرواية الإسلامية في هذا الموطن في روض القرطاس (ص ٩٧) ، وابن الأثير (ج ١٠ ص ٥٣) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٤٨٤) ، والمراكشى (ص ٧٢) ؛ وأرجح الروايات فيما يظهر هو أن ملك قشتالة فر في بضع مائة من جنده فقط قد يبلغون ثلاثمائة أو خمسمائة ، ومن متفقة مع أقوال الرواية النصرانية (راجع أيضاً أقوال صاحب الروض المطار في نفع الطيب (ج ٢ ص ٥٣١) .

وذلك لكي تحتفظ جميع الحواضر بذكرى النصر العظيم^(١).

وذاع خبر هذه الموقعة الكبرى في جميع الأقطار وأمر يوسف فكتب عنها بلاغ أرسل إلى إفريقية وقرى في المساجد في جميع مدن المملكة ، وعقدت صلوات الشكر على جانبي المضيق في إفريقية والأندلس ابتهاجا بإتقاد الإسلام في أسبانيا . وفاض قريض الشعراء في الإشادة بمظالم يوم الزلافة ؛ ونظم العتمد أمير إشبيلية الباسل — وقد أصيب في الموقعة بستة جروح — في الحال قصيدة يصف فيها الموقعة الرائعة كما شهدتها^(٢) وكتب في نفس المساء إلى ولده الرشيد في إشبيلية يبشره بانتصار المسلمين وما أصاب النصارى من هزيمة ساحقة ، وحملت البشرية السارة حمالة كان قد حملها معه لأجراء الحاربة السريعة ، فطارت من بطليوس إلى إشبيلية في بضع دقائق^(٣) وأمر الأمير فقرئت البشرية على الناس في المسجد الجامع ، وعقدت صلوات الشكر وحفلات الابتهاج واقرنت بإضاءة المدينة وفقاً لتقاليد العصر ؛ وهكذا احتفل بالنصر في إشبيلية وهي على مسيرة أيام من الزلافة في نفس الليلة قبل أن يغادر جيش المرابطين والأندلسيين ساحة الحرب الدامية . وقد ورد في بعض الروايات العربية والنصرانية أن يوسف تلقب عقب انتصاره في الزلافة بأمر المؤمنين وهي رواية يشك في صحتها ولا تتفق مع ما تقدم من أنه اتخذ هذا اللقب من قبل^(٤).

(١) هذا هو ما تذكره الرواية العربية في الواقع بنصه وتفصيله ، وخصوصاً صاحب روض الفرطاس (ص ٩٦) ، وراجع أيضاً ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٤ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٣١ . بيد أن هذه التفاصيل تحمل فيها يبدو طابع المبالغة ويقدم إلينا في الحلل الموشية رواية أكثر اعتدالاً (ص ٤٤) .

(٢) راجع شعر العتمد بن عباد في يوم الزلافة في قلائد الغيان (ص ١٣) .

(٣) أورد صاحب الروض المطار مضمون كتاب ابن عباد إلى ولده الرشيد (أو نصه) من نبأ النصر العظيم (راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٥٣١) ، وأشار ابن خلكان إلى قصة الحمامة التي حملت البشرية في نفس اليوم (ج ٢ ص ٤٨٥) .

(٤) هذه هي رواية ابن زرع في روض الفرطاس (ص ٨٨) ، ولكن سبق أن أشرنا إلى رواية ابن خلدون في ذلك ، وأن يوسف بن تاشفين اكتفى بلقب أمير المسلمين ، وأنه كان ينضوي تحت لواء الدعوة العباسية ، وأن الخليفة العباسي أجابه إلى ما طلب من إقراره على ولاية المغرب ، وأرسل إليه بالمهد والخلع والتشريف (ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٨) .

وقد كان حريا أن تترتب على هذا النصر الباهر الذى أحرزه المرابطون نتائج عظيمة لو أحسن استغلاله ، وكان ألفونسو أقل همّة وعزما مما أبدى ؛ وكما حدث عقب موقعة شريش الفرنتيرة من انهيار المملكة القوطية فى نحو عام ، فكذلك كان حريا أن تسحق المملكة النصرانية فى مثل هذا الوقت القصير لو أن الظافرين تابعوا سيرهم فى الحال ، كما فعل فاتحا الأندلس طارق وموسى ولم يترك للنصارى وقت للنهوض من عثرتهم ؛ ولكن كان من حسن طالع أسبانيا النصرانية أنه لم يكن على رأسها يومئذ ملك ضعيف مثل لدريق (رودريك) بل كان على رأسها ملك بطل هو ألفونسو السادس . ولم تبعث المحنة يأسا إلى قلبه بل أخذ يجد فى حشد جيش جديد ، وعاوناه فى ذلك ظرف موافق هو أن يوسف تاقى عقب فوزه من إفريقية نبأ بوفاة ولده أبى بكر سير الذى خلفه أثناء غيابه على حكومة مراكش ، فمجل قبل كل شىء بالعود إلى إفريقية . ولما كان فى نيته أن يعود إلى الأندلس بعد تدبير شؤون مراكش ليتابع فيها الحرب بنفسه ، فقد ولى أثناء غيابه قيادة الجيش المرابطى الذى فقد من جراء موقعة الزلاقة كثيرا من قوته قائده الشجاع سير بن أبى بكر ؛ ونفذ سير مع أمير بطليوس إلى أواسط البرتغال الحالية مما إلى نهر تاجه وأثخنا فى تلك الأنحاء تخريبا ونهباً ، وأسرا كل سكانها العزل ؛ وزحف المعتمد أمير إشبيلية فى قوة كبيرة من الفرسان على ولاية طليطلة واستولى على عدة مدن من بينها اقلش (أو اقلج) وقونقة ووبدى وغيرها ، ثم نفذ إلى أرض مرسية حيث كانت جموع كبيرة من الفرسان النصارى بقيادة الكنييطور (الكبيادور) تغير على المدن الإسلامية لحسابها الخاص ؛ وكانت قبل ذلك بقليل قد هاجمت صاحب المرية وضيق عليه ، حتى أنه لم يستطع أن يرسل قواته لمعاونة جيش المرابطين قبل موقعة الزلاقة . وشيخ للمعتمد بما أصاب من الظفر ، ولم يأبه لقوة الفرسان النصارى لكونها كانت تقل عن قوته عدداً ، فاشتبك معهم دون تحوط فى معركة خسر فيها ثمار ظفره الأخير ، واضطر أن يركن إلى الفرار وهو يضطرم سخطاً وغما ؛ ولم ينقذه من مطاردة أعدائه سوى

التجائه إلى قلعة لورقة لدى واليها صديقه محمد بن لبون ، ثم غادرها إلى قرطبة زيادة في التحوط لسلامته تاركا مرسية لمصيرها . أما الفرسان النصاري فقد انضمت إليهم قوة من القشتاليين أرسلها إليهم ألفونسو ، وأخذوا يهددون المدن الإسلامية في تلك الأنحاء ، خصوصا وقد كان لهم في حصن لبيط (ألبدو)^(١) الواقع على مسيرة يوم من لورقة معقل أمين ؛ وكانوا ينطلقون منه فينقضون كالبرق الخاطف على الأراضي المجاورة ويمعنون فيها عيثا وتحريكا .

وفي ذلك الحين استطاع ألفونسو بسرعة مذهشة أن يحشد جيشا آخر ، ووفد عليه سيل من الفرسان والمحاربين الفرنسيين والنورمانيين ؛ وكانت روح الفروسية المعاصرة التي اضطرت بمدئذ بقليل في الحروب الصليبية قد دفعت إلى اسبانيا بالآلاف من فرنسا ومن جهات الألب لتشدد هنالك أزر النصرانية في معركتها ضد الإسلام .

ولم يعض عام حتى كان ملك قشتالة قد استعد لمحاربة أعدائه . وقد كان عندئذ أقوى منهم . ذلك أن الثغرة التي حدثت في صفوفهم من جراء خسائهم في الزلافة لم تمزحها بعد جنود جديدة من إفريقية ، وقد سحب أمراء الأندلس قواتهم من الجيش العام حين عودتهم إلى أراضيهم . وتؤكد الرواية النصرانية أن ألفونسو خرج للغزو مرة أخرى في سنة ١٠٨٧ م ، وأنه وصل في غزواته إلى قرب إشبيلية . وسارت في الوقت نفسه قوة أخرى من القشتاليين بمؤازرة فرسان حصن لبيط فماتت في ولاية مرسية . هذا بينما شغلت سرقسطة وبلنسية برد هجمات أمراء الأقاليم الجبلية فيما وراء البرنية .

ولم تك تجمع كلمة الأمراء الأندلسيين روابط الاتحاد القوية ، بل كانت تسودهم بالعكس عواطف الأثرة والحسد . وهكذا فقد كان المعتمد يرى أنه غدا بعد الحوادث الأخيرة أشدهم خسارة من حيث الهيبة ، لأن الأمراء الذين كانوا

(١) تسمى الرواية العربية حصن Alédo بحصن لبيط أو لبيط ، (راجع معجم ياقوت ج ٧ ص ٣١٩ ، وروض الفرجاس ص ١٩٩ ، والاستقصاء ص ١١٩) ، ويسمى ابن الأثير بحصن ليط (ج ١٠ ص ٥٣) ، وكذلك المراكشي (ص ٧١) .

يخضعون له من قبل استردوا استقلالهم ، وكان يتطلع إلى استعادة سلطانه عليهم بل إلى تقويته وزيادته . وكان يعتمد في تحقيق غايته على معاونة الجيش المراتبي وبحاول أن يوجهه في سبيل مشاريعه . ومن ثم فقد سار إلى إفريقية لرؤية يوسف ابن تاشفين^(١) ، وبسط له ميسود الأمراء المسلمين من عوامل التفرق ، وكيف غدا قائد المراتبيت في الأندلس دون قوة ودون توقيير ، ولم تتح بسبب ذلك فرصة للاستفادة من نصر يوم الزلاقة ، ثم طلب إليه نظرا لانتماش قوى النصارى ، أن يمهّد إليه بقيادة الجيوش المراتبية ، وأن يكل إليه تدبير شؤون الأندلس ؛ وشد ما كانت دهشة المعتمد حينما علم بأن يوسف بدلا من أن يجيبه إلى طلبه ، رأى لسكى يعوض ما خسر الإسلام في الزلاقة ويحقق له ظفرا جديدا ، أن يعبر في جيش جديد إلى الأندلس وأن يتولى بنفسه تدبير كل شيء ، وهكذا عاد المعتمد إلى إشبيلية وهو عالم بهذا العزم .

وفي شهر يونيه سنة ١٠٨٨ الموافق شهر ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ ، عبر يوسف بن تاشفين إلى الجزيرة الخضراء بجيش ضخم ، وأعد المعتمد ما يجب لاستقباله ؛ وفي هذه الغزوة الثانية لأسبانيا رأى يوسف أن يسير من مالقة إلى مرسية حيث كان المسلمون يومئذ في أشد المآزق من جراء غارات النصارى . وأمر يوسف جميع أمراء الأندلس أن يوافوه بقواتهم إلى إقليم مرسية عند حصن لبيط ليجتمعوا هنالك بجيش المراتبين ، نخف الأمراء إلى دعوته ، وفي مقدمتهم المعتمد وتميم بن بلكين وإلى مالقة وأخوه عبد الله بن بلكين وإلى غرناطة ، وولاية يباسة وجيان ولورقة ومرشية ، وكانوا يعتبرون أنفسهم من الأمراء المستقلين لا من أتباع المعتمد . وظهر المعتمد أمير المرية بين فرسانه البيض في ثوب مراتبي أسود فكان كما يصفه بعض الرواة العرب كالغراب الأسود بين الحمام الأبيض . ومع أن المدافعين عن حصن لبيط من النصارى لم يزد عددهم على ألف فارس واثني عشر ألفا من المشاة ، فإن القوى الإسلامية المتحدة لم توفق إلى

(١) سبق أن أشرنا إلى زيارة ابن عباد للغرب وما ورد فيها من مختلف الأقوال .

الاستيلاء عليه بالرغم من جهودها وكثرتها وآلات الحصار التي لجأت إليها . وعانى المسلمون خسائر فادحة من انقضاء المحصورين عليهم بين آونة وأخرى . ورأى يوسف والمعتد أخيراً عبث هذه المحاولة واعتزما أن يرفعوا الحصار عن القلعة حتى لا يضيع الوقت في الحصار دون طائل ، وحتى لا يتمكن ألفونسو من المضى في أهبطه . ولما أخطر المعتد في المجلس الذي عقد لهذه الغاية أمراء الأندلس بهذا القرار ، اعترض عليه أولئك الذين تقع مدنهم وعمالاتهم في مرسية ، ورأوا فيه نوعاً من الغدر بهم ، وثار أحدهم وهو عبد العزيز بن رشيق وهو من الولاة التابعين لإشبيلية ، حيناً رماه المعتد بأنه متحالف سرا مع ألفونسو ، وشهر على المعتد سيفه لليبيطس به . فأمر يوسف بالقبض عليه وسلم إلى المعتد فشدد في اعتقاله . وكان لهذه الواقعة أكبر أثر في سير الحوادث . ذلك أن جند مرسية ما كادوا يقفون على ما وقع لأمرهم حتى اجتمعوا ساخطين ، وأبوا - رغم كل نصيح - البقاء في محلة المرابطين ، وساروا بقيادة زعمائهم إلى حدود مرسية واعتصموا بشعب الجبال ، وعملوا على قطع المؤن عن الجيش المرابطى ، وسرعان ما حل به الضيق . هذا إلى أن بعض الولاة الآخرين الذين ضاقوا ذرعاً بفطرسه المعتد آثروا مغادرة الميدان .

وهكذا أنقذ حصن ليبيطس . ولكن ألفونسو رأى نظراً لموقع الحصن في قلب بلاد الأعداء أنه لا يمكن الدفاع عنه دون حامية كبيرة ، فأمر عندئذ بتقويض أسواره وإخلائه ممن بقى فيه من النصارى وكانوا مائة فارس وألف راجل هم البقية الباقية من ثلاثة عشر ألف مقاتل ؛ ثم عاد إلى طليطلة مثقلاً بالغنائم ، وقد ظفر بأجباط خطط أعدائه (سنة ١٠٩٠ م - ٤٨٣ هـ) (١) .

(١) تتفق معظم هذه التفاصيل التي يوردها المؤرخ عن حصار حصن ليبيطس وما إليه من المعارك والوقائع مع ما أورده ابن زرع في روض القرطاس (ص ٩٩) ، وابن الخطيب في الحلل الوشية (ص ٤٩ و ٥٠) .

٢ — خضوع اسبانيا الجنوبية لسلطان المرابطين

كما أنه وجد بين النصارى وقت المحنة طائفة خانوا الوطن وتحالفوا عليه مع أعداء دينهم — ويذكر لنا التاريخ في مقدمة هؤلاء الكونت جارسيا أردونز — فكذا تلك تمخضت ظروف الأندلس المضطربة عن هذه الحقيقة ، وهي أن ذوى السلطان — تسيرهم عوامل الأثرة — حاولوا توطيد سلطانهم بأى الوسائل ولو على حساب الإسلام ذاته . أجل كان المرابطون فى نظر الأمراء الأندلسيين أشد وطأة عليهم من النصارى ، ولم يتورع بعضهم عن التحالف سرا مع الملك ألفونسو أملا فى التمكن بمعاونته من طرد أولئك الإفريقيين الذين استدعواهم بأنفسهم من قبل .

وقف سلطان المرابطين على جنوح الأمراء الأندلسيين إلى هذا الاتجاه من قائده سير بن أبى بكر الذى عهد إليه أثناء غيبته بقيادة الجيش فى أسبانيا ، فلم يلبث سوى قليل فى إفريقية ، ثم عاد إلى اسبانيا دون أن يستدعيه أحد من الأمراء وهو يعتمز هذه المرة أن يقضى بأذى ذى بدء على سلطان الأمراء الأندلسيين ، مؤملا أن يتمكن بعد ذلك من محاربة النصارى بنجاح وظفر .

وعبر يوسف إلى اسبانيا دون أن يقف على نيته أحد متظاهراً بأنه يعتمز محاربة النصارى بكل ما وسع ، وسير قواه الضخمة التى عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء ، إلى مختلف الأنحاء الداخلية . ولم يطلب هذه المرة من الأمراء المسلمين جنداً لمعاونته ، ولم يمرضوا عليه هم معاونتهم ، وقد كانوا يومئذ يرقبون حركات المرابطين جزعين أشد الجزع على سلامتهم . وسار يوسف على رأس جيشه العام إلى طليطلة ، وبعد أن عاث فيها ونفذ حتى ظاهر عاصمة قشتالة ، ارتد فجأة نحو الأندلس ، وسير فرقاً من جيشه نحو مختلف المدن ، وسار بنفسه إلى مدينة غرناطة .

وكان يوسف أشد ما يكون ارتياباً فى أمير غرناطة عبد الله بن بلكين بن

باديس . وكان يهتم بالتحالف سرا مع ألفونسو ومعاونته بالمال . فلما اقترب المرابطون من المدينة تردد عبد الله بين إغلاقها في وجوههم ، وبين الخروج إلى لقاء سلطان المرابطين واتقاء العاصفة الوشيكة باستقبال ودى . وكان واضحاً من حركات الجند القادمين أن يوسف لم يكن ينوى بالمدينة خيراً . وتختلف الروايات العربية في كيفية استيلاء يوسف على غرناطة . ولكن أرجحها فيما يظهر هو أنه استولى عليها بطريق الحيلة والخديعة . ذلك أنه أخفى مقاصده واستقبله عبد الله بترحاب . وما كاد جنده يدخلون المدينة حتى أسر عبد الله وأرسل مع أهله سجيناً إلى أغمت بالقرب من مراکش^(١) . وأذيع تطميناً لباقي الأمراء أن عبد الله نزل عن المدينة مختاراً وعوض عنها بأملأك واسمعة في إفريقية . وأرسل أميراً إشبيلية وبطليوس كل منهما سفيراً إلى غرناطة ينتحل لسفارته عذراً ، ولكنهما ذهبا في الواقع ليستوضحا حقيقة الأمر في شأن غرناطة فلقيا من يوسف كل إغراض ومهانة ، حتى أنه لم يقابلهما بنفسه ، فمادا إلى أميريهما يضطربان جزءاً وسخطاً^(٢) . وكانت حركات يوسف التالية تفسح بوضوح وجلاء إلى أي حد كان مصير عبد الله عبرة لباقي أمراء الأندلس . وقد أخفق يوسف في القبض على أبي مروان عبيد الله عن الدولة ولد أمير المرية الذي أوفده والده إلى غرناطة لثل المهمة التي قدم من أجلها سفيراً إشبيلية وبطليوس ، لأنه استطاع أن يفر متنكراً ولكنه قبض على تميم بن بلكين وإلى مألقة ، وبعث به سجيناً إلى إفريقية ليشاطر مصير أخيه عبد الله واستولى المرابطون على مدينته .

(١) تختلف الرواية الإسلامية في كيفية استيلاء المرابطين على غرناطة ، فالبعض يقول باستيلاء المرابطين عليها بطريق القدر والحيلة (راجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٥٣ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٣٣) ، والبعض يقول بأنهم استولوا عليها عنوة ، (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧) ، وفي روض القرطاس أن يوسف استولى عليها بالأمان بعد أن حاصرها شهرين (ص ١٠٠) ، وفي الحلال الموشية أن صاحب غرناطة هو الذي سلمها من تلقاء نفسه (ص ٥١) .

(٢) جاء في الحلال الموشية أن المعتمد بن عباد والأفطس هما اللذان قصدا إلى غرناطة لرؤية يوسف وتهنئته فلقيا منه إغراضاً (ص ٥١) .

ثم عبر يوسف إلى سبتة لكي يمجّل إرسال الجند منها إلى الأندلس ، وترك قائده سير بن أبي بكر في غرناطة على رأس الجيش المراتبي .

وسير يوسف إلى الأندلس أربعة جيوش في وقت واحد ، كل منها تحت إمرة قائد خاص لتقاتل أمراء الأندلس ، ولتحول دون اجتماع قواهم في أى مكان ولتقضى على سلطانهم بأسرع وقت . وتقرر أن تصوب الضربة الأولى إلى أقوام وأشدهم بأساً ، وهو المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية وقرمونة واستجة وقرطبة وبقاع أخرى في مرسية ، فيفرض سقوطه حتماً إلى سقوط الآخرين . وتأهب المراتبون لذلك خير أهبة ، فسار إلى إشبيلية جيش بقيادة سير بن أبي بكر ليأخذها ، ثم ينقض بعدئذ على بطليوس . وزحف جيش ثان بقيادة أبي عبد الله ابن الحاج إلى قرطبة ، وكان واليها ولد المعتمد الفتح أبو ناصر (المأمون) ، وسار جيش ثالث بقيادة جرور اللعتوني إلى أرض رندة وفيها ولد آخر للمعتمد هو يزيد الراضى بالله . وزحف الجيش الرابع والأخير بقيادة أبي زكريا بن واسنو على المرية وفيها المعتمد بن صامح صديق المعتمد الحميم ؛ وبقي يوسف في سبتة على رأس جيش احتياطى لكي يقوم عند الحاجة بإيجاد هذا الجيش أو ذاك^(١) . وكانت هذه الأهبة واضحة الدلالة في كونها أعدت لسحق الأمراء الأندلسيين ، وذلك بالرغم من أن القواد المراتبين حاولوا نزولاً على أمر يوسف ، إخفاء مقاصدهم العدائية مدى حين . وما كاد سير بن أبي بكر يجوز إلى أرض إشبيلية حتى ألقي المعتمد متأهباً لقتاله ، وكان قد لمح نذير العاصفة ، وبذا سقط قناع الصداقة ؛ وقاد المعتمد جنده لمقاتلة المراتبين في الميدان بالرغم من تفوقهم عليه ؛ ومع أنه حرص على ألا يشتبك معهم في معركة حاسمة فإنه اشتبك معهم في عدة معارك صغيرة مؤملاً بذلك أن ينهك قوى خصومه ، وأن يطاولهم مدى حين ؛ ولكن المراتبين كانوا في وفرة من العدد وكانوا يقاتلون في عدة أماكن ، فلم يفد المعتمد

(١) هذه التفاصيل في توزيع الجيوش المراتبية تطابق ما ورد في الحلل الموشية

إلا قليلاً أو لم يفد شيئاً من كفاحه . وسارت قوة من المرابطين إلى جيان وانتزعتها عنوة ثم انضمت إلى الجيش الذى يقوده جرور ، وكان قد هزم أمام أسوار قرطبة . ولم يبق عندئذ فى وسع عاصمة الأندلس القديمة أن تصمد أمام هذا الجيش الزاخر ، ومن ثم فقد آثرت قرطبة أن تصنى إلى ما وعدت به من تأمين للنفس والمال إذا بادرت بالتسليم على دفاع مشكوك فى عواقبه ؛ ولكن جرور الإفريقى لم يعرف إزاء الأندلسيين قدس العهد ، كما لم يعرفه مواطنه هانيبال إزاء الرومان من قبل ، فقتل كثير من أهل قرطبة ، وأمعن الغزاة فيها نهباً وسلباً ؛ وكان بين القتلى ولد المعتمد الباسل فتح الماءون ، وكان فتي فى عنفوانه وكان معقد الآمال (صفر سنة ٤٨٤ هـ - ١٠٩١ م) . وقتل فى نفس الوقت ولد آخر للمعتمد هو يزيد الراضى بالله والى رندة ، وكان مقتله عقب أخذها أنها كاسكل ذمام وإنسانية بعد أن قطعت لتأمين حياته أوثق المهود .

وهكذا اقتصر سلطان المعتمد على مدينتين هما إشبيلية وقرمونة ؛ وكان المرابطون قد وصلوا فى زحفهم إلى مدن الحدود ممالي ولاية طليطلة وأخذت سرايهم تهدد الأراضي النصرانية ؛ ثم حاصروا قلعة رباح واستولوا عليها ؛ وبذا فتحت أمامهم طريق قشتالة . فى تلك الآونة العصيبة استغاث أمير إشبيلية ألفونسو السادس ، ونسى ألفونسو عداؤه القديم ، وعقد الخطر المشترك بينهما أواصر الصداقة ؛ ومن المحتمل أن يكون ألفونسو توثيقاً للروابط المشتركة قد تزوج عندئذ بـسيدة ابنة المعتمد وهى التى تسمت بعد تنصرها باسم ماريأ أو كما يقول البعض باسم اليزابيث أو اتخذها حظية فى بلاطه^(١) وقد كان بعض ملوك النصارى يقلدون أسراء المسلمين يومئذ فى اتخاذ الحظايا وكان ذلك مثار سخط رجال الدين .

وسقطت قرمونة بعد حصار قصير (فى ربيع الأول سنة ٤٨٤ هـ - ١٠٩١ م)

(١) سبق أن أوضحنا سقم هذه الرواية وسخفها ، والرواية الإسلامية لا تشير إليها بكلمة قط ؛ ولو صحت لأضيفت إلى ثبت التهم الشنيعة الأخرى التى تنسبها الروايات الحصرية للمعتمد وهى لم تنجم عن اتهامه فى دينه ورميه بالإلحاد .

وكان يظن أنها لا تؤخذ لمنعتها ، فلم يبق أمام أمير إشبيلية إلا الاعتماد على أمداد النصارى . وقد سارت هذه الأمداد بقيادة الكونت جومز وعدتها أربعون ألف راجل وعشرون ألف فارس^(١) ووصلت إلى مقربة من قرطبة وهناك لقيهم قائد المرابطين إبراهيم بن إسحاق في جنده الشجعان ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية أصاب فيها المرابطون بالرغم من خسارتهم الفادحة نصراً مبيئاً ، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين ؛ وكانوا قد ضربوا حولها الحصار وكان سير بن أبي بكر يقود الجيش المحاصر . ولما وقف المعتمد على هزيمة النصارى غاض منه كل أمل في رفع الحصار ، وتقول بعض الرويات إنه استمر في المقاومة حتى أخذت المدينة عنوة ، وهو قول غير محتمل . والأرجح أنه سلم المدينة إلى المرابطين بعد أن قطعوا له عهداً بتأمينه وآله وشعبه في النفس والمال ، وكان سقوطها في رجب سنة ٤٨٤ هـ الموافق سبتمبر سنة ١٠٩١ م^(٢) .

كانت خاتمة محمد بن عباد المعتمد مأساة ألمية ، وكانت عبرة لتقلب الدهر والجدود . ذلك أن الرجل الذي لبث زهاء ربع قرن يقبض بيديه على مصائر أسبانيا ، والذي كان يحكم سواد النصف الجنوبي لشبه الجزيرة ، والذي يرجع الفضل إليه في استيلاء ألفونسو على طليطلة ، والذي استدعى المرابطين إلى الأندلس ،

(١) تسمى الرواية الإسلامية قائد القشتاليين في هذا الموطن « بالقرمش » ، وهو فيما يظهر تحريف لاسم « جومز » ، وتتفق مع الرواية النصرانية في عدد النصارى (روض القرطاس ص ١٠٠) . ويقول دوزي إن قائد القشتاليين عندئذ كان « الفارفانيس » Alvar Fanes (وهو بالعربية البرهانس) معتمداً على الرواية النصرانية ، (راجع ج ٣ ص ١٤٩ والهامش) .

(٢) تجمع الرواية الإسلامية تقريباً على أن المرابطين استولوا على إشبيلية عنوة ، وأن المعتمد بن عباد استمر في المقاومة حتى آخر لحظة ، وتنوه كلها بفائق شجاعته وبسالته ، (راجع ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٠ و ٤١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ ، والمراكشي ص ٧٧ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٤٥٣) . وللمعتمد نفسه شعر شهير في هذه الموقعة يصف فيه كيف لقي أعداءه يوم الصراع الأخير ، راجع قلائد العقيان ص ٢١ و ٢٢ ، والمراكشي ص ٧٧) ، ويأخذ دوزي بهذه الرواية ويترجم شعر المعتمد (ج ٣ ص ١٤٩ و ١٥٠) ، وينفرد صاحب روض القرطاس بالقول بأن المعتمد سلم المدينة بالأمان (ص ١٠١) ، ورددها ابن الأثير فقط (ج ١٠ ص ٦٥) .

اختتم حياته الباهرة في غمر البؤس والحزن وظلام السجن . واما أخذت إشبيلية قبض عليه وعلى نسائه وأبنائه وبناته ، وقد كان له من الولد نحو مائة ، وأرسلوا إلى إفريقية . ولما سارت السفين التي حملوا عليها ضججوا بالبكاء والنحيب في مناظر لا توصف حيناً رأوا مشارف « القصر » البديع ومناظر الساجد تفيض أمامهم كما تفيض ذكريات حلم مجد ذاهب ؛ وعامل يوسف الأسرة المنكودة دون أية مراعاة أو تقدير لسابق حالها ، فنقل المعتمد إلى أغمات على مقربة من مراكش ، وألقى به إلى غيابة سجن مروع ، ليلقى فيه موت الشهيد ببطء ؛ وهناك في البرج الذي زج إليه مع أسرته ، رأى المعتمد وقلبه يذوب حسرة ووجداء زوجته النابهة البارعة اعتماداً الرمكية تموت غملاً أصاب زوجها من محنة وبؤس وأسى . وحملت الفاقة بنات المعتمد على أن يشتغلن بالغزل وهن في ثياب خلقة ، لكي يملأن والدهن . وكان منظرهن يذكى في قلوب المنكودين جذوة الأسى والشجن ؛ ومع ذلك فإن المعتمد لم يطاقى الرأس تحت غمر المحنة والبؤس ولم ينس مجده الذاهب ، بل عرف بالرغم من ثيابه الخلقة أن يحتفظ بهيبة الجلال السابق وخلالها ، فكان يشع منه الجلال كما يشع ضوء الشمس إذا أهدق بها الغمام القاتم ؛ وكان عزاءه الوحيد أو غذاؤه الروحي في محنته ، نظم القريض الذي لم يفارقه شغفه قط . وقد بلغ من شغفه به أنه وهو في طريقه إلى الاعتقال وهب الشاعر أبا الحسن الحصري ستة وثلاثين مثقالاً لفصيذة قالها في مديحه ، فكانت آخر ما استطاع أن يبذل من الصلات الملوكية^(١) وقد أكثر من رثاء محنته ؛ وذاعت قصائده الرثائية لروعتها أعظم ذيوع ، حتى كان يحفظها كل إنسان ؛ ثم جاء الموت فأنقذه من أغلاله بعد أن عانى في معتقله أربعة أعوام (سنة ٤٨٨ هـ — ١٠٩٥ م) وحكم المعتمد وهو آخر أمراء بني عباد إشبيلية ثلاثة وعشرين عاماً ؛ وتفرق أبنائه بعد وفاته في أنحاء إفريقية يغمرهم البؤس الطاحن ، ولا يقدم إلينا التاريخ من ذلك الحين عنهم أو من عقبهم شيئاً^(٢) .

(١) راجع المراكشي ص ٨٥ .

(٢) كانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة مروعة مؤثرة ، وما زالت محنة هذا الأمير =

وفي نفس الوقت الذي سقطت فيه إشبيلية افتتح المرابطون ثغر المرية بإمرة قائدهم داود ابن عائشة الذي امتاز وحده بين المرابطين بالإنسانية وحفظ العهد ، وكان يحكم المرية يومئذ أبو يحيى محمد بن صامح التجيبي الملقب بالمعتصم والوائق بالله — وأصله من وشقة — وولده معز الدولة . وكان منذ أربعين عاما قوام حكومة رشيدة عادلة يفرها الشعب بحبه وتقديره . وقد اشتهر في جميع أنحاء الجزيرة بمحبته للعلوم والفنون والآداب ، وكان ينافس في هذا المضمار أعظم العلماء والشعراء والأمراء في عصره . وأما في الحرب فقد كان حتى بالنسبة لأعدائه الذين يقومون في قبضته يفيض إنسانية ورحمة . ومن ثم فقد أبدى أهل الأندلس بل أبدى النصارى أنفسهم كثيرا من العطف والأسف حينما زحف المرابطون على المرية وأنزلوا بالمعتصم ما أنزلوا بصديقه المعتمد . ومع أن المعتصم كان عضد المرابطين في كل فرصة ومناسبة وخصوصا في حصار حصن لبيط ، حيث ارتدى رداء المرابطين الأسود فإنه لم يستطع مجانبة المصير الذي قضى به يوسف على جميع الأمراء الأندلسيين دون استثناء . فحوصرت المرية من البر والبحر أحكم حصار وأشده . ولم ير الأمير الشيخ أمامه رجاء في الغوث ولم ير سوى شبح الأمر والمهانة فتوفي أسى وغما أو توفي مسموما^(١) ، خلفه في الحال ولده.

== الشاعر تحفظ إلى يومنا بال رغم من كثر العصور بكثير من ألوانها المؤسسية المشجية ، وقد أثمرت عطف الرواية الإسلامية وتأثرها البالغ ، ويبدو هذا العطف والتأثر بنوع خاص في روايات مؤرخي الأندلس والمشرق ، ومنها ما يشدد الحملة على يوسف بن تاشفين ، ويصمه بأقسى الصفات (مثال ذلك ابن الأثير ج ١٠ ص ٦٥) ، وأذكت محنة بني عباد في الوقت نفسه دولة الشعر ، فنظم المعتمد في رثاء نفسه ، ونظم أكبر الشعراء في عصره جملة من القصائد الرائعة المؤثرة التي ما زالت تحتفظ إلى اليوم بكل روعتها وحياتها . وقد أسبغت قسوة يوسف نحو المعتمد ونحو باقي أمراء الأندلس على سيرته وعلى خلاله سحبا لم تمنحها جميع الأعذار التي انتحلت لتبرير عمله . راجع في سيرة المعتمد ومحنه وقصائد رثائه ، قلائد العقيان (ص ٤ وما بعدها) ، والمراكشي (ص ٧٦ — ٨٩) ، وابن خلكان (ج ٢ ص ٣٦ — ٤٠) ، ونفع الطيب (ج ٢ ص ٤٥١ وما بعدها) .

(١) راجع في ترجمة المعتصم ووفاته ابن خلكان ج ٢ ص ٤٥ وما بعدها ، وابن الأبار في الحلة السراء ص ١٧٢ وما بعدها ، والمراكشي ص ٧٣ و ٧٤ ، وقلائد العقيان ص ٤٧ وما بعدها .

أحمد أبو مروان ممز الدولة ، وكان يشاطره أعباء الحكم أثناء حياته ، (وذلك في ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ) . بيد أن حكمه لم يطل سوى شهر واحد . ذلك أنه لما وقف على سقوط إشبيلية ولم يبق له أمل في الإنقاذ ، واشتد به الضيق والجوع من جراء الحصار أخذ يفاوض في تسليم المدينة ، ومع أنه لم يثق بوعود المرابطين لما كان يعلمه من مواقف غدرهم ، فإنه استطاع أن يحقق ما قصده بالمفاوضة وهو حمل العدو على تخفيف وطأة الحصار من ناحية البحر . وانتهز الفرصة السانحة ففر مع أسرته وأمواله في سفين سارت به إلى شمال شرق إفريقيا^(٢) ، ولم تمض أيام قلائل حتى استولى المرابطون على المرية دون مقاومة ، واستولوا في الوقت نفسه على جميع المدن والحصون التابعة لها . وهكذا افتتح المرابطون ولايات الأندلس كلها — غرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية والمرية — في وقت قصير لم يجاوز ثمانية عشر شهرا .

ولم يمهل داود ابن عائشة جنده بل سار توالا إلى ولاية مرسية حتى لا يترك للأندلسيين فرصة للاحتشاد ضد المرابطين ، وزحف على دانية وشاطبة واستولى عليهما وأخذ يهدد مريبطر وبلنسية وشتنمرية الشرق (البراسين) . ومع أن أسراء هذه النواحي قد اتحدوا جميعا وتوثق حلفهم ، ومع أنهم قاوموا من مدتهم الحصينة أشد مقاومة ، وعاونهم النصارى مرارا ولاسيما السيد الكنبيطور وفرسانه ، فإن ذلك لم ينفهم شيئا أمام طالع المرابطين وأمام تفوقهم ، وسقطت هذه المدن في يد المرابطين واحدة بعد الأخرى . وانتهت بسقوط بلنسية عاصمة الولاية ، وكان بها الأمير يحيى بن ذى النون القادر يتولى الدفاع عنها . وبالرغم من أنه كان ينضوى تحت حماية ملك قشتالة ، وقد خفت لإنجاده فرقة كبيرة من النصارى وقوة من المرتقة المسلمين من مرسية بقيادة ابن طاهر ، فإن الدفاع لم يطل أمده ، ووقعت خيانة عجبت بسقوط القلعة ، كذلك غادر النصارى المدينة

(١) راجع ابن الأبار في الحلة السراء ص ١٧٤ — ١٧٦ ، وروض القرطاس ص ١٠١ ، وابن الأثير ج ١٠ ص ٦٦ ، وابن خلدون ج ٦ ص ١٨٧ .

حينما رأوا استحالة الاحتفاظ بها وشقوا لهم بين الأعداء طريقا ، وفتحت أبواب المدينة للمرابطين بطريق الخيانة على يد القاضى أحمد بن جحاف المعافى ، فاقتحموها شاهرى السيوف وهم يقتلون كل من لقوا فى طريقهم ؛ وهنا تختلف الرواية العربية فى مصير القادر فيقول البعض إنه سقط عندئذ بين جنده مدافعا ، ويقول البعض إنه قتل قبل ذلك بقليل فى هجوم قام به خارج المدينة ، ويقول آخرون إن ولده وسميه القادر هو الذى كان يدافع عن أنقاض ملك بنى ذى النون ، وأنه قتل وقت سقوط المدينة فى المقتلة العامة . وعلى أى حال فإن المحقق هو أن سلطان بنى ذى النون الذى سطع من قبل فى طليطلة ، ثم استقر بعد ذلك فى بلنسية لى يومئذ مصرعه وخاتمته (سنة ٤٨٥ هـ — ١٠٩٢ م) ، واختار المرابطون القاضى الخائن أحمد بن جحاف واليا لبلنسية^(١).

وبينما كان داود ابن عائشة يفتح شرق اسبانيا ، كان سير بن أبى بكر يقتحم « الغرب » ظافرا ، فبعد أن استولى على إشبيلية زحف على ولاية بطليوس وأميرها يومئذ محمد بن الألفطس الملقب بالمتوكل ، واستولى على شب وبابرة بعد مقاومة قصيرة . وسرعان ما ظهر فى مروج بطليوس — وقد كانت ما تزال غاصة بعظام النصارى الذين سقطوا فى الزلافة وتركوا فى العراء — جيش من المرابطين ، بيد أنه لم يقدم كما قدم من قبل لغوث مسلمى الأندلس ، بل كان عندئذ أشد خطرا عليهم من أعدائهم النصارى .

وكان الأمير المتوكل وأولاده يقاتلون على رأس جندهم بشجاعة فائقة لكن ذلك لم يغير شيئا . ذلك أن الشعب كانت تروعه نبوءة خلاصتها أن الأمراء الأندلسيين يقهرهم فاتح من إفريقية ، ومن ثم فقد انحاز إلى المرابطين مؤثرا ألا يناهض القدر بمعركة لا خير فيها ، بل لقد كان الشعب عامة يؤثر تغيير الحكومة فى بعض الحواضر نظرا لأن نفقات البلاط فى الممالك الصغيرة كانت حقا تعاون فى نمو التجارة ولكنها كانت تزيد فى المكوس زيادة كبيرة . كذلك لم يكن ثمة

(١) راجع الحلة السيرة ص ١٨٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ .

أمل في دفع عادية النصارى نظراً لما انتهى إليه الأمراء من التفرق والانحلال . هذا فضلاً عن أن يوسف بن تاشفين كان يخص الأمراء وحدهم بقسوته . وقد استطاع أن يجد الوسيلة لكي يفرق بين الشعب وبين حكامه بسرعة . ذلك أن التناقض بين مصالح الشعب والأمراء كان واضحاً ، فقد كان الشعب يطلب الاتحاد وكان الأمراء يؤثرون التفرق والخلاف .

ولما هزم جند « الغرب » في المعركة التي نشبت وأسر الفضل والعباس ولدا المتوكل لم يبق أمام الفاتحين سوى بطليوس التي امتنع بها أميرها ؛ وكان المتوكل يعتزم الدفاع عنها غاية جهده ، ولكن أهلها لم يشاطروه هذا الرأي وحلوه على أن يفاوض المرابطين في تسليمها . وهنا أيضاً يبدو غدر المرابطين في أشنع مظاهره ؛ ذلك أن قائد المرابطين سير بن أبي بكر قطع على نفسه العهد بأن يترك الأمير وآله أحراراً في الخروج بأموالهم ومتاعهم إلى حيث شاءوا (إلى أراضي النصارى فيما يظهر) . ولكن هذا العهد انتهك انتهاكاً صارخاً ، فما كاد المتوكل يفادر المدينة مع آله ويحتلها سير بجنده ، حتى أرسل الأمير في طلبه سرية من الفرسان فأدركته وأسرته ؛ وبعد أن جُلبد المتوكل وولده بالسياط ، وبعد أن بلغت القسوة ذروتها بقتل الفضل والعباس أمام عيني والدهما المحزون ، أخذ المتوكل وقطعت رأسه . أما ولده الأصغر نعيم الدولة والي شنترين فقد أسر وزج إلى اعتقال طويل الأمد . وهكذا انتهى سلطان بني الأفطس في بطليوس في شهر صفر سنة ٤٨٧ هـ الموافق أوائل مارس سنة ١٠٩٤ (١) .

وقد نظم أعيان شعراء العصر في مصر ع عمر وآله كثيراً من المراثي المؤثرة وفيها ينمون تقلب الجلود في هذه الدنيا حسبما يصوره مصير بني الأفطس ، وكان أبدعها جميعاً مراثية عبد المجيد بن عبدون وزير الأمير القتيل (٢) ، ولم يكن عمر

(١) راجع في أخبار المتوكل وخلال له ومحنه المراكشي ص ٤١ وما بعدها ، وقلاند العيان ص ٣٦ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٠ .

(٢) راجع مراثية ابن عبدون المشار إليها في المراكشي ص ٤٢ — ٤٦ .

المتوكل عالماً كبيراً ونصيراً عظيماً للعلوم وشاعراً مجيداً فحسب ، ولكنه كان أيضاً يشغف بقضاء معظم أوقاته في مجالسة العلماء والشعراء ويترك في معظم الأحيان ماعداها من الشؤون . وكان معظم وزرائه من أكابر العلماء ، ومن ثم كان طبيعياً أن تعتبر دولة التفكير والثقافة موته خسارة فادحة للعلوم والفنون .

وفي نفس الوقت الذي سقطت فيه بطليوس افتتحت سفن المرابطين الجزائر الشرقية (البليار) ، وكان واليها يومئذ من بنى شهيد أتباع أمراء بلنسية ودانية من قبل فلم يستطع لضعفه أية مقاومة ، وهكذا سقطت أسبانيا المسلمة كلها ماعدا ولاية سرقسطة في يد المرابطين في النصف الأول من سنة ١٠٩٤ م — ٤٨٧ هـ .

٣ — ولاية سرقسطة

كان أبو جعفر أحمد بن هود المستعين بالله هو الذي استطاع وحده من أمراء الأندلس أن يفيد من نجدة المرابطين دون أن يفقد من جرائها سلطانه . ذلك أن سرقسطة التي كان يحاصرها جنود ألفونسو السادس حين عبور يوسف بن تاشفين الأول إلى أسبانيا ، أنقذت من الحصار عندئذ . ولما هزم النصارى في موقعة الزلاقة عاد سلطان بنى هود فتوطد في أنحاء سرقسطة ولاردة وبربشتر ووشقة ، وطرطوشة ، وقلعة أيوب ، وتطيلة ، وأفراغة ، وقلعة دروكة ، ومدينة سالم ، ووادي الحجارة ، وما إليها من الأراضي . ولكن سرعان ما عادت السحب والمواصف تحديق كرة أخرى بمدن الحدود في ولاية سرقسطة . ذلك أن الملك سانشو راميريز (ابن رذمير) صاحب أراجون الذي استطاع كما قدمنا أن يقوى نفسه بالاستيلاء على جزء من نافارا (بلاد البشكنس) وباستقدام عدة كبيرة من المرتزقة الفرنسيين ، سار غازياً من الجبال البرينية إلى نهر الأييرو (أبرة) وقد قيل إن الفارس الأسباني السيد الكنييطور (السد الكمبيادور) الذي نفاه سيده ملك قشتالة كان يحارب يومئذ إلى جانب أمير سرقسطة ضد إخوانه في الدين ويمرقل ظفرهم ؛ بيد أنه ليس من الميسور أن تتحقق من صحة هذه الرواية نظراً لأن تاريخ السيد كما

انتهى إلينا من الروايات والقصص النصرانية فياض بالأساطير والخرافات^(١) ، وسار جيش سانشو وقوامه زهاء عشرين ألف مقاتل فالتقى في ظاهر وشقة بجيش المستعين وهو في مثل عدده تقريبا ، واجتمع النصارى للقتال على نفخ القرون والمزمار ، واجتمع المسلمون على قرع الطبول ، ودار القتال سجلا مدى حين ، ولكن الفرسان النصارى استطاعوا في النهاية في فيض من الشجاعة والحماسة هزيمة المسلمين المتعبين وإرغامهم على الفرار . ولجأ الجيش المهزم إلى قلعة وشقة ، وأخذ بذلك من سحق شامل . وفي الحال نصب النصارى آلات الحصار حول وشقة ، ولكن المدينة المحصورة استطاعت نظرا لمنعتها الطبيعية والفنية ، أن تقاومهم بشدة ؛ وعانى الجيش المحاصر خسائر فادحة من جراء انقضاء المحصورين عليه بين آونة وأخرى . ولما رأى المستعين بن هود أن النصارى مضوا في سيرهم المظفر واستولوا على أفراغه ، وشدوا الحصار على وشقة خبت شجاعته ، وأيقن أنه لا يستطيع الوقوف أمام هذا السيل دون معاونة من الخارج . ولكنه بعد أن اتجه في البداية نحو ألفونسو ملك قشتالة ، وقد كان ينظر إلى فتوح سانشو بعين الحسد ، ووعده بأن يقوم بدفع الجزية نظير حمايته من اعتداء أراجون ، عاد فبهذه الميثاق إذ رأى ألفونسو نفسه يواجه خطر المرابطين وليس في وسعه أن يحول جيوشه ضد أراجون ؛ هذا إلى أن المستعين كان يؤمل بعد وفاة ملك أراجون أن تميل كفة النصر إلى جانبه ؛ ذلك أن سانشو راميريز ركب ذات يوم لرؤية قلعة وشقة التي حالت مناعة موقعها دون سقوطها وأمر جنده بمهاجمتها من نقطة لاح لها أنها أقل مناعة من غيرها . ولكن المسلمين خرجوا في الوقت نفسه لمهاجمة النصارى وأصيب ملك أراجون خلال المعركة بجرح مميت من جراء سهم أصابه . فاستدعى في الحال كبراء جيشه مؤثرا أن يفكر في مصير مملكته على تفكيره في نفسه . وبعد أن طلب إليهم أن يقطعوا عهد الولاء والطاعة لولده

(١) تؤيد الرواية الإسلامية استخدام بني هود للسيد الكنيطور في حروبهم ضد خصومهم من المسلمين أو النصارى ، وقد أشار ابن بسلام في الذخيرة إلى ذلك بهي من التفصيل ، ونقل دوزي هذه النبذة بنصها العربي في كتابه عن « السيد » .

الأكبر الدون بيدرو ، طلب إلى ولده أن يقطع العهد على نفسه بأن يمضى فى حصار وشقة حتى سقوطها ، وقطع ولده الثانى ألفونسو أمامه مثل هذا العهد . ولما اطمأن إلى مصير الحصار صارح الحضور بأنه يشعر بدنو أجله ، ثم انتزع السهم من جرحه ومات وهو موقن بأنه قاد شعبه إلى الظفر كما مات إبا منونداس زعيم طيبة (٦ يولية سنة ١٠٩٣)^(١) .

ولبث المستعين بن هود حينئذ يساوره التردد وهو يرى جيوش النصارى تشدد الضغط عليه ، وتروعه فتوح المرابطين فى جنوبى اسبانيا وفى شرقها . على أنه اضطر أن يعترف أمره ، وقد آثر أخيراً مخالفة إخوانه فى الدين ، أعنى المرابطين ، وكانوا يومئذ قد افتتحوا بالنسبة والجزائر الشرقية ؛ وقد كان حرباً بيوسف بن تاشفين نفسه أن يدرك أن أمير سرقسطة نظراً لاعتماده على وعورة أرضه ، ومنعة قلاعها ، وإخلاص رعاياه ، يستطيع إذا ما هاجم أرضه مهاجم أن يعقد الحلف مع النصارى ، ومن ثم فقد رأى يوسف أن يستجيب إلى ما عرضه المستعين ، من أن يعقد معه محالفة دفاعية ؛ وأرسل المستعين وقد كان يحرز بتجارته مع مصر والشام ثروات طائلة ، إلى المغرب تحفكاً وهدايا جلييلة ، كان فى وسع يوسف أن يعتبرها بمثابة الجزية ودليل الطاعة ، كما أرسل ولده عماد الدولة عبد الملك إلى مراکش ليعقد التحالف المنشود^(٢) ، واستطاع عبد الملك بحسن سعيه وتصويره للخطر الذى تتعرض إليه وشقة أن يحمل يوسف على أن يمد حليفه الجديد بستة آلاف راجل وألف فارس من المرابطين كمنجدة أولى مع الوعد بإرسال نجيدات أخرى أوفر عدداً ، وإخاطر ولاية دائمة وشاطبة والسهلة ، (شنتمرية الشرق) بالمبادرة إلى غوث المستعين . على أنه بالرغم من هذه القوى الضخمة التى انضم إليها أيضاً الكونت جارسيا أردونز فى جنده ، وقد كان إلى جانب المرابطين من قبل ؛

(١) هو من زعماء اليونان القديمة وقادتها ، قاد بلده طيبة إلى النصر مراراً ، وتوفى قتيلاً فى معركة ماتينا سنة ٣٦٢ ق . م التى ظفرت فيها طيبة بالرغم من مقتله .
(٢) راجع فى تفاصيل هذه السفارة وفى أحوال المستعين الحلل الموشية من ٥٣ — ٥٥ ، والحلة السراء ص ٢٢٥ .

وبالرغم من أن المستعين استطاع فيما يظهر أن يقوم ببعض الفتوح في البداية فإن قوى المسلمين لم تستطع أن تنهض جيش النصارى الذى يقوده الدون بيدرو ملك أراجون . ورفع الدون بيدرو حصار وشقة ، وسار إلى لقاء المسلمين وهزمهم هزيمة حاسمة في « الكرازة » ؛ وعلى أثر ذلك سقطت وشقة في يد النصارى (أواخر سنة ١٠٩٦ م)^(١) واتخذ ملك أراجون مقامه في وشقة ، وصير مسجدها الجامع في الحال كنيسة تلا فيها الأرجونيون أدعية الشكر لربهم لما أولاهم من نصر باهر في « الكرازة » ، ونسبوا الفضل إلى حاميمهم القديس جورج . وعندئذ فقط دفن الملك القتيل سانشو ، وكان ابنه بيدرو قد آثر أن يقوم بهذا الواجب البنوى بعد الاستيلاء على وشقة وفاء للعهد الذى قطع .

وكان لسقوط وشقة بالنسبة لشمال شرق اسبانيا ، أعنى بالنسبة لأراجون من الأهمية مثلما كان لسقوط طليطلة قبل ذلك بأحد عشر عاماً بالنسبة لقشتالة . ذلك أنه ترتب على ذلك سقوط هذين العقليين المنيعين لسلطان الإسلام في اسبانيا أن فُتح طريق الأرجونيين إلى سرقسطة ، كما فتح طريق القشتاليين إلى الأندلس . بيد أن الفتوح التى كان واجباً أن تتم عقب الاستيلاء على هذين الحصنين المنيعين أرجئت إلى حين لما بذله المسلمون من عظيم جهد في الدفاع ، ولما أصاب الأمراء النصارى من عوامل التفرق والخلاف .

وثمة معقل هام ثالث يمكن أن يهدد منه جميع الشاطئ الشرقى لاسبانيا المسلمة ، على أن افتتاحه لم يكن إلا ظفراً خلباً^(٢) . هذا فضلاً عن أنه لم يترتب عليه ما كان متوقفاً من الآمال الكبيرة . وليس من المستطاع أن تتحقق مما انتهى إلينا في شأن هذا الفتح من الروايات النصرانية والعربية ما إذا كان قد وقع قبل سقوط وشقة أو بعده . فإذا كان الدون بيدرو قد افتتح وشقة سنة ١٠٩٤ م كما

(١) يشيران خلدون إلى هذه الموقعة بأنها موقعة وشقة ، ويضع تاريخها سنة ١٠٨٩ هـ —

١٠٩٦ م (ج ٤ ص ١٦٣) .

(٢) يريد المؤلف هنا افتتاح بلنسية .

يقول البعض ، فمن الواضح أن استيلاء « السيد » على بلنسية كان بمد هذا التاريخ . بيد أنه يوجد لدينا من الأسباب القوية ما يحمل على الاعتقاد بأن افتتاح وشقة كان في أواخر سنة ١٠٩٦ م ، ومن ثم فإن بلنسية تكون قد سقطت قبل ذلك في يد النصارى ، والظاهر أن سقوطها كان في النصف الأخير من سنة ١٠٩٤ م .

٤ - فتح السيد لبلنسية

لم يقع فتح بلنسية على يد أحد من أمراء أسبانيا النصرانية ، ولكنه وقع على يد فارس جعل منه الشعب الأسباني بطله الأمثل . ذلك هو الكونت رودريجو دياز دى بيثار ، المعروف بالسيد الكبيادور (السيد الكنيطور) . وإذا كان البحث التاريخي المحقق لأعمال السيد قبل هذا الفتح يقضي بوضعها في عداد القصص الشعرى ، وأن معظمها يناقض المصادر التاريخية ، فإنه يبقى لبطل أسبانيا عمله الباهر ، أعنى فتح بلنسية دون نزاع .

وترجع سيرة السيد وأعماله الأولى - حتى مع التسليم بأن الشعر والروايات المنمقة اللاحقة تقص الحقيقة ، في معظمها - إلى الحياة الخاصة أكثر مما ترجع إلى تاريخ أسبانيا العام . بيد أن ما يروى من أعماله في الأندلس مثل قتاله إلى جانب إشبيلية ضد غرناطة ، ومعاونته لسلوى سرقسطة ضد كونت برشلونة ، والملك سانشو راميريز وييدرو ملك أراجون والأغلب صاحب دانية ، يناقض المصادر التاريخية في كثير من الأحيان ، ويحيط به كثير من الريب ، ومن ثم فإنه يحسن أن نعرضه في فصل خاص .

كان ذلك في أواخر حكم فرديناند حينما ظهر رودريجو ولد دياجو أو (دياز) لأول مرة في المارك التي نشبت ضد الأرونيين والمسلمين . ولما قسم فرديناند مملكته بين أولاده الثلاثة ، انتظم الكونت رودريجو بين أكبر قشتالة وانصوى تحت لواء سانشو فقدمه على جميع الفرسان الآخرين وعينه قائداً لجيشه . وخاض

رودريجو جميع الحروب التي شهرها سانشو على أخويه وعاون في كسبها، وُطرد
الأخوان من أرضهما ، والظاهر أنه أطلق عليه يومئذ لقب الكمبيادور
Campeador أو الكمبيدكتوس Campidoctus أعني « القائد الكبير »^(١) .
ولما سقط سانشو صريع الغيلة أمام أسوار سمورة (زامورا) واستولى أخوه
ألفونسو الذي كان يعيش منفياً في « طليطلة » على جميع مملكة أبيه ، أبي القشتاليون
أن يعترفوا له ملكاً عليهم حتى يقسم بأنه برىء من كل تبعة في مقتل سانشو ،
ولم يجزأ أحد من أكابر قشتالة على أن يلحق صيغة اليمين للملك إلا الكونت
رودريجو ، فقد تقدم لأداء المهمة ، ولحق الملك صيغة اليمين مرتين ؛ وإلى هذا
السبب يُنسب غضب ألفونسو المستمر على الكمبيادور ، وكونه كان يقبل على
سماع وشايات خصومه .

والظاهر أن المصادر العربية تاتي ضوءاً على القول بأن الملك ألفونسو أرسل
رودريجو إلى إشبيلية سفيراً إلى المعتمد ابن عباد^(٢) . بيد أن التاريخ الذي تنسب
إليه هذه الواقعة هو نفس التاريخ الذي تقول الرواية النصرانية إن رودريجو نفى
فيه من قشتالة . أما لماذا نفى الفارس ، وأين كان يقيم أثناء نفيه الطويل ، وهل
قاتل حقاً في ذلك الحين إلى جانب أمير سرقسطة ضد برشلونة وأراجون ودانية ،
ومتى عاد إلى قشتالة ؛ ثم لماذا نفى للمرة الثانية والثالثة من وطنه ؛ وهل حارب
عندئذ إلى جانب كونت برشلونة ؛ وماذا فعل ضد المسلمين في بلنسية ودانية ؛ فهذه
كلها أمور تقصر سير حياته عن إيضاحها بصورة كافية ، متى قورنت بالمصادر
التاريخية . بيد أن شيئاً واحداً يبدو محققاً هو أن رودريجو كان رجلاً وافر

(١) تسمى الرواية العربية السيد الكمبيادور Cid il Campeador رذريق الكنبيطور
أو القنبيطور . وتقول لنا إن الكنبيطور معناها صاحب الفحص (راجع ابن الأبار في الحلة
السيرة ص ١٨٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ ، والبيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥) .
(٢) كان سفير ألفونسو إلى المعتمد حسباً بينما فيما تقدم هو قائد الفارغانيس المعروف
في الرواية العربية بالبرهانس . ولكن المؤلف لم يفتن إلى هذه المطابقة في الاسم ، وظن أن
البرهانس أو « البرهان » إنما هو شخص آخر ، وسرى فيما بعد أنه يعتقد خطأ أنه هو الاسم
الذي تطلقه الرواية العربية على « السد » .

الكبرياء والصلف يؤثر أن يخوض الحرب لحسابه على أن يخوضها تحت إمرة ملكه الذي لم يكن يحاسبه ولم يرتح إليه ؛ فغادر قشتالة مختاراً . واما كان قائداً مبرزاً ، وفارساً بارعاً ، ذائع الصيت في جميع أسبانيا ، فقد اجتمع تحت لوائه أولئك الذين يقودهم إلى السلب والفتح ، وكل من شغفه حب القتال من النصارى أو المسلمين ؛ ومن أحرز قصب السبق في إثابة الفارس ومكافأته ظفر بعونه وعون عصبته . ويستوى في ذلك أن يكون الطلب من أمير نصراني أو أمير مسلم . وقد قدم الأمراء الذين يحكمون فيما بين الأيبرو والبرنيه أنفسهم أمثلة من ذلك ؛ فليس غريباً أن يتقدم فارس مبعود من وطنه على رأس سرية من الشجعان لبيع معونته دون تفريق بين أمير نصراني وأمير مسلم . ولقد خلقت العلائق التي كانت تربط الشعب الأسباني في هذا العصر — بالرغم مما كان يسوده من تعصب ديني في هذا المقام — نوعاً من التفاضل عن الاعتبار الدينية ، مادام الأمر يتعلق بتحقيق السلطان والمجد والتوسع . وقد كان ثمة « كمبيادور » آخر خصم للكونت رودريجو هو الكونت جارسيا أردونز الذي تقع أراضيه في أعلى الأيبرو ، وقد باع فرسانه للمرابطين وحارب معهم ضد النصارى . واما حاصر الملك بيدرو وشقة بعد ذلك جاء الكونت جارسيا أردونز موفداً من قبل المرابطين لمعاونة أمير سرقسطة ، بل يلوح أيضاً أنه حارب ضد الكونت رودريجو نفسه .

وقاتل رودريجو في جنده النصارى والمسلمين مراراً في شرق أسبانيا فيما بين نهر ايبرو ونهر شقر ، وخاض معارك شديدة ضد النصارى والمسلمين ، ولقب في تلك الفترة لأول مرة « بالسد » (أى السيد) ، ولقب من أعدائه بنوع خاص « بالبرهانس » (أى الطاغية) ^(١) . ونستطيع لأول مرة حينما افتتح المرابطون دانية وبلنسية (سنة ١٠٩٢ م) أن نعثر في المصادر التاريخية الحقبة بمادة أوثق عن أعمال السد . فبعد أن حصن السد في بلنسية عدة قلاع شاهقة في الجبال ،

(١) هذا تحريف سبق أن أشرنا إليه ، والواقع أن « البرهانس » الذى تشير إليه الرواية العربية إنما هو « الفارقانيس » قائد الملك ألفونسو السادس ؛ والظاهر أن المؤلف ذهب إلى هذا التفسير من عبارة مضطربة وردت في ذلك في ابن خلدون (ج ٦ ص ١٨٢) .

وزودها بحاميات قوية ، وعقد حلفاً مع أمراء السهلة وشاطبة ودانية ومريبطار المسلمين ، وهم من ألد خصوم الرابطين ؛ اعتزم أن يحاول انتزاع بلنسية من الرابطين ، فحاصرها بجيش كبير من النصارى والمسلمين تعاونه فيما يظهر قوة من القشتاليين أرسلها الملك ألفونسو ؛ وبالغ السد في التضيق على المدينة حتى أن سكانها الذين كانوا فوق ذلك يئنون من حكم الرابطين عمدوا إلى إرغام والى المدينة وهو القاضي أحمد بن جحاف على أن يفتح أبوابها للجيش المحاصر ، خصوصاً وقد غاض كل أمل في الفوث السريع الذى التمسوه ، وأثفق على تسليم المدينة على أن يؤمن القاضي ابن جحاف وأسرته وكل سكان المدينة تأميناً تاماً مطلقاً ؛ فلا يصيبهم في النفس أو المال أى ضرر ، وأن يبقى القاضي على ولايته ، وبذا دخل السد وحلفاؤه ثغر بلنسية في جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (مايو سنة ١٠٩٤ م) (١).

وحافظ الظافر بادى ذى بدء على عهده ، ولكنه لما طلب إلى ابن جحاف أموال أمير بلنسية السابق يحيى القادر بن ذى النون ، وقرر القاضي أنها ليست لديه ولا يعرف مخبأها ، أمر بالقبض عليه وعلى أسرته ، ولما لم ينجح في حمله على الاعتراف وعد ولا وعيد ولا تعذيب ، أقيمت في ساحة السوق بالمدينة محرقة كبيرة لكي يحرق فيها ابن جحاف وأمرته . ولما وقفت الجوع المحتدة من المسلمين والنصارى على الخبر صاحت وأنت حسرة على مصير النساء والأطفال ، والتمست إلى السد أن يفر الأبرياء على الأقل ؛ فنزل في النهاية عند رجاؤهم ، واقتيد القاضي في أغلاله وألقى في حفرة إلى وسطه . وأضرمت النار من حوله وأتى عليه اللهب في الحال . وكانت هذه الواقعة لعام من سقوط بلنسية .

وكان يشترك مع السد في حكم بلنسية حليفه الأمير أبو مروان عبد الملك صاحب السهلة ، وفوض إليه السد أن يختار لها والياً هو لبون بن عبد العزيز ، وكان قيام والى مسلم بالحكم باسم الفريقين مما يخفف على البلنسيين وطأة نير

(١) راجع في استيلاء السيد على بلنسية البيان المغرب ج ٣ ص ٣٠٥ و ٣٠٦ ، وابن الأبار في الحلة السراء ص ١٨٩ ، ونفح الطيب ج ٢ ص ٥٧٧ .

النصارى . ذلك أنه كان من الواضح أن ألفونسو ملك قشتالة وهو صاحب الجزية على السد هو أيضاً سيد بلنسية . وفي ذلك أيضاً ما يفسر كون بعض الروايات العربية تنسب افتتاح بلنسية إلى الملك ألفونسو وإيس إلى السد ، وأن الروايات النصرانية تصف سقوط بلنسية عقب وفاة السد بأنه انتقاص لأراضي مملكة قشتالة .

وقد جبطت كل محاولات المرابطين لاستعادة بلنسية ما عاش السد . بيد أن كل ما يروى بعد ذلك عن أعمال الكمبيادور (الكنتيكتور) وسيرة حياته تحقيق به نفس الريب التي تحقيق بسيرته قبل افتتاح بلنسية ، ومن ذلك ما قيل عن تحالفه مع بيدرو ملك أراجون ضد المرابطين وعن الموقعة العظيمة التي خاضها معاً ضد قائد المرابطين سير بن أبي بكر فاتح الجزائر الشرقية (البليار) . هذا بينما توجد رواية تناقض هذه تمام المناقضة ، مفادها أن السد أسر الملك بيدرو هذا ؛ ومن ذلك أيضاً ما قيل عن افتتاح السد لمريطر ، وقد كان أميرها حليف السد ؛ وعن اشتراك الكونت ريموند برنجار الثالث صاحب برشلونة — وكان لا يزال يومئذ قاصراً — في الدفاع عن مريطر ضد السد ، وما ورد في بعض الروايات السقيمة المتأخرة عن تعيين هيرونييموس أسقفاً لبلنسية بموافقة أوربان الثاني ، وهي رواية باطلة . أما القليل الذي يؤيده التاريخ الحق ، فهو أن السد استمر في حكم بلنسية حتى توفي على مقربة منها في سنة ١٠٩٩ م (٤٩٢ هـ) ، وأنه بعد وفاته بثلاثة أعوام اضطر ألفونسو ملك قشتالة بعد حصار طويل الأمد ومعارك دموية عديدة ، أن يتخلى عن بلنسية للمرابطين وذلك في سنة ١١٠٢ م (٤٩٥ هـ) .

ونريد هنا أن نختتم تاريخ السد بأن نقول كلمتنا فيه حسبما نوهنا من قبل في فرصة سابقة . وإن الباحث ليتساءل لماذا انفرد السد دون سائر أبطال إسبانيا بأن يحرز مثل هذه الشهرة البعيدة ؛ هذا بينما نرى أعمال سادة قشتالة السابقين وغيرهم من أكابر المجاهدين في سبيل الوطن بدلاً من أن يذكرها الشعب الأسباني ويحيطها بمرفانه يكاد يغمرها النسيان المطبق ؛ فيسفر بحثه عن أن السد مدين

بتخليد ذكره وإحراز مركزه الرفيع بين الأبطال الأسبانيين بالأخص إلى ظروف عصره . والأمير لا يرجع هنا إلى الخلال ذاتها ، وإنما يرجع بنوع خاص إلى تقدير أهل العصر وعطفهم ، فهم الذين يتوجون هجمات الأبطال كما يتوجون هجمات الشعراء بأكليد الفار ، ويضعون بذلك دعامة الشهرة لجميع المصور . وقد خلدت ذكرى السد كما خلدت ذكرى أخيليس^(١) على يد الرواة والنشدين . وقد عاش السد في ذلك العصر العاصف الذي بدأت فيه الحرب الصليبية الأولى . ولما أبى البابا على النصارى الأسبان أن يشتركوا في افتتاح الأرض المقدسة ، عمد سيد حانق على مليكه إلى حشد المجاهدين من قشتالة وأراجون ليقوم بحملة ضد بلنسية في نفس الوقت الذي سار فيه جودفروا دي بويون^(٢) على رأس الجيش الفرنجى . النهاب لافتتاح القبر المقدس . وإذا كان السد أقرب إلى تحقيق غايته ، فقد استطاع أن يستولى على بلنسية قبل أن يسير الصليبيون بعيداً في طريقهم .

وفي نفس العام الذي توفي فيه السد وهو ما يزال سيد المدينة المفتوحة ، فتح بيت المقدس . وتقدم إلينا معظم الروايات الأسبانية منذ القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر الحادئين جنباً إلى جنب ؛ وأحياناً تضع لها تواريخ مع طمعة اتحملنا بذلك على الاعتقاد بأنه توجد بينهما رابطة ؛ ذلك أنه ما كاد نبأ الاستيلاء على بيت المقدس يذاع بسرعة مدهشة في جميع أنحاء أوروبا ، وتتردد أسماء الأبطال الصليبيين الأوائل على جميع الألسن ، حتى حفز ذلك الشعب الأسباني المجاهد الذى أبعد عن الاشتراك في الحرب الصليبية أن يقدم جلائل أعمال أبطاله المماثلة ، إلى جميع المجتمع النصرانى المعاصر ، وإلى الأجيال اللاحقة في القصائد والأناشيد . وقد كانت هذه الأعمال تعتبر إلى ذلك الحين حوادث طبيعية نظراً لظروف اسبانيا النصرانية إزاء المملكة الإسلامية . ولذا لم تكن

(١) هو بطل لياذة هوميروس ، وتصوره الإلياذة أشجع جندي يوناني في حروب تروادة .

(٢) هو من أمراء الفرنج وقائد أول حملة صليبية سارت لافتتاح بيت المقدس وانتهت بها في سنة ١٠٩٩ م ، وكان أول ملوكها من الصليبيين ، وتوفي بعد عام من افتتاحها في سنة ١١٠٠ م .

الرواية ولم يعن القريض بالإشادة بها . وأقرب ما يتبادر إلى الذهن عن فتح بلنسية هو أنه شبيه بفتح بيت المقدس إذ قام به الفرسان ، ولم يقم به ملك ما . ومن ثم فقد اعتبر السد البطل الأمثل في الشعر الأسباني . واسمه يمثل الفروسية الأسبانية ، ويعتبر عنواناً لمثل أعلى من الشجاعة المقرونة بالتقوى والجود والنبيل والفروسية . وإذا فلا غرو أن يمزج الشعر بالحقيقة أتم امتزاج ، حتى أنه في فاتحة القرن الثالث عشر أعنى لماة عام بعد وفاة السد لم يبق من الميسور بعد أن يفرق بين الحقيقة والخيال .

٥ — الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين

لما أخضعت أسبانيا المسلمة كلها لصولة المرابطين — وقد فقد بنو هود في سرقسطة استقلالهم في الواقع — عبر سلطان إفريقية الشيخ إلى اسبانيا مرة أخرى لكي يعنى بتنظيم شؤونها قبل وفاته . وكان ذلك سنة ١١٠٣ م بعد استرداد بلنسية بقليل حينما عبر يوسف إلى شبه الجزيرة للمرة الرابعة ، ولم يكن عبوره هذه المرة لمحاربة مسلمي الأندلس ، بل كانت تحذوه عندئذ بالنسبة إليهم عواطف ونيات سامية بعد أن غدوا من رعاياه ؛ واستصحب معه ولديه تيميا وأبا الطاهر وعلياً أبا الحسن . ومع أن علياً كان أصغر من أخيه فقد اختاره يوسف لولاية عهده إذ كان يتفوق على أخيه تفوقاً كبيراً في المواهب والخلال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة .

وسرعان ما كشف يوسف عن قصده في العبور إلى الجزيرة . ذلك أنه بعد أن وقف على حسن سير الإدارة في الولايات ، وشكر القادة والولاة على غيرتهم في تنفيذ أوامره ؛ دعا القادة والولاة إلى الاجتماع في قرطبة ، وكانت قد عادت يومئذ قاعدة الحكم في اسبانيا المسلمة ؛ ودعى إلى هذا الاجتماع الحافل أيضاً كبراء الأندلس في مختلف الولايات ، وكذلك زعماء القبائل المغربية التي تدين بالطاعة ليوسف ؛ وأفضى يوسف إلى الجماعة بعزمه في تعيين ولده الأصغر علياً لولاية الحكم من بعده وأمرهم أن يؤدوا إليه يمين الولاء والطاعة باعتباره أميرهم المستقبل ؛ وعهد يوسف

إلى كاتبه بوضع وثيقة تتضمن شرح النقاط الأساسية المتعلقة بولي العهد وما يسند إليه من قسط في الحكم؛ وأهم ما جاء فيها هو أن أمير المسلمين نصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين بعد أن أنعم النظر والتدبر في كل شيء ألقى ابنه الأصغر أبا الحسن علياً أكثر أهلية وصلاحيه للاضطلاع بجليل الأمور وخطيرها، ورآه أكثر اقتداراً على تلقي أعباء الحكم، ومن ثم فقد آثره واصطفاه وعينه ورفعته إلى مقام الملك، وأولاه العرش وذلك بعد أن تشاور من قبل مع أعلم الناس وأعقلهم وأقدرهم في كافة أنحاء المملكة، وبعد أن اتفقوا جميعاً مع زعماء المملكة وقادتها على الاعتراف بملء حريتهم دون إكراه ما، بأنهم راضون عن هذا الأمير الشاب وأنهم يقبلونه ويبايعونه مختارين، ما دام والده قد اعتزم ذلك وأقره، وهم يقبلون علياً ويقرونه على هذا الشرط دون سواء؛ وهو أن يكون والده أمير المسلمين قد اختاره حقاً ورآه أهلاً لتبوء الملك^(١).

وبعد أن أقسم الأمير أمام الجماعة لوالده بالتزام الشروط التي بويع بمقتضاها

(١) لا بأس مع هذا التلخيص الحسن الذي يورده المؤلف لعهد التولية أن نورد نص العهد ذاته منقولاً عن الحلل الموشية، وهو من إنشاء الفقيه أبي محمد بن عبد الغفور، وهذا نصه بعد الديباجة:

«أما بعد فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين، لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه، كيف تركه مهلاً لم يستنب فيه سواء. وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظيمة، وجعلها من أوكد الأشياء السكينة، كيف في هذه الأمور، المائدة بمصلحة الخاصة والجمهور. وإن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة، وخصه الله بها من النظر في هذه الأمور الدينية الصريفة، قد أمر الله رماحه، وأحد سلاحه، فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازاً، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازاً، فاستنابه فيما استرعى، ودعاه لما كان إليه دعي، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والتأني، فرضوه لما رضيه، واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهلاً أن يسترعى في ما استرعاه، فأحضره مشروطاً عليه الشروط الجامعة بينها وبين الشروط، فقبل ورضى، وأجاب حين دعي؛ بعد استشارة الله الذي بيده الخيرة، والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره؛ وبعد ذلك مواعظ ووصية، بلغت من النصيحة مرأى قصية، يقول في خامسة شروطها، وتوثيق ربوطها، كتب شهادته على النائب والمستنيب، من رضى لإمامتهما على البعيد والقريب، وعلم علماً يقيناً بما وصاه في هذا الترتيب، وذلك في عام خمسة وتسعين وأربعمائة، (س ٥٦ و ٥٧).

وضع الكاتب وثيقة أخرى جاء فيها أن الجماعة كلها أقرت هذا وشهد على ذلك الحضور بالأصالة عن أنفسهم وبالنيابة عن الغائبين ، وبعد أن أقر الأمير الشروط الموضوعه لولاية العهد وقبلها أمضى له الكاتب إشهاداً بذلك . وكان إعلان هذه البيعة في شهر ذى الحجة سنة ٤٩٦ هـ (١١٠٣ م) .

وأما فيما يختص بالأندلس فقد أمر يوسف ولده عليا بما يأتي : ألا يعين في مناصب الحكام والقضاة في الولايات والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة ، وأن يحتفظ في الأندلس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين قوامه سبعة عشر ألف فارس يطعمون في المدن بلا مقابل ويوزعون كما يأتي : أربعة آلاف في ولاية سرقسطة وسبعة آلاف في إشبيلية وثلاثة آلاف في غرناطة وألف في قرطبة والباقي وقدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية^(١) ويحسن أن يعهد إلى مسامى الأندلس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النصارى فهم أكثر خبرة ودرية على مقاتلة النصارى من المغاربة . ويجب لاذكاء هم الأنديلسيين أن يكافأ المتفوقون في الحرب منهم بالخيال والسلاح والثياب والمبال .

ونصح يوسف أخيراً أن يعامل أهل قرطبة المعروفين بالكبر وحب الشغب باللين والرفق ، وأن توثق أوامر الصداقة مع بني هود أمراء سرقسطة وهم طليعة الأنديلسيين في محاربة النصارى^(٢) .

ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شؤون الأندلس عاد إلى إفريقية حيث تولى الحكم بضعة أعوام أخرى وذلك بالرغم من سنه المتقدمة وضعفه المتزايد ؛ وأخيراً بلغ به ضعف الشيخوخة مبلغه . فتوفي في قصره بمراكش في المحرم سنة خمسائة (سبتمبر سنة ١١٠٦) وقد بلغ من العمر نحو مائة عام بعد حياة طويلة وحكم حافل بجلائل الأعمال^(٣) .

(١) يشير في الحلل الموشية إلى ذلك مع خلاف يسير في توزيع القوى (ص ٥٧) .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٦٠ .

(٣) راجع في أعوام يوسف الأخيرة ووفاته ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٨ وما بعدها ، وروض القرطاس ص ١٠١ و ١٠٢ ، والحلل الموشية ص ٥٥ وما بعدها .

ويوسف بن تاشقين أحد أولئك الرجال الأفذاذ الذين يلوح أن القدر قد اصطفاهم لتغيير وجهة سير الحوادث في التاريخ؛ فهو الذي جعل من إفريقية الممزقة شرمزق، مملكة عظيمة موحدة؛ وهو الذي بث بما استحدث من نظم وأساليب روحا قوية في القبائل والشعوب التي يحكمها، وقد أفضت هذه الروح إلى تحقيق المعجائب. أجل لم يكن هو الذي غرس بذور هذا الانقلاب العظيم في إفريقية، ولكنه هو الذي سيطر بذهنه الرفيع على تطورات موريتانيا (المغرب الأقصى) التي هيئت أسبابها، وأتمها وفقاً لعزمه ورأيه. وقد وهب المملاكة الجديدة عاصمة جديدة هي سراكش، وأضاف بحروبه في إسبانيا ضد النصارى - ولا سيما بانتصاره في موقعة الزلاقة - إلى شهرته كفاتح، شهرته كمجاهد في سبيل الإسلام؛ وقد كان الإسلام يومئذ على وشك الانهيار في شبه الجزيرة، فبث إليه بعونه وتدخله روحا وقوى جديدة. أجل أبدى يوسف في إخضاع الأندلس لسلطانه كثيرا من الدماء والعنف، وأبدى قسوة في معاملة الأمراء؛ بيد أنه لما كان أولئك الأمراء هم الذين أحدثوا بأثرهم ما كان يمانيه مسلمو الأندلس من سوء الحال فإن جمهرة الأمم الإسلامية لم ترفى يوسف فاتحا متغلبا؛ بل رأت فيه منقذا واعتبرته يد القدر في معاقبة الأمراء الباغين. وفي مملكة المرابطين الشاسعة الممتدة من المحيط الأطلنطي إلى مقربة من مصر، ومن البحر الأبيض إلى حدود بلاد النيجر مشتملة على الصحراء الكبرى التي كانت تخترقها قوافل المرابطين، وفي أسبانيا من نهر أيبرو إلى مصب الوادي الكبير، وفي مضيق جبل طارق لم تفرض ثمة في عهد يوسف قط مكوس أو ضرائب أو رسوم لا في المدن ولا في القرى؛ وكان دخل الدولة يتكون فقط من التبرعات ومن الأعشار ومن أخماس الغنائم التي تحقق في الحرب. وقد كانت تجبي منها بلا ريب مقادير طائلة. ذلك أن يوسف ترك ثروة عظيمة من الذهب والفضة تقدر بملايين عديدة، ومن المحقق أن اليهود ساهموا في هذه الثروة بقسط وافر، فقد كان يفرض عليهم الإسلام فرضا، فلا يستردون حريتهم إلا إذا دفعوا مبالغ طائلة^(١).

(١) هذا مطابق لما أورده صاحب روض القرطاس (ص ٨٨).

ومنذ ظفر الولاة العظيم غير يوسف نقش السكة ، ونقش في أحد وجهيها ما يأتي : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، وتحت « أمير المسلمين يوسف بن تاشفين » ، وكتب في الدائرة العبارة الآتية : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين » ، ونقش على الوجه الآخر ما يفيد الاعتراف بسلطة الخلافة العباسية الروحية ونصه : « الأمير عبد الله أحمد أمير المؤمنين العباسي » ، وفي الدائرة تاريخ ضربه وموضع سكته^(١).

كذلك امتدح يوسف لمأثور عدله ؛ فانه ألنى حكم الإعدام وجعل السجن المؤبد أقصى عقاب يمكن توقيعه على مذنب^(٢). وقد عمل على تبسيط الإجراءات القضائية ، وكان يطوف بولايات مملكته من وقت إلى آخر لكي يشرف على تنفيذ أوامره ، ثم لكي يقف بالأخص على مبلغ رفاة الشعب ورضاه ، وعلى ظلاماته وآلامه .

٦ — ولاية على العرش وحكمه حتى موقعة إقليش

ونودي في الحال عقب وفاة يوسف بولده أبي الحسن على في مراکش أميراً للمسلمين ، ودعى له في الصلاة في ألوف المساجد في مختلف أنحاء مملكته الشاسعة ؛ ولكن أهل فاس حيث كانت الولاية لابن أخيه يحيى بن أبي بكر بن يوسف أبوا الاعتراف بسلطانه ؛ فسار على إلى فاس وأرغم الخوارج عليه بالسيف على الخضوع لصولته . وكان سلطان المرابطين الجديد في الواقع فتى في عنفوانه ، ولم يكن قد جاوز الثانية والعشرين من عمره ، ومع ذلك فقد أبدى في حكمه كثيرًا من الحكمة والعدالة ؛ وكان يمتاض في ذلك عما يعوزه من الخبرة والتجارب بنصح أعقل رجال بطانته وأكثرهم نضجًا ، وكان إلى جانب وسامته يتمتع بكثير من الخلال التي أكسبته محبة الشعب وتقديره ؛ فقد كان وافر الجود كثير ، العطف والبر

(١) راجع روض القرطاس ص ٨٨ .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٥٩ .

بالفقراء والمساكين ، يحرص على مظاهر الجد والوقار في المناسبات العامة مع الابتعاد عن مظاهر الكبرياء والصلف ؛ وكان أول أمير مسلم في إفريقية استخدم النصارى في بلاطه ، فجعل منهم فرسانا في حرسه الخاص وأولاهم مناصب القصر ، ولم يكن هذا الميل إلى الاستعانة بالنصارى يرجع فقط إلى أن والدته على « رميكة » كانت نصرانية ^(١) ؛ بل كان يرجع بالأخص إلى الثقة بولاء النصارى وكونهم أقل عرضة للإغراء بتدبير المؤامرات من الأهليين ؛ بيد أن وجود النصارى في بطائنه لم يحل دون مضيه في محاربة النصارى في أسبانيا .

وعبر على كأييه إلى اسبانيا عدة مرات فزارها لأول مرة عقب ولاية العرش ، وذلك لكي يتلقى البيعة في الجزيرة الخضراء ، ولكي يقر الولاية والقضاة في مناصبهم أو يعين بدلا من المعزولين منهم ، ثم عاد إلى إفريقية دون أن يقوم في شبه الجزيرة بأمر ذي شأن ^(٢) .

وفي العام التالي في سنة ١١٠٧ م أو فاتحة سنة ١١٠٨ م (٥٠١ هـ) عبر إلى شبه الجزيرة مرة أخرى ؛ بيد أنه كان ينوى عندئذ أن يشهر الحرب على النصارى الأسبان بكل ما وسع من عزم وقوة ، وعهد بالقيادة العليا إلى أخيه الأكبر تميم أبي الطاهر الذي عين واليا لإشبيلية ؛ فخرج تميم من غرناطة على رأس جيش ضخم متجهما نحو حدود النصارى ، وكان يضطرم رغبة في أن يدلل في الحرب على أنه لم يكن أقل صلاحية لولاية العرش من أخيه لو شاء ذلك أبوه ؛ وحالت دون تقدمه في قلب قشتالة قلعة إقليش أو (إقليج) المنبئة فضرب حولها الحصار في الحال ؛ ولما وقف الملك الشيخ ألفونسو السادس على ذلك وعلم بما حاق بالمدينة المحصورة من الضيق اشتد به الألم والحزن ؛ إذ كان ضعف الشيخوخة يحول دون سيره على رأس جيشه لمحاربة أعداء دينه ؛ ولكنه رأى نزولا على رأى زوجه لكي يشير

(١) كانت أم على بن يوسف بن تاشفين أم ولد نصرانية تدعى « قرا » ، وليس « رميكة » كما يوردها المؤلف واسمها العربي « فاض الحسن » (راجع روض القرطاس ص ١٠٢ والجلال الموشية ص ٦١) .
(٢) الجلال الموشية ص ٦٢ .

حماسة جنده أن يرسل إلى ميدان الحرب ولده الوحيد سانشو وهو الذى رزق به من «سيدة» ابنة المعتمد بن عباد أمير إشبيلية السابق^(١) ، مع أنه لم يكن يجاوز الحادية عشرة من عمره ، وأمر مؤدبه الكونت جارسيا دى كبرا (قبره) وكذلك جميع القادة أن يحرسوا كل الحرص على حياة ولده ورفاهته .

فلما رأى أبو الطاهر تميم اقتراب قوات العدو من إقليش أراد أن يرفع الحصار وأن يرتد أدراجه ، ولكن أكابر القادة المرابطين استطاعوا بمدعناهم إقناعه بخوض المعركة ، وكانت حال الجيش المرابطى مع ذلك تدعو إلى التوجس واليأس لأنه إذا لم يوفق إلى الظفر فقد سدت في وجهه جميع سبل الفرار .

وعند الفجر هجم المسلمون على القشتاليين في فيض من الشجاعة والعنف ، ولم يستطع النصارى أن يصمدوا لهجوم محدوه اليأس ، فاضطروا إلى الارتداد رغم شجاعتهم ورباط جأشهم ؛ ومن سوء الطالع أن ازدلف الأمير الفتى سانشو إلى قلب الممعة فبادر إليه الأعداء متحمسين ، وتقدم الكونت جارسيا مليكه يدرأ عنه الخطر بدرعه ويحاول إنقاذه بكل ماوسع ، فلم يغن دفاعه شيئاً وسقط الكونت ضحية واجبه ، وسقط إلى جانبه وريث مملكة قشتالة ؛ وما كاد يذاع بين النصارى أن سانشو قد سقط حتى ركنوا إلى الفرار أشتاتاً ، وقتل الظافرون منهم مقتلة عظيمة ، وانتهزوا فرصة الروع السائد فاستولوا على إقليش عنوة ، وسقط في ميدان الحرب عشرون ألفاً من النصارى وسبعة من كونتات قشتالة ؛ بيد أن المسلمين لم يحرزوا النصر دون خسارة فادحة ، وهذا ما يفسر كونهم لم يتابعوا ظفرهم بالتوغل في ولاية طليطلة ، ولم يستولوا إلا على بعض المدن

(١) سبق أن أشرنا إلى سقم الرواية النصرانية بشأن زواج ابنة المعتمد من ألفونسو السادس ، ومع أن الرواية الإسلامية تشير هنا إلى نصيح زوجه إليه في أن يرسل ولده إلى ميدان الحرب ، فإنها لم تشر بكلمة قط إلى أصلها الإسلامى (راجع روض القرطاس ص ١٠٤) ، ويزيد ابن خلدون على ذلك تفاصيل عن زوجة ألفونسو السادس تؤيد بطلان الرواية النصرانية وأخصها أنها أقامت بعد موته بأمر الجلالة ، فهل كفى بقر النصارى ذلك لو أنها كانت تمت بصلة ما إلى الإسلام والمسلمين (راجع ابن خلدون ج ٢ ص ١٨٢) .

الواقعة على مقربة من إقليش مثل قونقة وأمستريجو ووبذه وأوريواله وأقونيه وقونسويجرا^(١).

ويمكن أن نعتبر انتصار المرابطين في إقليش في ٢٩ مايو سنة ١١٠٨ م ذروة سلطانهم في اسبانيا ومن ذلك التاريخ تنحدر قوتهم في اسبانيا عاما بعد عام ، وتعصف روح الخروج والثورة بسلطانهم في إفريقية والأندلس ، ويغدو سقوطهم القريب أمراً محتوما .

(١) راجع في تفاصيل موقعة إقليش روض القرطاس ص ١٠٣ و ١٠٤ .

الفصل الثانی

تاریخ الدول الأسبانية الداخلى

فى عهد ألفونسو السادس

١ - الشؤون الكنسية

تحدثنا فيما تقدم عن الأعوام الأولى لحكم ألفونسو السادس ، وحروبه مع أخويه سانشو وجارسيا ، وفتوحه فى قشتالة ، واستيلائه على طليطلة ، ثم عن حروبه ضد المرابطين . وسنتحدث هنا عن أحوال الكنيسة الأسبانية ، وعن نظم الدولة والتشريع فى عهد هذا الملك القشتالى العظيم ، ثم عن تاريخ إمارة برشلونة حتى خضوعها لتأدية الجزية لقشتالة :

ولقد كان النصارى الأسبان — ما خلا أهل الثغر الأسبانى — أو الأراضى الواقعة بين نهر إيبرو والجبال البرينية ، وهم الذين كانوا منذ أيام كارل الأكبر (شارلمان) ينتمون إلى المملكة النصرانية العامة — حتى القرن الحادى عشر — كأئما يفصلهم سد مانع عن باقى أروبا النصرانية ، ولم يتح لهم بسبب معاركهم المستمرة مع المسلمين — وهى معارك كانت تستغرق كل قواهم وتهدد كياناتهم أحيانا — أن يساهموا فى الحوادث الأوربية الكبرى ؛ بل إنه ليس من المحقق أنهم كانوا يعترفون برياسة البابا الروحية لأمم الغرب النصرانية ، وإن كانت توجد ثمة وثائق مشكوك فى صحتها تؤيد وجود العلائق بين أسبانيا والكرسى الرسولى ؛ ولكن تغير ذلك كله فى أوائل القرن الحادى عشر . ذلك أن الآباء البندكتيين^(١) افتتحوا

(١) الآباء البندكتيون هيئة دينية نصرانية أسسها القديس بندكت سنة ٥٢٨ م =

كل هذه المسالك المغلقة إلى ممالك قشتالة وليون وجليقية واشتوريش ؛ إذ استقدمتهم الأسرة النافارية اللوكية التي كانت تحكم جميع الممالك النصرانية في شبه الجزيرة ، ودفعت بهم إلى جميع أديار أسبانيا ، ثم رفعوا بعد ذلك إلى أسمى المناصب الكنسية ، وعملوا عندئذ على توطيد السيادة البابوية .

وبعث البابا اسكندر الثاني إلى أراجون سفيراً هو هوجو كنديدوس ليعمل على إلغاء الصلاة القوطية التي قررت منذ بعيد ، فاستقبله ملكها سانشو راميريز بحفاوة ونزل على كل رغبات البابا ، وبذلت عندئذ (سنة ١٠٧١م) أول محاولة لتقرير الصلاة الرومانية ، وسن عقوبات رادعة ضد شراء المناصب الكنسية ، وشد في تحريم استعمال الوسائل السحرية والاعتقاد في مقدرة الأفراد الخارقة ، ووضع الملك كل أديار مملكته تحت سلطة البابا ورفع عنها سلطة الأسقف ، وحصل من البابا نظير ذلك على إذن بأن يستعمل في محاربة المسممين دخل الكنائس الواقعة في مناطق كانت تابعة للمسلمين ؛ ولم تكن هذه مزية ذات شأن ، ومع ذلك فقد تعهد الملك بأن يدفع للكرسى الرسولى خمسمائة مثقال من الذهب كل عام . واعتبر البابا جريجورى السابع — الذى حاول فضلاً عن رئاسة الكنيسة النصرانية أن يخضع السلطة الزمنية للسلطة الروحية — هذه الهبة كما تآوة يجب أن تؤديها أراجون ، وأقر في مقابل ذلك الامتيازات التي منحت إليها من سلفه ، ومنها أن يستعمل دخل الكنائس التي كانت في مناطق تابعة للمسلمين في نشر الدين المسيحى ؛ ولكن سانشو رفض هذه العروض في مؤتمر « رودا » الكنسى الذى عقد في سنة ١٠٨٨ واحتج بشدة على دعاوى البابا .

ولم يقصر جريجورى دعواه على أراجون ، ولكنه جعلها شاملة لجميع أسبانيا ، فكتب إلى جميع أمراء الجزيرة النصارى يطلب إليهم الاعتراف به كسيدهم الأعلى وألا يقوموا دون إذنه بفتوح ما . ذلك لأن الجزيرة الأسبانية كانت كلها قبل

دير مونتي كاسيني بإيطاليا ، ثم انتشرت بعد ذلك في أنحاء أوروبا ؛ وامتاز الكثير من رجالها بالعلم حتى أصبحت كلمة « بندكتى » تطلق على العلماء المتبحرين .

الفتح الإسلامى تابعة للكرسى الرسولى ، وأنه لا يعترف بهم ملوكا شرعيين للممالك الأسبانية ولا يأذن لهم فى القيام بفتوح جديدة إلا إذا دفعوا الجزية لرومة ، وتمهدوا بأن يحكموا الأراضى التى ينتزعونها من المسلمين على أنها تؤدى إليه الجزية ؛ ومع أن الملوك الأسبانيين لم يكونوا على علم راسخ بتاريخ وطنهم لى يقدروا مدى الدعاوى البابوية فإنهم استاءوا بالرسالة البابا أيماس استياء ، حتى أن السفير هوجو الذى عاد فأرسله البابا لتنظيم الشؤون الأسبانية نصح إليه بالرفق والاعتدال . وعاد جريجورى فأرسل بعد قليل (سنة ١٠٧٥ م) إلى اسبانيا سفيراً آخر هو أماتوس لى يحدد دعاوى البابوية على الأراضى الأسبانية ، ويطالب بالنساء الصلاة القوطية والتشديد فى تحريم زواج رجال الدين ، وإقرار حق البابا فى تعيين الأساقفة وهو حق كان يزاوله الملك . ولم يوفق البابا إلى تحقيق شئ فى سبيل المطلب الأول ، ولكنه وفق إلى تحقيق المطالب الأخرى ولا سيما النساء الصلاة القوطية . وإذا كان الأمراء قد اعترضوا على دعوى الجزية فإنهم لم يشددوا الممارسة فى تقرير الصلاة الرومانية . فقررت فى نأثار وأراجون وقطلونية وقشتالة فى آماذ متقاربة ، وكانت قشتالة أشدها معارضة فى تقريرها ؛ ولكن ملكها ألفونسو السادس مال إلى تأييد البابوية فى مطلبها نظير وعد بمصادقة البابا على طلاقه من زوجه الملكة أجنيثس ثم زواجه بعد ذلك مرة أخرى . ومع أن الشعب والفرسان ورجال الدين عارضوا المشروع بشدة فقد انتهى الملك بتقرير الصلاة الرومانية فى ليون ، وتليت فى كنيستها الكبرى ؛ وحصل الملك على إذن بطلاق زوجه أجنيثس وتزوج من بعدها بالأميرة كونستانس ابنة أحد دوقات برجونية الذين ينتمون إلى آل كاييه (ملوك فرنسا) وغدت ملكة لقشتالة (سنة ١٠٧٩ أو سنة ١٠٨٠ م) .

واعترم الكرسى الرسولى حين رأى أن رجال الدين الأسبان هم أشد معارضية أن ينظم فى اسبانيا « رجال دين » (أكليروسا) ينتمون إليه ، وقدم إليه الآباء البندكتيون الذين وفدوا من فرنسا فى هذا السبيل أجل الخدمات ، ومنهم انتخب

معظم الأساقفة الأسبان فيما بعد . وأبدى دير ساهاجون البندكتي غير خاصة في تحقيق مقاصد البابا ولا سيما على يد رئيسه برنار الفرنسى وهو رجل وافر الذكاء والبراعة اشتهر قبل انتظامه فى سلك الكهنوت بشجاعته فى الحرب كفارس ؛ وحصل برنار أثناء زيارته لرومة على مرسوم بتولى الدير للقضاء الكنسى الأعلى ، ووضع مباشرة تحت رئاسة رومة وحصل من الملك ألفونسو على امتيازات ذات شأن للدير .

ولما انتزع ألفونسو مدينة طليطلة من يد المسلمين واتخذ مقامه فى عاصمة القوط القديمة ، دعا — نزولا على تقاليد المصور السالفة — مجلسا نيابيا أو اجتماعا كنسيا إلى الانعقاد . ومع أننا لم نتلق تفاصيل ما دار فى هذا الاجتماع الذى عقد فى ديسمبر سنة ١٠٨٦ فإنه من الثابت أن الراهب برنار رئيس دير ساهاجون قد انتخب فيه مطرانا لطليلة . كذلك تباحث الملك فى هذا الاجتماع مع كبراء دولته فيما يجب إجراؤه لتدارك ما أحدثته هزيمة الزلاقة التى وقعت قبل ذلك بقليل ، وذلك بإعداد معدات الحرب السريعة ضد المسلمين . ومن المحقق أن الكونت هنرى والكونت ريمون البورجنين قريبي الملكة كونستانس كانا يومئذ فى أسبانيا ، وإليهما وإلى وساطة المطران برنار يرجع الفضل فى وفود جماعات كبيرة من المحاربين الفرنسيين إلى أسبانيا . وهنا يمكن القول بأن ذلك كان أول بدء للحروب الصليبية .

ولم يمض على تقلد برنار لمنصبه الرفيع عام واحد حتى كشف عن عميق تعصبه . ذلك أنه انتهر فرصة غياب الملك عن طليطلة فافتحم بموافقة الملكة — وهى امرأة شديدة التعصب — مسجد المسلمين الذى اشترط فى المعاهدة التى عقدت عند تسليم المدينة أن يبقى مفتوحا لإجراء الشعائر . ولم يقدر الحبر المتعصب عهد مليكه وشرفه ، ولا تأثير هذا النكث فى سكان طليطلة المسلمين وهم جمهرة كبيرة ، وبعث المال بالليل فأقاموا بالمسجد هياكل ، ورتبوا فيه أجراسا ، وقلبوه كنيسة للنصارى . وفى صباح اليوم التالى عقد قداسا حافلا إيدانكا بتحويله رسميا إلى

كنيسة ؛ فهاج المسلمون في طليطلة وماجوا ، ولولا وجود حامية قشتالية كبيرة في المدينة لاستحال هياجهم إلى ثورة صريحة . وفي الحال بعثوا منهم وفداً إلى الملك ليناقشوه الحساب في أحكام المعاهدة المعقودة . وما كاد ألفونسو يقف على تفاصيل الحادث حتى استشاط غضباً من الأسقف ومن زوجه ، وأدرك لفوره ما يمكن أن يترتب على مثل هذا النكث . ذلك أن الجيش كان يضم آلافاً من المسلمين ، وكان المسلمون أغلبية في ولاية طليطلة . وكان التسامح الديني ، والتزام الدقة في تنفيذ أحكام المعاهدة التي عقدت ، مما يجعلهم ينسون أنهم خاضعون لأمر نصراني . وكان يجد فيهم عضداً قويا في حروبه ضد الأندلسيين والمرابطين الذين كانوا يومئذ يهددون الأراضي النصرانية بمجموعهم الزاخرة . وكان عمل الأسقف الطائش المثير حريا بأن يحمل المسلمين على الخروج على ألفونسو ؛ وكانت قوى ملك قشتالة قد نقصت منذ هزيمة الزلاقة ، بحيث كانت كل زيادة في قوى أعدائه تجعله عاجزاً عن الاحتفاظ بما وراء نهر التاجه ؛ ومن ثم فقد وصل به الغضب من فعلة المطران والملكة إلى حد أنه أمر حال وقوفه على الخبر بحرقهما لما أثارا بفعلتهما من مأزق حرج . ولعل رسل المسلمين رأوا أنهم لن يكسبوا شيئاً من توقيع مثل هذه العقوبة ، لأن رجال الدين وهم جمهرة متعصبة سينتهون بإحراز الفوز ؛ أو لعلهم أملوا أن يستعيدوا مسجدهم إذا سوى المشكل بسلام ، فكانوا أول من التمس من الملك أن يهدى من غضبه وأن يصفح عن مثيري الفتنة . وليس من الواضح لماذا بقي المسجد بعد ذلك منزوعاً من أصحابه ؛ بيد أن في ذلك على الأقل ما يدل على أن رجال الدين كانت لهم اليد العليا . أما ما زعمه أحد مطارنة طليطلة^(١) بعد ذلك من أن المسلمين هم الذين أحلوا عندئذ ملك قشتالة طوعاً من جميع اليهود التي قطعت في المعاهدة فظاهر أنه تبرير فقط لنكث النصارى . وعلى أي حال ففي ٢٥ أكتوبر سنة ١٠٨٧ حول مسجد طليطلة الجامع إلى كنيسة جامعة في حفل رسمي (شعبان سنة ٤٨٠ هـ).

(١) هو رودريك الطليطلي ، وقد عاش في القرن الثالث عشر ووضع باللاتينية تاريخاً لأسبانيا .

وفي العام التالي أراد برنار السفر إلى رومة ليحصل على ثوبه الكهنوتي ، ولكنه ما كاد يعتمد عن طليطلة حتى بادد رجال الدين الأسبان إلى العمل لحامه باعتباره أجنبيا لا محل لتفضيله ؛ وعلم برنار بهذه الحركة من بعض أصدقائه فارتد مسرعا إلى طليطلة وفشلت الحركة وأبعد زعمائها أو عزلوا عن مناصبهم ، وعين برنار مكانهم رهبانا من مواطنيه الفرنسيين ، ولا سيما من دير ساهاجون ؛ ثم سافر بمدن إلى رومة ، وحصل من البابا أوربان الثاني على الثوب الكهنوتي ، وعلى مرسوم بتعيينه رئيسا للكنيسة الأسبانية . ورأى لكي يقضى على معارضة رجال الدين الأسبان أن يضع على رأس الأسقفيات الهامة في أوسمه وبراجا وسيجوزا وطليلة وبلنسية وسمورة وقلمرية رهبانا من مواطنيه . ومع أن البابا حصل على حق تعيين الأساقفة فإن ملك قشتالة لم يستمع دائما إلى رغبات البابا ؛ بيد أنه سمح للسفير البابوي بأن يعقد اجتماعا كنسيا عاما بعد أن كن ذلك من حق الملك وحده ، لأن كل اجتماع كنسي كان يعتبر مجلسا نيابيا ؛ وكان عقده في هوسليوس بالقرب من بلانسيا^(١) Palencia (سنة ١٠٨٩) وفيه حصل الملك على موافقة الأحرار باستمرار اعتقال الأسقف بلازديجو ، وهو الذي اتهم بتدبير مؤامرة لمعاونة ولیم الفاتح على فتح جليقية . ولكن أوربان الثاني قضى ببطالان هذا الاجتماع ، وأرسل إلى أسبانيا سفيراً آخر لينظم شؤونها الكنسية وفق رغباته ، هو الكردينال رنزيوس ، وعقدت بدعوته جمعية كنسية أخرى في ليون سنة ١٠٩١ ، وشهد بها الملك وكبراء المملكة وتقرر فيها الإفراج عن الأسقف ديجو ، ونفذت أوامر البابا في تعيين بعض الأساقفة وعزل البعض الآخر . وكان من أهم ما قرر فيها أيضاً إلغاء الكتابة الطليطالية ، وهي كتابة لم تكن قوطية ، ولكنها كانت تختلف عن الكتابة الرومانية اختلافا كبيرا ، وأحات مكانها الكتابة الرومانية ، كما تقرر إدخال الطقوس الدينية الرومانية . ولما عقد أوربان مؤتمر كليرمون ، وأذكى حماسة الأمم النصرانية كلها لخوض

(١) هي غير بلنسية ، وهي من مدن قشتالة القديمة وتقع على مقربة من بلد الوليد .

الحروب الصليبية ، أُرَادَ برنار وعدة من الأساقفة الأسبان السفر على رأس الصفوف إلى القبر المقدس ؛ ولكن أوربان حرم على الأسبان أن يشتركوا في الحرب الصليبية في المشرق ، لأن أعداء النصرانية (المسلمين) يهددونهم في عقر دارهم ، وكفى النصراني الأسبان نغراً أن يقاتلوا المسلمين في الغرب . واستمر أوربان يعمل في تمكين سلطانه على الكنيسة الأسبانية ؛ ومع أن ألفونسو كان ملكاً قوياً فإنه كان يجلب البابا كرئيس أعلى للكنيسة ، إلى حد أنه لم يفكر في مناصبته العداء جهاراً مثلما كان يفعل القيصر الروماني وغيره من الأمراء يومئذ ، ومن ثم فقد أعفى من عقوبة الحرمان الكنسي ، وذلك بالرغم من أنه كان كثيراً ما يمارض الأماني البابوية ؛ وثار بينه وبين أوربان خلاف حاد بخصوص تعيين أسقف لكبرى شنت ياقب ، وتمسك كل منهما بمرشحه ، ولم تحسم المسألة إلا بعد وفاة أوربان حيث وافق خلفه على اختيار مرشح الملك .

وقد أضر نفوذ الآباء البندكتيين بنمو القومية الأسبانية ؛ ولكنهم من جهة أخرى أدوا خدمات جليلة إلى إسبانيا التي كانت متخلفة في مضمار الثقافة عن غيرها من الأمم الأوروبية ، ولطفوا من حدة النزعات الحربية العنيفة . ذلك أن الكفاح المستمر ضد المسلمين قد أسبغ على الشعب كله دون استثناء لرجال الدين لوناً حربياً عميقاً ، حتى أن الرجل لم يكن ليحظى بالتقدير والاحترام إلا إذا أبدى شجاعته على رأس الجند في محاربة أعداء الدين . ولذا لم يك ثمة كبير فارق بين الأساقفة والنبلاء وحكام الولايات . فالأساقفة كانوا كهولاء يحكمون باعتبارهم أتباع الملك في المدن والأقاليم ، وكانوا عند الحرب يدعون إلى مرافقة الجيش ، ولم يكن من النادر أن نرى الأساقفة في المواقع على رأس السرايا ، أو زاهم يقودون الحملات أو يحاصرون المدن ؛ وكان برنار رئيس الكنيسة الأسبانية يضطرم رغبة في أن يساهم في الحرب الصليبية بالرغم من تحريم البابا ، وقد حشد بالفعل فرقة من الفرسان وسار على رأسها ، ولكنه حينما وصل إلى رومة أمره البابا بالعود فوراً حرصاً على مصالح الكنيسة ، وأصدر مرسوماً

جديداً بتشديد التحريم على رجال الدين والفرسان الأسبان أن يساهموا في الحروب الصليبية ، لأن محاربة المسلمين في أسبانيا لا تقل أهمية وقدراً عن المحاربة في المشرق ؛ وترتب على ذلك أن هرع كثير من الفرسان النصارى من مختلف الأمم إلى أسبانيا ليساهموا في حربها الصليبية وهي أمنية أقرب وأيسر منالاً ، وكان لذلك أثره أيضاً في تقوية جانب ملوك اسبانيا النصرانية ضد المسلمين .

ولم يكن نفوذ البابا مقتصراً على ممالك اسبانيا النصرانية ، ولكنه كان يتناول أيضاً النصارى المهادين تحت حكم المسلمين^(١) ، وكان له رأى في تعيين أساقفة المناطق الإسلامية ؛ ومع أن مصائر الكنيسة الأسبانية كانت تجتمع في يد رئيسها الأعلى فإن معظم المؤتمرات الكنسية كانت تعقد على يد سفراء البابا ، وذلك حرصاً من رومة على ألا يستخدم رئيس الكنيسة الأسبانية استقلاله في إنشاء كنيسة مستقلة كما حدث في قسطنطينية .

٢ — نظم الدولة والتشريع

كانت نظم الدولة في الممالك النصرانية الأسبانية حتى القرن الحادى عشر فيما يظهر ، مماثلة للنظم التى كانت قائمة في أواخر عهد القوط . وكان الملوك وراثياً في قشتالة فقط ، ولكن في باقى الإمارات الأخرى ، في جليقية وليون واشتوريش ونافار وأراجون كان الملك ينتخب بواسطة الكبراء . بيد أنهم اجتناباً للحرب الأهلية كانوا ينتخبون من كان بمولده أحق الناس بالعرش . وكان الملك يجمع بين يديه أكبر سلطة في الحرب وفي السلم ، وقيادة الجيوش العليا وحكم القضاء الأعلى . وكان بطانة الملك الذين يعاونونه في الحكم يدعون « رجال الخاص » Palatini . وكانت أسماء المناصب والمناصب نفسها مشتقة من النظم القوطية . بيد أنه كان ثمة تقليد مشتق من النظم الفرنجية ، وهو أن الوزير الأول كان يسمى « محافظ القصر » Majordomus ، وذلك دون أن يتمتع بسلطات خاصة في الحكم ، لأن ملوك اسبانيا كانوا يتولون الحكم بأنفسهم ؛ وكان وزير الحرب يسمى « حامل السلاح »

(١) ويطلق عليهم بالأفريقية Mozarabes ، والظاهر أنها تحريف لكلمة « مستعرب »

Armiger ، وقاضى الجنايات الأعلى يسمى «المرجع الأعلى» Majorinus Palatii . وكان يدير الشؤون المالية المشرفون على الاقتصاد Oeconomi Palatii ؛ ويتولى إعداد المراسيم والوثائق المسجلون الملكيون Notarii ، وكانوا فى الغالب من رجال الدين ؛ ويعنى بخدمة الملك وتدير شؤون القصر طائفة خاصة من الحشم ؛ وكان يخدم الملك على المائدة يوم توليه العرش أربعة من أكرم نبلاء المملكة ، وهو تقليد كان موجوداً فى الأمم الجرمانية منذ العصور القديمة .

وقد تكونت نظم الأقطاع مثلما حدث فى فرنسا وألمانيا وإيطاليا عقب عصر كارل الأكبر (شارلمان) وأدخلت لأول مرة فى قشتالة حين تبوأ ملوك نافار العارفون بالنظم الفرنجية عرش المملكة الأسبانية . بيد أننا لا نستطيع أن نقطع بأن النظم الأقطاعية لم تعرف قبل ذلك فى شبه الجزيرة (وقد كانت فى الشعر الأسباني منذ القرن التاسع) ، وكل ما هنالك أنها لم تطبق بنفس الصورة التى طبقت بها فى أمم أوروبا الوسطى ؛ ثم إن ظروف العصر كلها تدل على أنه لم يكن ثمة بد من أن ينتقل غرس الأقطاع إلى قشتالة ، وكان سبيل ذلك العلم بنظم الدول الإسلامية التى كانت تعرف الأقطاع .

وكان رمز الخضوع الظاهر لأحكام الإقطاع اليمين التى يؤديها صاحب الأقطاع إلى الأمير ضماناً باخلاصه واعترافه بأنه يضع أرضه وأتباعه تحت تصرف الأمير ؛ وفى أثناء الحرب ينتظم فى الجيش مع أتباعه ، وفى السلم يمثل فى البلاط متى دعاه الملك . كذلك يجب عليه أن يؤدى للأمير جزية معينة . فإذا لم يحافظ التابع على عهده جاز للملك أن يقضى عليه بفقد إقطاعه . والظاهر أن الإقطاع كان فى أسبانيا فى القرن الحادى عشر وراثياً . وقد كان يقوم على فكرة المنصب (Honor) وكون الأمير يستطيع أن يهب المناصب وفق مشيئته وأن يستردها . فإذا تولت أسرة معينة المنصب طويلاً فإنها تطالب نظير إخلاصها فى الخدمة بالمنصب وما يتعلق به من أرزاق تستمد من الأرض ؛ وكان الملك فى أحيان كثيرة يضطر بالغم منه إلى ترك الإقطاع للأسرة .

وكان مجتمع الإقطاع ينقسم إلى مراتب متعددة فالدوق أو الوالى (Consul) هو التابع الذى يُقطع ولاية برمتها مثل جليقية أو اشتورية أو ألبه أو البرتغال ، وكان هؤلاء الولاة فى الغالب يعملون على استقلالهم وتأسيس دولة جديدة ؛ ويابه الكونت أو القومس (Comes)^(١) وهو الذى يقطع منطقة ، فأصحاب المنح الصغيرة وهم البارونات (Barones) وهم الملوك من أتباع الكونت . ولما كان هذا النظام عسكريا فى جوهره فقد كانت هذه المراتب يحتفظ بها فى الحرب تحت أسماء أخرى ، فالدوق أو الوالى يقود جيش الولاية ويسمى قائداً ، ويقود الكونت فرقته ويعتبر قائداً محلياً وتتكون قواته من البارونات الذين يسمون عندئذ بالفرسان ؛ والفارس أدنى مراتب النبيل وهو الشخص الذى يستطيع أن يقتنى جواداً وسلاحاً ؛ وكان الفرسان قوام الجيش وعليهم تتوقف مصائر الحرب ، ويتكون الجند المشاة من أتباع البارونات ومن حشم الدوقات والقوامس .

وكان الملك فى منازعات ومعارك دائمة مع الدوقات والقوامس ، ولم يكن يستطيع الحد من خروج الأتباع وانتهاكهم للقوانين إلا بمعاونة رجال الدين الأقوياء ، والشعب والمخلصين من أصحاب الإقطاع ، وأصحاب المناصب الذين يؤجر خدماتهم بأثمان فادحة ؛ وكان يضطر فى أحيان كثيرة إلى عقد المعاهدات مع الخوارج أو مهاداتهم أو النزول عند مطالبهم على حساب أصحاب الإقطاع المخلصين ، وبهذه الوسيلة تنتزع منه المناصب والولايات والرياسات .

وكان كبار الملوك أو الأتباع يقطعون الأحرار الأقل منهم أجزاء من أراضيهم لزراعتها على أن يؤدوا إليهم نصف الدخل أو ثلثه على الأقل . ولم تكن هذه المنح تحدد بوقت معين ؛ بل كان المزارع يعتبر نفسه مالكا للأرض يزرعها ، ثم تؤول من بعده إلى ولده ؛ ولكنه كان ملزماً بالإقامة فيها ؛ فإذا غادرها إلى منطقة أخرى فقد الحق فى امتلاكها ؛ وقد فرض ألفونسو السادس ضريبة سنوية قدرها مثقالان إسبانيان على كل صاحب حق بل منزل ، فإذا قسم الحق بل بعد موته على

(١) وتسميه الرواية العربية بالفمط أو القومس معربة عن اللاتينية .

أولاده وجب على كل منهم أن يؤدي نفس الضريبة ؛ ومن ملك منزلا خاصا في حقل صاحب الإقطاع وجب أن يؤدي إليه في كل عام مقادير معينة من المحصول ، وأن يقدم إليه جياده وماشيته تعمل لديه عدة أيام بلا أجر . فإذا شاء أن يبيع منزله وعمله إلى السيد أو بعبارة أخرى إذا شاء أن يفدو من حشمه ومماليكه قام بتقدير الثمن أربعة خبراء اثنان من النصارى واثنان من اليهود .

ولا بد أن عدد الأرقاء في اسبانيا النصرانية كان عظيما جدا . ذلك أن جميع الأسرى في المعارك المستمرة التي كانت تنشب ضد المسلمين كان يقضى عليهم بالرق ، وكانوا يكلفون بأشق الأعمال ، وكانوا يمنحون الحرية أحيانا ، ولكن دائما بشرط اعتناقهم النصرانية . ذلك أنه كان يسوغ للنصارى فقط في الممالك النصرانية الأسبانية أن يكونوا أحرارا .

وإن ألفونسو السادس ليستحق أعظم الثناء لما وفق إليه من أن يلقى « حق القوة » ^(١) في جميع أنحاء مملكته في عصر ساد فيه حكم القوة في جميع أوروبا . وقد عني بتنظيم العدالة الصارمة ، وفرض على الدوقات والقوامس ونوابهم أن يعاقبوا مرتكبي الجرائم والجنح بحزم ودون تحيز ؛ وكان من جراء هذه السياسة الحكيمة أن كانت قشتالة هي البلد الوحيد في أوروبا الذي يستطيع التجار والنساء والمزمل جوبه دون التعرض لأذى الفرسان الناهبين أو القتل والصوص ، حتى ولو كانوا يحملون مالا ونفائس ظاهرة . وكذلك عني ملك قشتالة بتحسين الطرق الكبرى وإنشاء القناطر على الأنهار .

ومع أن الملك كان يتمتع أثناء الحرب بسلطات لا حد لها ، وفي السلم كان يتمتع بأسى السلطات القضائية ، فإنه كان يشترك معه في وضع القوانين عظماء المملكة وأكابر رجال الدين والأشراف ، وكان هؤلاء يسبقون باجتماعاتهم النيابية (الكورتيز) Cortes تحت رئاسة الملك على تصرفاته لون الشرعية المطلقة . ولم

(١) المفصود ما كان سائدا في العصور الوسطى في معظم الأمم الأوروبية ولا سيما في عصر الفروسية من اللجوء إلى القوة والعنف في تحصيل الحقوق واغتصابها ؛ وتغليب الأقوى ، بصرف النظر عن الحق أو العدالة .

تكن الطبقة الوسطى تمثل في هذه المجالس لأنها لم تكن بعد ذات أهمية تذكر .
ولما كانت هذه المجالس تعنى بتنظيم شؤون الدولة والكنيسة معاً نظراً لأن الأمير
كان حتى القرن الحادى عشر يعتبر ملاذاً أعلى للكنيسة مملكته ، فإنها كانت
من هذه الناحية ذات أهمية مزدوجة . وكانت مسائل الكنيسة تبحث بآدى^{*} ذى
بدء دون أن يشترك فى بحثها ممثلو الهيئات الزمنية ، ثم تبحث بعد ذلك مسائل
الدولة . وكان الملك يدعو المجلس (الكورتيز) إلى الاجتماع كلما دعت الظروف إلى
عقده ، وتوقع قراراته من المجتمعين وفى مقدمتهم الملك والملكة ، وكان حضورها
ضرورياً فى هذه المجالس .

وقد اشتقت ممالك اسبانيا النصرانية شرائعها من القانون القوطى وقوانين
مجلس طليطلة ؛ وكان القضاة يتبعون أحكام القانون القوطى ما لم تتعارض مع
قرارات المجلس النيابى ، ومع القوانين الجديدة التى يصدرها الملك بالاستناد إلى
العرف ويصادق عليها المجلس (الكورتيز) وهى المسماة (Buenos Fueros) . وكانت
هذه القوانين تلغى نظائرها من القوانين القوطية إلغاء جزئياً فقط ، وكانت فى
الواقع قوانين بلدية وامتيازات خاصة لمدن أو أماكن معينة تطابق بعضى الزمن فى
الولاية كلها . وقد نشأت بآدى^{*} ذى بدء فى قشتالة حينما كانت ولاية يحكمها القوامس
الخارجون على مملكة ليون ، وكانت تمنح إلى المدن كامتياز يوطد ولاءها نحو
ساداتها الجدد . وإذا لم يكن الكونت سانشو جارسيا هو أول من منح مدن
قشتالة هذه الامتيازات (سنة ١٠١٢ م) ، فهو فيما يبدو أول من عمم تطبيقها فى
جميع أنحاء الولاية ؛ وحذا ألفونسو الخامس ملك ليون فى ذلك حذو قوامس
قشتالة فسن لشعبه شريعة شاملة Fuero على يد مجلس ليون (سنة ١٠٢٠ م) . ولما
وحد فرديناند الأول بين مملكتي ليون وقشتالة صادق على شريعتيهما فى مجلس
كوبانزا (سنة ١٠٥٠ م) وحذا حذوه ألفونسو السادس فأصدر مثل هذه المصادقة
فى مجلس طليطلة (سنة ١٠٨٦ م) .

وكان قوامس المدينة يباشر القضاء المدنى والجنايى ، يعاونه نواب قضائيون

وخبراء ؛ ويتولى تنفيذ الأحكام الجنائية وكلاء سمو فيما بعد Alguaciles ولهم رئيس Majorino يقضى فى المواد الجنائية وينفذ أوامر الملك .
وكل إنسان حر فى أن يدافع عن نفسه أمام القضاء وله أن يختار محامياً أو وكيلًا للدفاع عنه . أما اليهود فلم يكن يحق لهم الدفاع عن أنفسهم بأنفسهم وفقاً لقانون أصدره ألفونسو السادس .

وكان يتولى أعمال الإِشهاد مسجلون أغلبهم من رجال الدين ، ويتولى الإِشهاد على الأوامر الملكية مسجل خاص للبلاط .

وكانت الإِجراءات القضائية بسيطة سريعة . وكانت محاولة التأثير على القاضى بالرشوة تعاقب بشدة وتجعل الحكم باطلا ؛ وكان لا بد لسقوط الحق من مضي خمسين عاماً فى بعض الأحوال وثلاثين فى البعض الآخر . ولكن رجال الدين حصلوا من فرديناند الأول على امتياز يقضى بعدم سقوط حقوقهم بمضى المدة .

وأما وسائل الإِثبات القضائية فكانت الكتابة والبينة ؛ واليمين إذا لم يوجد . وفى قانون أصدره ألفونسو السادس كان يكفى لإِثبات جريمة القتل على القاتل أن يذكر الكاهن الذى تلقى أقوال القاتل قبيل وفاته اسم قاتله حسبما سمعه منه ؛ فإذا عدمت الأدلة استعمل التعذيب ، ولكن فى أحوال نادرة جداً ، أو استعملت بعض الإِجراءات الدينية الخرافية التى تعرف « بحكم الله » كان يؤمر المتهم مثلاً بأن يستخرج بذراعه العارية عدداً من الحصى من وعاء به ماء يغلى ثم تربط ذراعه ويختم عليها ، وتترك ثلاثه أيام ، فإذا ظهرت بعدها فى ذراعه حروق اعتبر مذنباً ، وإذا لم تصب الذراع بشىء اعتبر بريئاً . وفى قانون أصدره ألفونسو السادس كان يسمح للمتهم بالقتل فى حالة الإنكار أن يبرىء نفسه باليمين ، ثم يجب عليه بعد ذلك أن يبارز متهمه ، فإذا غلبه ذاك وجبت عليه دية مالية معينة .

وكانت العقوبات تختلف من الإعدام إلى جز الشعر دلالة على العار ، ثم بتر الأطراف وسمل الأعين والجلد والغرامة والمصادرة ، وكان أندرها الحبس . وفى قطلونية كان القاتل يعاقب بالنفى إلى إفريقيا ، وفى قشتالة كان القتل يُفتدى بالدية ،

وفي ليون كان القانون يقضى بأن القاتل إذا استطاع الفرار والاحتجاب عن أعين مطارديه تسعة أيام ترك وشأنه ، فإذا قبض عليه قبل ذلك وكان ذا مال غرم مبلغاً يتراوح بين مائة وخمسمائة مثقال يأخذ الملك ثلثه ، ويعطى الثلثان إلى أقارب القتيل ؛ وتزاد الغرامة إذا وقع القتل بالليل ، أو بطريق الغيلة ، أو كان المجنى عليه من الحكم . وكانت اليمين الكاذبة وشهادة الزور تعاقب بالغرامة ، وتهدم دار الكاذب في يمينه ، ولا يسمح له بعد ذلك بالشهادة ؛ ويُقتدى الجرح والضرب بالمال إذا شك المجنى عليه ، ويعاقب بالغرامة أيضاً النش في الكيل والوزن ، أو بيع المواد الغذائية التالفة ؛ وكانت عقوبة الجلد نادرة جداً ، ولا يجلد سوى العبيد .

وأما في الميراث فكان يطبق القانون القوطى وهو ينص على توريث البنين من الذكور والإناث على قاعدة المساواة . بيد أنه يسمح للوالدين أن يتصرفا في الخمس بالوصية للغير لغاية دينية أو غيرها ، وفي خمس آخر لصالح الولد الأكبر أو الولد الأصغر .

وبالرغم من الحروب المستمرة بين النصارى الاسبان والمسلمين ، فإن التجارة ازدهرت لدى النصارى ؛ وكانت قطلونية نظراً لموقعها الجغرافى تتمتع بمزايا تجارية حسنة ، وكانت أيضاً تحظى بأكبر قسط من الثروات ، وكانت ترتبط بجمهورية فيزا وجنوه البحريتين وبولايات الرون بأوثق الصلات ، وكانت سفنها تحمل المحاصيل والمصنوعات الاسبانية وفواكه الجنوب والحرير والصوف والأقمشة والجلد إلى إيطاليا واليونان ، ثم إلى مصر وسوريا ؛ وكانت أسواق قطلونية التى كانت تعقد عادة أيام الأعياد الكنسية وتستمر أسابيع عديدة ، أشهر أسواق أوروبا وأروجها ، نظراً لتنوع أصنافها وجودة بضائعها .

وكانت تعقد أيضاً في ليون أسواق دورية عظيمة ، وكانت تقرر أثمان الحاجات الضرورية طوال العام ، ولكن أثمان السلع الكمالية كانت تترك دون تحديد ، وكان يحق لسكان ضواحي المدينة أن يأتوا بسلعهم في كل وقت دون

مكوس أو رسوم ، ولكنهم كانوا يكلفون مقابل ذلك وقت الحرب بالدفاع عن المدينة والمساهمة في أعمال التحصين .

وكانت المكوس تلغى أثناء الأسواق العامة والدورية ، وكان رهبان ساهاجون يتمتعون بحق احتكار بيع النبيذ والأقشعة والأسمك والأخشاب ، فلا ينافسهم في بيعها في هذه المنطقة أحد ، ويعاقب المخالفون بالمصادرة والغرامة .

٣ - تنظيم ألفونسو السادس لورثة العرش

تزوج ألفونسو السادس ملك قشتالة عدة نساء ، ولكنه لم يترك ولداً يرث العرش من بعده . وكانت أولى نسائه أجات ابنة وليم الفاتح ملك إنكلترا ، خطبها بطريق الوكالة وهو ملك على ليون ، ولكنها مرضت وتوفيت أثناء سفرها من إنكلترا إلى اسبانيا ولم يتم زواجه بها . وأولى نسائه في الواقع هي اجنيس ابنة جيّوم السادس دوق جويانه وبواتيه ، وقد طلقها لأعوام من زواجه بها (سنة ١٠٨٠) بموافقة البابا جريجورى السابع دون أن يعقب منها . ثم تزوج من بعدها كونستانس ابنة روبر الأول دوق بورجونيه من أسرة كابيه اللوكية ورزق منها بابنة هي الدونا أوراكا التي زوجت وهي في العاشرة من عمرها بالكونت ريموند البورجونى عند مقدمه إلى اسبانيا . وكانت كونستانس امرأة شديدة التعصب ، وإلى نفوذها المترتب على تأثير البابا يرجع إلغاء الصلاة القوطية والخط الطليطلى ، وانضواء الكنيسة الاسبانية تحت لواء البابا ؛ ثم توفيت سنة ١٠٩٢ ، واقتن ألفونسو عقب وفاتها بأميرة تدعى برتا يختلف المؤرخون في نسبتها وتوفيت دون عقب . ولم يعقب ألفونسو من زوجه التالية وهي اليزابيث ابنة لويس ملك فرنسا ذكورا ، ولكنه رزق منها بابنتين هما سانشا التي اقترنت بالكونت رودريك ، والفيرا التي اقترنت برجار (روجر) ملك صقلية . وتزوج ألفونسو مرة أخرى قبيل وفاته بقليل ، وذلك عقب واقعة اقليش التي هلك فيها ولده غير الشرعى سانشو أملا في أن يرزق بوارث لعرشه ، وكانت هذه الزوجة

الخامسة والأخيرة هي بياتريس ابنة أمير أوستا وتوسكانا ، ولكنه لم يرزق منها بعقب .

ولم تكن تقاليد المسلمين وأساليب حياتهم — وإن تبرا النصراني منها — دون تأثير في حياة الأمراء النصارى ، فقد كان عدة من ملوك ليون وقشتالة فضلا عن الزوجة الشرعية يحتفظون بسرب من الحظايا (الحريم) ، ومع أن هؤلاء الحظايا لم يبلغن من الكثرة مبلغهن عند الأمراء المسلمين ، فقد كن يعاملن معاملة الزوجات تقريبا ، وكان أولادهن بالرغم من حرمانهم من الإرث الشرعي يرثون أحيانا بعض الأراضي . وكان آثر حظايا ألفونسو لديه اثنتان هما كينيا نوفيزا الجليقية ، وسيدة ابنة المعتمد أمير إشبيلية . وقد رزق من الأولى بابنتين هما تريزيا والثيرا التي اقترنت بالكونت ريموند دى تولوز وصحبته في الحملة الصليبية إلى بيت المقدس . أما تريزيا فقد اقترنت بهنرى دى يزانسون ، وأقطعه ألفونسو لقاء شجاعته في محاربة المسلمين أرضا بين نهر دويره ونهر تاجه ، وأسس منها له ولعقبه إمارة خاصة عرفت فيما بعد بامارة « البرتغال » .

أما سيدة ابنة أمير إشبيلية ، أو ماريا اليزابث كما عرفت باسمها النصراني فتقول الرواية النصرانية إن ألفونسو تزوجها في سنة ١٠٩٦ ، ولكن هنالك ما يدل على أنه اقترن بها قبل ذلك ، لأن أباه المعتمد كان عندئذ قد فقد سلطانه وزج إلى الأسر في إفريقية منذ أعوام . والمحقق أن المعتمد قدسها زوجة لألفونسو سنة ١٠٩١ وذلك لكي يوثق روابط التحالف المقود بينهما . ولم يكن في اتخاذ ألفونسو إياها خلية فقط ، ما يؤذى الأمير وهو نفسه يحتفظ بعدد كبير من الحظايا . ثم ألم يعمد الملوك النصارى قبل ذلك بمصور إلى إعطاء بناتهم للأمراء المسلمين بالرغم من تحريم دينهم لذلك ؟ فلماذا يتأذى أمير مسلم من تقليد تبجيحه شريعته (كذا) ، هذا إلى أن سيدة كانت هي الوحيدة بين نساء ألفونسو التي ولدت له ولداً هو سانشو . وكان ألفونسو يحب ولده غير الشرعي حبا جما ، حتى أنه اختاره لولاية عهده ، ولا سيما لما بدا من نجابته وشجاعته . ولكنه هلك

في موقعة إقليش ، وهلك معه مؤدبه الكونت كبرا مدافعا عنه ؛ وهناك من يشك في أن كبراء قشتالة لم يعنوا بالمحافظة على سلامته عناية كافية ، وأنهم عرضوه للخطر لكي يهلك في الموقعة فلا يرث العرش ولد غير شرعي . كذلك عقد الأمراء التابعون لألفونسو مع صهره ريموند وهنرى حلفا سريا ضد اختيار سانشو لولاية العهد يقضى بأن يتعاون الحلفاء عند وفاة ألفونسو على الدفاع ، وأن يقتسموا المملكة والأموال والذخائر ؛ ولكن هذا المشروع انتهى بوفاة ريموند ، ثم يُمقتل سانشو وتصرفات ألفونسو الأخيرة لتنظيم وراثة العرش .

وحزن الملك الشيخ لوفاة ولده المحبوب أيما حزن ، وأثقلته السنون والأوصاب ، فمол على أن يترك المملكة لابنته أوراكا أرملة الكونت ريموند . ولكنه رأى من الضرورة أن تقبض على الحكم يد حازمة ، وأن تُحمى الأرملة من عواقب التسرع والشطط . ولما كان ألفونسو يرى عظمة المملكة في سعة الأراضي المحكومة ، ويجيش في الوقت نفسه بأمنية عزيزة هي أن يوحد بين الممالك النصرانية تحت عرش واحد ، فقد وقع اختياره على ألفونسو الأول ملك أراجون ونافار ، وكان يومئذ أعزب ، ليكون زوجا لابنته ، وكان ملكا هاما شجاعا . واستدعى ملك قشتالة قبل عقد الزواج نواب المملكة للاجتماع في ليون (الكورتيز) ، فاجتمع الأساقفة والقوامس ، وحكام الولايات ، ورجال الدين والأشراف والفرسان ، ونواب الطبقة الوسطى ، وكان اجتماعا شعبيا بكل معنى الكلمة ؛ وأصدر هذا المجلس قراراته بشأن وراثة العرش ، وخلاصتها : أن تكون أوراكا وارثة مملكة ليون وقشتالة واشتوريش ، وأن يمنح ولدها ألفونسو ريمونديز مملكة جليقية مع بقائها تحت سلطان قشتالة ، وأن يمنح الكونت هنرى صهر ألفونسو إمارة البرتغال كتابع لعرش قشتالة ، فإذا لم تعقب أوراكا من زواجها بألفونسو ملك أراجون فإن المملكة جميعها تؤول إلى ولدها ألفونسو ريمونديز ، أعنى إلى حفيد ألفونسو السادس ؛ وعهد بتربية الطفل إلى عمه أسقف فيين (وهو البابا كالكستوس الثاني فيما بعد) والكونت ترافا ، ومنح إمارة جليقية

في الحال تحت وصايتها ، على أن تبقى له دون نقض أو رجوع .
وما كاد الملك الشيخ الذي أشرف على الثمانين وأوهن المرض قواه ينتهي من تنظيم هذه الشؤون حتى أدركه الموت وذلك في ٢٩ يونيه سنة ١١٠٩ م ، فحزن الشعب قاطبة لوفاته : وقد أسس ألفونسو خلال أربعة وأربعين عاما من حكم قوى مستنير مجد قشتالة إلى قرون ؛ ولم توهنه بعد ذلك حرب أهلية ولا تقسيم ؛ وكان تقيا ، كريما ، عاقلا ، عادلا ، رقيقا ، جَم التواضع . وكان في الحرب جديرا بقيادة فرسان اسبانيا الشجعان في عصره ؛ وأعظم فتوحه استيلاؤه على طليطلة التي سميت بحق قلب اسبانيا ، والتي يمكن منها غزو أى جزء من الجزيرة بنجاح ؛ ولولا تدفق سيل المرابطين على الجزيرة في وقت بلغوا فيه أوج قوتهم لفقد المسلمون يومئذ كل سيادة في اسبانيا ؛ وقد أُلنى فاتح إفريقيا^(١) نهاية فتوحه حينما كان جيش ألفونسو الباسل ، واستحق ملك قشتالة في تسع وثلاثين موقعة خاضها لقب « نور اسبانيا ودرعها » وكان يلقب نفسه في الوثائق والمراسلات « بالقيصر » .
ومذ حاول قيصر الدولة الرومانية هنرى الثالث أن يستعيد السيادة العامة التي كانت لكارل الأكبر على ملوك النصرانية ، وأن يعتبر كل ملوك الغرب المنصراني أتباعا له ، وطلب إلى معظمهم الاعتراف بطاعته ، ظهر لقب القيصر بين ملوك قشتالة ، فتلقب به فرديناند الأول معاصر هنرى الثالث ، ثم تلقب به ألفونسو السادس ، وذلك لكي يميز نفسه بالأخص عن باقي ملوك اسبانيا النصرانية . والواقع أنه فضلا عن بسطه لسلطانه على الإمارات المسلمة التي افتتحتها ، والإمارات النصرانية التي كانت تابعة لمملكته ، كان يعتبر ضمن أتباعه أمراء قطلونية وملوك أراجون ، وذلك بالرغم من أن أراجون لم تكن تعترف بمثل هذه الدعوى ، وكان لها باتحادها مع نافار من القوة ما يكفي لتدعيم استقلالها ؛ أما إمارة برشلونة فكانت من الضعف بحيث كانت تتغبط بحماية قشتالة لها .

(١) يشير هنا إلى يوسف بن تاشفين .

٤ — إمارة قطلونية

(من سنة ١٠٧٦ — ١١٠٦ م)

أوصى ريموند برنجار الأول الذى أتينا على سيرته فيما تقدم عند وفاته (سنة ١٠٧٦ م) بالحكم المشترك لولديه برنجار وريموند . ولكن الخلاف ما لبث أن نشب بين الأخوين ، وسوى بادي ذى بدء على يد كبراء الولاية ، واتفق على أن يتسمى كل من الأخوين بكونت برشلونة ، وأن يتناوبا الحكم كل ستة أشهر . ثم قتل ريموند الثانى غيلة فى سنة ١٠٨٢ ، واتجهت الشبهة فى قتله إلى أخيه برنجار ، وفى بعض الروايات أنه هو الذى دبر بالفعل مصرعه . وقام برنجار بحكم الولاية وحده ، وكذلك بصفته وصيا على ولد أخيه القاصر ريموند الثالث . وإذا صدقنا ما يرويه « رسكو » فى تاريخه « السيد الكنيطور » فإن « السيد » هو الذى حال دون انتصار أمراء برشلونة على المسلمين ، إذ كان يومئذ فى خدمة بنى هود أمراء سرقسطة ؛ وتقول هذه الرواية إن الكنيطور انتصر بادي ذى بدء على الكونت برنجار فى موقعة « المنارة » سنة ١٠٨٣ ، ثم رده بعدئذ عن حصار بلنسية فى سنة ١٠٨٩ ؛ ولما هاجم السيد أمير دانية ، وخف برنجار لإنجاده هزمه السيد وأسره مع بضع آلاف من جنده ، ثم أفرج عنه بعد ذلك ، وانقلب العداء بينهما إلى صداقة ، وعقدت خطبة ماريا ابنة « السيد » على ابن أخى برنجار ريموند . ولما سافر برنجار إلى المشرق حاجا فى سنة ١٠٩٢ ترك الولاية كلها لابن أخيه الصبي ريموند الثالث ، تحت حماية « السيد » معتقداً أنه لن يعود إلى إسبانيا .

والروايات القطلونية عن هذا العصر موجزة وغامضة ، وعلاقة السيد بتاريخ قطلونية تثير أعظم شك ، بل إن هذا التاريخ لا يذكر اسم السيد على الإطلاق ؛ ومما يزيدنا شكاً فيما ينسب إلى السيد من محاربة أمير برشلونة أن الكونت برنجار ريموند كان يومئذ يرتبط مع ألفونسو السادس ملك قشتالة برابطة التحالف ، وكان يعمل تحت حمايته وإشرافه لتوسيع أملاكه . وقد اشترك فى

الحلف الذى عقد بين ألفونسو السادس والمعتمد أمير إشبيلية لافتتاح طليطلة ، فلما انقلب المعتمد بعد سقوط طليطلة إلى خصومة ملك قشتالة بعث ألفونسو برنجار ريموند الذى تسميه الرواية العربية « القرمط البرهانس »^(١) سفيراً إلى إشبيلية يطالب أميرها بالخضوع وتأدية الجزية ، وكان الكونت برنجار من شهود موقعة الزلاقة التى دارت فيها الدائرة على النصارى ، ولم يمض على ذلك عامان أو ثلاثة حتى سار الكونت فى قواته إلى بلنسية ، ولكنه لم يستطع افتتاحها . ولما سافر عقب ذلك إلى المشرق حاجاً ترك الولاية لابن أخيه الصبي ريموند الثالث يحكمها تحت حماية ألفونسو السادس ، وأبدى هذا الأمير الفتى شجاعة فى محاربة المرابطين خصوصاً بعد أن كثر عيشتهم فى أراضي قطلونية منذ سنة ١٠١٦ م^(٢) .

(١) سبق أن أشرنا إلى ما فى هذا القول من تحريف ، وأوضحنا أن « البرهانس » الذى تشير إليه الرواية العربية إنما هو القار فانيز Alvar Fanez قائد ألفونسو السادس ، (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢ ، والحلل الموشية ص ٢٣) .
 (٢) نرى أن نشير إلى أننا رأينا من المستحسن أن نتصرف فى ترجمة بعض أجزاء هذا الفصل أحياناً بالتلخيص وأحياناً بالحذف اليسير .

الفصل الثالث

ألفونسو المحارب وعصره

(من سنة ١١٠٥ — ١١٣٤ م)

١ — حروب النصرى الاسبان والمسلمين

منذ موقعة اقلش حتى عود ألفونسو من الأندلس

لم يحكم ملك من ملوك اسبانيا منذ عهد بلاجيوس (١) من أقطار شبه الجزيرة مثل ما حكم ألفونسو الأول الأرجوني من حيث سعة الملك وضيافته ، فقد ضم عقب وفاة حميه (ألفونسو السادس) إلى مملكته الأصلية ، وهي أراجون ونافارا (نبرة) ميراث زوجه أوراكا المشتغل على ممالك ليون وقشتالة واشتوريش ، وعلى إمارتين جديدتين تؤديان الجزية هما جليقية والبرتغال . ولو ضمت إليه إمارة برشلونة لشمّل حكمه جميع اسبانيا النصرانية ، أعني النصف الشمالى الأكبر من شبه الجزيرة . وكان قد خلف أخاه « بيدرو » على عرش أراجون في سنة ١١٠٥ بعد أن توفى وحيداً وسميه حدثاً . وكان بيدرو

(١) بلاجيوس ، (وفى الرواية العربية بلاى أو بلايو) ، هو زعيم من زعماء القوط لعهد الفتح الإسلامى لاسبانيا ، التجأ إلى مفاوز جليقية الوعرة والتفت حوله شرذم قليلة من النصرى ، ولكنه استطاع أن يقاوم المسلمين وأن يردمهم غير مرة عن تلك المعاقل الجبلية التى تسميها الرواية الإسلامية « بالصخرة » . وتركه المسلمون لما رأوا ضآلة شأنه ووعورة هذه الهضاب ، فقوى أمره ، واشتد ساعده ، وأعلنه الجليقيون ملكاً عليهم . وكان هذا منشأ مملكة جليقية التى نمت فيما بعد واشتد بأسها (راجع أخبار مجموعة في فتح الأندلس ص ٢٨ ، ونقح الطيب ج ١ ص ١١٠ ، وج ٢ ص ٥٧) .

قد أبدى خلال حكمه الذى دام عشرة أعوام فروسية وتقى ، واستطاع بفتح
الحصنى بربشتر ووشقة النعمين أن يمهّد الطريق إلى افتتاح تطيلة وسرقسطة ؛
وقام بغزوة حتى ظاهر بلنسية أبدى فيها شجاعة وبراعة . وكان يقيم فى المدن
المفتوحة كنائس وأديارا ، ويغنى صلاته على الكنيسة ؛ ومنح النصارى فى
المدن الإسلامية المفتوحة امتيازات خاصة لتشجيع الزراعة ؛ ولما كانوا ملزمين
بالخدمة العسكرية وقت الخطر نظراً لقربهم من بلاد العدو ، فقد ترتب على ذلك
أن نهضت الطبقة الوسطى حتى كانت على قدم المساواة مع النبلاء تقريبا ،
وتغلغل نفوذها فى شؤون الدولة كلها فى وقت لم يكن لها فى باقى البلاد الأوربية
شأن يذكر .

ولما أسفرت الحرب الصليبية الأولى عن النجاح ، وفاز الصليبيون بافتتاح
بيت المقدس ، أعلن البابا (باسكال الثانى) الحرب الصليبية فى اسبانيا ضد
المسلمين . وإذ كان النصارى الاسبان قد منعوا من مرافقة الصليبيين إلى
بيت المقدس فقد رأى بيدرو وكثير من رعاياه أن يشهروا الحرب الصليبية
فى اسبانيا ذاتها ضد « أعداء الدين » ، وحاصر بيدرو سرقسطة لمدى قصير
(سنة ١١٠١ م) ، ولكن الفرصة لم تكن سانحة لتحقيق هذا المشروع ،
لأن المرابطين استعادوا بلنسية بعد ذلك بقليل ؛ وغدوا فى مركز يسمح لهم
بمعاونة المستعين بن هود بمعاونة قوية ، ومن ثم فقد اضطر النصارى إلى
ترك الحصار .

وسار ألفونسو بعند وفاة أخيه بيدرو فى أثر أسلافه بوسائل أعظم وخلال
أربع . وغدا بزواجه بأورا كا ابنة ملك قشتالة سيد اسبانيا النصرانية ، سيطر
على قوى حرية زاخرة رأى أن يخصصها قبل كل شيء لافتتاح سرقسطة . وكان
المرابطون قد احتلوا هذه القلعة المنيمة على كره من أميرها المستعين (سنة
١١٠٨ م) واتخذوها قاعدة للإغارة على قطلونية وأراجون^(١) . بيد أنهم كانوا

(١) دخل المرابطون بقيادة أميرهم عبد الله بن الحاج مدينة سرقسطة لأول مرة =

يتكبدون الخسائر أحيانا ، إذ كان ألفونسو يطاردهم عند العودة ، بل لقد هُزم المرابطون بقيادة ابن الحاج وحليفهم أبو بكر بن إبراهيم وإلى مرسية في معركة دموية حطمت قواهم ، واستطاع ألفونسو أن يضرب الحصار حول تطيلة . وقدر المستعين أمير سرقسطة أهمية تطيلة فخف إلى إنقاذها في جيشه ، ولكن الأمير الباسل هزم في الموقعة التي نشبت . بيد أنه لم يمش ليشهد عار الهزيمة ، إذ سقط في الميدان وهو يقاتل قتال الأبطال . وعلى أثر هذا النصر المجيد الذي أحرزته الأرجونيون سقطت تطيلة في أيديهم في فبراير سنة ١١١٠ م (رجب سنة ٥٠٣ هـ) .

وما كاد نبأ مصرع المستعين يعرف في سرقسطة حتى تولى الأمر من بعده ولده أبو مروان عبد الملك بن أحمد بن هود الملقب بماد الدولة ، وكان أميراً شجاعاً ولكنه لم يكن مثل أبيه ذكاء وفطنة ، ولم يستطع مثله أن يوطد لنفسه نوعاً من الاستقلال في تلك الآونة العصيبة وإزاء جيرانه الأقوياء^(١) .

ولكن أمرين أنقذا سرقسطة مع ذلك إلى أعوام أخرى ، بل مهدا السبيل لعود تطيلة إلى أيدي المسلمين^(٢) ، ففي ذلك الوقت نشبت بين ألفونسو وبين زوجته أوركا حرب ذميمة استغرقت قواه مدى حين ، وعبرت قوى المرابطين الزاخرة من إفريقية إلى إسبانيا ؛ وتقدر قوى المرابطين التي عبرت عندئذ بمائة ألف فارس وثلاثة آلاف راجل ، وهو تقدير فيه مبالغة شديدة . وبينما كان ألفونسو مشغولاً بمحاربة ملكة قشتالة ، مشغولاً في نفس الوقت بحماية حدود أراجون من غزوات المسلمين ، سار على بن يوسف بن تاشفين في نخبة جنده المرابطين إلى

== سنة ٥٠٢ هـ (١١٠٩ م) ثم دخلوها للمرة الثانية بعد أشهر فلال بقيادة محمد بن الحاج (سنة ٥٠٢ هـ) واستولوا عليها وأخرجوا منها بني هود (روض القرطاس ص ١٠٣ و ١٠٤) وفي رواية ابن الأبار أن أهل سرقسطة استدعوا محمد بن الحاج المتوفى وإلى بلنسية ، فدخلها في ذي القعدة سنة ٥٠٣ هـ (الحلة السراء ص ٢٢٥) .

(١) راجع ابن الأبار في الحلة السراء (ص ٢٢٤ و ٢٢٥) .

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٠٦

ولاية طليطلة ، واستولى على عدد كبير من القلاع والحصون الصغيرة ، وانتسف الحقول ، واسترقّ السكان ، وبث الدعر والروع حتى أبواب عاصمة اسبانيا النصرانية . أجل كانت طليطلة يحميها موقعها فوق الآكام ، وأسوارها المنيعة ، وحاميتها الكبيرة من اقتحام العدو لها . ولكن مدريد (مجرط) ووادي الحجارة وطلبيرة وغيرها أخذت عنوة وقتل سكانها الذين اجترأوا على المقاومة^(١) وعندئذ فقط رأى سلطان المرابطين أنه يستطيع العودة إلى قرطبة مكالا بغار الفخر فارتد تاركا وراءه آثاراً مروعة من التخريب ، وبعد أن عهد إلى قائده مزدلى بتكرار هذه الغزوات المخربة عاد إلى إفريقية حتى لا يطول غيابه عن مراکش عاصمته ومركز مملكته الشاسعة .

وفي نفس الوقت الذي كان على يهدد فيه طليطلة ، سار جيش آخر من المرابطين بقيادة الأمير سير بن أبي بكر إلى البرتغال لمقاتلة أميرها الكونت هنري ، وافتتح شنتره وبطليوس وباريه (أو يافورة) وشنترين وأشبونة . وهدد قلعة عاصمة الولاية^(٢) ، وسار جيش ثالث بقيادة والي مرسية ، فاخترق سرقسطة ، وحاصر برشلونة مدى عشرين يوما ، ولم يرفع المسلمون الحصار إلا عند ما زحف عليهم ألفونسو في جيش زاخر من الأرجونيين والقطولونيين ، ونشبت بين الفريقين معركة دموية أئخن فيها كل منهما في الآخر دون أن يحرز أحدهما نصراً حاسماً ، وغادر المسلمون برشلونة وقد عاثوا فيها (سنة ١١١١ م - ٥٠٤ هـ)^(٣) .

وكان المرابطون يكررون هذا العيث في أراضي النصارى كل عام تقريباً ويعودون غالباً بفنائم عظيمة وكثير من الأسرى . وفي سنة ١١١٣ م (٥٠٦ هـ)

(١) هذا هو الجواز الثاني لملئ بن تاشفين إلى اسبانيا ، وقد وقع في سنة ٥٠٣ هـ (١١١٠ م) ويقدر صاحب روض القرطاس جيش المرابطين يومئذ بأكثر من مائة ألف فارس ويفصل لنا أخبار هذه الغزوة (ص ١٠٥) والتقدير مبالغ فيه بلا ريب . راجع أيضاً الحلل الموشية ص ٦٢ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٥ .

(٣) روض القرطاس ص ١٠٤ .

سار مزدلى إلى طليطلة وحاصرها ثمانية أيام ولكنه لم يوفق في مشروعه ، إذ أحرق النصارى آلات الحصار . بيد أنه استطاع بالرغم من مقاومة قوامس جليقية وإسراع ألفونسو بالقدوم في جيش ضخم ، أن يستولى على قورية بمالاة بمض النصارى الناقين ؛ ولكن برلانية أنقذت بعد أن حوصرت حيناً^(١) .

وفي العام التالى (سنة ١١١٤ م) غزا مزدلى قشتالة مرة أخرى وقفل ظافراً . ولكنه حين العودة هاجمه السكونت رودريجو نونيز صاحب وادى الحجارة فكرر عليه ببراعة ورد النصارى بخسارة فادحة . وغره هذا الظفر فارتد إلى قشتالة غازياً في قوة صغيرة واشتبك دون تحوط مع قوة كبيرة من النصارى فاستشهد وكثير من أصحابه ؛ وخلفه في الولاية والقيادة ولده محمد بن مزدلى ، وكان مثله في الجرأة والشجاعة^(٢) . وفي نفس هذا الوقت تقريباً (أوائل سنة ١١١٥ م) فقد المرابطون الجزائر الشرقية (البليار) ثم استردوها . وكان القطلونيين قد استولوا على جزيرة ميورقة بمعاونة البروفنسيين والبيزيين الذين أمدهم بالسفن ، ولكنهم وصحوا نصرهم بقتل أهلها المسلمين ؛ وسرعان ما حلت ساعة الانتقام ، ذلك أن المرابطين خشوا أن تغدو الجزيرة قاعدة لمهاجمة أملاكهم في بلنسية وفي إفريقية ، فسيروا أسطولاً إلى ميورقة واستردوها وانتقموا للمسلمين بقتل جميع سكانها النصارى . ورأى المرابطون الانتفاع بأسطولهم المجهز في أعمال الغزو ، فسيروا بعض سفنهم إلى شواطئ اشتوريش وجليقية ، وكان النصارى اعتماداً منهم على أن هذه الأنحاء بآمن من الأعداء قد تركوا حصونها خراباً . فأنار نزول المسلمين الفجائى أيعاروع بين سكان شمال غربى اسبانيا ، خصوصاً وقد انضم إليهم بعض القرصان الإنكليز . ولكن أسقف شانت ياقب استطاع أن يواجه الخطر بحكمة وروية ، فحشد سكان الريف في المدن حماية لهم ، وطارد سرايا الأعداء التى تفرقت هنا

(١) يضع صاحب روض القرطاس تاريخ هذه الغزوة في سنة ٥٠٧ هـ (سنة ١١١٤ م)

(ص ١٠٥) .

(٢) يشير صاحب روض القرطاس إلى هذه الغزوة ، ويسمى رودريجو نونيز « بالزند

غريسيس » ، ولكنه يقول لنا إن الأمير مزدلى توفى في العام التالى (سنة ٥٠٨ هـ) .

وهناك ، وهدأ روع السكان بإنشاء عدة سفن قام على بنائها صناع مهرة من جنوه ويزا .

وكان من أثر انتساف الحقول في اسبانيا الوسطى خلال الحروب المتواصلة ، ونقص المحصول المترتب على سوء الأحوال الجوية ، أن عصف بشبه الجزيرة الاسبانية في سنة ١١١٧ م حط شديد ، ذهب في سبيله من الأرواح ما لم يذهب من قبل بالحرب والسيف .

وإذا كانت غزوات المسلمين في أراضي قشتالة لم تقمع يومئذ بأشد مما قعت ، فذلك بسبب الحروب التي كانت تضطرم بين الملكة أوراكا وزوجها الملك ألفونسو ، وكانا يؤثران أحياناً أن يحطم كل منهما قوى الآخر على رد المسلمين عن أراضي المملكة ؛ وكان الشعب القشتالي نفسه منقسماً على نفسه ، يؤيد هذا الفريق أو ذاك .

ولما رأى ألفونسو أن فريقاً من الشعب القشتالي لا يؤيده ، حاول أن يوطد مركزه بوضع حاميات وثيقة في الحصون ، وعمد إلى استخدام قواته الباقية في توسيع مملكته الأصلية ، أعنى نافارا وأراجون . وفي سنة ١١١٤ م (٥٠٨ هـ) سار الكونت برش إلى تطيلة في قوة من الفرسان الفرنسيين والإنكليز ، وكان هؤلاء يهرعون إلى مقاتلة المسلمين لبواعث دينية ولتحقيق المغنم الدنيوية ، واستولى عليها بالخدعة ، وأقطعها الملك إياها على الجزية . ورغب النصرارى في سكنائها بمنحهم بعض الامتيازات ، فوفد عليها كثير منهم في وقت قصير .

وهنا اتجهت أبصار ألفونسو إلى سرقسطة ، وكان استيلاؤه على هذه القلعة الهامة ضرورياً لتأمين مملكته ، وللسيطرة على طريق الملاحه في نهر أيبرو . وكان يرى أمنيته في افتتاحها تدنو شيئاً فشيئاً ، وذلك بالرغم من أن المرابطين لم يدخروا وسعاً في معاونه أميرها عبد الملك بن هود . وكان قائد المرابطين الشجاع أبو محمد عبد الله بن مزدلى قد رد ألفونسو عنها مدى حين ؛ ولكن سرعان ما دب الخلاف بين المرابطين وبين أمير سرقسطة ، فكان ذلك ممجلاً بسقوطها ؛ ذلك أن

عبد الملك بن هود ساء مسلك المرابطين في محاولة السيطرة على المدينة ، فانشق عليهم وغادروها مع أسرته إلى حصن روضة المنيع ، وعقد مع ألفونسو محالفة ضمت بها قواته إلى جيش قشتالة . ولم يستطع المرابطون مغالبة القوى المتحدة ، فهزموا هزيمة شديدة ، واضطروا إلى الانسحاب من لاردة وسرقسطة سنة ١١١٧ م (٥١١هـ)^(١) .

وحاول المرابطون استرداد ما خسروا ، فسار الأمير الشجاع تميم بن يوسف (أخو علي) إلى الغزو على رأس جيش ضخم ، ولكن الحملة منيت بالفشل المطبق لما أبدى ألفونسو من البراعة واليقظة . ذلك أن حرس الحدود أخطروه في الوقت الملائم باقترب العدو ، ومع أنه أخطر في الوقت نفسه بكثرة عدده فإنه لم يبدأ من خوض المعركة التي أرادها تميم ، وهنا غلبت مهارة القيادة مرة أخرى على ضخامة العدد ، فهزم تميم وفر في عشرة آلاف من جنده — هي بقية جيشه الممزق — صوب بلنسية ، واحتفل الحلفاء بالنصر في جميع أنحاء المنطقة التي حررت من العدو .

وإذا كان التفاهم قد استمر إلى ذلك الحين بين ألفونسو وأمير سرقسطة فإنه ما لبث أن اضطرب منذ زال خطر العدو المشترك ، وطالب ملك أراجون بتسليم سرقسطة ، فأبى عبد الملك إباء قاطعاً ، ولم يدخر وسعاً في الاستعداد لرد دعاوى الأرجونيين بقوة السيف . بيد أنه قبل أن يتمكن من تزويد المدينة بالقوات الكافية قدم جيش أراجوني فأحرق بها ؛ وكانت تعاونه سرقات كبيرة من الفرسان الفرنسيين قدمت في طلب الغنيمة والكسب . وقاوم أهل سرقسطة المحاصرين في البداية مقاومة عنيفة ، ولكنهم ما لبثوا أن شعروا بنقص وسائلهم وأهباتهم ، إذ نفذت المؤن والأقوات بسرعة ، ولم يك ثمة أمل في الفوْث والإنقاذ . ولم يك أمامهم سوى قتال يأس لا طائل تحته . عندئذ عولوا على المفاوضة ، وقبل ألفونسو أن يفاوضهم لكي يعجل بالاستيلاء على المدينة الهامة .

(١) راجع روض الفرات ص ١٠٦ .

وأتفق على أن يؤمن أهل سرقسطة في النفس والمال ، وأن يكونوا أحراراً في مزاولة شمائز دينهم ، والاحتكام إلى قضائهم وشرائعهم ، وأن يترك لهم الخيار في البقاء والهجرة بأموالهم . وبعد أن قطع ألفونسو على نفسه هذه المهود فتحت له سرقسطة أبوابها ، فدخلها في ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨ م (رمضان سنة ٥١٢ هـ) . وسار عبد الملك بأمواله وأسرته وحرسه إلى حصن روطة الشاهق ، وصحبه نفر من أهل سرقسطة . وهاجر كثير منهم إلى مرسية وبلنسية مؤثرين مغادرة الوطن حيث كانت وطأة النصارى تشتد على المسلمين يوماً بعد يوم^(١) .

وانهار بسقوط سرقسطة ثانی معقل للمسلمين في اسبانيا ، بعد أن لبث في قبضتهم أربعائة عام . واتخذ ملك أراجون سرقسطة عاصمة للملك ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، وجعل منها مركزاً للأسقفية ، ومنح سكانها (النصارى) حقوق الأشراف الأصغر وامتيازاتهم ، وكافأ الفرسان الفرنسيين الذين استمروا في معاونته حتى أخذ المدينة ، ولاسيما الكونت جاستون دي بيارن فقد أقطعه حى سرقسطة الذى كان يقطنه النصارى المعاهدون من قبل ، وأنعم عليه بلقب « سيد سرقسطة » .

وكان المسلمون ما زالوا يملكون على مقربة من سرقسطة عدة مدن هامة تجمل مواقعها الجبلية الوعرة وحصونها القوية من الصعب حصارها ، فانهز ألفونسو فرصة الروع الذى بثه سقوط العاصمة ، وسار بعد أن نظم شؤون سرقسطة ، إلى جبال سيارا مولينا التى تفصل بين أراجون وقشتالة ، وكان للمسلمين بها عدة نقط دفاعية منيعة ، واستولى خلال ثلاثة أعوام على طركونة وقلعة أيوب ، ودروقة وعدة أخرى من الحصون القريبة ، وأعاد في طركونة مركز الأسقفية القديمة . وكان أبو الطاهر تميم أخو على بن تاشفين قد خف لانهجاد قلعة أيوب بجيش قوى ونشبت بينه وبين النصارى في كوتاندا موقعة

(١) راجع في سقوط سرقسطة روض القرطاس ص ١٠٦ ، والحلة السراء ص ٢٢٥ ، وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٣ ، ونفح الطيب ٢ ص ٥٨٥ .

دموية هزم فيها ، وقتل من جنده عشرون ألفاً ، وسقطت القلعة على أثر ذلك في أيدى النصارى (ربيع الثانى سنة ٥١٤هـ - ١١٢٠م)^(١) ، وأنشأ ألفونسو على مقربة من هذه المدينة ، فى بسيط قفر ، قلعة جديدة سميت قلعة « مونريال » Monreal لتكون منزلاً للجمعية الجديدة من الفرسان أسست لحماية الدين .

وجاز على بن تاشفين بنفسه إلى اسبانيا فى سنة ١١٢١م ، وهو يضطرم ألماً لهذه المحن ؛ وغزا أراضى طليطلة والبرتغال ، وأثنى فيها واستولى على قلعة قلعية الهامة ، وأتى على جميع سكانها النصارى قتلاً وأسراً^(٢) ، وهى واقعة لم تشر إليها الرواية النصرانية . بيد أن ذلك كله لم يكن إلا تعويضاً زهيداً لما أصاب الإسلام . ثم عاد إلى قرطبة ومنها إلى إفريقية بعد أن عهد إلى أخيه تميم بالنظر فى شؤون الأندلس . ومن ذلك الحين يغرب طالع المرابطين شيئاً فشيئاً . وثارت فى قرطبة حيث كانت الحامية المرابطية ترهق السكان بكل صنوف الاضطهاد والظلم ، ثورة شديدة فاضطر على أن يعبر من إفريقية إلى الأندلس بجيش ضخم ؛ وقاومه الثوار فى البداية مقاومة شديدة ، فضيق الحصار على المدينة حتى خضع أعيانها واشتروا سلامتهم لقاء مبلغ كبير من المال^(٣) وما كاد على ينتهى من إخماد هذه الثورة حتى اضطربت فى إفريقية ثورة أخطر وأبعد أثراً ، واستغرقت كل اهتمامه وقواه ، فلم يتح له أن يولى شؤون الأندلس كثيراً من عنايته . وكان ذلك بدء نهوض الموحدين الذى انتهى بسقوط دولة المرابطين ، وهو سقوط عجلى به أحوال الأندلس واضطرابها الذى ظهرت بوادره منذ شغل المرابطون بحروب إفريقية .

وشجع ظفر الجيوش النصرانية التى استطاعت فى مدى قصير أن تفتتح قاعدتين من أهم القواعد الإسلامية ، النصارى الماهدين Mozarabes^(٤) ، وهم

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

(٢) روض القرطاس ص ١٠٦ وهو يصف جواز على بن يوسف هذه المرة إلى الأندلس بأنه الجواز الثانى ؛ واسكن صاحب الحلال الموشية يصفه بأنه الجواز الثالث (ص ٦٢) .

(٣) يقدم إينا ابن الخطيب فى الحلال الموشية تفصيلاً حسناً لثورة قرطبة على المرابطين

(ص ٦٣) .

(٤) النصارى الماعدون ، أو الماعدون فقط ، هم نصارى الأندلس الذين كانوا =

جمهرة كبيرة في الأندلس ، على الأمل بأن انشغال على بحروب إفريقية واضطراب سلطانه في شبه الجزيرة ، سوف يؤديان إلى تحطيم النير الذي فرضه الاسلام على النصرانية في اسبانيا منذ أربعة قرون ؛ وقد كان مركزهم في الواقع لا بأس به ، إذ كانوا أحراراً في إقامة شعائرهم الدينية ، والاحتكام إلى قضائهم وفقاً للشرائع القوطية . ولكن هل تستطيع أمة كانت حرة مستقلة أن تشعر بالسعادة مهما بلغت من رفاهة العيش إذا استحوطت من سيادة حاكمة إلى مسودة مستذلة لأمة أخرى تبغضها من أجل الدين ؟ هذا إلى ما كان يسود جميع الأمم الأوروبية في ذلك العصر من اضطراب يرجع إلى تلك الحروب التي شهرت على الاسلام في سبيل نصرته الدين (الحروب الصليبية) .

ولم يكن في وسع النصارى المعاهدين أن يقوموا في الأندلس بشيء دون معاونة من الخارج ؛ ذلك أن القلاع كلها كانت في يد المسلمين ، هذا فضلاً عن تفرقهم في مختلف الأنحاء ؛ ولم يكن في وسعهم أن يتحدوا إلا إذا شغل المسلمون بحرب تقع في الداخل ، ومن ثم فقد أرسلوا رسلهم إلى ألفونسو ملك أراجون الذي ارتفع صيته إلى الذروة بالاستيلاء على سرقسطة ، فشرحو له أحوال الأندلس وأحوال قلاعها شرحاً ضافياً ، ورجوه أن يجهز حملة إليها ، وتعهدوا أن يعاونوه بالنصح والعمل كمرشدين ومحاربين . فلما أبدى ألفونسو تردداً في قبول المشروع نظراً لبعد المكان وعدم الاطمئنان إلى الوعود المقطوعة ، كرر النصارى المعاهدون السعي والرجاء ، ووعدوه بأن يحشدوا لعونه في الحال اثني عشر ألف مقاتل ، وبأن ينضم جميع النصارى في جنوب اسبانيا إلى جيشه حال ظهوره ؛ وأنهم سوف يغتبطون جميعاً باعتباره سيدهم ومليكهم ، وأنه سوف يغنم بافتتاح الأندلس أجلاً وأخصب وأوسع بقاع اسبانيا^(١) .

== يعيشون في الأراضي الإسلامية ويخضعون للحكم الإسلامي ، ويسمون بالفرنجية Mozarabes بالاشتقاق من كلمة « مستعربين » على ما يظهر . وأما المسلمون الأندلسيون الذين كانوا يعيشون في الأراضي النصرانية ، ويخضعون للوك النصارى فيقال لهم « المدجنون » ومقابلها الإفرنجي كلمة Mudijares .

(١) راجع الحلال الوشية ص ٦٦ حيث يفصل تصرفات النصارى المعاهدين .

فغلب هذا الإغراء في نفس الملك على ما كان يتصوره من صعوبة المشروع ، وما يحفه من ضروب المفاسدة . ولم يفكر في أن القلاع الإسلامية المتعددة في ولايتي بلنسية ومرسية سوف تقدم حتماً على طعنه من وراء متى دخل ولاية غرناطة ، وأنه ليست هناك أية قاعدة ثابتة ، وليس أمامه سوى وعود النصاري المعاهدين ، وهي وعود لا يعول عليها . ومع ذلك فقد كان في روح العصر ما يسمح باتخاذ القرارات السريعة المرتجلة ، وهي روح ترتبت على الثقة في عون الله على تذليل الصعاب مهما عظمت . وكان فتح بيت المقدس يبدو للنصاري في كل مكان مثلاً ساطعاً لهذا العون .

ففي يولييه سنة ١١٢٥ (شعبان سنة ٥١٩ هـ) خرج ألفونسو في جميع فرسانه ، أو حسبما تقول الرواية العربية في أربعة آلاف فارس أقسموا أن ينتصروا أو يموتوا^(١) ، وقاده النصاري المعاهدون إلى بلنسية ، ولكنه لم يقف لحصارها ، بل اخترق الولايات الإسلامية وهو يشحن فيها وينتسف حقولها ، حتى وصل إلى مقربة من غرناطة تاركاً وراءه شقر ودانية ومرسية وبياسة وجيان وغيرها من الأماكن النبعة دون افتتاح ، وجيشه يتصخم يوماً بعد يوم بانضمام النصاري المعاهدين إليه ، ويدو على المسلمين أشد نكاية وضراً . ولو نجح ألفونسو في الاستيلاء على غرناطة وبها كثير من النصاري الموالين له لاتخذت الحرب وجهة خطيرة على سلطان المرابطين ؛ ولكن والى غرناطة كان رجلاً وافر العزم ، فاستطاع بالرغم من صغر الحامية أن يهرب نصاري غرناطة ، وأن يحول بما اتخذه من الاجراءات القوية دون ثورتهم ، وأن يشدد الرقابة عليهم دون أن يدفعهم بالمطاردة والاضطهاد إلى الهياج ؛ واستقدم الجند من الأنحاء المجاورة إلى المدينة بسرعة وانتظر مقدم النصاري . وكان الجيش النصاري قد بلغ عندئذ زهاء خمسين ألف مقاتل ، ف ضرب الحصار حول غرناطة شاعراً بقوته وتفوقه ، ولكن رداءة الطقس وما اقترن بها من المطر والعواصف الثلجية حالت دون القيام

(١) هذا ما ورد في الحلل الموشية ص ٦٧ .

بمحاصر ناجع ، واضطر النصارى إلى إضاعة بضمة أسايح لم يوفقوا فيها إلى شيء . وفى تلك الأثناء هدأ روع أهل غرناطة ، واقترب وصول الأمداد التى قدم بها أبو الطاهر تميم ، فاضطر ألفونسو أن يرفع الحصار عن غرناطة ؛ ولكنه لما رأى المؤن تنهال عليه من المعاهدين من كل صوب قرر أن يمضي في مفاخرته ، وأن يسير صوب البحر الأبيض المتوسط ، تاركا غرناطة وراءه دون فتح ، وأن يضم تحت لوائه نصارى مالقة والبشرات .

ومضى ألفونسو في هذا السير الوعر ، وعلى مقربة منه صفوف الفرسان المرابطين الكثيفة تسير بمحاذاة ، وترقب كل فرصة صالحة للقتال ، حتى وصل إلى « اليسانة » ، وهى محلة تقع بين غرناطة والبحر الأبيض المتوسط . وهنا رأى المرابطون أن هذا البسيط يصلح لمعارك الفرسان ، ولم يقو الفرسان الافريقيون على كبح جماح رغبتهم في القتال بعد ، فاتفقوا على مقدمة النصارى وأجأوها إلى الفرار ، واعتقدوا أنهم بذلك هزموا الجيش النصرانى كله ؛ وبينما شغلوا باقتسام الغنائم الثمينة ، إذ انقض ألفونسو على صفوف المسلمين الناهبة انقضاض النسر من الجو ومزقها تمزيقا ، واسترد الغنائم المفقودة ، واحتوى على أسلاب العدو وطارده حتى دخول الظلام . واستطاع النصارى بهذا النصر الباهر أن يتابعوا السير دون أن يعجزهم أحد في شعب البشرات الضيقة حتى خليج على البحر الأبيض بين مالقة والمرية ، وبذا بلغوا البحر الذى أقسم الملك وفرسانه أن يبلغوه . وهناك أمر ألفونسو بصنع مركب في البحر ، وأخذ يتلهى بصيد السمك للتدليل على مبلغ ما حقق من نذره ، ولكي يروى فيما بعد أن ملكا من ملوك أراجون خرج من مرسطة وترك وراءه كثيرا من أراضى العدو ، وقام يصيد السمك على الشاطئ المقابل لافريقية كما يفعل في بلاده^(١) .

ومن ثم عاد ألفونسو أدراجه ، وانضم إلى جيشه أثناء العودة كثير من

(١) في الحلال الموشية تفصيل ضاف لهذه الغزوة التى قام بها ألفونسو في قاب الأندلس ومحاصره غير الموافق لغرناطة وما نشب بينه وبين المسلمين من مختلف الوقائع (س ٦٧ — ٦٩) .

نصارى البشرا ، وسار صوب غرناطة كرة أخرى ؛ ولكنه لما رأى أنه لا يستطيع أخذ المدينة المحصنة دون حصار طويل ، وأن قوات العدو تزداد كل يوم ، اتجه صوب مدينة وادي آش ، وترك على مقربة منها قسما من جيشه في إحدى القلاع لكي يحمي خط رجعتهم ؛ ولكن سرعان ما أصاب الوهن والانحلال جيش النصارى ، وذلك من جراء قسوة الطقس ، وقد كان الفصل شتاء ، والسير الشاق فوق الربى العالية ، وما تفشى فيه من الأمراض الوبائية . ومع ذلك فقد أوقع النصارى بالمسلمين أضرارا فادحة ، وبثوا بينهم الدعر والروع ، وحصلوا منهم على غنائم عظيمة . وهكذا توجت هذه الغزوة بالنجاح ، وإن لم تقع خلالها فتوحات جديدة ؛ ثم عاد الجيش الأرجوني مخترقا ولايات مرسية وشاطبة وبلنسية إلى بلاده وفرسان المرابطين تلاحقه باستمرار ، وتنقض عليه في معارك صغيرة ، بعد أن غاب عن أراجون زهاء ستة أشهر ، وكان قد انضم إليه أثناء ذلك اثنا عشر ألفا من النصارى المعاهدين ، آثروا هجرة أوطانهم خشية نقمة المسلمين ؛ وسرعان ما حلت في الواقع نقمة سلطان المرابطين باخوانهم الباقين ، فقد غرّبت منهم بأمره ألوف عدة إلى إفريقية ، وفرقوا هنالك في أماكن مختلفة ، وهلك كثير منهم من جراء الطقس المتغير والماء الآسن ، وتغير وسائل التغذية^(١) ؛ وكان أسعدهم حظا أولئك الذين ضمهم على بن تاشفين إلى حرسه الخاص ، فقد استطاعوا باخلاصهم الفائق أن يفتنموا وافر عطفه وثقته . وفي وسعنا أن نقارن حملة ألفونسو إلى الأندلس واختراقه بهذا الجند القليل عدة ولايات إسلامية ، بسير اليونان في عشرة آلاف مقاتل فقط إلى مملكة الفرس . وإذا كان ثمة فرق في المسافة فإن الجرأة في المشروعين واحدة ؛ ولو لم يكن الفاتح يكتفي يومئذ بالاعتماد على قوة السواعد ، وكانت المشاريع العسكرية

(١) كان تغريب النصارى المعاهدين من الأندلس إلى إفريقية بناء على فتوى القاضي أبي الوليد بن رشد وقد أبان فيها أن ما جناه النصارى المعاهدون على الأندلس من استدعاء الروم ، وما في ذلك من نقض للعهد والخروج عن الذمة يقتضى تبريهم وإجلاءهم عن أوطانهم وقد أخذ أمير المسلمين بقوله (الحلل الموشية ص ٧٠ ، ٧١) .

تنظم على هدى الروية والمقل أكثر مما توجهها الحماسة الطارئة ، لاستطاع ملك اسباني أن يتشبه بالاسكندر وأن ينظم مشروعاً لسحق العدو القوي . ولو أغضى القشتاليون والليونيون عن خصومتهم لملك أراجون وأيدوه في حملته بتوجيه الجند ضد بلنسية وقرطبة ، وسير البرتغاليون والجليقيون في الوقت نفسه قواهم ضد إشبيلية ، لكان من المحقق بوجه عام — مع عون النصارى المعاهدين ومع قلة الأمداد التي يمكن أن يبعثها المرابطون الذين شغلهم ثورة الموحيين — أن تغرب دولة الاسلام في اسبانيا قبل الوقت الذي غربت فيه بثلاثة وخمسين عاماً ؛ وكثيراً ما يتوقف سير الشعوب على مشروع أحسن تديره أو أسوأ .

٢ — أورাকা ملكة قشتالة

كثيراً ما تنهار أذكي التدابير الانسانية بفعل حادث طاري . فقد توفي ألفونسو السادس مقتبطاً بفكرة أن زواج ابنته من ملك أراجون سيفدو دعامة لمستقبل اسبانيا ، وسيقضي على دولة الاسلام إلى الأبد . ولكن حدث العكس ، وانقلب هذا الزواج شؤماً ونقمة على النصارى ، ودفع بهم إلى غمار الحرب الأهلية ، وحدّ من ظفرهم على المسلمين . وكان مثار الاضطراب في مملكة قشتالة يرجع بالأخص إلى اختلاف الزوجين الملكيين ؛ ذلك أن أورাকা كانت امرأة وافرة الكبرياء والطموح إلى السلطان ، أفسدها ما رأت من خضوع زوجها الأول الكونت ريموند البورجوني ، فقبضت على زمام السلطة في قشتالة ، وفي الأراضي التابعة لها ؛ على حين أن زوجها لم يكن يرغب في أن تشاطره الحكم بأى وجه ، فكان هذا مثار جميع المنازعات والحروب التي نشبت بينهما ؛ وعمدت أورাকা توطيداً لسلطتها إلى إقالة جميع الرجال الذين اعتقدت أن ولاءهم للملك يفوق ولاءهم لها من مناصبهم ، ورفعت من اصطفتهم إلى أرفع مناصب الدولة ، فاستشاط الملك لذلك غضباً ورأى أن كرامته تقضى عليه ألا يتنازل عن أى حق من حقوقه الملكية .

وما كاد الخلاف يضطرم بين الملكين حتى غدا من المتعذر التوفيق بينهما ، إذ كان يحدو كلا منهما نحو صاحبه بغض متأصل لم يطفئه الحب قط . وأثارت أوراكا — بما كانت تبديه نحو بعض كبراء قشتالة من عطف خاص كان يوسم بميسم العلائق الغرامية — في نفس الملك أيما ثورة فكان يتقصى كل خطواتها . وأرادت أوراكا الطلاق والتخلص من هذا الزوج الذى كانت تبغضه منذ البداية نظراً لما كان يربطها بزوجها الملك من أواصر القربى الوثيقة ، فأبى ملك أراجون لأن الطلاق يفقده حق الحكم فى قشتالة ، وبذل كل ما فى وسعه للقضاء على الدسائس التى تدبرها الملكة لإثارة الشعب القشتالى عليه ، فلأ الحصون بالجنود الأراجونيين بحجة حماية قشتالة من غارات المسلمين ، ورتب لها قادة من أشد المخلصين له ، ثم أمر فجأة باعتقال الملكة فى قصر كاستلار وأذاع أنها تحاول بث الثورة وأنها بسوء سلوكها تضيع هبة الملوكية .

ولكن الملكة فرت من معتقلها ، وجزع الملك لذلك أيما جزع إذ كان المسلمون يغزون يومئذ أراضى قشتالة ويهددون أراجون . وكان الملك فى أشد الحاجة لعون القشتاليين ؛ وانضم القشتاليون إلى جانب الملكة وتوسطوا بين الزوجين لعقد نوع من الصلح أو المهادنة اتقاء لخطر المسلمين . ولكن هذا الصلح لم يطل أمده ؛ وأثارت الملكة زوجها مرة أخرى بعلائقها الغرامية مع الكونت جومز وطموحها إلى السلطة ، فرأى أن يقبض بيديه على زمام الحكم فى قشتالة دون أن يعبأ بالملكة وحقوقها .

واستمر النزاع على هذا المنوال عاماً ، ثم انقلب إلى حرب علنية . وكان الأشراف والفرسان فى قشتالة وليون واشتوريش ييغضون سيادة الأراجونيين ، ومن ثم فقد رأوا تحطيمها بالانضمام إلى الملكة وتأييدها فى حقوقها ؛ وفى اجتماع عقد فى ساهاجون فى سنة ١١١٠م أعلن أن قوامس قشتالة الذين يبقون على ولائهم للملك ويرفضون طاعة الملكة ولا يقاتلون معها يفقدون حقوقهم وأراضيهم ؛ فارتاع القوامس القشتاليون من حكام القلاع بهذا القرار وبادروا

بتسليم قلاعهم إلى الملكة ناكثين بعهدهم للملك أراجون؛ وسار أحدهم وهو القومس الشيخ بيدرو أسورز إلى ملك أراجون، وقد ارتدى ثوباً قرمزيًا، وامتنى مهرأ أبيض ووضع حبلاً في عنقه، ليلقى منه جزءاً نكته مختاراً، معتذراً بأنه لم يستطع أن يتخلف عن قضية الوطن، فعفا عنه الملك مقدراً تضحيته المزدوجة، واحتفاظه بشرفه وولائه إزاء الفريقين.

ولكن بقيت ألفونسو بالرغم من خروج القوامس القشتاليين عليه عدة حصون وقلاع في قشتالة تحتلها الجنود الأرجونية، ومكن له بذلك من استبقاء العاصمة طليطلة. وبدأ القشتاليون الحرب بمحاصرة هذه القلاع فهرع ملك أراجون إلى إنجادهما؛ وبينما كان المسلمون يغيرون على الأراضي النصرانية المجاورة ويشخنون فيها عيشاً وتخريباً، كان القشتاليون والأرجونيون يسرون إلى ميدان الحرب للاشتباك في صراع دموي يحدوه بغض مضطرم، وانضم الكونت هنري أمير البرتغال إلى ألفونسو إذ لم يكن ثمة ما يخشاه من أراجون؛ وكان بالعكس يتعذر عليه أن يتحرر من خضوعه لقشتالة. وفي ٢٦ أكتوبر سنة ١١١٠م التحم الجيشان في معركة دموية في «كامبودى سبينا» على مقربة من «سبولفيدا» فوقعت الهزيمة على القشتاليين، وكان يقودهم الكونت جومز والكونت بيدرو دي لارا صاحباً الملكة. وهلك جومز مع عدة آلاف من مواطنيه، ولاذ بيدرو بالفرار، وتابع ملك أراجون وأمير البرتغال ظفرهما واستوليا على مدينة برغش (برجوس) عاصمة قشتالة القديمة، ثم استوليا على بالانسيا Palencia وليون وكاريون وساهاجون دون مقاومة. وفر لدى مقدم الأرجونيين جميع الأساقفة ورجال الدين الموالين للملكة؛ فاستشاط ألفونسو لذلك غضباً وقرر معاقبتهم بنهب كنائسهم وأديرتهم. هذا إلى أنه كان في أشد حاجة إلى المال لسد نفقات الحرب؛ وبثت انتصارات ألفونسو في البداية أيما روع حتى أن كثيراً من أنحاء جليقية القاصية خضعت له طوعاً؛ ولكن رجال الدين لجأوا إلى نفوذهم وتأثيرهم في الشعب، فأناروه وصوروا له ملك أراجون وجنده في صورة القتلة الظالمين، الفاسقين، الناهبين.

لأموال الكنائس والناس ، وما إليها من الثروات والأوصاف ، فهب الشعب في شمال
 غربي اسبانيا كله إلى معركة حياة أو موت يؤيدها رجال الدين بكل قواهم .
 وكان أشد خصوم ألفونسو وأوفرهم عزماً وجرأة ديجو جاميريز أسقف شنت
 ياقب ؛ وكانت جليقية يومئذ إمارة نصب عليها ولي العهد (الأنفانت) ألفونسو ولد
 أورাকা من زوجها السابق ريموند . فلما ظهر خطر الأرجونيين اتفقت كلمة
 الأحزاب والكبراء وعلى رأسهم الأسقف على أن يطلبوا إلى الملكة أورাকা أن
 يتوجوا ألفونسو ملكاً عليهم ، وذلك بالرغم من أنه لم يكن يجاوز السادسة من
 عمره ؛ ونفذ المشروع بالفعل وتوج الأمير الطفل ملكاً لجليقية في حفل باهر
 (سبتمبر سنة ١١١٠م) ، وما كاد يتم هذا التتويج حتى جاءت أنباء انتصارات
 ألفونسو في موقعة « كامبودي سبينا » وتلها أنباء فتوحاته الأخرى . واشتد الخطر
 حيناً ظهرت في بعض أنحاء جليقية بوادر الانتفاض على الملكة أورাকা ، وكانت
 يومئذ ممتنعة في قلعة استرقه (استورجا) يحاصرها الأرجونيون .

وعندئذ غدا الأسقف ديجو روح كل مقاومة ضد أراجون فبث الأمل في
 أنصار قشتالة ، وحمل الأنحاء المنشقة في جليقية على العودة إلى الطاعة ، واستطاع أن
 يبعد الكونت هنري أمير البرتغال عن محالفة ألفونسو — وكان قد بدا يخشى
 على إمارته من ظفـره — وأن يضمه إلى جانب قشتالة . وبعث الملك الطفل على
 رأس جيش إلى استرقه لكي يجتمع حوله المخلصون من أهل ليون . وما كاد
 ألفونسو يقف على هذه الأنباء حتى سار في قسم من جيشه إلى قتال الجليقيين
 وانتزع الملك الطفل . ونشبت بين الجيشين على مقربة من ليون موقعة دموية
 (سنة ١١١١م) وكان الملك الطفل وهو المقصود بالذات في صميم المعركة يتداوله
 الفريقان تباعاً حتى استطاع الأسقف أن ينقذه أخيراً بالرغم من انتصار
 الأرجونيين . وهنا ساء مركز أورাকা مرة أخرى سيما وقد شغلت جليقية بشورة
 دبرها الكونت بيريز خصم الأسقف بالتفاهم مع ملك أراجون ؛ ومضى ألفونسو
 في محاصرة استرقه بشدة ، وكادت الحرب تنتهي لولا أن وفق الأسقف إلى تحطيم

الثورة ، وسير في الحال جيشاً لا يُجَاد استرقه تُوَازره قوة برتغالية ، وعملت السرايا القشتالية في الوقت نفسه على قطع المؤن عن الأرجونيين ، فاضطر ألفونسو إلى رفع الحصار وارتد صوب أراضيه ، ولكنه قبل العودة اشتبك مع القشتاليين بقيادة « بيدرو دى لارا » مرة أخرى . وهنا تختلف الرواية ، فيقول البعض إن القشتاليين استطاعوا أن يحدقوا بالجيش الأرجوني وأن يحصروه في شعب الجبال ، ولم ينقذه سوى وعد ألفونسو بتسليم بعض القلاع والحصون وهو وعد لم يحافظ عليه . ولكن هناك رواية أصح وأوثق هي رواية رودريك الطليطلى وهي أن ملك أراجون هو الذى استطاع أن يحصر الجيش القشتالى في بالانسيا Palencia وأنه بعد أن أوقع به بعض الخسائر ارتد ظافراً إلى أراجون (ابريل سنة ١١١٢م) .

واستمرت الحرب الأهلية في الأعوام التالية تقطعها أحياناً غزوات المسلمين ؛ وانقسمت اسبانيا النصرانية إلى ثلاثة أحزاب كان أقواها وأشدّها بأساً حزب ملك أراجون لأنه فضلاً عن مملكته الأصلية المشتملة على أراجون ونافارا كان يحتل أهم حصون قشتالة وتُوَازره قوة كبيرة من الفرسان الفرنسيين ؛ وثانيها حزب قشتالة الذى ينضوى تحت لواء الملكة أوركا ويُوَازره رجال الدين في قشتالة وليون وجليقية ، ومن ورائهم الشعب يوجهونه بنفوذهم ؛ وثالثها حزب الأشراف وهو يعارض حكم الملكة وحكم ملك أراجون ممّا ويعقد آماله على الملك الطفل ألفونسو ريمونديز ملك جليقية ويُوَازره معظم الفرسان في سائر أنحاء المملكة .

وكان الشعب الاسباني يتوق إزاء ما جره هذا التفرق على المملكة من ويل ، وما اقترن به من غزوات المسلمين المتوالية التى انتهت بمحاصرتهم لطليطلة ، إلى عقد الصلح بين الملك والمملكة . وكان الفرسان ينقمون على الملكة نزولها عن السلطة وإدارة جميع الشؤون إلى خليلها ، وكاد الشعب يثور عليها لولا جهود الكهنة ونفوذهم لديه . وفي سنة ١١١٣م عقد في برغن برلمان شهدته الأساقفة والقوامس وكبراء الدولة ونواب المدن ليعمل على تسكين الهياج ، وعارض فيه

الأسقف ديجو أسقف شنت ياقب كل فكرة في الصلح بين الملكين وأعلن بطلان الزواج المعقود بينهما ، وحدثت بينه وبين الفريق المناصر للصلح مشادة كادت تنتهى بالاعتداء عليه لولا أن أنقذه بعض الكبراء وعاونوه على الفرار .

وكان مسلك برنار مطران طليطلة أكثر اعتدالاً ، فقد اقترح أن ينتظر القرار البابوي الذى سيصدر فى شأن الزواج ، وقد صدر هذا القرار فى المجمع الكنسى الذى عقد فى العام التالى قاضياً ببطلان الزواج بسبب القرابة الشديدة ؛ ولكن ملك أراجون أعلن بطلان القرار البابوي ، ثم أعلن الحرب على قشتالة واستولى على ولاية « ريوييا » التى كانت تابعة من قبل لملكة نافارا ، وعاون أشراف جليقية خصوم الأسقف ديجو على الثورة عليه ، ولكنه انتهى بإخضاعهم والتغلب عليهم .

ثم سكنت الحرب بين أراجون وقشتالة بضعة أعوام شغل فيها ألفونسو بالاستيلاء على سرقسطة وغيرها من القواعد الإسلامية المجاورة ؛ ولكن حالة قشتالة ساءت عندئذ حتى إننا لنعجب كيف أن الغزوات الإسلامية البرية والبحرية لأراضى قشتالة لم تسفر يومئذ عن فتوح ذات شأن . كذلك أغار القرصان الانكليز على الشواطىء الشمالية واشترك بعض الفرسان الصليبيين فى معاونة ثوار جليقية الناوئين للأسقف ديجو ؛ وأخيراً ساء التفاهم بين هذا الحبر الدساس وبين الملكة ذاتها ، وأخذ الحبر يتردد بين تأييد الملكة وتأييد ولدها الطفل . كذلك أخذت دونا تريزا أخت أوركا لأُمها — وهى التى توات حكم البرتغال بعد وفاة زوجها الكونت هنرى بالوصاية على ولدها الطفل ألفونسو — تنحرف عن أوركا ؛ وكان كلاهما أعنى الأسقف وتريزا يحاول تحقيق مصالحه الشخصية بالتغلب بين الحزبين . وكان مدار النزاع كله أن تحكم امرأة هى أوركا أم يحكم ولدها الطفل ملك جليقية ؛ ولكن أشراف جليقية انتهوا بإرغام الملكة على الاذعان ، وكانت يومئذ معتقلة فى « سوبروزو » ووضع البرلمان الذى عقد فى ساهاجون (سنة ١١١٦م) شروط الصلح ، وخلاصتها أن تتولى الأم وولدها الحكم معاً فى جليقية وليون

واشتوريش ، وأن تنفرد الأم بالحكم حال حياتها في قشتالة على أن يخلفها ولدها وفقاً لوصية ألفونسو السادس .

ولكن الحوادث اضطرت في ناحية أخرى . ذلك أن الأسقف ديجو الذى عزل ونفى لصرامته وبطشه ، أعادته الملكة إلى منصبه ، وصحبته إلى مركزه في شنت ياقب . فثار الشعب سخطاً لذلك ، واضطر الأسقف وصحبه والملكة وحاشيتهما إلى الالتجاء إلى الكنيسة اتقاء سخطه ، فأضرم الثوار النار فيها دون اكتراث بسمعتها وصفتها المقدسة . ولما هرعَت الملكة إلى الخارج خوفاً من اللب أهانها الشعب وتناول عليها ، واستطاعت بمعاونة بعض الأهل أن تلبجأ إلى كنيسة أخرى . أما الأسقف فاستطاع أن يفر متنكراً ، ولكن أتباعه هلكوا حرقاً وقتلاً ولم تخمد النار إلا حينما ذاع فرار الأسقف ، ولم تجرؤ الملكة على معاقبة الثوار خوفاً من استفحال الفتنة . بيد أنه لم يعض بعيد حتى استطاع الأسقف الماكر أن يستميل قلوب الشعب مرة أخرى .

وكان ملك جليقية قد بلغ عندئذ الثانية عشرة من عمره ، وكان قد قام مع قاده المجرين بمدة حملات مظفرة ضد المسلمين ، وبلغ من إخلاص فرسان مملكة ليون وأساقفتها له أن نادوا به ملكاً عليهم ، ولكنه لم يقنع بسيادة الملكتين وأخذ يطمح إلى سيادة قشتالة الملكة الرئيسية . وكان معظم أشراف قشتالة يخلصون للملكة ، ولكنهم كانوا يرون في ولدها ألفونسو ريمونديز حاكمهم المستقبل ويؤيدونه في مشاريعه الحربية . وكانت الحصون الهامة في ولاية طليطلة أو قشتالة الجديدة ، بل كانت العاصمة ذاتها أعنى طليطلة ما تزال في أيدي الأرجونيين . وكان حاكمها الكونت القارفايز (البرهانس) قد استطاع أن يرد عنها كل هجمات المسلمين والقشتاليين بقوة ، ولكنه هلك في سقوية وهى إحدى المدن التى يحتلها الأرجونيون في ثورة أهلية قامت بها ؛ وأبدى خلفه في حكم طليطلة رديجونونيز مثل غيرته ومقدرته ؛ ولكن الحال في طليطلة كانت تسوء من يوم إلى آخر ، وكان الضغط يشتد عليها من جانبيين بلا انقطاع إذ كان يهددها المسلمون من الجنوب ،

ويهددها القشتاليون من الشمال ؛ وأخيراً فتك القحط المروع بالأرجونيين
فاضطروا إلى فتح أبوابها لألفونسو ريمونديز (سنة ١١١٧م) وتمت بذلك أول
خطوة في سبيل حصوله على عرش قشتالة .

وكانت هيبة أورাকা تهوى يوماً بعد يوم . وكان أسلوب حياتها المزرى بمقامها
الملكي ، واصطفاؤها لخليتها الكونت بيدرو دي لارا مما يسخط الأشراف عليها ؛
ولم تلبث مدينتا سقوية وسورية اللتان كانتا خاضعتين من قبل لملك أراجون وكذلك
مدينة ليون أن اعترفت بألفونسو ريمونديز ملكاً عليها . وفي سنة ١١١٩م سار
الملك الفتى على رأس فريق من فرسان قشتالة ، وقبض على الكونت بيدرو دي لارا
وألقى به إلى السجن ، ولكنه فر من معتقله واحتفى بأمر برشالونة وأفادت الملكة
من محنة خليلها إذ عاد الأشراف إلى طاعتها وعادت أيون فانضوت تحت لوائها .
ولما رأى ملك أراجون تحول الشعب القشتالي عنه وأنه لا سبيل إلى إخضاع
قشتالة ، اكتفى بأن تلقب « بقيصر اسبانيا » أسوة بفرديناند وألفونسو السادس ،
ثم تحول إلى محاربة المسلمين على ضفاف الأيبرو ، وأسدى بافتتاح سرقسطة والمنطقة
الجبلية الفاصلة بين قشتالة وأراجون إلى وطنه يدأ جلييلة أسبغت على اسمه مجدأ لم
يكن ليسبغه عليه ظفره على القشتاليين في عديد المواقع .

وكانت جليقية أشد الولايات الاسبانية اضطراباً تقتتل الأحزاب فيها لتأييد
أورাকা أو ولدها أو للاحتفاظ باستقلالها . وكان الأسقف ديجو الذي رفعه البابا
يومئذ إلى منصب المطران يذكي الاضطراب ببطشه وأطماعه . وكان هذا الخبر ينزل
بنفسه إلى ميدان الحرب ويقا تل كأشجع الجند وأبرعهم ، فلما انتهى من قمع الثورة
في جليقية سار مع الملكة في حملة إلى البرتغال لقتال الدونا تيريزا لأنها عاونت
الثوار واستولت على بعض الأراضي . ولكن سرعان ما تخلى ديجو عن الملكة ،
وسرح جنوده قبل انتهاء الحرب بصورة تدنو إلى الخيانة ، فاضطربت أورাকা
سخطاً وأمرت بالقبض عليه مع إخوته الثلاثة ، وفر صديقاه مطران براجا وأسقف
أوردنسة وكانا مع الجيش .

فأثارت شيعمة المطران وتصرفات الملكة الثورة ، فى شنت ياقب ، وسخط الشعب ورجال الدين على أوركا أيا سخط ، وبدا غضب الشعب بأجل مظاهره حينما قدمت الملكة إلى « كومبوستل » لتشهد احتفال القديس ياقب . ولكن أوركا لم تتأثر بشيء ولم تقبل الإفراج عن المطران . ومن الغريب أن هذا الشعب الذى أراد أن يبطش بالمطران قبل ذلك بأعوام قلائل اعترم عندئذ أن يفرج عنه دون أن يحفل بالملكة ؛ فاستدعى ألفونسو ريمونديز وماكاد الملك الفتى يظهر على رأس جنده ، حتى اضطرت المدينة بالثورة وهدد الثوار أوركا بالويل إذا لم يطلق سراح المطران فاضطرت عندئذ إلى الإذعان وأفرج عنه (سنة ١١٢١م) .

ولكنها حققت على المطران أيا حقد ورأت أن تنزع عنه بعض أملاكه الكنسية بعد أن عجزت عن اعتقاله ؛ فأثار ذلك نضالا جديداً ، واستطاع المطران أن يجذب إلى جانبه معظم أشراف جليقية ، وأميرة البرتغال التى ما فتئت تناصر الاضطراب والحرب ، بل استطاع أن يغنم تأييد الملك الفتى ألفونسو ريمونديز نفسه ، ثم طلب إلى صديقه البابا كالكستوس الثانى أن يصدر قراراً بنفى الملكة وأنصارها من حظيرة الكنيسة ؛ وهنا اضطرت الحصومة بين الاسبانيين مرة أخرى ووقعت عدة مصادمات سالت فيها الدماء ، وأصدر البابا قرار النفي المطلوب فرأت أوركا أن لا سبيل إلى خوض هذا النضال ، فردت إلى الأسقف أملاكه المنزوعة ، ولكن التنازع بين الأحزاب والأشراف بقى على حاله ؛ وعمت أميرة البرتغال وملك أراجون على إذكائه ؛ وساء ما بين الملكة وبين ولدها ، ودب الخلاف إلى الشؤون الكنسية ذاتها ، وأخذ مطران طليطلة ومطران كومبوستل وسفير البابا ثم البابا نفسه فى التنازع على إدارتها وتوجيهها ، وهكذا كان الاضطراب والفوضى يسودان الدولة والكنيسة معاً .

وحاول البابا كالكستوس الثانى أن يضع حدا لهذه الحالة السيئة فأوفد إلى شبه الجزيرة سفيراً بعد سفير ، وعقدت بدعوته عدة اجتماعات كنسية ونبائية للعمل على رد السكينة والنظام ، والتوفيق بين الأحزاب المتنازعة ؛ وانهى الأمر

في الاجتماع الذي عقد في بلد الوليد (سنة ١١٢٤) بعقد الصلح بين الملكة وولدها على أن يحكم سوايا كل الأراضي التي ورثتها أوراكا عن أبيها . ولكن التنازع بين الأشراف استمر على حاله ولم تثمر في حسمه الاجتماعات المتوالية إذ كان حقد الملكة الشخصي يحول دون كل توفيق ويذكر عوامل الخصومة والبغضاء .

وأخيراً جاء موت الملكة بشيراً بعود السكينة والسلام بعد طول الخصومة والنضال ، إذ توفيت أوراكا فجأة في سالدانيا على مقربة من كاريون في ٧ مارس سنة ١١٢٦ . وقد أذاع خصومها عن موتها عدة روايات مشينة فذكر البعض أنها توفيت على أثر وضع مبكر (إجهاض) وهو ما يصعب تصوره ، ويدحضه تقدم الملكة في السن ، ووصف البعض الآخر موتها كعقاب من الله على ما كانت تعترم من اغتصاب ذخائر كنيسة القديس إيزيدور في ليون . ومن العبث أن يحاول المؤرخون الاسبان المحدثون التدليل على نقاء صفحة أوراكا . ولعلمهم روى أن الشخصيات الملوكية لا يمكن أن تحيا حياة مشينة ، أو لعلهم إذا صح التفسير يرون أنه يجب على المؤرخ لكي لا ينال من هيبة الملوكية ألا يلقى ضوءاً على ما يشين شخصية ملوكية .

ويبدو من المحقق وفقاً لجميع الروايات ، أن الملكة أوراكا كانت امرأة مغامرة مسترجلة وكان السلطان أعظم شهواتها . وقد ضحت في سبيله الزوج والولد ، ولم تحجم مدى عشرين عاماً عن أن تدفع اسبانيا النصرانية إلى غمر الحرب والحراب لكي تستبق زمام الحكم لنفسها ، وهو ما كان من حق زوجها ثم ولدها . ولم تكن اسبانيا قد عرفت حكم النساء من قبل ، فكان حكم أوراكا أحدوثه لم يستحسنها سوى الأشراف الثائرين وأكابر رجال الدين طمعاً في أن يسمو شأنهم في ظلها . وإذا لم تكن أوراكا قد توفيت بمثل السبب المشين الذي يرويه المؤرخون القدماء ، فإن حياتها حافلة بالحوادث الغرامية ، وقد رزقت من خليلها الكونت جومر سرا بولد سمي فرديناند فورنادو ، وأثارت علائقها الغرامية مع الكونت بيدرو دي لارا (وهي علائق أثمرت عدة بنين وبنات) الذي كان يطمح إلى اعتلاء.

العرش بطريق الزواج من الملكة ، سخط أشراف قشتالة ، فالتفوا حول ولدها وانتهى بنى الكونت المغامر . ولم تكن أوراكا تتمتع فيها خلا الجراة وإقدام الرجال بشيء من الخلال التي بتطلبها الحكم ، فكان حكمها جائراً نسبياً أدى إلى إثارة الاضطراب والحرب الأهلية في أنحاء قشتالة ؛ ولم تبرا الجروح التي أصابها إلا بعد زمن طويل .

وتوفي برنار مطران طليطلة ورئيس الكنيسة الاسبانية قبل وفاة الملكة بعام (ابريل سنة ١٢٢٥) بعد أن لبث زهاء أربعين عاماً يدير شؤونها ببراعة ، وهو الذي عاون باستقدام الآباء البندكتيين أيماعون في تمدين اسبانيا وطبعها بالطابع الأوربي ؛ ولكنه يلام بحق على أنه لم يعن بالروح القوي ، وأنه حارب التراث القوطي ، وكان أداة في يد الكرسي الرسولي ، ولم يعمل لتقدم الكنيسة الاسبانية ذاتها . وخلفه في منصبه ريموند أسقف أوسمة وكان مثله فرنسيا ومن جماعة البندكتيين^(١)

٣ — النضال بين ألفونسو ملك أراجون وألفونسو ريمونديز

لما توفيت أوراكا تولى ولدها ألفونسو ريمونديز حكم جميع الأراضي التي تركها جده ، وكان قد توج من قبل ملكاً على ليون بمعاونة الأسقف ديجو . ولكنه تكبد في سبيل إخضاع الأشراف المناوئين كثيراً من العناء والجهد . ففي قشتالة كانت تناوئه أسرة لارا وشيعتها أشد مناوأة وعلى رأسها الأخوان بيدرو ودرريك جونزائز ، وكان أولهما كما أسلفنا خليل الملكة ؛ وكان يكاد يقبض على زمام الحكم ويثير سخط الأشراف . وقد نفى إلى خارج قشتالة بضعة أعوام ، ولكنه عاد إليها عقب وفاة الملكة أوراكا وأثار كثيراً من الفتن ، وما زال به ألفونسو ريمونديز حتى أرغمه على الالتجاء إلى جبال « سانتيلانا » .

ثم تعاقبت الثورات في جليقية وساد حكم القوة المهيمنة بجميع صوره ، ولم تنج منه الكنائس ورجال الدين وكان الكونت أرياس بيريز أشد الزعماء

(١) تصرفنا في بعض مواطن هذا القسم بشيء من التلخيص الذي يقتضيه المقام .

الحوارج بأساً وإيماناً في الفتنة ، ولكنه هزم أخيراً وأخضع . وظهر الكونت رودريك في قشتالة برائع قسوته وعنفه ، وكان يربط الأسرى من خصومه مع الثيران في المحراث ، ويرغمهم على أكل الحشائش مع الماشية والشرب مثلها من الترع ، ولم يترك لونا من ألوان القسوة إلا أوقعه بأولئك المنكودين ، وما زال دائماً على عنفه الوحشي يحدّ في البحث عن فرائس قسوته . وأما البرتغال التي كانت تحكمها الدونا تيريزا باسم ولدها القاصر ألفونسو هنريكز فقد ادعى ألفونسو أنه صاحب الجزية عليها . وجاءت تيريزا للقاء ألفونسو ريمونديز في مكان عند ملتقى نهري أوربيكو ودويرة وعقدت معه هدنة حتى تسوى المسائل المعلقة بينهما ، بيد أنها لم تعترف بالطاعة ولا بأداء الجزية للملك قشتالة .

وكانت ظروف أراجون أشدّ إثارة لأسباب الحرب . ذلك أن ملكها ألفونسو سانشيز كان يحتل حتى وفاة زوجه الفادرة عدة حصون في قشتالة تكفل له إخلاص الحاميات والسكان ؛ فلما توفيت أوركا انحلت العلائق التي كانت تربطهم بأراجون ، وآثرت المدن وآثر الجند بالرغم من قادتها أن تعلن ولاءها للملك قشتالة ، على أن تبقى على ولائها القديم . ولم يبق إلى جانب ملك أراجون سوى قلعة كاسترو شريش . وإذا كان ملك أراجون لم يقم بأية محاولة للاستيلاء على القلاع القشتالية ، فإن في ذلك ما يدل على أنه كان يومئذ ما يزال يقاتل المسلمين في الأندلس ، أو أنه كان يقاتلهم حين عودته في مرسية وبلنسية . ولما عاد إلى مملكته ألقي الاضطراب يسودها ، ولم يتح له أن يخصص لشؤون الحدود كثيراً من عنايته . وكان المسلمون قد قاموا من لاردة وطرطوشة اللتين بقيتا في أيديهما بغزوات مخربة على مقربة من سرقسطة ، ولولا مبادرة الكونت ريموند برنجار الثالث بالعاونة لتفاقم الخطب ؛ ومن ثم فقد رأى ألفونسو اتقاء لأمثال هذه الغزوات أن يقوم قبل كل شيء بافتتاح الحصون الإسلامية الواقعة في أراضيها ، أو المجاورة لها ، وهو ما يتطلبه سلام المملكة وأمنها . ولكنه ألقي نفسه غير بعيد مضطراً إلى أن يخوض غمار الحرب مع قشتالة ، وأن يخصص كل قواته

لها ، ولعله نُحْمِلُ على ذلك بدعوة من الأشراف الثائرين في قشتالة وجليقية ، وكذلك من الدونا تيريزا أميرة البرتغال ، أو بما شهده من نمو قوى ملك قشتالة بسرعة ، فاخترق حدود قشتالة بجيش قوى ، مجدداً دعواه بشأنها (سنة ١١٢٧ م) .

واستمرت الحرب ثلاثة أعوام سجالاً في معارك محلية بين الفريقين ، وكما آذن اشتباكهما في معركة حاسمة تدخل الأحرار في الجيشين لدى الملكين يحضونهما على السلام وحقق دماء النصارى ، وتحويل شهوة الحرب إلى وجهة أخرى هي محاربة المسلمين . وأخيراً وفق الأحرار في جهودهم ووساطتهم ، وعقدت الهدنة بين قشتالة وأراجون . ونزل ألفونسو الأرجونى عن لقب « قيصر اسبانيا » الذى تلقب به من قبل ، وترك جميع الحصون التى يملكها في قشتالة إلى ولد زوجه ألفونسو ريمونديز ، ونزل ألفونسو ريمونديز إليه نظير ذلك عن ولاية « ريويلا » التى كان ألفونسو السادس قد انتزعها من نافارا .

وفى تلك الحرب استعادت قشتالة لأول مرة مجدها الحربى الذى خبا ؛ وكان فرسان قشتالة أيام ألفونسو السادس أعظم فرسان اسبانيا كلها ، لا يضارعهم أحد فى الجرأة والشجاعة والصلابة والبراعة فى القتال وقوة البنية ؛ وكانوا على رأس الجيش فى كل موقعة أول من ينقض على صفوف الأعداء وينتزعون النصر منهم فى جميع المواقع تقريباً ؛ ولكن الأمور تغيرت فى ظل حكم أورাকা الرخو تغيراً كبيراً ، فحلت الرفاهة والجمول والشح والترف الناعم ، مكان الخلال الحربية العظيمة التى كان يتمتع بها القشتاليون من قبل . أما الفرسان الأرجونيون فقد كان يذكى نفوسهم مثل ملكهم البطل ألفونسو « المحارب » ، وسرعان ما تفوقوا على الفرسان القشتاليين تفوقاً عظيماً ، حتى كانت عقيدتهم أن قوة معينة منهم تستطيع أن تصمد لضغفها من القشتاليين . وكثيراً ما حدث أن سرية صغيرة منهم كانت تُلجى قوة كبيرة من القشتاليين إلى الفرار وهى تصيح بهم : « يا نساء » . وهكذا كان الجند الأرجونيون يثيرون كثيراً من الروع ،

وقد ظهرت منهم بالأخص فرقة « المجاورين »^(١) ؛ وهي طائفة من الفرسان لا عمل لهم سوى الحرب ، ولا سيما محاربة المسلمين . وكانوا يرتدون أسلحة بالية ، تبدوا منها جسامهم الضامرة التي تنبئ عن تقشفهم ، ولا تشرق جباههم العابسة إلا حينما يلقون الموت في ساحة الحرب .

٤ — حروب ألفونسو المحارب الأخيرة

وموته ووصيته

لما انتهى ألفونسو سانشيز من نزاعه الطويل مع قشتالة ، دعى إلى فرنسا فيما وراء البرنيه ليخوض حرباً ضد بيوتة . وأسباب هذه الحرب غير واضحة ، ولكن الظاهر أن اميرى (كونتى) بجور وبيارن ، وهما من أتباع ملك أراجون وأخلص حلفائه في جميع الحروب الأسبانية ، قد هددا من جانب جيوم التاسع أمير جويانه وبواتيه ، فلم يتردد ألفونسو في المبادرة بالإنجاد حليفه المخاضين ، فطوق بيوتة واستولى عليها بعد حصار طويل (سنة ١١٣١ م) . ومن ذلك الحين كان ملك أراجون ونافارا يلقب في الوثائق والمراسيم العامة أيضاً بملك بيوتة ؛ ولكن سلطان أراجون عليها لم يطل أمده ، ففقدته خلال الاضطرابات والحوادث التالية .

وفي تلك الأثناء توفي أمير سرقسطة السابق أبو مروان عبد الملك بن هود الملقب بعماد الدولة (في شعبان سنة ٥٢٤ هـ — يولية سنة ١١٣٠ م) ، وكان يملك عدة حصون بالقرب من عاصمة أراجون (أى سرقسطة) . ولا يتضح من الروايات العربية ما إذا كان عماد الدولة كان ينضوى تحت لواء ملك قشتالة أو ملك أراجون لأنها نظراً لاتفاق اسميهما (ألفونسو) تخلط بينهما بسهولة ، وهي كثيراً ما تشير إلى ألفونسو سانشيز ملك أراجون « بأدفنش بن رمند » وهو اسم ملك

(١) المجاورون Almugavaren هي نفس الكلمة العربية مأخوذة بالأفريقية ، والمقصود بها النصارى الذين يعيشون على حدود الأراضى الإسلامية ومجاورونها .

قشتالة^(١) والمرجح أن ولد عبد الملك ، أبو جعفر أحمد سيف الدولة الملقب بالمستنصر والمستعين بالله هو الذى بدأ الانفصال عن أراجون وانضوى تحت لواء قشتالة . وكان المرابطون قد افتتحوا معظم حصونه واستولوا على طرطوشة ولاردة وإفراغة ومكناسة ؛ أما روطة التى كانت مقر إقامته وغيرها من الأماكن التى كانت بيده فقد نزل عنها إلى ملك قشتالة (سنة ١١٣٢ م) وعوضه عنها بعض أملاك بجوار طليطلة^(٢) .

وكان ألفونسو الأرجونى يرى أن أهم ما يجب تحقيقه لملكته هو أن يصل بينها وبين البحر الأبيض ، وأن يكفل لها سلامة الملاحة فى نهر إيبرو ، ومن ثم فقد عول على أن يفتح ثغر طرطوشة الواقع على مصب النهر من يد المسلمين وأن يهاجمه من البر والبحر ؛ واشترك فى هذه الحملة كثير من الأشراف والفرسان الفرنسيين . بيد أنه كان يتعين عليهم قبل البدء بمحاصرة طرطوشة الاستيلاء على عدة مدن إسلامية تقع فى الداخل ، وكان المرابطون يملكون مدينة مكناسة الواقعة عند ملتقى نهري سيجرو وإيبرو ، فهوجمت وأخذت عنوة . ولكن الاستيلاء على لاردة وإفراغة الواقعتين على نهر أنجا كان أشد صعوبة خصوصاً وإفراغة تقع على آكام عالية منيعة جداً . ولما حوصرت إفراغة قام سكانها الشجعان بمقاومة شديدة وإبادر والهيا يحيى بن غانية من لاردة على رأس جيش ضخم من أهل بلنسية ومرسية لإنجادها^(٣) ، وكذلك بادرت إلى غوثها قوة مختارة من

(١) تشير الرواية الإسلامية إلى ألفونسو الأرجونى بابن رذمير الفرنجى أو ابن رذمير فقط وهى واضحة لا لبس فيها . أما ألفونسو ريمونديز فتسميه « بالسليطين » ولا تعرف أصل هذه التسمية أو سببها (راجع بالأخص ابن الأثير ج ١١ ص ١٣ وابن خلدون ج ٤ ص ١٨٢) .
(٢) قال ابن الأثير فى حوادث سنة ٥٢٩ هـ (سنة ١١٣٥ م) : « فى هذه السنة اصطلع المستنصر بالله بن هود والسليطين الفرنجى صاحب طليطلة مدة عشر سنين ... على أن يسلم المستنصر إلى السليطين حصن روطة وهو من أمنع الحصون وأحصنها » (ج ١١ ص ١٣) ويوجد فرق يسير فى التاريخ بين الروايتين .

(٣) فى هذه الرواية شيء من التحريف والواقع أن يحيى بن غانية كان أميراً على بلنسية ومرسية من قبل أمير المسلمين على بن يوسف وكان والى لاردة عبد الله بن عياض وقد سار كلاماً فى قواته إلى نجدة إفراغة (ابن الأثير ج ١١ ص ١٣) .

الرابطين من جنوب اسبانيا قوامها عشرة آلاف مقاتل. ولكن ألفونسو لم يتراجع في خطته ، بل استمر في الحصار وأقسم علناً كما أقسم أبوه سانشو أمام وشقة قبل ذلك بأربعين عاماً أن يفتتح إفراغة أو يموت دونها وأقسم مثله عشرون من أتباعه . وهكذا كانت تقاليد العصر تتطلب أن يخوض أقرب الناس إلى الملك معه غمار البطولة والفروسية ومخاطر الموت ؛ ثم أمر الملك لكي يذكر حماسة الجيش أن يؤتى برفات القديسين إلى المعسكر ، وأن يتولى الأساقفة والرهبان قيادة الصفوف أسوة بالقوامس ؛ وعلى أثر ذلك اشتبك النصارى مع المسلمين القادمين لنجدة المدينة في معركتين وهزم المسلمون في المرتين ولجأوا إلى الفرار ؛ نغارت عزائم سكان المدينة وعولوا على التسليم بشروط يسيرة ولكن ألفونسو رفض كل عرض واعتزم أن يفتتح المدينة بالسيف ؛ فانقلب المحصورون إلى مقاومة اليأس وحاول الرابطون كرة أخرى إنقاذ المدينة بجيش ضخم ولجأ المسلمون إلى الخديعة حين أعوزتهم القوة ، فدبروا كميناً جذبوا إليه الأرجونيين على يد قافلة من المؤن ، وهنالك انقضت عليهم نخبة من المجاهدين الشجعان ، فأُتخنت فيهم وهلك منهم جمهرة من الفرسان الفرنسيين والقوامس وأسقفنا روطة ووشقة وقسم كبير من الجيش .

أما ما حدث لألفونسو فلم يعرف بالتحقيق . وتختلف الرواية اختلافاً بيناً على كيفية وفاته التي حدثت بعد موقعة إفراغة بقليل . ويروي مؤرخ قطولوني معاصر في وصفه للمعركة أن الملك حين تمت الهزيمة الساحقة على جيشه عمد إلى الفرار بصحبة فارسين فقط ولجأ إلى دير القديس « خوان دى لانبيا » في سرقسطة ، وهنالك توفي غماً ويأساً لثمانية أيام فقط من الموقعة وذلك في ٢٥ يولية سنة ١١٣٤ م^(١). وتعارض هذه الرواية رواية مؤرخ آخر خلاصتها أن ألفونسو لما رأى هزيمة جيشه حاول أن يلقى بنفسه إلى المعمة ليموت ، فأمره أسقف أورجل باسم الله أن ينقذ نفسه ، فغادر ميدان الحرب مع ستين من فرسانه ، ولكن عشرة

(١) هذا هو ما تقوله الرواية الإسلامية في الواقع ، فابن الأثير يقول لنا في كلامه عن موقعة إفراغة (ج ١١ ص ١٣) أن ابن رذمير لحق عقب هزيمته بمدينة سرقسطة ، ومات مفجوعاً بعد عشرين يوماً من الهزيمة ؛ وهذا الاتفاق مما يحمل على ترجيح هذه الرواية .

منهم فقط نجوا من الموت . وحشد ألفونسو جنداً آخر ، وعاد إلى ميدان الحرب سريعاً ليتدارك ما حل به من هزيمة ، ولكنه اجتذب إلى كمين دبره الأعداء ، وذلك في ٧ سبتمبر سنة ١١٣٤ ، وهناك أحاط به المسلمون فقتل في ميدان الحرب بعد معركة عنيفة وقتل معه ثلثمائة من فرسانه .

بيد أن معظم الروايات تتفق على أن ألفونسو قد قتل في موقعة إفراغة في سنة ٥٢٩ هـ - ١٧ يولية سنة ١١٣٤ م ، ولكن جثته لم توجد بين الموتي بالرغم من الجهود التي بذلت للبحث عنها . وقد كان هذا الظرف المريب الذي حاق بمصير الملك منشأ تلك الروايات والأساطير المختلفة التي أوردها رودريك الطليطلي ورواية القديس خوان دي لابنبا .

وقد استحق ألفونسو الأرجوني بما خاضه من حروب كثيرة ضد المسلمين والنصارى مدى ثلاثين عاماً حكمها لقب « المحارب » Battallator ، وانتصر في جميع المعارك ما عدا معركة إفراغة الأخيرة ، وهو بذلك يعتبر من أعظم ملوك اسبانيا في العصور الوسطى^(١) ، وقد حقق لأراجون بافتتاح سرقسطة ما حققه ألفونسو السادس لقشتالة بافتتاح طليطلة ؛ وكان في وسعه بلاريب أن يحقق أعظم مما حققه سلفه بل ربما كان بوسعه أن يخرج المسلمين من اسبانيا لو لم يقض خلافه المشثوم مع زوجه أورাকা عليه بتوزيع قواه بل يشل حركته في بعض الأحيان ؛ وقد برهن بحملته التي قادها إلى الأندلس حتى غرناطة ، ثم إلى البحر على مقربة من مالقة لتحرير النصارى المعاهدين ، كيف تستطيع القوى القليلة المختارة أن تلقى العدو في صميم أرضه ، وأن تنزل به أضراراً جمة ؛ وإذا كان أبوه سانشو قد أسمعده الحظ بأن يضاعف حجم مملكته أراجون الصغيرة باتحادها مع نافارا ،

(١) قال ابن الأثير في وصفه لألفونسو الأرجوني : « وكان من أشد ملوك الفرنج بأساً وأكثرهم تجرداً لحرب المسلمين وأعظمهم صبراً ، وكان ينام على طارقه بغير وطاء . وقيل له هل تسريت من بنات أكابر المسلمين اللاتي سبيت منهم ؟ فقال الرجل المحارب ينبغي أن يعاشر الرجال لا النساء » والظاهر أن كلمة « المحارب » هنا تريد لنفس اللقب الذي لقب به ألفونسو (ج ١١ ص ٢٣) .

فقد استطاع هو أن يقوّم حدودها ، وأن يضم إليها المعادل والحدود الجبلية التي كانت تنقصها ؛ كذلك استطاع ألفونسو بخلاله الحربية ، وما أدخله من النظم العسكرية الجديدة ، أن يحقق للأمة الأرجونية سيادة إسبانيا ، فلم تكن الأمم الإسبانية الأخرى من القشتاليين والليونيين والأشتوريين والبرتغاليين والقطلونيين لتجرؤ على مناهضتها في ميدان القتال .

أما أخلاق ألفونسو فتختلف صورتها وفقاً لما تدلى به أقوال المؤرخين الأرجونيين أو القشتاليين ؛ فبينما تصفه الروايات الأرجونية بالقوى والإيمان ، والفروسية المثلى ، والجود نحو الكنائس والأحبار ، (وهذا ما تؤيده الوثائق) ، إذا بالروايات القشتالية تصفه بأنه ملحد ناكث للمهد مستبد ناهب ، لا يراعى حرمة الكنائس والأديار ، ولا ينف عن محتوياتها المقدسة ، ولا يفر الأحبار أو النساء في حروبه مع النصارى إرواء لجشعه ، وإرضاء لجنده الذين لا وازع لهم ، بل لقد ذهب التحامل إلى حد أن اعتبرت هزيمته ومقتله في موقعة إفراغة جزاء عدلا من الله لما ارتكبه من انتهاك للحرمت في ليون وفي دير ساهاجون .

وإذ كان ألفونسو دون عقب ، وكان أخوه راميرو قد انتظم في سلك الكهنوت ، فقد كتب وصيته وفقاً لتقاليد العصر ، وذلك منذ حصاره لبيونة سنة ١١٣١ م ، ثم أقرها قبيل وفاته ؛ وفيها يوصى بتقسيم مملكته إلى ثلاثة أقسام ، الأول يخص لسلام روح والده ووالدته ، وللتكفير عن زلاته ، ولكي يظفر بمكان في جنة الله ، وللقبر المقدس وسدنته وخدمه . ويخصص الثاني للفقراء وفرسان الاسبتارية ببيت المقدس . والثالث لفرسان المبد (الداوية) باعتبارهم حماة النصرانية في معبد المسيح^(١) .

(١) كان فرسان المبد وفرسان الاسبتارية من أشهر جماعات الفرسان الدينية التي قامت في العصور الوسطى في بداية الحروب الصليبية . والجماعة الأولى هي التي تعرف في الرواية الإسلامية بجماعة « الداوية » وقد أنشئت سنة ١١١٩ م في بيت المقدس عقب سقوطه في يد الفرنج الصليبيين لحماية الحاج إلى قبر المسيح وأفرد لهم ملك بيت المقدس جناحاً في قصره ثم سلم إليهم المبد المجاور له ، ومنه اشتقوا اسمهم « فرسان المبد » Templars ونمت هذه

ولكن الأرجونيين والنافاريين أبوا احترام وصية ترى إلى التصرف في مملكتهم ، ولم يؤخذ رأيهم فيها ، ورأوا من حقهم ، ماداموا قد ساهموا في افتتاح المملكة أن يشتركوا في اختيار ملكها الجديد . وقد أجمعوا على أن يرفضوا سيادة قشتالة ؛ ذلك أن سانشو ريمونديز كان بوسمه أن يدعى ملك أراجون باعتباره سليل سانشو الكبير من ناحية أمه . ولكن الروح القومية كانت قد بدأت تنمو في الممالك الإسبانية المختلفة . وكان الأرجونيون والنافاريون يخشون أن يستبد القشتاليون بهم ، وأن يقضوا على حرياتهم وشرائعهم الخاصة كما عمد ملكهم ألفونسو المحارب أيضاً إلى الانتقاص من امتيازات القشتاليين ، ومن ثم فقد بدأوا باختيار طائفة من الولاة للدفاع عن البلاد والإشراف على إقامة العدل ؛ ثم اجتمع في « جاقا » ممثلو مملكة أراجون بطبقاتها الثلاث ، أعنى رجال الدين ، والأشراف ، ونواب الشعب ، لكي يقرروا اختيار الملك الجديد ؛ وكان الرأي متجهاً في البداية إلى اختيار الدون بيدرو أناريس ، وهو سليل غير شرعي للملك راميرو الأول ، ولكن حال دون ذلك وافر غطرسته ؛ وعندئذ اجتمعت الآراء حول اختيار راميرو أخى الملك المتوفى ، وكان قد انتظم في سلك الكهنوت قبل ذلك بأكثر من أربعين عاماً ، وعاش راهباً ثم أسقفاً . ولكن النافاريين لم يوافقوا على هذا الاختيار ، فانفصلوا عن الأرجونيين ونادوا في بنبلونة بجارسيا راميريز حفيد الملك سانشو الذى قتل في بنبالين سنة ١٠٧٦ م ملكاً عليهم . وهكذا انشطرت إسبانيا النصرانية من جديد إلى ممالك عدة ، ولم يستطع ملك قشتالة ألفونسو ريمونديز أن يحقق نوعاً من الوحدة بين ممالك المتنافسة ، إلا بشق النفس وبالاعتماد على تفوقه .

== الجماعة بسرعة ، واشتد ساعدها بمن انضم إليها من الفرسان النصارى من جميع الأمم ، ولعبت أدواراً هامة في حوادث الحروب الصليبية واستمرت قائمة عصوراً . والاستبصارية وهم بالأفريقية Hospitallers أيضاً جماعة دينية من الفرسان ، أنشئت عقب قيام الجماعة الأولى ، وخاضت أيضاً حوادث الحرب الصليبية ، ولكنها كانت أضعف شأنًا من جماعة « الداوية » .

الكتاب الثالث

اضمحلال سيادة المرابطين

في عصر القيصر ألفونسو ريمونديز

وقيام مملكة البرتغال

الفصل الأول

نهوض مملكة قشتالة

في عصر ألفونسو ريمونديز

(سنة ١١٢٦ - ١١٤٤ م) - (٥٢٠ - ٥٣٨ هـ)

١ - حروب ألفونسو السابع ضد المسلمين

كان لسانشو الأول ملك البشكنس (نافارا) الكبير الذى جمع سلطان اسبانيا النصرانية (عدا قطلونية) فى أسرته عقب من الملوك الأبطال ، وكان هؤلاء حلقة من أكبر الحكام - ولده فرديناند الأول ، لحفيده ألفونسو السادس ، فولد حفيده ألفونسو المحارب - أبدوا جميعاً أنهم خليقون بأبيهم العظيم ، وضربوا مثلاً نادراً من القوة فى هذه الأسرة لم يبد فيها منذ بعيد ؛ وكانت هذه الذرية الملوكية التى حاربت فيما بينها بقدر ما حاربت أعداء دينها عندئذ على وشك الانقراض ؛ ففى أراجون لم يك ثمت سوى راهب ضعيف رفع إلى العرش دون أن يعرف ميدان الحرب . وفى نافارا ولى العرش أمير فاريزم أنه حفيد لسانشو الرابع ، أو حفيد لحفيد لسانشو الكبير . أما فى قشتالة فقد انقرض عقب ألفونسو السادس من الدكور ، ولكن ابنته أوراكارزقت من زوجها الأول الكونت ريمونديز البرجونى ولدأ هو ألفونسو الذى قدر له أن يستعيد بأعماله عظيمة أجداده لأمه ، وأن يكافح أيما كفاح ليقضى على تفرق اسبانيا النصرانية ويعيد إليها وحدتها .

وقد قضى طيلة حكمه في محاربة المسلمين والنصارى بلا انقطاع ، وشب منذ طفولته تحت قمعة السلاح ، فلم يعرف غير الحروب والمواقع ؛ وكان هدفاً لنفوذ الأحزاب ، ولكنه لم يفتن مدى أعوام طويلة إلى الهجمات والمكائد الظاهرة والخفية التي كان يدبرها من حوله ، أشرف ناثرون وأم آئمة وزوج أم يضمهره البغضاء . وكان فريسة لشهوات الحكم والطموح ، تتجاذبه بعنف ؛ فعين في السادسة من عمره ملكاً على جليقية ، وحكم في الثانية عشرة جزءاً من ليون ، ولم يمض عام حتى دخل طليطلة وغداً ملكاً على قشتالة . وكانت أمه عندئذ تنازعه الحكم ثم نازعه من بعدها زوج أمه ولكنه انتصر في ذلك النضال ؛ ثم انتزع الموت أمه من ميدان الحرب ، وعندئذ توج سيد قشتالة في ليون عاصمة إسبانيا النصرانية القديمة ملكاً على يد مطران شنت ياقب (سنة ١١٢٦) . وكان منذ استولى على طليطلة في حرب دائمة مع المسلمين ، فلم يكن يمضى عام حتى يغزو المسلمون أراضى قشتالة أو يغزو النصارى أراضى الأندلس ؛ ومنذ اضمحلت قوة المرابطين من جراء ثورة الموحدين في إفريقية ، وتوفي أميرهم أبو الطاهر تميم بن تاشفين الذي كان يسير شؤون الأندلس المضطربة بذكاء ومقدرة ، (وكانت وفاته سنة ٥٢٠ هـ - ١١٢٦ م)^(١) أقل نجم الدولة الإسبانية في إسبانيا . وكان البغض الذي يكنه أهل الأندلس وبنو هود للمرابطين والذي كان يذكيه طموح الولاة القساة وعسفهم يوماً بعد يوم ، عوناً للملك ألفونسو ريمونديز على أن يحارب المسلمين بنجاح بالرغم مما كان يسود مملكته من الاضطراب ، وما كان بينه وبين جاره ملك أراجون من الخصومات ؛ كذلك كان يعاونه روح القشتاليين الحربي في ذلك أيما عون ، وكان قد عاد منذ وفاة أوراكا يتبوأ المقام الأول بين شعوب الجزيرة . وكان ملك قشتالة يعرف كيف يذكي عوامل التفرق بين أعدائه في كثير من الدهاء ؛ فهو قد بعث بسيف الدولة (وتسميه الرواية النصرانية (Zafadula) آخر بنى هود حينما شدد المرابطون عليه الضغط إلى ولاية طليطلة ، وأقطعه هناك

(١) روض القرطاس ص ١٠٦ .

أراضى واسعة ، ولكنه اضطر أن ينزل إلى ملك قشتالة عن قلاعه النيمة ومنها حصن روطة ، وبها حصلت قشتالة على حدود ثابتة بينها وبين أراجون . وفي نفس الوقت (سنة ١١٣١ م) أرسل على بن يوسف سلطان المرابطين إلى الأندلس بقيادة ولده تاشفين جيشاً ضخماً تقدره بعض الروايات العربية المفرقة بخمسة ألف مقاتل^(١) ، فقصده إلى طليطلة عاصمة قشتالة معتمداً حصارها ، ولكن هذه الحملة كانت عقياً كسابقاتها ، ولم تسفر إلا عن التخريب المروع وسبى العدد الجم . وسارت قوات القشتاليين من سقوية وآبله وعدة مدن أخرى خلال جبل الشارات (سييرا مورينا) صوب قرطبة لتسترد من المسلمين الغنائم والأسلاب ، فألفت نفسها فجأة بعد أن تقدمت دون تحوط وقد احتاط بها جيش تاشفين الضخم ؛ ولكن فداحة الخطر أذكت شجاعة القشتاليين وجهودهم ، ونشبت بين الفريقين معركة ليلية استطاع فيها القشتاليون أن يحطموا نطاق العدو ، وأن يوقعوا به الهزيمة ويلجئوه إلى الفرار ، وأن يستردوا منه عند المطاردة معظم الأسلاب والغنائم . على أن هذه الهزيمة لم تخف تاشفين ، فعاد في العام التالي إلى أراضى قشتالة يشحن فيها . بيد أنه كان عندئذ أشد تحوطاً ، إذ ارتد إلى الأندلس قبل أن يلحق به ملك قشتالة بقواته ، وعاد سالماً بغنائمه .

واعتمزم النصارى الانتقام لهذه الغزوة المخيبة ، فسار رودريك دى لارا حاكم طليطلة على رأس جيش ضخم إلى بطليوس ومنها إلى إشبيلية . واحتذى النصارى حذو أعدائهم قسوة وعيثاً ، ثم ارتدوا مثقلين بالغنائم والأسلاب ؛ فحاول عمر والى إشبيلية أن يقطع عليهم خط العودة ؛ ولكن النصارى وضعوا خططا حسنة للدفاع ، وهزم المسلمون بعد عدة معارك حامية ، وطوردوا حتى ظاهر إشبيلية ، وقتل قائدهم عمر في الموقعة ، وعاد رودريك ظافراً إلى طليطلة ، وقد شجعتهم

(١) في هذه الرواية تحريف ظاهر ، فالمؤلف ينقل هذه الرواية عن كوندى (راجع الهامش في ص ٤٠٨ من الكتاب) والرواية العربية التي نقل عنها كوندى تقول إن تاشفين عبر إلى الأندلس في خمسة آلاف فارس (لا خمسة ألف) وهناك حشد قوات الأندلس ، والظاهر أن الأمر يتعلق هنا بخطأ في النقل (راجع روض القرطاس ص ١٠٦) .

الفنائم المكسوبة على تكرار هذه الغزوات .

وشجع ظفر رودريك أهل شلمنقة فانطلقوا إلى بطليوس دون تحوط ، أملأ في تحصيل الفنائم حتى وصلوا إلى مقربة من مكان موقعة الزلاقة الشهيرة التي تثير في نفوس النصارى ذكريات محزنة . وأراد تاشفين أن يحدو مثل جده المجيد يوسف ، فانقض على المفيرين انقضاض الصاعقة ، وكاد النصارى يسحقون على الأثر لولا دخول الظلام . على أنها كانت مهلة قصيرة فقط ، ولم ينقذهم ما لجأوا إليه في سبيل إنقاذ أنفسهم من القسوة بقتل الأسرى الكثيرين ، وطوقهم الفرسان المسلمون طوال الليل ، ثم أمعنوا فيهم قتلا انتقاما لآخوانهم المقتولين ؛ وحزت هذه النكبة في نفس ألفونسو ، فلم يشأ أن يتركها دون انتقام ؛ فقام بتجهيزات حربية عظيمة في أراضى قشتالة استعداداً لغزو الأندلس . وكان الأمير تاشفين قد قام بغزوة جديدة في ولاية طليطلة (سنة ١١٣٣ م - ٥٢٧ هـ) ، فارتد عند اقتراب النصارى مسرعا إلى الأندلس ، معولا على لقاء عدوه القوى وراء الأسوار والحصون ؛ وسار ملك قشتالة إلى الأندلس مع صديقه سيف الدولة (ابن هود) في جيشين في وقت واحد ، واجتمع الجيشان على مقربة من قرطبة بعد خمسة عشر يوما من السير الشاق في مفاوز جبل الشارات (سيرامورينا) الوعرة . وأثنى النصارى في الحقول والحدائق والقرى وفي الناس والدواب ؛ وانتسفوا مروج الوادي الكبير الخضراء ، وأضرمو النار في القرى والبقاع ، وهدموا المساجد ، وأحرقوا المصاحف ، واستاقوا الدواب ، وسبوا الأطفال والنساء ، وقتلوا الرجال ، وعذبوا الفقهاء ، حتى الموت ؛ ولم يكن ذلك كله سوى انتقام لما ارتكب المسلمون في قشتالة من الفظائع . وامتد هذا العيث الذي كانت تقوم به في مختلف الأنحاء سرقات خفيفة من الفرسان فيما بين قرطبة وإشبيلية ؛ وبعد محاولة خائبة قامت بها جماعة طائشة من الفرسان في شبه جزيرة ليون التي تقع بها قادس ارتد ألفونسو أدراجة صوب طليطلة ، وهنا انقض تاشفين على الجيش القشتالي فجأة أملأ في أن يوقع به هزيمة كالتى أوقعها بأهل شلمنقة ،

واشتبك معه في معركة . بيد أنه هزم هزيمة شديدة . ولم ينقذ فلول المسلمين من مطاردة النصارى سوى التجأهم إلى قلاع إشبيلية القريبة ؛ وهكذا عاد النصارى إلى وطنهم دون عائق أو مهاجم ، وهم يبشون الزوع في طريقهم بين المسلمين الذين هزتهم هزيمة تاشفين ، فأقبلوا يلتمسون الأمان من النصارى على أن يدفعوا لهم الجزية .

واستغرق اهتمام ملك قشتالة ما وقع في اسبانيا النصرانية من الحوادث على أثر موت ألفونسو ملك أراجون ، فلم يتمكن في الأعوام التالية (حتى سنة ١١٣٨) من السير بنفسه إلى مقاتلة المسلمين ، وترك قيادة هذه الحملات إلى نفر من القواد البارعين يغيرون تارة على أراضي الأندلس ، وتارة يدفعون العدو عن حصون الحدود في قشتالة واستریمادورة . ولم تقع في تلك الفترة فتوح ذات شأن ؛ والظاهر أن الفريقين تعادلا فيما حقق كل منهما من منافع وأصاب من خسائر ؛ وكان رودريك فرنانديز حاكم طليطلة ، ومونيو ألفونسيز حاكم مورة يحاربان باستمرار والي قرطبة وإشبيلية ؛ وبينما كان جيش من النصارى يعيث في الأراضي الإسلامية على ضفاف وادي يانه ، كان المسلمون يعيثون في أراضي طليطلة ، واستمرت الحرب سجالا بين الفريقين حتى غدا ألفونسو ريمونديز بعد أن انتهى من تنظيم شؤون اسبانيا النصرانية أقوى وأقدر على محاربة أعداء دينه .

٢ — الإمبراطورية الاسبانية

والأراضي التابعة لها : نافارا وأراجون وقطلونية

أحدث موت ألفونسو ملك أراجون تغييراً عظيماً في شؤون الممالك النصرانية ، ولم يعبأ الأرجونيون بوصية ملكهم المتوفى فرفعوا إلى العرش أخاه راميرو الثاني ؛ ولم ير النافاريون في ولاية راهب أو أسقف ما يحقق سلامتهم ، ولم ينسوا أنهم كانوا من قبل شعباً مستقلاً ذا ملك خاص ، فرفعوا إلى العرش جارسيا راميريز سليل ملوكهم القدماء ، وانفصلوا بذلك عن أراجون .

وانتهز ريموند برنجار الرابع أمير برشلونة فرصة انقسام جارتة القوية ، فعمل ببراعة على أن تحتل إمارته مركزاً هاماً بين الممالك الاسبانية . وكان أبوه ريموند برنجار الثالث (الذى حكم من سنة ١٠٩٢ - ١١٣٠ م) قد عمل أثناء حكمه مدى تسعة وثلاثين عاماً كثيراً لتوسيع الإمارة . وكان في حروبه ضد المرابطين — حيث كان يشتبك دائماً مع قوى تفوقه — يبدى ضروباً بدیعة من الفروسية والجرأة ، ولو أنه لم يحصل من وراء ذلك على منافع باقية . ذلك أن جزيرة ميورقة التى افتتحها بالتعاون مع البيزيين (سنة ١١١٥ م) فقدت غير بعيد . ثم إن الحرب الصليبية التى شهرها بعد ذلك بقليل ، بإشارة البابا كالكستوس الثانى ضد مسلمى طرطوشة ولارة وافراغة ، لم تسفر عن نتائج ذات شأن بالرغم من خضوع هذه المدن لأداء الجزية . أما المشروع الضخم الذى نظمه مع رجار (روجر) ملك صقلية والجنوبيين فلم يتح تنفيذه ، إذ شغل الجنويون بقتال البيزيين ولم يتمكنوا من الوفاء بعهودهم ، واضطر ريموند برنجار الثالث أن يقنع ببقاء حدود ولايته بأمن من غزوات المرابطين . على أن الإمارة استطاعت أن توسع حدودها فيما وراء البرنيسه فى جنوب فرنسا . وكان ريموند برنجار الأول قد استولى على جزء كبير من ولاية لانجدوك ، وضمت مدينتا قرقشونة ورازيه إلى قطلونية ، وحافظ ريموند الثالث عليهما من هجمات جيرانهما الأقوياء ووضع يده على ولايتي فزالو وشرطانية^(١) بالاعتماد على الوراثة ، واستولى بواسطة زواجه من السكونتة الثرية دولشييه (سنة ١١١٣ م) على ولايتي بروفانس وكيفودون كارلاد وجزء من روفرنى ، وعدة بقاع أخرى فى لانجدوك ؛ وتلقب من ذلك الحين « بمرجراف برشلونة واسبانيا ، وكونت فزالو وروفانس » .

وثار بينه وبين السكونت دى تولوز نزاع من أجل بروفانس انتهى بعقد معاهدة إرث وتقسيم (سنة ١١٢٥ م) قسمت بمقتضاها الولاية بينهما على أن يرث كل منهما نصيب الآخر إذا انقطع عقبه .

(١) شرطانية هو الاسم العربى لولاية Cerdagne .

ولم يظهر ريموند الثالث فقط بفروسيته ، ولكنه ظهر أيضاً بتقواه ، وهي صفة كانت دائماً من لوازم الفروسية الحق . ولم يقتصر على مقاتلة أعداء دينه في مواقع عديدة ، ولكنه وضع أيضاً بلاده تحت حماية البابا ، وقرر للكرسي الرسولي إتاوة سنوية ، وأغدق رعايته على رجال الدين . وفي أواخر أيامه انتظم في سلك « فرسان المعبد » (الداوية)^(١) ، ووهب نفسه لله في سبيل مقاتلة أعداء الدين . ولكن الموت عاجله ولم يتح له أن يفي بنذره (سنة ١١٣١ م) ، وأوصى ولده الأكبر ريموند برنجار الرابع بولاية برشلونة وفزالو وشرطانية وقرقشونة ورازيه ؛ وتلقى ولده الثاني برنجار ريموند باقى أملاكه الفرنسية ، وأمهما ولاية بروفانس .

وتلقى ريموند الرابع حب « فرسان المعبد » عن أبيه ، وأغدق عليهم كثيراً من رعايته ، وطلب إلى كبيرهم بيت المقدس أن يرسل عدداً منهم إلى قطلونية ، وأسس أول دير في اسبانيا لهذه الطائفة ، ووهبها كثيراً من الأملاك والحقوق والمزايا . وسرعان ما ظهرت معاونة « الفرسان » القيمة وشجاعتهم في محاربة أعداء الدين ، وفي ذلك ما يفسر كون ألفونسو ملك أراجون قد أوصى بملكته كلها لفرسان بيت المقدس . ومع أن الوصية لم تنفذ ولم يستول الفرسان على المملكة ، فإن راميرو الثاني وهو من رجال الدين وهب هؤلاء الفرسان في أراجون من الأملاك والحقوق ما لم يفوزوا به يومئذ في أى بلد أوروبى آخر . وكانت سياسة ريموند الرابع ترمى إلى التفاهم مع قشتالة باعتبارها كبرى الدول الاسبانية ، ولكى يستطيع بمعاونتها أن يوسع أملاكه على الأيبرو وفي البرنيه ؛ فلما عمده ألفونسو ريمونديز على أثر موت ملك أراجون ، إلى غزو ولايات الأيبرو واستولى على نيجيرا وقلهرّة وطرّة كونة وسرقسطة ذاتها ، وشهر الحرب بذلك على مملكته أراجون وناقارا ، سعى الكونت ريموند والكونت دى تولوز إلى لقائه في سرقسطة ، ووعداه بالمعاونة في محاربة أراجون ، وأقسما

(١) راجع الهامش الخامس بذلك فى ص ١٧٥ .

له يمين الخنوع . وكان زواج أخت ريموند برنجار من ملك قشتالة (منذ سنة ١١٢٨) عاملا في تقوية أواصر الصداقة بينهما .

ولما آانس ملكا أراجون ونافارا روعة الخطر الداهم آثرا أن يحتفظا بشيء من السلطان على أن يخوضا حربا لا يقويان على خوضها ؛ ومن ثم فقد نزل راميرو الثانى إلى ملك قشتالة عن سرقسطة ، وردت بذلك حدود أراجون إلى مهادها القديم فى جبال ريبياجرسيا ؛ وارتضى جارسيا ملك نافارا أن يحكم مملكته باسم ملك قشتالة . كذلك شعر الكونت هنريكز أمير البرتغال بالرغم مما كان يتمتع به من الاستقلال اقتداء بأمه تيريزا ، أنه لا يستطيع مغالبة قشتالة ، ومن ثم فقد عمد فى الوقت المناسب إلى الاعتراف بدعوى ألفونسو فى السيادة على البرتغال . وهكذا بسط ملك قشتالة سلطانه على جميع أراضى اسبانيا النصرانية ، وهو ما لم يفز به ملك آخر من قبل . ولم يكن لقب « الملك » يكنى للإعراب عن صولة ملك يسود ملوكا وأمرءا ؛ وكان لقب « القيصر » الذى آتخذه من قبل اثنان من ملوك قشتالة ، وألفونسو ملك أراجون ، أصلح وأكثر ملاءمة لما كان يتمتع به ألفونسو ريمونديز من سلطان على اسبانيا النصرانية كلها . فى اجتماع عقد فى ليون (فى ١٠ يونيه سنة ١١٣٥) وشهده الملكة برنجاريا ، وسانشا أخت الملك ، وملك نافارا ، وسفراء قطلونية وأراجون والبرتغال ، وأكابر الأشراف ورجال الدين من جميع أنحاء قشتالة ، أعلن ألفونسو ريمونديز « قيصرآ » لاسبانيا . وقاده أشراف المملكة من القصر الملكى إلى الكنيسة الكبرى حيث كان رئيس الكنيسة الاسبانية ريموند مطران طليطلة وجميع الأحرار فى انتظاره . وهناك قاده المطران إلى الهيكل ووضع التاج على رأسه والصولجان فى يده ؛ وكان عن يمينه جارسيا ملك نافارا ، وعن يساره أسقف ليون يمسان بالتاج ؛ وفى نهاية الحفل قاد الأحرار الملك إلى قصره ، حيث تولى الأشراف خدمته على السباط . وقد اشتهر مجلس ليون هذا بما صدر فيه من قرارات كان أهمها بلا ريب قرار سبق آتخاذه فى اجتماع ليون فى سنة ١١٢٦ ، وهو يقضى بأن تطبق القوانين

والحقوق البلدية Buenos fueros في جميع أنحاء قشتالة والولايات التابعة لها ، وهي القوانين والحقوق التي كانت قائمة في عصر الملك ألفونسو السادس ؛ وترتب على هذا القرار إلغاء كثير من التصرفات في أراجون ، وإلغاء بعض الامتيازات التي انتزعها بعض الأشراف لأنفسهم دون حق ؛ كذلك أعيد إلى الكنائس والأديار ما نزع منها خلال الحرب الأهلية من الامتيازات ، وتقرر إصلاح الأماكن الخربة ، وغرس الحقول الدارسة توفيراً للعمران والرفاهة ، وأنشئ من سكان الحدود نوع من الجند الاحتياطي يحشد فيه كل رجل قادر على السلاح ، وذلك للعمل على رد غارات المسلمين ؛ وحقت خطوة كبيرة في سبيل المساواة بين الطبقات بإصدار قانون يحتم عقاب كل مجرم ، مهما كان شخصه ومقامه . ولكن الحوادث دلت على أن القوانين الحسنة لا تكفي لإسعاد الأمة ما لم يكن لدى الحكومة من العزم والقوة ما يكفي لتطبيقها ؛ ولم يك ممكناً في معظم الأحيان أن تطبق على الأشراف ذوى الجراءة والقوة دون حرب أهلية ؛ وكان تشبه السادة التابعين بالأمرء يحقق لهم الإفلات من العقاب على أشد الجرائم ؛ وفي عصر كان يسود فيه حكم القوة كان إذعان الفرد متوقفاً على مقدار ما يمكن أن يبذله الأقوى لإرغامه من وسائل القوة والعنف . وإنه ل يبدو من المدهش في عصر كانت فيه الجريمة الحقيقية تفرض لها عقوبات ضئيلة ، أو لا يعاقب عليها أصلاً ، أن تسن عقوبات صارمة لجرائم خيالية ؛ فمثلاً كانت سيادة الخرافة تقضى في كل عصر بأن تسن عقوبة الموت ضد السحرة والعرافين ومفسدى الجو^(١) .

وجنح الأمرء النصارى في الأعوام الأولى لتتويج ألفونسو قيصرًا على إسبانيا إلى الخضوع والطاعة ، ولكنهم لما آنسوا قوتهم ، وأجمعوا أمرهم ، أخذوا يحاولون تحطيم نير التبعية الثقيل ، وتحقيق استقلالهم من جديد ؛ ولم يبق

(١) هم طائفة من « السحرة » في المصور الوسطى ، كانت تنزى إليهم القدرة على إفساد الجو ، وإثارة العواصف والأنواء والأمطار ؛ وما زال أثر هذه الخرافة باقياً في بعض المجتمعات الأوروبية المتأخرة ، ولا سيما الفلاحين .

على ولائه منهم سوى أمير قطلونية نظراً لمصاهرته للقيصر ، وهو مع ذلك يؤمل أن يكون أكثرهم غنا .

وقدّم أسباب الحرب الأولى راميرو الثانى ملك أراجون ؛ وكان راميرو بالرغم من سنه ، وكونه كان من رجال الدين ، قد تزوج بموافقة البابا بابنة جيوم التاسع دوق أكويتين ، وأعقب منها ابنة تدعى بترونيلا ؛ وكان أكثر اهتماما بشؤون طائفته القديمة وتخصيص الهبات للكنائس والأديار منه بجهام الحكم . وبذا خسر حب شعبه وولائه . وكانت موافقته على أن يزوج ابنته من سانشو ولى عهد قشتالة — وهو مشروع قديهدد استقلال أراجون — مشار معارضة شديدة من الكبراء ؛ وفى بعض الروايات القديمة أن نفرأ من هؤلاء الكبراء المجتمعين فى وشقة قد قتلوا بأمر راميرو لهذا السبب أو غيره ، وهى رواية يحيق بها الشك نظراً لما اتصف به راميرو من ضعف فى الخلق والعزم . وكان ملك نافارا يطمح إلى اعتلاء عرش أراجون بعد وفاة راميرو ، ولكنه استشاط غضباً حينما علم أن بترونيلا اختيرت وارثة للعرش ، مع أنه تقرر وفقاً لترتيب وضع قبل أن يرزق راميرو بابنته ، أن يؤول عرش أراجون إلى نافارا ؛ والظاهر أن القيصر ألفونسو نفسه كان قد وعد ملك نافارا بذلك وكفل تحقيقه .

ولكن تطور الأمور على هذا النحو وضع ملك نافارا فى مأزق شديد الحرج ، فهو قد حصر من الحانين بين مملكتين قويتين تعزمان اقتسام مملكته . بيد أنه أبدى همة وحزماً ، واستطاع أن يجنى من وعودة أرضه ، فى النضال أعظم الفوائد . وألقى حليفاً مخلصاً فى أمير البرتغال ألفونسو هنريكيذ الذى كان يخشى قشتالة ويحتمل سيادتها على مضض . وفى سنة ١١٣٦ نشبت الحرب فى وقت واحد على ضفاف نهري إيبرو ومنهو^(١) ، فزحف القيصر ألفونسو على نافارا بجيش ضخم ، وأثنى فى البسائط وحاصر القلاع ، وبدأ كأن النصر يحالفه ، ولكنه لم يغنم شيئاً ، لأنه لم يفتتح الحصون ؛ ثم جاءت الأنباء بتقدم القوات

(١) نهر فى شمال البرتغال .

البرتغالية في جليقية ، فاضطر أن يسير إلى الناحية الأخرى من مملكته ، وأن ينسحب من الأراضي النافارية حتى لا يفقد جليقية ؛ وفي الوقت نفسه كان المسلمون يهددون حدود قشتالة الجنوبية ؛ وهكذا استطاعت نافارا أن تنجو من الخطر الداهم .

وبينما كان القيصر يسير تارة لمحاربة المسلمين ، وأخرى لمحاربة البرتغاليين ، إذا بالحوادث في أراجون تتطور لصالح قشتالة ، بالرغم من كون غزوها لنافارا لم يسفر عن فتوح ثابتة ؛ ذلك أن راميرو الثاني لم يستطع على تقشفه واعتداله أن يكسب حب شعبه ، وبالعكس فإن فريقاً من الشعب كان ييغضه لأنه تزوج بالرغم من انتمائه لرجال الدين ، ويغضه فريق آخر لأنه عاطل عن الصفات الحربية . وأخيراً غلب عليه ضعف الشيخوخة وعادته القديمة في حب العزلة ، فاعتزم أن يختار لابنته بترونيلا زوجاً يضطلع بدوره بأعباء الحكم ، ثم ينسحب هوناً من الملك ؛ ودعا بموافقة القيصر أو إيمازه ممثلي أراجون إلى اجتماع عقد في برشتر لبحث هذا الموضوع ، واستقر الرأي بالإجماع على اختيار الكونت ريموند برنجار الرابع أمير قطلونية ليكون زوجاً للأميرة لما اتصف به من رفيع المواهب والخلال ؛ فرحب الكونت ريموند بأن يغدو زوجاً لوارثته مملكة ، وذلك بالرغم من أن الأميرة لم تكن قد تجاوزت الثانية من عمرها ، واشترط في الخطبة أنه إذا توفيت بترونيلا قبل عقد الزواج ، فإن خطيبها يرث عرش أراجون بعد وفاة راميرو الثاني ؛ وفي الحال تولى الكونت زمام الحكم باعتباره وصياً ، ولم يغير مع ذلك لقبه ، مؤثراً أن يبقى كونتاً قوياً على أن يغدو ملكاً ثانوياً ؛ ولعل ذلك مرجعه أن راميرو الثاني لبث محتفظاً بلقبه الملوكي ، وذلك بالرغم من أنه التجأ إلى سكوت الدير (سنة ١١٣٧ م) واعتزل كل شؤون الحكم ، وعاش بعد ذلك زهاء عشرة أعوام حتى سنة ١١٤٧ ، وربما أيضاً حتى سنة ١١٥٥ . ولما توفي راميرو تلتقت بترونيلا باللقاب الملك ، وشاطرت زوجها الحكم في أراجون ، ولكنها لم تشاركه في اللقب . ولم تتحد قطلونية وأراجون في مملكة واحدة إلا في ظل عقب

ريموند وبترونيلا ، واحتفظت مع ذلك كل منهما بقوانينها وأنظمتها السابقة ؛ وتبوأ قطلونية في البداية مركز الرياسة نظراً لتجارتها الغنية ، وذلك بالرغم من مشول اسم أراجون في المملكة المتحدة .

ولم يتردد القيصر في أن يؤيد ارتقاء صهره الملك بالاعتراف به وإقراره ؛ ولعله قد عمل سرا لتنظيم هذا المشروع وتنفيذه ؛ وسار ريموند برنجار إلى لقاء ألفونسو ريمونديز في «كاربون» ، ووافق ألفونسو على تصرفات راميرو باعتباره صاحب السيادة عليه ، وقدم دليلاً على جوده وصداقته بأن نزل للوصى على أراجون عن جميع القلاع الواقعة على نهر إيبرو ؛ ومنها سرقسطة التي كان يحتلها حتى ذلك الحين ؛ وأقسم ريموند من جانبه بيمين الطاعة لألفونسو ، وتعهد بأن يمدّه في جميع الحروب التي يخوضها بقوى أراجون وقطلونية ولا ينجذوك .

وكان من صالح الملكين أن يحاربا عدوهما المشترك جارسيا ملك نافارا ، وكان ريموند برنجار يرى أن هذه المملكة يجب أن تؤوّل إلى أراجون . وكان القيصر ينقم على ملك نافارا أنه خرج عليه بعد أن أقسم في البداية بيمين الخضوع له ، وأنه تحالف مع أمير البرتغال الخارج على سلطانه ؛ ولما كان يتعذر على أراجون وحدها أن تحارب نافارا بنجاح ، فقد رأى القيصر أن يسير بنفسه إلى نافارا عن طريق الأيبرو في جيش ضخم ، بينما زحف ريموند برنجار في نفس الوقت في جيشه من الجنوب لكي يشدد الضغط على المملكة الصغيرة ؛ وبدا عندئذ أنه يتعذر على الملك جارسيا أن يقاوم طويلاً ، ولكن أحكم الخطط قد يفسدها حادث طارىء . أجل استطاع القيصر أن يخترق نافارا ظافراً (سنة ١١٣٩) ، وأن يصل إلى عاصمتها بنبلونة دون كبير مقاومة ، وأن يضرب حولها الحصار في الحال ؛ ولكن الجيش الأرجوني الذي كان مقرراً أن يلحق بالقيصر تحت أسوار بنبلونة عاقته خطط الملك جارسيا البارعة عن بلوغ هذه الغاية ، وجعلته في مأزق حرج ، واستطاع النافاريون أن يوقعوا به هزيمة شديدة ؛ وكان جارسيا أحرص من أن يحمله حسن طالع على أن يحاول بقواته الضئيلة لقاء القيصر في قواته الضخمة ،

فاكتفى بأن يلتزم خطة الدفاع ، وأن ينهك بذلك قوى خصومه ، وانتهى بيلوغ
الغاية المنشودة ؛ إذ غادرت قوى العدو أراضيه دون أن تقوم فيها بأى فتح يذكر .
وارتد الحليفان عند دخول الشتاء يغمرها الخجل ، وهما يمتزمان نحو عار هذه
الحملة الفاشلة فى العام التالى باحراز نصر باهر .

وعند بدء الحرب فى العام التالى تطورت الحوادث السياسية ، فسمى ملك
نافارا الفطن لدى رجال الدين ، وكذلك لدى الكونت دى تولوز الذى جاء حاجا
إلى شنت ياقب ، للتدخل فى عقد الصلح ؛ وكان حليف نافارا المخلص ألفونسو
هنريكز الذى تلقب قبل ذلك بقليل بملك البرتغال قد روعته نتائج الحرب مع
قشتالة ، وشغلته غارات المسلمين ، فلم يك بوسعه أن يشد أزر الملك جارسيا . فلما
سار القيصر ألفونسو فى ربيع سنة ١١٤٠م لمحاربة نافارا للمرة الثانية ، واتجه نحو
قلعة ، وسار ريموند برنجار فى نفس الوقت بقوات أراجون وقطالونية وهو
يضطرم شوقا إلى الانتقام لمزيمته ، ألقى جارسيا بقضيته الخاسرة إلى رجال الدين ؛
واستطاع هؤلاء أن يحملوا القيصر باسم السلام على وقف الحرب ، ولكن
جارسيا اضطر للاحتفاظ بمرشه أن يعود فيعترف بسيادة القيصر ؛ ورؤى لتوطيد
السلام والصداقة بينهما أن يعقد زواج أكبر أولاد القيصر ولى المهد سانشو
والدونا سانشا ولىة عهد نافارا ؛ وهكذا سوى النزاع بين قشتالة ونافارا . ولكن
ذلك لم يكن ليرضى أراجون ، إذ كانت ماتزال تتطلع إلى عرش نافارا وتربص
الفرص لتحقيق أمنيتها بالسيف ؛ ونقم الأرجونيون على القيصر أنه لم يحسب
حسابا لتحالفه مع أراجون وعقد الصلح بمفرده مع العدو المشترك ؛ وبينما كان
ألفونسو مشغولا بقتال المسلمين نشبت الحرب بين نافارا وأراجون ، وبدأت
الوقائع بينهما سجلا ، ثم رجحت كفة جارسيا ، واستولى على مدينة طركونة
(سنة ١١٤٣) . فمندئذ اهتم القيصر بالأمر ، سيما وقد أبدى ملك نافارا الذى
غره الظفر أنه يبني خلع سيادة قشتالة . وشهر ألفونسو الحرب على نافارا ،
وزحف مع ريموند برنجار إلى الأيبرو لقتال العدو المشترك . وهنا تذرع جارسيا

بالحكمة وبإدراك التسليم اتقاء العاصفة ، ووعد بوقف الحرب ضد أراجون ، وأعاد إليها الأمان المفتوحة ووجد عهد الخضوع للقيصر . ولما كانت زوجته الملكة صرغريتا قد توفيت منذ أعوام ، فقد رأى توطيد هذا الصلح بتوثيق روابط الأسرتين ، وذلك بزواج جارسيا من الدونا أوركا ابنة القيصر غير الشرعية ، واحتفل بمقد هذا الزواج في ليون في ٢٤ يونيو سنة ١١٤٤ في حفلات باذخة ضمت جميع ضروب اللهو الشائعة التي كانت معروفة في ذلك العصر من موسيقى ومبارزات ومصارعات وغيرها ، وشهدا القيصر وأعضاء الأسرة الملكية وأشرف قشتالة ونافار . وما كادت هذه الحفلات تنتهي حتى أخذ القيصر وأتباعه في التفكير في أمر الحرب التي يجب أن يشهروها معاً ضد المسلمين .

٢ — حروب النصارى الأسبان ضد المرابطين

منذ وفاة ألفونسو الأرجوني حتى بداية اضمحلال سلطان المرابطين

في الأعوام الأولى التي تلت موت ألفونسو المحارب ، شغل الأمراء النصارى بشؤونهم الداخلية ، ولم يستطيعوا القيام بغزوات ذات شأن في الولايات الإسلامية بل اكتفوا بأن عهدوا إلى حكام الحصون الواقعة على الحدود برد غارات المسلمين ؛ فلما انتهى القيصر من تهدئة أسبانيا النصرانية ، وخضع له جميع الأمراء عاد فساد بنفسه في سنة ١١٣٨ م إلى مقاتلة المسلمين ، ولكن هذه الغزوة لم تكمل بالظفر . ذلك أنه لم يستطع الاستيلاء على قورية وهي قلعة منيعة تقع على مقربة من ضفة التاجه اليمنى ، وذلك بالرغم من حصارها الشديد . بيد أنه استطاع في العام التالي أن يرد غزوة قام بها المسلمون في ولاية طليطلة بقوات عظيمة ، وانتزع جنده بعد ذلك بقليل قلعة « أوربة » من المسلمين ، وقد كانت قاعدتهم في كل غاراتهم على قشتالة ، وكانت تعتبر مفتاح ولاية طليطلة واعتبر افتتاحها ظفراً عظيماً ، واحتفل به في طليطلة في حفلات باذخة ، واستقبل رجال الدين القيصر الظافر ، وساروا في موكبه إلى الكنيسة الكبرى حيث أقيم قداس شكر حافل .

ثم نشبت الحرب الأهلية بين الأمراء النصارى ، فاضطر القيصر أن يوقف غزواته الكبيرة ضد المسلمين ، وكانوا يومئذ يهددون البرتغال أكثر مما يهددون قشتالة . فلما سقطت قلعة « مورة » المنيعه في يد المسلمين باهال حاكمها مونيو ألفونسيز (سنة ١١٤٠ م) وعرضت قشتالة بذلك إلى الغارات المخربة مرة أخرى ، حشد القيصر جيشاً ضخماً وسيز حاكم طليطلة رودريك فرنانديز على رأس جيش إلى « وادي يانه » ضد قرطبة وحتى ظاهر إشبيلية ، وحاصر القيصر نفسه قلعة قورية مدى شهرين حتى سقطت في يده في يونيه سنة ١١٤٢ م (٥٣٦ هـ) وذلك بعد أن رد عنها جيشاً من المسلمين قدم لإنقاذها . وفي بعض الروايات أن النصارى ساقوا إلى طليطلة عشرة آلاف من أسرى المسلمين .

وفي العام التالي قام مونيو ألفونسيز ضد قرطبة بغزوه موفقة عما بها الوصمة التي لحقته من جراء إهماله في الدفاع عن قلعة « مورة » فانتسف الروح الحصبة الواقعة على ضفاف الوادي الكبير على مقربة من قرطبة وجمع غنائم عظيمة ، وأخز نصرأ باهراً على قوة كبيرة من المسلمين حاولت أن تعترض سبيل عوده إلى قشتالة ، وسقط القائدان المسلمان وهما واليا قرطبة وإشبيلية في الميدان مع عدة آلاف من القتلى ؛ وكانت هزيمة ساحقة للمسلمين ، وكانت غنائم النصارى تفوق كل أمل ؛ واستقبل مونيو ألفونسيز في طليطلة استقبال الفاتحين الرومان ، وتسلم رجال الدين عشر الغنائم برسم الكنيسة ورفع رأسا القائدين المسلمين على رعين عالين ، وتبعهما الأسرى من أكابر المسلمين والفرسان في الأغلال ، ثم بقية الأسرى وقد غلت أيديهم وراء ظهورهم ، ثم موكب الغنائم من الخيل والدواب ومختلف النفائس ، وسار القائد المظفر على رأس هذا الحفل حتى الكنيسة الكبرى حيث كانت القيصره برنجاريا ورجال الدين والأشراف والشعب المحتشد في انتظاره . ولما عاد القيصر إلى طليطلة — وكان غائباً عنها — بعد ذلك بأيام أقيمت حفلات النصر مرة أخرى ، وأفرز من الغنائم غير عشر الكنيسة قسط كبير لزار القديس ياقب في كومبوستل ، وأفرز منها الخمس للقيصر وفقاً للحقوق المرعية ، وقدمت له

أجل الخيل والدواب ، وحصل مونيو وجنده على ما تبقى منها ؛ وعلق رأسا القائدين المسلمين أمام القصر الملكي وفقا للتقاليد الشرقية ، ولكن القيصرية لم تطلق المنظر المروع فأمرت بفصل الرأسين ووضعهما في حريز ثمينين وإرسالهما إلى زوجي القتيلين ليدفنا بالتكريم اللائق .

وقد أثارت هذه الهزيمة في قلوب المسلمين أيما جزع ؛ ولما وصلت أنباؤها سلطان المرابطين في إفريقية استشاط سخطا لما لحق جيوش المسلمين من محنة ومهانة ، واعتزم اتخاذ الإجراءات المشددة ، فميين يحيى بن غانية الظافر في موقعة إفراغة واليا عاما لجميع أراضي الأندلس التي يبسط عليها المرابطون حكمهم ، وأمره أن يعمل على أن يأخذ من النصارى بثأر قتلى المسلمين . وفي تلك الأثناء قاد القيصر جيشا إلى قلب الأندلس ضد قرمونة وإشبيلية وعاث في البسائط ، ونفذ المسلمون من ناحية أخرى إلى قشتالة وهاجوا قلعة رباح وأثخنوا في هاتيك الأنحاء ، وأمل مونيو أن يحرز نصرا باهرا كالذي أحرزه من قبل ؛ فتقدم بجراة ودون تحوط واشتبك في موقعة مع عدو يفوقه في الكثرة ، وقدم بذلك إلى المسلمين فرصة لتحقيق الانتقام المنشود ؛ وهنا هزم النصارى هزيمة شديدة وسقط مونيو متخفيا بالسهم . ففصل رأسه وذراعه اليمنى ورجله اليمنى عن جسده ، وأرسلت إلى قرطبة وإشبيلية لكي تعرض على زوجي الوالدين القتيلين عزاء لها ؛ ثم حلت بعس ذلك إلى سلطان المرابطين في مراکش دليلا على نفاذ أوامره . ولكن باقى الجثة أرسل إلى القشتاليين مقابل إرسالهم لرأسى الوالدين المسلمين نزولا على تقاليد الفروسية . وعلقت رؤوس أكابر النصارى فوق أبراج قلعة رباح عنوانا بالنصر المبين .

وأثار موت مونيو الشجاع حزنا عاما في طليطلة ، ولو أنه اعتبر عقابا من الله لأن مونيو سبق أن قتل ابنته بيده ، إذ فاجأها ذات يوم مع حبيبها الفتى ؛ وحزن القيصر أيضا لفقد قائده الباسل وأقسم بأن ينتقم لموته . فسار إلى الأندلس في سنة ١١٤٤م وكرر غاراته المخربة ولم يتورع عن شيء ، ففي كل مكان أحرق القرى والداكر أو هدمت ، وسبق الناس والدواب قطعانا ، وحملت غنائمهم

عظيمة ، وأثنى النصارى فى بسائط قرطبة وإشبيلية وقرمونة وغرناطة ، حتى
المرية ، والتجأ المسلمون الذين استطاعوا النجاة إلى الحصون ، وعاد القيصر إلى
وطنه مثقلاً بالفنائم .

ومن ذلك الحين يجوز المرابطون أسود الفترات التى سجلت بأنحلالهم . وقد مهد
انهيار نظم الحكم فى اسبانيا المسلمة من جراء الحروب الأهلية ، واضمحلال سلطان
المرابطين فى إفريقية ، السبيل لفتوح النصارى . بيد أنه يجب قبل أن نمضى فى
تتبع هذه الفتوح أن نقص ما انتهت إليه مصائر المرابطين فى إفريقية .

الفصل الثماني

اضمحلال المراتبين في إفريقية

من جراء ثورة الموحدين

(سنة ١١٢٠ - ١١٤٦ م) - (٥١٤ - ٥٤١ هـ)

١ - أبو عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدي

مؤسس دولة الموحدين

في العشرة الثانية من القرن الثاني عشر الميلادي ، بعد أن تولى علي بن تاشفين حكم المراتبين ببيعة أعوام ، قصد رجل ، من بلاد السوس ومن قبيلة مصمودة يدعى أبو عبد الله بن تومرت^(١) ، إلى طلب العلم في أشهر معاهد المغرب والمشرق أسوة بملماء عصره . وبعد أن درس حيناً في معاهد قرطبة والقاهرة رحل إلى بغداد لكي يستمع هنالك إلى دروس الفيلسوف الأشهر أبي حامد الغزالي ؛ وكان الغزالي قد وضع كتاباً أنكره فقهاء قرطبة ، وقضوا بتكفير مؤلفه نظراً لما احتواه من أقوال ضد السنة ؛ وأخذ سلطان المراتبين علي بن تاشفين برأيهم ، وأمر بأن

(١) هو كما ورد في روض القرطاس محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ؛ وزعم بعض مؤرخي الموحدين أن نسبه ينتهي إلى علي بن أبي طالب ؛ وقيل إنه دعي في هذه النسبة ، وإنه يسمى فقط محمد بن تومرت المرغبي نسبة إلى مرغة من بطون مصمودة (راجع روض القرطاس ص ١١٠ ؛ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٥ وما بعدها ؛ والمراكشي ص ٩٩ وما بعدها ؛ والحلل الموشية ص ٧٥ وما بعدها ؛ وابن خلكان ج ٢ ص ٤٨ وما بعدها) .

تُحرق كتب الغزالي كلها في أنحاء مملكته الشاسعة باعتبار أن مؤلفها كافر خارج على الدين^(١).

ففي تلك الآونة نفسها قصد أبو عبد الله بن تومرت إلى الغزالي في بغداد ؛ فعرف الفيلسوف من أمة الفتى وزيه وهيئته أنه غريب ، ولما علم أنه قدم من المغرب وأنه درس طويلا في قرطبة ، سأله كيف استقبل هنالك كتابه « إحياء علوم الدين » ، فلم يخف عليه أبو عبد الله أن الكتاب قُضى بخروجه على الدين ، وأن سلطان المرابطين — على بن تاشفين — أمر بإحراقه نزولا على قرارات معاهد قرطبة ومراكش وفاس والقيروان ؛ وكان هذا أول نبأ تلقاه الغزالي عن مصير كتابه في المغرب ، فبدا عليه التأثر لهذه المفاجأة ، ودعا على كل من أنكر كتابه أو أحرقه ، وخص على بن يوسف بلعنته ورفع يديه بالدعاء قائلا : « اللهم مزق ملكهم كما مزقوه ، وأذهب دولتهم كما أحرقوه » ، فقال أبو عبد الله : « أيها الإمام ادع الله أن يجعل ذلك على يدي » ؛ فقال : « اللهم اجعله على يد هذا الرجل »^(٢).

وربما بعث هذا الحادث إلى أبي عبد الله فكرة بأنه مكلف بأداء رسالة إلهية ؛ ذلك أنه ما كاد يعود إلى وطنه في سنة ٥١٠ هـ (١١١١ م) حتى بدأ يث تعاليمه الجديدة في كثير من مدن المغرب ؛ وقد أثار بغريب زيه ، وبإسغ زهده وورعه وتشفه ، وخطبه القوية الحارة التي يشدد النكير فيها على مثالب الطبقة العليا ، ونقائص الرجل العادي ، بين الناس أيما اهتمام ، فهرع الناس إلى سماعه من كل صوب ؛ وكان يجلب أبواب المتبرمين من شظف العيش ، بما يستعرضه من ألوان الفطرسية والمرح والترف التي يفرق فيها البلاط والأكابر ؛ وكان من الطبيعي أن يهتم ولاية المدن التي يخطف فيها باحتشاد الناس من حوله ، وأن يعتبروا هذا « النبي » الجديد مهدداً للنظام والأمن ؛ ولكن الرجل الفطن كان يظفر بالنتيجة.

(١) كتاب الغزالي المشار إليه هنا هو مؤلفه المشهور لإحياء علوم الدين ؛ وتصة الحكم عليه وتكفير مؤلفه مشهورة في تاريخ الأندلس ، (راجع في ذلك الحلل الموشية ص ٧٥ ، ٧٦ ، والمرآة ص ٩٩) .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٧٦ ، ٧٧ ؛ وتروى هذه الواقعة أحيانا بصور أخرى .

فى كل مرة ، إما بالفرار فى الوقت المناسب أو بالاختفاء عند بعض الأصدقاء المخلصين ؛ وكان قد التف حوله بعض التلاميذ الذين يخلصون له من أعماق قلوبهم ، واصطفى من بينهم بالأخص فتى جميل الطلعة هو عبد المؤمن بن على (١) ؛ فعنى بتثقيفه فى تعاليمه الجديدة أتم عناية واختاره وزيراً .

وبعد أن طاف أبو عبد الله بكثير من بلاد المغرب واعظا ، وحشد من حوله الأنصار والتلاميذ أينما حل ، سار بصحبة أخلص تلاميذه إلى مراكنش عاصمة المرابطين . ثم قصد يوم الجمعة إلى مسجدها الجامع وقت الصلاة ، وكان غاصا بالمصلين ؛ وجلس فى المكان المخصص للأمير المسلمين بين استحسان الجمهور وإعجابه ؛ ولما أراد بعض سدة الجامع أن يبعده عن موضعه التفت إليه فى هدوء وحزم وتلا عليه الآية : « وأن المساجد لله » ، وأخذ يفسرها ، والجمهور يرمقه بمنتهى الإعجاب والتقدير .

ولما جاء سلطان المرابطين ليشهد الصلاة ، نهض الحضور جميعاً لتحيته كالمادة إلا أبا عبد الله فانه لم يتحرك من موضعه ، ولم يرمق الأمير ، ولم يبد أقل إشارة تشعر باهتمامه بأمره ؛ فلما انتهت الصلاة ، نهض لتحية الأمير وقال له ما يأتى : « غَيَّرَ المنكر وارفع الظلم ببلادك ، فأنت المسئول عن رعيته أمام الله » ؛ فألقى الجمهور قوله صواباً ، وأيده باعتبار أن ما قاله حق ؛ ولكن علياً لم يجب بشيء ، وظن أن محدثه من أولئك الزهاد الورعين المنقطعين إلى العبادة ، والذين لا حرج عليهم فى أن يتحدثوا الأمير بمثل ذلك ؛ فسأله عندئذ عما إذا كانت له حاجة ؛ فأجابه أبو عبد الله : « لست بطالب دنيا ، ولا حاجة لى بها غير أنى آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر » (٢) .

ولم يمض سوى قليل حتى زاد اهتمام على بأمر هذا الرجل ؛ وكان أبو عبد الله

(١) راجع الحلال الموشية ص ٧٧ .

(٢) راجع الحلال الموشية ص ٧٣ ؛ وروض القرطاس ص ١١١ ؛ وفى الرواية أن الشق الأخير من الحديث بين الأمير وأبى عبد الله لم يقع فى المسجد ، ولكنه وقع فى القصر حيث استدعى الأمير أبا عبد الله عقب الصلاة .

يمظ في المدينة ، في الميادين العامة وفي المساجد ، في جموع غفيرة ، ويحمل على الملاذ الدنيوية ، وعلى فساد الطبقة العليا بين هتاف الجمهور واستحسانه ؛ فأمر على العلماء بامتحان الرجل ، وإصدار رأيهم فيه ، وقال العلماء بأن أبا عبد الله لا ينبغي بالتحدث عن البدع والمدهشات سوى استهواء العامة وإثارتهم ، وأنه يجب لصون الأمن والنظام أن يحال بين الرجل وبين الناس ، وأن يزج في الحال إلى السجن ؛ وقال بعض الفقهاء للأمير : « أبقاك الله ، هذا الرجل استعمله في الكبول ، وإلا قصده يسمعك الطبول »^(١).

ولكن الوزير عثمان بن عمر عارض في هذا الرأي بحجة أن أخذ أبي عبد الله بالعنف يدل على خوف الأمير منه ، وأنه يجب أن لا تعلق مثل هذه الأهمية على رجل حقير مثله ؛ فوافق الأمير على هذا الرأي ، ولم يتخذ أى إجراء عنيف ضد أبي عبد الله ، وترك حرا في سبيله^(٢) ؛ ولكنه أبعد من مراكش على ما يظهر أولقى صعبا في البقاء بها ، فغادرها بعد قليل إلى فاس ، وتابع مواعظه هنالك ؛ ثم عاد إلى مراكش بعد بضعة أعوام ، ليستأنف الوعظ بها بمحض من البلاط ، وعاد صوته يدوى في الميادين والمساجد ضد الفساد والمنكر وشرب الخمر والانفاس في اللهو ؛ ثم عمد إلى آلات الطرب فأخذ يحطمها بحماسة ، وكانت تستعمل للرقص الخليع والغناء المستهجن ، ومضى في وعظه غير حافل بالسلطات ؛ ولم يقصر حملاته على المعاصي وحدها ، بل تعداه إلى الحملة على أشخاص مرتكبيها والتنويه باستحقاقهم للعقاب ؛ فعندئذ بذل رجال البطانة - وهم من خاصة المنغمسين في اللهو والترف - كل ما استطاعوا للإيقاع به ، وأبدوا لسلطان المرابطين ما يحيق من الأخطار بحكومته إذا ترك هذا الواعظ المثير وشأنه دون عقاب ؛ فاستدعاه على إليه وخطبه برفق ، وسأله عما إذا كان حقا ما يقال عنه ، وهو أنه يجرى الناس على الثورة ، فأجابه أبو عبد الله : « ماذا يمكن أن يقال لك عنى ، إلا أنى رجل

(١) الحلل الموشية ص ٧٤ . وقد استعزنا هنا ألفاظ الرواية العربية ، وهي التي

ترجمها المؤلف .

(٢) راجع الحلل الموشية ص ٧٤ .

فقير ، أطلب الآخرة ، ولست بطالب دنيا . وليس لى فى هذه الدنيا شأن غير شأنى ؛ وهو ليس فى الواقع من شؤون هذه الدنيا « فدهش على الجوابه ؛ ولما لم يكن فى نفسه منه شىء رأى أن يحاول حسم الأمر بالمعروف ، فاستدعى فقهاء البلاط لمناظرته بحضوره فى آرائه وتعاليمه الجديدة ؛ فطال الجدل والنقاش بين الفريقين^(١) ولم يرتح على " لأقوال أبى عبد الله ، ورأى أخيراً أن ينزل عند نصيح علمائه فى العمل على صون السكينة فى عاصمته ، فحظر الوعظ على الداعية ، وأمر بنفيه من مراکش ، خصوصاً وقد اجتراً أبو عبد الله ذات يوم ، حينما لقي أخت على فى الطريق حاسرة قناعها ، فأنها على تبذلها ، ثم لطمها فوقعت من على جوادها^(٢) .

وما أن بدأت مطاردة أبى عبد الله (ابن تومرت) على هذا النحو حتى كتب النجاح لقضيته . ذلك أنه سار برفقة عبد المؤمن وزيره وأخلص تلاميذه إلى موضع بمنزل بقرب مراکش ، وابتنى له هناك كوخاً بين القبور ، فهرعت إليه جموع غفيرة من الناس تطلب الاستماع إليه ، والتف حوله ألف وخمسمائة رجل كانوا على استعداد دائم لأن يعملوا كل شىء ، وأن يحتملوا كل شىء فى سبيل أستاذهم وسيدهم .

وبدأ أبو عبد الله من تلك اللحظة يصف حكومة المرابطين بأشنع النعوت ، وكيف أنها عاكفة على نشر الإلحاد والفساد والمنكر والفجور ، وأنه يجب قتلها وإلا أصيب الإسلام فى الصميم ؛ وهنا بدأ لأول مرة يتلقب بالمهدى وهو الذى ورد ذكره فى الحديث ، بأنه يقوم برد الدين الصحيح ، وتطهير قلوب المؤمنين من الشوائب ، وإرشادهم إلى طريق الحق والعدل ومعرفة المولى الفرد الصمد ، وذاع صيت أبى عبد الله بسرعة وكثر أنصاره كثرة جزعت لها حكومة المرابطين

(١) أورد صاحب روض القرطاس خلاصة المناقشات الكلامية التى وقعت فى هذا المجلس بين ابن تومرت وبين مناظريه (ص ١١٢) .

(٢) إن إيراد هذه الواقعة على هذه الصورة فيه تحريف ؛ وخلاصته الواقعة كما رواها ابن خلدون هو أن ابن تومرت « لقي ذات يوم الصورة أخت على بن يوسف حاسرة قناعها على عادة قومها الملتزمين فى زى نساءهم ، فوبخها ، ودخلت على أخيها بأكية لما نالها من تقريمه » (ج ٦ ص ٢٢٧) .

وأصدر علىّ في الحال أمره بالقبض عليه وإعدامه ؛ ولكن أبا عبد الله وقف على ذلك الأمر في حينه ، وفر من مطاردية سريعا ، وقصد إلى اغمات ، ثم قصد منها إلى تينمال (أو تينمل) من بلاد السوس يصحبه رهط من أخلص أنصاره .

وهناك ، في وطنه ، عكف يحدث جموع الشعب التي تزايد كل يوم من حوله ، عن رسالته الإلهية باعتباره المهدي المنتظر ، ويطلب إليهم الثورة ضد المرابطين الملاحدة . ولما كان المرابطون قد أثاروا بغطرتهم ، وترفهم ، وعدم حرصهم على كثير من التقاليد الدينية سحق المسلمون المحافظين ، فقد ألقت تعاليم المهدي وتحريضاته الاستحسان والتأييد في كل مكان . وبادر النبي الجديد من جانبه إلى انشاء نوع جديد من الدولة ، ليتم بذلك ثورته على حكم المرابطين ، وذلك بأن بايعه عشرة من أخلص أصدقائه وتلاميذه تحت شجرة خرنوب ، باعتباره الامام المهدي ؛ بايعوه على الطاعة المطلقة ، وأن يفتدوه بأرواحهم وأموالهم ،^(١) وبايعه من بعدهم كثير من رجال القبائل ، وأطلقوا من ذلك الحين على أنفسهم اسم الموحدين ،^(٢) (ومعناه الذين آمنوا على الإيمان بوحدة الله) ؛ وقسم أبو عبد الله أتباعه إلى عشر طبقات ، أولاها وأرفعها طبقة الجماعة أو العشرة وهم أول من بايعه ، وكانوا يشاطرونه الحكم ، ويتولون لديه مناصب الوزارة والقيادة . وتتألف الثانية من أهل الخمسين ، والثالثة من أهل السبعين ، وهما ضرب من المجالس النيابية ؛ ويتولى أعضاؤها في الوقت نفسه مناصب الادارة ، وتنظيم أعمال

(١) وهذه هي أسماء صحب المهدي العشرة ، وهم عبد المؤمن بن علي ، وأبو محمد البشير ، وعبد الله بن ماويات ، وأبو حفص بن يحيى الهنتاتي ، وأبو حفص عمر بن علي أزناج ، وسليمان بن مخلوف ، وإبراهيم بن إسماعيل الخزرجي ، وأبو محمد عبد الواحد الحضرمي ، وأبو عمران موسى بن ثمار ، وأبو يحيى بن بكيت ؛ وسمى هؤلاء العشرة بالهاجرين الأوائل وبالجماعة . (راجع روض القرطاس ص ١١٣ والحلل الموشية ص ٧٩ والاستقصاء ج ١ ص ١٣٦ ، والمرآة ص ١٠٤) ، وأورد ابن خلدون منهم أسماء أخرى (ج ٦ ص ٢٢٧) .
(٢) قال ابن خلدون في تعليل هذه التسمية : « وكان (أي المهدي) يسمى أصحابه بالموحدين تعريضا بعتونه في أخذهم بالدول عن التأويل وميلهم إلى التجسيم » (ج ٦ ص ٢٢٩) وراجع أيضاً روض القرطاس ص ١١٤ ؛ والحلل الموشية ص ٨٠ .

البر ، ويمانون العشرة على القيام بأعباء الحكم ؛ وتتألف الرابعة من العلماء (الطلبة) ؛
والخامسة من الحفاظ (صغار الطلبة) ؛ والسادسة أهل الدار (أمة المهدي) ؛
والسابعة أهل هرغة (قبيلة المهدي) ؛ والثامنة أهل تينال ؛ والتاسعة أهل
جرميوت ؛ والعاشرة من الجند من مختلف القبائل^(١) ؛ وكان أصحاب المهدي
يومئذ زهاء عشرين ألفا ، اختار منهم عشرة آلاف وزودهم بالأعلام البيضاء
(وكانت أعلام الرابطين سوداء) ، ووضعهم تحت قيادة أبي محمد البشير ، أحد
العشرة المختارين .

وكان علي بن تاشفين في اسبانيا حينما علم بأهبة أبي عبد الله لمحاربتة ، فبعث في
الحال جيشا تحت إمرة ولده الأمير أبي بكر لمقاتلة الثائر ، وكانت قوى الموحدين
قد بلغت عندئذ حدا لم يجزؤ معه قائد الرابطين على نزاهم ، فانتظر الأمداد ؛ فلما
وصلته تقدم لقتال الموحدين ، ولكن رعبا فجائيا سرى إلى صفوف الرابطين ،
فركنوا إلى الفرار قبل أن يبدءوا القتال ، وتركوا النصر لأعدائهم (سنة ٥١٦ هـ
— ١١٢٢ م) . وجاء جيش آخر من الرابطين ، فكان أقل خورا من سابقه ،
والتحم مع الموحدين في معركة دموية ، ولكنه هزم وألجى إلى الفرار ؛ ثم جاء
جيش ثالث ، فلقى مائتي سابقه . وبدأ كائن الرابطين فاتحى إفريقية قد فقدوا كل
قواهم وكل منفعاتهم ؛ واشتد ساعد المهدي ، وأخذ يدعو على بن تاشفين إلى الخضوع ؛
وفقد الرابطون أنفسهم كل ثقة في جيوشهم . ولما سار أخو علي الأمير الشجاع
أبو الطاهر تميم ، الذي اشتهر في اسبانيا بمحروبه ضد النصاري ، على رأس جيش
جديد لقتال الموحدين ، ركن جنده في الليل إلى الفرار قبل أن يبدءوا لهم العدو ،
وهلك كثير منهم تحت جناح الظلام في مفاوز وواد عميقة ، ولعلمهم لوخاضوا القتال
بشجاعة لنجوا .

(١) راجع الحلل الموشية ص ٧٩ ؛ وقد أورد من أصحاب المهدي أربع طبقات آخر ، م
أهل جنيسة ، فأهل هنتانة ، فالجند ، فالقزاة والرماة ؛ ولكن المؤلف أجل هذه الطبقات
في الطبقة العاشرة .

وعمد المهدي بعد هذه الانتصارات المتوالية - التي يرجع معظم الفضل فيها إلى تعصب الموحدين - إلى مدينة تينال فخصنها وجعلها قاعدته ؛ وسير منها البعوث إلى سراکش تعيث في أراضيها ، وتنزل بالمرايطين ويلات تجل عن الوصف ، ولا يستطيعون لها انتقاما . ولم يكتف المهدي بذلك ، واعتقد عندئذ أنه يستطيع غزو العاصمة الرابطية ، وتحطيم سلطان علي . ولما كان يومئذ مريضاً طريح الفراش ، فقد عهد بالقيادة إلى وزيره أبي محمد البشير ، فسار إلى سراکش على رأس جيش قوامه أربعون ألف مقاتل ؛ ومع أن علي بن يوسف ساق للدفاع عن عاصمته مائة ألف مقاتل ؛ فقد لقي على يد الموحدين المتمصين هزيمة شنيعة ؛ وبدأ الموحدون في الحال حصار سراکش .

وبدا لأول وهلة أن سراکش مع ما أصاب المرايطين من الهزيمة والانحلال ، لا تستطيع بالرغم من حاميتها الكبيرة المؤلفة من أربعين ألف مقاتل أن تقاوم العدو طويلا . ولكن ما تلقاه الرابطون من عون محمد والي سيجلماسة ونصاري الحرس الخاص قوّى عزائمهم ، وخصوصا عندما التقى نصاري الحرس خارج المدينة بقوة من الموحدين فهزموها ودلوا بذلك على أن الموحدين ليسوا من المنعة كما بدوا . وعلى أثر ذلك نشبت معركة قاتل الرابطون فيها كالأسود ذا كرين أيام نصرهم السابقة ؛ وقتل خلالها قائد الموحدين الشجاع أبو محمد البشير أعظم قواد المهدي ، وسقط معه في الميدان معظم جنده (سنة ٥١٩ هـ - ١١٢٥ م) . وقاد فلول الجيش عبد المؤمن بن علي أحد العشرة ، وارتد نحو أغمات وهو يشترك مع مطارديه في معارك مستمرة ؛ وسقط خمسة آخرون من العشرة في ذلك الارتداد ؛ ولما وقف المهدي على أنباء هذه الهزيمة أبدى ارتياحه حينما علم أن عبد المؤمن لا يزال حيا ، وقال : إذا فقد بقيت الغلبة لنا ^(١) .

ولم يترتب على فوز الرابطين على الموحدين أن أنقذت العاصمة فقط ، بل

(١) هذه عبارة المؤلف ؛ ولكنها وردت في الحلال الموشية كما يأتي : « ولما وصل الفل إلى المهدي وفيهم أربعة من أصحابه وعبد المؤمن معهم ، وجدوه بتينال مريضاً ، فقال لهم أسلم عبد المؤمن ، قالوا نعم ، قال منذ عاش عبد المؤمن بقى » (ص ٨٦) .

ترتب عليه بالأخص أن عاد كثير من القبائل المنشقة إلى الطاعة ، واستطاع على بعد أن أغفل شؤون الأندلس مدى حين أن يعود إلى العناية بها . وكان ألفونسو الأرجوني قد قام في ذلك الوقت بنزوته ضد غرناطة ، وبدأ النصارى المعاهدون والمسلمون أنفسهم يحاولون التلصص من نير المرابطين المهق ؛ فعمل على تفريب معظم النصارى المعاهدين إلى إفريقية^(١) ، وقامت الحاميات القوية في المدن بكبح جماح المسلمين ؛ وبمث على ولده تاشفين بجيش جديد إلى الأندلس لكي يقاتل النصارى وليشغل بذلك اهتمام المسلمين . وقد فصلنا أخبار هذه الغزوة فيما تقدم .

وفي أثناء ذلك أنفق الموحدون في قلعهم النعمة تينال ثلاثة أعوام في التأهب لاستئناف الحرب ، وظهرت خلال ذلك قوة نفوذهم وما تكنه القبائل لهم من الإخلاص ؛ وأدرك على نفسه أن العاصفة التي تنذر باجتياح ملكه لم تحب بعد ، فعمل منذ هزيمته لأعدائه على تحصين مراكش وإعدادها للدفاع .

ولما أرسل المهدي — وكان لا يزال مريضاً — عبد المؤمن إلى الميدان على رأس جيش قوامه ثلاثون ألف مقاتل عادت القبائل المنشقة عليه إلى طاعته ، وهرعت إلى لواء عبد المؤمن قبلت قواته مبلغاً عظيماً ، واستطاع أن يلقى جيشاً من المرابطين قوامه مائة ألف مقاتل بقيادة الأمير أبي بكر بن علي ؛ وبعد قتال دام ثمانية أيام نشبت فيه عدة معارك انتصر الموحدون على المرابطين كرة أخرى ، وطارد الموحدون أعداءهم حتى أبواب مراكش ، وضربوا الحصار حولها مرة أخرى (رجب سنة ٥٢٤ هـ — ١١٣٠ م) ؛ ولكن عبد المؤمن اعتبر بما وقع للموحدين في الحصار الأول ، فاكتفى بنصره وعاد بجيشه إلى تينال .

وكان المهدي قد اشتد به المرض والضعف ، فجمع من حوله صحبه وودعهم وداعاً مؤثراً شاعراً بذنو أجله . وتختلف الرواية العربية في أمر موته ، فالبعض يقول إنه توفي بعد ذلك بقليل في شهر رمضان سنة ٥٢٤ هـ (سبتمبر سنة ١١٣٠) ،

والبعض يقول بأنه عاش طويلاً بعد ذلك ، أو على الأقل بأن الشعب قد حمل على الاعتقاد بأنه ما يزال على قيد الحياة^(١).
 وكان أبو عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدى ، متوسط القد ، أسمر اللون ، خفيف المارضين ، أسود الشعر ، جميل العينين ؛ وكان وافر الفصاحة واسع المعرفة ؛ وكان في حياته الخاصة كثير التقشف والزهد ؛ بيد أنه كان صارماً سفاكاً للدماء ، يستبيح دم أعدائه ودم أصدقائه إذا لم يصدعوا في الحال بأمره ؛ وكان إذا أراد المبالغة في عقاب أحد أمر بدفنه حياً ؛ وكان يذكي حماسة جنده بما يقدم به من عظيم الثواب في جنات الخلد التي تنتظرهم إذا استشهدوا في سبيل الدين الصحيح ؛ وكان يلقنهم صلوات صغيرة يتلون في الحرب في الذهاب والوقوف والقتال ، اقتصاداً في الوقت ولكيلاً يضطروا إلى الركوع والسجود كما يحدث في الصلوات المعتادة ؛ وهكذا كان المهدي يدفع بأصحابه إلى الحرب يحدوهم التعصب والبراعة ؛ وكان نصيبه الفور^(٢).

٢ — حروب الموحدين بقيادة عبد المؤمن ضد علي بن يوسف

ولما توفي ابن تومرت ، اجتمع الأئمة الأربعة الباقيون من العشرة ، وجماعة الخمسين ، وجماعة السبعين لا انتخاب زعيم جديد ؛ فاجتمعت كلمتهم جميعاً ، على أنه ليس أجدر بهذا المنصب من عبد المؤمن أحد العشرة ؛ فقد اصطفاه المهدي كأول تلاميذه وأخلصهم ، واتخذ وزيره ، وندبه للصلاة مكانه ، وعهد إليه بأمر دفنه ، وكثيراً ما صرح بأنه ما دام عبد المؤمن على قيد الحياة ، فلا خوف على سلطان

(١) تتفق معظم الروايات الإسلامية على أن وفاة المهدي كانت في رمضان سنة ٥٢٤ هـ على اختلاف في يوم الوفاة ، فالبعض يقول إنه يوم ١٣ رمضان ، والبعض يقول إنه ١٤ رمضان ، والبعض يقول إنه يوم ٢٥ رمضان . وفي الحلال الموشية أنه لما توفي المهدي كتم أصحابه موته مدى حين (راجع روض القرطاس ص ١١٧ والحلال الموشية ص ٨٦) ، ويقول ابن خلدون إن وفاة المهدي كانت سنة ٥٢٢ هـ (ج ٦ ص ٢٢٩) .

(٢) راجع وصف المهدي وخلاله وخلاصة تعاليمه في روض القرطاس ص ١١٧ و ١١٨ . ونشر الأستاذ لافي بروقندال مجموعة من النبد والفصول المتعلقة بتعاليم المهدي ورسائله منسوبة لابن البيدي تحت عنوان : Documents inédits d'Histoire Almohade.

الموحدين ، وقد أبدى عبد المؤمن في الحرب أيماء براعة ، وكان هو المنقذ عند المحنة ، وهو الظاهر دائماً كلما قاد الجيش ؛ فهذه الخلال البديمة التي لم تتوفر في غيره كما توفرت فيه ، تجعله خير أهل للزعامة ؛ فأجمعوا في الحال على اختياره زعيمهم وسلطانهم المطلق ، ولقبوه بالخليفة وأمير المؤمنين ، وأقسموا له يمين الطاعة ، مبتدئين بالثلاثة العشريين فجماعة المحسنين ، فجماعة السبعين ، وتلاهم باقي الصاحب والأنصار من الموحدين .

وقد رويت رواية أخرى عن تولية عبد المؤمن الزعامة لا يمكن الإغضاء عنها تماماً ؛ وخلاصتها أن المهدي توفي عقب هزيمة الموحدين الأولى ، ولم يعلم بموته سوى عبد المؤمن ؛ فحرص على إخفاء موته ، ولبت مدى ثلاثة أعوام يدير شؤون الحكم باسم المهدي ، كأنما هو حي ؛ ولما كان يعلم أن زملاءه الباقين من العشرة لهم أن يطمحوا مثله إلى الزعامة ، وكان يخشى أن تنهار المملكة من الخلاف والحرب الأهلية ، فقد رأى أن يضمن الولاية لنفسه بحيلة بارعة ؛ فربى أثناء قيامه بالحكم شبلاً ، روضه حتى صار أنيساً كالكتاب ، ودرب عصفوراً على أن ينطق بالعربية بهذه الكلمات : « النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين ، سند الملكة وناصرها » ؛ ولما تم تدريب العصفور على أن ينطق بهذه الكلمات نطقاً صحيحاً ، وروض الأسد على أن يقوم بجميع ضروب الخضوع والطاعة لسيده ، ابتنى عبد المؤمن في ظاهر تينال قاعة كبيرة ، واتخذ جميع التحولات التي تمكنه من استئصال الأسد والعصفور ؛ ودعا شيوخ الموحدين وأكابرهم إلى الاجتماع ، وجلس في الصدر في مكان عال ، ونى المهدي إلى الحضور بين مظاهر الحزن العميق ، وقال إنه أعرب في كلماته الأخيرة عن أمنيته في أن ينبذ الموحدون أهواءهم ومصالحهم الشخصية ، وأن يختاروا من بينهم رجلاً واحداً يولونه الزعامة والسيادة المطلق . ولما انتهى من مخاطبة الحضور بذلك ، وساد الصمت العميق ، إذا بناطق ينطق فجأة بهذه الكلمات بلسان فصيح ، وكأنما نزل من السماء : « النصر والتمكين للخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين ، سند الملكة وناصرها » ، وفي الوقت نفسه

فتح عبد المؤمن باباً خفياً كان يحجب الأسد ، فانطلق بين الحضور مزججراً ، وهو منفوش الشعر ، مكشراً عن أنيابه ، رافعاً ذنبه ، وعيناه تقدحان بالشر ، فذعر الحضور وارتعدت فرائصهم ؛ وبادر عبد المؤمن إلى الأسد ، فأنس إليه في الحال بين دهشة الحضور ، وأخذ يلق يديه في هدوء ؛ ولما رأى الموحدون هذه المعجزة لم يترددوا لحظة في اختيار ذلك الذي دعاه الوحي إلى الرياسة ، لهم خليفة وزعيماً ، وبايعوه في الحال على الطاعة ؛ وبقي الأسد من ذلك اليوم رفيقاً لعبد المؤمن مثل الكلب الوفي ، يرافقه حتى في المسجد أثناء الصلاة . وكانت ولاية عبد المؤمن الخلافة في سنة ٥٢٥ هـ (١١٣٠ م) ؛ وتسمى من ذلك الحين « بالأمير بأمر الله » (١) .

ورأى عبد المؤمن في الحال أن يمكن لسلطانه بالأعمال الحربية الباهرة ؛ وأخذ خلال أعوام قلائل يسير من نصر إلى نصر ، ومن فتح إلى فتح ؛ ولبت حيناً أمام أسوار مراکش يحاصرها ، واشتد ساعده بمن انضم إليه من القبائل التي انشقت على المرابطين ، وأخذ نجم المرابطين في الأفول يوماً بعد يوم ؛

(١) ورد في روض القرطاس أن بيعة عبد المؤمن الخاصة كانت في سنة ٥٢٤ هـ ، وبيعته العامة في سنة ٥٢٦ هـ (ص ١٢١) وفي الحلل المشية أن بيعته كانت سنة ٥٢٤ هـ (ص ١٠٧) ويقول ابن خلدون إن وفاة المهدي كانت سنة ٥٢٢ هـ ، وإن عبد المؤمن وأصحابه كتبوا وفاة المهدي ولبثوا يباشرون الأمور باسمه حيناً . ثم اختاروا عبد المؤمن للولاية (ج ٦ ص ٢٢٩) ، وفي الاستقصاء أن ولايته كانت سنة ٥٢٦ هـ (ص ١٥٩) ، ويقول المراكشي إن المهدي اختار عبد المؤمن للولاية عهده قبيل وفاته وحث أشيـاخ الموحدين على اختياره (ص ١٠٨ و ١٠٩) ، ويورد صاحب روض القرطاس رواية الأسد والمصفور وما إليها مفصلة ، وهو في الواقع مرجع المؤلف في معظم ما يورده في هذا الفصل (ص ١٢٠) ، ويورد في ذلك أيضاً أبياتاً لشاعر اسمه أبو علي نقلها المؤلف في تعليقاته مترجمة لللاتينية (ج ١ ص ٤١٣) وهذه هي :

أنس الشبل ابتهاجاً بالأسد ورأى شبه أبيه فقصده
ودعا الطائر بالنصر لكم فقصي حقمكم لما وفد
أنطق الخالق مخلوقاته بالشهادات فكل قد شهد
إنك القائم بالأمر له بعدما طال على الناس أمد

ووردت قصة المصفور والأسد وهذه الأبيات في الحلل المشية (ص ١١٣) ، ولكن بصورة أخرى ولمناسبة لا علاقة لها بتولية عبد المؤمن .

ونضبت خزائن على بما أصابه من الهزائم المتوالية ، وفقد الولايات والمدن وما تكبده في الحرب من نفقات باهظة ؛ وترتب على نقص عدد رعاياه أن زاد عبء الضرائب ، فبث ذلك روحا من السخط في الجهات التي بقيت على إخلاصها ، هذا إلى أن الشعب فقد عندئذ كل شجاعة ، وفقد كل ثقة في المرابطين .

واتخذ عبد المؤمن لقب أمير المؤمنين ؛ وفي العام الرابع من ولايته أمر بسك نقود جديدة ، جعلت مربعة الجوانب تميزاً لها من نقود المرابطين ؛ ونقش على أحد وجهيها ما يأتي : « لا إله إلا الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله » ، ونقش على الوجه الآخر : « الله مولانا ، ومحمد رسولنا ، والمهدي إمامنا » .

ولما توغل عبد المؤمن في فتوحاته ، واشتد الخطر على المرابطين ، دعا على ابنه تاشفين — وكان بالأندلس يقوم بحاربة النصارى بعزم ، ويحوز النصر عليهم أحياناً — إلى إفريقية ، ليعاونه في شؤون مملكته المضطربة ، فكان الداء بذلك أشد وأنسكى ، لأن الولايات الأندلسية التي بقيت تحت سيادة المرابطين ، كانت منذ بعيد تعاني من غطرسه ولايتها الإفريقيين وظلمهم ؛ وكان أبو الطاهر تميم ، وتاشفين قد استطاعا بكثير من الجهد والحكمة والرفق أن يكبحا جماح الثورة في مدن الأندلس ، وفي المدن الشرقية . فلما غادر تاشفين الأندلس ، نفذ صبر الأندلسيين مما يعانونه من فداحة الضرائب وعسف الولاة ، وقامت الثورة على المرابطين في معظم المدن ، وكان سلطانهم قد اضطرب في إفريقية تحت ضربات الموحدين ؛ ولما عاد تاشفين إلى مراکش اصطحب معه صفوة الجند للمرابطين ، هذا إلى أربعة آلاف من النصارى الماهدين الذين تفرسوا في الطعان والفروسية ، جعلهم جزءاً من حرسه الخاص ؛ وكانت التجارب المحزنة قد دلت على أن النصارى الذين يجهلون تماثيل المهدي الدينية ، هم أفضل في مقاتلة الموحدين من المغاربة المسلمين الذين كان معظمهم يرى في المهدي نبيا ورسولا . على أن تاشفين لم يكن أسعد حظا في مقاتلة عبد المؤمن من القواد السابقين الذين قادوا المرابطين إلى مقاتلته ؛ فقد دارت عليه الدائرة في جميع المواقع التي نشبت بالرغم من ضخامة

قواته ، وأصيب بخسائر فادحة ؛ وهكذا رأى على أمله الأخير الذى علقه على براعة ولده الحربية ، يخبو ويتبدد ؛ ومجّلت الأحزان والهموم أجل الملك الشيخ ، فتوفى بقصره فى سراكش فى رجب سنة ٥٣٧ هـ (فبراير سنة ١١٤٣ م) وهو فى التاسعة والخمسين من عمره ، بعد حكم دام زهاء سبعة وثلاثين عاما ، يعذبه الاعتقاد بأن سلطان أسرته غدا على وشك الانهيار ؛ وأخفى موته مدى ثلاثة أشهر .

٣ — حروب تاشفين مع عبد المؤمن

نخلفه على العرش تاشفين أكبر أولاده ؛ وباعه على الطاعة كبراء المملكة ووفود الولايات التى لم يملكها الموحدون بعد ؛ وبُعث بولايته إلى حكام الأندلس مثل أبى زكريا يحيى بن غانية ، وعثمان بن أضحى ، وعمه على بن أبى بكر ، فبعثوا إليه فى الحال بطاعتهم ، ودُعى له فى الصلاة بمساجد الأندلس .

وفى تلك الأثناء ، كان عبد المؤمن يخرج من معاقلة الجبلية بين فاس وتلمسان ويشخن فى البسائط ، ويلحق بالمرابطين أعظم الخسائر ؛ واستطاع تاشفين ذات مرة أن يظفر بقسم من جيش الموحدين وأن يبيده ؛ فاضطر عبد المؤمن من جراء هذه الخسارة أن يلجأ إلى جبال الأطلس الوعرة ؛ ذلك لأنه كان يخشى أن يستعين أعداؤه بكثرتهم على تطويقه فى السهل ، سيما وأن قوته من الفرسان كانت ضئيلة بالنسبة لقوى المرابطين ؛ وكانت قوى تاشفين تزداد تباعا ، وتفد إليه القبائل التى دعيت إلى ميدان الحرب من أوطانها النائية من كل صوب ؛ فلما تكاملت قواته ، سار فى أثر عبد المؤمن ، وكان عبد المؤمن قد ارتد صوب تلمسان ؛ وجمع فى الجبال كثيرا من المؤن ، هذا بينما كان المرابطون يمانون من جراء نقصها أياما عناء ؛ ولما دخل الشتاء ، حل بهذه الأنحاء برد قارس لم يعهد مثله ، واضطر تاشفين فى هذا السهل الأجرد ، أن يحرق الأكواخ والحيام ، والقش ، والحراب ، والسروج ليتدفأ بها الجيش ؛ فلما انقضى الفصل واعتدل الجو ، أطلق عبد المؤمن جنده من الجبال صوب تلمسان لى تشخن فى بسائطها .

وكان تاشفين قد عانى طويلا من قلة المؤن ، فبذل جهده لحمل عبد المؤمن على الخروج من الجبال وإرغامه على الاشتباك في معركة ، وأرسل قسما من جيشه إلى الجبال لكي يطوق الأعداء من الجانبين ؛ ولكن عبد المؤمن فطن إلى محاولته ، فانقض بجيشه كالبرق على الحملة التي أرسلها تاشفين ، وكان هؤلاء لا خبرة لهم بحرب الجبال ، فهزمها ومزقها ؛ ثم انحدر من الربى بشدة وعنف إلى السهل حيث كان الرابطون يرمقون زملاءهم الفارين بجزع ؛ ومع أن الرابطين كانوا يتفوقون على أعدائهم في الكثرة أيا تفوق ، فإن الموحدين سرعان ما أحرزوا النصر ، وركن جيش تاشفين إلى الفرار في اضطراب عظيم ، وطارد الموحدون فلول الجيش الرابطي إلى مدى بعيد .

ولو حقت مثل هذه الهزيمة على أمير غير تاشفين ، أقل منه عزما وهمة ، لخبث كل شجاعته ؛ ولكن الهزيمة بالعكس شجذت عزيمه ، وضاعفت همته ؛ فطلب إلى الولايات التي أنهكتها الحرب أن تبذل جهوداً أخرى ؛ ودعا ولي عهده أبا اسحق إبراهيم من الأندلس حيث كان يشرف على شؤونها ، فعاد إلى إفريقية ومعه من بقى من الرابطين وأربعة آلاف فارس من النصارى المعاهدين ؛ ولم يمض سوى قليل حتى استطاع تاشفين أن يسير إلى قتال الموحدين في جيش آخر أوفر عدداً وعدة من جيشهم ؛ وكان عبد المؤمن قد امتلأت نفسه كبرياء وثقة بما أحرز من نصر متوال ، فلم يتردد في لقاء الرابطين ؛ ونظم قواته للحرب تنظيماً بديعاً في شكل مربع ضخم ، فوضع في الصفوف الأولى أشجع جنده من حملة القنا الطوال والطوارق المسانمة ، ومن ورائهم رماة النبال والأسهم ؛ وجعل في وسط المربع قوة الفرسان ، وأفسح لها في كل ناحية مخرج تستطيع أن تخرج منها لمهاجمة العدو كما لو كانت في قلعة ، وذلك حتى لا تخجل بنظام المشاة^(١) .

وهجم الرابطون على أعدائهم بشدة ، ولكنهم لم يستطيعوا اختراق صفوف

(١) ورد في الحلل الوشعية وصف لهذا التنظيم الحربي الذي وضعه عبد المؤمن لقواته

الموحدين المنيعية ، التي شهرت حرا بها ، وقابلت الهاجرين بوابل عنيف من القذائف ؛ ولما استنفذ المرابطون قواهم في تلك الهجمات العقيمة ، برز إليهم فرسان الموحدين من الصفوف الداخلية لمربهم الحربى ، وانقضوا عليهم بشدة ، فارتدوا بلا نظام ، وحقت عليهم الهزيمة ، وفر تاشفين مع فلول جيشه إلى قلعة تلمسان ؛ ولكن عبد المؤمن تبعه إليها ؛ فيم لفوره شطر وهران ، وهى ثغر يستطيع عند الحاجة أن يفر منه إلى الأندلس ؛ وكان قد بعث إلى حاكم أريية أن يبعث إليه بمشر سفائن إلى وهران لكي تحمله وخزائنه وحاشيته إلى الأندلس ؛ ولكن عبد المؤمن استمر في مطاردة الجيش المهزم ؛ فما كاد تاشفين يغادر تلمسان حتى طوقها الموحدون ، وسار عبد المؤمن في قسم من جيشه في أثر سلطان المرابطين الفار إلى وهران ، وبدأ في الحال بحصارها وقطع علائقها مع قلعة الميناء ، وأمل تاشفين أن يستطيع مع ذلك أن يفر تحت جناح الظلام من المدينة إلى الميناء دون أن يفتن إليه الأعداء ؛ ولكن شاء طالع السوء أن يسقط بفرسه أثناء فراره من الربى إلى شاطئ البحر ؛ وفي الصباح وجد الفارس وفرسه ميتين على الشاطئ . ومن الطبيعى أن تكون خاتمة تاشفين مستق لكثير من الروايات المتعلقة بموته ، وكلها متباينة متناقضة . وأمر عبد المؤمن فسمرت جثة تاشفين إلى شجرة صفصاف واحتز رأسه وأرسل إلى تينال ليحفظ بها ؛ وبعد ذلك بثلاثة أيام استولى الموحدون عنوة على وهران^(١).

وكانت وفاة تاشفين بن على في نهاية عام ٥٣٩ من الهجرة (مارس سنة ١١٤٥) ولم يحكم سوى عامين وشهرين ، قضاهما في حروب مستمرة مع الموحدين أعداء أسرته الألداء .

٤ — إبراهيم آخر سلاطين المرابطين في إفريقية

وما كاد موت تاشفين يعرف في مراکش حتى بويع ابنه أبو إسحاق إبراهيم ،

(١) راجع الحلل الموشية ص ٩٩ و ١٠٠ ، والمراكشى ص ١١٢ و ١١٣ ، وروى الفرطاس ص ١٢٢ .

وكان قد اختير وليا للمهد في حياة أبيه ؛ ولكن ثار عليه عمه إسحاق بن علي ، وكان يطمح إلى انتزاع العرش لنفسه ؛ وهكذا عجلت الثورة حول العرش بسقوط دولة المرابطين التي بدا انهيارها واضحاً في الأفق .

وفي تلك الأثناء تابع عبد المؤمن خطواته المظفرة بنشاط ؛ فبعد أن استولى على مدينة تلمسان الزاخرة بالرغم من مقاومتها العنيفة التي زهق فيها مائة ألف من سكانها^(١) سار إلى حصار فاس ، وهي أعظم مدائن المغرب بعد مراكش ؛ وتحطمت في البداية كل جهود المحاصرين أمام ثبات الحامية والسكان . وكان المشرف على الدفاع عنها الأمير يحيى بن علي المرابطي وعبد الله بن الجياني الأندلسي ؛ ولم تنجح محاولة عبد المؤمن في أن يحطم جدرانها باطلاق المياه عليها ؛ وكان قد حجز مياه النهر الصغير الذي يشق المدينة بأقامة السدود ، ثم أطلقها على المدينة دفعة واحدة مؤملاً بذلك أن يماونه التخريب الذي يحدثه الماء على اقتحام المدينة ؛ ولكن عمق الماء حال بين الموحدين وبين دخولها ، واستطاع المحصورون إصلاح ما تصدع من الجدران^(٢) ؛ بيد أن الخيانة حققت ما لم تحققه القوة ، وذلت ما لم تقو العناصر على تذليله ؛ ذلك أن عبد الله الجياني الأندلسي اختلف مع يحيى بن علي ، وأزمع الانتقام منه ، ففتح للأعداء ما عهد إليه بحراسته من الأبواب (ذو القعدة سنة ٥٤٠ هـ - ١١٤٥ م) ، وانضوى تحت لواء الموحدين ؛ وفر يحيى بن علي مع أسرته إلى طنجة ، ومنها إلى الأندلس ؛ وعلى أثر استيلاء الموحدين على فاس التي قتل معظم سكانها وهدمت جدرانها ، سقطت في أيديهم سراحاً معظم المدن المغربية الأخرى .

ولم يترك عبد المؤمن للمرابطين فسحة من الوقت ؛ فأرسل جيشاً إلى الأندلس لكي يخضع الولايات الأندلسية المضطربة لصولته ؛ وسار بنفسه إلى العاصمة

(١) الحلال الموشية ص ١٠١ .

(٢) راجع الحلال الموشية حيث يورد رواية مماثلة ؛ ويقول إن المدينة سقطت بالخيانة (ص ١٠١ و ١٠٢) ، ولكن صاحب روض القرطاس يذكر بالعكس أن محاولة عبد المؤمن في لغرق المدينة قد نجحت ، وانتهت بسقوطها في يده (ص ١٢٣) .

(مراكش) ليضرب بافتتاحها سلطان المرابطين الضربة القاضية . وكانت مراكش يومئذ أزرع المدن الإفريقية سكاناً^(١) ، وكانت تحميها سلسلة من الحصون القوية . ولما طال أمد الحصار نظراً لما أبداه المحصورون من ثبات يحدوه اليأس ، ابتهى عبد المؤمن فوق رابية بالقرب من أبواب المدينة مدينة جديدة ذات مساجد وأبراج ، وذلك لكي يقنع المحصورين بأنه إن عمل أو يقصر في الحصار ؛ ولم تفد عججات المحصورين شيئاً ، وكانت تكلفهم كثيراً من الأرواح . وكان عبد المؤمن بعد أن أيقن بأنه ليس في الاستطاعة أن تؤخذ المدينة عنوة يؤمل أن يحقق كل شيء بالجوع ، وهو ما يقتضى حصر المدينة حصراً دقيقاً ؛ على أن مراكش نظراً لضخامة سكانها لم تلبث أن شعرت بنقص الأفوات ، واشتد الأمر حتى أكلت الأطعمة الفاسدة والرديئة ؛ بل أكلت الجثث البشرية ، وأكل السجناء في السجن بعضهم بعضاً ؛ وأفضى الجوع والضيق والأمراض التي ترتبت على شنيع الأطعمة إلى موت كثير من السكان خصوصاً من الشباب والأطفال ، حتى فنى منهم في وقت قصير حسباً تؤكد الرواية العربية زهاء مائتي ألف نفس^(٢) . وكان الأحياء يطوفون بين الموتى كالأشباح ، وقد خارت كل عزائمهم وقواهم ، وساد على المدينة التي كانت بالأمس آهلة زاخرة ، سكون مروع كالسكون الذي يسبق العاصفة ؛ ففي تلك الآونة العصبية عمد الفرسان النصارى الأندلسيون حسباً قيل - وكانوا من أبرع فرسان إبراهيم ومن خاصة حرسه - إلى مداخلة الأعداء لتسليمهم المدينة بالخيانة ؛ وفي ساعة معينة فتحو أبواب المدينة التي كانت في عهدتهم للموحدين ، فدخلوها دخول الذئاب المفترسة إلى حظيرة الأغنام (شوال سنة ٥٤١ هـ - ١١٤٦ م) ، وكان الموت قد أتى على معظم سكانها ، وأضحى

(١) لعل المؤلف يقصد هنا بالمدن الإفريقية مدن المغرب فقط ، وإلا فقد كانت القاهرة المصرية بلا ريب في تلك العصور كما هي اليوم أعظم المدن الإفريقية عمراً .

(٢) استقى المؤلف هذه التفاصيل فيما يظهر من الحلل الموشية (ص ١٠٣) ، وهي مطابقة في معظمها ، ولكن الرواية العربية تقدر هنا عدد الموتى من المحصورين بمائة وعشرين ألفاً فقط .

كالأموات من بقى منهم حيا ؛ ولم يلق الغزاة بالقصر حيث كان إبراهيم يدافع مع أشجع جنده سوى معارضة يسيرة . وغمر المدينة سيل مروع من الدماء ، واستمر من الصباح حتى المساء ؛ وأسر إبراهيم وأكابر الرعماء واقتيدوا خارج المدينة إلى حيث كان عبد المؤمن . وتأثر عبد المؤمن بأذى ذى بدء بحزن الأمير ويأسه ، ولاح أنه يميل إلى الإبقاء على حياته والاكتفاء بسجنه ، ولكن بطائنه أشارت عليه بإعدامه اتقاء المشاكل المستقبل ؛ ولما غلب سلطان المرابطين يأسه وروعه وجثا يلتمس الحياة لم يجن من ذلك سوى الاحتقار والسخط ، وصاح به الأمير سير ابن الحاج وهو من قرابته : « لماذا تريد يامولاي أن تحط من قدرك وأن ترجو هذا البربرى ؛ فلنمت جميعاً دون أن نبدي أقل بادرة من الضعف ، وإن الموت لخير من الحياة يهبها بربرى »^(١) . فاستشاط عبد المؤمن لذلك غضبا ، وأمر بالأمير سير بجلده حتى مات ، وأمر بإبراهيم وأشباه المرابطين فأعدموا ، واستمر القتل في مراكش ثلاثة أيام هلك فيها من سكان المدينة حسبا قليل ستون ألفا ؛ وهكذا كفر إبراهيم وهو في زهرة شبابه عن زلات آبائه ، ولم يحكم سوى عامين وبضعة أيام ؛ وبموته انتهت سيادة المرابطين ، وجلس الموحدون على عرشهم بعد أن شقوا لأنفسهم إليه طريقا تغمره الدماء ؛ وأخذت المدن والولايات التي لم تخضع بعد تنضوى تباعا تحت لواء عبد المؤمن ؛ وكانت الأندلس آخر من خضع بالرغم من أن عبد المؤمن كان قد أرسل لها جيشا قبل افتتاح مراكش .

والآن وقد أتينا على خاتمة المرابطين ، فلنلق نظرة سريعة على تاريخهم الذى لم يستكمل مائة عام ، فنرى أن قيام دولتهم (كما هو الشأن فى دولة الموحدين) ، يرجع إلى جهود رجل متمصب أخذ بقسط من العلوم ، وقصد إلى تحسين عقائد قومه وأخلاقهم ؛ فبدأ عبد الله بن ياسين بأن أتى إلى قومه اللمتونيين بدين وشرائع حسنة ؛ واستطاع بما أصاب لديهم من التوقير والنفوذ ، أن يغدو قائدا للبدو السذج

(١) وردت هذه الواقعة فى الحلل الموشية بصورة أخرى ، وهو أن الأمير أبا إسحاق جعل يرغب لعبد المؤمن فى إبقائه ، فتغل فى وجهه الأمير سير بن الحاج أحد أشباه المرابطين وقال له : « أترغب إلى أبيك وتشفق عليك . اصبر صبر الرجال » (ص ١٠٤) .

البواسل ؛ ثم قاد المرابطون إلى الفتوح ؛ وقادهم من بعده خلفه المختار أبو بكر بنجاح أعظم ، ووضع أبو بكر خطط مدينة مراکش وأتمها ابن أخيه يوسف ابن تاشفين ؛ وسرعان ما استطاع يوسف بذلكه وبراعته أن يفتزع الحكم من عمه ، وتظاهر عمه بالنزول إليه مختاراً عن سلطانه . ولما ذاع صيت يوسف في الأندلس عقب فتوحه العظيمة في إفريقية ، وكانت الأندلس قد أشرفت على الفناء أمام ضربات ألفونسو السادس ، آثر الأندلسيون سيادة المسلمين على سيادة النصارى ، واستدعوا فاتح إفريقية لفتح شبه الجزيرة ؛ وأنقذت الأندلس من موقعة الزلاقة الشهيرة ؛ ولكن هزيمة ألفونسو لم تنفض بعد إلى سقوط المملكة النصرانية : ذلك أن يوسف قبل أن يستطيع توجيه قواه لمقاتلة النصارى بفجاء اضطر أن يوجهها لمقاتلة أبناء دينه ، فانقلب من منقذ لهم من العبودية إلى مستبد بهم ، وليس أقل استحقاقاً لبغضهم من ألفونسو . ثم ترك يوسف لولده وخلفه على السلطان على معظم إفريقية والأندلس ، ووصل المرابطون إلى ذروة بأسهم في موقعة إقلش التي هزم فيها ألفونسو السادس وفقد ولي عهده . ولم يلبث أن صرى الفساد والاستهتار إلى بلاط على ، وأثارت غطرسة الحكام وعسفهم غضب الشعوب المحكومة ، وفقدت الأسرة المرابطية قدسها من جراء عدم ضراعاتها للتقاليد الإسلامية ، ومهدت بذلك السبيل إلى أطماع مصاح جديد هو أبو عبد الله ، الذي زعم أنه المهدي المنتظر ؛ وأذكى على بهوانه وإغضائه في البداية جرأة أبي عبد الله فاستطاع أن يقضى على هيبتهم ، ثم قضى عبد المؤمن على سلطانهم ؛ ولم يستطع تاشفين ولد على الشجاع أن يقف ظفر المرابطين ؛ فكان حظه أسوأ من حظ أبيه ؛ ثم ترك الملك بعد حكم قصير لولده أبي إسحاق إبراهيم فكانه لم يتلقه إلا ليفقده . وهكذا انهار في أعوام قلائل ذلك الصرح الباذخ الذي شاده في نصف قرن سلاطين أقوياء محبوبهم حسن الطالع .

الفصل الثالث

نهاية سلطان المرابطين ونهاية عصر الإمبراطورية

في اسبانيا

(سنة ١١٤٤ - ١١٥٧ م) - (٥٣٩ - ٥٥٢ هـ)

١ - ثورة الأندلس على المرابطين

كان من المحتوم أن تحدث الحركات والحروب التي هزت إفريقية وأودت بسلطان المرابطين، كذلك في اسبانيا، ثورة واضطرابا وانقلابا في الحكم؛ وكان الأندلسيون ومعظمهم من أصول الشام والبلاد العربية قد اعتادوا الحكم المستقل، فلم يطيقوا ما جبل عليه الولاة المرابطون الإفريقيون من غطرسة وعسف، ولم يركنوا إلى الطاعة إلا خوفا من القوى الزاخرة التي يستند إليها الطغاة؛ فلما اقتضت الحوادث الإفريقية سحب هذه القوى، اضطربت الأندلس في الحال بالثورة من أقصاها إلى أقصاها ضد المرابطين، واعتزم العرب أن يحطموا نير المغاربة معترزين بذكرى أسلافهم الذين أخضعوا المغرب كله لصولتهم.

وكان أول من أذكى ضرام الثورة في الأندلس أيضاً طائفة دينية ترجع تعاليمها - مثل المهدي - إلى الغزالي الذي قضى المرابطون بتكفير كتبه، ومنعت في الأندلس وألقيت إلى النيران أينما وجدت؛ وكان عميد هذه الطائفة أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قسي، وهو من أصل رومي ولد بمدينة شلب من أعمال الأندلس، وكان أول أمره تاجراً، ولكنه نظم الشعر وبلغ فيه شأواً؛ وكان رجلاً

وافر الدكاء والدهاء ، فاتخذ حياة النبي العربي (ص) نموذجاً ، وتشبه به في بعض أحواله ؛ فوهب جميع أملاكه وركن إلى العزلة حيناً ، ثم ذهب إلى ألرية فدرس على أشياخها ، وعاد بعد ذلك إلى بلده شلب وأخذ يدرس كتب الغزالي الممنوعة ؛ فلم يمض سوى قليل حتى التفت حوله جمهرة كبيرة من الطلاب ، فجعل نفسه لهم إماماً ، وبلغ من إعجابهم به وحبهم له أن غدوا رهن أمره وإشارته . وفي أوائل سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) عقد دروسه ومواعظه بأشبيلية ، وحشد له تلميذه محمد بن يحيى الشلطيشي جمعا من التلاميذ والأنصار ، وسرعان ما ألقى ابن قسي قناع المعلم والواعظ ، وظهر في ثوبه الحقيق زعياً شعبياً ؛ والظاهر أنه لم يدع في البداية إلى الثورة على الرابطين ، ولكنه دعا الأندلسيين إلى أن يجعلوا من الأندلس دولة مستقلة كما كانت حتى تم انهيار سلطان الرابطين في إفريقية . وليس من المحتمل أن يكون الرابطون قد أيدوا ابن قسي في حركته كما تزعم بعض الروايات العربية الضعيفة .

وكان أول عمل حربي قام به أحمد هو استيلائه على حصن مارتلة (أو ميرتلة) المنيع من أعمال الغرب (غرب الأندلس) استولى عليه الأندلسيون بالمفاجأة في صفر سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ؛ واتخذ ابن قسي قاعدة لحشد قواه وتنفيذ مشاريعه ، وأمدّه رفيق حدائمه وأخلص أنصاره أبو الوليد محمد بن عمر بن المنذر بقوات جديدة ؛ وكان أبو الوليد — وهو من أوجه أهل شلب — رجلاً واسع المعرفة نافذ الكلمة ، وكان قد قسم ثروته الكبيرة بين الفقراء ، وعاش مدى حين على شاطئ البحر في عزلة يدرس كتب الغزالي ؛ ثم حالفه أبو محمد بن سيدراي ولد حاكم يابرة . وبذل هذان الزعميان جهوداً مدهشة لشد أزر ابن قسي ومضاعفة شيعته ، وتمكينه من الاستيلاء على شلب ويابرة . وامتد خرام الفتنة بسرعة البرق ، وبث نجاح الثوار ، وظفرهم بهزيمة الرابطين في ميدان الحرب وإخراجهم من القلاع ، الروع في قلوب حامية باجة ، فسلمت المدينة وارتدت إلى إشبيلية . وفي الحال أقيمت حكومة جديدة على رأسها أحمد بن قسي ، وولى على شلب محمد بن عمر ،

وعلى يابرة وباجة ابن سيدرأى ، واستطاع هذان الرجلان بفضل وجهتهما ونفوذهما أن يوطدا دعائم الحكم فى تلك الأنحاء ، ورأى ابن قسى أنه لا يقوى وحده على النهوض بالدعوة ، فأشرك معه صديقه محمد بن عمر فى قيادة الجيش وفى الحكم ؛ وتلقب محمد بألقاب الإمارة ، فأتخذ لقب العزيز بالله ، وصرعان ما وفدت إليه من اكسوبة وماردة اللتين انضمتا إلى الثورة أمداد من الجند ؛ فسار فى قواته إلى سهول وادى يانة ، وافتتح قلعتى ولبة ولبلة دون كبير مقاومة ؛ ذلك لأن سكان هاتين المدينتين كانوا يتوقون إلى تحطيم نير الرابطين ، فكانت الخيانة بالأخص هى عون الثوار فى الاستيلاء على لبلة بمثل هذه السرعة .

وشجع هذا النجاح الثوار على القيام بمشاريع أعظم وأخطر ؛ فلم يحجموا بعد افتتاح لبلة عن السير توالى مدينة إشبيلية بالرغم من ضخامتها وحصانيتها ؛ وكان لابن قسى فيها جبهة من الصحب والأنصار ، فاستولى الثوار على حصن القصر وطلاطة والحصن الزاهر من أعمال شرفها ، وجنحت هذه المنطقة كلها إلى الانضمام إلى الجيش الثائر ، وكان يزداد عدده يوما بعد يوم ؛ ولم تمض أشهر قلائل حتى سقطت قلاع كثيرة أخرى ، وبسط الثوار سلطانهم على غربى الأندلس كله ؛ وهال امتداد الثورة على هذا النحو كبير قواد الرابطين فى الأندلس أبا زكريا يحيى ابن غانية ، فحشد فى الحال جيشا ليضع حدا لتقدم الثوار ، وليقمع الثورة إذا أمكن ؛ وكان الثوار قد استولوا على طريانة فى ظاهر إشبيلية ، وأحاطوا بأشبيلية ذاتها ، ولكنهم ما كادوا يعلمون باقتراب الرابطين حتى ركنوا إلى الفرار على ضفاف النهر (وادى يانة) ، فأسرع ابن غانية فى اللحاق بهم واضطروهم إلى التوقف ، ومزق جوعهم فى معركة دموية نشبت بين الفريقين فقتل منهم عدد وافر ، ولم تنج فلول الجيش المهزم من الفناء المطبق إلا بالاتجاه إلى قلعة لبلة .

وحاصر ابن غانية الثوار فى لبلة وفى شلب ، ولكن تفوق قواته الكبيرة على قوات خصومه الممزقة لم يفته شيئا ، هذا إلى ما كان يقاسيه أثناء الشتاء من قسوة البرد ؛ ثم إنه ما لبث أن جاءته الأنباء المزججة تترى من كل صوب بقيام

الثورة في مختلف النواحي ، فرأى أن وجوده ألزم في بعض النواحي الأخرى من الغرب ، واضطر إلى رفع الحصار في الحال عن لبلة وشلب^(١).

وما كاد أبو زكريا بن غانية يغادر قرطبة بجنده إلى إشبيلية حتى نشط خصوم المرابطين لمل المدينة (قرطبة) بعد أن ضعفت حاميتها على الانضمام إلى جانبهم ، ثم العمل على اجتذاب المدن الأخرى لتأييد القضية الأندلسية بعد أن تنحاز إليهم عاصمة الأندلس ؛ ووثب أبو جعفر حمدين بن محمد على رأس المتآمرين ، وقتل قاضي المدينة ، ونادى بنفسه في المسجد الجامع أميراً على قرطبة باسم المنصور بالله ، وذلك في الخامس من رمضان سنة ٥٣٩ هـ (مارس سنة ١١٤٥ م) ، واشتد في مطاردة كل من لحقته رية في الانحياز إلى المرابطين ؛ وفي الحال اضطرت الأندلس كلها بالثورة على المرابطين ، ورفُع علم الثورة في كل المدن ، وطُردت الحاميات المرابطية أو قُلت أو حوصرت في القلاع ، واضطر أبو محمد عبد الله بن غانية والى بالنسبة أن يفر منها بأهله تحت جناح الظلام كيلا يأسره الثوار ، وسار إلى شاطبة حيث كان لديه بعض الجند ، وأقيمت في الحال حكومة جديدة عهد برياستها إلى القائد أبي عبد الملك مروان بن عبد العزيز (شوال سنة ٥٣٩ هـ - أبريل سنة ١١٤٥ م) ، فبادر إلى اتخاذ الأهبة لمحاربة والى بلنسية الفار في شاطبة^(٢).

وفي ١٧ رمضان سنة ٥٣٩ هـ (١٢ أبريل سنة ١١٤٥ م) أعنى لاثني عشر يوماً من ثورة قرطبة قامت الثورة في مرسية ، واختاف أهلها في البداية في أمر من يلي الحكم ؛ ثم فاز الحزب الذي يرغب في الانضمام إلى أمير قرطبة الجديد ، وقام

(١) فصل ابن الأبار في « الحلة السراء » حوادث الحركة الثورية التي قام بها أحمد بن الحسين بن قسي ، وصاحبه محمد بن عمر بن المنذر ، ومحمد بن سيدراي تفهيماً حسناً ، وأورد لنا نبذة عن أشخاصهم وأعمالهم وشيئاً من نظم ابن قسي (راجع ص ١٩٩ و ٢٠٢ و ٢٣٩) وتحدث المراكشي في نبذة موجزة عن حركة ابن قسي ووصفه بأنه من أهل الفتنة والشهوة (ص ١١٦) ، ولكن ابن خلدون لا يتحدث عن هذه الحركة ويقول لنا فقط إن ابن قسي كان يحسن مارتلة حينما انهارت مملكة المرابطين ، وإنه دعا إلى الموحدين وأوفد بطاعته إلى عبد المؤمن رسولا خاصا (ج ٦ ص ٢٣٣ و ٢٣٤) .

(٢) راجع في سيرة مروان بن عبد العزيز ، « الحلة السراء » ص ٢١٢ وما بعدها .

القاضي عبد الله الطغرثي القونقي وهو صديق لابن حدين^(١) في جند المدينة يؤيد
رياسة أبي جعفر جعفر بن علي وولايته لقضاء مرسية ؛ بيد أن أبا جعفر كان رجلاً
وافر الطموح ، وكان يعمد في قتل الأسرى المرابطين ، فلم يكتف بهذه الولاية ،
واعتزم أن يحقق الاستقلال لنفسه ، فلم تمض أيام حتى نادى بنفسه أميراً على المدينة
باسم الناصر لدين الله ، وبسط حكمه مدى حين على مرسية وولاية تدمير بالرغم من
مقاومة بعض الزعماء ، وتحالف مع مروان بن عبد العزيز أمير بلنسية ضد المرابطين
الذين امتنعوا في قلعة شاطبة .

وكان الشاعر والفقير الأشهر القاضي أبو الحسن علي بن عمر بن أضحى^(٢) في
المرية أكثر وفاء للأمير قرطبة من قاضي مرسية ؛ فطرد المرابطين من المرية وقفا
لرغبة ابن حدين بعد أن قتل عدداً منهم في المعارك التي نشبت بينه وبينهم ؛ بيد أن
القلعة بقيت مع ذلك في أيديهم .

وثار الشعب في مالقة في الوقت نفسه ضد واليها المنصور بن محمد بن الهادي ،
واختار للرياسة أبا الحكم ، فالتجأ المرابطون إلى القلعة وامتنعوا بها حتى أرغوا
على التسليم بعد حصار دام سبعة أشهر في ربيع الثاني سنة ٥٤٠ هـ (سبتمبر
سنة ١١٤٥ م) .

ولما وقف زعيم المرابطين القائد ابن غانية على أنباء هذه الحركات المزعجة أدرك
أنه يستحيل عليه أن يعيد النظام ثانية إلى الغرب (غرب الأندلس) ، وأنه لا بد
أن يفقد المرابطون من جراء ثورة الأندلسيين ولايات بأسرها ؛ ومن ثم فقد عهد
إلى أخيه محمد الذي كان والياً لأشبيلية أن يسير في جنده وسفنه في الحال إلى
الجزائر الشرقية (جزائر البليار) فيحتلها لكي يظفر بما جاء أمين يقصد إليه عند
الفرار ، ولكي يتخذها من جهة أخرى قاعدة يستطيع منها أن يعمل على إخضاع
الشعور الثائرة وردها إلى الطاعة .

(١) يلاحظ أن اسمه الكامل هو أبو جعفر حدين بن محمد بن علي بن حدين .

(٢) راجع في سيرة القاضي ابن أضحى « الحلة السراء » ص ٢٠٧ وما بعدها .

ولكن هذا الحرص أفضى إلى خسارة جديدة فادحة ؛ ذلك أنه ما كادت السفن المقلّة للمرابطين تغادر إشبيلية ، حتى نهض القاضي عبد الله بن ميمون ، فبسط حكمه على الولاية كلها ، واستطاع بمؤازرة معظم سكان إشبيلية أن يستولى على المدينة ذاتها ، وسقط المرابطون الذين بقوا بالمدينة وأنصارهم صرعى غضب الشعب وبطشه .

أما العاصمة (قرطبة) فكانت نظراً لعنف أهلها وحدة نفوسهم ، تضطرم بشوة بعد أخرى ؛ وكان الشعب ينقسم شيعاً وأحزاباً ، وكانت الأهواء والأطماع تودى بكل إجراء يتخذ لصون النظام ؛ ولم يتمتع الأمير أحمد بن المنصور بالله بحكم قرطبة سوى أربعة عشر يوماً (حتى ١٧ رمضان سنة ٥٣٩ هـ) ، وفي أثناء ذلك عمد أنصار سيف الدولة أحمد بن عبد الملك بن هود ، وهو الذى كان القيصر ألفونسو ريمونديز قد عوضه عن أملاكه فى مرسطة بأراض فى ولاية طليطلة إلى مداخله أهل قرطبة وإغرائهم بالوعود والمطايا على التخلي عن ابن حمدين ؛ ولما قدم سيف الدولة بنفسه إلى قرطبة على رأس قوة من الجند النصارى ، أمد به ملك قشتالة ، هرع الشعب المقلب المشغوف بالجديد إلى تأييده ، وقد سجرته نسبته الملوكية ، وثورته الطائفة ، وخلالها الباهرة ؛ وخُلع ابن حمدين وفر من قرطبة ، ونودى بسيف الدولة أميراً باسم المستنصر بالله ؛ ولكن روعة الاحتفال بولايته لم تحمل دون قصر سلطانه ؛ ذلك أن حكمه لم يطل حتى مثل حكم سلفه ، ولم يطل سوى ثمانية أيام ، لم يطق أهل قرطبة بمدّها صبراً على عسف وزيره ابن شماغ ، وعلى منظر الجند النصارى ؛ فقتلوا الوزير واضطروا الأمير إلى الفرار ناجياً بنفسه ؛ ولجأ أولاً إلى حصن فرنجولش . ثم قصد بعد ذلك إلى جيان ، حيث اعترف الشعب بولايته^(١) ، وكان من الواضح أن الذى أحدث هذا الانقلاب فى الحكم هم شيعة ابن حمدين ، وكان يعاونهم فى ذلك حزب الكبراء ، الذى يعمل لنصرة ثوار الغرب ؛ وكان هؤلاء الكبراء يعترفون أن ينادوا بمحمد بن عمر شريك ابن

(١) راجع « الحلة السيرة » ص ٢٠٤ و ٢٢٥ .

قسي في الحكم ، أميراً على قرطبة ، وكان محمد مذر رفع ابن غانية الحصار عن لبلة قد سار بجنده صوب قرطبة ، بيد أنه ما كاد يقترب منها حتى علم بأن ابن حمدين قد سبقه ، وعاد إلى المدينة بفضل أنصاره وهم جبهة كبيرة (١٠ ذى الحجة سنة ٥٣٩ هـ — ٣ يونية ١١٤٥ م) ، ونودي به للمرة الثانية أميراً على قرطبة بين مظاهر الفرح العام ، ولم يبق أمام محمد إلا أن يعود إلى الغرب ؛ وفي تلك الأثناء استطاع ابن حمدين ، بمعاونة أصدقائه وشيعته ، أن يبسط حكمه على رنده والأرك وشريش ، وشذونه وقونقة ، وكذلك مرسية لدى قصير ؛ أما ابن غانية فقد لبث في معظم قواته مشغولاً بإخماد ثورة الغرب ؛ وكانت غرناطة لا تزال أهم مدينة باقية في قبضة المرابطين وكان يقتتل من أجلها كل الأحزاب ، فنار الغرناطيون بتحريض شيعه ابن حمدين ، واضطرت الحامية المرابطية الضعيفة أن تلجأ إلى القلعة أو القصبة ؛ وأخذت الوقائع الدموية تنشب كل يوم بين المحاصرين والمحصورين ، وقتل القاضي أبو محمد بن سمالك زعيم الثوار في إحدى هذه الوقائع (١) ؛ فاختار الثوار للولاية مكانه أبا الحسن علي بن عمر بن أخشى قاضي المرية السابق ؛ وكان بالرغم من ولائه السابق للمرابطين ، قد أخرجهم من المرية ، وانضوى تحت لواء ابن حمدين ، واختار ابن حمدين لولاية المرية عبد الله بن مردنيش ؛ ومع أن ابن أخشى أبدى في غرناطة نشاطاً في مقاومة المرابطين ، فإنه لبث حيناً يتردد بين الانضمام إلى ابن حمدين ، والانضمام إلى سيف الدولة بن هود ، على أنه لبث يجمع الأمداد من كل ناحية ، وكان منها قوة على رأسها الأمير أبو جعفر وإلى مرسية ، حتى اجتمع لديه جيش قوامه اثنا عشر ألف مقاتل ؛ وجمع المرابطون أيضاً كل قواتهم بقيادة الأمير علي بن أبي بكر ، حفيد يوسف بن تاشفين ، واستطاعت الحامية المحصورة في غرناطة أن تنضم إليه ؛ ونشبت بين الفريقين معركة دموية ، سقط فيها أبو جعفر أمير مرسية ، ولجأ جنده وفلول الجيش المنهزم إلى الفرار في غير نظام ، واسترد المرابطون غرناطة ، ثم استردوا كذلك المرية بعد قليل .

(١) راجع « الحلة السراء » ص ٢٠٨ و ٢٢٥ و ٢٢٦ .

أما في مرسية ، فقد نودى بعبد الرحمن بن طاهر أميراً لها ، وذلك في ربيع الأول سنة ٥٤٠ هـ (سبتمبر سنة ١١٤٥ م) ، وكان ابن طاهر عالماً كبيراً ولاسيما في الشريعة والتاريخ ، كما كان زعيماً وقائداً مجرباً . بيد أنه كان قليل الطموح ، بعيداً عن الأهواء الشخصية ، ولم يفكر إلا في خير وطنه ؛ فرأى أن ينزل عن سلطانه المستقل ، وأن يدعو بالإمارة على مرسية لسيف الدولة بن هود ، الذي كان يمثل في نظره مجدد استقلال الأندلس ، واكتفى بأن يكون نائبه في الحكم . فاستاء لذلك أنصار ابن حمدين ، وغادر مرسية وفد من الكبراء إلى قرطبة لمفاوضة ابن حمدين ، فاستقبلهم بترحاب مؤملاً أن يسترد المدينة بمعاونتهم في أول فرصة ؛ وجهز قوة مسلحة ، وحاول أن يغري قادة جند ابن طاهر ، بيد أنه لم يكن من الميسور في هذا الوقت الذي سادت فيه الفوضى والانقلابات المتوالية ، وأضحى كل يبحث عن الرئاسة والنفوذ لنفسه ، لأولئك الذين ظفروا بالحكم أن يعملوا على تقوية شيعتهم ؛ ذلك أنه كانت تقوم بلا انقطاع أحزاب جديدة ترمي إلى تأييد سلطان هذا الزعيم أو ذاك ؛ وهكذا ، فإن ابن طاهر لم يلبث على حكم مرسية سوى خمسين يوماً ؛ ثم نهض القاضي أبو محمد بن عياض على رأس قوة من الجند على حدود المدينة ، وكان الفريقان - فريق ابن هود وفريق ابن حمدين - يخطبان وده ؛ ولكنه آثر أن ينادى بنفسه في أريولة أميراً على مرسية ؛ وفي الحال سار إلى المدينة ودخلها دون أن يستطيع ابن طاهر أية مقاومة ، وذلك في العاشر من جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ (نوفمبر سنة ١١٤٥) ، واستقبله أهل مرسية الذين عرفوا بسرعة تقلبهم في فيض من الفرح والتأييد ، ولم يتعرض ابن عياض - بالرغم من مطالبة أنصاره بقتل ابن طاهر له - بأذى ، ولم يكتف بالبقاء على حياته ، بل رأى بذكائه وحكمته أن يتركه حراً في مرسية يعيش في سكينة ورغد^(١) . ولم تكن الحال في بلنسية أقل اضطراباً وفوضى ، فقد كان الحكم فيها عرضة للانقلاب المستمر ؛ ولما أخرج المرابطون منها ، واستولى الأعيان على الحكم ،

(١) راجع « الحلة السراء » ص ٢١٤ .

دُعي أبو عبد الملك مروان بن عبد العزيز لولايتها ، فتولاها مرغماً لما يعرفه من
تقلب الشعب ودسائس الأعيان . وكان المرابطون يخرجون من شاطبة فيشنقون
في الأنحاء المجاورة حتى أبواب بلنسية ، ويستاقون كثيراً من الأسرى والمتاع ،
فجهز مروان الجند لقتالهم . وسار إلى شاطبة ، واستطاع بمخالفة الأمير أبي جعفر
والى مرسية يومئذ أن يستولى عليها بعد حصار دام عدة أشهر ؛ وأطلقت الحامية
الرابطية لتسير إلى المرية ، وكانت قد عادت يومئذ إلى يد المرابطين ؛ وبسط مروان
حكمه على شاطبة ، واليقنت ، وعدة أنحاء هامة أخرى ؛ ولما عاد إلى بلنسية دخلها
في موكب حافل ، راكباً على جمل ، وقد ارتدى حللاً فاخرة ، وتقلد أسلحة ثمينة
ساطعة ، يخف به الأعيان وأكابر الفرسان ، وجموع الشعب الفغيرة من حوله
تهتف هتاف الفرح (جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ - أكتوبر سنة ١١٤٥ م)^(١) .
بيد أنه لم تمض أربعة أشهر حتى سئم سكان بلنسية أميرهم ، وأخذوا يفكرون
في نزعهم من الحكم . ولقد قال بهذه المناسبة مؤرخ عربي : كان تأييد الشعب في
تلك الأيام كثير الاضطراب حتى أنه ما يكاد يرفع إلى الحكم رجلاً تاق إلى إمارته
حتى يسأله ويغضه ، ويرى في حكمه وفي خلالة ما لا يطاق ؛ وهكذا فإن أعيان
المدينة وقضاة المدن المجاورة ، أعنى اليقنت وليرية وشقر ومريطر وشاطبة
وغيرها دعوا أمير مرسية الجديد ، أبا محمد بن عياض ، لكي يتولى أيضاً حكم
بلنسية ، وأن يعمل على توحيد الكلمة بين شعبها الممزق ؛ وبينما كان مروان
ابن عبد العزيز يحاول أن يعمل على مقاومة هذه الحركة ، ثار الشعب فاضطر
إلى مغادرة قصره ، واختفى لدى بعض أصدقائه ، ثم تدلى من سور المدينة تحت
جنح الظلام ، لكي ينقذ حياته بالفرار ، وقد استطاع المنكود بالفعل أن يتق
مطاردة شعبه ، ولكنه ضل الطريق حتى لحق بجبال المرية ، وهناك سقط في
أيدي المرابطين إذ عرفوه رغم تنكّره وصفدوه بالأغلال ؛ بيد أنهم أبقوا على حياته
ثم حملوه إلى ميورقة ، وهناك استطاع أن يفتدى نفسه بمبلغ كبير من المال . ثم

(١) راجع « الحلة السراء » ص ٢١٤ .

قصده إلى مراکش حيث عاش في كنف الموحدين ، وتوفي هنالك بعد حياة طويلة .
 أما بالنسبة ، فقد ندب ابن عياض لولايتها قريبه عبد الله بن محمد بن سعد بن مردنيش ؛
 وأما سيف الدولة أحمد بن هود ، فقد استطاع في تلك الأثناء وبعد أن أقصاه
 خصومه عن قرطبة ، أن يستولى بمعاونة الجند القشتاليين على جيان ورنده وبياسة ،
 وكان ابن جزى قاضى جيان يضطرم مثله بنفسه للمرابطين ، فتحالفا معاً ؛ وسار
 ابن هود إلى غرناطة حيث كان القاضى أبو الحسن بن أضحي يحاول في كثير من
 الدهاء أن يبدو صديقاً حميماً لجميع الأحزاب : المرابطين ، وحزب ابن حدين ،
 وحزب سيف الدولة ؛ وخف القاضى إلى لقاء سيف الدولة راجلاً مبالغاً في تكريمه
 ودعاه مع ولده عماد الدولة إلى منزله ، وأقام لها مأدبة ، ولما قدم القاضى إلى ضيفه
 بناء على طلبه ، قدما من الماء ، بادر بعض الحضور إلى تحذير سيف الدولة من
 شربه لأنه مسموم . وقد ظهر في الواقع أن القدح يحتوى على عصير برتقال ،
 كان ممزوجاً بسم حامض حلوا المذاق ، يقتل من يجرعه . وفي بعض الروايات أن
 القاضى شرب عندئذ من القدح ليدفع سوء المظنة عن نفسه فمات مسموماً ، ولكن
 الواقع أنه توفي بعد ذلك ، وسوف نراه بعد ذلك مراراً يكافح ضد المرابطين ؛ أما
 سيف الدولة فقد غادر المدينة خشية العواقب ، وسار لمهاجمة قصبة الحمراء حيث
 كانت بقية من المرابطين تمتنع بها ؛ ووثب المحصورون لمقاتلة المهاجمين مراراً ،
 ونشبت بين الفريقين عدة مواقع دموية لم يفد سيف الدولة شيئاً منها ؛ وفي اليوم
 الثامن استطاع المرابطون التغلب على خصومهم وأجأوهم إلى الفرار ، وأسروا
 عماد الدولة ولد الأمير ، وأخذوه إلى القصبة حيث توفي في نفس اليوم من
 جراحه ، وأبدى المرابطون شهامة فوضعوا جثة الأمير في نعش ثمين محلى بالوشى
 المذهب ، مضمخ بأنواع المسك وأرسلوه إلى والده لدفنه^(٢)؛ وفاضت نفس الأمير
 حزناً على ولده ، وسخطاً على قصور الفرناطيين وفتورهم ، فلم يلبث في غرناطة
 وضواحيها سوى شهر ، ثم عاد إلى جيان ، بعد أن أيقن بمقم هجماته ضد قصبة

(١) راجع قصة القدح المسموم في الحلة السراء ص ٢٠٩ .

(٢) راجع « الحلة السراء » ص ٢٠٨ .

الحمراء ؛ أما أبو الحسن بن أخشى ، فقد بقى على حكمه المدينة ، وعقد مع الرابطين هدنة ، وأجاز لهم وفق رغبتهم ، في السفر إلى المنكب حيث يبحرون إلى ميورقة أو إفريقية .

أما سيف الدولة فقد كان في مرسية وبلنسية أوفر حظا منه في غرناطة ؛ ذلك أنه دعى منهما لتولى الإمارة عليهما ، فسار إليهما في قوة من الحشد النصارى ، ودخل مرسية في ١٨ رجب سنة ٥٤٠ هـ (يناير سنة ١١٤٦ م) ، فبادر أمير مرسية وبلنسية القاضي ابن عياض ، والحاكم عليهما من قبله وهما محمد بن سعد ابن مردنيش وعبد الله بن سعد ، إلى مبايعته والخضوع له ، وأطاعته جميع البلاد الواقعة على الشاطئ من لورقة إلى مصب نهر إيبرو ؛ وازداد سيف الدولة ثقة بنفسه وقوته حتى اعتقد أنه يستطيع الاستغناء عن معاونة الجند النصارى ، وكان يقودهم ثلاثة من الكونتات هم إماليش وبونسيوس ومارتن ، وكانوا في تلك الأثناء قد افتتحوا جيان وبياسة وأبدة ، وأخذوا في سكانها المسلمين ، فطلب إليهم سيف الدولة تسليم المدن المفتوحة ، وكذلك تسليم الأسرى والغنائم ، وأن يقفوا غزواتهم المخربة التي قاموا بها في أراضي المسلمين بالتحالف مع القاضي الطموح عبد الله الطغرأتى والى قونقة ، فيما بين شاطبة وأبدة ؛ ذلك لأنه لا يستطيع أن يسمح بأن يقوم النصارى بغزو المدن والأراضي التابعة له وتخريبها . ولما طال الجدل بينه وبينهم دون جدوى لجأ الفريقان إلى السلاح ؛ فسار الكونتات النصارى وحليفهم القاضي الطغرأتى الذى لم يعترف بسيادة سيف الدولة في قواتهم ، — بعد أن حاصروا شاطبة عبثا — لمقاتلة قوات مرسية وبلنسية ؛ والتقت زهرة الفروسية الاسبانية والسلمة في موقعة دموية في سهل « البسيط » على مقربة من جنجالة في ٢٠ شبان سنة ٥٤٠ هـ (٢ فبراير سنة ١١٤٦ م) ، وأسفرت الموقعة في النهاية عن هزيمة المسلمين وفرارهم ، وأسرى سيف الدولة ، وقتله بعض الفرسان دون علم الزعماء النصارى مما أثار بالغ سخطهم ، وقتل عبد الله بن سعد في الموقعة^(١)

(١) راجع تفاصيل هذه الموقعة في الحلة السيرة ص ٢٢٦ .

وارتد ابن عياض في فلول الجيش إلى بلنسية ؛ وسار عبد الله الطغراني في جيش من النصارى إلى مرسية لمحاربة واليها محمد بن سعد بن مردنيش ، واضطر ابن مردنيش أن يخوض بقواته القليلة معركة ثانية مع قوات تفوقه في الكثرة ، وقاتل الفريقان بمتتهى الشجاعة ، ولكن الكثرة غلبت في النهاية ، وفر ابن مردنيش ناجياً بنفسه إلى اليقنت ، وترك مرسية دون دفاع تحت رحمة الظافرين ، فدخلها عبد الله الطغراني وبسط حكمه عليها ، وذلك في أوائل ذى الحجة سنة ٥٤٠ هـ (مايو سنة ١١٤٦ م) ، بيد أنه لم يستطع أن يحول دون تقدم حلفائه النصارى إلى المدينة . وترتب على ذلك أن سخط عليه أهل المدينة لما يكنونه من بالغ حقد للنصاري ، ولم يوفق إلى استمالتهم بالرغم مما بذله لإرضائهم ؛ وانتهز ابن عياض هذه الفرصة ، فسار في قواته الجديدة التي استطاع أن يحشد لها في بلنسية واستولى على مرسية ؛ ذلك أنه ما كاد يهاجمها حتى ثار أهلها وانضموا إلى القادمين في مهاجمة قوات القاضي عبد الله ، وكان استيلاؤه عليها في السابع من رجب سنة ٥٤١ هـ (ديسمبر سنة ١١٤٦ م) ، وكان عبد الله يقاتل بمتتهى الشجاعة ، ولكنه اضطر أخيراً إلى الفرار في نفر من أصدقائه ، وهرع أعداؤه في أثره يطاردونه ، وجفل جواده لحجر أصابه ، فألقاه من فوق ظهره ، وقبض عليه مطاردوه وقطعوا في الحال رأسه ؛ وهكذا استطاع ابن عياض للمرة الثانية الاستيلاء على مرسية ، وقد عفا عن كان من أهلها موالياً لعبد الله الطغراني ، ولكنه لم يرحم من بقى فيها من النصارى فأمر بقتلهم جميعاً ، وبسط ابن عياض حكمه مرة أخرى على جميع أراضي الشاطئ الواقعة بين لورقة ومصب نهر ايبرو ؛ ولكن أنصار عبد الله وحلفاءهم من النصارى لبثوا يسيطرون على المناطق الجبلية الواقعة بين قونقة واقلش وبياسة ممتنعين بقلاعها ، بالرغم من كل الجهود التي بذلت لإخضاعهم .

٢ — تقلب القيصراً ألفونسو بين محالفة المرابطين والأندلسيين

كانت حالة الأندلس تسوء من يوم إلى يوم وتزداد اضطراباً وفوضى؛ فكانت الأحزاب تتكاثر، وترتفع وتسقط، وكان الولاة والحكام يسقطهم الزعماء الأصاغر متخذين من تقلب الشعب وسيلة إلى قلب الحكم بلا انقطاع. ومع أن مسلمي الأندلس كانوا يزعمون التخلص من النير الأجنبي، سواء أكان نير المرابطين أم نير النصارى، فإنه كان ينقصهم الوحدة والتماسك؛ ذلك لأن نضال الأحزاب فيما بينها كان يحول دون خضوع البعض للبعض الآخر. وكان سيف الدولة أحمد ابن هود أكثر الزعماء توفيقاً في نيل تأييد الأندلسيين، ولا سيما منذ انقلاب على النصارى فترك حلفهم، وشهر الحرب عليهم، ولكن خاتمته المحزنة دفعت بكل شيء إلى الفوضى القديمة، وعاونت المرابطين أنفسهم على النهوض.

وبينما كانت الأندلس تموج بالفتن والحروب الأهلية، وتقدم إلينا — كالبحر الذي أثارته العواصف — صورة من غضب الطبيعة، كانت دولة المرابطين في إفريقية تسير إلى الانهيار أمام ضربات الموحدين وفتوحاتهم؛ ولم يكن ثمة من اليسور عندئذ أن ترسل الأمداد إلى قائد الجيوش المرابطية العام في إسبانيا أبي زكريا بن غانية؛ وكان ابن غانية يقود قوات قليلة، ويحيط به الأعداء من كل صوب، ومع ذلك فقد استطاع أن يقوم بكل الممكن؛ ولم يظفر فقط بأن وضع حداً لتقدم أحمد بن الحسين بن قسى في الغرب، واسترد المرية وإشبيلية، وبسط سلطانه على ميورقة وقرنطة وقرمونة، وعدة أماكن أخرى يمكن أن تقدم قلاعها المنيعة إلى المرابطين عند الفرار ملاذاً أميناً، ومنها يستطيعون الإغارة على الأندلسيين بلا انقطاع، ولكنه استطاع بالأخص أن يستغل تفرق الأندلس وتطاحن زعمائها لتأييد مراكز المرابطين ببراعة. ولما رأى أحمد بن قسى أن ابن غانية كاد يقضى على الثورة في الغرب، بمث إلى أمير الموحدين عبد المؤمن رسولاً ينبئه بأن سيادة المرابطين أضعفت على وشك الانهيار، وأنه يدين بنفس العقائد التي يدين بها الغزالي والمهدي، وأنه قد ثار ضد المرابطين، وانتزع منهم كثيراً من أراضي الغرب، وخاض معهم عدة وقائع،

وأنه يقدم طاعته إلى أمير الموحدين ويدعوه إلى الجواز إلى إسبانيا ؛ فأبدى عبد المؤمن رضاه للرسول وعين الخائن لوطنه واليا على الغرب وذلك في ربيع الثاني سنة ٥٤٠ هـ (أكتوبر سنة ١١٤٥ م)^(١) ، وما كاد قائد المرابطين ابن غانية يقف على مسمى ابن قسى حتى بادر إلى الاستفادة منه في بث التفرق بين ثوار الغرب ، وانتزاع زملاء ابن قسى وأنصاره منه ، واستطاع أن يوغر سيدرأى صاحب يابرة ، ومحمد بن عمر صاحب شلب — وكانا يقودان أيضاً قسما من جيوش الغرب — غير وحسداً على ابن قسى من جراء تحالفه مع الموحدين ، سيما وقد كان الموحدون يندرون بأن يصبحوا على الأندلسيين أشد وطأة من المرابطين . ثم إنه كان خليقا بالمرابطين وقد اضمحل خطرهم وشأنهم أن يبداوا للوطنيين الأندلسيين بالنسبة لغزاة إفريقية الجدد أصدقاء لا أعداء ، ومن ثم فإن سيدرأى وابن عمر لم يترددا في الانفصال عن زميلهما القديم ، والانضمام بقواتهما إلى المرابطين أعدائهما السابقين ؛ وقد أخذوا على أنفسهما أن يتوليا قتال ابن قسى ، وأتاهما بذلك الفرصة لابن غانية للسير بقواته ضد قرطبة .

ولما رأى أحمد بن قسى تفوق قوات أعدائه من حوله ، وقد تركه الموحدون دون عون ، ارتد في محنته صوب ألفونسو هنريكز ملك البرتغال أو كما تسميه الرواية العربية « الطاغية ابن الريق صاحب قلنبرية »^(٢) ، وطلب إليه العون ضد أعدائه ووعدته بالغنائم والهدايا الفخمة ، والظاهر أيضاً أنه تعهد بأن يدفع إليه الجزية

(١) يقول ابن خلدون إن ابن قسى كان صاحب مارتلة حينما أوفد رسوله إلى عبد المؤمن سنة ٥٤٠ هـ ويذكر لنا اسم الرسول وهو أبو بكر بن حبيس ، ثم يقول لنا إن الرسول لقى عبد المؤمن في تلمسان ، ولكن عبد المؤمن أنكر ما تضمنته رسالة ابن قسى من نعمته بالمهدى ولم يجاوبه (ج ٦ ص ٢٣٣ و ٢٣٤) . ولكن المراكشي (ص ١١٦) يقول لنا إن الموحدين حينما اقتحموا حصن مارتلة قبضوا على ابن قسى ونفوه إلى المغرب . ويقول ابن الأثير في الحلة السيرة (ص ٢٠٠) إن ابن قسى هو الذي عبر إلى المغرب بنفسه ثم عاد إلى الأندلس محبة جيش الموحدين الذي عبر إليها .

(٢) راجع الحلة السيرة ص ٢٠٠ والظاهر أن هذه التسمية ، أى « ابن الريق » إنما هي تحريف لاسم هنريكز الذي يكتب بالإسبانية « انريك » Enrique ، وهو والد ألفونسو ملك البرتغال . وأما قلنبرية فقد كانت يومئذ عاصمة البرتغال .

كتابع له ؛ فلم يتردد ألفونسو في إجابته وبأدر في قوائمه من الفرسان مخترقا أراضي
 باجة وماردة لإمداد حليفه وعاث فيها أيما عيث . ونشبت بين الفريقين المتحاربين
 عدة وقائع دموية دون أن يحرز أحدهما نصراً حاسماً ؛ ولما حل الشتاء واشتدت
 وطأته (شعبان سنة ٥٤٠ - يناير سنة ١١٤٦م) عاد البرتغاليون إلى بلادهم مثقلين
 بالغنائم والتحف الثمينة ؛ بيد أن ابن قسي أثار بتحالفه المشين مع النصارى وتمهده
 بالخنوع للملك البرتغال احتقار أنصاره أنفسهم ، ونبذه أنصاره في قلعة ميرتلة التي
 كان يحاصرها أعداؤه ، واستطاع سيدراى أن يفتتح حصونها دون صعوبة ،
 وأسر ابن قسي وحمله معه إلى باجة وسجنه هناك ، ولكن صديقه الوفي عبد الله
 ابن على بن الصميل الذى افتتح باجة فيما بعد وفق إلى الإفراج عنه وإطلاق سراحه .
 وكان اضمحلال سلطان المرابطين في إفريقية ، وتفوق قوى الأندلس عند
 اتحادها ، والعمى الذى لقيه ثوار الغرب من ملك البرتغال ، ثم العاصفة التى تنذر
 باضطرامها مقدم الموحدين إلى اسبانيا ؛ كل هذه حملت قائد المرابطين الذى ترك
 دون عون من إفريقية ، على أن يسعى للحصول على مساعدة النصارى . وقد
 حصل عليها من القيصر ألفونسو أعظم أمراء اسبانيا ، وبذل في سبيلها بلا ريب
 وعوداً ضخمة ؛ وبدأ عندئذ أن سياسة الجزيرة تقتضى تعضيد سيادة المرابطين التى
 كانت عندئذ في دور النزاع ، وذلك لإحباط الجهود التى يبذلها الأندلسيون في
 سبيل وحدتهم ، والوقوف في وجه الموحدين الأشداء الذين لاج مشروعهم في
 الجواز إلى اسبانيا . وبعد أن قاتل النصارى بالتعاقب مع حزب سيف الدولة بن
 هود ، ثم عبد الله الطغرأتى ، ثم أحمد بن قسي تحالفوا عندئذ مع المرابطين ألد
 أعدائهم من قبل ؛ وسارت القوى المتحدة صوب اندوجار وبياسة وقرطبة ، وكان
 ابن حدين لا يزال أميراً عليها ؛ ولم يكن من الصعب على المرابطين - وقد أنجدهم
 فوق ذلك قوى محمد بن عمر التى سلخها من ابن قسي - أن يفتتحوا قرطبة والمدن
 المجاورة لها ، بيد أنه كان من الصعب أن يوحد الرأى بين هذه الجموع التى تفيض
 أثرة وطمعاً ، وأن يهدأ اضطرام الأحزاب في المدن ، وأن ترضى مطامع الجند

النصارى وغطرتهم التى لاحد لها . ودخل النصارى قرطبة بالرغم من ممانعة ابن غانية فى آخر شعبان سنة ٥٤١ هـ (أوائل سنة ١١٤٧ م) ، وأقاموا بمسجدها الجامع بين سخط المسلمين وارتياحهم قداساً حافلاً برياسة أسقف طليطلة ، وربطوا خيولهم فى أروقته ، وتناولوا بأيديهم النجسة مصحف عثمان ، أقدم ذخائر الأندلس ، وأثاروا غضب الشعب باغراقهم فى سوء معاملته ، ولم يراعوا شيئاً من الشروط التى سلمت المدنية بمقتضاها . ولما وقعت المفاوضة حول قرطبة ومن يتولى حكمها ، ازداد الخلاف اضطراباً . ذلك أن القيصر الفونسو كان يطالب بها كتعويض لما أنفقته فى سبيل الحرب ، وكان قائد المرابطين يرى بحق أن التسليم بهذا المطالب إنما هو حكم بالإعدام على حزبه ؛ ومن ثم فقد عرض على القيصر مقابل ذلك ، أن يأخذ بياسة ، وتحفك كثيرة ، ومبالغ طائلة من المال ، وكذلك الطاعة وأداء جزية سنوية ، فرضى الفونسو بذلك بعد جهد ، ولكن التفاهم ساء من ذلك الحين بين القيصر وبين المرابطين . ولقى ابن حمدين أمير قرطبة الخلع لدى النصارى مثل ما لقي خصومه من العون ، وازدادت بذلك الحوادث فى جنوب اسبانيا اضطراباً وتعقيداً . ذلك أن ابن غانية حينما حاصر ابن حمدين فى حصن اندوجار حيثما لجأ ، أعلن ابن حمدين عندئذ خضوعه للقيصر ، واستطاع بذلك أن يستأجر منه جنوداً لمعاونته ، وقادها إليه — بأمر القيصر — قائده الدوق فرديناند ابانيز دى ليا .

ولما غادر النصارى قرطبة مثقلين بالغنائم ، ووضعوا فى بياسة حامية قوية بقيادة الكونت الماريس ، ثار الجدل بين أبى زكريا بن غانية وبين محمد بن عمر صاحب شلب حول امتلاك المدينة ؛ ولما اختار القرطبيون رياسة ابن عمر ونادوا به أميراً عليهم ، لم ير ابن غانية مناصاً من التسليم ، ولكن سرعان ما أدرك الأمر الجديد أنه يستحيل عليه أن يحكم شعباً لا يستطيع بعد أن يروض نفسه على الطاعة ، وغدا يضطرم بالثورة بلا انقطاع من جراء دسائس الأحزاب ، فلم تمض عشرة أيام حتى نزل عن الحكم مختاراً وفر من المدينة قبل أن تحطمه الثورة

وسار إلى الغرب ، وهناك نشب النضال بينه وبين عبد الله بن الصميل صاحب ابن قسي ، حتى ظفر به عبد الله في إحدى المواقع فأمره وسمل عينيه ، ثم أخرجه الموحدون بعد ذلك من سجنه في باجة وحملوه إلى إفريقية حيث توفى في سلا في سنة ١١٦٣ م^(١) .

وكانت الأنباء قد ذاعت في الوقت الذي افتتح الحلفاء فيه قرطبة وأخذ الجدل يضطرم حول إمارتها ، بأن الموحدين قد جازوا إلى الجزيرة الخضراء ، وأخذوا يتقدمون فيها ، وكان ذلك من الأسباب التي حمت ابن غانية على ترك رئاسة قرطبة ولكنه لم يستطع مع ذلك أن يفيد من هذا الظرف شيئاً .

٣ — جواز الموحدين إلى الأندلس وفتحهم الأولى فيها

في الوقت الذي كان زعيم الموحدين عبد المؤمن مشغولاً فيه بمحارمة رماكش عاصمة المرابطين ، والقضاء بفتتاحها على آخر ملاذ لخصومه في إفريقية ، لم يفته أن يعنى بشؤون الأندلس ، حيث كان حليفه أحمد بن قسي وإلى الغرب يشهد المرابطون في إرهابه يوماً عن يوم ؛ فسير إلى الأندلس بأمره قائده أبي عمران موسى بن سميد جيشاً مؤلفاً من عشرة آلاف فارس ، وعشرين ألف راجل ، فجاز إلى شبه الجزيرة في أواخر سنة ٥٤٠ هـ (مايو سنة ١١٤٦ م) واستطاع بعد جهود عنيفة ، وبمؤازرة قوة من فرسان الغرب بقيادة ابن قسي ، أن ينتزع حصن الجزيرة من يد المرابطين ، ودخله الموحدون في المحرم سنة ٥٤١ هـ (يونيه سنة ١١٤٦ م)^(٢) . وكانت الجزيرة قبل ذلك بستين عاماً أيضاً أول موضع استولى عليه المرابطون حين جوازهم إلى الأندلس . واستطاعت الحامية المرابطة أن تشق لها وسط الأعداء طريقاً ، وأن تسير سالمة إلى اشبيلية ؛ وفتح جبل طارق^(٣) وشرش أبوابها

(١) راجع « الحلة السراء » ص ٢٠٤ و ٢٠٥ ، ويضع ابن الأبار تاريخ وفاته في سنة ٥٥٨ هـ وهو يقابل التاريخ الميلادي الذي يورده المؤلف .
(٢) في روض الفرج أن عبور الموحدين إلى الأندلس لأول مرة كان في ذي الحجة سنة ٤٣٩ هـ . وأنهم دخلوا حصن الجزيرة في يوم عيد الأضحى (ص ١٣٣) .
(٣) سمي الموحدون جبل طارق بهذه المناسبة جبل الفتح ، وتنسب هذه التسمية إلى عبد المؤمن ذاته (راجع المراكشي في المعجب ص ١١٧) .

للموحدين طوعا واختياراً ، وبايعتا عبد المؤمن على الطاعة ، وحصلتا بذلك على حقوق ومنح خاصة^(١) .

وسار الموحدون بعد قليل ، ومعهم قوات ابن قسي وقوات زميله سيدراى الذى عاد إلى محالفته ، إلى إشبيلية ، وكان حزب ابن حمدين هو الغالب فيها ، فانضم إلى الموحدين ، وعاونهم فى الاستيلاء على تلك المدينة الهامة ، وذلك فى شعبان سنة ٥٤١ هـ (أوائل سنة ١١٤٧ م) ، ولم ير المرابطون مناصاً من الارتداد أمام هذه القوى العظيمة فنادروا القلعة ، ولجأوا إلى حصون قرمونة المنيع ، ودعى لعبد المؤمن سلطان الموحدين فى الصلاة فى مساجد إشبيلية ، ثم دعى له بعد ذلك بقليل فى مائدة ؛ وكان بغض الأندلسيين للمرابطين ورغبتهم فى الانتقام منهم ، مما يساعد على تقدم الموحدين بسرعة ، وإن كانت سيادة الموحدين لا تبشر فى نظرهم بحسن المصير ، ومع ذلك فقد كانوا يغتبطون لما يتخذ الظافرون فى حق النصارى المعاهدين واليهود من شنيع الإجراءات ، إذ يزعمون أملاكهم ويطاردونهم بمنتهى القسوة والعنف .

وفى تلك الأثناء كان الموحدون قد فتحوا مراكش ، وانتهت بذلك دولة المرابطين فى إفريقية ، وغدت الأندلس عندئذ مقصد الموحدين وهدف فتوحهم ، وأضحى فى وسعهم أن يسيروا إليها الجيوش الضخمة ؛ وأدرك القيصر ألفونسو فداحة الخطر الذى يهدد شبه الجزيرة من إفريقية للمرة الثالثة ، فلم يقنع عندئذ بافتتاح قلعة رباح وغيرها من أماكن الحدود ، ولكنه كان يتوق إلى أن ينفذ إلى قلب الأندلس على يد الأمراء الأندلسيين أنفسهم ، وذلك باعتباره صديقاً وحليفاً لمعظم الأحزاب الأندلسية ، وكذلك للمرابطين ، وللشعب المتبرم فى بلنسية ومرسية ولابن حمدين .

وكان القيصر قد استطاع فى ذلك الحين أن يوفق بين نافارا وأراجون ، وأن يعقد نوعاً من السلام العام بين الممالك النصرانية الإسبانية ، وكان واجبا أن تنهز

(١) راجع روض القرطاس ص ١٢٢ .

هذه الفرصة للقيام بحملة مشتركة ضد أندلس يسودها الخلل والاضطراب ؛ ذلك أن جنوب غربي اسبانيا كان يتقاسمه الموحدون ، وأحمد بن الحسين بن قسي ، وأنصار ابن حدين ؛ وكان البشاطر الممتد من ألمرية حتى مصب الايبرو يحكمه منذ وفاة ابن عياض (في ربيع الأول سنة ٥٤٢ هـ) أبو عبد الله محمد بن سعد ، وكان الرابطون يسيطرون حكمهم على معظم الأراضي الداخلية الممتدة حتى نهر الوادي الكبير ، ويحكم بعضها ابن حدين أيضا وأنصار سيف الدولة السابقون ؛ وكان من حسر الطالع بالنسبة لحملة النصاري لاسبان ، أن عبد المؤمن بعد أن قتل إبراهيم آخر الأمراء الرابطين ، واعتقد أنه قد أضحى بذلك يسيطر على المغرب بلا منازع ، كان يواجه في ذلك الحين بالذات معركة جديدة ، كاد يفقد من جرائها كل فتوحه . وذلك أنه ظهر في سلا رجل يدعى محمد بن هود بن عبد الله ، وتسمى بالمهادي أو المهدي ، وثار على الموحدين ، وكافح سلطانهم بنجاح مدهش ، ولم يعض سوى قليل حتى انتزع من عبد المؤمن كل الأقاليم والمدن التي يسيطر عليها ، خلا مراكش وفاس ، وكادت دولة الموحدين الناشئة تنهار في مهدها ؛ ولكن عبد المؤمن وفق إلى الانتصار على الثائر في بعض المواقع ، وقتل الثائر نفسه في الموقعة ، واسترد الموحدون أراضيهم بنفس السرعة التي فقدوها بها ^(١) بيد أن هذه الثورة عاقت الموحدين عند فتوحهم في اسبانيا مدى حين .

٤ — حملات النصاري ضد المرية واشبونة وطرطوشة

وجه القيصر الفونسو ، نزولا على اقتراح الجنويين — الذين أوفدوا إليه سفراء للتباحث في خير الوسائل لقمع أعمال خوارج البحر (القرصان) الأندلسيين — ، حملته إلى ألمرية ؛ وكانت المرية يومئذ أهم ملجأ للقرصان ، يخرجون منها للإغارة على شواطئ اسبانيا وجليقية واشتوريش وبرشلونة والبرتغال ، وشواطئ فرنسا

(١) راجع في ثورة ابن هود على الموحدين روض الفطرأس ص ١٣٣ و ١٣٤ . وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٤٤ و ١٤٥ .

وإيطاليا الجنوبية ، وأحياناً تمتد غاراتهم إلى الشواطئ البزنطية . والمرجح أن المرية لم تكن يومئذ تحت حكم محمد بن سعد أمير بلنسية ومرسية ، الذي كان مشغولاً يومئذ بحاربة المرابطين والنصارى معاً ، وأن القرصان كانوا قد أسسوا بها إمارة مستقلة ؛ يؤيد ذلك أن القيصر كان متحالفاً مع باقى الأحزاب الأندلسية ، ولم تذكر الرواية أن المرية تلقت عوناً من أى جانب ، هذا إلى أن الموحدين لم يكونوا قد تقدموا فى فتوحهم يومئذ ، حتى يمكن أن يقال إن سلطانهم امتد إلى المرية . ولما كان حصار المرية لا يمكن أن يسفر عن النجاح إلا إذا طوقت المدينة من البحر أيضاً ؛ فقد أرسل القيصر أرنولد أسقف أسترقة إلى الكونت ريموند برنجار الرابع أمير برشلونة ، والكونت جيئوم صاحب مونبلييه يطلب إليهما الاشتراك فى الحملة البحرية ؛ وكان الجنويون والبيزيون ، بعد أن تقاضوا من القيصر ثلاثين ألف قطعة من الذهب لتجهيز السفن ، قد حددوا يوم أول أغسطس سنة ١١٤٧ م موعداً لمقدمهم إلى المرية ، فلم يتردد الأميران ريموند وجيئوم فى التمهيد ، بإرسال إمدادهما فى الموعد المضروب . ومنذ شهر مايو حشد القيصر كل قواته فى قلعة رباح ، وأقام هنالك استعراضاً عسكرياً لمختلف الفرق . وكان الجيش مكوناً من قوات جليقية واشتوريش وقشتالة وقطونية وأراجون ونافارا ، وكل منها يقوده أمير أو كبير منهم ، ويتولى القيصر نفسه قيادة الجيش العليا ؛ ويصف لنا مؤرخ عربى الحملة ضد المرية فيما يأتى :

« ملأ النصارى السهل بجيوشهم الضخمة ، وخربوا الحقول ، واستاقوا الماشية وساروا نحو المرية ، وكان يقود النصارى ملكهم أذفنش ، ويتألف جيشه من صفوف لا تحصى من الفرسان والمشاة ، وقد ملأوا الجبال والسهول ، ولم تكف مياه العيون والأنهار لإرواء ظمئهم ، ولا الحشائش والنبات لتغذيتهم ، وكانت الجبال ترتجى لوقع حوافر خيولهم وصوت أقدامهم ، وتردد صداها ؛ وكان بين قادة الجيش فردلند ملك جليقية ، والقمط رذمير ، والقمط ارمنجودى ، وغيرهم من أمراء الفرنج وأمم النصرانية المجاورة . وجاء القمط رمند من البحر

في سفائن عديدة وطوق مدينة ألمرية من البر والبحر ، حتى أصبح من المتعذر أن يدخلها أحد سوى النور ؛ ونفدت المؤن بسرعة ، ورأى المسلمون أن لا أمل لهم في النجدة ، فخرجوا مراراً لمقاتلة النصارى ، وفقدوا خيرة فرسانهم ، ولما نقص عددهم ولم يعد يكفي للدفاع ، بدأوا المفاوضة مع النصارى ، وسلخوا المدينة للأذفش بعد حصار دام ثلاثة أشهر على أن يؤمنوا أنفسهم ؛ وكان ذلك في أواخر سنة ٥٤٢ هـ ^(١) .

وتقول الروايات النصرانية إن حصار ألمرية بدأ في أوائل أغسطس ، حيث التقى أمامها أسطول الجنويين والبيزيين بالكونت ريموند صاحب برشلونة ، وجيوم صاحب مونيبلية ، واستمر حتى ١٧ أكتوبر سنة ١١٤٧ م . ثم أخذت المدينة عنوة ، وقتلت حاميتها بعد دفاع شديد ؛ واستولى الظافرون على غنائم عظيمة مما جمع القرصان في المدينة . وكان أئمن ما حصل عليه الجنويون قطعة من الزجاج الأخضر ، قيل إنها من الزمرد ولم تكن كذلك . وبعد أن قسمت الغنائم على الجند ، وحصل الجنويون والبيزيون منها على أوفر نصيب ، وحصل الكونت ريموند على جميع الأسرى ، دخل القيصر ألمرية في قوة كبيرة ، وعند اقتراب الشتاء عاد كل فريق إلى بلاده .

وفي نفس الوقت الذي افتتحت فيه ألمرية ، سقطت أشبونة ^(٢) في يد النصارى ؛ وكان الفونسو ملك البرتغال قد خرج من قبل مراراً إلى ضفاف التاجه لمقاتلة ثوار الغرب الذين انشقوا على أحمد بن قسى ؛ فخرج في نفس العام لمحصنة أشبونة وطوقها بجميع قواته ، وكان قد حاصرها من قبل عبثاً بمعاونة الفرسان الصليبيين الذين قدموا من فرنسا ؛ وكان بالمدينة فضلاً عن سكانها الكثيرين حامية كبيرة ومن ثم فقد يئس البرتغاليون من افتتاحها بسرعة نظراً لأنه لم يكن لديهم أسطول

(١) لم نجد أصلاً لهذه الفقرة في جميع المراجع المصرية التي لدينا . وقد ذكر المؤلف أنه نقلها عن كوندى المؤرخ الأسباني وبعض المراجع النصرانية (ج ١ ص ٤٢٥) . ومن الصعب دائماً أن يعثر المرء على أصل عربي يورده كوندى .
(٢) لشبونة أو Lisbon عاصمة البرتغال الحديثة .

يطوقها من ناحية البحر ؛ ولكن كان من حسن طالع الملك الفونسو ، أن رست في هذا الوقت بالذات عند مصب نهر دويره (دورو) زهاء مئتي سفينة من سفن الصليبيين ، ما بين إنكليزية وهولندية وألمانية ، لتزود بالماء العذب ، ثم أرغمت على البقاء في مراسيها نظراً لاضطراب الريح . ففاوضهم الفونسو ، وحملتهم الوعود وأمل الحصول على الفنائم الضخمة ، وما يقترن به من ثواب مقاتلة المسلمين في سبيل الدين ، على تلبية نداءه ؛ وسارت سفنهم بقيادة الكونت أرنولف فون ارشوث الهولندي إلى مياه أشبونة ، لمعاونة البرتغاليين على أخذها ، خصوصاً وقد ساء الجو ولم يبق صالحاً لسير السفن ، وانتهت جهود البرتغاليين والصليبيين المشتركة بأخذ المدينة المحصورة بالرغم من دفاعها الباسل ؛ وسلم المحصورون المدينة بعد أن فقدوا كل أمل في الاغاثة ولم يبق أمامهم سوى القتل أو الموت جوعاً ، وجعلوا مقابل ذلك على حق الإخيل مع ترك أسلحتهم وأموالهم ؛ واقتسم البرتغاليون والصليبيون ما لقوا في المدينة من غنائم لا تحصى ؛ وأنفق الصليبيون الشتاء في مياه البرتغال ؛ وكان بدء حصار أشبونة في ٢٨ يونيه سنة ١١٤٧ م ، واستمر مدى أربعة أشهر حتى ٢١ أكتوبر من نفس العام ؛ وكان سقوطها بعد أيام قلائل فقط من سقوط ألمرية . وكان فتحاً عظيم الأهمية بالنسبة للبرتغال ، حيث استطاعت أن تنزع بأخذ أشبونة مفتاح التاجه من يد المسلمين .

وكان هذا التوفيق الذي صاحب النصر عاملاً في إغراء الكونت ريموند صاحب برشلونة ، مذ عاد إلى وطنه بعد افتتاح ألمرية ، على أن يستأنف مشروعه لافتتاح قلعة طرطوشة الواقعة على مصب نهر ايبرو ، بعد أن فشلت كل محاولاته من قبل في هذا السبيل . فسار يماونه أسطول الجنويين إلى هذه القلعة التي تعتبر مفتاح الايبرو ، والتي تغلق البحر في وجه السفن الأرجونية ، محاولاً افتتاحها مرة أخرى . وطوق النصرارى طرطوشة من البر والبحر ؛ وعجز أمير بلنسية محمد ابن سعد عن أن يرسل إليها المدد ، فسقطت في يد النصرارى بعد حصار دام ستة أشهر من بداية يولييه إلى ٣١ ديسمبر سنة ١١٤٨ م (٥٤٣ هـ) ؛ واستولى الجنويون

والبيزونيون وجيوم صاحب مونبلييه ، باعتبارهم حلفاء على ثلثي المدينة نظير عونهم ، على أن يؤدوا الجزية ؛ وترك الثلث الباقي ملكاً لأمرأاء أراجون . وانتزع ريموند في العام التالي الأماكن التي بقيت بيد المسلمين على نهر ايبرو ، وهي قلاع مكوئيزا ولاردة وإفراغه^(١) من يد محمد بن سعد ، فلم يبق في يده سوى الحاضرة بلنسية وقد غدت عندئذ تحت رحمة الأعداء .

٥ — تحالف القيصر ألفونسو مع المرابطين ضد الموحدين

ولم يستطع الموحدون في تلك الأثناء أن يجاوزوا في فتوحهم منطقة إشبيلية ومالقة ؛ ذلك أنه ما كادت تخدم ثورة محمد بن هود الملقب بالهادي في إفريقية حتى قامت ثورة أخرى في سبتة ترمي إلى إعادة سلطان المرابطين ، وقتل الموحدون الذين لم يستطيعوا الفرار وأحرقوا أحياء ؛ واتصل قاضي المدينة وزعيم الثورة عياض بن موسى في الحال بالمرابطين في اسبانيا ، ودعا بالولاية لقائدهم أبي زكريا يحيى بن غانية ؛ وسير إليه ابن غانية المدد بقيادة يحيى بن أبي بكر الصحراوي ؛ واتسع نطاق الثورة ، واجترأ الثوار وحلفاؤهم رغم ضآلة قواهم على أن يخوضوا مع الموحدين معركة صريحة انتهت بهزيمتهم وإخماد الثورة^(٢) ؛ وانتهى حزب المرابطين في اسبانيا بعد أن استنفذ قواه الأخيرة في سبيل السلطان في إفريقية إلى حالة يرثى لها من الضعف ، ولم يبق أمامه سوى الخضوع والتسليم بالرغم مما كان يلقاه من معاونة القيصر .

وما كاد عبد المؤمن ينتهي من توطيد سلطانه في إفريقية حتى بعث إلى شبه الجزيرة بجيش ضخم ، وسار الموحدون إلى قرطبة حيث كان ابن غانية يرابط في معظم قواته ، وبعد أن ضرب الموحدون حولها الحصار الصارم ، سقطت المدينة في أيديهم بخيانة واليهما يحيى بن علي ؛ أما يحيى بن غانية فقد استطاع الفرار من

(١) راجع ابن الأثير ج ١١ ص ٥٢ .

(٢) وردت تفاصيل هذه الثورة في روض القرطاس ص ١٣٤ ، وفي الاستقصاء ج ١

قبل إلى غرناطة ؛ وسمح للحامية المرابطية بالخروج من المدينة ، وسار قسم منها إلى قرمونة ، وكانت ما تزال بيد المرابطين ؛ وكان استيلاء الموحدين على قرطبة في مايو أو يونيو سنة ١١٤٨ (٥٤٣ هـ) ؛ وبدأوا حين دخولها بتطهير مسجدها الجامع من آثار المرابطين ورجسهم ، وأقاموا الصلاة ودعوا فيها لسلطان الموحدين ؛ واستولوا على مصحف عثمان النفيس — وهو من أقدم النسخ التي ترجع إلى عهد الخلفاء الراشدين ، وقد نقله الأمويون من الشام إلى الأندلس — وبعثوه إلى مراکش^(١) . وهكذا تقلبت على قرطبة في نحو ثلاثة أعوام دول وحكومات عدة ، فملكها المرابطون مرتين ، وابن حدين مرتين ، وسيف الدولة ابن هود مرة ، ومحمد بن عمر مرتين ، والقيصر ألفونسو مرة ، ثم ملكها الموحدون آخر الأمر .

وكان يحيى بن غانية يضطرم حقدًا على والي قرطبة ويعتبره خائنًا لأنه مجل بتسليم المدينة ، ولذا فانه (أى الوالى يحيى بن على) ما كاد يصل إلى غرناطة حتى بادر إليه ابن غانية ، وفاق رأسه بنفسه ؛ وقد كان ابن غانية يؤمل إنقاذ قرطبة متى وصلها نجدة من النصارى . وكان لسقوط عاصمة الأندلس وقع شديد فى النفوس ، غاض معه كل أمل فى مقاومة الموحدين ، ولم تكن جموع الفرسان القشتاليين التى قادها الكونت الماريش لمعاونة المرابطين لتغنى شيئًا بعد . وبعد أن استولى الموحدون على قرمونة ، وخاضوا فى ولاية جيان عدة مواقع مظفرة ، طوقوا مدينة غرناطة التى غدت أمنع قاعدة دفاعية للمرابطين ، وكان ابن غانية ممتنعًا فيها مع جميع قواته . وتقول الرواية العربية إن قائد المرابطين (ابن غانية) سقط فى ميدان الحرب وهو يقاتل الموحدين بشجاعة ، وذلك فى شعبان سنة ٥٤٣ هـ (ديسمبر سنة ١١٤٨) ، ثم دفن فى غرناطة . ولكن توجد ثمة رواية نصرانية تناقض هذه كل المناقضة ، وخلاصتها أن ابن غانية أسره حلفاؤه أنفسهم أعنى جند

(١) راجع قصة نقل مصحف عثمان من قرطبة إلى مراکش فى الاستقصاء ج ١ ص ١٥٠ وما بعدها .

السكونت المانريش ؛ ثم قتله بعد ذلك سكان جيان عقاباً له على ما اقترفه من التآمر على حياة القيصر^(١) .

وكانت وفاة يحيى بن غانية ضربة مؤلمة للرابطين ؛ فقد لبث زهاء ستة عشر عاماً في رئاسة اسبانيا المسلمة يرد عنها غارات النصارى بقوة ؛ وكان هو الظافر في موقعة إفراغة التي هلك فيها ألفونسو المحارب ؛ وقد رد عن سلطان المرابطين الأندلس عادية الثورات وعادية الموحدين ، حتى بعد أن انهارت دولة المرابطين في إفريقية ؛ بيد أن تحالفه مع النصارى قد وصم اسمه لدى المسلمين ؛ ذلك أن بغض المسلمين للنصارى كان من الشدة بحيث كان أهل الأندلس يؤثرون أن يرزحوا تحت نير الإفريقيين (الغاربة) المرهق على أن يستردوا حرياتهم بمعاونة أعداء دينهم .

ولما اتسع نطاق ظفر الموحدين في الأندلس ، واستولوا على جيان في سنة ١١٤٩ م (٥٤٤ هـ) وهددوا غرناطة وألمرية بالحصار ، اعتزم القيصر ألفونسو — وكان يضع نفسه دائماً على رأس حزب المرابطين — بالاتحاد مع جارسيا ملك نافارا أن يُسير حملة إلى الأندلس ، وحشد فيها قوى جميع الأمراء التابعين له . وفي أوائل سنة ١١٥٠ م (٥٤٥ هـ) سار إلى قرطبة وحاصرها بعد أن خرب بسائطها ، وهزم جيشاً من الموحدين قدم لإنجادها وألجأه إلى الفرار ؛ ولكنه رأى إزاء مقاومة الحامية الشديدة ، ومناعة حصون المدينة ، وما نعى إليه من أن عبد المؤمن سلطان الموحدين القوى ، قادم بنفسه إلى الأندلس في جيش ضخم ، ألا يطوح بزهرة جيشه في محاولات عقيمة ، فرفع الحصار عن قرطبة ؛ ولكي يجنى من حملته بعض الشيء ، ارتد إلى جيان ، واستولى عليها عنوة ووضع فيها حامية من جنده ؛ ثم عاد إلى طليطلة ، لكي يقوم بأهبات جديدة للقتال في العام التالي .

(١) تجمع الرواية الإسلامية على أن ابن غانية توفي في غرناطة في سنة ٥٤٣ هـ ، ولا تقول لنا إنه سقط في ميدان الحرب ، ولأنه دفن في قسبة غرناطة بإزاء قبر باديس الصنهاجى ، وإن قبره لبث عصراً مزاراً معروفاً (راجع روض القرطاس ص ١٣٥ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٥ والاستقصاء ج ١ ص ١٤٧) .

وكانت الأخطار التي تهدد اسبانيا من جراء جواز الموحدين إليها تتفاقم بالنسبة للنصارى يوماً عن يوم . أجل ، كان عبد المؤمن لا يزال في إفريقية مشغولاً باخضاع بعض الثورات ، ولكنه مع ذلك لبث يتابع فتوحه في شبه الجزيرة . فبعث بقيادة الشيخ أبي حفص وولده (أى ولد عبد المؤمن) السيد أبى سعيد إلى الأندلس جيشاً جديداً ومعه أسطول ليقوم بمحاصرة ألمرية التي كانت لا تزال يومئذ في يد النصارى ، من البر والبحر . وجمع الخطر المشترك بين الأمير محمد بن سعد بن مردنيش أمير بلنسية ومرسية بالرغم من خصومته للقيصر ألفونسو ، وبين النصارى والمرابطين ؛ فاقترع النضال في الأندلس لذلك على حزبين اثنين ، هما الموحدون ، وخصومهم . ولم يستطع الموحدون رغم جهودهم افتتاح ألمرية ؛ وحاول محمد بن سعد بمعاونة النصارى عبثاً لإنجادها ، فتحول عندئذ إلى أبدة وبياسة ، وانتزعهما من يد الموحدين (سنة ١١٥٢ م — ٥٤٧ هـ) . وفي الوقت نفسه خرج المرابطون من غرناطة بقيادة الأمير على ، واشتبكوا مع الموحدين في معارك دامت أعواماً حتى هلك على في النكبات مسموماً فيما يظهر ، وذلك سنة ١١٥٦ م .

ومع أن الروايات النصرانية والعربية لا تقدم إلينا عن الحروب التي وقعت بين سنتي ١١٥١ و ١١٥٧ م (٥٤٦ — ٥٥٢ هـ) سوى تفاصيل موجزة ناقصة ، فإنه يبدو مع ذلك من سيرالحوادث أن الغلبة كانت للموحدين ، وأنهم استطاعوا بالرغم من مقاومة المرابطين والنصارى في جميع البلاد التي كانت بأيديهم ، أن يستولوا عليها ؛ هذا فيما عدا بلنسية ومرسية التي استطاع ابن مردنيش أن يحتفظ بهما بمعاونة النصارى ، بل لقد استطاع أيضاً أن ينتزع غرناطة مدى حين من الموحدين الذين انتزعوها قبل ذلك بقليل من المرابطين . ثم سقطت ألمرية أخيراً في يد الموحدين بعد حصار دام بضعة أعوام في سنة ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ) أعني لمشرة أعوام من سقوطها في يد النصارى ، وخرج النصارى منها بالأمان^(١) ؛ واستولى

(١) راجع في حصار ألمرية وسقوطها روض القرطاس ص ١٣٦ .

الموحدون أيضاً على جيّان وأبدّه وأندوجار وبيّاسة ووادي آش؛ ثم زحفوا على غرناطة كرة أخرى، وأمر عبد المؤمن بافتتاحها مهما كلفهم الأمر، وبذل الرابطون والنصارى وجند بلنسية ومرسية كل جهد ممكن لا تقاذاها؛ وسار القيصر الفونسو ومعه ولى عهده سانشو وأسقف طليطلة على رأس حملة كبيرة إلى الأندلس، واشتبك مع الموحدين فى عدة مواقع دون أن يحرز النصر؛ بيد أنه استطاع أن ينتزع منهم بيّاسة رغم تفوقهم فيها يشبه المعجزة؛ ثم اضطر إلى العودة دون أن يجتنب نتائج تذكر، وفى أثناء عودته توفى فى مضيق موراوال فى ٢١ أغسطس سنة ١١٤٧، إما متأثراً بجراحه، وإما بسبب تحطم قواه بما بذل من جهود ولما أصابه من الحزن لفشله. ووصلته الأنباء قبيل موته بأن الموحدين أخذوا غرناطة عنوة، وقتلوا قائد النصارى المدافع عنها وحاميتها جميعاً، سواء من النصارى أو المسلمين، وحصل الموحدون باستيلائهم على غرناطة على دعامة جديدة لسيادتهم؛ وفرت فلول الرابطين إلى المنكب ومنها إلى ميورقة ملاذهم وملجأهم الأخير، وانهار سلطانهم نهائياً فى الأندلس.

٦ — الأعوام الأخيرة من حكم القيصر ألفونسو

لما امتد سلطان القيصر بافتتاح المرية وجزء كبير من الأندلس إلى حدود لم يبلغها قبله أمير من أمراء اسبانيا النصرانية، بلغ الماهل المتلقب بقيصر اسبانيا المتوج بتاج المجد، المظفر دائماً، ملك جليقية وليون وقشتالة ونافاراً ورسقطة والمرية وبياسة وأندوجار، ذروة قوته وسلطانه. وكانت مملكة البرتغال الصغيرة فى عهد ملكها الجديد الفونسو هنريكيز قد استطاعت فى البداية أن تهز أسس المملكة الاسبانية، ثم كان مقدم الموحدين إلى اسبانيا وفتوحهم فيها واستيلائهم بالأخص على إشبيلية وقرطبة والمرية وغرناطة، فخطموا السيادة النصرانية فى الأندلس فى مهدها؛ ولما انفصلت روابط الأسرة بين قشتالة وبين أمراء أراجون ونافاراً أصبحت سيادة قشتالة على المملكة الممتدة بين جبال البرنيه والايبرو عرضة للخلاف والضياع.

ففي خلال عام واحد (سنة ١١٤٩ - ١١٥٠م) توفيت زوج القيصر الملكة برنجاريا أخت الكونت ريموند أمير برشلونه الذي ابث حتى ذلك الحين صلة التفاهم الوثيق بين قشتالة وأراجون ، وفقد القيصر أيضاً زوج ابنته جارسيا الرابع ملك نافارا الذي كان في أواخر أعوامه يعمل مع قشتالة بمنتهى التفاهم بالرغم مما سبق من الحروب بينه وبين القيصر . وهكذا فإن ضرام الحرب بين نافارا وأراجون ما كادت تخمد حتى عادت إلى اضطرابها ، وبذل القيصر جهوداً فادحة ليعقد السلام بين الفريقين المتخاصمين ؛ ذلك أن سانشو السادس ولد جارسيا وخلفه في الحكم كان من جهة يحاول أن يحطم نير قشتالة الثقيل ، ومن جهة أخرى فقد أنفى ريموند أمير برشونة الذي غدا بعد وفاة راميرو الثاني - وفقاً لوصية زوجه الفتية الملكة بترونيلا - سيد أراجون الحقيقي ، أنه لم تبق له حاجة إلى مؤازرة قشتالة خصوصاً وقد كانت هذه المؤازرة تحول بينه وبين الاستيلاء على نافارا التي كان ملك أراجون يدعى عليها كل الحقوق .

وحاول القيصر أن يعود فيوثق بأسرع ما استطاع روابط الأسرة المنحلة ، وأن يوطد بذلك دعائم السلم بين أمراء اسبانيا النصرانية ؛ كذلك اتخذ فيما يتعلق بوراثة العرش في مملكته وإماراته بعض التدابير التمهيدية ؛ ولما لم يكن في وسعه أن يتخلص من التقليد السيء الذي جرى عليه أسلافه في تقسيم المملكة بين الأولاد ، فقد رأى أن يحاول قدر الاستطاعة أن يكون تقسيم السلطان في اسبانيا النصرانية أبعد ما يكون عن الإضرار بصالح المملكة ، ورأى لذلك أن يعين ولديه اللذين سيرثان الملك من بعده وصيين للحكم معه ، وأن يقوم كل منهما بالإشراف على شؤون مملكته المستقبلية ؛ فاتفق ولده الأكبر وولى عهده سانشو مملكة قشتالة وبسكونيه (بسكاي)، والإشراف على الممالك البرينية ، وتلقى ولده الأصغر فرديناند ليون واسترامادوره وجليقية واشتوريش ، والإشراف على مملكة البرتغال ، وقد كانت ما تزال موضع النزاع ؛ ومن ذلك الحين كانت الولدان يوقعان مع أبيهما القيصر وناثق الدولة باعتبارهما ملكين . ثم رأى القيصر لكي يوثق العلاقات بين

الدولتين المتجاورتين قشتالة ونافارا في المستقبل أن يتزوج ولده سانشو ملك قشتالة من الدونا بلانكا أخت ملك نافارا (سنة ١١٥١م)، ولما تزوج القيصر ثانية بعد ذلك بعامين واحتفل في مدينة سريا بزواجه من الأميرة ريكا ابنة لادسلاوس الثاني ملك بولونيا ، دعا هنالك تابعيه ملكي نافارا وأراجون ونصح إليهما بمقد السلام وببذ الخلاف ، وأسبغ القيصر على ملك نافارا الفتى لقب الفروسية ، وقدم إليه ابنته من القيصرة رنجاريا الدونا بياتيا عروساً ، ووعد بأن يزوج ابنته الأخرى التي رزق بها من القيصرة ريكا لألفونسو ولد ريموند وبترونيل ملك أراجون وقطالونية المستقبل ، وكان يومئذ طفلاً لا يجاوز بضعة أعوام . وهكذا عُقدت خِطبة أطفال في المهد لكي تُوثق علائق الدول المجاورة في المستقبل .

ولم يقتصر القيصر ألفونسو على توثيق الروابط بين الأمراء الأسبانيين ؛ فإن لويس السابع ملك فرنسا ، بعد أن طُلق من زوجه الأولى ، غير المخلصة ، إلينورا ، وانتُحلت شدة القرابة سبباً للطلاق ، تزوج ابنة القيصر اليزابيث ، التي اتخذت عندئذ اسم كونستانسيا (سنة ١١٥٤م) . ولما كانت لألفونسو من قبل خلية تدعى جوندرادا ، وقد أعقب منها عدة بنات ، فقد أثار البعض في نفس لويس التاسع ريباً بأن زوجه ليست ابنة للقيصرة رنجاريا ، كما قيل ، ولكنها في الواقع ابنة غير شرعية للقيصر من خلية تنتمي إلى أصل وضيع . والظاهر أن البعض لم يكن ينظر بعين الرضى إلى توثيق روابط الصداقة بين القيصر ولويس ملك فرنسا . ومن ثم فقد كانت تُلقى إلى الملك الضعيف عن القيصر أقاويل تحط من قدره ، وتصوره كأنه لم يكن ذا مكانة بين شعبه . واعتزم لويس أن يتحقق من صحة هذه الأقاويل بنفسه ، فسافر إلى اسبانيا محتجاً بزيارة قبر القديس يعقوب في كومبوستل (سنة ١١٥٥م) . بيد أن القيصر لم يكن يجهل السبب الحقيقي لمقدم صهره . فسار ومعه زوج ابنته سانشو ملك نافارا ، إلى لقائه في برغش ، واستقبله في بذخ طائل دهش له لويس . على أن هذا الاستقبال لم يكن شيئاً بالقياس إلى ذلك الذي شهده في بلاط طليطلة عقب عوده من شنت ياقب ؛ وكان ألفونسو قد

نظم كل شيء لكي يبدو سلطانه في ذروة بهائه ، ويبدو ثراؤه في منتهى بذخه ؛ فوفد عندئذ على طليطلة جميع كبراء المملكة من النصارى والمسلمين ، في بطاناتهم الكبيرة ، وفي أنغم المظاهر وأروعها ؛ ووفد أيضاً ملك نافارا والكونت ريموند ملك أراجون ، وقدما للقيصر شعائر الطاعة بحضور لويس ، وصرح ملك فرنسا في دهشة ، أنه لم يرقط مثل هذا البهاء ، أو بلاطاً يمثل هذه الفخامة ، أو بطانة تمثل هذه الكثرة . وهنا أشار القيصر إلى ريموند قائلاً : لقد رزقت من برنجاريا ، أخت هذا الأمير ، ابنتى كونستانسيا التى زوجها إليك ؛ والتفت ريموند إلى لويس قائلاً : أجل إن زوجك هى ابنة أختى ، فعاملها بالاحترام والتكريم ، وإلا فانتظر مقدى فى باريس مع القيصر ، كمدوين لك . وعندئذ اقتنع لويس بأصل زوجه الرفيع ، وطيب خاطرها وهذا روعها ؛ ولكنه لم يأخذ من الهدايا الكثيرة التى قدمت إليه سوى زمردة كبيرة ، كان القيصر قد تلقاها من قبل هدية من سيف الدولة ابن هود ؛ ويقص علينا الأسقف رودريك الطليطلى صاحب التاريخ ، أنه رأى هذه الزمردة بعد ذلك بمائة عام فى كنيسة سان دنى فى باريس .

ولما عاد الملك لويس إلى مملكته ، اضطرم النزاع بين نافارا وأراجون ، واضطر القيصر أن يتدخل فيه بالسيف ، وأن يرغم صهره وزوج ابنته سانشو على الإذعان والتسليم . ثم اختتم القيصر بعد ذلك حياته الحافلة فى غزوة قام بها ضد أعداء النصرانية . وقد ذكرنا فيما تقدم أن القيصر حاول مع تابعه ابن مردنيش أمير بلنسية أن يستنقذ ألمرية من يد الموحدين ، وكانوا يحاصرونها يومئذ ، وأن يردم عن غرناطة ، آخر معقل للمرابطين ، وأن جهوده ذهبت عبثاً ، فسقطت ألمرية ، وسحقت بقايا المرابطين ، واستولى الموحدون على معقل غرناطة الشهير ، وأن القيصر الذى هدمته الشيخوخة والإعياء ، اضطرب أن يعود إلى وطنه صفر اليدين ، وأنه توفى أثناء عوده فى مضيق مورادال على حدود الأندلس وولاية طليطلة ، متأثراً فيما يظهر بحزنه لما أصابه من الفشل ؛ وكانت وفاته فى ٢١ أغسطس سنة ١١٥٧ ، وهو فى الثالثة والخمسين ، بعد أن حكم جلّيقية سبعة وأربعين عاماً ،

وليون وقشتالة زهاء أربعين عاماً ؛ بيد أنه لم يحكم جميع اسبانيا النصرانية بوصفه
قيصرآ لها سوى اثنتين وعشرين عاماً .

والفونسو السابع (أو الثامن إذا اعتبرنا الفونسو المحارب ملكاً لقشتالة) هو
خاتمة الأمراء الذين تلقبوا بـ لقب قيصر اسبانيا ؛ وهو أول الحكام الذين ينتمون
إلى الأسرة البرجونية ، والذين لبثوا على عرش قشتالة حتى القرن الخامس عشر ؛
وقد امتاز حكمه بالحكمة والعدالة والقوة ، واستطاع بالرغم من تمرد الأشراف
الاسبان ، الذين كانوا ينقمون كل حد من سلطانهم المرهق ، أن يحافظ بمزم على
حقوقه في السيادة ، وأن يجمع بقوة وسرعة كل الحركات الثورية ، التي كانت
ذاتمة الوقوع في عهد أمه أوركا ؛ وكما أنه كان يشتد في معاقبة الخارجين
وإرهابهم ، ويرفع بذلك من هيئته القيصرية ، فكذلك كان يقدر الشجاعة والخلال
الحسنة قدرها ، ويثيب أهلها ويرفعهم ، ويحيط نفسه بذلك بسياج من التأيد
والحب . وكان وقت السلم يعنى بتنظيم الدولة ، ويطوف بالملسكة ليقف بنفسه على
حسن تنفيذ أوامره ؛ وكان يشتد في العقاب لكي يعاقب قليلا ، وكان يسمح
لأقل رعاياه أن يرفع مظلمته إليه مباشرة ؛ وكان في الوقت نفسه ، مثلاً كاملاً
للفروسية الحققة ، تقياً ، ونصيراً جواداً للكنائس والأديار ؛ وفي الحرب ، شجاعاً
فطناً ، لا يعنى كثيراً بشخصه ، وعدوا شديد الوطأة على أعداء الدين ، ما دام
يخوض الحرب معهم ، يروعه اسمهم ويرهبهم ؛ بيد أنه كان إزاء المغلوبين شهماً ،
بل كان صديقاً حقاً لمن كان يلتمس حمايته من المسلمين ، ولم يكن في قلبه من
مخالفة إلى أخرى ، سواء بالنسبة للدول النصرانية أو الإسلامية المجاورة ، يتحرى
غير مصلحة قشتالة ؛ وقد كان يضحي في قلبه من وسيط أحياناً ، إلى حليف ،
أو إلى عدو صريح ، بما تفرضه المبادئ والخلال الحسنة ، في سبيل إعلاء وطنه ؛
وقد سقط في ذلك إلى نفس المنحدر ، الذي انحدر إليه أعظم الأمراء الذين يرون
في الفتوح أعظم واجبات الحاكم ، وتحطمت فيه البقية الباقية من مجدهم الحق ؛
ومن الأسف ألا تتلقى عن أمير عظيم مثل الفونسو ريمونديز سوى روايات ناقصة ،

فلم يصلنا من سيرته التى كتبها باللاتينية قس مجهول سوى نبذة يسيرة ، وهى لا تحتوى إلا على العصر الذى بدأ فيه حكم قشتالة بعد وفاة أمه حتى بدء حصار ألمرية ، وبذلك ينقصها تاريخ عشرة الأعوام الأخيرة من حياته ، وهى فترة لا نجد عنها سوى فقرات قليلة فى كتب الحوليات ، تتعلق بالسنين والأسماء والأماكن ، بل إننا لا نجد فى التواريخ الكبيرة التى تركها لوقا التطيلي ، ووردريك التطيلي من ذلك سوى اليسير الذى تنقصه الدقة والتحقيق .

الفصل الرابع

قيام مملكة البرتغال

١ — أقدم الروايات عن البرتغال

كانوا يفرقون في العصر القديم ، منذ عهد القرطاجنيين والرومان بين الاسبانيين ، وبين أهل لوزيتانيا ، وهم سكان غربي شبه الجزيرة البرينية فيما بين مصب نهر أناس (وادي يانه) ومصب نهر دورو (دويره) . وكان ثرياقوس ، الذي قاوم سيادة الرومان بمنتهى البسالة ، ولم يسقط إلا بخيانة مواطنيه من أهل لوزيتانيا . ولما استطاع الرومان ، بعد ثورة نومانسيا^(١) ، أن يوطدوا دعائم سلطانهم في اسبانيا ، وأضحى اسمهم بذلك مروعا بغيضا ، قسموا شبه الجزيرة إلى قسمين ، أولهما يشمل الشمال الشرقي ويسمى « اسبانيا الطركونية » Hispania Tarraconensis ، والآخر وهو الجنوب الغربي ، يسمى اسبانيا السفلى Hispania ultior ، ويشمل ولايتي لوزيتانيا وبيتكا (ولاية الأندلس فيما بعد) . ولما هاجرت القبائل الجرمانية إلى شبه الجزيرة ، نزل الشوابيون والوندال والآلان في لوزيتانيا ، واستقر الشوابيون على ضفاف نهر دويره ، والآلان على ضفاف التاجه ، والوندال على ضفاف وادي يانه . ولما تم ظفر القوط ، بقيادة ملكهم فاليا ، بعد حروب عنيفة ، ارتد المغلوبون إلى ما وراء التاجه ، واحتل الوندال الشقة الواقعة فيما بين قلمرية وبراجا على ضفتي دويرة السفلى ، ولجأ الشوابيون إلى جبال جليقية . ولما قاد جيزريش

(١) مكان في قشتالة القديمة كان مدى أعوام مركز مقاومة عنيفة من جانب الأسبان للرومان فيما بين سنتي ١٥٤ و ١٣٣ . ق م .

ملك الوندال قومه إلى إفريقية في النصف الأول من القرن الخامس ، واضمحل سلطان الرومان في اسبانيا بالرغم من مؤازرة القوط ، استطاع الشوابيون أن يبسطوا حكمهم على لوزيتانيا كلها ؛ وانزعج ملوك القوط ، سادة مملكة تولوشه لهذه الفتوح وحاولوا وقفها ، ولم يفلحوا في ذلك إلا في النصف الثاني من القرن الخامس ، حينما استطاع القوط وحلفاؤهم البرجونيون أن يوقعوا بالشوابيين على مقربة من أسترقة هزيمة شنيعة (سنة ٤٥٦ م) ، وأن يحتلوا لوزيتانيا وعاصمتها ماردة ، واعتصم الشوابيون بعد تضعفهم في جبال جليقية . ولما انهار سلطان الدولة الرومانية الغربية ، استولى القوط على اسبانيا كلها ، وكذلك لوزيتانيا حتى مصب دويره ، وتركوا قسمها الشمالى للشوابيين ، واستقر الشوابيون في هذا القسم حتى ضمت مملكتهم إلى مملكة القوط في أواخر القرن السادس من الميلاد . بيد أن لوزيتانيا لبثت وحدها تكون إقليم من الأقاليم الستة التي قسمت إليها المملكة القوطية ، ويعرف باسم عاصمتها ماردة ، حتى الفتح الإسلامى . وبعد الفتح كانت ماردة مقرا للوالى أو الحاكم المسلم ؛ وبذل ولاية ماردة ، في عهد الدولة الأموية جهودا عديدة للاستقلال بحكم الولاية ، ولكنها لم تسفر عن النجاح . وفي تلك الأثناء استطاع ملوك النصرارى الذين يبسطون حكمهم في أشتورية وجليقية وليون أن يفتحوا ما يجاورهم من الأراضى حتى نهر دويره ، وأن يدفعوا غزواتهم حتى نهر التاجه ، وتداول المسلمون والنصرارى أثناء هذه الغزوات مدن قلورية وأشبونة وشنتره مرارا وتكرارا ولما انهارت الدولة الأموية في قرطبة واستحال إلى ولايات وإمارات عدة ، قامت في جنوبى لوزيتانيا ، التي كانت لا تزال بيد المسلمين ، ويطلق عليها اسم « الغرب » (أى غربى الأندلس) ، دولة بنى الأفطس ، ونقلوا قاعدة حكومتهم إلى بطليوس ، وبسطوا حكمهم على منطقة وادى يانة ، وكذلك على جزء من منطقة مصب التاجه مشتملة على ثغر أشبونة (لشبونة) . أما أراضى لوزيتانيا الواقعة بين نهري دويره ومنديجو وإلى ما بعد قلورية ، فكان الملك فرديناند قد انتزعها من المسلمين ، وجعلها ولاية مستقلة باسم البرتغال (بالاشتقاق من اسم ،

بورتو كالى Porto Calle وهى الثغر الواقع عند مصب دويرة) يحكمها حاكم يعرف بالقنصل أو القومس أو الأمير ، وانتدب لحكمها الكونت زيزناندوس ؛ ثم ضمت بعد ذلك قبل وفاة فرديناند بقليل إلى مملكة جليقية ، التى تركها فرديناند إلى أسفر أولاده جارسيا (سنة ١٠٦٥م) ، مقرونة بالسيادة على بنى الأفطس أصحاب ولاية الغرب أو جنوبى البرتغال ، الذين أرغموا على أداء الجزية .

وكان البرتغاليون الذين سموا عندئذ « بالبرتغاليين » يتوقون إلى الاستقلال عن جليقية ؛ ومن ثم فقد ثاروا على الملك جارسيا بقيادة زعيمهم الكونت نونيو ، الذى كان والده منندوس دوقاً لجليقية ؛ بيد أنهم أخطأوا تقدير قواهم ؛ ولما اشتبكوا فى ميدان الحرب مع جيش جليقية الذى كان يفوقهم عدداً ، قتل زعيمهم نونيو ، وقتل معه كثير من البرتغاليين ؛ وسرعان ما خضعت الولاية الشائرة عقب هذه الهزيمة التى وقعت فى ١٤ يناير سنة ١٠٧١م فى موضع يسمى « برتاليين » بين براجا ونهر كافادو .

ولم يمض قليل على ذلك حتى تعاقب الأمراء على حكم جليقية والبرتغال مسرعين ؛ ذلك أن جارسيا ، وكذلك أخوه ألفونسو ملك ليون ، أخرجهما أخوها الأكبر سانشو ملك قشتالة من المملكة ، وبسط سيادته على مملكتي أخويه ، ولكن موته عند حصار سمورة فى سنة ١٠٧٢م ، مهد السبيل لعود أخويه إلى المملكة ؛ ولم يكتف ألفونسو بالاستيلاء على ليون وقشتالة ، ولكنه استطاع بالفدر أن يستولى على مملكة أخيه ، وأن ينتزع منه جليقية والبرتغال دون صعوبة ؛ وعهد بالدفاع عن البرتغال — التى لم تكن تضم يومئذ سوى أماكن قليلة على ضفة منديجو اليسرى ولم تكن تصل حدودها إلى التاجة — إلى كوفت من أسرة الدوق منندوس التى حكمت جليقية والبرتغال فى أوائل القرن الحادى عشر .

ولما افتتح ألفونسو السادس طليطلة ، التى بلغ بافتتاحها ذروة مجده الحربى ، وبدا الخطر الذى أثاره المرابطون بفتوحهم فى اسبانيا شديداً على سيادة النصارى فى شبه الجزيرة ، عبر البرنيه من جنوبى فرنسا كثير من الفرسان والقوامس

(الكونتات) لإغاثة إخوانهم في الدين ؛ وكان من بين هؤلاء الكونت ريموند والكونت هنري البرجونيان اللذان أسديا إلى ألفونسو في حروبه مع المسلمين أجل الخدمات ؛ وكان كلاهما ينتمى إلى فرع من فروع آل كاييه ملوك فرنسا ؛ ومن ثم فقد رآهما الملك جديرين بأن يضمهما إلى أسرته وأن يثييهما بذلك عن خدماتهما ؛ فزوج ريموند بن جيوم كونت برجونيا العليا (ولاية فرانك كونتيه الحالية) بابنته أوراكا ؛ ولما كان قد ظهر بالأخص في محاربة المسلمين في البرتغال ، وانتزع منهم في سنة ١٠٩٣ م (٤٨٦هـ) شنترين وأشبونة وشنترة ، فقد عينه حاكماً لهذه الولاية ، وجعل حاكمها السابق سواريو مننديز خاضعاً لأوامره .

٢ — ولاية البرتغال في عهد هنري البرجونى

ولم يبق ريموند طويلاً في البرتغال ، فقد ندب لحكم مملكة جليقية ؛ وخلفه في أواخر سنة ١٠٩٤ م في ولاية البرتغال قريبه هنري وهو كونت برجونى من بزانسون ، وحفيد لروبير أمير برجونيه السفلى ؛ وكان ألفونسو السادس قد زوجه بابنته غير الشرعية تيريزا ابنة خليلته كينا نونيز ، وهى فيما يرجح ابنة نونيو مننديز ، الذى ثار في البرتغال ضد الملك جارسيا ، وقتل في موقعة برتاليينى ، وكانت أسرته أعظم الأسر البرتغالية وجاهة وعدداً .

وهكذا أقطع الكونت هنري ، الذى كان يلقب أيضاً بالدوق بوصفه قائد الجيش ضد المسلمين ؛ إمارة البرتغال ، أعنى المنطقة الواقعة بين أسفل التاجه ونهر منهو ، لاعتبارها إمارة مستقلة ، ولكن باعتبارها خاضعة لمملكة قشتالة تؤدي الجزية إليها ، ويتوارثها عقبه . بيد أن زوج هنري ، كانت لنسبتها الملكية تتلقب بالملكة ؛ وكان هذا اللقب يسبغ على أخوات ملك قشتالة وبناته ؛ واتخذت قلعة حاضرة للإمارة ؛ ومن ثم فقد جرى المسلمون على تسمية أمير البرتغال « بصاحب قلعة Coïmbra » وجعل مقر المطران في مدينة راجا عاصمة جليقية القديمة ؛ وجعلت كل من بورتو ولاميجو وبازو وقلعة مركزاً لأسقفية . وعكف هنري

على حماية حدود ولايته الجنوبية من غارات الرابطين بعزم وقوة ؛ ولكنه لم يستطع أن يحتفظ بأشبونة وشنترين ؛ أما شنترة فقد فقدتها حيناً ثم استردها (سنة ١١٠٩ م) . وكان من المتعذر على النصارى أن يحتفظوا بهذه المدن نظراً لأن كثرة سكانها الغالبة كانت من المسلمين ، ولأنهم كانوا يؤلفون بذلك كتلة عظيمة .

وأقر ألفونسو السادس في وصيته إمارة هنرى على البرتغال ، وأقر وراثته عقبه لها ، بيد أنه ليس من المحقق ما إذا كانت هذه الولاية قد اعتبرت مستقلة عن قشتالة أم تابعة لها ؛ والرجح أن ألفونسو السادس لم يعرض في وصيته بوضوح إلى هذه المسألة . واشترك هنرى بقسط وافر في النزاع الذى قام بين الملكين الزوجين ألفونسو الأرجونى وزوجه الملكة أوراكا ؛ ولما لم يكن يخشى شيئاً على استقلال إمارته من أراجون ، وكان بالعكس يخشى على هذا الاستقلال من قشتالة وجليقية ، فقد انضم حين نشوب الحرب بين ألفونسو وزوجه أوراكا إلى ألفونسو ، وعاونه في موقعة كامبودى سبينا (٢٦ أكتوبر سنة ١١١٠ م) على هزيمة الكونت جومز القشتالى ، وافتتاح عدة حصون في قشتالة وليون . بيد أنه لما ساءت حال الملكة أوراكا ولاح أنها هالكة ، وحاصرها زوجها في أسرقة ، رأى هنرى من الحكمة أن يعضد الحزب الأضعف بمونه ؛ وبذا أقضت ملكة قشتالة ، واضطر ألفونسو الأرجونى أن يعود إلى مملكته . ومن المحقق أن أوراكا لم تحصل على معاونه البرتغال دون تضحيات ذات شأن ، بيد أن الروايات الموجزة التى انتهت إلينا لا تشير إلى موضوعها بشيء ؛ والرجح أن أوراكا ، إذا صدقنا بعض الوثائق القديمة ، وهبت البرتغال نظير عونها ، فضلاً عن مدينة توى والأرض الواقعة على ضفة نهر منهو المينى ، سمورة وتورو وغيرها من المدن الواقعة على نهر ديروه ، وكذلك ولاية استرامادوره بأسرها .

٣ — البرتغال تحت حكم الدونا تيريزا

وكان من سوء طالع البرتغال أن توفي الكونت هنرى عقب إنفاذ استرقعة مباشرة ، وذلك في أول مايو سنة ١١١٢ م ، ولم يترك سوى طفل في نحو الثالثة من عمره يدعى ألفونسو ، فتولت أمه الدونا تيريزا الحكم بالوصاية عليه ؛ ولم يك ينقص هذه المرأة الباردة في الحسن ، خلال الرجال اللازمة للقبض على زمام الحكم ، من الذكاء والعزم والإقدام حين الخطر ، بل وشجاعة الرجال في ميدان الحرب ؛ ولكن شغفها بالسلطان وأهواءها المضطربة كانت تخدم في نفسها كل عاطفة أموية ، فكانت نزولا على هذه الأهواء تعمل لانتزاع السلطة من يد ولدها ؛ وقد عملت للدفاع عن استقلال البرتغال سواء في الحرب أو السلم ضد أطاع أختها لأبيها (أوراكا) التي غزت البرتغال غير مرة ، وأطاع ولدها ألفونسو السابع (ريمونديز) واستطاعت أن تحافظ على حدود البرتغال الجنوبية ضد المسلمين ؛ بالرغم من أن المرابطين اقتحموها مرة بعد أخرى ، ومن أن مدينة قلورية عاصمة البرتغال يومئذ كادت تسقط في أيديهم بعد حصار طويل (سنة ١١٢١ م — ٥١٥ هـ) ، وكذلك بالرغم من محاولة أختها أوراكا محاربة المرابطين على إهلاكها . أما كون تيريزا كانت تسير في حياتها مثلما كانت أختها ملكة قشتالة على نمط لا يليق بكرامة أميرة ، فليس من التحامل في شيء ؛ إذ تؤيده بعض الروايات القديمة ؛ ومن المحقق أنها تزوجت الكونت فرديناند الجليقي ولد الكونت بيدرو فرويلاز صاحب ترافا ، وأخا عشيقها السابق برمودو وشاطرته الحكم ، وأنها حاولت حتى بعد أن بلغ ولدها ألفونسو هنريكيث الرشد أن تحتفظ بالسلطة ، وأن تنزعها من ولدها لتقدمها إلى زوجها .

وكان ألفونسو هنريكيث مذ بلغ الرابعة عشرة من عمره (سنة ١١٢٤) قد اتشح بثوب الفروسة وفق تقاليد المصير ، وأجازه لذلك الملك ألفونسو ريمونديز ، وفي سنة ١١٢٧ م التقى ألفونسو ريمونديز عقب وفاة أمه أوراكا بقليل بالملكة تيريزا وزوجها الكونت فرديناند في مدينة سمورة ، وتباحث معهما في تسوية

الأمر الملققة بينهما ، وعقد معهما السلم إلى حين بشروط لانعرفها .

وكان الأمير الفتى ألفونسو هنريكز يبدى كل يوم من صفات الفروسة ، ومن الذكاء والفتنة ، ما يؤهله لأن يتولى بنفسه شؤون الحكم ، وكان الشعب يحبه لفصاحته ورقة خلاله وجمال طلعه ؛ وكانت تقواه وتوقيره لرجال الدين مما يزين فروسته ، ويكسبه تعظيم رجال الدين ؛ ولم يلبث أن دبرت لتأييده مؤامرة اشترك فيها معظم الأشراف والأحبار ، وكان نصيبها التوفيق ؛ ونزل الولد في جنده ميدان الحرب ضد أمه ، ونشبت بينهما موقعة دموية في سنت ماميتي على مقربة من جوميرانس ، هزمت فيها الأم وأسرت ، وألقيت في السجن أعواما تكفر عن زلاتها ، ونفى زوجها في السر الكونت فرديناند من المملكة ، ونفى معه كثير من أنصاره ؛ وحاول أخوه الكونت برمودو صهر الملكة وزوج ابنتها ، أن يعمل لرد الملكة إلى سلطانها ، ولكنه أخفق تمام الإخفاق ، ونفى مثل أخيه ، وتولى ألفونسو هنريكز الحكم في سنة ١١٢٨ م ، وقد بلغ الثامنة عشرة من عمره ، مستقلا ، دون أن يعترف بسيادة قشتالة .

٤ — ألفونسو هنريكز أمير البرتغال

وما كاد ألفونسو هنريكز يقبض على زمام الحكم حتى اضطربت بين البرتغال وقشتالة حرب دامت بضعة أعوام ؛ ذلك أن ألفونسو ريمونديز كان يعتبر البرتغال إقليما من أقاليم مملكته ، أو على الأكثر ولاية وراثية في أسرة الكونت هنري ، فلما أبى ألفونسو هنريكز أن يقدم إليه طاعته وأن يقسم يمين الخضوع له ، أعلن أنه خارج عليه ، ثم غزا البرتغال بحجة العمل على إنقاذ عمته تيريزا ، ومعاينة الخارج على سيادته . وليس في وسعنا أن نتتبع حوادث هذه الحرب نظرا لضآلة التفاصيل المتعلقة بها ، ولكننا من جهة أخرى نعرف نتائجها . ذلك أن الملكة تيريزا توفيت في سنة ١١٣٠ م ، واجتمعت بذلك كلغة جميع الأحزاب حول ألفونسو هنريكز ؛ ومع أن ملك قشتالة استطاع في البداية أن يتقدم في البرتغال ،

فان ما حدث عندئذ من نشوب الخلاف بينه وبين ملك أراجون ، وحدث القلاقل في قشتالة ، وغارات المسلمين على أراضيه ، حملته على الارتداد ؛ وعهد إلى مطران كومبوستل وأشراف جليقية بمتابعة الحرب ، ولكنها سارت عندئذ يبطء ؛ وليس بعيدا أن يكون أشراف جليقية ، الذين كانوا يفكرون عندئذ في الخروج على ملك قشتالة ، قد تعمدوا معاونة العدو الذى عهد إليهم بمحاربته ؛ وهذا ما يوضح لنا ما كان يعمد إليه ألفونسو هنريكز في غاراته على جليقية من التفريق بين الخصوم والأصدقاء ؛ وكان من خصومه بالطبع الكونت فرديناند بيريز وأسرته ، وكان يقيم في جليقية منذ نفيه من البرتغال .

ولما رأى ملك قشتالة ضالة النجاح الذى أحرزه جيشه ، وانشغاله بفارات المسلمين ، ثم تفاقم شؤون أراجون ، وما حملته إياه من التفكير في ترك جميع الأراضي الواقعة في مملكته بين نهر الايرو وجبال البرنيه ، اضطر أن يعقد مع البرتغال الهدنة لبضعة أعوام ؛ وكان البرتغاليون أثناء ذلك قد عبروا نهر منهو وافتتحوا منطقة ليميا ، وأقاموا فيها قلعة منيعة ، فردهم القشتاليون ثانية إلى ما وراء النهر ، وهدموا القلعة ، وأسروا حاميتها .

ولما توج ملك قشتالة في ليون ، في سنة ١١٣٥م ، قيصرا لاسبانيا ، وأعلن تبعية جميع أمراء اسبانيا إليه ، أبدت البرتغال منذ البداية معارضتها لهذا الادعاء ؛ وسرعان ما حطم جارسيا الرابع ملك نافار هذا النير الذى تدعيه قشتالة ، وعقد حلفا مع البرتغال ، وشهرا الحرب معا على القيصر (سنة ١١٣٦) ؛ وبينما سار القيصر بنفسه لمحاربة الملك جارسيا ، إذ زحف البرتغاليون على جليقية ، وافتتحوا مدينة توى وعدة مواضع أخرى ، وعاونهم الكونت جومز نونيز والكونت رودريك بيريز الثائران على القيصر ، معاونة قوية ، وأقسا يمين الطاعة لأمير البرتغال ؛ وتولى الدوق فرديناند اباز صاحب ليميا الدفاع عن جليقية ، واستطاع أن يقف تقدم البرتغاليين ؛ ثم وردت الأمداد إلى البرتغاليين ، واجتمع في الوقت نفسه تحت راية الكونت فرديناند بيريز والكونت رودريك ثيلى جميع الذين بقوا على

إخلاصهم للقيصر من أهل جليقية ، والتقى الفريقان المتحاربين في موضع يسمى « سرنيزا » ومع أن الجليقيين قاتلوا بمنتهى الشجاعة ، وضرب قادتهم أروع الأمثال في الجرأة والبسالة ، فقد بدا أيضا في هذه الموقعة أن مصاير القتال تتوقف قبل كل شيء على براعة القادة ، وليس على كثرة العدد ، ولا على شجاعة المحاربين العمياء . ومن ثم فقد أحرز الفونسو هنريكينز على خصومه نصرا باهرا ، بيد أنه لم يستطع أن يجنى ثمرة نصره ، إذ وصلته الأنباء بأن المسلمين افتتحوا مدينة « ليريني » وقتلوا قسما من حاميتها وعاثوا في مناطق الحدود ؛ فارتد مسرعا إلى قلعية ليعمل على رد أعداء النصرانية عن حدوده ، ولكن المسلمين كانوا قد ارتدوا عندئذ إلى أراضيهم حرصا على غنائمهم ، واستطاع الفونسو هنريكينز أن يعود ثانية إلى جليقية ؛ على أن مصاير الحرب كانت قد تغيرت عندئذ . ذلك أن فرديناند ابازر صاحب ليميا استطاع في هذه الأثناء أن يجمع فلول الجيش القيصري ، وأن يدفع البرتغاليين عن كل شبر من الأرض ، وكان أمير البرتغال يقاتل بشجاعة على رأس جنده فخرح في إحدى الوقائع ، واقتضى لملاجه وبرئه بعض الوقت قبل أن يستطيع العودة إلى ميدان الحرب .

وفي تلك الأثناء كان القيصر ، قد رد ملك نافارا إلى جباله الوعرة وقلاع النسيعة ؛ وبعد أن ترك قوة احتياطية على حدود نافارا لمراقبتها ، سار في قواته من ليون إلى البرتغال ، واستولى على عدة قلاع ، وعاث في بساطها ؛ ولما رأى ألفونسو هنريكينز تفوق العدو عليه في العدد ، تذرع بالفطنة وحرص على أن يجتنب الاشتباك معه في أية موقعة فاصلة ، وأن يعمد إلى إنهك الليونيين ، وحملهم على القيام بحملات طائشة ؛ ونجحت الفكرة أيما نجاح ؛ فقد سار الكونت ردمير ، في قوته بجراة ، وما كاد يتعد عن الجيش القيصري ، حتى طوقه البرتغاليون فجأة ، وهزموه ، وأسروه ؛ واعتبر القيصر بهذا الدرس ، فأصدر أوامره الصارمة بمنع الوحدات المختلفة من الاعتماد عن الجيش العام ، وأقام معسكرا محصنا على تل « بورتيلادي فيسي » ، وأقام البرتغاليون معسكرهم في الجهة

المقابلة على تل أكثر ارتفاعاً تحميه قلعة « بنيادي رجينا » ؛ وفرق بين المسكرين واد شاسع ؛ وأخذ الفرسان والجند من الفريقين ، يتبارون في القتال أزواجا في هذا الفضاء ، ويعرض كل ماله من الجرأة والشجاعة بمأى من الجيشين المتحاربين . ولكن عقم هذه المبارزات التي هلك فيها كثير من الفرسان من الفريقين ، وحصانة المسكرين مما يعرض الفريق المهاجم إلى الهلاك ، والخوف من أن طول الحرب يمكن المسلمين من القيام بغارات ناجحة في أراضي قشتالة والبرتغال ، كل هذه حملت الفريقين على التفكير في تسوية الخلاف بالحسنى . ونزل ألفونسو هنريكز على نصيح قاده ، فأرسل رسله إلى القيصر بطلب الصلح ، فاستقبلهم القيصر بترحاب ، واتفق الطرفان في الحال على التهادن حتى يعقد الصلح . وفي رواية برتغالية قديمة ، أن ألفونسو هنريكز استطاع أن يحصر القيصر في « فالديشيز » ، وأن يوحنا مطران براجا هو الذي توسط في عقد الصلح . وترك تنظيم السلم إلى الاشراف من الفريقين ؛ واتفق قبل كل شيء وحتى يعقد التفاهم ، على تبادل الأسرى من الجانبين ، وعلى إعادة الحدود بين البلدين كما كانت في آخر عام من حكم الملكة تيريزا ، ولم يتفق على شيء بالنسبة للنقطة الجوهرية التي أثارت النزاع ، وهي مسألة سيادة قشتالة على البرتغال ؛ فبقى ألفونسو هنريكز أميراً (كونتاً) للبرتغال ، ولكنه ألزم بتسليم الزعيمين الثائرين اللذين أثارا الحرب وهما الكونت رودريك بيريز والكونت جومز نونيز ؛ وفر الأخير وعبر البرنيه إلى فرنسا ، والتحق راهباً بدير « كلوني » ؛ وأما الأول فقد التجأ إلى رحمة القيصر فمعا عنه . وأقسم الأشراف من الفريقين على مراعاة شروط الصلح . ثم اجتمع القيصر ألفونسو ريمونديز ، وألفونسو هنريكز معا في خيمة واحدة ، وقبل كل منهما الآخر ، وأكلا وشربا معا ؛ ثم عاد كل منهما إلى عاصمته في أمن وسلام . وهكذا انتهت الحرب بين قشتالة والبرتغال ، وذلك في سنة ١١٣٨ م .

٥ — ألفونسو هنريكيز أول ملك للبرتغال

لما اطمأن ألفونسو هنريكيز^(١) بمقد الصلح على حدود إمارته من ناحية المملكة النصرانية ، أخذ في الأهبة لمحاربة المسلمين ، أولاً لينتقم منهم لما أوقعوه من الفارات والعيث في أراضي البرتغال ، وثانياً لكي ينتزع منهم بعض الأراضي ويوسع بذلك حدود الإمارة ، فيقوى بذلك دعواه في الاستقلال بالاستناد إلى أنه افتتح معظم أراضيه من يد أعدائه المسلمين . ثم خرج في جيش من صفوة الجند البرتغاليين لا يجاوز عدده عشرة آلاف مقاتل ، وسار إلى ضفاف التاجه في أراضي إلى الغرب (غرب الأندلس) وذلك في أوائل سنة ١١٣٩ م (٥٣٣ هـ) ؛ فلما علم المسلمون بمقدم البرتغاليين جمع ولاية بطليوس ، وباريه ، وباجه ، وإشبيلية جيشاً عظيماً أسندت قيادته إلى الوالي أسمر (ولمه إسماعيل) ، والتقى الفريقان في مكان يسمى «أوريك» (واسمه الآن كابينزا دي رايس) على ضفة التاجه اليسرى ؛ وعلى مقربة من ملتقى نهر كوبريس بنهر ترجيس ؛ وتقول بعض الروايات المتأخرة المفرقة إن عدد المسلمين كان زهاء أربعمائة ألف مقاتل ؛ على أنه يبدو من سرعة التنبه والحركة أنه كان من المستحيل على المسلمين أن يحشدوا مثل هذا العدد . أما أقدم الروايات النصرانية التي تتحدث عن حملة السكونت ألفونسو (ولا توجد عن ذلك روايات عربية معروفة) فلا تذكر شيئاً عن عدد البرتغاليين والمسلمين ؛ وكل ما تقوله الروايات البرتغالية بإيجاز هو ما يأتي : في ٢٥ يولييه ، يوم الاحتفال بمولد القديس ياقب دي آرا ، عام ١١٣٩ ، وهو العام الحادى عشر من حكم ألفونسو ، اشتبك هذا الأمير في معركة عظيمة مع ملك المسلمين (والروايات النصرانية تمنع الولاية بالملك) واسمه أسمر ، في موضع يسمى «أوريك» ؛ وكان

(١) سبق أن أشرنا إلى أن الرواية العربية تعرف ألفونسو هنريكيز «بأبن الريق» ، وأن كلمة الريق هذه إنما هي تحريف لاسم هنريكيز أو انريكو أى هنرى وهو اسم أبيه ، ثم هي تعرفه بأنه صاحب قلعية ، أعنى صاحب البرتغال ، لأن قلعية كانت يومئذ عاصمة البرتغال (راجع ابن الأبار في الحلة السراء ص ٢٠٠) .

في جيش المسلمين كثير من النساء يرتدين ثياب الرجال ، ويقاتلن على طريقة الفرسان ، واكتشف النصرى ذلك بعد الموقعة حينما وجدوا كثيراً منهم بين القتلى ؛ وكان النصر في جانب ألفونسو ؛ ولم ينقذ قائد المسلمين أسير سوى الفرار ، ولكن أميراً مرابطاً هو ابن أخى سلطان المرابطين على^(١) ، ويدعى عمر الطاجور . كان بين الأسرى .

ولا تذكر الروايات الإسبانية شيئاً عن هذه الموقعة : وحتى رودريك الطليطلى ، ولوقا التطلي ، يتحدث كل منهما في روايته الضافية بمبارات عامة عن حروب أمير البرتغال ضد المسلمين ؛ وقد وجدت في سنة ١٥٩٦ ، في « الكوبازا » وثيقة غتومة تتحدث عن هذه الموقعة بإسهاب ؛ بيد أن صحة هذه الوثيقة أمر مشكوك فيه جداً ، وبفرض صحتها ، فإن ما ورد فيها من الوقائع لا دليل على صحته ؛ وتقدم هذه الوثيقة التي قيل إنها وضعت في سنة ١١٥٢ بأمر ألفونسو هنريكز تذكر الموقعة « أوريك » ، عن هذه الموقعة تفاصيل مسهب ، ولكن مدهشة ، لا يوجد ما يؤيدها . وخلاصة ما تقصه علينا ، أن البرتغاليين اشتبكوا في مروج « أوريك » مع إسماعيل وأربعة آخر من ملوك المغاربة وجيشهم الذى لا يحصى ؛ نجت شجاعتهم ويئسوا من النصر ، ولم يفكروا إلا في إنقاذ أنفسهم بالفرار ؛ ولكن المسيح نفسه ظهر بالليل مصلوباً ، للكونت ألفونسو هنريكز ، وأمره أن يتذرع بالشجاعة في القتال ، ووعدته بالنصر في تلك المعركة وكل معركة أخرى يخوضها ، كما وعدته بأن يضع الملكة التى تقوم على أثر هذه الموقعة تحت حمايته ورحمته ، وأمره بأن يجعل شعارها مكوناً من جروح المسيح الخمسة ، والقطع الفضة الثلاثين التى قبضها يهوذا أجرة الخيانة المسيح .

وتستطرد الروايات اللاحقة ، فتقول إن ألفونسو قص في اليوم التالى على جيشه نبأ هذه الرؤيا ، فاشتدت عزائم البرتغاليين ، وسرعان ما وضعوا على رأس الأمير تاجاً من الأغصان الخضراء ، ونادوا به ملكاً للبرتغال ، وفاضت نفوسهم

(١) لم نجد في المراجع العربية أى ذكر لهذه الموقعة .

رغبة في محاربة المسلمين ، وأحرزوا هذا النصر الباهر في «أوريك» على الأعداء ، ثم أمر الملك ، حسبما تقول الوثيقة المشار إليها ، أن يكون شعار الدروع البرتغالية خمسة دروع صغيرة تمثل جراح المسيح ، توضع في شكل صليب ، وينقش في كل منها ثلاثين نقطة من الفضة ويعلو الصليب رمز لشعبان موسى^(١) .

وإذا كنا لا نستطيع أن نثق بصحة هذه الوثيقة ، فإنه من الثابت مع ذلك أن ألفونسو هنريكز ، الذي كان يلعب منذ نزعته تيريزا من الحكم بقلب القومس أو الدوق أو الانفانت أو الأمير ، قد تلقب حسبما تدل عليه الوثائق عقب انتصاره في موقعة «أوريك» بألقاب الملك ؛ معتقداً أن انتصاره على عدد من الأمراء المسلمين يقودون مثل الجيش الآخر مما يؤهله للملوكية ؛ وبلغ من ثقته عندئذ بقوة الجيش البرتغالي ، الذي أتاحت له مثل هذه الفتوح العظيمة في أراضي المسلمين ، أن عقد العزم على محاربة القيصر ، إذا أبى أن يعترف به ملكاً على البرتغال . والظاهر أيضاً أن المبعوث البابوي الكردينال جيدو الذي كان يومئذ في اسبانيا قد حث ألفونسو هنريكز على اتخاذ هذه الخطوة ، ونصح إليه — سعيًا إلى توسيع سلطة البابوية الزمنية — أن يعمل على توطيد استقلاله عن قشتالة ، وأن يعلن انضواءه تحت رعاية الكرسي الرسولي ، وأن يدفع إليه جزية رمزية قدرها أربعة أفلاس من الذهب دلالة على خضوعه ، وأن الملك الجديد استمع إلى نصحه ؛ وكان القيصر ألفونسو ريمونديز يومئذ مشغولاً بحرب النافاريين والمسلمين ، فلم يرقه اتخاذ ألفونسو هنريكز لقب الملك ؛ بيد أنه نظراً لأنه لم يكن في وسعه يومئذ أن يحاول إخضاع الملك الجديد بالسيف ، فقد اكتفى بأن أرسل إلى البابا أنوسان الثاني رسولا يخبره بأنه لا يوافق على اتخاذ ألفونسو هنريكز لقب الملك ؛ فأرسل البابا إلى اسبانيا سفيراً من قبله لبحث موضوع النزاع ، ولعله أراد بذلك أن يكسب وقتاً ؛ واقترح السفير على القيصر أن يعترف بالبرتغال كمملكة ، على أن

(١) لا تزال هذه الدروع الحثة المرقومة في شكل الصليب شعار العلم البرتغالي

يعترف ألفونسو هنريكيز مقابل ذلك بخضوعه لسيادة قشتالة كتابع لها . واستغرقت المفاوضات في هذا الشأن أعواماً ، كان ملك البرتغال يعمل خلالها على توطيد استقلاله ؛ ولم ينتظر مصادقة على استقلاله من جانب البابا — فقد سمح له فقط بأن يتسمى بالملك — أو من جانب القيصر ، بل وضع بالاتفاق مع شعبه ، ممثلاً في طبقاته الثلاث ، في المجلس الذي عقد في لاميجو سنة ١١٤٣ م ، لأئحة اتخذت من ذلك الحين أساساً لدستور البرتغال ، وإليك ما عني به مجلس لاميجو من الشؤون والقرارات :

٦ — مجلس لاميجو (١)

لما أبدى البابا تردده في الاعتراف باستقلال البرتغال عن قشتالة ، واستمر القيصر يهدد البرتغال بالحرب ، دعا ألفونسو هنريكيز رجال الدين والأشراف ومندوبي المدن إلى عقد اجتماع وطني في لاميجو ؛ وعرض فيه المكتوب البابوي الذي يلعب فيه ألفونسو بالملك ، ثم سأل ممثل الملك ، لورنتوس فينجاس الحضور ، عما إذا كان ألفونسو الذي نودي به ملكاً في ميدان الحرب في أوريك ، يبق ملكاً ؛ ولما أجاب الحضور بالإيجاب ، ووافقوا أيضاً على أن يكون الملك متوارثاً في أعقاب الذكور ، نهض مطران براجا ، ووضع على رأس ألفونسو تاجاً من الذهب المرصع بالجواهر ؛ ثم نهض الملك الجديد وسيفه المسلول في يده ، وصادق على القوانين التي قدمها إليه ممثلو الطبقات للمصادقة ، وعددها ثلاثة ، الأول يتعلق بوراثة العرش ، والثاني يتعلق بالأشراف ، والثالث يتعلق بإقامة العدل .

فأما المسألة الأولى فقد تقرر بشأنها ما يأتي : ان وراثة العرش تكون للأولاد من الذكور ، بالتسلسل من الأب إلى الابن وهكذا ؛ فإذا توفى الولد الأكبر قبل أبيه ، خلفه في الوراثة أخوه الذي يليه في السن ؛ فإذا توفى الملك دون ولد (ولم يكن لهؤلاء عقب) يتولى العرش أخو الملك ؛ ولا تحق الولاية

(١) والمقصود به هنا البرلمان Cortes

لولده من بعده ، إلا إذا اختاره الشعب بطبقته الثلاث لولاية العرش ، أما فيما يتعلق بالابنة ، وهل يحق لها أن تحكم ، فقد اختلف الرأي في البداية ، ثم تقرر في النهاية بشأنها ما يأتي : إذا توفى الملك دون عقب من الذكور ، وترك ابنة ، فإنها تتولى الملك من بعده ؛ ولكنها لا تستطيع أن تتخذ لها زوجاً إلا من أشرف البرتغال ؛ ولا يمكن أن يندو هذا الزوج ملكاً ، إلا إذا رزق من زواجه عقباً من الذكور ؛ ولا يحق له أن يجلس في الاجتماعات العامة إلا عن يسار الملكة ، ولا يحق له أن يضع التاج على رأسه .

وأما المسألة الثانية وهي مسألة الأشراف ، فقد تقرر ما يأتي : ينتمي إلى أرفع طبقة من النبلاء ، كل شخص يجري في عروقه الدم الملكي ؛ وينتمي إلى طبقة الأشراف كل من وفق إلى إنقاذ الملك أو أحد أقاربه المقربين ، أو إلى إنقاذ العلم الوطني في ميدان الحرب ؛ وأبناء الذين يموتون في سبيل النصرانية ، في أسر المسلمين ، وأولئك الذين يقتلون في الحرب أميراً من الأعداء أو ولداً له ، أو من يفتنم علماً من أعلام الأعداء ، وكل من انتمى من قبل إلى رجال الخصاص (البطانة) أو الأشراف ، وكذلك كل من حارب في موقعة « أوريك » فهو وعقبه يحسبون من الأشراف .

وترفع صفة النبل والشرف عن أى شخص يفر من ميدان الحرب وعن عقبه ، وكل من يضرب أنثى بالسيف أو بالحربة ، وكل من يتخلف في ميدان الحرب عن إنقاذ الملك أو ولده . أو إنقاذ العلم الوطني متى أتيح له ذلك ؛ وكل من حلف يميناً كاذبة ، وكل من كتم الحقيقة عن الملك ، وكل من سب الملكة أو بناتها ، وكل من فر إلى المسلمين ، وكل من ارتكب جريمة السرقة ، أو سب السيد المسيح ، أو اعتدى على حياة الملك .

وأما فيما يتعلق بإقامة العدل ، فقد اتخذت القرارات الآتية : يجب أن يدين جميع البرتغاليين بالطاعة للملك باعتباره أكبر قاض في البلاد ، ولجميع نوابه في النواحي Alguaziles ، الذين يقيمون العدل وفقاً للقوانين .

ويعاقب على السرقة الأولى والثانية بالتعزير ؛ وفي السرقات الكبرى بالسكى بالنار أو بالموت ، وفي الحالة الأخيرة تجب موافقة الملك .

وتعاقب المرأة المتزوجة إذا زنت هي وعشيقتها بالحرق ؛ فإذا عفا الزوج عن زوجها ، وجب الافراج أيضاً عن شريكها .

ويعاقب القاتل بالاعدام مهما كان شخصه ، وكذلك يعاقب بالاعدام كل من اغتصب بكرأ شريفة ، وتؤول تركته إلى المجنى عليها ؛ فإذا لم تكن المجنى عليها من الأشراف وجب عليهما الزواج .

وإذا اغتصب شخص بالقوة أملاك الغير ، فعلى المعتدى عليه أن يلتجئ إلى قاضى الجهة ، ليقوم بفحص النزاع ورد الشيء الغتصب إلى صاحبه .

ويترك الضرب والجرح إلى تقدير القاضى ، ويعاقب عليهما فى الأصل بفرامة قدرها عشر قطع من الذهب ، مضافاً إليها ما يقدره القاضى .

وكل من اعتدى على أحد من رجال القضاء بالسب أو الضرب ، يعاقب بالسكى بالنار أو بفرامة قدرها خمسون قطعة من الذهب ، وبالتعويض المناسب .

ولما انتهت الموافقة على هذه القوانين ، نهض ممثل الملك لورنتيوس فنيجاس وقال : هل ترون أن يذهب الملك إلى بلاط ملك ليون ، أو يؤدى إليه الجزية ، أو يؤديها إلى أحد آخر سوى البابا الذى عينه ملكا ؟ فهض الجميع وسيوفهم مسلولة ، وقالوا : نجن أحرار ، وملكنا حر ؛ وقد حررنا أنفسنا بأنفسنا ، وإن ملكا يفكر فى مثل ذلك (أى الخضوع للسيادة الأجنبية) ليستحق الموت ، ولو كان قد تولى العرش لما أبقيناه على حكمنا . ثم نهض الملك والتاج على رأسه وسيفه فى يده وقال : إنكم تعلمون كم حرباً خضت فى سبيل حرياتكم ، وإنكم لشهود على ، ولتشهد على هذه اليد وهذا السيف ؛ إن من يفكر فى مثل ذلك (أى الخضوع للسيادة الأجنبية) يستحق الموت ، ولو كان ولدى أو حفيدى ما حق له الحكم ، وعندئذ قال الجميع : لقد أحسنت القول ؛ إن هؤلاء

سيموتون ، ولو تولى مثل هذا الملك لما سمح له بالحكم لأنه فسكر في الخضوع للسيادة الأجنبية ؛ وقال الملك : أجل فليكن هذا .

وهكذا قامت مملكة البرتغال ، واستطاع قومس (كونت) بالوراثه ، وسيد للبلد الصغير الذى يقع من نهري منهو ومنديجو ، والذى يكاد يقسمه نهر دويره الأدنى إلى قسمين متساويين ، أن ينتهز ظروف عصره ، وأن يجعل نفسه مستقلا عن قشتالة . واعتمد ألفونسو على نصره على المسلمين ، وما أسفر عنه من ضم شقة كبيرة من الأرض إلى إمارته تمتد حتى نهر تاجه ؛ ثم على قوته التى لم تقهرها قوى القيصر ، فاتخذ حين عوده ظافراً من موقعة أوريك ، ألقاب الملك ، وحصل على موافقة البابا على ذلك ، ووضع أسس استقلال البرتغال في عهد عقده مع الشعب البرتغالى ، ممثلاً في طبقاته الثلاث ؛ وهى التى تولت بنفسها التشريع لنظم الحكم والإشراف وإقامة العدل .

تم الجزء الأول

بيان عن المصادر

ذيل المؤلف كتابه بطائفة كبيرة من التعليقات والمصادر ، جمعت معا في قسم واحد (ص ٣١١ وما بعدها) . ولما كان المؤلف قد وضع كتابه منذ أكثر من مائة عام ، ظهر في خلالها كثير من المصادر والآثار المتعلقة بتاريخ الأندلس من عربية وأفريقية ، فقد رأينا أن نستبدل هذه التعليقات بهوامش وتحقيقات جديدة ، نمنى فيها عناية خاصة باستعراض الروايات الإسلامية . على أننا رأينا مع ذلك أن نثبت أهم المصادر التي يعتمد عليها المؤلف ولا سيما المصادر النصرانية التي تجهلها الرواية الإسلامية في الغالب .

ففي عصر فرديناند الأول وتاريخ اسبانيا النصرانية منذ سنة ١٠٣٥ إلى سنة ١٠٨٦ م ، أعنى إلى افتتاح النصارى لمدينة طليطلة ، يعتمد المؤلف على مصدرين معاصرين هما :

(١) *Chronicon Monachi Silensis* أى « أخبار رهبان سيلوس » ومطبوع في سلسلة (*Florez : Espana Sagrada T. XVII*) ؛ والثانى (٢) *Chronicon Pelagii Episcopi Ovetensis* أى « أخبار بلاجيوس أسقف أوفيدو » ، ومطبوع في نفس السلسلة (الجزء الرابع عشر) ؛ وهو حسبما يقول المؤلف مصدر ضعيف يكثر فيه السقط والتحريف .

وطائفة من روايات الأديار مثل أديار كومبستل وبرغش وقلورية وطلطلة ، وقد جمعت معا في نفس السلسلة في الجزء الثالث والعشرين ؛ وهذه لا تحتوى سوى التواريخ والأسماء . ثم *Chronicon Lusitanum* ، وهى رواية أكثر تفصيلا ، وقد طبعت في نفس السلسلة في الجزء الرابع والعشرين .

وأما المصادر اللاحقة فأهمها رواية لوقا التطيل المسمى (أخبار العالم) *Lucas Tudensis : Chronicon Mundi* المطبوع في فرانكفورت سنة

١٦٠٦ في سلسلة Hispana illustrata (الجزء الرابع) ؛ ورواية رودريك مطران طليطلة^(١) Rodericus Archiepiscopus Toletanus ، ومطبوع في نفس السلسلة (الجزء الثاني) . وقد كتبت كلتاها في أوائل القرن الثالث عشر ؛ وتاريخ اسبانيا العام الذي كتبه الملك ألفونسو العالم Cronica general de Espana . وقد كتب في أواخر القرن الثالث عشر . وفي هذه المصادر تختلط الأساطير بالتاريخ في مواطن كثيرة ، ولكن لا يصعب على الباحث المحقق أن يستخرج منها الوقائع الصحيحة ؛ وتاريخ المطران رودريك هو أشهر هذه الآثار النصيرية خصوصاً وقد اعتمد فيه على كثير من الآثار الإسلامية المعاصرة والسابقة .

هذا إلى طائفة من الآثار التاريخية العامة التي كتبت في عصور متأخرة اسبانية وغيرها مثل تواريخ ماريانا (Mariana) وفيريراس (Ferrerias) وماسدي (Masdeu) وأورتس إي سانش (Ortiz y Sanz) ؛ وغيرها وآثار جامعة متنوعة أخرى نذكر منها :

Sandoval : Histor. de los Reyes de Castilla y de Leon (Pampl. 1634).

(تاريخ ملوك قشتالة وليون)

Annales de Navarra (Pampl. 1766).

(أخبار نافارا)

Zurita : Annales de la Corona de Aragon (Zarag. 1610).

(تاريخ عرش أراجون)

Dom Vissette : Histoire de Languedoc.

(تاريخ لانغيدوك)

Von Schmidt : Geschichte Aragoniens (Leipzig 1829).

(تاريخ أراجون)

(١) وهو مطبوع أيضاً باللاتينية مع الطبعة العربية لتاريخ السكين بن العميد المطبوع في لندن سنة ١٦٢٥ .

أما الأخبار الوافية عن دول اسبانيا المسلمة منذ سقوط الخلافة الأموية حتى
مقدم المرابطين إلى شبه الجزيرة أو بمباراة أخرى تاريخ ملوك الطوائف ، فلا توجد
إلا في المصادر العربية ؛ وقد جمع منها كوندى Conde طائفة كبيرة في كتابه :
Hist. de la Domincion de los Arabes en Espana في الجزء الثاني
والثالث ، واعتمد بالأخص على مؤرخ قرطبي عاش في القرن الخامس من
الهجرة هو ابن بشكوال . وكذلك نقل منها كاردون Cardonne في كتابه :
Hist. de l'Afrique et de l'Espagne sous la Domination des
History of the Mahometan Em- Arabes ؛ ومورفي Murphy في كتابه
pire in Spain ؛ ووردت في فهرس الفيزري Casiri عن مكتبة الاسكوريال
Bibliotheca Arabico-Hispano Escorialensis ، نبذ وشذور قيمة نقلها
عن ابن الخطيب وغيره ؛ واعتمد المؤلف أيضا على تاريخ أبي الفدا (والترجمة
اللاتينية) ، وعلى تراجم ابن الأبار القضاعي ، وعلى معجم دربلو (D'Herbelot) ،
وعلى تاريخ العرب الذي وضعه رودريك الطليطلى Historia Arabum ؛ وأما
عن تاريخ المرابطين والموحدين فأكثر ما يعتمد عليه المؤلف ، كتاب أبي الحسن
ابن علي بن أبي زرع المسمى روض القرطاس ، الذي نشر بعناية المستشرق
Dombay في أجرام سنة ١٧٩٤ ، ثم نشر بعد ذلك مع ترجمة لاتينية بعناية
المستشرق Thornberg في أوبسالة سنة ١٨٤٣ .

وفما يتعلق بالتاريخ الاسباني من سنة ١٠٨٦ إلى سنة ١١٣٤ م ، ولا سيما عصر
الملكة أوركا وألفونسو المحارب ينوه المؤلف بمصادر منها : Historia Com-
postellana ، الذي كتبه بأمر الأسقف جلميرز (أسقف كومبستل) ثلاثة من
القساوسة ، ونشر في سلسلة Florez:Espana Sagrada التي سبقت الإشارة
إليها (الجزء العشرون) ؛ بيد أنه يلاحظ أن هذا المؤلف يعيل بنوع خاص إلى
تأييد الملكة أوركا والحلمة على الملك ألفونسو ؛ و-Cronicon Alphonso Imper-

atoris (تاريخ القيصر ألفونسو) وهو مطبوع في نفس السلسلة (الجزء الحادى والمثرون) ، وقد ضاعت بداية هذا التاريخ ، وما بقى منه يبتدى بموت الملكة أورাকা ؛ وكتاب Memorias de las Reynas Catholicas (تاريخ الملكات الكاثوليكيات) وهو بقلم Florez ومطبوع بمديرية سنة ١٧٧٧ .

أما تاريخ البرتغال القديم فليست له مصادر معاصرة ذات شأن سوى Cronicon Lusitanum الذى أشرنا إليه ، ورواية موجزة جدا هى Cronicon Conimbricens (تاريخ قلورية) . وفيما يتعلق بالمصور المتأخرة يعتمد المؤلف بنوع خاص على كتاب Monarchia Lusitana (الملكة البرتغالية) الذى كتبه Bernard de Brito حتى سنة ١٠٩٥ وأكمله Antonio Brandao ، وظهر فى المجموعة المسماة Historias de Portugal المطبوعة فى لشبونة سنة ١٨٠٦ (الجزآن الأول والثانى) ؛ وعدة مصادر متأخرة نقلت عنه .

هذا وقد رجعنا فى وضع الهوامش والتحقيقات التى ذيلنا بها على هذا الكتاب إلى المصادر الآتية :

تاريخ ابن الأثير .

تاريخ أبى الفدا .

وفيات الأعيان لابن خلكان .

صبح الأعشى للقلقشندي .

معجم البلدان لياقوت .

تاريخ ابن خلدون .

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس .

فتح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب للمقرئ .

الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس لأبى الحسن بن على بن أبى زرع الفاسي .

- قلائد العقيان للفتح بن خاقان .
الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام .
المعجب في تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشي .
الحلة السيرة لابن الأبار .
البيان المغرب لابن عذارى المراكشي
الحلل الموسية لابن الخطيب .
أخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين لأبي بكر الصنهاجي .
(وهي مجموعة رسائل وأخبار عن المهدي ، نشرها الأستاذ ليفي بروفسال عن
مخطوط بالاسكوريال مقرونة بترجمة فرنسية)
الاستقصا في تاريخ المغرب الأقصى للسلاوي .
نزهة المشتاق للشریف الادريسي
وأیضا ، تاریخ دوزی :
Hist. des Musulmans d'Espagne الطبعة التي أصدرها الأستاذ ليفي
بروفنسال (الجزء الثالث) .
وتاريخ كوندی (الترجمة الفرنسية) :
Hist. de la Domination des Arabes en Espagne.
-

فهرس

للأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية

ومقابلها الأفرنجي

لما كانت الأعلام الجغرافية الأندلسية ، لاتزال تنقل في كتبنا الحديثة معرفة عن نصوصها الأفرنجية على خلاف كبير في رسمها بين الناقلين ، ولما كان معظم هذه الأعلام يرجع في الواقع إلى أصول عربية ترجمت عنها الأعلام الأفرنجية المقابلة أو حرفت ، فقد رأينا أن نثبت فيما يلي ، أهم الأعلام الجغرافية الأندلسية بأصولها العربية ومقابلها الأفرنجي ، وأن نضيف إليها بمض الأعلام التاريخية التي وردت في الكتاب ، ومقابلها العربي ؛ وقد آثرنا أن نكتب الأعلام الأفرنجية برسمها الإنكليزي ، نظراً لأنه أكثر شيوعاً من غيره ، ولأن الفرق بينه وبين اللغات الأخرى يسير واضح .

Agmat	أغمات
Alarcos	الأرك
Alava et Castella Vetulla	ألبه والقلاع
Albacete	البسيط
Albarracin	شنتمرية الشرق (شنتمرية ابن رزين)
Alcazar	القصر

Alédo	حصن لبيط أو حصن ليط	Asturias	أشتوريش
Algarve	الغرب (غربي الأندلس)	Atlantic Ocean	البحر الأعظم ، البحر المحيط ، بحر أقيانس ، بحر الظلمات
Algeciras	الجزيرة (الجزيرة الخضراء)	Avila	آبله
Alhambra	الحراء (قصة الحراء)	Badajoz	بطلوس
Alicante	أليقنت	Baza	بسطه
Almeria	ألمرية	Baeza	بياسة
Almodavar	المدور	Balearic Isls	الجزائر الشرقية
Almohades	الموحدون	Barcelona	برشلونة ، برشونة
Almoravides	المرابطون	Basque (Navarra)	نبرة ، بلاد البشكنس
Almunecar	المنكب	Beja	باجه
Alpuxarras-Alpujarras	البشرات	Biscay	بسكونيه ، بسكونس
Alphonso	أدفنش — أدفنش — ألفنش	Bermudo	برمند
Alphonso of Aragon	ألفونسو من أراغون	Barbastro	بربستر
(Alphonso Sanchez)	ألفونسو سانچيز	Bobastro	ببستر
Alphonso Henriquez	ألفونسو هنريكي	Burgos	برغش
Alphonso Raimundez	ألفونسو رايمنديز	Cadiz	قادس
أدفنش بن رمند أو السليطين		Calahorra	قلهره
Alpuente	البونت	Calatajud	قلعة أيوب
Alvar Fanez	البرهانس	Calatrava	قلعة رباح
Andujar	أندوجار	Carmona	قرمونة
Aragon	أراغون ، أرغن ، رغونة ، الغر الأعلى	Carcassonne	قرقشونه
		Castellon	قسطلون

Castile	قشتالة	Frangolis	فرنجولس
Catalonia	قطلوونية	Franks	الفرنج
Coria	قورية	Galicia	جليقية أو غليسية
Cerdagne	شرطانية	Garcia	غراسية
Ceuta	سبتة	Gibraltar	جبل طارق ، جبل الفتح
Chinchilla	جنجاله ، جنجيلة	Goths	القوط
Cid Campeador	السيد الكنيطور ، القنيطور ، للدريق القنيطور	Granada	غرناطة
Cintra	شنترة	Guadalajara	وادي الحجاره
Coimbra	قلمرية ، قلنبرية	Guadalquivir	وادي الكبير ، النهر الكبير
Cordova	قرطبة	Guadarrama	وادي الرملة
Cortes	البرلمان الاسباني	Guadiana	وادي يانه ، وادي آنه
Cuenca	قونقة ، كونكة	Guadix	وادي آش
Denia	دانية	Hospitallers	الاسبتارية
Daroca	قاعة دروقة	Huelva	ولبة ، أوبنة
Don Pedro	دون بطره	Huesca	وشقة
Duero	نهر دوبره	Huete	وبذه ، وبذى
Ebro	نهر إبره	Ivica	جزيرة يابسة
Ecija	إستجه	Jaca	چاقه
Elvira	إلبيره	Jaen	جيان
Evora	يابه ، يافوره	Jativa (Xativa)	شاطبة
Fez	فاس	Jerez (Xerez)	شريس
Ferdinand	فردلند	Jerez Alfronterra	
Fraga	إفراغه		شريس الفرنتيرة
		Lausitania (Portugal)	البرتغال

Leon	ليون	Niebla	لبلة
Lerida	لاردة	Normans	
Lisbon	أشبونة	الأرذمانيون ، المجوس ، النورمانيون	
Loja	لوشة	Ocsonoba	أكسونبة ، أكشونبة
Lorca	لورقة	Oran	وهران
Madrid	مجرط	Orihuela	أريواله ، أريولة
Malaga	مالقة	Pamplona	بنبلونة
Maquada	مقودة	Paterna	بطرنة
Mauretania		Pelagius	بلاي ، بلايو
	المغرب الأقصى (مراكش)	Pyrenees	جبال البرت ، البرتات
Medinaceli	مدينة سالم	Ramiro	ردمير
Mequinenza	مكناسة (بالأندلس)	Raymond Berengar	رمند
Merida	ماردة	Rhône	نهر رذونة ، وادي رذونة
Mertola	مارتلة ، ميرتلة	Roda (Rueda)	حصن روطه
Minorca	جزيرة منورقة	Roderic	لدريق ، رذريق
Morocco	مراكش	Roger	رجار الفرنجي
Mozarabes		Roncesvalles	
	النصارى الماهدون ، الماهدون		باب شزروا ، باب الشزري
Mudijares	المدجنون	Ronda	رندة
Mugavares	المجاورون	Sacralias, Zallaca	الزلاقة
Murcia	مرسية	Salamanca	سلمنقة ، سلمنقة
Murviedro (Sagunto)	مريبطر	Sala	سلا
Narbonne	أربونة	Saltis	جزيرة شلطيش
Navarra (Basque)		Sancho	شانجه ، شانشه
	نبرة ، بلاد البشكنس	Santa Maria Algarve	شنتميرية الغرب

Santarein	شنترين	Toledo	طليطلة
Santiago	سنت ياقب	Tortosa	طرطوشة
Saragossa	سرقسطة	Toulouse	تولوشة
Segovia	سقوبية	Tudela	تطيلة
Segura	نهر شقر	Tudmir	تدمير
Sevilla	إشبيلية	Tunis	تونس
Sidonia (Medina)		Ubeda	أبدة
	شدونة ، مدينة شدونة	Ucles	إقليش ، إقليج
Sierra Morena	جبل الشارات	Valencia	بلنسية
Sierra Nevada	جبل شُكَّير	Valladolid	بلد الوليد
Silves	شَلْب	Viseu	بازو
Tagus (Tajo)	نهر تاجو ، تاجو	Xativa (Jativa)	شاطبة
Tangier	طنجة	Xenil	نهر شنيل
Tarifa	جزيرة طريف	Xeres (Jerez)	شريس
Tarragona	طَرَّ كونة	Xeres Alfronterra	
Templars	الداوية (فرسان المعبد)		شريس الفرنتيرة
Teriana	طريانة	Zamora	سمورة

فهرس الموضوعات

مقدمة :

الكتاب الأول

تاريخ الأندلس منذ سقوط الدولة الأموية

إلى مقدم المرابطين

صفحة

الفصل الأول : تاريخ الممالك النصرانية منذ اتحاد مملكتي ليون وفشتالة

إلى تقسيم مملكة البشكنس ١٠

١ - فرديناند الأول وإخوته ١١

٢ - أبناء فرديناند الأول ٢٣

٣ - ريموند برنجار الأول كونت برشلونة ٢٨

الفصل الثاني : تاريخ الدول الإسلامية التي قامت على أنقاض الدولة الأموية

في اسبانيا ٣٠

١ - الأدارسة أو بنو حمود، وحلفاؤهم في جنوبي اسبانيا ٣٢

٢ - بنو عباد ملوك إشبيلية، وحلفاؤهم بنو جمهور أصحاب قرطبة،

وبنو الأفطس أصحاب بطليوس في جنوب غربي الجزيرة ٣٧

٣ - بنو ذى النون ٤٤

٤ - بنو عامر والتجيبون وبنو هود في شرق اسبانيا ٤٦

الفصل الثالث : حروب الطوائف بمؤازرة النصارى حتى افتتاح الفونسو

السادس لطليطلة ٤٩

محتوى

- ١ - تفوق أمير طليطلة ٤٩
- ٢ - تفوق أمير إشبيلية ٥٨
- ٣ - افتتاح الفونسو السادس لطليطلة ٦١
- الفصل الرابع : نشأة المرابطين ، وأسباب عبورهم إلى اسبانيا ... ٦٧
- ١ - عبد الله بن ياسين ٦٧
- ٢ - فتوح يوسف بن تاشفين في إفريقية ٧٠
- ٣ - الأخطار المحدقة بالإسلام في اسبانيا ٧٣
- ٤ - غلبة الفونسو السادس على إسبانيا المسلمة ٧٦
- ٥ - يوسف بن تاشفين يعتزم العبور إلى اسبانيا ٧٨

الكتاب الثانى

سيادة المرابطين فى شبه الجزيرة

فى عصرى الفونسو السادس ملك قشتالة ، والفونسو المحارب ملك أراجون

الفصل الأول : فتوح المرابطين فى اسبانيا ، فى عهد يوسف بن تاشفين

- ١ - حملة يوسف لإبجاد الأندلس ضد الفونسو السادس ٨٢
- ٢ - خضوع اسبانيا الجنوبية لسلطان المرابطين ٩٧
- ٣ - ولاية سرقسطة ١٠٧
- ٤ - فتح السيد بلنسية ١١١
- ٥ - الأعوام الأخيرة من حكم يوسف بن تاشفين ١١٧
- ٦ - ولايته على العرش ، وحكمه حتى موقعة اقلش ١٢١

الفصل الثانى : تاريخ الدول الاسبانية الداخلى فى عهد الفونسو السادس ١٢٥

- ١ - الشؤون الكنسية ١٢٥
- ٢ - نظم الدولة والتشريع ١٣٢

محيطة

٣ — تنظيم الفونسو السادس لوراثته العرش ١٣٩

٤ — إمارة قطلونية ١٤٣

الفصل الثالث : الفونسو المحارب وعصره ١٤٤

١ — حروب النصارى الاسبان والمسلمين منذ موقعة اقليش حتى عود

الفونسو من الأندلس ١٤٥

٢ — أوراكا ملكة قشتالة ١٥٨

٣ — النضال بين الفونسو ملك أراجون والفونسو ريمونديز ١٦٨

٤ — حروب الفونسو المحارب الأخيرة وموته ووصيته ١٧١

الكتاب الثالث

اضمحلال سيادة المرابطين

في عصر القيصر الفونسو ريمونديز وقيام مملكة البرتغال

الفصل الأول : نهوض مملكة قشتالة في عصر الفونسو ريمونديز ... ١٧٨

١ — حروب الفونسو السابع ضد المسلمين ١٧٨

٢ — الامبراطورية الاسبانية والأراضي التابعة لها، نافارا، وأراجون

وقطلونية ١٨٢

٣ — حروب النصارى الاسبان ضد المرابطين ، منذ وفاة الفونسو

الأرجوني حتى بداية اضمحلال سلطان المرابطين ١٩١

الفصل الثاني : اضمحلال سلطان المرابطين في إفريقية من جراء ثورة

الموحدين ١٩٥

١ — أبو عبد الله بن تومرت الملقب بالمهدي مؤسس دولة الموحدين ١٩٥

٢ — حروب الموحدين بقيادة عبد المؤمن ضد علي بن يوسف ... ٢٠٤

٣ — حروب تاشفين مع عبد المؤمن ٢٠٨

٤ — إبراهيم آخر سلاطين المرابطين في إفريقية ٢١٠

صحيفة

الفصل الثالث : نهاية المرابطين ونهاية عصر الامبراطورية في اسبانيا ٢١٥

١ — ثورة الأندلس على المرابطين ... ٢١٥

٢ — تقلب القيصر الفونسو بين مخالفة المرابطين والأندلسيين ... ٢٢٧

٣ — جواز الموحدين إلى الأندلس وفتحهم الأولى فيها ... ٢٣١

٤ — حملات النصارى ضد المرية واشبونة وطرطوشة ... ٢٣٣

٥ — تحالف القيصر الفونسو مع المرابطين ضد الموحدين ... ٢٣٧

٦ — الأعوام الأخيرة من حكم القيصر الفونسو ... ٢٤١

الفصل الرابع : قيام مملكة البرتغال ٢٤٧

١ — أقدم الروايات عن البرتغال ... ٢٤٧

٢ — ولاية البرتغال في عهد هنرى البورجونى ... ٢٥٠

٣ — البرتغال تحت حكم الدوناتيرزا ... ٢٥٢

٤ — الفونسو هنريكز أمير البرتغال ... ٢٥٣

٥ — الفونسو هنريكز أول ملك للبرتغال ... ٢٥٧

٦ — مجلس لاميجو ... ٢٦٠

بيان عن المصادر ... ٢٦٤

فهرس الأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ... ٢٦٩

تمّ الجزء الأول ويليه الجزء الثاني

الناشر

مكتبة النخاعى بالقاهرة

تتاريخ الإسلام في عهد المرابطين والموحدين

تأليف
المؤرخ الأمازيغي يوسف أسباع

ترجمه ووضع حواشيه
محمد عبد الله عيناين

الجزء الثاني

الناشر مكتبة النخاعي بالعمارة

الطبعة الثانية
١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م
جميع الحقوق محفوظة للناسر

رقم الإيداع ٩٦ / ٩٥٨٧

الترقيم الدولي 977-5046-20-3

الناسر
مكتبة النحاسجي بالفاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يشتمل هذا الجزء — وهو القسم الثاني من كتاب تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين — على بقية تاريخ دولة الموحدين منذ افتتاحهم لغرناطة حتى سقوط دولتهم في المغرب والأندلس . ويعنى المؤلف عناية خاصة بمرض تاريخ عبد المؤمن وفتوحه وتنظيم دولة الموحدين في عهده ، وتاريخ أبي يعقوب المنصور الظافر في معركة الأرك ، وهي أعظم المواقع التي نشبت بين الموحدين والأسبان ؛ ثم يقدم إلينا رواية ضافية عن موقعة العقاب التي تليها في الأهمية ، والتي حطمت فيها قوى الموحدين في الأندلس ، وبدأ انهيار دولتهم من بعدها .

ويعرض المؤلف خلال ذلك تاريخ الممالك الأسبانية النصرانية بتفصيل واف ، وهو ما ينقص المصادر العربية ، ويحدثنا عن أحوالها الداخلية ، وعن نظمها وقوانينها ، وعن نموها المطرد بما تفتتحه تباعاً من القواعد والثورات الإسلامية . وعن الحوادث والظروف التي أدت إلى تضعف دولة الإسلام بالأندلس ، وسقوط قاعدتيها العظيمتين قرطبة وإشبيلية في أيدي النصارى .

ويختتم المؤلف كتابه بالتحدث عن نظم دولتي المرابطين والموحدين ، وعن أحوال الحضارة والعلوم في عهديهما ؛ وحديثه في ذلك موجز ، بيد أنه يتضمن بعض المعلومات والتعليقات المفيدة .

— د —

وقد اتبعت في هذا الجزء نفس الطريقة التي اتبعتها في الجزء الأول ، من
التعليق والشرح في جميع المواطن التي تقتضى شيئاً من الإيضاح ، أو التصحيح
أو التدويل ، وعينت عناية خاصة بذكر الأصول والمصادر العربية ؛ وتفضل
صديق العلامة الأستاذ أحمد بك أمين بقراءة ترجمة هذا الجزء ، كما قرأ ترجمة
«الجزء الأول» ، فله جزيل الشكر على جميل معاونته

محمد عبد الله عنانه

القاهرة في ١٢ جادى الأولى سنة ١٣٦٠

الموافق ٧ يونية سنة ١٩٤١

الكتاب الرابع

سيادة الموحدين.

والحكومة الختاسية النصرانية فى شبه الجزيرة الاسبانية
فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر

الفصل الثماني

قيام جماعات الفرسان الدينية

في اسبانيا والبرتغال

في نفس الوقت الذي غاضت فيه وحدة اسبانيا ، وأخذ سلطان الموحدين الناهض وفتوحهم تنذر النصرى كل يوم بالويل التزايد ، يقع قيام جماعات الفرسان . ولما كان أولئك الملوك الذين يقاتل بعضهم بعضاً ، قد أصبحوا عاجزين عن صد « أعداء الدين » ، فقد برزت إلى الوجود هيئات كتملك التي أدت في فلسطين للنصرى أجل الخدمات ؛ ولولا قيام هذه الهيئات ، لضاعت جهود قرون عديدة في أعوام قلائل .

ومع أنه لم تقم في أراجون وقطلونية جماعات فرسان دينية خاصة بهما ، فإن أمراء هاتين الدولتين كانوا مع ذلك أول من قدر أهمية هذه الجماعات ، وافتوا إليها الأنظار . وكان الملك ألفونسو الأول الأراجوني الملقب بالمحارب ، قد اعتزم أن ينشئ جماعة فرسان دينية ، وذلك في وقت لم تكن قد قامت فيه بالشرق أية جماعة من هذه الجماعات^(١) ؛ وكانت تقوم بين مسلمي الأندلس مثل هذه الجماعة ، ومنها اشتق ملك أراجون مشروعه . والواقع أن مسلمي الأندلس أنشأوا قبل ذلك بمصور نوعاً من الفرسان لحماية الحدود ، يسمون « بالمرابطة » ؛ وكان هؤلاء

(١) المفروض أن المؤلف يشير هنا إلى جماعات الفرسان الدينية النصرانية التي قامت فيما بعد بفلسطين والشام ، مثل الداوية والاسبتارية ؛ ذلك أن المشرق قد عرف جماعات المحاربين الدينية المسلمة قبل أن تعرفها الأمم النصرانية بمصور ، ويكفي أن نمثل لذلك بجماعات الفداوية الإسماعيلية الذين أُنشئوا في الفرنج الصليبيين وقتلوا منهم عدة أمراء ، فقد ظهرُوا في الشرق منذ أواخر القرن الخامس الهجري .

خلال معاركها الداخلية أمر العدو المشترك ، ولم تثب إلى رشادها ، حتى كان هذا العدو يهدد بالفناء كل شيء ؛ وعندئذ فقط أحمد النصارى إزاء الخطر المشترك ، وعاد التوفيق يحالفهم في كفاحهم ضد الإسلام .

وقسم القيصر مملكته بصورة خطيرة على مستقبلها ، ففتح أكبر أولاده سانشو الثالث عرش قشتالة والأراضي التابعة لها في أعلى التاج ، وعاصمتها طليطلة ، وجعل له أيضاً حق الجزية على مملكتي نافارا وأراجون ؛ ومنح ولده الأصغر فرديناند الثاني مملكة ليون وجليقية واشتوريش وجزءاً من الفتوح الجديدة في أراضي استرامادوره ، وكذلك دعوى السيادة على مملكة البرتغال . وإذا كان القيصر الفونسو الثامن (ريمونديز) لم يستطع مع ما اجتمع له من قوى قشتالة المتحدة ، أن يرغم ملك البرتغال على الخضوع لأداء الجزية ، أو أن يفرض على الممالك البرينية (نافارا وأراجون) أى نوع من السيادة الحقيقية ، فقد كان من الواضح بعد تقسيم مملكة قشتالة ، أن الممالك النصرانية الخمس التي قامت في شبه الجزيرة أضحى كل منها تبحث عن صوالحها الخاصة مستقلة عن الأخرى ، غير مكترثة بما إذا كان الوطن المشترك يغم بذلك أولاً يغم . ومن ثم فكثيراً ما كان يحدث أن يقتتل القشتاليون ، والليونيون ، والبرتغاليون ، والنافاريون ، والأرجونيون فيما بينهم بأشد مما يقاتلون أعداءهم المسلمين في الأندلس أو في بلنسية . وقد كان لرجال الدين الأسباب الفضل في أن وحدة اللغة والخلال والدين ، وهي التي كانت في بعض الأحيان ، قلما تحدث أثرها في القلوب التي تمجرت بطول الصراع ، لم يخب أثرها ، وعاد السلام بعد الخصاص بين الأمراء النصارى ، واجتمعوا في جبهة موحدة لقتال المسلمين .

ولما قسم القيصر مملكته بين ولديه (وكان ذلك قبل وفاته بنحو عشرة أعوام) لم يكن في نيته قط أن يشطرها إلى مملكتين مستقلتين ، بل كان يرى إلى أن تبقى مملكة قشتالة ، وعاصمتها طليطلة ، مركز السيادة النصرانية في إسبانيا ، وأن تكون ليون مملكة تابعة لها ، مرتبطة بها ، على مثال أراجون

ونافارا . وهكذا كان من برنامج هذا المشروع أن يتخذ الملك سانشو الثالث ملك قشتالة لقب القيصر ؛ ولكن قشتالة لم يكن بوسعها أن تؤيد سلطانها على الدول الاسبانية الأخرى ، إلا إذا كانت متفوقة في القوى ، ولم يكن متاح لها هذا التفوق إلا إذا ضمت لها مملكة ليون . وكانت الأسر القوية في ليون وقشتالة بما تضطرم به من الحسد والبغض ، تعمل على فصم أو اصر القربى التي تربط الأسرتين الملكيتين ، وعلى دفع الدولتين المتجاورتين إلى قتال بعضهما . ومن ذلك الحين اضطرت قشتالة أن تنزل عن سيادتها على اسبانيا النصرانية ، وحاولت نافارا وأراجون أن تتحررا من عهد الجزية ، وهى محاولة كلفت بالنجاح .

وقد استطاع الملك سانشو الثالث بكثير من القوة والعزم أن يقيم هيئة قشتالة مدى حين ؛ بيد أن حكومته لم تعيش طويلاً ، ولم تحظ نظمته وترتيباته بشئ من الدوام . وعمد أخوه فرديناند ملك ليون إلى جميع العظماء الذين يخلصون لقشتالة (وكان من بين هؤلاء القومس الشجاع بونسوس دى منرفا) فجردهم من ألقابهم ومناصبهم ، وأخرجهم من مملكته ، معتقداً أنه يغدو بذلك أقدر على حفظ استقلال ليون . ولم يلق المبعدون في قشتالة حفاوة وترحاباً فقط ، بل لقوا كذلك عوناً ضد مليكهم . وقاد سانشو ملك قشتالة أشراف ليون الفارين على رأس جيش قوى إلى ليون ، وأرغم أخاه الذى لم يكن قد تأهب للحرب بعد ، على أن يرد المبعدين إلى مناصبهم وأملاكهم ، وأرغمه كذلك في لقاء خاص بينهما على أن يتعهد بأداء الجزية .

وانتهز سانشو السادس ملك نافارا الملقب بالقوى ، وصهر ولدى القيصر ، فرصة هذه الحرب الأهلية بين الأخوين ، ليرفع نير قشتالة عن مملكته ، وليسترد ولاية ريوجا التي كانت من قبل تابعة لمملكة نافارا ، واستطاع باتفاق عقده مع أراجون بأن ترد كل مملكة إلى الأخرى ما افتتحت منها من الأراضي ، أن يتفرغ لمقاومة قشتالة . بيد أنه لم يتح له بعد افتتاح ولاية ريوجا أن يحتفظ بها ، ذلك أنه كان يعتمد على انشغال قوات قشتالة بمحاربة ليون ، وعلى أن تنهض مملكة

أراجون في الوقت نفسه فتعمل على التحرر من عهد الجزية لقشتالة ؛ فلما لم يقع هذا الحادث أو ذاك لم يرد أن يمضى وحده في خوض الحرب ؛ فترك ولاية ريوجادون أن يشتبك في أية معركة مع الجيش القشتالي الذي أرسل لقتاله ، متوجساً من زحف القشتاليين على نافارا ذاتها ؛ ثم عقد بين الفريقين صلح ردت الأمور بمقتضاه إلى ما كانت عليه .

وهكذا أثبت سانشو الثالث أنه ملك ذو بأس ، واستطاع بسرعة أن يرد أخاه الملك ، والملكين التابعين له ، إلى واجب الخضوع والطاعة . وكان قد اتخذ الأهبة لتتويجه ؛ وكان المفروض بلا ريب أنه سيحذو حذو ملوك قشتالة السالفين في اتخاذ لقب القيصر ، وتقرر بالفعل أن يشهد ريموند برنجار الرابع ملك أراجون وقطالونية احتفال التتويج وأن يحمل الصولجان كتابع للعرش ، وأن يشهده كذلك الملكان الخاصان للجزية ملكا ليون ونافارا ، وأن تنتهز فرصة اجتماع الملوك الأربعة للتشاور في تنظيم حملة مشتركة ضد الموحدين ، الذين اتسمت فتوحهم في جنوبي اسبانيا اتساعاً يدعو إلى الجزع .

ولكن هذه الخطط كلها انهارت لوفاة ملك قشتالة على غير انتظار ؛ ذلك أن سانشو الثالث توفي فجأة في طليطلة ، بعد أن حكم عاما واحداً وشهراً (من أول أغسطس سنة ١١٥٧ إلى ٣١ أغسطس سنة ١١٥٨) . ولم يترك ذلك الملك البارع في الخلال والفروسة ، الذي سمي « بالمحبوب » ، وأجمعت الروايات المختلفة على مديحه ، سوى طفل في الثالث من عمره هو الفونسو الملقب « بالنبل » أو « الصغير » . وحرص سانشو الثالث على أن يبعد ملكي أراجون ونافارا عن كل تدخل في شؤون الحكم في قشتالة فلم يختار زوجه الملكة بلانكا أخت ملك نافارا ، أو أخاه فرديناند ملك ليون للوصاية ونيابة الحكم ، ولكنه اختار في وصيته ، للولاية على ولده وللنيابة في الحكم ، مؤدبه الكونت جوتيرو فرنانديز سليل أسرة كاسترو القوية ، وقرر في وصيته أيضاً أن يحتفظ جميع الأشراف بألقابهم ومناصبهم حتى يبلغ ألفونسو سن الرشد .

ومن ذلك الحين يتخذ تاريخ اسبانيا النصرانية طابعا جديداً ، فلم يبق الملوك بعدهم محور السلطان والحكم ، ولكن الأسر الاسبانية القوية هي التي تتولى عندئذ هذا الدور ، وهي التي توجه سير النظم والحوادث الداخلية وتسيطر بالأخص على أقدار الحرب ضد العدو الخارجى ؛ أجل لم يقع تغلب الأرستقراطية على سلطة الملك فى الدول النصرانية الخمس فى نفس الوقت ولا بنفس النسبة ، ولكن عوامل هذا التغلب كانت تجم منذ بعيد . ذلك أنه حيث يسبغ السيف والشجاعة أعظم التقدير ، وحيث تغدو الحرب الدائمة مهمة الحياة ، فإن النفوس التي تعودت مقارعة الحروب والأخطار ، تأبى - إذا لم يكن خطر العدو الخارجى داهماً - أن تنحني أمام السلطان أو تنزل راضية عند حكم القانون والنظام . ولم تك معظم الممالك النصرانية فى شبه الجزيرة الاسبانية ينقصها الملوك الأقوياء ذوو الخلال الحربية البارعة ؛ فإن سانشو الثالث ملك قشتالة ، والفونسو هنريكيز ملك البرتغال ، وفرديناند الثانى ملك ليون ، وسانشو السادس ، الملقب بالقوى ، ملك نافارا ، وريموند برنجار الرابع ملك قطلونية وأراجون ، كانوا جميعاً ملوكاً ، يقدمون فى كثير من الحروب التي يخوضونها على رأس فرسانهم الشجعان ، القدوة لكل فضيلة حربية ؛ ولكن الأرستقراطية نمت واشتد بأسها ، حتى غدوا ، أو غدا من بعدهم خلفاؤهم القصر ، عاجزين عن التغلب على قواها المتفوقة . وظهر ذلك فى البداية حينما توفى سانشو الثالث ملك قشتالة ، وخلفه طفل قاصر ؛ ثم ظهر مثل ذلك سراعا فى أراجون وقطلونية حينما توفى الأمير الباسل ريموند برنجار الرابع ، وخلفه أيضاً ولده القاصر ألفونسو الثانى .

وتولى ريموند برنجار الرابع منشئ مملكة أراجون وقطلونية المتحدة حكم أراضيه الأصلية (قطلونية) زهاء إحدى وثلاثين عاماً ، وحكم مملكة أراجون مدة تقل عن ذلك ببضعة أعوام ؛ وكان فى حكمه أميراً ذكياً مستنيراً ، وحاكماً قوياً فى نفس الوقت . وأوحى إليه حسن فهمه لظروف اسبانيا ، أن ينضوى منذ البداية تحت سلطان قيصر قشتالة القوى ، وأن يرتبط معه بأوثق الصلات ؛ وقد ضحى

في سبيل هذه الصلة حتى باستقلال مملكته ، موقناً بأن انضواء مملكته المكونة من وحدات متنافرة تحت حماية قشتالة ، هو أسرع السبل لظفرها باستقلال قوى الدعائم .

وأنفق ريموند برنجار كل حياته في محاربة المسلمين ، ومحاربة ملك نافارا ، والأشراف الفرنسيين في لانجدوك وبروفانس . وقد تحدثنا فيما سبق عما قام به في سير الحوادث الاسبانية ، وخصوصاً في افتتاح المرية ، وعن افتتاحه لطرطوشة ، ومكونيزا ، ولاردة ، وإفراغه ؛ وعن حروبه مع نافارا ، وصداقته للقيصر الفونسو ريمونديز ؛ وبقي علينا أن نتحدث هنا بإيجاز عن حروبه في لانجدوك وبروفانس ، وهو حديث في الواقع أكثر اتصالاً بالتاريخ الفرنسي منه بالتاريخ الاسباني .

منذ اتحاد قطلونية مع أراجون في مملكة واحدة ، غاض كل أثر كان يربط قطلونية حتى ذلك الوقت ، بمهد تأدية الجزية لفرنسا ؛ وبحيث من الوثائق الرسمية حتى عادة لإثبات سني حكم الملوك الفرنسيين ، وأصبح معظم ولاية لانجدوك كما أسلفنا من قبل ، ملكاً لأمير قطلونية ؛ وكان يحكم ولاية بروفانس الكونت برنجار ريموند ، ولد صاحبها الكونت دولشي ، بالوراثة عن أمه ، وهو أيضاً أخ لريموند برنجار الرابع .

ولكن الكونت ريموند دي بو ، ولد أخت الكونت دولشي ادعى حقاً على نصف ولاية بروفانس ، وحارب صاحبها الكونت برنجار ريموند بمعاونة الكونت الفونس أمير تولوز (تولوشه) ، والجنوبيين ، وعدة كبيرة من الأنصار من فرسان الولاية ؛ وقبل أن يستطيع الكونت ريموند برنجار الرابع ملك أراجون أن يبادر بإنجاء أخيه الكونت برنجار ، قتل برنجار مدافعاً عن أرضه في موقعة نشبت بينه وبين سفينة جنوية (سنة ١١٤٤ م) ، فتولى أمير قطلونية الوصاية على ولده الطفل ، ورباه في قصره ، وحفظ له أراضيه ، بالرغم من أن الكونت دي بو سعى إلى لقاء القيصر الروماني كوزراد الثالث ، وهو صاحب السيادة على مملكة بروجونية التي تتبعها ولاية بروفانس ، وذلك في فيرزابورج (في مارس أو إبريل سنة ١١٤٥) ،

وحصل منه لنفسه ولعقب أخت الكونته دولشي على حق حكم جميع الأراضي المتنازع عليها نظير أداء الجزية ؛ ولكن ريموند برنجار الرابع ، بعد أن افتتح مدينة آرل^(١)، أرغم أشرف الولاية على أن يؤدوا له عيّن الطاعة ، وتلقب من ذلك الحين أيضاً بكونت بروفانس ، باعتباره حاكم الولاية بالنيابة عن ابن أخيه ، ورأى ريموند دى بونفسه فى النهاية مرغماً على التنازل عن كل دعوى على بروفانس . ولكنه بعد أن توفى (سنة ١١٥٠م) ، حاول ولده الكونت هوجو أن يثير هذه الدعوى من جديد ، وحصل لنفسه أيضاً من القيصر فردريك الأول على تأييد حقه فى حكم أراضى جدته (سنة ١١٥٣م) ، وهكذا نشبت الحرب مرة أخرى ، وقدم ريموند برنجار الرابع إلى بروفانس بجيش قوى ، وأرغم أعداءه على طلب الصلح ، والتنازل عن كل حق ودعوى .

وبينما كان ريموند برنجار الرابع ، تارة يقاتل فى جنوبى فرنسا ، وتارة فى مفاوز البرنيه ضد نافارا ، وآناً يحارب المسلمين ، إذا به يعمل فى نفس الوقت باطراد لتوثيق الاتحاد بين أراجون وقطالونية . ولما توفى القيصر ألفونسو ريمونديز ملك قشتالة ، وجاءت وفاته نذيراً باستقلال الدول النصرانية الاسبانية الأخرى ، اتى ريموند برنجار ، سانشو الثالث ملك قشتالة فى أوسمه ، ورغب إليه أن يتحرر من عهد الجزية ؛ ومع أنه لم يوفق إلى تحقيق أمنيته كاملة ، فإنه تقرر نظراً لتقدم الموحدين فى جنوبى اسبانيا بصورة مزعجة أن يقتصر عهد الجزية بالنسبة للملك أراجون فى المستقبل ، على حضور حفلات تتويج ملك قشتالة وغيرها من الحفلات الملوكية المشهودة ، وعلى أن يقدموا أمداد الجند حين الطاب ؛ وأما حق ملوك قشتالة فى احتلال المناطق والمدن الخاضعة للجزية ، فقد ألغى (سنة ١١٥٨م) .

وفى نفس الوقت الذى تراخت فيه عرى التحالف بين أراجون وقشتالة ، عقدت أراجون مع هنرى الثانى ملك إنكلترا محالفة ضد الكونت ريموند أمير

(١) كانت مدينة آرل يومئذ عاصمة ولاية بروفانس ، كما كانت من قبل عاصمة مملكة آرل القديمة التى افتتحها العرب سنة ٧٣٠ م (١١٢هـ) ، وفرضوا عليها الجزية .

تولوز، وصهر لويس السابع ملك فرنسا؛ وكان هنرى الثانى مدعى على ولاية تولوز حقوقاً باعتبارها ميراثاً لزوجته اليونور دى جويان. وحاصر هنرى وريموند برنجار مدينة تولوز بقوات مشتركة، ولكنهما لم يفوزا منها بباطل، لأن لويس السابع بادر بإنجاد صهره، وقضى على جهود الهاجين؛ ولما رأى الحليفان ما تكبدا من خسائر غير قليلة، قررا وقف الحرب، وعقد الفريقان هدنة، تلاها عقد صلح، يحتفظ فيه ريموند دى تولوز بإمارته (سنة ١١٦٠ م).

وفى تلك الأثناء توفى سانشو الثالث ملك قشتالة؛ وترتب على وفاته أن ثارت الخصومة من جديد بين نافارا وأراجون، وهى خصومة عمل رجال الدين على إخمادها بسرعة؛ وأثار الكونت هوجو دى بوفى الوقت نفسه اضطراباً فى ولاية بروثانس، ولكنه لم يقد منه شيئاً؛ وأخيراً جنح القيصر فردريك الأول، وهو الذى كان إلى ذلك الحين يحمى الكونت هوجو إلى تأييد أمير قطلونية، ومنح القيصر أمير قطلونية، وابن أخيه، عهد الجزية على بروثانس، كما كانت لأبيه من قبل، ومنحه أيضاً مثل هذا العهد على مدينة آرل، وولاية فوركالكيه؛ وذلك على أن يقدم الأميران إلى القيصر عهد الطاعة بالنسبة للأراضى المذكورة، وأن يتعهدا بتقديم أمداد الجند، وأن يمتزجا بالبابا فكتور الثالث الذى اختاره القيصر. ولما سافر الأميران إلى مدينة تورينو حيث كان القيصر يقيم يومئذ، ليتلقيا منه عهد الجزية. مرض ريموند برنجار أثناء الطريق وتوفى فى السادس من أغسطس سنة ١١٦٢، وهو فى الخمسين من عمره؛ فتابع ابن أخيه برنجار الثانى رحلته إلى تورينو، وتلقى العهد المنشود.

وفى وسعنا أن نقول إن ريموند برنجار الرابع، ولو أنه لم يتسم قط بملك أراجون حتى بعد وفاة راميرو (رذمير) الثانى، هو مؤسس عظمة أراجون الحقيقى. وقد كان باجماع الرواة أميراً مثالياً تتجلى فى شخصه كل الخلال البارعة، التى تتطلبها الفروسة الحقة، والحكم المستنير، مثل العدالة، والصدق، والإنصاف، والشجاعة، وغيرها.

ولما وصل نبأ وفاة الكونت إلى اسبانيا ، استدعت أرملته بترونيلا طبقات الأمة الثلاث إلى الاجتماع في وشقة ؛ ونُص على حضور نواب الطبقة الثالثة بطريقة صريحة ؛ وفتحت في هذا الاجتماع وصية الأمير المتوفى ، وفيها يعهد إلى ولده ريموند برنجار ، الذى اتخذ عندئذ اسم ألفونسو الثانى ، بحكم أراجون وقطلونية ، وأراضى لانجدوك ؛ وأن تمنح ولاية شرطانية^(١) ومعهما قرشونة ، وحق الجزية على الفيكونت ريموند ترنكافل ، وكذلك على الجزء الذى يخص ريموند برنجار الرابع من اربونة ، إلى ولده الثانى بيدور ، وذلك على أن يكون خاضعاً لأخيه الأكبر . وإذ كان ألفونسو لم يجاوز العاشرة من عمره ، فقد تولت أمه الحكم على مملكة أراجون ، وتولى عمه الكونت برنجار أمير بروفانس حكم قطلونية ؛ وربى الأمير الفتى ، الذى تلقب عندئذ بألقاب الملك في برشلونة . على أنه لم يمض عام آخر ، وطدت فيه بترونيلا سلام المملكة ، ووثقت أواصر التحالف بينها وبين قشتالة وإنكلترا ونافاراً ، حتى تخلت عن الحكم بموافقة الأشراف لابنها ألفونسو . على أن تكون ولاية العهد في عقبه ، فإذا لم يعقب آل الحكم إلى إخوته أو عقبهم ؛ ونص على حرمان عقب الإناث حرماناً مطلقاً ؛ وعاشت بترونيلا بعد تخليها عن الحكم ، عشرة أعوام أخرى ، ثم توفيت في برشلونة في سنة ١١٧٣ م .

(١) هى بالفرنسية Cerdagne (سردانيا) وهى مقاطعة صغيرة من أعمال البرنيه الشرقية .

الفصل الأول

تاريخ اسبانيا النصرانية

منذ وفاة القيصر ألفونسو ريمونديز

حتى ولاية الملك ألفونسو الثاني الأرجوني الحكم

كان المسلمون والنصارى ، يتناوبون التفوق في المعارك الطويلة التي تنشب بينهما في شبه الجزيرة الاسبانية ، تناوب المد والجزر . فقد لاح قبيل عبور المرابطين إلى الأندلس ، أن الإسلام في اسبانيا قد انتهى أمره . وتسمى ألفونسو السادس قيصرًا على جميع اسبانيا ؛ ولكن تغير كل شيء بعد موقعة الزلاقة ، وأضحى يهدد النصرانية في شبه الجزيرة خطرًا فناء على يد المسلمين ، شأن الإسلام بها من قبل ؛ بيد أن انهيار سلطان المرابطين بسرعة ، واتحاد القوى النصرانية تحت لواء القيصر ألفونسو ريمونديز ، مكّنا النصارى من التفوق مرة أخرى . فلما تمزقت اسبانيا النصرانية عقب وفاة هذا القيصر القوى ، وأدت فتوح الموحدين في الأندلس ، وفي البسائط المجاورة ، إلى تغيير جديد في سير الحوادث ، استرد الإسلام تفوقه من جديد ، واضمحلت سيادة النصرانية ، وخیل أنها لن تستطيع النهوض من عثرتها .

ولما توفى القيصر ألفونسو ريمونديز ، لاح أن كوكب السعد الذي قاد النصارى الاسبان حتى ذلك الحين إلى النصر ، قد خبا تألقه ؛ وفقدت أوصال الدولة الاسبانية ، الرأس ووحدة العزم ، ونسيت خمس دول تتعادل في القوة ،

يخصصون حياتهم مختارين للقتال ، ويهبون أنفسهم لحماية الحدود (الثغور) من غارات النصارى الفجائية وحملاتهم^(١) ؛ وكانوا يمشون في نقشف بالغ ، ولا ينتظم في سلوكهم سوى فرسان امتازوا بالشجاعة ونقاء السيرة ؛ وقد صرنا من حياة القتال الدائمة على الجلد والثبات في أشد الأزمات ، فكانوا يقاتلون في الحرب بشجاعة فائقة ، ولا يسمحون لأنفسهم بالفرار قط ، فإذا فاتهم النهر ، فإن الموت ينفذ واجبه ومطلبهم . أجل عرف النصارى الاسبان جماعات من الفرسان تربطها نظم وصفات معينة ، بيد أنها لم تكن جمعيات منظمة وفقاً لقانون معين . وكان الجند الأرجونيون الخفاف ، وهم الذين يسميهم العرب « المجاورين » ، يؤلفون في بداية القرن الثاني عشر جماعات شديدة البأس ، صرنا على احتمال كل ضروب الحرمان والمحن ، ويحسب لها المسلمون أيما حساب ؛ بيد أنها لم تكن تنتظم في جمعية حربية منظمة .

ولما أنشأ ألفونسو الأول عقب افتتاحه لسرقسطة سنة ١١١٨ م (٥١٢هـ) قلعة « مونريال » على الحدود لتقوم بدفاعة المسلمين^(٢) ، كان يفكر في إنشاء جماعة من الفرسان برسم القبر المقدس ؛ وليس من المحقق ما إذا كان قد عرف عندئذ بقيام جماعة « الداوية » (فرسان المعبود)^(٣) ، وجماعة فرسان القديس يوحنا ؛ وعرض ملك أراجون مشروعه على الأشراف (البارونات) ، وطالب إليهم بمبالغ طائلة من المال لإمداد الجماعة والعمل على نشرها . ولكن المشروع بقي بلا تحقيق ، وذلك

(١) سبق أن شرحنا كلة المراقبة ومصدر اشتقاقها ، ومنزاهها التاريخي (راجع الحاشية في ص ٦٩ من الجزء الأول من هذا الكتاب) ونزيد هنا أن أطراف الأندلس الشمالية مما يلي برشلونة وسرقسطة إلى ما وراء جبال البرنيه ، كانت منذ الفتح تعرف بالثغر أو « رباط الثغر » وكانت المدن أو القواعد الأمامية المجاورة لأراضي العدو تعرف بالرباط ؛ فكان ثغر « أربونة » مثلاً يعرف قبل سقوطه في يد الفرنج برباط الثغر ؛ وقد اشتهر المدافعون عن هذه الثغور في تاريخ الأندلس بالشجاعة الفائقة . وظاهر أن طوائف الفرسان التي يشير إليها المؤلف ، هم حماة الرباط ، أو الثغور ، أعني أطراف الحدود المجاورة للثغور ، وقد ورتوا تقاليدهم وخلالهم الحرية الممتازة عن أسلافهم حماة الرباط .

(٢) راجع ص ١٥٣ من الجزء الأول من هذا الكتاب .

(٣) راجع الحاشية الخاصة بالداوية (ص ١٧٥ من الجزء الأول) .

فيما يظهر ، لعدم وجود الفرسان الصالحين لتنفيذه .
على أن الفكرة آتت مع ذلك ثمرتها ؛ ذلك أنه لما أخفق مشروع إنشاء
جماعة دينية اسبانية من الفرسان ، اتجهت الفكرة إلى إنشاء فرع من فرسان
الداوية في اسبانيا ؛ وانتظم الكونت ريموند برنجار الثالث أمير برشلونة قبيل وفاته
بقليل (سنة ١١٣١ م) في سلك الداوية ، وأنشأ ولده وخلفه أول دير للجماعة في
قطلونية . وذهب ألفونسو المحارب ، حسبما ذكرنا من قبل ، بمبدأ في تأييد
الداوية فنزل لهم في وصيته عن ثلث مملكته ؛ ولكن الجماعة لم تحصل على هذا
الثلث ، لأن الشعب الأرجوني أبي تمزيق الملكة ، بيد أنه لما طالب الداوية بعد
وفاة ألفونسو بأعوام قلائل بحقوقهم في الملكة ، عقدت بينهم وبين أراجون في
عهد ريموند برنجار تسوية في هذا الشأن خلاصتها ، أن يعنى فرسان الداوية من
الخضوع لقضاء الملك ، وأن يمطوا نصيباً معيناً في المدن التي انتزعت من المسلمين
مثل وشقة ، وبربشتر ، وقلعة أيوب ، وسرقسطة وغيرها ؛ وفي مقابل ذلك يتعهد
الفرسان بأن يخصصوا خدماتهم لحماية النصرانية في تلك الأنحاء ؛ وتم هذا الاتفاق
في اجتماع عقد في جيرونة في سنة ١١٤٣ م ، وشهده الندوب البابوي وكثير من
الأساقفة وأشراف أراجون وقطلونية .

وسرعان ما ظهرت أهمية العون الذي يبذله فرسان الداوية في كل حرب
تنشب مع المسلمين ، ولا سيما في الدفاع عن حدود أراجون الجنوبية وما ترتب على
هذا العون من النجاح والظفر ، حتى أنه عهد إليهم ، كما حدث مع فرسان القديس
يوحنا ، بحراسة معظم الحصون التي افتتحت في العهد الأخير ، وكان من الطبيعي
أن يقع مثل ذلك في قشتالة والبرتغال ، فيعهد بالدفاع عن حصون الحدود الهامة
المجاورة للمسلمين إلى فرسان الداوية ضد الغزوات الإسلامية ، ويحصل الفرسان
غير بعيد جزاء جهودهم على كثير من الأراضي .

ونستطيع أن نقول إن جماعات الفرسان الدينية في اسبانيا ، وجماعة «آفيس»
Avis البرتغالية كانت تقليداً لجماعة فرسان الداوية التي نقلت نظمها من فلسطين

إلى اسبانيا ؛ وقد بدأت هذه الجماعات في معظم الأحيان صغيرة لأهمية لها ، وقامت وفقاً لضرورات الحوادث ، وسرعان ما اشتدت وقوى بأسها .

ومن الغريب ، أنه لم تنشأ في أراجون ، أى في نفس الأرض التى استقر الداوية فيها قبل غيرها ، وكانوا فيها أكثر عدداً ، أية جماعة محاربة جديدة إذ لم تدع الحاجة إلى قيام مثل هذه الجماعة ؛ أما في قشتالة الجديدة وفي استرامادوره ، وهما أشد النواحي تعرضاً لغزوات الموحدين وعيهم ، ولم يحتل الداوية فيهما سوى قلاع قليلة ، فقد حدث بالعكس أن قامت جامعتان محاربتان ، لا يفصل بين قيامهما سوى أهوام قلائل . ذلك أن رجال الدين ، وخصوصاً في الأديار ، كانوا يمشون من أجل الحرب والدعوة إلى الصليب أكثر مما يمشون للعزلة والعبادة ، وقد رأوا حينما قسمت مملكة قشتالة ، وما ترتب على تقسيمها من تمزيق لاسبانيا ، أنه لا بد من قيام جماعة مستقلة من الفرسان تكون بمنزلة عن تقلبات السياسة في الدول الاسبانية النصرانية ، لتدود عن الدين المسيحى ، وقد تجلت قوة الشعور بهذه الحاجة ، بما بذل يومئذ من جهود عديدة في هذا السبيل .

أما أى الجماعتين القشتاليتين من الفرسان كانت الأولى فأمر يختلف عليه المؤرخون الاسبان ، بيد أنه بعد تمحيص مختلف الروايات يمكن القول بأنه إذا كانت جماعة « فرسان القنطرة » Alcantara التى اتخذت هذا الاسم فيما بعد (فى سنة ١٢١٩) هى أقدم الهيئتين ، فإنها لم تنم وتتقدم بمثل السرعة التى تقدمت بها جماعة « فرسان قلعة رباح » Calatrava . وإليك كيف تقدم إلينا الرواية نشأة « فرسان القنطرة » : فى سنة ١١٥٦ م ، فى عصر القيصر الفونسو ريمونديز ، وقبل وفاته بقليل ، اتفق فرسان من شلمنقة أحدهما يدعى سويرو والآخر جومز نذرا حياتهما لمحاربة المسلمين ، مع ناسك يعيش بقرب شلمنقة واسمه سانت أماندوس على البحث عن مكان يصلح لإقامة حصن ، تؤسس فيه جماعة من الفرسان لمحاربة أعداء الدين المسيحى ؛ وألفوا طلبتهم فى المكان الذى يقع فيه دير سنت جوليانوس ، فبنوا حول الدير باذن الأسقف أردونو ، أسقف شلمنقة الذى يقع

المكان تحت رعايته ، حصناً يحيط به ، وسرعان ما اجتمع إلى الفارسيين والناسك عدد من الفرسان والزاهدين الذين تحذوهم نفس العواطف ، ونذروا أنفسهم للكفاح من أجل الدين والموت في سبيله ، وقامت من هؤلاء جماعة محاربة سميت أولاً بجماعة « سنت جوليان دل بيريرو » S. Julian del Pereiro ، وانتخب رئيسها الأول الفارس سويرو الذي تقدم ذكره ، وأمدّه أردونو أسقف شلمنقة بأنظمة جماعة « السستريسيان » إحدى فرق « القديس بندكت »^(١) ، ليكون منهاجاً للجماعة مع بعض النظم الحربية ، وبعد ذلك بأكثر من خمسين عاماً ، في أوائل القرن الثالث عشر ، اتخذت هذه الجماعة اسم جماعة فرسان القنطرة .

ولكن صمت المصادر التاريخية الوثيقة المعاصرة عن ذكر هذه الجماعة ، وما ورد عن قيامها في الروايات المتأخرة ، مما يحمل على الشك في صدق هذه القصة . أما الروايات التي انتهت إلينا عن قيام جماعة « فرسان قلعة رباح » فهي أصح وأوثق ؛ وقد قص علينا مؤرخ عاش بعد ذلك بقليل ، هو الأسقف رودريك الطليطلي ، عن قيامها ما يأتي : لما انتهى سانشو الثالث ملك قشتالة من الاتفاق مع أخيه فرديناند في سنة ١١٥٨ م ، وعاد إلى طليطلة ، جاءت الأنباء بأن المسلمين يزحفون على قلعة رباح في جيش ضخم . وكانت القلعة قد سلمت إلى فرسان الداوية للدفاع عنها ، ولكنهم لما أيقنوا بعجزهم عن الاحتفاظ بها إزاء تفوق الأعداء ، غادروها وردوها إلى ملك قشتالة . وكان يوجد وقتئذ في طليطلة رجل ورع هو ريموند رئيس دير فتيرو ، ومعه راهب من أسرة نبيلة يدعى دياجو ألاسكينز ، وكان فارساً ظهرياً في ميدان الحرب ، وربى في البلاط . فلما رأى هذان الرجلان جزع الملك لما يتوقعه من سقوط قلعة رباح في يد الأعداء ، خصوصاً وأنه لم يتقدم للدفاع عنها أحد بمد

(١) سبق أن أشرنا إلى جماعة القديس بندكت (الجزء الأول ص ١٢٥) . وأما جماعة السستريسيان Cistercians ، فهم إحدى فرق البندكتيين ، وقد أسست في مكان يدعى ستو Cliteaux بالقرب من مدينة ديجون سنة ١٠٩٨ م على يد راهب بندكتي يدعى سان روير . وقد امتازت أنظمة هذه الجماعة بالخشونة وتفضيل العمل الشاق في الحقول وغيرها على الإغراق في الصلاة والعبادة .

أن غادرها فرسان الداوية ، اعترضا أن يتوليا هذه المهمة ، وسألا الملك أن يمهدها إليهما ؛ فأجاب الملك سؤالهما ، لما يعلمه من ورع الراهب ريموند ورفيع مكانته لدى الشعب ؛ وأيد يوحنا مطران طليطلة مشروع الرجلين ، وألقى عظات دينية ، وعد فيها بالفقران لكل من يتقدم للدفاع عن قلعة رباح ، ولم يمض سوى قليل حتى استطاع الراهب ريموند أن يجمع حوله في قلعة رباح عشرين ألف مقاتل ، وأمدّه كثير من أولئك الذين لم يشتركوا في الدفاع بأشخاصهم ، بالخيول والدواب والسلاح والمؤن والمال ، حتى فاضت القلعة بكل ما هو ضروري للدفاع ؛ وألقى المسلمون أنه ليس من الحكمة أن يقدموا على مهاجمة مكان اتخذت للدود عنه مثل تلك الأبهة ، وهكذا أنقذت قلعة رباح .

ثم رأى الراهب ريموند تخليداً لثواب الدفاع عن النصرانية في اسبانيا ، أن يؤلف من هؤلاء المقاتلين الذين احتشدوا حوله ، ممن يرغبون في تخصيص حياتهم للدفاع عن النصرانية إزاء الإسلام جمعية من الأخوة ؛ وهكذا قامت جماعة « فرسان قلعة رباح » ، وقوامها الحماسة الدينية والشجاعة ، وتألفت نواة فرسانها الأولى من رهبان دير فتيرو ، الذين بادروا بالرغم من سنهم وضعفهم إلى اللحاق برئيسهم ريموند في قلعة رباح ، وهم يحملون معهم كل ما كان بالدير من متاع ومؤن وافرة ؛ وطبقت على الفرسان النظم الحربية لطائفة السستريسيان ، وانتخب الراهب ريموند أول « أستاذ أعظم » للجماعة ، ونعت الجماعة باطراد ، وسادق البابا إسكندر الثالث على قيامها ، وتوالت عليها الهبات الضخمة من الملوك والأفراد ، واعتقد الناس أن تعضيد هذه الجماعة المحاربة هو خير ما يعمل لخدمة الدين والوطن .

وهكذا بدت على ممر الأيام ، أهمية ما يقوم به الفرسان من الخدمات والحماية ، وحل تفرق ملوك اسبانيا النصرانية ، وتفاقم خطر الغزوات الإسلامية ، الشعب على أن يبحث لنفسه عن وسائل الدفاع ، وقامت في جليقية في سنة ١٢٦١ م ، بعد قيام فرسان قلعة رباح بثلاثة أعوام ، جمعية محاربة جديدة هي جماعة القديس ياقب S. Jacob ، وينسب تأسيس هذه الجماعة إلى عدة فرسان من قطاع الطريق ، كانوا من قبل يخوضون حياة همجية عنيفة ، ويرتكبون كثيراً من الآثام والجرائم ،

فوعظهم رجال الدين ونصحوهم بالاستقامة والتوبة ، فتابوا عما ارتكبوه في شبابه من إثم ، ووهبوا بقية حياتهم للدفاع عن دين المسيح ضد أعدائه ، وأن يقوموا بحماية الحاج الذين يقصدون زيارة قبر القديس ياقب في كومبوستل ، وعين أول رئيس لهذه الجماعة بموافقة فرديناند ملك ليون ، الفارس بيدرو فرنانديز ، وهو من أهل فونيتا انكالا من أعمال استرقة ، فنظمها وفقاً لمناهج القديس أوغسطين^(١) وأسبغ عليها الطابع الحربى ، وأبيح الزواج لأعضائها خلافاً لفرسان قلعة رباح ، واتخذ شعارها سيف القديس ياقب الدامى في صورة الصليب ؛ وتوالت عليها الهبات ولا سيما هبات الملوك ، فنمت بسرعة ، واشتد ساعدها ، وكثرت أملاكها .

أما في البرتغال ، فقد ظهر فيها فرسان الداوية وفرسان القديس يوحنا مذ قامت المملكة ، وكان الملك ألفونسو هنريكيز ، تحمله عاطفة المنافسة لقشتالة وليون على أن يحتذى مثلهما في كل شيء ، فعمل بعد الذى رآه من مزايا الفرسان الواضحة أن ينشئ جماعة من هذه الجماعات ؛ وعلى ذلك فإنه من الخطأ أن نرجع قيام جماعة الفرسان في البرتغال إلى سنة ١١٤٧ م ، فهي لم تقم في الواقع قبل سنة ١١٥٨ ، وربما كان قيامها سنة ١١٦١ ؛ وترجع وثيقة تأسيس هذه الجماعة التي سميت عند قيامها بالجماعة المحاربة الجديدة Nova Militia ، إلى سنة ١١٦٢ م ؛ وكانت نظمها شبيهة بنظم فرسان قلعة رباح ، ومشتقة مثلها من نظم الآباء السستريسيان . وتتلخص واجبات الأخوة في أن يجاهدوا من أجل الدين المسيحى ، وأن ينزلوا الميدان دائماً لقتال المسلمين ، وألا يتزوجوا ، وأن يكونوا خاضعين لكبير فرسان قلعة رباح ، بالرغم من أن لهم رئيساً خاصاً ؛ وفى ذلك ما يحمل على الاعتقاد بأن هذه الجماعة المحاربة البرتغالية الجديدة لم تكن في الواقع سوى فرع لجماعة فرسان قلعة رباح ؛ وكان أول أستاذ أعظم لجماعة الفرسان البرتغالية هو بيدرو أخو الملك

(١) عاش القديس أوغسطين في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس (٣٥٤ — ٤٣٠ م) وهو من أعظم أركان الكنيسة اللاتينية . وأسست جماعة القديس أوغسطين في القرن الحادى عشر الميلادى ؛ وشعارها الفقر والطاعة والعفة ؛ ومناهجها في غاية الاعتدال بالنسبة لمناهج الجماعات الأخرى ؛ وهي منتشرة في جميع أنحاء العالم .

غير الشرعى ، ولما استولى الفرسان فى سنة ١١٦٦ م على قلعة يابرة من يد المسلمين ، وعهد إليهم بحراسة القلعة ، سُمُّوا « بفرسان يابرة » ؛ ولما وهبهم الملك ألفونسو الثانى بعد ذلك ، فى سنة ١٢١١ م ، محلة « آفيس » Avis ، وأقاموا فى هذه المحلة قلعة جديدة ، سموها عندئذ « بفرسان آفيس » . وكان ثوبهم عندئذ عبارة عن عباءة طويلة ذات برنس أسود ، ولكنه غير فيما بعد ، إذ كان يضايقهم أثناء القتال ؛ كذلك سمح لأبناء هذه الجماعة فيما بعد أن يتزوجوا مثل فرسان شنت ياقب ، ولكن على أن لا يتكرر الزواج .

وفى بعض الروايات أن ألفونسو هنريكيز ، أنشأ بعد قيام الجماعة المحاربة الجديدة بأعوام قلائل ، فى سنة ١١٦٧ م جماعة ثانية سميت « بجماعة القديس مخائيل ذى الجناح » S. Michael del Ala ؛ ويزعمون فى سبب هذه التسمية ، أنه رأى أثناء موقعة شنتين ذراع يتقلد سيفاً فظنوه ذراع قديس . ولما كان ألفونسو قد أحرز فى هذه الموقعة ظفراً باهرآ ، ولم ينبج من الهلاك فيها إلا بمعجزة ، فقد قيل إنه أنشأ لهذا السبب جماعة من الفرسان تنضوى تحت اسم الملاك مخائيل ، وقد ورد فى وثيقة لا شك فى بطلانها ، أن أعضاء هذه الجماعة الذين سمح لهم بالزواج يجب أن يكونوا من الأشراف ، وأن يكونوا فى الحرب حرساً للملك وللأعلام ، وأن يخضعوا لرئيس دير الكوبازا ، وأن يحملوا شعارهم جناحاً أحمر ذهبياً يضمونه على صدورهم .

ولما كانت الروايات قد تضاربت فى أمر هذه الجماعة ، ولم تذكر عنها شيئاً من بعد وفاة ألفونسو هنريكيز ، وكانت هذه الوثيقة تتضمن مزاعم تناقض التاريخ الحقيقى ، فانه يسوغ لنا أن نشك فيما إذا كانت هذه الجماعة قد أنشئت وقامت فعلاً . هذا ، وبينما كان الفرسان يذودون عن حدود المملكة النصرانية ضد غزوات المسلمين إذ قل اهتمام النصارى بمحاربة أعدائهم المسلمين ، ومرضت قوى النصرانية على يد صراع داخلى طويل الأمد حتى بدا خطر الموحدين داهماً على الجميع ، فاضطر الملوك النصارى عندئذ إلى توثيق اتحادهم من جديد .

الفصل الثالث

صراع أسرتى كاسترو ولارا

فى سبيل السيادة فى قشتالة

لما توفى الملك سانشو الثالث ظهرت فى قشتالة أسرتان قويتان على جميع الأمر الأخرى ؛ وكانت كلتاها تضارع الأخرى من حيث التراء والقوة ووفرة الأنصار ، وكلتاها تحسب فى عداد الأمراء أكثر مما تحسب فى عداد الأتباع ؛ هاتان الأسرتان هما آل لارا ، وآل كاسترو ، كلتاها عريقة فى الحسب ، وكلتاها ساهمت فى تشييد قوة الملوكية واستولت على كثير من الأراضى بعهد الجزية وظفرت بأعظم المناصب والألقاب ؛ وكان ملوك قشتالة يعتبرونهما عضد العرش ودعامته . فلما توفى سانشو الثالث ، وآثر فى وصيته آل كاسترو باختيار زعيمها الشيخ جوتيرو فرنانديز مؤدبه القديم ، للوصاية على ابنه أثناء طفولته ، حنق آل لارا من هذا الإيثار لآل كاسترو ، وعملوا على إثارة حرب كانت وبالا على قشتالة ؛ وقد حاول الشيخ جوتيرو ، حينما شعر بنذر هذه الحرب ، اجتنابها بشيء من البذل والتساهل ولكنه لم يفعل سوى أن عجل بوقوعها ؛ وكان تصرفه بمفرده فى تغيير الوصية الملكية دليلا على نياته السلمية ، ولكنه لم يكن دليل الحكمة ؛ وكان يتزعم آل لارا ثلاثة أخوة ، هم أبناء الكونت بيدرو ، وزوجه الدونا آفا ، وهم المانريش ، والقارو ، ونونيو ، وكانت لهم ضياع واسعة على ضفاف دويرة (نهر دورو) ويتصل بهم بطريق القربى والمصلحة أوثق الصلات ، الكونت جارسيا دى آتيا من أسرة الكونت دى كارا

وقد عهد جوتيرو إلى جارسيا دى أنياس بتربية الملك ، وكأنه أراد بذلك أن يبقى الملك تحت سلطانه ، وذلك بعد أن استحلف آل لارا على حفظ السلم ؛ وكان جوتيرو يؤمل أن يجتنب بذلك كل خلاف حتى يبلغ الملك أشده ، إذ كان جارسيا فيما يبدو ، يستطيع بميوله السلمية ، وصلته بآل لارا أن يخمد الريب والظنون المضطربة ، بيد أنه حدث عكس كل ما كان ينتظره الشيخ الضعيف جوتيرو . ذلك أن الكونت جارسيا كان رجلا قليل الذكاء والكفاية ، تثقل كاهله تربية الملك وما يقترن بها من الشؤون ، وكان يخشى بالأخص أن يتكبد في سبيلها بعض الخسائر ، إذ لم تربط لها مخصصات ثابتة ، ومن ثم فإن الكونت المازيش كبير أسرة لارا لم يجد صعوبة في إقناعه بأن يسلمه الملك الطفل ؛ وهكذا نقل الملك من يد آل كاسترو إلى يد آل لارا ؛ فلما علم جوتيرو فرنانديز بذلك ، طالب في الحال بأن يعاد الملك إلى إشرافه ، فسخر آل لارا من طلبه . وهنا فقط أدرك جوتيرو سوء تصرفه ؛ وتفاقم الشر ، حين شهر الكونت الشيخ الحرب ليسترد بالقوة ما لم يك ثمة ضرورة للتسليم فيه ؛ وأنقذه الموت العاجل من لوم أسرته وصحبه ، ولم يخاف ولداً ، ولكن أبناء أخيه رودريك فرنانديز ، وهم فرديناند ، والقارو ، وييدرو ، وجوتيرو ، وصهرهم القارو ردريجيز ، تابعوا الكفاح في سبيل قضية الأسرة ، يزعمهم فرديناند كبير الإخوة ، مستندين إلى نصوص الوصية الملكية التي تمنح أسرتهم بالوصاية ؛ فلما استمر الخصوم في موقفهم ، ولم يسلموا الملك الطفل ، لجأ آل كاسترو إلى فرديناند ملك ليون ، عم الملك لكي يحمي ابن أخيه ، فقدم ملك ليون في الحال في جيش ضخم ، واحتل معظم أراضي قشتالة ، وأعلن توليه لزمام الحكم والوصاية على ابن أخيه ، واعترف به معظم الشعب ملكاً على قشتالة (سنة ١١٥٩ م) ، واشتد في مطاردة آل لارا حتى أرغمهم أخيراً على تسليم الملك الطفل في مدينة «سوريا» (Soria) . ومن الصعب أن ندلل على أن فرديناند كان ينوى انتزاع الحكم من ابن أخيه ، على أنه بسط حكمه على المملكة كلها تقريباً ، على نحو ما كان يحكم والده القيصر ، وتسمى بملك اسبانيا ، واتخذ من

آل كاسترو الذين دعوه إلى المملكة ، أخلص أنصاره ، وأغدق عليهم كل المناصب والألقاب ، واعتبر آل لارا عصاة خارجين ؛ وإذ كان الملك سانشو الثالث قد نص في وصيته على أن يبقى الجميع محتفظين بأراضيهم ومناصبهم وألقابهم حتى يبلغ الملك الطفل الخامسة عشرة من عمره ، فقد طالب آل لارا بأراضيهم وحقوقهم ، وفقا لهذا النص . فلما رفضت مطالبهم ، عمدوا إلى جثة جوتيرو فرنانديز فأخرجوها من القبر ، وأقسموا أنهم لن يردوها إلى القبر قبل أن يرد المغتصبون إليهم حقوقهم ؛ فعندئذ دعت محكمة للفصل في النزاع ، فقضت ضد آل لارا ؛ وفسرت نصوص الوصية بصورة أخرى ؛ وهنا ثارت بين الفريقين حرب دموية عنيفة دامت بضعة أعوام ، ولم يتمكن آل كاسترو من إحراز النصر فيها إلا بمعاونة ملك ليون ؛ وخربت أراضي قشتالة وأجدبت ، واقتحمت القلاع ، وأحرقت المدن والقرى ، وعمل المواطنون معاملة الأعداء ، فهبوا ، وأسروا ، وقتلوا . ولما نفذت قوى آل لارا في النهاية ، طلب إليهم الملك فرديناند تسليم الأراضي الباقية تحت أيديهم من مملكة قشتالة ، ومنها العاصمة طليطلة ، وأن تؤدي جميع الضرائب إلى ملك ليون ؛ وقدر آل لارا حرج موقفهم ، فأعلنوا أنهم على استعداد لتقديم الطاعة إلى الملك فرديناند ، إذا سلم إليهم الطفل الملكي قبل ذلك ، وأنهم يريدون أن يقسموا عيّن الخضوع والإخلاص للملك فرديناند باعتبارهم حماة وحراسا للملكهم المستقبل .

واتفق الفريقان على أن يجتمع لذلك الغرض مجلس شورى في « سوريا » يشهده آل لارا ، والملك فرديناند مع ابن أخيه الطفل ، وهناك سلم الطفل الملكي إلى الكونت الماريش دي لارا ، وقرن تسليمه بهذه الكلمات : « إننا نسلمه إليك مختارين ، فقم على حراسته مختاراً » ؛ وهنا بدأ الطفل يصيح بين يدي حامله متألماً من ألم أصابه بطريقة خفية ؛ فحملوه بعيداً بحجة إعطائه بعض الطعام وتهديئة روعه ، على أن يعاد إلى عمه في المجلس ، بعد أن يكف عن البكاء . وفي الوقت الذي شغل فيه الملك فرديناند بالتشاور مع الكبراء ، في انتظار بقضلة

الطفل من نومه المزعوم ، وثب فارس جرىء من المخلصين لآل لارا ، واسمه بيدرو نونيز ، وحمل الطفل فوق أسرع جواد ، واستطاع أن يصل به في نفس اليوم إلى قلعة استبان دى جورماز ، التي كانت باقية بأيدي آل لارا ؛ وعمد زعماء آل لارا في الوقت نفسه إلى الفرار من المجلس ، قبل أن يقسموا بين الطاعة للملك ؛ ولم يقف فرديناند على هذه الخديعة إلا بعد فوات الوقت ، ولما أرسل إلى الكونت الماريزش فارساً ينسب عليه نكته وغدره ، ويتهمة بالخيانة العليا ، استقبله آل لارا بالتهديد والوعيد ؛ وأعلن الماريزش أنه لا يريد أن يناقشه أحد فيما إذا كان قد أخلص أو نكث ، وأن كل ما هنالك ، أنه لجأ إلى جميع الوسائل الممكنة لينقذ سيده الشرعى ، الذى ما زال طفلاً ضعيفاً ، من براثن العبودية ، وأن القوانين وأصوات الشعب كغيلة بتبرئته من كل إثم وعيب .

ومن ذلك الحين ، أعنى منذ سنة ١١٦١ م تسترد أسرة لارا قوتها وبأسها ، إذ كان الشعب يرى دائماً أن الحكومة توجد حيث يوجد الملك ؛ كذلك كلفت المدن الواقعة على ضفة دويرة ، والتي كانت تابعة لآل لارا ، كفاحاً شديداً ، ومع ذلك فقد بقى التفوق في جانب فرديناند وحلفائه آل كاسترو ، وكان يؤيدهم أكبر رجال الدين ومنهم مطران طليطلة . وإذا كانت أسرة لارا قد استطاعت بالرغم من هزائمها في ميدان الحرب أن تحتفظ بسلطانها ، فإن في ذلك ما يدل على أنها كانت تعتمد على معاونات هامة ؛ ويرجع ذلك أيضاً إلى أسباب عديدة أخرى . وقد حدث أنه بينما كانت أسرة لارا تكافح ملك ليون وآل كاسترو بكل ماوسعت ، أن قام في وجهها عدو جديد ، هو سانشو السادس ملك نافارا ، وانتزع ولاية ريوجا من قشتالة وضمها إلى مملكته ، وبلغ من ثقته بثبات هذا الفتح ، أن ترك ريوجا دون حرس ، وأرسل قوة من النافاريين لمعاونة حليفه أمير بلنسية^(١) ؛ فانتهاز آل لارا فرصة هذا التهاون ، واستردوا ريوجادون كبير جهد .

(١) كان أمير بلنسية وشرق الأندلس يومئذ عبد الله محمد بن سعد بن مردنيش ؛ وكان قد قوى أمره واشتد بأسه وأرسل جيوشه إلى غرناطة وقرطبة لمحاربة الموحدين ، وأوقع =

وبينما كان يبدو آل لارا في صورة المدافعين عن استقلال قشتالة والقومية القشتالية ، ويغنونون بذلك عطف فريق كبير من الشعب ، كان آل كاسترو ، الذين كتب على يدهم هزيمة النصارى إزاء المسلمين ، يفقدون سلطانهم شيئاً فشيئاً . بيد أنهم بادروا قبل أن يفقدوا كل سلطانهم إلى التفاهم مع خصومهم ، وعقدوا معهم في « سوريا » في سنة ١١٦٣ م ، اتفاقاً على وقف القتال ، حتى يستطيع النصارى رد غزوات المسلمين بصورة أقوى وأجمع . ومع ذلك فقد اقتصر الفريقان في الاشتراك في محاربة الموحدين على إرسال فرسان قلعة رباح والداوية ومعاونتهم ، للدفاع عن الحدود . وما كاد ينقضى خطر المسلمين الدائم ، حتى نشبت الحرب الأهلية في قشتالة من جديد ، ذلك أن أسرة لارا لم تعقد الهدنة إلا لكي تخدر أعصاب خصومها ، ثم لتضربهم الضربة القاضية ، بمباغتة طليطلة عاصمة قشتالة . ولكن فرديناند رويز عميد آل كاسترو كان على قدم الحذر من غدر آل لارا .

ومن ثم فقد حطم الهجوم على طليطلة ، وفقد المائريش دى لارا الشجاع حياته في المعركة (سنة ١١٦٤ م) ، فأعلن أخوه نوبو نفسه وصياً لقشتالة ومضى في متابعة الحرب بعنف وشدة ، وماد آل لارا لجمع قواهم بسرعة ، واستطاعوا أن يستثمروا بذلك كون الملك الطفل في يدهم ، وأن يفتنموا بذلك تأييد كثير من القشتاليين ، الذين دفعهم ظفر الليونيين من قبل إلى معاونة آل كاسترو ؛ وتقدم نوبو في غزوه أراضى طليطلة بسرعة ، حتى أن الملك فرديناند اضطر أن يحالف أعدى أعداء عرش قشتالة ، أعني سانشو ملك ناغارا ، وألفونسو الأول ملك البرتغال ، على محاربة ابن أخيه وحماه آل لارا ؛ ذلك أنه كان يرى أسفاً كيف تنمو هيبة الملك الطفل في نفوس القشتاليين يوماً عن يوم ؛ وكان كثير من القشتاليين الذين يخشون من تسلط الأجانب على حقوق البلاد ، يزداد

== بهم عدة هزائم ، وتحالف مع النصارى ، واستعان بهم في محاربة الموحدين ؛ وكانت وقته في سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) (راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ ، وابن الأبار في الحلة السيئة ص ٢٢٠ ، والاستقصاء ص ١٥٧)

سخطهم تبعاً على آل كاسترو الذين يسندهم الليونيون ؛ ولم تأت محالفة فرديناند للبرتغال بالتأجيل المنشودة ؛ فقد اضطر أن يخوض الحرب في ولاية استرامادوره ، حيث ثارت مدينتا شلمنقة ، وآبله^(١) ضد سلطانه ، إما بتحريض البرتغال أو أسرة لارا ، ونادتا بشخص اسمه نونيو سيرانيز ملكا عليهما ؛ ولم يستطع إخماد الثورة إلا بعد كبير جهد ، بل لقد كان انتصاره على الثوار محض مصادفة سعيدة ؛ وأسر الزعيم الثائر ، وقتل .

وفي تلك الأثناء كان آل كاسترو قد أساءوا استعمال سلطانهم ، وأسرفوا في التمسف ، وشددوا في اضطهاد كل من كان في قشتالة وطليلة ، يميل في نظرم إلى خصومهم ، حتى ضاق القشتاليون ذرعاً بحكمهم وعسفهم ؛ وعملت أسرة لارا على استئثار هذه الحالة بذكاء ، وعقدت مع سكان طليطلة أوامر التفاهم ، وحقت عندئذ ما لم تستطع تحقيقه من قبل ، فاستولت عنوة على عاصمة قشتالة ، ولم تلبث أن نادت بالملك الطفل ألفونسو ، الذي لم يجاوز عندئذ الحادية عشرة من عمره ، والذي اتخذته عضداً لدعواها ، ملكاً على قشتالة ، وذلك في سنة ١١٦٦ م ، ودعت جميع القشتاليين إلى الالتفاف حول الملك الشرعي ، ومقاومة الليونيين ، وآل كاسترو الظالمين .

وأبدت قشتالة كلها من ذلك الحين ولاءها للملك ألفونسو ، الذي يلقب بالنيل ، ويلقبه البعض بالصغير ؛ واستأثر آل لارا بجميع السلطة ، وحتى رجال الدين ، بعد أن لبثوا إلى ذلك الحين يعضدون ملك ليون ، أعلنوا ولاءهم عندئذ لألفونسو ؛ وعمل المطران سربرون أسقف سيجونزا الذي عينه كبيراً للكنيسة الأسبانية بعد وفاة المطران يوحنا مطران طليطلة ، كل ما في وسعه لتدعيم عرش الملك الطفل . وعقدت قشتالة مع ملك نافارا هدنة مدتها عشرة أعوام ؛ ثم عقدت بعد ذلك ببضعة أعوام (في سنة ١١٧٠ م) مع أراجون معاهدة حماية وتحالف ؛

(١) شلمنقة هي (Salamanca) ، وآبله (Avila) ، (راجع جدول الأعلام الجغرافية في نهاية الجزء الأول) .

وهنا ألقى فرديناند ملك ليون أن الأمور قد ساءت ، ولم يبق في وسعه أن يعاون أصدقاءه آل كاسترو ، فتركهم لمصيرهم ، حتى لا يخاطر بالدخول في حرب مع قشتالة ؛ ولم يجد آل كاسترو ، الذين أخرجوا من قشتالة أمام سحق الشعب وتفوق آل لارا عليهم في القوى ، ملجأً يلوذون به سوى أراضي المسلمين ، وهناك أخذوا يدبرون وسائل الانتقام من أعدائهم .

ولم تهدأ الحرب الأهلية في قشتالة ، سوى بضعة أعوام . ذلك أن الفارين من آل كاسترو وعلى رأسهم فرديناند رويز ، عكفوا على تحرير الموحدين على غزو قشتالة . ثم نجحوا أخيراً في إقناع فرديناند ملك ليون أن يؤيدهم إلى مملكته وعول فرديناند أن يشغل ابن أخيه ألفونسو ، الذي أسلم قياده إلى آل لارا ، وكان يضطرم نحوه بغضاً ، فعضد الزعماء الفارين ، وأمدهم بجيش غزوا به قشتالة وخربوا أراضي أسرة لارا . وهكذا أسفر الخلاف الحزبي عن ضحايا جديدة ؛ ونشبت في « لوبركالي » على مقربة من استبان دي جورماز معركة دموية (سنة ١١٧٤ م) ، وكان يحارب إلى جانب آل لارا الكونت أزوربوس صهر فرديناند رويز دي كاسترو ، فسقط في الميدان قتيلاً وسقط معه عدة كبيرة من القوامس والفرسان القشتاليين ، وأسر من الفريق الآخر الكونت نونيو والكونت رودريجو ولدا جوتيرو ، ولم يطلق سراحهما إلا بعد أن أقسما بالعودة إلى التسليم ، ووعد رودريجو أن يعود إلى الأسر بعد أن يشهد دفن أخيه القارو الذي سقط في الموقعة ، ولكن جثة الميت بقيت في تابوتها ولم يتم الدفن ، ولم يعد رودريجو . أما الكونت نونيو فقد عاد إلى خصومه في اليوم المحدد ، ولكنه لم يعد وحده ، وإنما عاد في ستمائة فارس ، ولم يجرؤ بذلك إنسان أن يقوده إلى الأسر ؛ وهكذا أصلح آل كاسترو بالنكث والعدو ما أفسدته الهزيمة .

وقد وصل آل كاسترو يومئذ إلى ذروة الخطوة لدى فرديناند ملك ليون . يدل على ذلك أنه قدم أخته غير الشرعية الدونا ستفانيا زوجاً لفرديناند رويز ، بعد أن طلق زوجته الأولى ابنة الكونت أزوربوس ؛ وكان الكونت الشهير

بيدرو فرنانديز من عقب هذا الزواج . بيد أنه مما يدعو إلى التأمل أيضاً ، أن الملك فرديناند طلق زوجه الأميرة البرتغالية أوراكا بسبب القرابة المباشرة ، وتزوج من الدونا تيريزا ابنة الكونت نونيو دي لارا . وفي ذلك ما يدل على أن أسرة لارا كانت تعتبر في عداد الأمراء ، وقد كان هذا الزواج أكبر عامل في تهدئة النزاع بين أسرتي لارا وكاسترو . أما كيف انتهى النزاع بينهما فلم تشر إليه الرواية ، وتوفي فرديناند رويز عميد آل كاسترو في سنة ١١٨٥ م .

الفصل الرابع

تاريخ مملكة البرتغال وليون

منذ وفاة القيصر ألفونسو إلى وفاة ألفونسو هنريكيث وفرديناند الثاني

تلقى فرديناند ملك ليون ، وجليقية ، واشتوريش عن أبيه القيصر ألفونسو ، إلى جانب هذه الأقاليم الثلاثة ، دعوى السيادة على البرتغال . على أن مملكة البرتغال كانت تعمل لتوطيد استقلالها يوما عن يوم بما تحرز من نصر على المسلمين ، وما يتخذها ملكها من التدابير الحازمة ؛ وكان الشعب البرتغالي بأسره يعارض كل المعارضة في الاعتراف بأي نوع من التبعية لاسبانيا . وكان ملك ليون من جهة أخرى ؛ قد شغلت قواه في البداية بموقف قشتالة الخطر ، ثم بعد وفاة سانشو الثالث بما تلا من ظروفها وحوادثها المزجة ، فلم يستطع أن يزاوِل حق السيادة على البرتغال . ولكنه ما كاد يسطر سلطانه على قشتالة واستمرادوره بمعاونة آل كاسترو ، حتى بدأ يشهر عدوانه على جارته البرتغال ، مع أنه لاح قبل ذلك بقليل أن ليون والبرتغال كانتا على وشك عقد محالفة وثيقة بينهما ضد قشتالة وضد المسلمين ؛ وكان فرديناند قد تزوج بالفعل ابنة ملك البرتغال الأميرة أوراكا (سنة ١١٦٥ م) ، ولكن أواصر المعاهدة والقربى لم تستطع أن تحم من أطاع الأمير وشهوته في الفتح ؛ ذلك أنه — نزولا على نصيح زعيم برتغالي أنفي ملاذاً في بلاط ليون — عمد إلى تحصين مدينة ردريجو (Ciudad Rodrigo) الواقعة على حدود البرتغال (سنة ١١٦٥) واتخذها قاعدة للقيام بمدة غارات مخربة على الأراضي البرتغالية المجاورة ، وأقام في الوقت نفسه عدة قلاع وحصون على حدود البرتغال

وأخذ يهدد الملكة الناشئة تهديداً قويا .
 وإذا كان الملك ألفونسو هنريكيز^(١) يقوم في ذلك الحين بغزوات هامة في
 أراضي المسلمين وقد انتزع بالفعل منهم عدة مواقع بينها قلعة يابرة (سنة ١١٦٦ م —
 ٥٦١ هـ) ، وكان فرديناند من جانبه مشغولا بمحاربة سكان شلمنقة وآبله ، الذين
 ثاروا بتحريض البرتغال وأسرة لارا ، فيما يظهر ؛ ومشغولا في الوقت نفسه بمحاربة
 المسلمين حيث انتزع منهم القنطرة والبوكرك والفاس^(٢) ، فإن الحرب بين ليون
 والبرتغال هدأت مدى حين ، وذلك بالرغم من توفر جميع العوامل لإضرارها .
 وما كاد ملك البرتغال ، يقف على تطور الحوادث في قشتالة ، وما وقع فيها من
 نفى آل كاسترو ، وتحطيم سلطان فرديناند على يد آل لارا ، حتى بادر إلى حدود
 مملكته الجنوبية فخصنها ضد المسلمين ، وعهد بحمايتها إلى فرسان يابره ، وأرسل
 جيشاً بقيادة ولده وولى عهده سانشو لمحاصرة مدينة رديجو ؛ ثم سار بنفسه
 في سنة ١١٦٧ م في جيش قوى إلى ولاية جليقية ، واستولى على مدينة ليميا
 والأنحاء المجاورة لها بحجة أن هذه الأراضي تتبع مملكة البرتغال ، باعتبار أنها
 أعطيت لأمه الملكة تيريزا ، من أبيها ألفونسو السادس مهرراً لزواجها ، بيد
 أن الجيش الذي سار بقيادة ولده إلى مدينة رديجو هزم أثناء ذلك على يد
 الجند الليونيين .

وفي العام التالي (سنة ١١٦٨ م — ٥٦٤ هـ) سار ألفونسو هنريكيز إلى
 اقتناح مدينة بطليوس من يد المسلمين ، وبدأ بالفعل محاصرة هذه القلعة الهامة ،

(١) سبق أن أوضحنا أن الرواية العربية تسمى الملك ألفونسو هنريكيز « ابن الريق »
 صاحب قمارية (تراجع الحاشية في ص ٢٥٨ من الجزء الأول) ، ولكنها تسميه أحيانا « بابن
 الرنك » (وربما كان صوابه ابن الريك) (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، وكتاب أخبار
 المهدي ابن تومرت ص ١٢٧) .

(٢) تشير الرواية العربية إلى هذه الغزوة ولغارة الفرج على ما وراء حدود البرتغال ،
 على مقربة من بطليوس ، ولكن بصورة غير واضحة ، ومع أنه يمكن القول بمطابقة الزمن
 والحوادث ، فإنه يتعذر التحقق من مطابقة الأماكن (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ،
 والاستقصاء ج ١ ص ١٦١) .

ولكن وصلته الأنباء عندئذ بأن ملك ليون قد سار إلى قتاله في جيش ضخم ، وكان فرديناند قد حذر على البرتغاليين قبل ذلك أن يقوموا بفتح مكان معين من يد المسلمين مدعياً أن هذا المكان يدخل في منطقة أراضيه ، ولا يسوغ افتتاحه إلا للملك ليون فحد ألفونسو هنريكيث في التمعجل بافتتاح بطليوس قبل مقدم فرديناند معتقداً أن الكلمة ستكون لأقوى الفريقين ، واستطاع بالفعل أن ينزع معظم أنحاء المدينة ، ولم يبق في يد المسلمين سوى قلعتها ؛ وهنا قدم ملك ليون في جيشه ، وأتيح عندئذ للمسلمين المنهزمين أن يشهدوا منظرًا غريباً ، هو منظر القتال بين جيشين نصرانيين وملكيين نصرانيين ، من أجل الاستيلاء على المدينة ؛ ولما رأى ألفونسو هنريكيث ، بعد هزيمة قسم من جيشه على يد الليونيين أنه غدا أضعف من أن يستطيع الاحتفاظ بمدينة لم يستول على قلعتها بعد ، وأنه أصبح مهدداً بالحصار من عدو يفوقه في الكثرة ، رد المدينة إلى المسلمين الذين غدوا عندئذ أصدقائه ، واعتزم المبدرة بالفرار مع بقية جيشه ، ولكن حدث عند ما هم المسلمون بإغلاق الأبواب بسرعة ، أن هلقت ساق الملك الفار برتاج الباب وسقط من فرسه ، فكسرت ساقه ، ووقع أسيراً في يد الليونيين .

وأبدى فرديناند شهامة وكرماً إزاء محنة عدوه ، فأمر أطباءه بأن يعالجوه بمنتهى العناية وعامله بكل ما يعامل به الملوك من صنوف التكريم والرعاية ، وكان يجلسه إلى جانبه ، ومع أن ملك البرتغال كان على أهبة لأن يعترف بالخضوع وأداء الجزية افتداءً لحريته ، فإن فرديناند اكتفى بأن يتعهد ألفونسو هنريكيث برد الأماكُن والأراضي التي انتزعها من جليقية والتنازل عن كل دعوى بشأنها ؛ ولما تم نفاذ هذا العهد عاد ألفونسو هنريكيث إلى مملكته دون عائق ودون تضييعات أخرى ، بيد أنه استبقى ساقه المرجاء أثراً مؤلماً لسقطته وأسره ، يحول دون ركوبه الجواد ، والسير إلى ميدان الحرب ؛ أما فرديناند فقد حاصر بطليوس ، وآثر المسلمون - حين أيقنوا أنهم لا يستطيعون الدفاع عنها طويلاً - أن يهادنوا ذلك الملك الظافر المعتدل ، وأن يقطعوا له عهد الخضوع ؛ فلما قدموا إليه طاعتهم

وخضوعهم ، أقر حاكم المدينة المسلم « ابن حابل » (كذا) على حكمها ، وارند عائداً إلى مملكته ، بيد أنه سرعان ما ندم على تساهله مع مسلحي بطليوس ، ذلك أنه لم يمض طویل حتى ثارت المدينة ، وعادت إلى الانضواء تحت سيادة الموحدین ، وغدت بقلمتها المنیعة قاعدة لما يقوم به الموحدون من غارات مخربة في أراضي استرامادورة ^(١) .

وقد وقعت أمور كثيرة تدل على مبلغ ما كان يسود الملکین النصرانیین في شبه الجزيرة ويفرق بينهما من عوامل الحسد وسوء الظن ؛ فإذا أتيح لأحدهما مثلاً أن يحرز على المسلمین الظفر في إحدى المواقع ، فإن الآخر يخشى أن يغدو ذلك النصر خطراً على مملكته ؛ وكانت كل غزوة يقوم بها النصاری في الأراضي الإسلامية المجاورة تثير الانزعاج بين ملکی البرتغال وليون ، كأنما هذا الغزو كان يقع في أراضيها ؛ والواقع أنه لم يكن ثمة بين الملکین أى سلام حقیق ؛ وكان الخوارج المبعدون من أتباعهما ، ياتمون كل فريق لدى بلاط الآخر حسن الوفادة ، ويعملون بكل ما وسعوا لإذكاء الخصومة وسوء الظن بين الملکین ؛ ولما استطاع الموحدون أن يقفوا تقدم البرتغالیين في أراضيهم ، وأخذوا يحاولون استرداد المدن المفقودة ، وحاصروا مدينة شنترين بجيش ضخم (١١٧١ م — ٥٦٧ هـ) ^(٢) ، لاح

(١) يبدو من مراجعة الرواية العربية أنها تتفق مع الرواية النصرانية في كون النصاری قد حاصروا بطليوس في تلك الفترة مرتين -- الأولى سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٨ م) ، وهذا الحصار هو الذي قام به الفونسو هنريكز حسباً تقدم ، والثانية في سنة ٥٦٥ هـ (١١٦٩ م) وهو الحصار الذي قام به فرديناند ملك ليون . وفي الرواية العربية ما يدل على أن الموحدین اشتركوا في الحصار الأول مع أهل بطليوس في الدفاع عنها . وفي الحصار الثاني ، بعث الشيخ أبو حفص الهنتاني كبير قادة الموحدین بالأندلس ، أخاه أبا سعيد إلى بطليوس لإنجاده ، وأكثر أبو سعيد أن يعقد الصلح مع النصاری . أما ابن حابل ، أو ابن هابل الذي تشير الرواية النصرانية إلى أنه حاكم بطليوس وقت الحصار فهو تحريف ظاهر لاسم مربي لم تتضح لنا حقيقته . ولعل الاسم الحقيقي هو « ابن الحاج » (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠) .

(٢) تشير الرواية العربية هنا إلى خروج النصاری إلى أرض المسلمین بقيادة « القوس الأحذب » ، ويولوج لنا أنها تقصد هنا الفونسو هنريكز ملك البرتغال ، لأن كلمة قوس هي تحريف كلمة Comes اللاتينية ومعناها الكونت ، وقد كانت تطلق يومئذ على أمراء اسبانيا =

ملك ليون أن الفرصة قد تسنح ، إذا ما هزم الجيش البرتغالي للقيام بفتوحات جديدة ، فحشد في الحال جيشاً قوياً ، وبادر بالسير إلى مقربة من ميدان الحرب وأخذ يربط الظروف والحوادث ؛ ولكن حدث قبل مقدمه ، أن نجح ملك البرتغال في إرغام المسلمين على رفع الحصار عن شنترين ، وهزمهم هزيمة فادحة ، وأجأهم إلى الفرار . ولما علم الفونسو هنريكيز بمقدم اللونيين على هذا النحو المفاجئ ساوره القلق ، لأنه قياساً على ما سبق ، لم يكن يؤمل خيراً من مقدم جيرانه حينما يحمرز النصر على المسلمين . على أنه آانس من نفسه استمداداً ومقدرة للملاقة هؤلاء الأعداء الجدد . ولكن فرديناند لم ير من الحكمة أن يخوض المعركة مع البرتغاليين وهم في نشوة ظفرهم على المسلمين ، بل آثر أن يتظاهر بأنه لم يقدم بغية القتال ، وأرسل إلى ملك البرتغال رسولا يهنته بالنصر ، ويعرب له عن أسفه لوصله متأخراً ، وعدم تمكنه بذلك من معاونته ؛ فشكره ملك البرتغال على جميل عواطفه ، وانهز فرصة هذا الظهر الودى ليعمل على إلقاء الرعب في قلوب المسلمين ، وليشتد في مطاردتهم .

وعاد فرديناند إلى ليون . وقلبه يفيض أسفاً لفشل خطته التي دبرها بأحكام . وكان قد طلق زوجه الأميرة البرتغالية أوراكا بحجة القرابة ، بالرغم من أنه أنجب منها ولداً ، هو ولي العهد (الانفانت) الفونسو ، ولم يكن متأثراً في ذلك بالفرار البابوي فقط ، ولكنه كان متأثراً بالأخص بخصومته للبلاط البرتغالي .

وحكم الفونسو هنريكيز مملكته من ذلك الحين آمناً لا يزعمه أحد من جيرانه النصراري ، منتصراً في محاربة المسلمين كما سندكر بعد . وأخيراً صدر القرار البابوي المتعلق باستقلال مملكة البرتغال عن قشتالة وليون ، بعد أن طال عليه الأمد ، وأصدره البابا اسكندر الثالث بمقتضى مرسوم بابوي في سنة ١١٧٩ م ، وفيه يمنح الفونسو هنريكيز لقب الملك ، وتوضع مملكة البرتغال الحرة من كل

= والأعذب وصف لالفونسو هنريكيز ، مطلق عليه منذ إصابته في ساقه بعمامة مستديرة حسباً
تقدم (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤)

عهود الجزية تحت حماية الكرسي الرسولى ، وفي مقابل ذلك تدفع البرتغال وفقاً لما تعهد به الفونسو الأول من قبل ، إلى الكرسي الرسولى قطعتين من الذهب كل عام جزية رمزية . وقد كان هذا القرار البابوى ضمناً حقيقياً لاستقلال البرتغال عن الدول النصرانية المجاورة ، وذلك نظراً لما كان يتمتع به الكرسي الرسولى يومئذ من الهيبة والنفوذ فى اسبانيا ، وهذا القرار نفسه يعتبر دليلاً على ضعف الملوك الاسبان فى هذا العهد ، وهو ضعف كان يستغله الكرسي الرسولى لتوطيد سلطانه ونفوذه . ولم تكن البابوية تجرأ على اتخاذ مثل هذا القرار من قبل ، وعلى الأقل فى عصر القيصر الفونسو ريموندز ، وذلك خوفاً من معارضة قشتالة الشديدة ، ولم يكن فى وسع القرارات البابوية أن تمحى دعاوى قشتالة على ولاياتها . ولكن قشتالة وليون كانتا عندئذ تمانيان من خلاف الأشراف وغطرستهم ، ولم يجروا يومئذ أحد أن يثير أى اعتراض على القرار البابوى .

وأن الفونسو هنريكيز ليستحق من جميع الوجوه أن يلقب بمؤسس المملكة البرتغالية ، فقد حقق سلطانه بالسيف ، وكانت تحاول انتزاعه منه أمه سيئة الأخلاق وزوج أمه الحاقدة ، وافتتح معظم أراضى مملكته بالسيف من يد المسلمين ، وانتزع بالسيف أيضاً من قيصر قشتالة استقلاله ولقبه الملوكى ، وقد اتبع إلى جانب شجاعته وصفاته الحربية الممتازة ، سياسة ملؤها الذكاء والفطنة ، ووطد بذلك العمل الذى بدأه بالعنف توطيداً أبدياً ، واستمال إلى جانبه رجال الدين وعلى رأسهم البابا — وهم يومئذ فى ذروة القوة والسلطان — بما بذله من المطايا السخية ، وما منحه من الامتيازات الخاصة ، وعرف كيف يذكى الحماسة الدينية فى نفوس الشعب البرتغالى ، وأن ينغم تأييده باصدار دستور يحقق الحرية والمعادلة لكل الطبقات ، ويحيط وراثته العرش بضمانات تحول دون نشوب الحرب الأهلية ، ويوطد دعائم القومية البرتغالية . وشغل أشراف المملكة بأن دفعهم لمحاربة المسلمين على الحدود ، واستطاع بتأسيس جماعة فرسان بابة الذين خصصوا حياتهم لمكافحة المسلمين ، أن يحول شغف الأشراف بالحرب — وهو شغف كان فى دول شبه

الجزيرة الأخرى يتفجر في حروب داخلية مخربة - إلى وجهة قومية صالحة .
وحكم الفونسو هنريكز الذى لقب بالفاتح بحق ، على هذا المنوال البديع ، مملكة
البرتغال ، ردحا طويلا من الزمن ، مرهوب الجانب من النصارى والمسلمين على
السواء ، وتوفى بعد حكم طال نصف قرن ، فى السادس من ديسمبر سنة ١١٨٥ م
فى السادسة والسبعين من عمره .

وقد أشاد البرتغاليون دائماً ولا سيما رجال الدين بذكرى هذا الملك العظيم ،
وكان رهبان دير الكوبازة ، الذى يرجع فضل تأسيسه إليه ، يحتفلون حتى العصر
الحديث بعيده برسوم خاصة ، احتفالهم بعيد قديس ، ولكن البابوية لم تصدر مع ذلك
قرارها بتقديسه بالرغم مما بذله الملك يوحنا الثالث فى هذا السبيل .

ولم تمض بضعة أعوام على وفاة الفونسو هنريكز ، حتى توفى خصمه فرديناند
الثانى ملك ليون فى ٢٨ يناير سنة ١١٨٨ أثناء حجه إلى قبر القديس ياقب ، وذلك
بعد أن حكم إحدى وثلاثين سنة . وقد اشتهر فرديناند بخلال الفروسية والشجاعة
والجود والتقوى ، أكثر مما اشتهر بالفطنة وبعد النظر . وكانت هباته للكنائس
والأديار لا حدها ، حتى أنه وهبها جميع أملاكه تقريباً ؛ وكان يعامل جميع الناس
بمنتهى التواضع والرفقة ، ويحببه الشعب أكثر مما يرهبه كملك ؛ ولم يكن حكمه
سوى معترك من المنازعات والمعارضات ، التى لم يوفق حتى الكتاب المعاصرون
إلى استجلاء ظروفها ؛ ذلك أنه حينما يتصرف الأمير وفقاً لموافقة أو هوى
طارىء ، ولا تقوم السياسة عنده على مبادئ ثابتة ، فإنه يتهذر على المؤرخ أن
يظفر بالبواعث الحقيقية التى أملت هذه التصرفات . أما حروبه ضد البرتغال ، فقد
كان يرجو أن يظفر بالغنم فيها بالاستغلال والخديعة أكثر مما يرجو الظفر فى ميدان
الحرب ، وسرعان ما نراه يتقرب إلى خصمه بعرض الصداقة والتحالف ، ثم يعود
فيعمل على تمزيقهما متى زهد فيهما . كذلك لم تكن سياسته نحو قشتالة قائمة على
مبادئ معينة ، فقد بدأ حامياً لآل كاسترو ، ولبت يدين لهم حيناً بسيادته على قشتالة
ثم ترك سير الحوادث بعد ذلك ، حتى أخرج آل كاسترو من قشتالة ، وتركهم

للقدّر مدى حين ، حتى أن كبيرهم فرديناند رويز لم يلجأ إلى مملكة ليون ، بل لجأ إلى الموحدين ، ثم إن هذا الزعيم الفار لم يوجه أعداء دينه ضد قشتالة بادي ذي بدء بل وجههم ضد الملك فرديناند حاميه السابق ؛ وأغار في قوة من الموحدين على مدينة ردريجو التي لم يكمل بناؤها بعد ، وكاد يظفر بفتتحها ، لو لم يبادر فرديناند حينها علم بالخطر المحدث بها إلى إنجاءها وإنقاذها فيما يشبه المعجزة . وقد عاد فرديناند بالرغم من خصومة آل كاسترو لمملكة ليون ، إلى استدعائهم إلى بلاطه ، وعهد إليهم بقيادة الجيش مرة أخرى . فلما أحرز على أيديهم في قشتالة ظفراً يذكرك على أسرة لارا ، انقلب غير بعيد إلى مصادقة آل لارا . ثم تزوج إحدى بناتهم ، وهي الدونا تيرزا ابنة فرديناند دي لارا ، وأرملة الكونت نونيو دي لارا (سنة ١١٧٦م) ومزق بذلك أواصر حلفه مع آل كاسترو . وفقد فرديناند من ذلك الحين هيئته في قشتالة ، ثم انقلبت قشتالة بعد ذلك إلى محاربه غير مرة ؛ ولم تعقد الهدنة بين قشتاله وليون إلا في سنة ١١٨٠ م ، بوساطة أراجون ، التي وثق فرديناند أواصر تحالفه بها منذ سنة ١١٦٢ م ، ولكنه لم يلبث أن أهمل هذا التحالف ؛ ومن ذلك الحين ، تبدو مملكة ليون ، لإزاء الأعمال العظيمة التي قام بها الملك الفونسو النبيل في قشتالة ، في مؤخرة دول اسبانيا النصرانية . ويقص علينا التاريخ بعد ذلك من سيرة فرديناند ، أنه تزوج للمرة الثالثة ، بعد وفاة زوجه الملكة تيرزا ، بالدونا أوركا ابنة أمير بسكونيه الكونت لويوس . ثم توفي بعد أن أعقب منها ولدين هما سانشو وجارسيا . وخلفه في الحكم ولده الفونسو الثامن ، أو التاسع إذا احتسبنا الملك الفونسو الأول الأراجوني بين ملوك ليون ، وهو ولده وولى عهده الذي رزق به من زواجه الأول بالأميرة أوركا البرتغالية ؛ ومع أن هذا الزواج قد ألقى لشدة القرابة بين الزوجين ، فإن حق الفونسو في ولاية العرش لم يستند إلا إلى كونه ولد أبيه البكر ، ولم يحصل الولدان اللذان أعقبا من الزواج الثالث على شيء ، حتى ولا على حكم بعض الولايات ، مع أنه كان من المتبع — في مملكة ليون — أن تقسم المملكة إذا تعدد الأبناء .

الفصل الخامس

تاريخ اسبانيا النصرانية

في عهد ألفونسو الثاني ملك أراجون

حينما تولى الملك الفتي الفونسو الثالث — ولد سانشو الثالث — عرش قشتالة وهو في الحادية عشرة بماونة آل لارا ، عقب انتزاع طليطلة في سنة ١١٦٦ م ، لم يكن حكمه في البداية سوى إقرار لتصرفات أتباعه وحكومتهم . بيد أنه لم تمض سوى أعوام قلائل ، حتى استطاع الملك الفتي أن يقبض على زمام الحكم بنفسه بقوة وعزم ؛ وحدث ذلك حينما أعلن نواب الأمة في المجلس الذي عقد في برغش سنة ١١٦٩ ، بلوغ الملك سن الرشد ، وذلك وفقاً لما نص عليه في وصية أبيه من إعلان رشده حينما يبلغ الخامسة عشرة من عمره . واهتمز الفونسو ، أن يعمل لإصلاح شؤون مملكته المختلة ببعض الشيء وأن يقيها خطر الغزو الدائم من جانب آل كاسترو وملك ليون والمسلمين ، فمقد السلم مع جاره من الشمال الشرقى ، سانشو ملك نافارا ، ومع الفونسو ملك أراجون ؛ واتفق على أن يكون التهادن مع نافارا بشأن ولاية ريوجا لمدة عشرة أعوام وهو اتفاق لم يحترم ؛ وحارب ملك قشتالة في البداية ملك أراجون ، وهزمه على مقربة من قلعة رباح (سنة ١١٧٠) ، وحمله بذلك على عقد الصلح والتهادن وعاون في عقد هذا التحالف بين المسلمين ، هنرى الثانى ملك إنكلترا ، الذى تقرر أن تزوج ابنته اليونور من ملك قشتالة ، وكان دائماً حليفاً مخلصاً لملك أراجون في حروبه في جنوبى فرنسا ؛ وتم زواج ملك قشتالة

بالأميرة الإنكليزية في نفس العام؛ واستقبل سربون مطران طليطلة، والسكران
نونيودي لارا أعظم أنباع الملك، العروس في ولاية جويان، وصحبها إلى قشتالة
عن طريق أراجون، ولم يخترقا أراضي ناافارا نظراً لعدم الثبوت من ولائها وصدقها؛
وكان ملك قشتالة ينتظر عروسه في ثغر طركونه ومعه حليفه ملك أراجون، وتم
زفاف العروسين في حفلات باذخة نظمها ملك أراجون.

وسرعان ما أثار تقدم الموحدين في جنوبي اسبانيا جل عناية ملك قشتالة
ونشاطه. وكانت قشتالة أشد الدول تعرضاً لخطر الموحدين، وإن لم تكن الدول
النصرانية الأخرى — خلافاً — بمنجاة من هذا الخطر؛ ومع ذلك فإنه تعذر على
الملوك النصارى أن يضعوا فيما بينهم خطة موحدة لمحاربة المسلمين، وكان كل منهم
بالعكس يرمق نجاح الآخر بيمين الريب والحسد؛ ولم يغيروا من مسلكهم، حينما
طلب إليهم الأمير ابن سعد بن مردنيش (وتسميه الرواية الأسبانية «ابن لوبي»
Abenlope) ، الذي استقل بحكم بلنسية ومرسية عن الموحدين، وغدا منذ
سنة ١١٦٧ م تابماً لملك قشتالة — عونهم المشترك. ولما لم يظفر هذا الأمير منهم
بالمعونة المنظمة القوية، اضطر أن يخضع أمام تفوق أعدائه (سنة ١١٧٢ م)^(١)
وبذا انهار هذا الحاجز الأخير الذي كان يوسع النصارى أن يصمدوا فيه أمام
الموحدين من هذه الناحية، وأصبح العدو القوي، بعد استيلائه على ولايتي بلنسية
ومرسية، يشخن هنا وهناك في أراضي الدول النصرانية ويزعجها بغزواته المخربة،
ويرغمها على القيام باستعدادات حربية عظيمة؛ وبينما كان ملك ليون يحاول، في
جنوب غربي الجزيرة، أن يحول دون فتوح ملك البرتغال في أراضي المسلمين،

(١) كان محمد بن أحمد بن سعد بن مردنيش أعظم الزعماء الثائرين الذين ظهروا بالأندلس
عقب انهيار سيادة المرابطين؛ وقد استولى أولاً على مرسية منذ سنة ٥٤٢ هـ، ثم اتسع ملكه
تباعاً حتى شمل شرقي الأندلس كله؛ واستعان بالنصارى في محاربة الموحدين مراراً؛ (راجع
الجزء الأول ص ٢٣٣ و ٢٤٠)؛ واستمر في نضاله ضد الموحدين، حتى غلبته بعوهم وجيوشهم
الثوالية، وحاصرت في مرسية سنة ٥٦٧ هـ، ثم توفي أثناء الحصار في العام التالي (سنة ٥٦٨ هـ —
١١٧٣ م)، (راجع في سيرته وتفاصيل ثورته وحروبه ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٦ وج ٦
ص ٢٤٠ و ٢٤١ وابن الأبار في الحلة السراء ص ٢٣٠ — ٢٣٢).

وتفت الغيرة وسوء الظن في قواتهما ، كانت الدول النصرانية الثلاث في شمال شرق الجزيرة ، أعنى قشتالة وأراجون وناقارا ، تتنازع فيما بينها على حقوق الفتح في أراضي المسلمين ، وتفاقم النزاع ، حتى كادت تغدو هي فريسة للمسلمين . وسرعان ما عقدت أوامر التحالف بين هذه الدول ، كما انفصلت من قبل ؛ وكانت المصالح المشتركة تحمل أراجون وقشتالة ، بالرغم مما كان ينشب بينهما من الخلاف في أحيان كثيرة ، على توثيق حلفهما ، ولو لم تكن مملكة أراجون مفككة مترامية الأطراف على هذا النحو ، لما بلغ ملك في شبه الجزيرة مبلغ ملك أراجون من القوة والسلطان ؛ كذلك لم تكن أراجون أقل معاناة من قشتالة من جراء غطرسة الأمراء التابعين الذين يسيطرون على الجيش . أجل لم يكن الفونسو الثاني ملك أراجون عابلا من صفات الملك العظيم ، فقد كان يتمتع بقسط وافر من الكفاية والشجاعة وحب العدل ، وقد دلل منذ حداثته على أهليته لتولي العرش ؛ وولى الحكم في سنة ١١٦٢ م ، وهو في الحادية عشرة من عمره ، تحت وصاية أمه برونيل ، واتخذت في ذلك الحين ، في مجلس سرقسطة النيابي ، قرارات هامة للمحافظة على سلام البلاد ، والحد بقدر المستطاع من عسف الأشراف وعنتهم ، ورؤى لتوطيد دعائم السلم مع الدول المجاورة ، أن يعاقب الذين يعملون لتعمير السلم معاقبة المعتدين على العرش .

ولما بلغ الفونسو الثاني الخامسة عشرة من عمره ، وانتظم في سلك الفروسية وأعلن رشده ، لم يلبث أن اجتذب إلى ميدان الحرب ، واستغفرت المحافظة على أملاك أراجون الواقعة في جنوبي فرنسا ، كل جهوده وقواه ؛ ذلك أن الأمراء التابعين ، وجيرانهم من الزعماء الطامعين ، كانوا يثيرون ضرام الحرب في هذه الأنحاء بلا انقطاع ؛ وفي سنة ١١٦٦ م ، قتل الكونت برنجار أمير بروفانس وعم الفونسو الثاني في حصار « نيزا » ، فبادر الكونت ريموند دى تولوز ، الذي كان ابنه متزوجا بابنة برنجار الوحيدة ، باحتلال الولاية ، وتزوج من الكونتيسة ريشيلدا أرملة الأمير القتيل ، لكي يوطد حقوقه في امتلاكها . ولكن ملك أراجون ،

الذى أعلن أبوه أميراً لبروفانس فى نفس الوقت مع الكونت برنجار ، على يد القيصر فردريك براروسا (ذو اللحية الحمراء) ، كان يدعى على الولاية حقوقاً أمن وأوثق ، ولذا بادر إلى تأييد حقوقه بالسيف ؛ وحارب أشراف الولاية والجنويون فى هذه المعركة إلى جانب ملك أراجون ، حتى ظفر بالنصر على خصمه الكونت دى تولوز ، خصوصاً وقد كان الكونت يشغل فى الوقت نفسه بمحاربة هنرى الثانى ملك إنكلترا ؛ ولما كان حكم بروفانس أمراً صعباً نظراً لبعدها عن أراجون وكانت أحوالها المضطربة تستدعى أن يقوم على إدارتها حاكم مقيم ، فقد رأى ملك أراجون أن يعقد مع أخيه الأصغر بيدرو اتفاقاً بتبادل الأراضى ، وأعطاه ولاية بروفانس ليحكمها بعهد الجزية من قبل العرش الأراجونى ، نظير استيلائه على ولاية شرطانية ، وقرقشونة وجزء من أربونه (سنة ١١٦٨ م) . وتوطد سلطان الأمير الجديد فى الولاية ، باتفاق عقد فيما بعد ، فى سنة ١١٧٦ م ، مع الكونت دى تولوز ، والتزمت مدينة نيزا مع ذلك أن تدفع تمويضاً مالياً كبيراً إلى ملك أراجون نظير مقتل الكونت برنجار .

أما فى اسبانيا ، فكان ملك أراجون يسير من حرب إلى حرب ، ولم تكن العلائق بين أراجون وقشتالة طيبة فى البداية . ومع ذلك فقد رأى الفونسو الثانى أن صالحه يقضى بعقد السلم مع قشتالة والتحالف معها ، وذلك لكي يستطيع محاربة المسلمين والنافاريين بنجاح وظفر ؛ ثم قام بعدة غزوات مغزية فى أراضى بلنسية ، وأرغم عدة من صفار الأمراء المسلمين على دفع الجزية ، وحصن مدينة ترويل ، ليتخذ منها فيما بعد قاعدة للغزو فى تلك الأنحاء .

وأثارت هذه الانتصارات غيرة سانشو السادس ملك نافارا ، فساكاد ملك أراجون يسير إلى محاربة المسلمين ، حتى انقض سانشو بقواته على أراجون ، واضطر الفونسو الثانى أن يرتد إلى محاربته وأن يترك غزواته فى الجنوب ؛ ورأى الفونسو أن يستعين بقشتالة على محاربة خصمه فوثق أوامر حلفه معها ، وتزوج من أخت الفونسو النبيل ملكها ، الأميرة سانشا فى سنة ١١٧٤ م ، وذلك بالرغم

من أن عروسه الأولى الأميرة يودشيا ابنة قيصر قسطنطينية ، كانت في طريقها يومئذ إلى اسبانيا . وهكذا خاضت قشتالة وأراجون الحرب معاً ضد نافارا مدى أعوام ، ومع ذلك فإنهما لم يحققا من ورائها سوى نتائج يسيرة ، إذ كان من الصعب القيام بفتوح ثابتة في أرض تفص بالجبال والقلع المنيعة ، ولذا رحبنا بما عرضه هنري الثاني ملك إنكلترا من التوسط بمقد الصلح بين الفريقين . ومع أنهما لم تغتبطا بنتائج هذا المسمى ، فإنه أسفر مع ذلك عن وقف الحرب بين الدول الثلاث .

وتبدو أهمية هذا التحالف بين قشتالة وأراجون بالنسبة لملك قشتالة متى استمرضنا حال مملكته في ذلك الحين . فقد كان ملك قشتالة في حاجة دائمة إلى المال ؛ وحينما طالب الملك الأشراف في مجلس برغش بمبالغ طائلة اعترض بيدرو دي لارا على هذه المطالب الفادحة بشدة ، بحجة أنها تناقض حقوق الأشراف وانسحب من الاجتماع مع معظم أشراف قشتالة . ولم تكن السكينة قد سادت بعد أرجاء المملكة ، فقد كان القتال مستمرا بين آل لارا وآل كاسترو ، وكان فرديناند ملك ليون يعمل على إذكاء الاضطراب بكل الوسائل الممكنة ، وكان سانشو ملك نافارا يتحفز دائماً للزحف على برغش لانتزاع ولاية ريوجا ، وكان المسلمون يهددون كل آن بأن يجتاحوا المملكة كلها بجيوش ساحقة ، وكانت استرامادوره ، وهي ولاية قشتالة ، كلها في قبضة ملك ليون ؛ وكان ملك البرتغال خارجا على سلطان قشتالة ؛ فلم يبق إلى جانب قشتالة إلا هذه الجبهة من أعدائها وخصومها سوى أراجون ؛ واضطرت قشتالة أن تشتري صداقة حليفها بثمان يدنو إلى التضحية ؛ فقد دفع الفونسو النبيل ثمن معاونة أراجون في حملته ضد الموحدين ، تنازله عن حق الجزية على سرقسطة وغيرها من الأراضي التي منحها إياها القيصر الفونسو ؛ وأسفرت هذه الحملة المشتركة عن افتتاح قونقه (أو كونسك) في سنة ١١٧٧ م — ٥٧٢ هـ وهزم الموحدون بعد أن تقدموا حتى ظاهر طليطلة هزيمة فادحة بيد أن ملك قشتالة لم يستطع أن يجتني ثمرات طعمه ، إذ دبت الغيرة إلى ملك ، حور ، وغدا

يخشى أن تصبح قشتالة من القوة بحيث تنتهي بافتتاح أراضي بلنسية ومرسية ،
وهي أراض كان ملك أراجون يرى أنها تدخل في منطقة الفتح الخاصة بمملكته .
ومن جهة أخرى فقد أخذ فرديناند ملك ليون يتحرك من جديد ، ولم يكتف بغزو
أراضي قشتالة وانتزاع بعض الأماكن منها ، بل أخذ يستعمل لاستئصال الحرب
معهما ؛ وترتب على ذلك أن تحالفت قشتالة وأراجون والبرتغال على محاربة ليون
ونافارا (سنة ١١٧٨ م) ، ولكن ملك أراجون اضطر أن يسير إلى جنوبي فرنسا
لكي يوطد وسائل المحافظة على أملاكه الفرنسية ومنها ولاية روسيون ، ومدينة
بزييه وما إليها من الأراضي التي آلت إليه بالمراث ، ولم يجد النصرى إزاء غارات
الموحدين المستمرة بدا من المضي في مراقبتهم والتأهب لردم ، وهكذا تطور الموقف
بين الدول النصرانية ، وعملت أراجون ، وربما أيضاً هنرى الثانى ملك إنكلترا ،
على إزالة الجفاء فيما بينها ، وأسفرت الوساطة عن عقد الصلح مرة أخرى بين قشتالة
وليون ، وذلك في مدينة تورديسيلاس في سنة ١١٨٠ م وسوى النزاع القديم بين
أمرتى لارا وكاسترو ، وكذلك أزيلت أسباب سوء التفاهم بين قشتالة وأراجون
وعقدت بينهما في كازولا (سنة ١١٧٩ م) معاهدة نص فيها على أن شاطبة وبلنسية
ومرسية وما إليها من الأراضي ، تقع في منطقة الفتح الخاصة بأراجون ، وأن
الأراضي الواقعة غرب ذلك ومنها غرناطة تقع في منطقة الفتح الخاصة بقشتالة .
وليس في تاريخ الممالك النصرانية الإسبانية في عشرة الأعوام التالية ما يستحق
التفصيل والإفاضة ؛ وقد رأينا ، لكي لا نزهق القارى بسرد حوادث وظروف
متباعدة ، أن تقتصر على وصف حالة إسبانيا بصفة عامة متخذين قشتالة دائماً محور
الحوادث والتطورات .

أفضت الممارك والمنازعات المستمرة بين ملوك إسبانيا إلى أن اجتاحت إسبانيا
النصرانية موجة هائلة من القسوة والتوحش ، ووصل حكم العنف وعدوان الأقوياء
في شبه الجزيرة إلى ذروة الاضطرام ؛ واندفع الأشراف والفرسان جميعاً إلى خوض
الحرب ، يكافح بعضهم بعضاً في معارك ومبارزات لانهاية لها ، ومزقت الأهواء

الحزبية كل الأسر وروابط القربى ، وساد القتل والمطاردة ، حيث ضعفت السلطة العامة . وهكذا لاح أن نظم الدولة والحكومة قد غدت على وشك الانهيار ، وحتى الكنائس ورجال الدين ، بعد أن كان الدين يسبغ عليهم لونا من القدس ، لم تبق لهم حرمة ، ووطئت بالأقدام كل الوصاية البشرية والسموية ، واضطرت جماعات الفرسان الدينية التي قامت لتكافح من أجل الدين ، أن تبذل في قمع أعمال العنف التي يقوم بها الناهبون من الفرسان النصارى ، مثل الجهد الذى تبذل في محاربة المسلمين ؛ ومع أن الأمير الشجاع الفونسو الثانى ملك أراجون ، استطاع أن يدافع عن مملكته ضد جميع أعدائها الخارجين ، وأن يضم إليها ولاية بروفانس عقب وفاة أخيه بيدرو الذى قتل فى سنة ١١٨١ ، وذلك بالرغم من معارضة الكونت دى تولوز ، فإنه لم يستطع مع ما اتخذ من الإجراءات الحازمة ضد آثام الأشراف وضد مزاوله حق القوة ، أن يحول دون وقوع أفطع الشناعات فى بلاده ؛ ففى عهده مثلاً وقعت حادثتا قتل فى طركونة قتل فى كل منهما مطران . وتفصيل ذلك أنه فى بداية حكمه حدث نزاع بين المطران هو جودى سرفيلوس ، وبين حاكم طركونة روبير بورديه ، وقام جيوم ولد الحاكم بتخريب جميع الأراضى الواقعة حول طركونة . ولما أراد الملك أن يعاقب المعتدين بشدة ، قتل المطران بتحريض روبير ، فأمر الملك بإخراج روبير وأسرتة من المملكة ؛ ففر إلى ميورقة ولجأ إلى حماية المسلمين ؛ فخشى الملك أن يغدو المجرم الفار على هذا النحو خطراً على قطلونية ، فسمح بعوده وأسرتة إلى المملكة بالرغم من جريمته ؛ وكان لهذا التهاون أثره السيئ ، فإنه لم يمض سوى قليل ، حتى ارتكبت فى طركونة ذاتها نفس الجريمة على يد جيوم ريمونديز دى مونكادا ، الذى اشتهر من قبل بمعارضته للملك ومنازعته له فى حقوق الملك ، فقد اغتال هذا الرجل الذى ينتمى إلى أكبر أسر قطلونية ، بنفسه ، حياة برنجار مطران طركونة ، وذلك فى سنة ١١٩٤ م ، ولم تمن الرواية بأن تقدم إلينا حتى سبب هذه الجريمة .

ولم يقتصر الأمر على أن كانت أسرتا لازا وكاسترو تنتهزان فى قشتالة فرص

المنازعات والحروب التي تضطرم بين ملوك اسبانيا النصرانية ، لتفوز كل منهما بسلطة الحكم ، بل كان مثل ذلك يحدث في الممالك النصرانية الأخرى ؛ ففي أراجون كان بطل هذه الحركة بيدرو رويدي أزاغرا ، وهو نافارى استقر في الأراضى الأرجونية ، وكان مثل البطل القديم ، السيد الكنبيطور ، فارساً شجاعاً وقائداً عظيماً ، يحارب طوراً إلى جانب المسلمين ، وطوراً إلى جانب النصارى ، ويبيع معاونته أحياناً إلى ملك أراجون ، وأحياناً إلى ملك قشتالة ، وآونة إلى ملك نافارا ، ويستغل منازعاتهم ، لتوطيد سلطانه ، واستقلاله عنهم جميعاً ؛ وقد استطاع بحالفه أمير بلنسية أن يستولى على مدينة شنتمريّة الشرق (شنتمريّة ابن رزين)^(١) ، وهى موضع أسبغت عليه الطبيعة والفن حصانة خارقة ، واستطاع بإعادة مركز الأسقفية القديم في سيجوريجا ، بتعصيد البابا إسكندر الثالث ويوحنا مطران طليطلة أن يغم عطف رجال الدين والأتقياء . ولما أدرك ملكا قشتالة وأراجون ما تنطوى عليه محاولته وخديعته ، وشهرا عليه الحرب ، ألغى بيدرو دى أزاغرا ، فى تحاسد الملكين خير حليف ، إذ كان كلاهما يؤثر أن يرى بيدرو ، وهو زعيم محلى ، على أن يرى زميله ، مالكا لهذه القلعة الهامة الواقعة فى شعب الجبال عند الحدود ؛ وهكذا استطاع بيدرو حتى وفاته أن يحتفظ بسيادته على شنتمريّة الشرق ، بل لقد توارثها عقبه مدى حين .

وكانه لم يكف اسبانيا النصرانية ما كانت تعاني من عوامل الاضطراب والتفرق ، فكان مما أذكى الفتنة إلى الذروة أن اختلف الملوك الأسبان مع الكرسي الرسولى ، وأدت منازعاتهم معه إلى أن تحرم البلاد حتى من عزاء الدين .

وقد كان الفونسو هنريكينز ملك البرتغال وفرديناند ملك ليون يجلان الكنيسة ورجال الدين أيما إجلال ، ولكن وليهما وخلفيهما ، الملك سانشو الأول الذى

(١) هى حسباً تقدم فى حواشى الجزء الأول مدينة Albarracin الحديثة وهو تحريف لاسم بنى رزين حكامها المسلمين أيام الطوائف . وتنوء الرواية الإسلامية بما كانت عليه كنيستها الشهيرة من الفخامة وما كانت تحتويه من نفائس التحف (راجع معهم ياقوت تحت كلمة شنت مرة)

تولى عرش البرتغال فى سنة ١١٨٥ م ، والملك الفونسو التاسع الذى تولى عرش ليون فى سنة ١١٨٨ م ، لم يشاطرا الوالدين هذه العاطفة ، وقد لاج فى بداية عهد الملكين ، أن الحصومة القديمة بين ليون والبرتغال من ناحية ، وبينها وبين قشتالة من ناحية أخرى ، قد خمدت جذوتها ، والنق ملك ليون الفتى فى مدينة كاريون فى سنة ١١٨٨ ، بالفونسو النبيل ملك قشتالة ، وتاقى منه عهد الفروسة ، ولكنه حينما قبل يد ملك قشتالة لإعرابا عن المحبة والعرفان ، عد ذلك منه رمز الخضوع والطاعة . ولم تقع النفرة بين الملكين بسرعة ، ولكنهما بالعكس قاما فى العام التالى بحملة مشتركة لمحاربة المسلمين فى أراضى إشبيلية ، بيد أنه ما كادت هذه الحملة تنتهى حتى دب النزاع بينهما من أجل الأراضى المفتوحة ؛ فلك قشتالة يدعيها لنفسه باعتباره صاحب السيادة ، ويدعيها ملك ليون باعتبارها جزءاً من ولايته استرامادوره . ولما رأى ملك ليون الفتى أنه محصور بين جارين قوين يهددانه بالحرب دائماً بالرغم مما يربطه بهما من أواصر القربى ، اضطر لى يستطيع مدافعة ملك قشتالة الذى غزا أرضه بالفعل ، أن يعقد مع الملك الآخر حلفاً وثيقاً ؛ ومع أنه كانت تجمعه بابنة سانشو ملك البرتغال ، الدونا تيريزا ، رابطة قرابة مباشرة — (لما كانت أمه خالة الأميرة) — تعتبرها الكنيسة مانعاً من الزواج ، فإنه اقترن بها (سنة ١١٨٩ م) ، إذ رأى فى هذا الزواج وسيلة لتوطيد عرش ليون .

وما كاد البابا كلنضوس الثالث يقف على هذا الزواج ، حتى أرسل إلى اسبانيا مندوباً نادى بإلغائه ؛ ولكن سانشو ملك البرتغال ، الذى لم يكن يبدى فى مملكته كبير حساب للكنيسة ورجال الدين ، لم يعبأ بأمر البابا ؛ وكذلك لم يعبأ به صهره ملك ليون ، إذ كانا يريان فى هذا الزواج عاملاً فى توثيق الاتحاد بين مملكتيهما ، ويريان أن ما يملكه البابا من حق التشريع بالنسبة لطوائف الشعب ، لا يسرى على الرؤوس المتوجة .

وفى تلك الأثناء اعتلى سلسطان الثالث كرسى البابوية ، وأصر على وجهة نظر سلفه ، وتحدث مندوبه فى المجتمع الكنسى الذى عقد فى شلمنقة فى سنة ١١٩٢م

لبحث الموضوع طالبا لإلغاء الزواج في الحال ، ولكن أساقفة ليون واسترقة وشلمنقة وسمورة عارضوه وصرحوا بأن الزواج صحيح لم تخرق بمقده أية نصوص سماوية أو كنسية ، وأن ما يعتبر من الموانع بالنسبة للقوانين الشعبية أو نظم الدولة لا يطبق على الملوك ؛ إذ أنه في وسعهم إلغاء ما شرعوا ، وفي وسع الملوك أن يقرروا عقد زواج شعبي أو يلغوه ، ولكن ذلك لا يمكن أن يطبق عليهم بواسطة سلطة أسمى إذ أن ذلك يتعارض مع سيادتهم المستقلة . ولكن المندوب البابوي أصر على رأيه وقرر « حرمان » الأساقفة المخالفين ، وهدد الملوك « بالحرمان » أيضاً إذا استمروا على معارضتهم للقرار البابوي . فلما أبى الملك الخاضوع صدر في العام التالي (١١٩٣ م) قرار بابوي يحرم كل المراسيم والطقوس الدينية في مملكتي البرتغال وليون . فعمدئذ بلغ الاضطراب والعنف في المملكتين الذروة ، ولا سيما بعد أن بث فيهما حكم القوة ومحاربة المسلمين روح النضال والجريئة ، ولم يكن يحول دون انحلالها النهائي سوى الدين وأعوانه ؛ ولما لم يذعن الملكان ، واشتد هياج الشعب لحرمانه من الطقوس الدينية ، وأبدى رجال الدين امتعاضهم من القرار البابوي ، عاد البابا وأذن نزولا على ضراعة أسقف سمورة الذي زاره في رومة برفع قرار الحرمان الديني من المملكتين ، على أن يبقى البطالان ساريا على كل حفل ديني يقام بمحضرة ملك ليون أو مملكتها ، وأخيراً بعد نضال دام بضعة أعوام نزل الزوجان الملكيان على إرادة البابا ، وقررا الانفصال بعد أن أعقبا من الزواج ثلاثة أولاد ؛ وهكذا انتصر الكرسي الرسولي ، وليس بعيداً أن يكون خطر الموحدين الدائم من بواش هذا الخاضوع لإرادة البابا . ذلك أن الشعب كان يرى في انتصار المسلمين على الفصاري عقاباً من الله من جراء زلات ملوكه ، وكان معظم رجال الدين يروجون هذه الفكرة ، ولم يكن من اليسور ضمان خضوع الشعب إلا بإذعان ملوكه للكرسي الرسولي .

ولم يكن الملك قشتالة يومئذ عقب من الذكور ، ولكن كانت له عدة بنات أكبرهن برنجاريا ؛ وكان لابد من اعتبارها وارثة العرش وفقاً لقانون الوراثة

القشتالي حتى يرزق الملك بولي للعهد ؛ وكان الفونسو يعتقد أنه يستطيع بمصاهرة آل هوهنشتاوفن قياصرة ألمانيا أن يسبغ على مملكته قوة جديدة ؛ وكان سيد ألمانيا يومئذ القيصر فريدرىك بارباروسا (ذو اللحية الحمراء) يميل إلى هذا المشروع ، مؤملاً أن يغمم بتحقيقه عرش قشتالة لولده الأصغر كونراد ؛ وعلى ذلك فقد عقد الزواج ، وجاء ولد القيصر إلى اسبانيا فى سنة ١١٨٨ وتلقى من ملك قشتالة عهد الفروسة فى كاريون ، وأقيم الحفل الدينى بقرانه بولية العهد فى طليطلة فى حفلات باذخة ، ولم يتم الزواج يومئذ نظراً لحدائثة ولية العهد . بيد أنه لما رزق ملك قشتالة بعد ذلك بولده وولى عهده فرديناند ، وقضى بذلك على آمال كونراد فى ولاية العرش ألقى الزواج ؛ وتزوجت برنجاربا فيما بعد بالفونسو التاسع ملك ليون .

وفى تلك الأثناء كانت الحرب تهدد بالاضطراب من آن لآخر بين الملوك الثلاثة الذين تلتقى أملاكهم عند منابع نهر دويرة ، ولكن الناركانت تطفأ فى كل مرة بسرعة قبل أن يمتد لحيها بصورة مخربة ؛ ولم تكن ثمة سياسة مقررة ، ولكن المحالفات كانت تعقد وتفصم وفقاً للأهواء والظروف ؛ فقد عمده الفونسو الثانى ملك أراجون مثلاً بالرغم مما اتصف به من الحزم وحسن التقدير لظروف عصره إلى مصادقة ألد أعدائه سانشو السادس ملك نافارا ، وعقد معه فى سنة ١١٩٠ م حلفاً ضد ملك قشتالة أخلص حلفائه ، ولم يفد من ذلك سوى صاحب شنتمرية الشرق (البراسين) ، ولا توضح الرواية لنا بواعث هذا الحلف المدعش الذى مالبث أن غدا بانضمام ملكى ليون والبرتغال إليه فى العام التالى خطراً حقيقياً على قشتالة . بيد أن هذا الحلف بالرغم من خطره الظاهر لم يحدث أثراً يذكر . ذلك أن الخلاف والتحاسد حالاً دون نجاحه ، ومالبث أن انتهى بالحل ، وأثار انقسامه بين الحلفاء منازعات جديدة . هذا إلى أن أراجون رأس التحالف لم يكن بوسعها يومئذ أن تشدد الضغط على قشتالة نظراً لأن تحريك الكونت دى تولوز ، وغزوات الموحدين على حدودها الجنوبية كانت تستغرق كل اهتمامها .

فهل نعجب بعد ذلك إذا كان الفونسو ملك قشتالة قد هزم حينما لقي وحده

قوى الموحدين الغالبة في ميدان الحرب في موقعة الأرك^(١) الدموية في سنة ١١٩٥ م (٥٩١ هـ) . وقد خاضها دون أن يعاونه أحد من باقي الملوك النصارى ؛ بل كان منهم من يعاون الموحدين جهراً مثل ملك نافارا ، ومن يعاونهم سراً مثل ملك ليون ، وكلاهما كان يتظاهراً بصداقته ويعده بالعون .

وأخيراً اضطر ملك قشتالة لكي يستطيع الاحتفاظ بملكه أن يرتعى في أحضان الموحدين ، وأن يتبع سياسة المصلحة الشخصية التي سار عليها باقي ملوك اسبانيا النصرانية . وهنا فقط أدرك البابا سلسطان الثالث ، والفونسو الثاني ملك أراجون فداحة الخطر الذي يهدد النصرانية في شبه الجزيرة ، وحاول ملك أراجون بكل ما وسع من غيره وعزم أن يعمل على اجتماع القوى النصرانية ، فسافر إلى شنت ياقب وتفاوض مع ملك ليون ، ثم سار إلى قُلمرية حيث التقى بسانشو ملك البرتغال ؛ واجتمع مع ملك قشتالة وملك نافارا في مدينة ترازونا الواقعة على حدود مملكتيهما ؛ ولكن جهوده ذهبت عبثاً ولم يوفق إلى تهدئة الخصومات المضطربة ، ولا سيما بين ملكي ليون وقشتالة بالرغم مما كان يجمعهما من أواصر القرى .

فعاد الفونسو الثاني إلى مملكته وهو يفيض أسفا لفشل مسعاه ، واستدعى مجلساً في برنبيان يمثل الطبقات في لانبجودوك وبروفانس ، وهناك أصابه المرض وتوفي في ٢٥ أبريل سنة ١١٩٦ في الرابعة والخمسين من عمره بعد أن حكم أربعة وثلاثين عاماً . وقد اشتهر الفونسو بفروسته وحزمه وحبه للعدالة ، واعتمد بالأخص على جهود الداوية (فرسان المعبد) ، وفرسان القديس يوحنا في حماية الحدود من غزوات المسلمين ، وعمل باتخاذ الإجراءات الصارمة على تأييد السكينة والنظام ، وقد كان يهددها يومئذ حكم القوة بلا انقطاع ؛ وكان يضع المسافرين الذين يجوبون البلاد تحت رعايته الملكية لحمايتهم من كل اعتداء ، وعمل على تعضيد الزراعة وتحسين مستوى العيش في المملكة باتخاذ الإجراءات الحكيمة وتوفير أسباب العيش للفلاحين وأبناء الطبقة الوسطى ، وأبدى نحو الكنائس والأديار

(١) هي المعروفة في الرواية النصرانية بمركة « الأركوس » Alarcos .

منتهى الجود ، وكان قوى النفس والخلق يسبغ على العرش بجلاله وهيبته روعة ووقاراً ؛ وقد نى عليه بعض خصومه نكثته وإخلاله بالعهد ، ولكن هذا الاتهام يرجع إلى الحفيظة أكثر مما يرجع إلى الواقع ، ولم يقصد به إلا النيل من سمعته وهو بذلك غير جدير بثقة المؤرخ .

وكان ألفونسو الثانى مثل أبيه ريموند برنجار الرابع نصيراً عظيماً للشعر وأرباب القريض الغنائى (طائفة التروبادور^(١)) ؛ وكانت أملاكه فى جنوبى فرنسا مهداً لازدهار الشعر البروفنسالى (نسبة إلى بروفانس) ؛ وكان يتنافس مع صديقه رتشارد « قلب الأسد » ملك إنكلترا فى خلال الفروسية وفى بذخ الحفلات الملوكية التى لم تكن تخلو من المغنين قط ، وكان يجمع حوله أشهر أقطاب الشعر الغنائى فى هذا العصر مثل بيير ريموند دى تولوز ، وهوجو برونيه ، وبيير فيدال وغيرهم .

وكان معظم أولئك الشعراء (التروبادورين) يتمتعون بعطف هذا الملك الرفيع الخلال وجوده ، ويكثر من الإشادة بذكوره فى قصائدهم وأناشيدهم ، ولم يهجه منهم سوى برتران دى بورن الذى سماه دانتى « بمنفى الحرب » ، والذى لم يسلم من هجائه أحد من الأكابر ؛ فقد غمر هذا الشاعر ملك أراجون فى قصائده بمطاعنه ورماء بكل نقیصة ، لأنه تشاجر معه ذات مرة فى بعض حروبه فى جنوبى فرنسا ، ولكن هذه المطاعن لم تنل من سمعة الملك الفارس المجيد .

ولم يكن ألفونسو صديقاً ونصيراً فقط للشعراء المنشدين ، ولكنه كان مثل

(١) التروبادور Troubadours ، أو باللغة البروفنسالية Trobador هم طائفة من شعراء العصور الوسطى ظهوروا فى ولاية بروفانس فى جنوبى فرنسا منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، واشتهروا بنظم الشعر الغنائى وشعر الفروسية ، ثم انتشروا فى باقى إمارات فرنسا الجنوبية مثل أكويتين ولانجدوك وكذلك ظهوروا فى قطلونية وأراجون وشمالى إيطاليا ، وملاوا هذه الأنحاء زهاء قرنين بقصائدهم وأناشيدهم ؛ وكان أشهرهم طائفة من الفرسان برعت فى الشعر والموسيقى ؛ وكانوا ينتقلون من بلاط إلى بلاط ومن قصر إلى قصر ؛ ويتبأون مقاماً ذا شأن فى المجتمع الرفيع فى ذلك العصر ؛ وشعرهم يمتاز بالركة والظرف وحب الملقى ، ومصادر إلهامه الحرب والدين والحب . ويرى بعض النقاد أن طائفة « التروبادور » قد تأثرت فى وحيها وفى طرائق نظمها بالشعر الغنائى الأندلسى وقريض الفروسية الأندلسية .

رتشارد « قلب الأسد » ملك إنكلترا شاعر أغناتيا (تروبادور) ، وقد ضاعت جميع قصائده الغنائية ولم يصلنا منها سوى قصيدة واحدة ، وهي تمتاز بالأخص بجمال أسلوبها وظرف معانيها .

وأورث ألفونسو ابنه الأكبر حب الشعر ، كما أورثه مملكته ؛ وكان قد اختاره في وصيته خلفا له على عرش أراجون وأملاكه في جنوبي فرنسا ماعدا ولاية بروثانس وأراضى كاثيدون وميلهو ، ودعوى الولاية على مونبلييه ؛ فقد أعطيت إلى ولده الثاني ألفونسو . أما ولده الثالث فرناندو فقد التحق بالرهبانة في إحدى الأديار .

وتوفي قبل ألفونسو بعامين (سنة ١١٩٤) خصيمه الألد وحليفه أحيانا في أواخر عهده الملك سانشو السادس الملقب بالقوى ، بعد أن حكم نافارا أربعة وأربعين عاما ؛ ومع أنه كان يهدد بالحرب أحيانا من قشتالة وأراجون متحدين ، وأحيانا من هذه المملكة أو تلك ، فقد استطاع أن يمتنع في مملكته الصغيرة المحاطة بجيران أقوياء ، وأن يرد كل الهجمات التي وجهت إليه ، وأن يفزو أراضى العدو بنجاح كلما لاح له فرصة حسنة ؛ وأنه لمن الشائق بلا ريب أن نعرف الوسائل والطرق التي كان الملك سانشو ياجأ إليها لحماية استقلاله ؛ بيد أننا لم نتلق عن نافارا في ذلك العصر تاريخا مفصلا ولو بعض التفصيل ، ولذا فإنه ليس لدينا ما نقوله عن حكمه سوى ما قدمنا من سيرته ؛ واتخذ ولده وخلفه سانشو السابع الملقب « بالحكيم » حكم أبيه قدوة له ؛ بيد أنه كان يعاني مثل ما عانى أبوه من الصماب والخطوب .

الفصل السادس

تاريخ الموحدين في الأندلس منذ افتتاح غرناطة

حتى وفاة يعقوب المنصور الظافر في معركة الأرك

١ — تنظيم حكم الموحدين في عهد عبد المؤمن

سبق أن فصلنا فيما تقدم كيف انهارت دولة المرابطين في المغرب والأندلس على يد عبد المؤمن زعيم الموحدين ، وكيف استطاع عبد المؤمن أن يوطد عرشه بالمغرب بسحق الخارجين عليه ، وأن يفتح الأندلس كلها من يد خصومه المسلمين والنصارى . ولما كان عبد المؤمن ، قد استطاع بظفروه على آل حماد في المغرب الأوسط^(١) ، وعلى الفرنج النورمانيين الذين كانوا قد افتتحوا شاطئ إفريقيا الشمالية ، واستولوا على تونس والمهدية ، أن يدفع حدود دولته من الشرق إلى ما وراء القيروان ، فقد غدا بذلك متاخما للفاطميين أصحاب مصر^(٢) ، وغدت دولة الموحدين بذلك أعظم مدى مما كانت عليه دولة المرابطين ؛ وكانت محمد عندئذ من الجنوب

(١) دولة آل حماد ، هي فرع من دولة آل زيري بن مناد الصنهاجي ، وتنسب إلى مؤسسها الأمير حماد الصنهاجي ، وقد قامت بالزاب والمغرب الأوسط في أواخر المائة الرابعة ، وخرج صاحبها عن دعوة العبيدين أصحاب مصر ، واستمر الملك في أسرته زهاء قرن ونصف . وفي سنة ٥٤٧ هـ ، أخذ الموحدون القلعة وهي مركز دولتهم بالجزائر ، من يد صاحبها يحيى ابن عبد العزيز الصنهاجي آخر ملوك بني حماد ، وانتهت بذلك دولتهم (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ١٧١ وما بعدها والمراكشي ص ١١٣ و١١٤ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٤٨) .

(٢) كان الفرنج النورمانيون أصحاب صقلية ، قد أغاروا على تونس ونفورها في أوائل القرن السادس الهجري ، واستولوا على عدة نفور منها مثل صفاقس وتونس وسوسة ، ثم =

بالصحراء الكبرى ، ومن الغرب بالمحيط الاطلانعى ، ومن المشرق بصحراء لوبيية التى تفصلها عن مصر ؛ وأما من الشمال فكان يحدها البحر الأبيض المتوسط ، وفيما وراء المضيق — فى شبه الجزيرة الاسبانية التى كانت يومئذ قبلة الفتح — كان الموحدون يملكون جميع الأراضى التى يطلق عليها اسم الأندلس ، وقواعدها الآلهة النبعة ، إشبيلية ، قرطبة ، وغرناطة ، ومالقة ، والمريّة ، وهكذا كانت منطقة الوادى الكبير كلها فى أيديهم ؛ وكانت تفصل بينهم من الشمال الشرق ، وبين مملكة قشتالة ، وأملاك ابن سعد (ابن مردنيش) صاحب مرسية وبالنسية وحليف النصرارى ، سلسلة من الجبال الشاهقة تتخللها قلاع منيعة ، وممرات تحرسها حاميات قوية ؛ وأما فى الشمال الغربى فكان نهر وادى أنه الذى ملك الموحدون ضفته اليسرى كلها ، وملكوا من ضفته اليمنى عدة مناطق مثل ولاية الغرب وعدة مدن تمتد إلى مقربة من نهر التاجة (تاجو) ، أقل مناعة وأيسر اقتحاماً ، وكان الموحدون أكثر عرضة لهجوم أعدائهم من هذه الناحية .

وقد رأى عبد المؤمن قبل أن يتابع الفتح فى الأندلس بكل قواه ، من الحزم والفتنة ، أن يضع للدولة الجديدة نظماً موطدة الدعائم ؛ فألغى معظم النظم المرابطية العسكرية ، وهى التى أدت فى النهاية بقسوتها وما اقترن بها من صرامة الزعماء والقادة إلى سحق الشعب وثورته على المرابطين ، وأطلقت حرية العلوم والمعارف ، بعد أن كانت الأسرة الزاهية تشتد فى مطاردتها ، وسارت جنباً إلى جنب مع الدين ، ومع الدولة الناشئة ونظمها العسكرية الجديدة ، وأقيمت فى مراكش عاصمة المملكة — بما تحصل من أموال المرابطين — طائفة من المساجد والمدارس الفخمة ، غدت

== استولوا على المهديّة سنة ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) ؛ من صاحبها الحسن بن على الصنهاجى آخر ملوك دولة آل زيرى الصنهاجيين ؛ فليجأ الحسن إلى الموحدين واستغاث بهم ، واعتزم عبد المؤمن أن يستعيد هذه الثغور الاسلاميّة من يد النصرارى ؛ فسار إلى تونس سنة ٥٥٤ هـ ، وهاجها من البر والبحر بأسطول ضخم ؛ وحاول الفرّج لإغاثة إخوانهم فبعثوا الأساطيل إلى مياه تونس ووقعت بين المسلمين والنصارى معارك بحريّة هائلة انتهت بفوز المسلمين واستيلاء عبد المؤمن على المهديّة فى سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) بعد أن بقيت فى يد النصرارى اثني عشر سنة عاملاً (راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٧ وروض القرطاس ص ١٢٩ والحلل الموشية ص ١١٦ و١١٧)

مراكز للعلوم والآداب ؛ على أنه لم يسمح لهذه الحركة العلمية بأن تنمو وتتسع إلا بالقدر الذى يفيد الدولة والحكومة ، هذا فضلا عن وضعها تحت إشراف الدولة ، واقتنائها دائما بالخدمة العسكرية والتمارين فى فنون الحرب . ذلك أن عبد المؤمن كان يخشى أن يؤدى الانقطاع إلى العلم والدرس ، إلى إضعاف الهمم ، وفقدور الحماسة الحربية لدى الموحدين .

وأنشأ عبد المؤمن فى مراکش مدرسة لتخريج رجال السياسة وموظفى الحكومة ، وقادة الجيش ؛ وكانت تضم زهاء ثلاثة آلاف طالب من أبناء الأكابر فى وقت واحد ؛ وكانوا يسمون طلبة العلم أو الحفاظ ، نظرا لأنهم فضلا عن حفظ القرآن ، كانوا يدرسون رسائل المهدى ويحفظونها عن ظهر قلب ؛ كذلك كانوا يدرسون عدة كتب فى إدارة الولايات ومزاولة شؤون الدولة دراسة حسنة ؛ وكان عبد المؤمن يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة فى قصره ، ويمتحنهم فيما درسوا ، ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه ، تشجيعا لهم على الاجتهاد ، ولكى يجعل منهم رجالا أكفاء قادرين ، يستطيعون بفتنتهم وذكائهم أن ينفعوا البلاد سواء فى السلم أو الحرب ؛ ثم يعمد فى أيام أخرى إلى معرفة مدى تقدمهم فى فنون الحرب ، فيختبرهم فى الطعن بالحرب والرمى بالقوس والسهام ، والمبارزة وركوب الخيل ، والرکض ، وفن القتال ، ثم فى السباحة والمعارك البحرية ، وذلك فى بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض على مقربة من قصره ، وأعد فيها طائفة من السفن الكبيرة والصغيرة من كل ضرب ، ليتدرب الشباب فيها على القتال فى البحر ، والتجذيف وقيادة السفن ، والوثب إلى سفن العدو ، ومزاولة جميع التمارين البدنية التى تقتضيها الخدمة البحرية . وكان يخص أولئك الذين يمتازون بالمهارة والشجاعة بمبارات المديح والثناء ، ويقدم إليهم بنفسه نفيس الهدايا ، ليحفز بذلك همهم ، ويستزيد من غيرتهم واجتهادهم ، وكان تلميذهم جميعا على نفقة الدولة ، ويعصرف إليهم سائر ما يحتاجون إليه ، ومن ذلك الخيل والسلاح وغيرها^(١) .

(١) يقدم إلينا ابن الخطيب فى الحلل الموشية تفاصيل شائعة عن هذه الحركة الثقافية =

وكان لعبد المؤمن بين هؤلاء الحفاظ ثلاثة عشر ولداً ، ثقفوا على هذا النحو .
وتؤكد الرواية أنهم كانوا يبدون في هذه الامتحانات براعة في الفنون الحربية
والمعارف الرفيعة^(١) . وقد اختار عبد المؤمن من هؤلاء الحفاظ جميع القضاة
والفقهاء والولاة والمعلماء ، وكل من أؤام مناصب النفوذ والثقة ، واستطاع بذلك
أن ينشئ في نحو عشرين عاماً نظاماً جديداً للدولة ؛ إذ لم يبق من قدماء الموظفين
المعارضين من يعمل على منأوانه ، وبذلك اطمأن عبد المؤمن على توطيد سلطان
الموحدين . على أنه كان يعمل من جهة أخرى على جعل هذا السلطان وراثياً في
أسرته ؛ إذ كان ثمة على قيد الحياة من أصحاب المهدي العشرة اثنان هما في مرتبة
عبد المؤمن ، وفي وسعهما بعد موته أن يفازعا أسرته الملك ، وعلى ذلك فقد دعا
عبد المؤمن جميع الولاة وأشياخ القبائل من جميع أنحاء مملكته الشاسعة إلى
اجتماع عقد في سنة ٥٤٩ هـ (١١٥١ م) ، وأعلن فيه محمداً أكبر أولاده ولياً لمهده ،
وأضاف اسمه في خطبة يوم الجمعة إلى جانب اسمه ، وبذلك أشركه معه في الحكم في
معنى من المعاني .

وفي هذا الاجتماع أيضاً أقر عبد المؤمن رغبة أشياخ القبائل في أن يتولى
أولاده — وقد كانوا يسمون بالسادة — حكم الولايات ، وأن تكون ولايتهم
وراثية في عقبهم ، وعين لهم من الوزراء والحجاب والقواد كفاً الأشياخ ، وأبرع
الحفاظ ، على أن يؤخذ رأيهم في جميع الشؤون الهامة ؛ واختار السيد أبا حفص لولاية
سبتة وطنجة ، وبعض ثغور الأندلس ، والسيد أبا محمد عبد الله لولاية بجاية ،
والسيد أبا الحسن لولاية فاس ، والسيد أبا يعقوب يوسف لولاية الأندلس أو إشبيلية
وما إليها من المناطق^(٢) . ومع أن عبد المؤمن عين إلى جانب أولاده في كل ولاية

= والرياضية التي نظمها عبد المؤمن ؛ وهي تطابق في مجموعها ما ينقله المؤلف عنها (ص ١١٤) .

(١) راجع الحلل الموشية ص ١١٤ .

(٢) هذه الرواية تطابق ما أورده ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٣٦) ؛ ولكن يوجد خلاف

يسير بينها وبين بعض الروايات الأخرى (راجع الحلل الموشية ص ١١٥) وكتاب أخبار المهدي
ابن تومرت (ص ١١٦) .

من الأشياخ الأكفاء حاكما واثنين من خاصة الكتاب ؛ فقد لوحظ أنه لم يفعل مثل ذلك مع ولده السيد أبي يعقوب يوسف ؛ بل اكتفى بأن أقر إلى جانبه أبازيد ابن بكيت والى قرطبة ، واعتبر ذلك دلالة على قصد عبد المؤمن في أن يمنحه من الاستقلال قسطا أوسع مما منح لإخوته .

ومع أن عبد المؤمن كان يستأثر بالسلطة العليا ، ويحاول بالأخص أن يحول دون طغيان الولاة المستبدين وظلمهم وقسوتهم ، فإنه لم يوفق دائما إلى تحقيق هذه الغاية في أنحاء مملكته الشاسعة ، وكثيرا ما كان يقف على أمر المظالم بعد وقوعها . وإذ كانت الثورة كثيرة الوقوع في المغرب — وقد حدث ذات مرة أثناء غيبة زعيم الموحدين أن سقطت العاصمة مراکش في أيدي الثوار — فقد أمر عبد المؤمن باتباع سياسة الشدة في الولايات والمدن الثائرة على ألا يذهب الولاة مع ذلك في القسوة إلى حد إثارة بغضاء لا تحمد ، وبث مرارة تتحجر لها النفوس . ومن ثم فإنه لما استولى أبو زكريا بن يوسف على مدينة لبلة وقتل من أهلها اثني عشر ألفا دون فارق في السن أو الجنس ، سخط عليه عبد المؤمن لهذه القسوة ، ولم يكتف بتأنيبه وعزله بل أمر باعتقاله ، بالرغم من أنه كان من خيرة القواد وأقدرهم ، وكان أشد ما أثار حنقه عليه أنه عقب المذبحة ، استاق جميع الأسرى من نساء وبنات وأطفال مع متاعهم ومالهم إلى البيع العاني ، وعقد لهم سوقا في معسكر الجند وزهم أن الأمر بمقدورها صدر عن الخليفة ذاته^(١) . كذلك سخط عبد المؤمن على الوزير أبي جعفر بن عطية — وهو أندلسي الأصل وشاعر مبرز — وعزله ، وصادر أملاكه لما ارتكبه من المظالم في حق الشعب . وعمد خلفه الوزير عبد السلام الكوي إلى إهلاكه بالسهم خشية انتقامه ، وذلك بأن أرسل إليه رقعة مسمومة

(١) كان أبو زكريا بن يوسف (أو يسمون) واليا لأشبيلية من قبل عبد المؤمن . وقد استولى على لبلة سنة ٥٤٩ هـ (١١٥١ م) في مناظر مروعة من السفك ؛ إذ جمع أهلها في صعيد واحد وقتل منهم ألوف عديدة ، بيعت نساؤهم وأبناءؤهم وأسلاهم ، والمؤلف لا يورد أيضا سوى ما ذكرته الرواية العربية ، راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٦ وروض القرطاس ص ١٢٧ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٠ .

ضمنها أبياتاً من الشعر . ولكن القاتل لقي فيما بعد مثل هذا المصير ، حينما سخط عليه سيده ونكبه^(١) .

وقد فقد زعماء المرابطين حب الشعب بما ارتكبوا من صنوف القسوة والمظالم وأُمرُوا بذلك نار الثورة على حكومتهم ؛ وهذا ما أدركه عبد المؤمن حق الإدراك وحمله على أن يبذل كل ما في وسعه لكي تبدو الحكومة الجديدة في ألوان مقبولة ، ومن ذلك ما عمد إليه من رفع الحظر عن طائفة من الكتب التي حظر المرابطون قراءتها أو استنساخها وتشجيع نشر الكتب التي تتحدث عن الفروسية وأسيرها ، أو كتب الغامرات والقصص في جميع أنحاء المملكة سواء في الغرب أو الأندلس ؛ بل لقد سمح بقراءة هذه الكتب من فوق منابر المساجد ، وهو نقيض ما كانت تجرى عليه حكومة المرابطين ، إذ كانت تعتبر أمثال هذه الكتب كتب كفر ضارة وتأمّر باحراقها أينما وجدت . أما المؤلفات التي تظعن في حكومة الموحدين ، وفي المبادئ التي تقوم عليها ، فكان عبد المؤمن يأمر العلماء والكتاب الذين امتازوا بقوة الحجّة بكتابة الردود عليها . مثال ذلك ما أمر بكتابته ضد الكاتب القرطبي أبي الحسن عبد الملك بن إلياس .

وكان أشد ما يعني به عبد المؤمن — وهو من أعظم قواد المصور الوسطى — تنظيم شؤون الحرب والجهاد . وقد بث إليها بمجهوده نهضة إحياء شاملة . وإليك وصفا شائقاً تركه لنا مؤرخ عربي عن نظام سير جيش الموحدين وتقسيمه ، لمناسبة

(١) استورد عبد المؤمن الوزير أبا جعفر أحمد بن عطية ، وهو من أسرة أندلسية هاجرت إلى مراکش ؛ وكان أبوه من قبل وزيراً للأمير المسلمين علي بن يوسف اللمتوني ، فقتل بأمر عبد المؤمن في حصار فاس ؛ أما ولده أبو جعفر فكان وزيراً لإسحاق بن علي اللمتوني ؛ ولما سقطت مراکش في أيدي الموحدين عفا عنه عبد المؤمن واستوزره فيما بعد ، ولم يلبث أن سما شأنه ؛ ثم بعثه عبد المؤمن مع ولده السيد أبي يعقوب على إشبيلية ليعاونه في حكمها ، وفي أثناء غيبته دبر خصومه وفي مقدمتهم خلفه الوزير عبد السلام الكومي هلاكه ؛ فلما عاد إلى مراکش قبض عليه ، وأمر عبد المؤمن بقتله فقتل في سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٥ م) . أما رواية مصرعه بالسّم فلم نجد ما يؤيدها (راجع روض القرطاس ص ١٢٨ والمراكشي ص ١١٠ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٣٣٧ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٢ و ١٥٣) .

حديثه عن الحرب التي شهرها عبد المؤمن على النورمان الصقليين ، حينما استولى على تونس والمهدية .

كان مسير الجيش بعد صلاة الصبح قبيل شروق الشمس ؛ وكانت علامة المسير ثلاث قرعات من طبل ضخمة دوره خمسة عشر ذراعاً مدهون بلون الموحدين الأخضر ، ومحلى بالذهب ، وقد صنع من خشب رنان ، فكان يسمع على مسيرة نصف يوم إذا ضرب في مكان مرتفع ، في يوم ساكن لا ربح فيه ؛ وكانت كل قبيلة تتبع علمها الخاص ، وهو يحمل مطوياً أثناء السير ؛ ولا ينشر عندئذ سوى علم الطلائع ، وقد كان مكوناً من اللونين الأبيض والأزرق ، وعليه هلال مذهب ؛ وتحمل الخيام والعتاد والمؤن على ظهور الجمال والدواب ، هذا غير ما يتبع الجيش من قطعان عديدة من الثيران والأغنام ، تسير تحت إشراف الرعاة ، وتخصص لغذاء الجند ؛ وكان جيش عبد المؤمن النظامي يتألف - فضلاً عن الفرسان - من سبعين ألفاً من المشاة ؛ وكان ينقسم إلى أربعة جيوش ، يفصل بعضها عن بعض أثناء السير ، مسيرة يوم ، وذلك حتى لا يقع نقص في الماء ، أو ضيق في المكان . وإذا كان معظم الجند مثقل السلاح ، فقد كانت مسيرة اليوم قصيرة المدى ، وكان يقطع خلالها عادة عدة أميال فقط ، وكان يُقتصر على السير منذ شروق الشمس إلى وقت الظهر ، حتى يتسنى للجند أن يبدأوا السير في اليوم التالي بقوى مجدة ؛ وترتب على هذا التمهّل في سير الجيش ، أن اقتضى عبد المؤمن ستة أشهر ليقطع المسافة بين سلا وتونس ، وهي مسافة كانت تقطعها فرق الفرسان الخفيفة في نحو شهرين فقط . وكان عبد المؤمن إذا ركب احتاط به الأشياخ والقادة ، وأدوا معه الصلاة ، ثم ينصرف بعد ذلك كل إلى مكانه ، وإلى قيادة الجند التابعين له ؛ وكان يتقدمه في السير مائة شيخ وقائد ، يمتطون جياداً مطهمة ويتقلدون أسلحة فاخرة ، ويرتدون ثياباً فخمة . وكان يُحمل أمامه مصحف الخليفة عثمان بن عفان الذي غنمه الموحدون من قرطبة ، تبركا ونعيماً ، وقد وُضع في تابوت بديع الصنع ، محلى بصفايح الذهب ، مرصع بأروع اللآلئ . والأحجار

الكريمة ، حتى أنه قيل بحق بأن كنوز الأمويين ، وبني عباد ملوك إشبيلية ، وبني هود ملوك سرقسطة ، والمرابطين ، قد اجتمعت فيه جميعاً ، وتكدست ؛ وهذا التابوت يحمل في هودج ثمين ، وعلى جوانبه الأربع أربعة أعلام ؛ ويتبعه مباشرة أمير المؤمنين عبد المؤمن ، وإلى جانبه ولده وكاتب سره السيد أبو حفص وإلى تلمسان ، وهو شقيق السيد أبي يعقوب يوسف ؛ ويتبعه على قيد مسافة قصيرة ، الأمراء ، وأبناءؤه الآخرون الذين يرافقون الجيش . ثم يتبعهم بنود القبائل وفق ترتيبها ، وعدد من قارعى الطبول على خيول عالية ، والناخون في الأبواق ، والقرون ، وغيرهم من رجال الموسيقى العسكرية ؛ ثم الولاة والقضاة ، والوزراء والكتاب ؛ وبعد ذلك يأتي الجند متعاقبين في نظام محكم . فإذا حل الوقت الذى ينتظم فيه المسكر ، أُفرد لكل قسم مكانه المعين ، ولا يسمح للإنسان أن يترك المسكر دون إذن القائد المختص ؛ ثم توزع الأقوات التى يحمل الجيش منها مقادير وافرة ، على الجند بأنصبة متساوية ، فلا يكثر على أحد منهم^(١).

ويبدو من تأمل هذه النظم الصارمة ، ومن الماثرة على التمارين الحربية ، أن عبد المؤمن كان في جميع مشاريعه العسكرية يعنى عناية خاصة باختيار مواقع القتال ، وتولى القيادة بنفسه ، وأنه لم يكن ثمة في إفريقية أو الأندلس أمير يضارعه في فنون الحرب . وقد استطاع بذلك أن ينشئ نظاماً جديدة في منتهى البساطة ، ولكنها جمة الفوائد ، وأن يوجه فن الحرب ، بما وضعه من ترتيبات صارمة للجيش ، وجهة جديدة ؛ وكان من رأيه دائماً أن قيمة الجيش ليست في عدده ، وإنما في قبل كل شيء في مقدرته وفائدته ، كما أنه كان ، خلافاً لأسلافه المرابطين ، ومعظم ملوك المغرب ، يرى أن قوة الجيش الرئيسية ، يجب أن تؤلف من جند من المشاة حسنة التدريب والتسليح ، وأن قوى المشاة هى العامل الحاسم في مصير

(١) في الحلل الموشية تفصيل حسن لنظام جيش عبد المؤمن ، وخطط سيره ، وذلك بمناسبة كلامه عن توجه عبد المؤمن إلى المهديّة لإتخاذها من النصارى : ومن الواضح أن ما أورده المؤلف هنا (تقلاً عن كوندى) ، قد نقل في الأصل عن الحلل الموشية مع تغيير يسير (راجع ص ١١٥ — ١١٦) .

المواقع وفي اقتحام المدن . أجل كان لديه جيش أكبر من الفرسان ، ولكنه لم يكن يملق عليه نفس الأهمية التي يملقها على جيش المشاة ؛ ذلك لأن الفرسان المغاربة ، كانوا أثناء المواقع أقل خضوعاً للأوامر والنظم .

ولما عمل عبد المؤمن على تخطيط حدود مملكته ، ومسح جميع أراضيها ، وحصل من الولاة على بيانات دقيقة عن سكان كل ولاية ، وعن خواصها وثورتها وغلاتها^(١) ، كان يرى بذلك من جهة إلى تقرير الضرائب الواجب تأديتها على كل ولاية ، ومن جهة أخرى إلى أن تتخذ هذه البيانات أساساً لتقرير عدد الجند وأنواعه ، فكان على الثغور في المغرب والأندلس مثلاً أن تقدم البحارة والسفن ؛ وعلى المناطق الصحراوية والغنية بالخليل ، أن تقدم الجند المشاة والسلاح من كل الحمل ، والجمال ؛ وعلى الولايات الأخرى ، أن تقدم الجند المشاة والسلاح من كل ضرب ، كل بنسبة سكانها ، ولكن المناطق أو الزعماء الذين حقت عليهم العقوبة بسبب الثورة ، كان يفرض عليهم أن يقدموا من الجند ضعف الصفوف العادية أو أكثر ؛ فمثلاً فرض على قبيلة « كومية » وهي من بطون زناته ، كمقاب لها أن تؤدي عشرين ألف مقاتل ، وهو ما لا يتناسب مع سكانها ؛ ولكن أشياخها سمعوا إلى استرضاء الخليفة بمضاعفة هذا العدد ، فساروا إلى العاصمة في أربعين ألف فارس حسني الثياب والعدة ، حتى أن عبد المؤمن توجس من مقدمهم في البداية ، وخشى أن يكون المدوان مقصدهم ، في حين أنهم قدموا تطوعاً للخدمة ، واستخدم عبد المؤمن عدداً كبيراً منهم في حرسه الخاص ، إظهاراً لثقتهم بهم ، وأذن لهم عند وصولهم إلى مراكش ، بعرض فنون الفروسية ، وألعاب الخيل ، فكانت الخيل تحيي الأمير برأسها أو تركع أمامه بمنتهى الرشاقة^(٢) .

أما السلاح ، فكان عبد المؤمن يحتفظ منه دائماً بمقادير وافرة ، تحفظ

(١) راجع روض القرطاس ص ١٢٩ .

(٢) يلاحظ أن قبيلة « كومية » هذه هي القبيلة التي ينتمي إليها الخليفة عبد المؤمن ؛ راجع في ذلك وفي مقدم فرسان كومية على مراكش (روض القرطاس ص ١٣١ وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ ، والمراكشي ص ١٠٩ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٥٧) .

في المخازن المعدة لذلك ؛ وقد أنشأ مصانع للسلاح في كثير من قواعد مملكته ، فصنع فيها القسي والنشاب ، والخوذات والدروع والسهام ، وغيرها من الأسلحة اللازمة للهجوم والدفاع . وفي بعض الروايات أنه كان يصنع في مملكة الموحدين في عهد عبد المؤمن كل يوم عشرة قناطير من السهام ، وهذه فيما يبدو مبالغة من بعض المؤرخين المسلمين ، أو هي خطأ في التقدير^(١) ؛ وقد كان عبد المؤمن فيما يظهر أيضاً ، على علم راسخ بفنون الحصار ، وكان يستولى على أشد المدن حصانة بما يبني وفق رأيه من آلات الرمي وخرق الأسوار (المنجنقات) . أما هل عرف عبد المؤمن استعمال البارود — وقد كان من قبل أشد ذيوماً في المنرب والأندلس منه في أي بلد أوروبي — فأمر يشك في صحته ؛ بيد أن خلفاءه من الموحدين هم الذين نقلوا استعمال البارود في القرن الثالث عشر ، من إفريقية إلى اسبانيا .

وقد قسم عبد المؤمن مملكته بعد أن مسحها طولاً وعرضاً على يد أمراء المغرب المسلمين ، إلى ولايات ومناطق ومقاطعات ومدن وقرى ، وقرر عليها الضرائب وفقاً لنسبة السكان في البسائط المأهولة وحالة الأرض وخواصها ومقدار غلتها ، وكذلك وفقاً لأحوالها الزراعية وحالة مراعيها وماشيتها .

وفي الوقت الذي كان عبد المؤمن يشغل فيه في الغرب بإخماد الثورات والفتن ، وافتتاح أطراف مملكته الشرقية ، وانتزاع المهديّة وتونس من يد الفرنج النورمانيين ، كان يعهد بمتابعة الحرب في الأندلس إلى ولده السيد أبي يعقوب يوسف — وإلى الأندلس — وإلى نفر من القادة البارعين الذين يعملون تحت إمرته . فلما انتهى عبد المؤمن من التغلب على النورمانيين في البر والبحر ، وأجلاهم عن جميع الأراضي التي استولوا عليها في إفريقية سنة ١١٦٠ م (٥٥٥ هـ) ، أخذ يتأهب لمتابعة الغزو بنفسه في شبه الجزيرة الاسبانية .

فسار من أجل ذلك في جيشه صوب طنجة ليبحر منها إلى الأندلس ، ولما وصل إلى وهران نظم استعراضاً عسكرياً للقوات التي اختارها لمحاربة النصارى

(١) راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٥٨ .

الأسبان ؛ وهنا كاد عبد المؤمن يذهب ضحية مؤامرة دبرها جيشه . ذلك أن طائفة من جند الموحدين سثموا طول القتال — ولم يكن قد مضى سوى القليل على عودهم من مقاتلة الفرنج في تونس والمهدية — وتآقت أنفسهم إلى رؤية الوطن بعد طول البعاد ، ورأوا أملهم في رؤية أهلهم وذويهم ينهار بسبب الغزوة الجديدة ، واعتقدوا أن خير وسيلة لتحقيق أمنيتهم هو موت عاهلهم الذي لا ينى عن السير من فتح إلى فتح ؛ فاعتزموا قتله في الليلة التالية وهو نائم في خيمته ، فوقف على هذه المؤامرة شيخ من أشياخ القبائل ، ومع أنه وقف عليها في وقت متأخر ؛ فإنه استطاع أن يحذر عبد المؤمن في الوقت المناسب ؛ بيد أنه لم يكن ثمة متسع من الوقت لمعاقبة الجناة على يد الجند المخلصين ، ولم يجد الشيخ الأمين وسيلة لتلافى الشر سوى أن يموت من أجل سيده ، ونزل عبد المؤمن على نصحه ، فنادر خيمته ، ونام الشيخ مكانه في سريره ، وقتله المتآمرون طمعا بالخناجر ظنا منهم أنه عبد المؤمن ، ولكن عبد المؤمن كان قد التجأ إلى خيمة الشيخ الذي افتداه بنفسه ، ونجا بذلك من الهلاك . وفي الحال اتخذت الاجراءات لمعاقبة المتآمرين ؛ بيد أنه لما كان مدبرو المؤامرة من أقرب حاشية الخليفة ، وكان من المتعذر إثبات الجرم على الزعماء المارقين ، وقد أريد من جهة أخرى أن يُجتنب الجهر بالعقاب ، فقد أمر عبد المؤمن بإهلاك زعماء المؤامرة بوضع السم لهم في الرسائل أو الشراب . أما الشيخ الأمين الذي لم يعرف حتى اسمه ، فقد رأى أن يخلد تضحيته بابتناء مزارنم لرفاته ، وإنشاء مدينة حديثة سميت بالبطحاء^(١).

٢ — باقى غزوات الموحدين فى الأندلس بقيادة عبد المؤمن

ولم تكن قد وقعت فى ذلك الحين بالأندلس أية فتوح هامة منذ افتتاح غرناطة فى سنة ١١٥٧ م (٥٥٢ هـ) ، وكل ما حدث أن أغار الموحدون مراراً على أراضي النصارى ، وأراضي مملكة مرسية التي كان يحكمها ابن سعد (ابن مردنيش) ،

(١) راجع روض القرطاس ص ١٣٠ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٦ و ١٥٧ .

ولكنهم لم يستطيعوا القيام بأية غزوة كبيرة ؛ إذ لم يلقوا من عبد المؤمن سوى إمدادات قليلة نظراً لانشغاله بالحرب في شرق مملكته ؛ وكان ذلك أيضاً من الأسباب التي مكنت سانشو الثالث ملك قشتالة من أن يحرز النصر على الموحدين ، ومكنت الفونسو هنريكز ملك البرتغال من أن ينتزع منهم بعض الغنائم ؛ إذ استولى في الغرب عنوة على حصن القصر ، أو قصر أبي دنيس ، وقتل جميع حاميته وذلك في سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) .

وفي العام التالي (سنة ١١٦١ م) عبر عبد المؤمن بنفسه إلى الأندلس ونزل بجبل طارق ، وأنشأ به حصناً عظيماً في منتهى الناعة ، وسماه بجبل الفتح ، ولما تمت التحصينات وفق رغبته أقام هنالك شهرين ، ووفد عليه في تلك الأثناء ولاية الأندلس وقضاها ، وأظلموه على أحوال الناس ، ووفدت عليه أيضاً جمهرة كبيرة من العلماء والشعراء ، وأشاروا بتحيته ومدحه في خطبهم وقصائدهم^(١) .

وفي أثناء مقام عبد المؤمن بالأندلس ، قام الموحدون بغزوة في أراضي النصارى ، وأمدم عبد المؤمن عندئذ بقوة من الفرسان تبلغ ثمانية عشر ألفاً ؛ وسار الموحدون على ضفاف وادي آنه في ولاية الغرب (غربي الأندلس) ، وكان النصارى يكثرّون مهاجمة المسلمين من هذه الناحية . وتقول الرواية العربية إن المسلمين افتتحوا في تلك الغزوة حصناً من أحواز بطليوس ، وقتلوا حاميته ؛ ثم اشتبكوا مع الفونسو ملك طليطلة في موقعة دموية ، فقد النصارى فيها ستة آلاف قتيل ، غير الأسرى ؛ وافتتح المسلمون على أثرها بطليوس ، وباجه ، وبابره ، وحصن القصر ؛ وعُين محمد بن علي بن الحاج والياً لهذه الولاية الجديدة ، وعاد عبد المؤمن بعد ذلك إلى عاصمة مراكش^(٢) .

(١) راجع الحلل الموشية ص ١١٨ والمراكشي ص ١١٧ والاستقصاء ج ١ ص ١٦٣ .

(٢) هذا ما تردده الرواية الإسلامية في الواقع ، وتزيد على ذلك أن الحصن الذي افتتحه الموحدون في تلك الغزوة بمجوار بطليوس هو حصن «الرنكش» وأن الذي قاد الموحدين فيها هو الشيخ أبو حفص المنتافى . وتفتح تاريخ هذه الغزوة في سنة ٥٥٦ هـ (١١٦١ م) ؛ وفي العام التالي استولى الموحدون على بطليوس وباجه وبابره وحصن القصر (راجع روض القرطاس ص ١٣٠ و١٣١ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٧) .

على أن الروايات النصرانية لا تذكر شيئاً عن غزوة الموحدين هذه . ومن الواضح أن المؤرخين المسلمين يخلطون هنا بين فرديناند ملك ليون والفونسو الثالث ملك قشتالة ، الذي كان وقتئذ طفلاً لا شأن له بالحكم ، ولكن الروايات تقص من جهة أخرى أن جيشاً ضخماً من الموحدين سار في نفس هذه السنة لمحاربة ابن سعد (ابن مردنيش) أمير بلنسية ومرسية ، وأنه لم ينقذ ابن سعد من الهزيمة سوى المعاونة القوية التي تلقاها من حليفه سانشو ملك نافارا ، بقيادة الفارس الشجاع بيدرو رويز دي ازاخرا ؛ وقد أُعطي بيدرو رويز عندئذ مدينة شتميرية الشرق^(١) ليستقل بمحكمها ، مكافأة له على معاونته

وفي العام التالي ، أعني في سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) ، استأنف ابن سعد الحرب ، وسار إلى غرناطة ليحاول استردادها ، وقد كانت في قبضته من قبل ؛ وهنا تتفق الروايات العربية والنصرانية ، ولكن النصرانية أكثر إفاضة وتفصيلاً ؛ واجتمع جميع الأندلسيين الذين يعارضون حكم الموحدين ، ولاسيما جند وادي آش والمنكب والجزيرة والبشرات في ولاية جيان لنصرة ابن سعد أشهر زعماء الأندلس وأشدّهم وطنية ، وهرعت إلى رايته بقايا المرابطين لتسام في آخر محاولة تبذل لإخراج الموحدين من شبه الجزيرة ؛ واستُقدمت أمداد نصرانية سواء من قشتالة أو أراجون لقاء مبالغ طائلة من المال ، وهكذا اجتمعت لأمير بلنسية قوات عظيمة .

ولما علم الموحدون بما اتخذ ابن سعد من عظيم الأهبة ، ساروا إلى لقاء أعدائهم في جيش ضخم معظمه من الفرسان ، والتقى الجيشان على مقربة من غرناطة ، واشتبكا في معركة هائلة ، وقاتل ابن سعد وجنوده بمنتهى الشجاعة والجلد ؛ ولكن الموحدين استطاعوا أن يحرزوا نصراً باهرأ ، وأن يؤيدوا بذلك شهرتهم كفاتحين لا يغلبون ؛ بيد أنهم لم ينتصروا دون خسارة فادحة . ثم عاد ابن سعد وحلفاؤه بمد أن حشدوا قوات جديدة إلى القتال ، ونشبت بين الفريقين موقعة أخرى في

(١) هي المعروفة بالفرنجية بمدينة Abarracin حسبما تقدم .

فخص قرطبة (سنة ٥٥٧ هـ - ١١٦٣ م) ، فهزم الحلفاء للمرة الثانية ، واضطروا إلى الانسحاب بعد أن تكبدوا أفدح الخسائر^(١).

وفي تلك الأثناء كان عبد المؤمن يقوم بأهبات عسكرية ضخمة ، ويدعو الجند إلى الجهاد في اسبانيا من سائر أنحاء مملكته الشاسعة ؛ ولم يمض سوى قليل حتى اجتمع لديه في سلا من مختلف القبائل المغربية وخصوصاً من زناتة ، زهاء ثلاثمائة ألف فارس ، منهم ثمانون ألفاً من ذوى البراعة ، ومائة ألف راجل ، وحشد عبد المؤمن في الوقت نفسه أسطولاً ضخماً من أربع مائة سفينة كبيرة أعدت في ثغور المغرب لنقل الجيش ، ولكي تعاون بالأخص في الأعمال الحربية ؛ ولاح عندئذ أن اسبانيا النصرانية التي شطرت يومئذ إلى ممالك خمس تمزقها الحروب الداخلية ، قد قضى عليها بالهلاك ، وأنها ستتهدد فريسة هيينة للفاتح الإفريقي لولا أن توفى عبد المؤمن عندئذ فجأة بعد مرض شديد أودى بحياته في الوقت الذي كانت تنقل فيه الجند إلى الأندلس ، وبذا أنقذت اسبانيا النصرانية من نير المسلمين مرة أخرى .

وتوفى عبد المؤمن في الثالثة والستين من عمره ، بعد أن حكم ثلاثة وثلاثين عاماً ، وذلك في العاشر من جمادى الثانية سنة ٥٥٨ هـ (١٥ مايو سنة ١١٦٣) ؛ وكان قبل وفاته بقليل قد عزل ولده الأكبر السيد محمد عن ولاية عهده ؛ إذ نُسب إليه أنه دبر مؤامرة لقتله لكي يلي الملك بسرعة ، وأمر بحذف اسمه من الخطبة ، وأذاع قرار عزله في جميع الأنحاء^(٢) ؛ واختار عبد المؤمن لخلافته بدلاً من الأمير

(١) تسمى الرواية العربية الموقعة الأولى التي نشبت في سنة ٥٥٧ هـ بين الموحد بن سعد وحلفائه موقعة « مرج الرقاد » ؛ وتسمى الموقعة الثانية التي نشبت بين الفريقين موقعة « السبيكة » ، وقد نشبت أيضاً في نفس غرناطة لا فخص قرطبة حسبما يقول المؤلف ؛ وكان وقوعها في يوم الجمعة ٢٨ رجب سنة ٥٥٧ هـ ؛ وكان حليف ابن سعد في الموقعة صهره إبراهيم بن هاشم ، المتغلب على غرناطة قبيل استردادها على يد الموحد بن راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ ، وابن الأبار في الحلة السراء ص ٢٣٠ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٠٦ .

(٢) تقدم الرواية الإسلامية لعزل عبد المؤمن ولولده السيد محمد من ولاية العهد أسباباً =

المزول ، ولده السيد أبا يعقوب يوسف ؛ وكان قائماً بشؤون الأندلس حيث أبدى براعة فائقة في الحرب والإدارة . وأخفى موت عبد المؤمن حتى قدم يوسف من إشبيلية إلى المغرب .

وكان عبد المؤمن وسيم الطلعة عظيم الهيبة ؛ وكان أبيض اللون مشرباً بحمرة شديدة يريق العينين ، كث الشعر ، أفتى الأنف ، نحيل الدقن مستديرها ؛ عظيم القامة دون مبالغة في الطول ، ملأ الجسم مع خفة ورشاقة . ولم تكن مواهبه العقلية أقل روعة ؛ فقد كان يهتدى بشاغب فهمه إلى أفضل الوسائل لتحقيق أغراضه بأسرع وقت ؛ وكان يغم بصاحته تأييد الذين يبدون نحوه فتوراً أو يخاضمون ؛ وكان يستطيع بما أوتى من واسع المعرفة في علوم كثيرة ، أن يختار من بين علماء مملكته ورجالاتها كفاءهم وأرفعهم شأنًا ، وكان لهم نصيراً وصديقاً . وهكذا ازدهرت في ظله العلوم والفنون في جميع أنحاء مملكته ، ولا سيما في الأندلس بالرغم مما كانت تخوضه من حروب متواصلة ؛ وهذا ما يمكن تعليله بأن مساهم الأندلس الذين شغفوا بالعلوم قد سارعوا إلى نبذ المراتبين أولى البداوة والخشونة ، وأنجازوا إلى جانب الموحدين أهل العلوم والمدنية . أما الصفات التي يجب أن تتوافر في الفاتح مثل الشجاعة والعزم ، وبعد النظر ، وحضور البديهة ، فقد كان عبد المؤمن يفوز منها بأوفر قسط . وقد كان يسمو على معظم جنوده في تحمل المشاق والشدائد ؛ وكانت شعوب المغرب المتقشفة تعجب بتقشفه في مأكله ومشربه ؛ وكانت الحرب فيما يبدو شهوته الوحيدة ، فقد افتتح بالسيف ولاية بعد أخرى ؛ ولما توفي ترك وراءه مملكة تمتد من المحيط الأطلنطي إلى قرب حدود مصر ، ويقتضى اختراقها بالطول مسيرة أربعة أشهر . أما عرضها فيما بين الصحراء الكبرى ، وجبال سيرا مورينا ، (جبل الشارات) الإسبانية ؛ فكان يقتضى اختراقه مسيرة خمسين

= أخرى خلاصتها ما تبينه عبد المؤمن في ولده من أمور لا يصلح معها للخلافة من إدمان الخمر ، واختلال الرأي ، وكثرة الطيش ، وجبن النفس ؛ وقيل أيضاً إنه كان مريضاً بالجذام (المراكشي ص ١٣١ ، وابن خلكان ج ١ ص ٣٩١ ، وروض القرطاس ص ٦٣٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٥٨) .

يوما ؟ وقد افتتحت جميع هذه الأراضى فى أقل من عشرين عاما منذ استولى
الموحدون على مراکش^(١).

٣ — حكم أبو يعقوب يوسف وحروبه

وقد بدأ أبو يعقوب يوسف حكمه فى ظروف صعبة ؛ ولولا غيرة القاضى
أبى الحجاج يوسف بن عمر وفطنته لتعذر عليه أن يفوز بحكم مملكة الموحدين كلها .
ذلك لأن ولى العهد السابق السيد محمد ، وأخا آخر ليوسف هو السيد عبد الله والى
قرطبة ، اعترضا ألا يخضعا لولى العهد الجديد الذى اختاره عبد المؤمن قبل موته ،
ولاح فى الأفق شبح حرب أهلية مروعة تنذر بتمزيق المملكة ولما تتوطلد دعائهما
بعد ؛ ولكن القاضى أبى الحجاج عمل على إخفاء موت عبد المؤمن حتى قدم
أبو يعقوب يوسف من الأندلس إلى مراکش ، وبويع فى الحال بالإمارة . بيد أنه
مضى زهاء عامين قبل أن يوفق إلى إخماد جميع حركات الانتفاض على حكمته ؛
ثم دعا بعد ذلك جميع الأشياخ والولاة إلى مراکش ، وبويع بالخلافة وتسمى
بأمير المؤمنين ؛ ولم يخرج على ذلك إلا جماع أخواه السيد محمد والسيد عبد الله ،
الذنان خلبهما رفقته وتسامحه ، فاعترفا أيضاً بخلافته ؛ ومالت الشعوب المغربية إلى
تأييده لما عمد إليه فى بداية حكمه من تخفيف أعباء الحرب ، وتسريح الجيوش
الضخمة التى حشدت فى سلا لغزو إسبانيا ؛ وجذب إليه القادة والجند — ولاسيما
جند الحرس — والولاة بالأعطية الوافرة ؛ وأحبه أهل مراکش لما رفعه عنهم من
المكوس ، ونظمه لهم من الحفلات الباذخة .

ومع أن يوسف تولى الحكم شابا لم يجاوز الرابعة والعشرين من عمره ؛ فقد
أبدى كثيرا من الفطنة والبراعة ، وكان ذهنه يتجه إلى معالجة الأمور الحاضرة

(١) راجع فى سيرة عبد المؤمن وخلال فى كتاب أخبار المهدي ص ٢١ — ٢٣
و ٥٥ — ٥٧ و ٨٤ وما بعدها ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٨ وما بعدها ، وروض القرطاس
ص ١١٩ — ١٣٤ ، والمراكشى ص ١٠٩ وما بعدها ، وابن خلكان ج ١ ص ٣٩٠ —
٣٩٢ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٤٠ وما بعدها .

والبعيدة ممّا ؛ وكان يقبض بنفسه على أعنة الحكم ، ولا يسمح لوزرائه بالبت في أمر من الأمور ، أو عمل من الأعمال لم يقف عليه من قبل ؛ وترتب على ذلك أن الأمراء والوزراء الذين كانوا يتمتعون أيام عبد المؤمن بكثير من النفوذ في البلاط ، فقدوا كل نفوذهم في عهد يوسف . وحتى أخوه السيد أبو حفص الذي كان أمين سر عبد المؤمن وموضع ثقته رأى مع الألم انهيار نفوذه في البلاط ، وربما كان هذا هو السبب في أنه فيما بعد رفع لواء الثورة ضد أمير المؤمنين .

وكان يختار بحسن فهمه وبعد نظره أكفأ الرجال الذين يوليهم مناصب الثقة ، وكان من سياسته فيما يظهر نقل الأشخاص في مختلف المناصب لكي يبقوا أكثر خضوعاً لإشراف الحكومة ، وكان مما يسهل تنفيذ هذه السياسة أن الذين يتولون المناصب كان يشترط فيهم توافر نوع من الثقافة العامة والإلمام بمعظم العلوم الإسلامية المعروفة ، وهذا مما يوضح لنا كيف أمكن في ظل هذا الأمير أن يتولى بعض الرجال مناصب شديدة التباين ؛ فقد حدث مثلاً أن تولى العلامة الأشهر أبو الوليد بن رشد منصب الفقيه العالم ، ثم القضاء ، ثم تولى الإشراف على الخزانة ، وتولى أيضاً منصب طبيب يوسف الخاص^(١) .

ومع أنه عمل على تخفيف أعباء الحرب عن الشعوب المغربية ، وصرح الجيوش الضخمة التي حشدت لغزو إسبانيا ، فإنه لم يترك العناية بأمر الحرب في الأندلس . وكان الموحدون منذ وفاة عبد المؤمن قد تكبدوا في الأندلس خسائر فادحة

(١) هو أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد من أعظم مفكري الإسلام وفلاسفته ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠ هـ ، واتصل منذ فتوته بأبي يوسف يعقوب بن عبد المؤمن وقد كان مشرفاً على شؤون الأندلس ، وكان الأمير مثل أبيه يجمع حوله أعلام المفكرين والعلماء . وبرع ابن رشد في الفقه والطب والفلسفة ؛ وتولى قضاء إشبيلية في سنة ٥٦٥ هـ ، ثم ولي قضاء قرطبة واستمر بها خمسة وعشرين عاماً يتقلب في ظل حكومة الموحدين ، سواء في الأندلس أو المغرب في بعض المناصب القضائية والإدارية الكبرى ؛ وتولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص حيناً لأبي يعقوب يوسف ثم لولده يعقوب المنصور بعد وفاته ؛ واتهمه بعض خصومه بالزندقة ، فني إلى الأندلس بجوار قرطبة ؛ وفرضت عليه رقابة شديدة ؛ ثم استرد مكائنه في أواخر حياته ؛ واستدعى ثانية إلى مراکش ؛ حيث عفا عنه المنصور ، وتوفي سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٥ م) . وأعظم آثار ابن رشد هو شرحه لفلسفة أرسطو ؛ وله عدة رسائل كلامية وفلسفية .

في بعض المواطن ، وذلك بالرغم من تفرق الملوك النصاري ، وما كانت تمنانيه مملكتنا قشتالة وليون من انقسام الأشراف ؛ وكان الفونسو هنريكيذ ملك البرتغال يدفع حدود مملكته نحو الجنوب باستمرار ، وينزع من أيدي الموحدين حصون الحدود تباعا ؛ وكذلك أبدى فرديناند ملك ليون نشاطا في غزو منطقة وادي يانه (أو وادي آنه) ، واستولى على القنطرة والبكرك والفاس وبطليوس حسبما تقدم . أما قشتالة وليون فقد كانتا تقتصران يومئذ في محاربة المسلمين على معاونة أمير بلنسية محمد ابن سعد بن مردنيش ، وترسلان له الامداد مقابل المال والحصول على قسط من الغنائم .

وما كاد يمضي عامان على وفاة عبد المؤمن ، حتى حشد أمير بلنسية زعماء الأندلس المعادين للموحدين تحت لوائه مرة أخرى (سنة ١١٦٥ م) . واجتمع إليه فوق ذلك ثلاثة عشر ألفا من القشتاليين والأرجونيين ؛ ثم سار في جميع قواته إلى لقاء جيش الموحدين بقيادة السيد أبي سعيد عبد الرحمن ، أخى أبي يعقوب يوسف ، والتقى الجيшان على مقربة من مرسية ، ونشبت بينهما موقعة شديدة ، واستطاع الموحدون بجلدهم أن يحرزوا فيها نصراً كاملاً أسوة بما حدث من قبل ؛ وأخذ الحلفاء يلقون تبعة هذا الفشل كل على الآخر ، واشتد بينهم الخلاف ، وانتهى الأمر بأن انسحب بعض الزعماء الأندلسيين سرا تم علانية ، وانضموا إلى جانب الموحدين ؛ وكان من بين هؤلاء الزعيم الباسل أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن الوقشي ، والي جيان ومرسية السابق ، وكان عالماً ، ومقاتلاً شجاعاً ، وشاعراً مبرزاً ، فأنحاز إلى جانب الموحدين ، ثم عبر البحر فيما بعد إلى مراکش ، واشترك هنالك في حفلة عرض لصيد الأسود ، يطارد الليث فيها بأسنة الحراب ، فأبدى فيها براعة خاصة ، ووصفها في بعض قصائده الرقيقة (١) .

(١) راجع ترجمة أحمد بن عبد الرحمن الوقشي في الحلة السراء ص ٢٣٠ وما بعدها . وقد أورد ابن الأبار وصفا لحفلة صيد الأسود ، كما أورد طرفا من القصيدة التي أنشأها الوقشي في وصف هذا الحفل (ص ٢٣٣) .

ولما أخذ سلطان الموحدين يشتد تباعا في جنوبي اسبانيا ، وسقطت في يدهم بطليوس ، وعدة أماكن أخرى على الحدود ، وأخذ سلطان ابن سعد أمير بلنسية والممالك النصرانية يعرض شيئا فشيئا إلى الانهيار ، من جراء انشقاق الزعماء المسلمين والنصارى ، اعتزم ملك قشتالة ألفونسو الثالث وملك أراجون ألفونسو الثاني أن يعملوا على تقوية صلاتهما بابن سعد ؛ وسار ابن سعد نفسه إلى طليطالة ليوثق أواصر تحالفه بالملكين (سنة ١١٦٧ م) ، واستطاع من جهة أخرى أن يسترضى بعض الزعماء المنشقين عليه ، وأن يحشد ثمانية إلى جانبه ؛ وكان من بين هؤلاء الوقشي الشجاع الذي تقدم ذكره ، وذلك بعد أن لبث حيناً في مراكش وتولى هنالك أرفع المناصب ؛ وكان جند من الحلفاء النصارى ، معظمهم من القشتاليين ، يحتلون بلنسية ذاتها ، وهو ما لم يرق لكثير من المسلمين المحافظين ، وقد غادر بلنسية على أثر ذلك كثير من الزعماء الأقوياء ، وانحازوا إلى جانب الموحدين .

وفي تلك الأثناء كان السيد أبو حفص أخو الخليفة قد عبر البحر إلى الأندلس في عشرين ألفاً من فرسان الموحدين ، وقام بغزوات على حدود البرتغال واسترامادوره ، ولكنه لم يحرز نجاحاً يذكر . ذلك أن ملك البرتغال وفرسان يابرة التابعين له كانوا يحمون الحدود حماية فمالة ، وكان ملك ليون قد استدعى آل كاسترو بعد فرارهم إلى الموحدين ، وحرّم الموحدين بذلك من عضد قوى ؛ ولكن تفاقمت الحال في بلنسية وازداد سخط الزعماء على الأمير محمد بن سعد ، وجأهروا بالثورة ضده ، واستدعوا الموحدين لمعاونتهم ونصرتهم ؛ وكان سلطان الموحدين ، يعتزم بعد أن سحق جميع الثورات في المغرب ، أن ينتهز فرصة هذه الظروف السانحة في الأندلس ، وأن يعمل على إخضاع اسبانيا المسلمة بأمرها لسلطانه .

ففي شهر صفر سنة ٥٦٦ هـ (١١٧١ م) ، عبر أبو يعقوب يوسف البحر إلى اسبانيا ، وسار توالى أشبيلية عاصمة الأندلس ؛ واستقبل هنالك الولاة والقضاة والفقهاء والعلماء من جميع المدن والأنحاء الخاضعة له ، ووقف منهم على أحوال

البلاد . وكان من الواضح أن استمرار الشقاق بين المسلمين في بلنسية ومرسية ، وضعف الإمدادات التي يرسلها ملوك قشتالة ونافارا وأراجون إلى حليفهم ، ثم الخصومة بين ابن سعد وحليفه القديم ألفونسو ملك أراجون ، مما يتعذر معه على بلنسية أن تحافظ طويلا على استقلالها ؛ وهكذا فإنه بينما سار محمد بن سعد إلى غزو طرطوشة وطركونة من ثغور قطلونية ، وحاصرهما من البر والبحر ؛ بمد عدة وقائع دموية نشبت في البر والبحر هزم فيها النصارى ؛ إذ سقطت بلنسية في يد الموحدين بمألة زعيم يدعى أبا بكر بن سفيان وإلى جزيرة شقر^(١) . فلما وقف محمد بن سعد على سقوط عاصمته ، اضطر أن يرفع الحصار عن ثغور قطلونية وسار في سفنه إلى جزيرة ميورقة ، وانتزعها من يد أصحابها ، وهم أبناء القائد الرابطي ابن غانية ؛ بيد أنه لم يمض طويلا ، وتوفي بعد ذلك بقليل في رجب سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢م)^(٢) . ولما رأى أبنائهم أن النضال يضطرم بينهم وبين كثير من الزعماء ، وأن غارات النصارى والموحدين تلاحقهم بلا انقطاع ، وأنهم لا يستطيعون الثبات أمام هذه الجبهة من الأعداء ، عقدوا مع سلطان المرابطين أبي يعقوب يوسف معاهدة ، يتنازلون بمقتضاها عن جميع أراضيهم ، مشتملة على بلنسية ، ومرسية ، ومربيطر ، وشاطبة ، ودانية ، ولقنت ، وشقر ، ولورقة وغيرها ؛ وعلى الأراضي الواقعة فيما بين مصب نهر لايرو ومدينة قرطاجنة ، وعلى مقربة من الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، وأن يعرضهم عن ذلك بمناصب يتقلدونها وأراض تقطع لهم في مملكته ؛ وتزوج أبو يعقوب يوسف أخنأ لأمرأ بلنسية (أعنى ابنة لابن مردنيش) توثيقاً للصدقة بين الأسرتين ؛ وهكذا استطاع الموحدون أن يوفقوا بحسن طالعهم إلى الحصول على أراض ما كانوا ليؤملوا

(١) راجع الحلة السيرة ص ٢٣٦ و ٢٣٧ .

(٢) تسمى الرواية العربية الموقعة التي هزم فيها ابن مردنيش وانهت بسقوط دولته بموقعة الجلاب . راجع تفاصيل هذه الحوادث ، وفي سقوط دولة ابن مردنيش ، ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ و ٢٤٠ ، والمراكشي ص ١٣٩ و ١٤٠ ، وابن الأبار في الحلة السيرة ، ص ٢٢٠ و ٢٣٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦٠ ، وابن الأثير ج ١١ ص ١٤٠ .

الحصول عليها بمحمد النيسف . ولما كانوا قد استولوا بذلك على جنوبى اسبانيا الذى يسكنه المسلمون ، فقد عمدوا من ذلك الحين إلى توجيه غزواتهم إلى الممالك النصرانية المجاورة ، وكانوا يؤملون الظفر عليها بسهولة لما كان يسودها يومئذ من التفرق والخلاف .

ومكث أبو يوسف فى اسبانيا أربعة أعوام وبضعة أشهر ، نظم خلالها عدة غزوات ضد النصارى ، وفى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) خرج من إشبيلية إلى الغرب (غرب الأندلس) جنوبى البرتغال فى جيش ضخم ، وحاصر مدينة شنترين ، ثم سار إلى القنطرة بطريق بطليوس والبكرك ، واستولى عليها حسبما تقول الرواية العربية^(١) ؛ ووصل الغزاة إلى مدينة رديريك ، ولكنهم لم يوقفوا فى الاستيلاء عليها . وبعد أن عاث الموحدون فى تلك الأراضى وخربوها ، عاد أبو يعقوب مثقلاً بالفنائم ، وفى ركبه عدة آلاف من الأسرى النصارى ، قد صفدوا أزواجاً .

وفى العامين التالين أعنى سنى ٥٦٨ و ٥٦٩ هـ ، (١١٧٣ و ١١٧٤ م) أرسل أبو يوسف بقيادة أكبر القادة عدة حملات إلى ضفاف التاجة ، فعاث فى أراضى قشتالة أشد عيث . وفى الوقت الذى كان فيه آل كاسترو وآل لارا يخوضان معاً معركة على ضفاف دويرة ، ويستنفدان بذلك قوى البلاد فى سبيل خصومتها ، كانت حدود قشتالة الجنوبية تستهدف للضياع ؛ وكان فرسان قلعة رباح ، الذين سما شأنهم فى ذلك الحين ، يجاهدون لحفظ المملكة من السقوط ، بيد أنهم لم يكونوا من القوة بحيث يستطيعون رد الموحدين عن غزواتهم الخربة ، بالرغم من احتفاظهم بالقلع التى يدافعون عنها . والروايات العربية عن هاتين النزوتين غامضة ، ولا تتفق مع الروايات النصرانية ؛ فهى تقول فى شأن الغزوة الأولى إن الموحدين أحرزوا نصراً باهراً على الأمير سانشو أبى برذعة ، الذى كان يمتطى صهوة بفل عليه برذعة محلاة بالذهب والأحجار الكريمة ، وإنه لم ينج من جيش

(١) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ ، والاستقصاء ج ١ ص ١٦١ ؛ وتسمى القنطرة هنا « قصر » وربما كان هذا تحريفاً فى الاسم .

النصارى — البالغ ثلاثين ألف مقاتل — أحد تقريباً ، وكان الأمير سانشو نفسه من القتلى^(١). أما الروايات النصرانية فلا تحدثنا بشيء عن هذه الغزوة ، كما أنها لا تحدثنا عن الغزوة الثانية التي حاصر الموحدون فيها طركونة ؛ هذا في حين أن ألفونسو ملك أراجون كان عندئذ يفزو ولاية بلنسية ، وقد وضع حامية كبيرة في حصن ترويل (سنة ١١٧٢ م) ومهد الطريق بذلك للزحف على الأراضي الواقعة جنوبى أراجون . أما في البرتغال فقد وصل الأمير سانشو في زحفه إلى لبله ، ونشبت أمام باجة بينه وبين الموحدين الذين كانوا يحاصرونها ، موقعة انتصر فيها عليهم وأرغمهم بذلك على رفع الحصار .

ولم يقتصر أبو يعقوب يوسف أثناء مقامه في اسبانيا على شهر الحرب وأعمال العنف ، ولكنه أراد أن يخلد ذكرى هذه الزيارة باقامة منشآت عظيمة يذكرها الحلف ؛ فأنشأ في إشبيلية التي كان يقضى فيها معظم الوقت ، مسجداً فخماً ، بى في أفصر وقت ، وأنفقت عليه أموال عظيمة ، وأنشأ على النهر الكبير (الوادي الكبير) قنطرة من السفن ثبتت معاً بالسلاسل ، وأقيمت على ضفتى النهر مخازن كبيرة للبضائع ، ومراسى يصلها الدرج بالنهر ؛ وأمر أيضاً بتجديد قسم من أسوار إشبيلية ، وزودت المدينة بالماء النقي بواسطة مواسير أنشئت لذلك .

ثم غادر أبو يعقوب يوسف اسبانيا وعاد إلى مراكش في سنة ٥٧١ هـ (١١٧٠ م) ؛ ولكن الحرب ضد النصارى الأسبان استمرت على شدتها ، وذلك بالرغم من أن قوى الموحدين لم تكن من الكثرة كما كانت وقت مقامه بالأندلس . وفي العام التالى (١١٧٧ م) نشبت بين الموحدين والقشتاليين بجوار قونقة — في مكان وعمر بالجبال — موقعة شديدة ، واضطر فيها الموحدون إلى الانسحاب حينما هرع ألفونسو الثانى ملك أراجون ، والأمير بيدرو رويدي أراجرا إلى معاونة القشتاليين ؛ وربما كان هذا هو السبب في أن الروايات العربية لم تذكر شيئاً عن

(١) هذه رواية ابن أبى زرع في روض القرطاس (ص ١٣٩) ، وقد سمي فيها قائد النصارى في هذه الموقعة « سانشو المعروف بأبى بردعة » ، والظاهر أن المقصود هنا هو أحد أمراء قشتالة ، وليس ملكها ، وقد كان ملك قشتالة يومئذ هو ألفونسو الثالث .

هذه الموقعة ، التي تعتبرها الرواية النصرانية من أهم المواقع ؛ وقد سقطت على أثرها قونقة في يد النصارى .

واستمرت هذه الحال إلى سنة ١١٨٣ م ؛ وكان الموحدون يقومون في كل عام تقريباً بالغزو في أراضي النصارى ، ويقوم ملوك قشتالة والبرتغال وليون وأراجون من جهة أخرى بغزو اسبانيا الجنوبية (الأندلس) ، ويتراوح النصر سجالاً بين الفريقين في هذه المعركة الدموية ، دون أن تسفر عن نتائج حاسمة ، أو حوادث ذات شأن ؛ ثم اتخذت الحرب وجهة أخرى ، وامتدت إلى مناطق لم تكن إلى ذلك الحين ضمن ساحات القتال . ذلك أن الموحدين ، وكذلك البرتغال وقطالونية وهما الدولتان البحريتان ، جهزوا الأساطيل ، ونشبت بين الفريقين عدة معارك بحرية في مياه الجزائر الشرقية ، وعند مصب نهر التاجه ، وأمام شواطئ الغرب ؛ بيد أنها مثل المعارك البرية لم تسفر عن أية نتائج أو فتوح ذات شأن .

ولما رأى أبو يعقوب يوسف ضآلة النتائج التي أحرزتها قواته في حروبه ضد النصارى ، استعمل بنفسه للغزو ثانية ، وذلك بعد أن أتم تهديده المغرب ، واستراحت الأمم المغربية من عصف الوباء الذي نزل بها ، وهلك فيه جموع كبيرة ، من بينها عدد من إخوة الخليفة وأقاربه . وسار أبو يعقوب يوسف إلى سبتة في أوائل سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) ، ولبت هنالك حتى اجتمعت لديه جيوش المغرب من زناتة ومصمودة ومغراوة وصنهاجة وغيرها من القبائل البربرية ؛ وتبع هذه الجيوش غير النظامية ، جيش الموحدين النظامي ، وهو حسن الدربة والتسليح ، وبعد أن عبرت هذه الجيوش إلى اسبانيا ، عبر أبو يعقوب يوسف في حرسه وحاشيته ووزرائه ، ونزل بجبل طارق (أو جبل الفتاح) في شهر صفر من العام المذكور ، وسار إلى إشبيلية ، ليخرج منها توا إلى شهر الجهاد على النصارى .

وكانت البرتغال من بين الممالك النصرانية أشدها وطأة في غزو أراضي الموحدين ؛ ولذا اعتزم أبو يعقوب يوسف ، أن يسحق أخطار أعدائه بتفوق قواته

بادى ذى بدء ، حتى إذا عم الرعب من جراء انتصاره استطاع أن يخضع المالك الأخرى بسهولة .

وكانت خطة زعيم الموحدين تقضى أولاً بمهاجمة مملكة البرتغال من البر والبحر ، حتى ضفاف نهر دويرة ؛ ثم الزحف من على ضفاف التاجه ودويرة إلى قلب مملكتى قشتالة وليون ؛ بينما تشغل قوات النصارى جيوش إسلامية أخرى تزحف من الجنوب . وقد حشد لهذه الغاية قوات عظيمة ، واجتمعت إليه فضلاً عن الجيوش المغربية الحرارة ، قوى مسلمى الأندلس ، وحشد أولاده السيد أبو إسحاق وإلى إشبيلية ، والسيد عبد الله أبو يحيى وإلى قرطبة ، والسيد أبو سعيد عبد الرحمن وإلى غرناطة ، والسيد أبو عبد الله وإلى بلنسية ومرسية ، مالدسهم من القوى ، بعد أن تركوا حاميات فى مدنتهم ، وضمت إلى جيش أبيهم فى إشبيلية . وفى بعض الروايات النصرانية أن هذه الجيوش المجتمعة كانت تفوق فى الكثرة أى جيش آخر ، قاده ملوك إفريقية إلى اسبانيا ، وأن أبا يوسف حينما استعرض توارىخ الملوك السابقين ، وجد جيشه يزيد بمقدار ثمانية وسبعين ألف مقاتل ، عن أعظم جيش قاده المسلمون من إفريقية إلى الأندلس منذ عهد طارق بن زياد . وكذلك اجتمع للمسلمين أسطول عظيم من سفن القتال وسفن النقل ، مشحونة بالسلاح وآلات الحصار والمؤن ، عند مصبى نهري الوادى الكبير ووادى يانة ، على أهبة لأن يؤيد من البحر جهود الجيش البرى ضد البرتغال .

وبادر أبو يوسف يعقوب بالخروج من إشبيلية ، لىكى لا يترك للنصارى وقتاً للتسلح ، وإصلاح القلاع ، وتزويدها بحاميات كبيرة ومقادير احتياطية من المؤن ، والنزول إلى ميدان الحرب بجيش حسن الأهبة ؛ وسار على رأس الجيش الرئيسى متجهاً إلى بطليوس ، معتمداً محاصرة أشبونة . بيد أن كان عليه قبل أن يتمكن من محاصرتها بنجاح أن يستولى على قلعة شنترين الواقعة على مقربة منها على ضفة نهر التاجه اليسرى . وعلى ذلك فما كاد يمرر التاجه بجيشه حتى ضرب الحصار حول شنترين ، مؤملاً أن تسقط فى يده قبل مقدم الأسطول الذى خصص لمحاصرة

أشبونة من جهة البحر ؛ ولما كان قد اجتمع لديه سبعة وثلاثون من الولاة في قواتهم ، وكان ضرب المدينة بآلات الحصار متواصلا بالنهار والليل ، فإن الحامية التي لم تستكمل عدتها لم تقو على المقاومة إزاء هذا السيل الجارف ؛ فلم تمض ثلاثة أيام على مهاجمة المدينة ، أو أربعة عشر يوما على حصارها حتى استولى أبو يعقوب عليها خلا قلعها ، التي استمرت حاميتها البرتغالية تدافع عنها بمنتهى البسالة ، وذلك في ٢٢ ربيع الأول سنة ٨٥٨٠ (يوليه سنة ١١٨٤) . وقد كان أبو يعقوب يتولى القيادة بنفسه ، ممتبرا القادة الذين معه آلات صماء لتنفيذ مشيئته ، وكان ذلك مما يثير في نفوس أولئك القادة المجردين حرارة شديدة ؛ وكانوا قد اعترضوا من قبل في مجلس الحرب ، على تحويل المعسكر من شرق شنترين إلى شمالها وغربها ، حيث يتعرض الجيش بذلك إلى خطر التطويق من جانب الأعداء . ولكن إرادة أبي يعقوب هي التي نفذت دون سواها .

ولما دخل الليل أسر أبو يعقوب ولده أبا إسحاق وإلى إشبيلية ، أن يبكر في صباح اليوم التالي بالسير في قوات الأندلس ، والقيام بالهجوم في اتجاه أشبونة ، وذلك لكي يحمي الهجوم على قلعة شنترين من التعرض للمفاجأة من هذه الناحية . فهل وقع سوء فهم أم كانت نمة فتنة ؟ ذلك أن أبا إسحاق ، سار في الليل بدلا من أن يسير في الصباح ، وبدلا من أن يسير في اتجاه أشبونة عاد فعب نهر التاجه ، وسار بقوات الأندلس في اتجاه إشبيلية . وما كاد هذا النبأ يذاع بين بقية الجيش ، حتى انتشر الاضطراب والروع في جميع المعسكر الإسلامي ، ونفاقم الأمر ، حينما زحف سانشو ابن ملك البرتغال ، على شنترين ليلا في جيش يبلغ خمسة عشر ألف مقاتل . وفي تلك الأثناء كان أبو يعقوب يوسف قد شرع في تنفيذ خطته لمهاجمة مدينة الكوبازة ، وأمر بذبج جميع الأسرى النصراني الذين كانوا في معسكره وعددهم عشرة آلاف ، لكي لا تموقه حراستهم . بيد أنه حينما تحول بمعسكره إلى المواقع الجديدة ، ألقي نفسه أمام الجيش البرتغالي وجها لوجه .

وكان تغيير مواقع المعسكر الذي أمر به أبو يعقوب وحده ، خلافا لنصح

قواده ، ووجود الجيش البرتغالي في مركز يهدد المسلمين ، ومسير القوات الأندلسية وغيرها إلى ما وراء نهر التاجه ، وهو ما بدا كأنه حركة انشقاق ، وأخيراً ذبوع نبأ ما لبث أن تأيد بمقدم جيش آخر من النصارى أعظم من سابقه ؛ كل هذه الأمور بثت في معسكر الموحيدين نوعاً من الرعب العام ، ترتب عليه أن غدت أوامر الخليفة لا قيمة لها . وفي صباح اليوم التالي وصل جيش من النصارى يبلغ عشرين ألف مقاتل بقيادة أسقف شنت ياقب ، وانضم إلى الجيش البرتغالي الذي يقوده ولي العهد سانشو ؛ وبادر النصارى بمهاجمة الموحيدين وهم في اضطرابهم واختلال نظامهم ، وعاونت حامية قلعة شنترين مواطنيها بالخروج من القلعة ومهاجمة المسلمين .

ولما كان قسم كبير من قوى الموحيدين ، قد عبر نهر التاجه ، فإنه لم يبق لدى أبي يعقوب سوى حرسه وقليل من القوات الأخرى ، وقوافل الغنم والمتاع ، التي لم تستطع لحاقاً بباقي الصفوف لسرعتها ؛ ورأى زعيم الموحيدين ، وهو يضطرم سخطاً ، أنه وقع ضحية الخيانة ، وأسلم إلى الأعداء ؛ ولكنه لم يرد أن يركن إلى الفرار شأن الجبان . وهكذا نشبت الموقعة وهجم النصارى على معسكر الموحيدين وهم يصيحون « إلههم ، إلههم ! إلهه ، أين هو ؟ »^(١) ، ثم نفذوا إلى خيام الحرس ، وقتلوا رجاله جميعاً ، ووثبوا إلى خيمة الأمير ، وضربوا كل ما حوت من الستور والبسط والفراش ، وقتلوا بعضاً من جواريه أشنع قتل ، أما أبو يعقوب فقد وثب إلى فرسه ، وأسقط منه ثلاث مررات ، وهو يقاتل بسيفه ستة من الفرسان النصارى ، وأخيراً طعنه أحدهم بسيفه طعنة نافذة فسقط إلى الأرض مضرجاً بدمائه .

وفي تلك الأثناء استطاع عدة من الفارين من حرس الموحيدين ، أن يتصلوا بالجيش المنسحب تحت إمرة أبي إسحاق ، وأن يبلغوه نبأ الموقعة وما أحاق بالأمير من خطر ؛ فارتد من فوره ليسى إلى إنقاذ الأمير إن كان ثمة وقت ؛ وما كاد يعبر

(١) ورد في روض القرطاس أن النصارى حينما هاجوا معسكر الموحيدين كانوا يصيحون « الرى ، الرى » أى اقمعدوا السلطان . (ص ١٤١) والرى هى بالأسبانية Rey أى الملك .

التاجه بمجنوده مرة أخرى حتى نشبت بين المسلمين والنصارى معركة أخرى ،
سالت فيها دماء الفريقين غزيرة ، وقاتل كل منهما بمنتهى البسالة .

ويوجد ما يحمل على الشك فيما تقوله الرواية العربية من أن المسلمين
استولوا خلال هذه المعركة عنوة على شنترين ؛ بيد أنها تضيف إلى ذلك أن المسلمين
أصيبوا بخسائر فادحة (والرواية النصرانية تقدر قتلى المسلمين بثلاثين ألفاً) ، وأنهم
ارتدوا في الحال إلى نهر التاجه ، وعبروه إلى الضفة اليسرى من قنطرة كانوا
يحرصون عليها ، وانصرفوا إلى إشبيلية ، وتركوا معسكرهم غنيمة للنصارى بكل ما فيه
من الذخائر والنفائس من كل ضرب ، كذلك بادر الأسطول الإسلامي ، الذي
وصل إلى أشبونة مشحوناً بآلات الحصار والتخريب ، إلى الفرار حينما علم بنباء
الهزيمة التي حلت بأبي يعقوب أمام شنترين^(١) .

أما مصير أبي يعقوب ، فيحقيق به غموض ، يصعب استجلاؤه إزاء مختلف
الروايات المتناقضة ، إذ أن مثل هذا الحادث بطبيعته ، مما يحمل في البداية على
إذاعة الأنباء الكاذبة لإخفاء موت الأمير ؛ وعلى ذلك فإنه ليس من المحقق ما إذا
كان قد أسلم الروح في الموقعة ، أو غرق في النهر حين عبور الجيش الفار ، أو أنه
توفي متأثراً بجراحه حين عودته إلى إشبيلية أو وصوله إلى الجزيرة الخضراء ،

(١) تورد الرواية العربية تفصيلاً آخر لحوادث هذه الغزوة ، فتقول إن أبا يوسف
يعقوب حاصر مدينة شنترين في البداية وضيق عليها ، ثم أمر بنقل معسكره من موضع نزوله
بجوف شنترين إلى غربيها ، فأسكر المسلمون ذلك ، ولم يعلموا له سبباً ، وأنه في المساء أمر
ولده السيد أبا إسحق ، أن يسير من تلك الليلة إلى غزو أشبونة في جيوش الأندلس ، وأن
يكون رحيله نهاراً ، فأساء الفهم وظن أنه أمره بالرحيل في جوف الليل إلى إشبيلية . ثم
تقول الرواية العربية : « إن الشيطان صرخ في محلة المسلمين أن أمير المؤمنين قد عزم على
الرحيل ... » وتحدث الناس بذلك ورحل منهم طائفة بالليل ، ثم تابع الناس في الرحيل ،
وأمير المؤمنين لا علم له بذلك ؛ وأن النصارى المدافعين عن شنترين لاحظوا عند طلوع النهار
خلو المعسكر الإسلامي ، وتحققوا ذلك من جواسيسهم ، فهاجوه وضربوا في محلة الحرس حتى
وصلوا إلى خباء أمير المؤمنين ، وطمعنه أحدهم ، بعد أن قتل منهم ستة رجال . ثم تضيف الرواية
العربية إلى ذلك أن المسلمين عادوا فقاتلوا النصارى وهزموهم ودخلوا شنترين (راجع روض
القرطاس ص ١٤٠ و ١٤١ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤١ ، والمرآة الكمى ص ١٤٥ و ١٤٦
وابن الأثير ج ١١ ص ١٩٠) .

أو وصوله إلى مراکش . وكانت وفاته في ١٢ ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ (٢٤ يولييه سنة ١١٨٤) . بيد أن الظاهر أنه لم يعيش بعد الهزيمة^(١) .

وحكم أبو يعقوب يوسف مملكة الموحيدين الشاسعة بقوة وكفاية مدى اثنين وعشرين عاما . وكانت أكبر أخطائه ، رغبته في أن يتولى جميع الأمور بنفسه ، وأنه بالرغم من فتوته قلما كان يحفل بنصح الشيوخ الناضجين ، أو يستمع إلى أحد في العدول عن أمر تقرر . وقد ترتب على ذلك ، وعلى ما أوقفه من العقوبات الصارمة على الكبراء الذين ظلموا الشعب ، أن كثرت أعداؤه بين شيوخ القبائل ورجال البلاط ، وربما كان ذلك من أسباب مصرعه أمام شنترين ؛ وكان أول ملك من ملوك الموحيدين قاد الجيش بنفسه ضد النصاري في إسبانيا ؛ وكان إلى جانب عظيم شجاعته وفروسته ، رقيق المشاعر ، فياض الجود في كل مناسبة ؛ وكان وسيم الطلعة ، رقيق الحيا ، أبيض اللون مشرباً بحمرة ، جميل العينين ، ألقى الأثف ، جمده الشعر ، حسن القد ، وافر الهيبة والجلال^(٢) .

٤ — يعقوب بن يوسف وموقعة الأرك

وخلف أبا يعقوب يوسف في الحكم ولده عبد الله يعقوب بن يوسف وتلقب بالمنصور بفضل الله ؛ ولسنا نعرف إن كان قد ارتقى العرش لأنه كان أكبر إخوته ، أو لأن أباه اختاره لولاية عهده . ذلك لأن وراثته العرش لم تنظم وفقاً لقانون معين . وكان الأمير يختار ولي عهده وفق مشيئته ؛ وكان يعقوب المنصور ممن شهدوا موقعة شنترين ، فتولى قيادة الجيش مذ جرح أبوه ، وأخفى موته حتى عاد إلى المغرب ، وتمت بيعته في مراکش في الثاني من جمادى الأولى سنة ٥٨٠ هـ (سبتمبر سنة ١١٨٤) .

(١) يضع صاحب روض القرطاس وفاة ابن يعقوب يوسف في الثاني من ربيع الآخر سنة ٥٨٠ هـ ، ويقول إنه توفي من جراحه في الجزيرة الخضراء (ص ١٤١) ، ويقول ابن الأمير إنه توفي من مرض أصابه تحت أسوار شنترين ، وحمل منها ميتاً إلى لإشبيلية (ج ١٩ ص ١٩٠) ، ويتردد ابن خلدون بين الروايتين فيقول إنه توفي من مرض نزل به ، أو من سهم أصابه في حومة القتال (ج ٦ ص ٢٤١) ، وفي الحلل الوشية أن وفاته كانت بنهر تاجه في قفوله من غزاة شنترين على ظهر دابته (ص ١٢٠) .

وعمل يعقوب في بداية حكمه على اكتساب محبة الشعب ، بإخراج مقادير كبيرة من أموال الدولة وتوزيعها على الفقراء ، وبعث أوامره إلى الولايات بإطلاق المسجونين الذين اعتقلوا لذنوب ثانوية ، وتمويض الذين ظلموا أيام أبيه ، كما أمر بإسقاط المكوس التي لم يتم أدائها . ورفع مرتبات القضاة والفقهاء في جميع أنحاء المملكة ، وزاد أجور الجند في جيش الموحدین النظامی ، وحسن الحدود في جميع الأماكن التي يخشى عليها ، وشحن القلاع بطوائف مختارة من الجند ، وطاف بجميع أنحاء المغرب ليتحقق بنفسه من تنفيذ أوامره ، وليعرف ماذا يجب إجراؤه من الأعمال الضرورية ؛ ونفذ عدة مشاريع خيرية ، فأنشأ كثيراً من المساجد والمدارس ، وأنشأ البیارات (المستشفيات) المرضى ، ورصد لها أموالاً للنفقة ، وفتحها أيضاً لإيواء المعجزة والمعمرين ، فأنشأ في الطرق الرئيسية وطرق القوافل أبراجاً ، وأحواضاً لحزن الماء ، وآباراً للاستسقاء ، وفنادق لنزول المسافرين . كذلك كان المنصور صديقاً ونصيراً للعلماء ، وقد أنشأ لهم المعاهد ، وقسمهم إلى طبقات ورتب معينة ، وأجرى عليهم الأرزاق كل وفق رتبته ؛ وكان يؤثر بالأخص الأطباء والمشرفين على المستشفيات (١) .

وما كاد يعقوب المنصور يعتلي العرش ، حتى قامت عدة ثورات عنيفة ، كما يحدث غالباً عند تغيير الحكم في الأمم الإسلامية . ذلك أن المرابطين الذين ألفوا ملازمهم الأخير في الجزائر الشرقية (البليار) ، واستطاعوا أن يحتفظوا بها هادئين في عهد محمد بن سعد أمير بالنسية ، ومن بعده في عهد أبي يعقوب يوسف ، تحرروا فجأة ، حينما علموا بهزيمة الموحدین في شنترين ، ووثب على بن إسحاق سليل القائد المرابطي الشهير بابن غانية ، فاستولى — بمعاونة أنصاره الكثيرين — على الأسطول الأندلسي الراسي في ميورقة ، وشحنه بالمرابطين وأهل الجزائر الشرقية ، وأبحر إلى بجاية من ثغور الجزائر ، فاستولى عليها دون مقاومة ، وأخرج منها

واليها القاضي سليمان بن عبد الله حفيد أمير المؤمنين ، وأمر أن يدعى في الخطبة للخليفة العباسي الناصر لدين الله ، واستطاع أن يضرع نار الثورة ضد الموحدين في جميع المناطق المجاورة^(١) .

وشجع نجاح هذا المشروع بعض الزعماء الناقمين على الثورة ضد سلطان الموحدين ؛ بل إن أخوين من إخوة المنصور هما السيد أبو يحيى والسيد عمر ، وعمر السيد أبو الربيع ، كانوا فيما يبدو على تفاهم مع الثوار ؛ ولكن المنصور وقف على أمرهم ، قبل أن يستطيعوا نديير الخطط معهم ، وأمر بالقبض عليهم وإعدامهم ؛ واستمر المنصور بجاهد حتى سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م) ، حتى استطاع أن يقضى على الثورة بالقوة القاهرة ، وأن يرد جموع الثائرين إلى الطاعة ، والمرابطون من بينهم ؛ وكان هؤلاء قد قويت شوكتهم بما يتلقونه من سلاطين مصر من إمداد الجند ، وكانوا قد أحرزوا النصر مرارا ، واستطاعوا الاستيلاء على فاس عاصمة مراکش الثانية ، وسقطت في أيديهم طرابلس ، وهي ثغر بحرى هام . ولكن المنصور هزم الثوار في فاس في معركة كبيرة ، واسترد المدينة ، وقتل أهلها عقابا لهم على انضمامهم إلى المرابطين ، وأخذ الثورة في الولايات بمثل هذا الإرهاب والعنف^(٢) .

وما كاد يعقوب المنصور يعيد السكينة إلى المغرب ، حتى فكر في أمر الجهاد ضد النصارى في اسبانيا ؛ وكان النصارى قد قاموا في تلك الأثناء بمدة غزوات في الأندلس ، أحرزوا فيها النصر تارة ، وأصيبوا بالهزيمة تارة أخرى . وعبر المنصور إلى الأندلس في ربيع الأول سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) ، وتقول الرواية العربية إنه سار بجيشه توا إلى شنترين وأشبونة ، لكي ينتقم لهزيمة والده ومقتله ، وإنه عاث أمناء سيره في الروج ، وأحرق القرى ، ونهب الضياع ، وقتل السكان أو سبهم ، وذهب في الميث والتخريب إلى أروع الحدود ، حسبما يقول المؤرخون المسلمون

(١) راجع تفاصيل غزوات ابن غانية لثغور إفريقية في ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ،

وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ .

(٢) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ .

أنفسهم^(١). بيد أن المنصور ، لم يقم — بالرغم من هذا التخريب — بأية فتوح ، ولكنه خرج من هذه الغزوة بغنائم عظيمة ، وثلاثة عشر ألفاً من السبي بين نساء وأطفال ؛ واضطر أن يعجل بالعود ، إذ وقعت في المغرب اضطرابات جديدة تقتضى سرعة العود ؛ وهكذا عاد إلى فاس في شهر رجب من نفس العام (٥٨٥ هـ) .

وقامت عندئذ في إفريقية الشرقية (تونس) ثورة عمدة المنصور إلى إخمادها ، ورحل من أجل ذلك في جيشه إلى تونس ؛ فانهز البرتغاليون فرصة غيبته ليقوموا بفتوح في جنوبي البرتغال وفي ولاية الغرب .

وحدث في ذلك الحين بالذات أن قدم أسطول من ستين سفينة تحمل جيشاً من الصليبيين قوامه عشرة آلاف مقاتل ، من ولايات الرين الألمانية ، واللووين وفريزلاند ، إلى شواطئ جليقية ، في طريقهم إلى المشرق ، ورسا على مقربة من شنت ياقب ، ونزل كثيرون ليقوموا بزيارة قبر هذا القديس في كومبستل . ولكن أهل كومبستل توجسوا شراً مما شاع حول هؤلاء الأجانب ، وكونهم قدموا لاغتصاب رأس القديس ياقب ، وربما أيضاً لنهب الدخائر التي كدست في قبره ، فتقلدوا أسلحتهم ، وحالوا بالقوة دون دخول الصليبيين إلى المدينة ، فوقعت بين الفريقين معركة سال فيها الدم من الجانبين ، وعاد الصليبيون على أثر ذلك إلى سفنهم .

وفي نفس هذا الوقت أيضاً قدم أسطول آخر من الصليبيين من إنكلترا والفلاندر ، ورسا قبالة اشبونة ؛ ولما كان الوقت متأخراً وقد دنا الشتاء ، فقد استطاع سانشو ملك البرتغال ، أن يحملهم على الاشتراك معه في القيام بغزوة مشتركة ضد المسلمين في ولاية الغرب . والظاهر أن الصليبيين الذين رسوا عند شاطئ جليقية ، قدموا أيضاً إلى البرتغال وانضموا إلى الجيش البرتغالي ، وأمدم الملك سانشو بثلاثين سفينة أخرى ضمت إلى أسطولهم ، وهكذا أعد أسطول ضخم ؛ وبينما أرسل سانشو إلى باجه ويا بره اللتين فقدتهما في الأعوام الأخيرة ،

(١) هذه رواية ابن أبي زرع في روض القرطاس (ص ١٤٤) .

والمثتين لم تكن تهرسهما حاميات قوية ، جيشاً غزاهما واستولى عليهما ، إذ سار الأسطول إلى الجنوب قبالة لسان ولاية الغرب ، وأنزل جيشاً إلى البر على غرة من المسلمين ؛ وحاصر النصارى في الحال مدينة شلب ، وقطعوا عنها موارد الماء ، فاضطرت إلى التسليم ، وعقدت مع الملك سانشو دون علم الصليبيين عهداً بالخضوع ، بيد أن ذلك لم ينجها من مصيرها المروع ؛ ذلك أنه لم ينج من سكانها الستين ألفاً بينهم الحامية ، سوى ثلاثة عشر ألفاً ، وسبى الباقي أو قتلوا . وقسمت الغنائم وفقاً لاتفاق سابق بين الصليبيين ، ولكن المدينة ، كانت من نصيب الملك . واستقر كثير من الإنكليز في شلب ، واختاروا قساً من قسس الأسطول ، من أهل فلاندر ، يدعى نقولاوس ، أسقفاً للمدينة ، على أنه كان من الصعب على هؤلاء النزلاء الأجانب أن يأنفوا الحياة بين السكان المسلمين ، مثل النصارى البرتغاليين والأسبان ؛ وقد ظهر ذلك في كل مناسبة ، مثال ذلك أنهم حين وصلهم إلى مصب نهر التاجه ، حيث يقيم في أشبونة كثير من اليهود والمسلمين ، تحت حماية النصارى ، ارتكبوا كثيراً من أعمال العنف والتعدي ضد اليهود والمسلمين .

ويبدو من المشكوك فيه ما إذا كانت شلب قد لبثت طويلاً في أيدي النصارى ؛ وتلزم معظم الروايات النصرانية الصمت إزاء استردادها السريع بواسطة الموحدين ، بل تزيد على ذلك أن المدينة استطاعت أن ترد جميع هجمات المسلمين بنجاح ، بواسطة شجاعة حاميتها ، والأمداد السريعة التي لقيتها من الملكين المتحالفين ، ملكا البرتغال وليون ، وكذلك بواسطة معاونة الأسطول الإنكليزي . أما المؤرخون المسلمون ، ومعههم رديك الطليطلى ، فيقدمون رواية أخرى مفادها أن الموحدين جمعوا في الحال قوات عظيمة ، وساروا بقيادة محمد والى قرطبة إلى شلب ، وفرضوا عليها الحصار الصارم ، ولبثوا على مهاجمتها بشدة بالليل والنهار حتى استولوا عليها ؛ وكذلك سقطت في أيديهم القصر (قصر أبي دانس) ، وباجه وباره ، وسبوا ثلاثة عشر ألف رجل ، وخمس عشرة ألف امرأة ، وضعوا في الأغلال كل خمسين في سلسلة ، وسبقوا إلى

قرطبة ، وكانت اختتام هذه الفزوة في شهر شوال سنة ٥٨٧ هـ (نوفمبر سنة ١١٩١) ^(١) .

وهذأت الحرب في الأندلس بضعة أعوام . ذلك أن سلطان الموحدين كان عليه أن يخمد ثورات جديدة في إفريقية ، وقد أصابه المرض في مراکش ، ولم يستطع أن يتولى أمر الحرب بنفسه . ووقع الخلاف بين الملوك الأسبان في تلك الفترة ، فلم يكن من اليسور أن يفكر أحد في القيام بفزوة مشتركة ضد المسلمين ، وشغلت البرتغال وليون بأمر قرار الحرمان البابوى ، كما شغلت أراجون وناقارا بالخلاف مع جيرانهما في فرنسا ؛ وهكذا وقع عبء الحرب ضد المسلمين كله على عاتق قشتالة . ولكن الملك ألفونسو كان هندئذ أحرص من أن يثير المسلمين فيغريهم بالسير إلى الفزوة . بيد أنه لما عين مارتى دى بسيرجا ، مطراناً لطليطلة عقب وفاة المطران جونزالو ، أخذ هذا الجبر المحارب المتحمس ، يعمل لاعداد حملة كبيرة ضد الأندلس . وفي العام التالى من ولايته ، سار على رأس جيش ضخم إلى ميدان الحرب مرة أخرى . وشجعه ضعف الحاميات الاسلامية على الحدود ، ونبا مرض يعقوب المنصور ، فاخترق جبال الشارات (سييرا مورينا) ، وسار بجذء نهر الوادى الكبير إلى أعماق الأندلس ؛ ودمر النصارى كل شىء بالنار والسيوف ، فانفسدت الفلات والكروم ، وقطعت أشجار الزيتون ، وخربت الضياع والقرى ، وسيقت المناشية ، وسبى المسلمون العزل رجالا ونساء ، وقتل المسلحون منهم ؛ وهكذا كفر مسلمو الأندلس الأبرياء عن فظائع الموحدين ، ولم يسمفهم عون ولا نصح يردون به المدو عن هذه العمال العنيفة . وزحفت قوى خفيفة من الفرسان النصارى حتى أحواز إشبيلية وإستجه ، وإلى أقصى جنوب الأندلس وهم يتابعون الميث والتخريب ^(٢) .

(١) راجع روض القرطاس ص ١٤٤ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، وابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٤ و ٢٤٥ والمراكشى ص ١٥٨ .
(٢) روض القرطاس ص ١٤٥ .

ولم يقنع ألفونسو الثالث ملك قشتالة بهذه الغزوة ، التي حمل منها المطران مارتن إلى طليطلة غنائم عظيمة ، فكتب إلى سلطان الموحدين خطاباً يدعوهم إلى القتال هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من ملك النصرانية إلى أمير الحنفية ، أما بعد ، فإن كنت عجزت عن الحركة إلينا ، وتناقلت عن الوصول والوفود علينا ، فوجه لي المراكب والشباطى أجوز فيها جيوشى إليك ، حتى أقاتلك في أعز البلاد عليك ، فإن هزمتنى فهدية جاءتك إلى يدك ، فتكون ملك الدينين ، وإن كان الظهور لي كنت ملك اللتين ، والسلام »^(١) .

فلما قرأ بمقرب المنصور هذا الخطاب أخذته غيرة الإسلام ، واشتد حنقه لنطرسة ملك النصارى ، فبادر بالتأهب للحرب في الأندلس ؛ وأمر أن يذاع الخطاب في جنود الموحدين ليثير غيرتهم ؛ وضح الجميع وصاحوا بطلب الانتقام ، وأجمعوا على المطالبة بالإسراع في شهر الجهاد ؛ وأمر المنصور ولده ، وولى عهده السيد محمد ، بالرد على الخطاب ، فكتب في الحال على ظهره الآية القرآنية الآتية : « قال الله العظيم ، ارجع إليهم فلنأتينهم بجنود لا قبل لهم بها ، ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون » . ووقع المنصور هذا الرد وأرسله إلى ملك النصارى ، وأمر باخراج أفران القبة الحمراء ، وسيفه الكبير ، ليذانا بالدعوة العامة إلى الجهاد ؛ وأمر الجند الذين اجتمعوا من كل صوب بالسير توأ إلى سبتة ، وإلى غيرها من أمكنة العبور إلى الأندلس . ودوت ضيحة الجهاد في جميع أنحاء المغرب من سلا حتى برقة ، ضد النصارى الذين غدوا خطراً على الإسلام . وفي نفس الوقت الذى سارت فيه سائر جند الغرب النصراني إلى محاربة صلاح الدين واسترداد بيت المقدس ، هرع الرجال والشباب والشيوخ وسكان الهضاب والصحارى والشواطىء

(١) هذا نص كتاب ملك النصارى كما ورد في روض القرطاس (ص ١٤٥) ويورده المؤلف بنفس المعنى تقريباً مع خلاف يسير في العبارة . ولكن ابن خلكان ينقل إلينا نصاً آخر أكثر تفصيلاً لكتاب ألفونسو إلى المنصور ، يتفق آخره فقط مع النص الذى ورد في روض القرطاس ، غير أنه يبدو من دياجة هذا الكتاب ومحتوياته أنه هو الذى وجهه ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى يوسف بن تاشفين (راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٤٢٩ ، ٤٣٠) .

في جميع أنحاء المغرب إلى ألوية القتال لافتتاح اسبانيا ؛ وأخذ الخطر الداهم يندور الغرب ، في الوقت الذي حاول النصارى فيه أن يرفعوا الصليب في المشرق .
وبعد أن سير يعقوب المنصور جميع قواته إلى اسبانيا ، عبر إلى الجزيرة الخضراء في ٢٠ رجب سنة ٥٩١ هـ ، ولم يسترح بها إلا قليلا ، ثم بادر بالسير إلى قشتالة ، خشية من نفاذ المؤن ، ولكي يستغل حماسة جنده وطمعهم إلى القتال . وكانت خطة زعيم الموحدين ترى أولا إلى اختراق قلب اسبانيا واقتحام طليطلة ، ومتى ظفر ببنيته استطاع أن يحارب الممالك الأخرى بسرعة وسهولة . ولكنه لما علم بأن ملك قشتالة ، قد حشد قواه بين قرطبة وقلمة رباح على مقربة من قلعة الارك Alarcos أنجه بجيشه إلى ذلك المكان ، إذ كان يسمى إلى الاشتباك بهدوء . ولما وصل إلى قيد مسيرة يومين منه ، ضرب معسكره في يوم الخميس الثالث من شعبان سنة ٥٩١ هـ (يولييه سنة ١١٩٥ م) ، وعقد مجلسا من القادة والأشياخ لبحث الخطط التي يجب اتباعها لخوض القتال .

ولما سمع رأى الجميع ، التفت إلى زعماء الأندلس ، وطلب رأى أبي عبد الله ابن صناديد ، وقد كان من أعظمهم وأخبرهم بمكائد الحروب . وكان يعقوب المنصور يفضل آراء الأندلسيين في معرفة أفضل الخطط لمحاربة النصارى ، إذ أنهم يخوضون الحرب مع جيرانهم بلا انقطاع ، وهم لذلك أعرف الناس بطرق النصارى ومكائدهم ؛ وكان من رأى ابن صناديد أنه يجب أن توضع خطة موحدة منظمة لتسيير دفعة الحرب ، إذ كان هذا التوحيد والنظام ينقصان الموحدين في حروبهم السابقة ، ولا سيما في موقعة شنترين ، وأنه يجب أن يختار أمير المؤمنين قائدا عاما للجيش كله ؛ فوقع اختيار المنصور على كبير وزرائه ، الزعيم الأشهر أبي يحيى بن أبي حفص ، الذي امتاز بالفطنة وصفاء الذهن ، والشجاعة في كثير من الحروب والوقائع .
كذلك يجب أن يتولى قيادة الأندلسيين زعمائهم ، وهو ما لم يتبع دائما ، فكان يترتب على ذلك اضطراب الصفوف أثناء المواقع ، وكانت حماسة الأندلسيين تهبط حينما يتولى الأجانب قيادتهم . على أنهم مع ذلك كانوا يؤلفون قسما مستقلا

من الجيش ينضوى تحت لواء القائد العام أبي يحيى بن أبي حفص . ولما كان الأندلسيون والموحدون أو الجند المغاربة النظاميون يؤلفون قوة الجيش الرئيسية ، فقد نصح عبد الله بن صناديد بأن يتولى هؤلاء ، لقاء العدو ومواجهة هجومه الأول . وأما بقية الجيش ، وهى المؤلف من قبائل البربر ، ومعظمهم من غير النظاميين ، وجمهرة كبيرة من المحاربين والمجاهدين ، فيجب أن تكون قوة احتياطية للموحدين والأندلسيين ، تقوم بالمون والإمداد ؛ أما يعقوب المنصور فيستطيع بحرسه الأبيض والأسود ، أن يرجح كفة الموقعة كلها ، ويجب أن يربط بقوته وراء القلال على مسافة قريبة ، ثم ينقض فجأة بمجنوده التوثيين على الأعداء المتعبين ، ويبادر بحضوره إلى تدعيم النصر المكسب . كل هذه الآراء أبداهما الزعيم الأندلسي ، وأعجب المنصور بهذه الخطة ، فوافق عليها وأمر بتنفيذها^(١) .

وفى تلك الأثناء كان ألفونسو ملك قشتالة يجرد فى الأهبة ؛ وقد استطاع أن يقوم بالنسبة إلى مملكته الصغيرة بمحشد قوات هائلة ، وقدم إليه فرسان قلعة رباح وفرسان الداوية ، وفروسية قشتالة بأسرها وكذلك الأجناد أعظم المساعدات الممكنة . فاذا صح ما يقال من أنه استطاع أن يحشد أكثر من مائة ألف مقاتل (والرواية العربية تقدر جيشه بثلاثمائة ألف) ، فإن هذه القوة لم تكن إزاء قوى أعدائه التى لا تحصى ، لتكفى لإحراز النصر عليهم . وقد رأى إزاء هذا الخطر الذى يهدد جميع الممالك النصرانية ، أن يطلب إلى قريبيه ملكى ليون ونافارا ، تناسى الخصومات التى فرقت بينهم من قبل ، وأن يضا قواهما إلى قوته لياق الجميع أعداء دينهم مجتمعين ، فوهدا بالمون والسير إليه يدفعهما فيما يبدو تحريض الأجناد والشعب أكثر مما تدفعهما الرغبة الخالصة ؛ وجما الجند ، وتوليا القيادة بنفسيهما ولكنهما تمركا فى كثير من البطء ، حتى أن ملك قشتالة أخذ يشك بحق فى صدق نيتيهما ، وكاد يمتقد أنهما يضمران من المدوان ضد قشتالة ، أكثر مما يحفزها من رغبة فى محاربة المسلمين . ورأى إزاء هذا الريب ، أن أفضل ما يجب

(١) راجع روض القرباس (ص ١٤٧) حيث يورد هذه الأخبار بالتفصيل .

عمله هو أن يترك أساليب الأسباب القديمة في الحرب ، وهي تقضى بتجنب الاشتباك في المواقع والامتناع بالقلاع ، حتى ترغم قوى المسلمين الجرارة على الانسحاب ، إما لفنَاد المؤن أو تفشى الأمراض ، أو حلول الشتاء . ولكن ألفونسو رأى ، وهو سيد جيش ضخم ، حسن الأهبة ، أنه من العار أن ينسحب أمام العدو ، خصوصاً وقد كان يؤمل أنه يستطيع بمفرده أن يحرز نصراً باهراً على جيوش إفريقية التي لا تحصى .

وفي ١٩ يولييه سنة ١١٩٥ ، الموافق ٩ شعبان سنة ٥٩١ ، كانت موقعة الأرك الشهيرة . وفي صباح هذا اليوم ، أذاع يعقوب ، بين سائر الجند ، لكي يذكر حماسهم للقتال ، خبر حلم رآه في الليلة السابقة ، مفاده أنه رأى في منامه فارساً نبيل الطلعة ، على فرس أبيض يخرج من باب فتح في السماء ، ويديه راية خضراء قد انتشرت في الآفاق ، يقول له إنه من ملائكة السماء السابعة ، وإنه جاء ليشره بالنصر بحول الله^(١) ، وقد نُظِّم جيش الموحدين ، الذي تفدره بعض الروايات بستائة ألف مقاتل ، والذي كان يضم ضمن وحداته قوى ثلاثين من الولاة على النحو الآتي : احتل الموحدون ، أو القوات النظامية القلب ، واحتل الجناح الأيسر الجندُ العرب أو أعقاب فأنهى المغرب المسلمين ، ومعهم زناتة وبعض القبائل البربرية الأخرى ، تحت ألويتهم الخاصة ؛ واحتل الجناح الأيمن قوى الأندلس بقيادة عبد الله بن صناديد .

وتولى يعقوب المنصور قيادة القوة الاحتياطية مكونة من صفوة الجند والحرس الملكي . ودُفعت صفوف المتطوعين ، ومعظمها مكون من الجنود الخفيفة ، ولا سيما حملة النبال ، تحت أعلامها الخضراء ، وهو لون الموحدين إلى المقدمة ، لتفتتح الموقعة ، وهم جميعاً يضطرمون شوقاً إلى الفوز بتاج الاستشهاد .

وكذلك نظم ملك قشتالة ، في تلك الأثناء ، جنده المتوئبة إلى القتال ؛ وكانت قلعة الأرك تحمي موقعه من جانب ، وتحميه من الجانب الآخر بعض التلال ، ولا

(١) روض القرطاس ص ١٤٧ .

يمكن الوصول إليه إلا بواسطة طرق ضيقة وعرة . وكان الجيش القشتالي يحتل موقعاً عالياً ، وكانت هذه ميزة له في بدء القتال .

ولما تقدمت صفوف المسلمين المهاجمة ، إلى سفح التل الذي يحتله ملك قشتالة ، واندفعت إليه تحاول اقتحامه على أتركلات قائدها المتهبة ، انقض زهاء سبعة أو ثمانية آلاف من الفرسان القشتاليين الثقيلين بالدروع ، على المسلمين كالسيل الجارف المندفِع من حل ؛ ورد المسلمون هجمات القشتاليين مرتين ، ولكن العرب والبربر استنفدوا جميع قواهم لرد هذا الهجوم العنيف . فلما عززت صفوف القشتاليين بقوة جديدة ، هجموا للمرة الثالثة ، وضاعفوا جهودهم ، واقتحموا صفوف العدو ، وفرقوها ، وقتلوا قسماً منها ، وأرغم الباقون على الفرار ، ولقى آلاف من المسلمين مصرعهم في تلك الصدمة ، ومنهم القائد العام أبو يحيى ابن أبي حفص ، الذي سقط وهو يقاتل بمنتهى البسالة ، واعتقد النصارى أن النصر قد لاح لهم ، بعد أن حطموا قلب جيش الموحدين ؛ ولكن الأندلسيين وبمض بطون زناتة ، وهم الذين يكونون الجناح الأيمن ، هجموا عندئذ بقيادة أبي عبد الله بن صناديد ، على قلب الجيش النصراني ، وقد أضعفه تقدم الفرسان القشتاليين ، وكان يتولى قيادته ملك قشتالة نفسه ، يحيط به عشرة آلاف فارس فقط ، منهم فرسان الداوية وفرسان قلعة رباح ؛ فلقى الأعداء ، وهم أضعاف قوته دون وجل ؛ ونشبت بين الفريقين معركة حامية طويلة ؛ واستبدل النصارى النقص في العدد بالإقدام والشجاعة ، حتى أنه لما زحف زعيم الموحدين في حرسه ، ورد تقدم الفرسان القشتاليين ، واضطروهم إلى الفرار في غير انتظام ، لم ينادر ألفونسو وفرسانه العشرة آلاف مكانهم في القلب ؛ ذلك لأنهم أقسموا جميعاً في الصباح عند الصلاة ، بأن يموتوا ولا يتقهقروا . واستمرت المعركة على اضطرابها المروع ، والفريقان يقتتلان تحت سحب كثيفة من الغبار ، وأرجاء المكان تدوى بوقع حوافر الخيل ، وقرع الطبول ، وأصوات الأبواق ، وصلصلة السلاح ، وصياح الجند ، وأنين الجرحى . ومع أن الموحدين كانوا يتقدمون فوق أكداس من جثث

جندهم ، فإنهم أيقنوا بالنصر ، حينما انحصرت المقاومة في فلول من النصارى التفت حول ملك قشتالة ؛ وهجم أمير المؤمنين في مقدمة جيشه ، لكي يجهز على هذه البقية أو يلجئها إلى الفرار ، فنفذ إلى قلب الفرسان النصارى ، والعلم الأبيض المقدس يخفق أمامه منقوشاً عليه « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، لا غالب إلا الله » . ولم يشأ ألفونسو ، بالرغم من اشتداد ضغط العدو عليه من كل صوب ومواجهته لخطر الهلاك والسحق ، أن يتنقذ نفسه بالفرار ، وأن يحتمل مار الهزيمة ؛ وتساقط معظم الفرسان النصارى حول ملكهم مخلصين لمهدم ، ولكن بقية قليلة منهم استطاعت أن تنجو ، وأن تقتاد الملك بعيداً عن الميدان ، وأن تنقذ بذلك حياته .

وهكذا انتهى يوم الأرك الدامى بهزيمة النصارى على هذا النحو المروع . وسقط منهم في القتال ثلاثون ألف قتيل ، بينهم زهرة الفروسية الأسبانية ؛ واستولى المسلمون على معسكرهم بجميع ما فيه من المتاع والمال ، واقتحموا عقب الموقعة حصن الأرك وقامة رباح النيمتين ؛ ومما زاد في ألم الأسبان أن هذه الهزيمة لم تلحق بهم دون معاونة بعض النصارى الفارين الذين كانوا يرافقون زعيم الموحدين ويمدونه بالنصح ؛ وكان في مقدمة هؤلاء الكونت بيدرو فرنانديز دى كاسترو ، المبعد من قشتالة ، فقد أبدى نشاطاً خاصاً في المعاونة على سحق وطنه^(١) .

وسرعان ما رفع انتصار الأرك شهرة الموحدين الحربية في كل مكان ؛ وأمر يعقوب المنصور بإذاعة النبأ من منابر المساجد في جميع أنحاء مملكته الشاسعة ؛ وخصص خمس الغنائم بعد أن وزع باقيها على الجند لبناء مسجد نخم في إشبيلية

(١) يتبع المؤلف في معظم التفاصيل التي يوردها عن موقعة الأرك ، رواية صاحب روض القرطاس (س ١٤٥ وما بعدها) . وراجع أيضاً في تفاصيل هذه الموقعة ، ابن خلكان ج ٢ س ٤٣٠ ، والمراكشي س ١٦٠ ، ويسمى مكان الموقعة بفحص الجديد ؛ وابن خلدون ج ٦ س ٢٤٥ ، وابن الأثير ج ١٢ س ٤٤ و ٤٥ .

اشتهرت منارته بارتفاعها البالغ^(١) وبناء حصن كبير في مراكش لتخليد ذكرى الواقعة .

ومما يذكرهنا بالثناء لزعيم الموحدين ، أنه لم يُشِئ صفحة نصره بالالتجاء إلى قسوة لا مبرر لها ، في معاملة الأسرى والعزل . فقد أسر المسلمون في موقعة الأرك عشرين ألفاً ، ولم يشأ المنصور جرياً على سنن الحرب المتبعة يومئذ أن يقتلهم أو يرسلهم عبيداً إلى إفريقية بل آثر أن يمنحهم جميعاً الحرية دون افتداء ؛ وقد ساء وقع هذا الجود لدى الموحدين ، واعتبروه من بعض جوانب فروسته الضميمة ؛ وتقول الرواية العربية إنه ندم على تصرفه فيما بعد^(٢) .

ولم يبلغ سلطان الموحدين قط ما بلغه عقب موقعة الأرك . وقد اجتمعت عوامل عدة لتحدث هذه النتيجة . ولم يكن ينقص الممالك النصرانية الخمسة الاتحاد فقط ، بل إن قشتالة التي كاد أن يقضى عليها الموحدون ، غدت فريسة حرب شهرتها عليها ليون ونافارا . وكانت هاتان الدولتان تقومان في الواقع عندئذ بمفاوضات سرية لمعد تحالف مع الموحدين . وكانت أراجون قد أدركها الوهن عقب وفاة ملكها ألفونسو الثاني ، وفرقتها الحروب الأهلية . أما البرتغال فلم تكن تستطيع دون معاونة خارجية أن تقوم بمشروع ما ، وإن كان مما يجب ذكره أنها كانت مع ذلك أعد الدول النصرانية وطأة في محاربة المسلمين .

ورأى يعقوب المنصور أن ينتهز فرصة هذه الظروف السانحة ، فقام في أوائل سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) بغزوة جديدة في قلب الأراضي النصرانية . واختراق ولاية استرامادوره ، وعبر النهر الكبير (الوادي الكبير) في اتجاه نهر التاجه ، وبعد أن استولى على عدة حصون وقلاع مثل ترجاله ، وعسقلونة ، ولاليا ، وامتنع

(١) حول هذا المسجد الشهير إلى كنيسة جامعة بعد استيلاء النصارى على إشبيلية (سنة ١٢٤٨ م) وحولت منارته إلى برج للنافوس ، وهي لا تزال قائمة إلى يومنا ، وتعرف ببرج الجيرالدا La Giralda ، وارتفاعها يبلغ نحو مائة متر ، وتعتبر من أروع قطع الفن المختلط ، المغربي النصراني .

(٢) هذه رواية صاحب روض القرطاس (ص ١٥٢) .

عليه البمض الآخر مثل طلبيره ومجويده ، ظهر أمام أبواب طليطلة عاصمة قشتالة ؛ وكان ألفونسو ملك قشتالة ، قد امتنع مع جيشه الصغير بماصمته ولم يجرؤ أن يحارب العدو في الميدان المكشوف نظراً لانكسار أنفـس جنده وقلة عددهم . يسد أنه كان متمزماً أن يدافع عن طليطلة عاصمة اسبانيا النصرانية حتى النفس الأخير ، وأن يلقى الموت قبل أن يخضع للعدو . ولما رأى المنصور بعد أن حاصرها عشرة أيام أن جميع محاولاته لاقتحام هذا المعقل النيع لم تسفر عن النجاح ، ارتد عن أسوار طليطلة إلى مدينة طلمنكة ، واقتحمها ، وقتل كل جنودها ، وسبي النساء والأطفال ، وقسم كل الغنائم بين جنده ، وأحرق المدينة وهدم حصونها ؛ وفعل مثل ذلك بوادي الحجارة وعدة أماكن أخرى . ولكن مجريـط والقلمنة امتنعتا عليه ولم يوفق إلى فتحهما .

ولما كان سكان السهول قد لجأوا إلى القلاع ، وانتسفت الزروع عقب موقعة الأرك ، فسرعان ما نقصت المؤن في جيش الموحدين ، ثم دب إليهم المرض ، وكثر الموت بينهم ، فاضطروا عندئذ إلى الانسحاب ، بعد أن وصل يعقوب المنصور إلى مقربة من ضفاف دويره ، الذي لم يقترب من ضفافه منذ مدة طويلة أي جيش إسلامي . وعاث الموحدون عند عودهم في الأراضي النصرانية أيما عيث ، فلم تطل أقدامهم مكاناً إلا تركوه أطلالا دارسة كأنما كانوا يشعرون أن هذه آخر حملة إسلامية تهيأ لاحتلال طليطلة ، وتجاوز جبال وادي الرملة^(١) ، وإذا صدقنا الرواية العربية فإن يعقوب المنصور عاد بطريق البلاط وترجـاله^(٢) ، أعنى خلال استرامادوره إلى إشبيلية ؛ ولكن الرواية النصرانية تقول إنه عاد عن طريق إقليش ، وقونقة ، ومرسية إلى الأندلس . والظاهر أن جيش الموحدين انقسم إلى قسمين ، سلك أحدهما هذا الطريق ، وسلك الآخر ذاك . وقد استطاع يعقوب المنصور أن يعرف من تجارب هذه الحملة ، أنه أيسر عليه أن ينتصر في موقعة ، أو يتوغل في

(١) هي بالأفـرنجية Guadarrama

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٥١ .

أراضى المدو ، من أن ينتزع قلعة أحسن تحصينها ، وأنه أيسر عليه أن يفتح اسبانيا على يد النصارى أنفسهم . وكان ملكا نافارا وليون قد عقدا معه حلفا ؛ واعتقد ملك ليون أنه يستطيع بمعاونة المسلمين أن يقوم بفتوحات في قشتالة ؛ ولكن ألفونسو النبيل (ملك قشتالة) عهد إلى مقاومة هذا السمي فمقد في سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) الهدنة مع الموحدين ، وذلك لكي يستطيع التغلب على عدوه ؛ ورحب المنصور بعقد هذه الهدنة لأن ثورات جديدة قامت في إفريقية ، كانت تستدعي عوده إلى مراکش . كذلك عني المنصور بأن يضمن لولده السيد محمد أبي عبد الله ولاية عهدية ؛ فلما انتهى من إخماد الفتن ورد السكينة إلى نصابها استطاع دون مشقة أن يحمل جميع الولاة والقادة على الاعتراف بولاية عهد الأمير محمد ؛ وأشرك ولده معه في الحكم من ذلك التاريخ ، وذكر اسمه في الخطبة إلى جانب اسم أمير المؤمنين . ولم يمض على ذلك قليل حتى مرض المنصور ، وتوفي بقصره في مراکش في الأربعين من عمره وذلك في الثاني والعشرين من ربيع الأول سنة ٥٩٥ هـ (٢١ يناير سنة ١١٩٩) بعد أن حكم خمسة عشر عاما^(١) .

وكان يعقوب المنصور من أعظم ملوك الموحدين وأبرعهم وأرفعهم خلافا ؛ وقد سما بصولة الموحدين إلى ذروتها ؛ ولم يشد أمير من أسرته مثل ما شاد من المساجد والأبنية الفخمة ؛ وكان رفيع الخلق ، قلما يعرف الثأر وكثيرا ما يؤثر الصفح ، وهي فضيلة يندر وجودها في النفوس المغربية الجائشة . وكان كثير الحب للعلماء يثيب علمهم وفضلهم بأكرم ما يهب الملوك . وكان يبدى في اختيار وزرائه ذكاء . وبعد نظر ، وينتخب أكفأ الأشخاص لجميع فروع الإدارة . وكان على صلات وثيقة مع معظم ملوك المسلمين في عصره ؛ وقد أرسل السلطان الكبير صلاح الدين ، الذي استرد بيت المقدس من الصليبيين ، إليه رسوله ، ليعقد معه

(١) ينقل ابن خلكان رواية غريبة عن مصير يعقوب المنصور خلاصتها أنه تنازل في أواخر حياته عن الملك ، وتزهد وساح في الأرض ومات بالمرق مستغنيا خالما ، وأنه كان في عصر ابن خلكان بموضع قريب من بلدة المجدل بالشام قبر تعرفه الناس بقبر الأمير يعقوب ملك المغرب (ج ٢ ص ٤٣١) .

حلفاء ضد ملوك أوروبا ، الذين كانوا يهددون المشرق يومئذ بحروبهم . ولكن صلاح الدين لم يلقب سلطان الموحدين في خطابه بأمر المؤمنين ، ولهذا لم تتم المحالفة وإن كان الرسول قد استقبل باكرام وحفاوة^(١) ووصله سلطان الموحدين من أجل قصيدة صغيرة من أربعين بيتاً نظمها في مديحه بهبة قدرها أربعون ألف دينار ، هي كما قال المنصور رمز التقدير لملمه وبراعته في النظم .

(١) هذه رواية ابن خلكان ؛ والرسول المشار إليه هنا هو طبقاً لهذه الرواية ؛ شمس الدولة أبو الحرث بن عبد الرحمن بن نجم الدولة (راجع ج ٢ ص ٤٣٢) .

الكتاب الخامس

اضمحلال سيادة الموحدين
وازدیاد تقوق قشتالة وأراجون
فی النصف الأول من القرن الثالث عشر

الفصل الأول

حال اسبانيا بعد موقعة الأرك

حتى موقعة تولوزا أو موقعة العقاب

على أثر هزيمة « الأرك » تخرج مركز النصارى فى شبه الجزيرة ، واشتد الخطر عليهم بصورة لم يعرفوها منذ بعيد ؛ ولم يكفهم أن أعداء الصليب ضربوا معسكرهم أمام عاصمة اسبانيا النصرانية ؛ ولكن الحصومات والحروب الطاحنة كانت تمزق الملوك النصارى ، ونحول دون كل اتحاد لمواجهة الخطر المشترك ، ولم ينقذ اسبانيا النصرانية يومئذ من الهلاك سوى إسراع زعيم الموحدين يعقوب المنصور بالعود إلى المغرب ، ثم موته الفجائى ، الذى قضى على خطط الموحدين الكبرى فى الفتح .

وكان من المحقق يومئذ أن شبه الجزيرة ستندسوى كلها تحت سلطان الموحدين لو أن محمداً خليفة يعقوب ، مضى فى الحرب بمثل ما كان عليه أبوه من الذكاء والقوة والمقدرة على انتهاز الفرص . ذلك أن اسبانيا النصرانية لم تكن يومئذ سوى مزيج مضطرب من العناصر المتخاصمة . ولو أن أميراً فظناً من أمراء الموحدين ، سار على مبادئ السياسة التى اتبعت فيما بعد ، فى استئلال منازعات الملوك النصارى ، والتوسل بمحالفه الضعفاء منهم إلى التدخل فى الشؤون الداخلية ، لاستطاع المسلمون أن يخضعوا اسبانيا كلها فى جيل واحد . ومن المرجح أن يعقوب المنصور ، وهو الذى استن هذه السياسة ، كان يوسمه أن

يحقق هذه الغاية لو طال أمد حكمه ، وقد اتخذ بالفعل في هذه السبيل خطوات ناجحة ؛ وبالرغم مما بذله ألفونسو الثاني ملك أراجون ، والبابا سلسطان الثاني من مختلف الجهود للتوفيق بين الأمراء الأسبان ، وجمع كلمتهم ، فإن هذه الجهود لم تسفر عن نتيجة ؛ وكانت الحصومة على أشدها بين الملكين القريبين ، أعنى ملكي قشتالة وليون ؛ وكان ألفونسو النبيل ، المهزوم في موقعة الأرك ، ينسب هزيمته إلى تقاعد الجيش الليوني عن إمداده ، ولم يسمه في أول لقاء وقع بينه وبين ابن عمه إلا أن ينحى عليه بأشد اللوم ؛ وترتب على ذلك أن قامت بينهما خصومات انتهت بالحرب الصراح ؛ وهكذا ، بينما كان الموحدون يشخفون بجيوشهم في جنوبي قشتالة ، إذ غزا حليفهم ملكا قشتالة وليون شمالي قشتالة ، واستولوا على بعض البقاع والأماكن التي لم تدعم حمايتها . وما كاد ألفونسو النبيل ملك قشتالة ينجو من خطر المسلمين الداهم ، على أثر الهدنة التي عقدها مع يعقوب المنصور ، حتى عقد مع ملك أراجون الجديد ، بيدرو الثاني حلفاً وثيقاً ، وشهر الحرب على ليون ونافارا في وقت واحد ؛ فارتفعت الملكتان لهذا الخطر الفجائي وحاولتا أن تحصلا على عون من الموحدين ؛ ومع أن البابا سلسطان ، أُنذر بعقوبة « الحرمان » الديني ، كل أمير أسباني يتحالف مع أعداء النصرانية ، فإن سانشو ملك نافارا ، لم يجد سبيلاً غير هذا التحالف للدفاع عن مملكته ضد جاره القوي . وانقض ألفونسو ملك قشتالة بجميع قواته على ليون ؛ وكان ملكها قد استقدم لمعاونته قوة من المسلمين ، ليتمكن بمؤازرتها من أن يسير إلى قلب قشتالة . ولكن القشتاليين استطاعوا بمعاونة الأرجونيين أن يخترقوا ليون مرتين ، وعانوا في أراضيها أيما عيث ، فانتسفوا كل شيء في طريقهم حتى أشرفوا على عاصمة ليون ؛ وكأنما أرادوا بذلك التخريب ، أن ينتقموا من جيرانهم النصاري ، لما يوقعه المسلمون من التخريب في قشتالة ؛ بيد أن أسوار ليون المنيعة وقفت في وجههم سداً ووضعت حداً لتقدمهم ، ولكنهم انتسفوا ضاحيتها والحي المسمى « بيرج اليهود » ؛ كذلك لم يستطع القشتاليون افتتاح استرقة ،

ولكنهم خربوا الأراضي المجاورة لها أيما تخريب .

ولما تأهبت قشتالة وأراجون معاً للقيام بغزوة جديدة ، تدخل الأخبار والفرسان ، لمقد الصلح بين قشتالة وليون ، حتى لا تبدد قوى اسبانيا جميعها في حروب أهلية . وكان ألفونسو التاسع ملك ليون ، قد طلق في النهاية زوجته الأميرة البرتغالية تيريزا ، نزولاً على إرادة البابا (سنة ١١٩٥ م) ، بيد أنه لم يحسب كبير حساب لقرار الحرمان البابوي ، واعتزم مرة أخرى أن يتزوج من قريبته الأميرة القشتالية برنجاريا ابنة ألفونسو النبيل ، وذلك لكي يحقق لمملكته سلاماً دائماً ؛ وارتضى ملك قشتالة أن يقدم لابنته جميع الأماكن المتنازع عليها بين ليون وقشتالة ، والتي افتتحت في الحرب الأخيرة مهرأ لها ؛ وهكذا لاح أن بواعث الخصومة قد أزيلت لدى بعيد ، وساد الوئام بين الأسرتين المالكتين المرتبطتين بأواصر القرى ؛ ولم يمن يومئذ أحد بأمر البابا أو الحرمان الكنسي ، ووافق رجال الدين الأسبان على هذا الزواج ، لما فيه من تحقيق خير الملكتين النصرانيتين ، وتم الزواج في بلد الوليد في حفلات باذخة في سنة ١١٩٧ م .

ولما كان هذا الزواج قد تم دون الحصول على إذن البابا ، فقد أعلن سلسطان الثالث بطلانه ؛ وأرسل إلى اسبانيا الكردينال جيدو دي سانت أنجلو ، مزوداً بأمر إلغائه ، وأن يقوم في حالة عدم الإذعان لأمر البابا ، بإصدار قرار التحريم ضد الملكين وضد أراضيهم . ولكن ملك ليون كان يشغف جداً بزوجته وكان يؤيده رجال الدين والفرسان ، ولذا لم يعبأ بوعيد البابا ؛ أما ملك قشتالة الذي عقد الصلح مع ليون وسلم إليها الحصون المفتوحة زغم إرادته ، فقد صرح أنه على استمداد لاسترداد ابنته ، على أن يُرد معها مهرها .

ومع أنه كان من الواضح ، أن إلغاء هذا الزواج لابد أن يترتب عليه اضطراب عظيم ، فإن إصرار ملك ليون على الاحتفاظ بزوجه الأميرة القشتالية ، لم يلبث أن أسفر عن صدور قرار الحرمان الكنسي ضد ملك ليون ومملكته وضد أساقفة شلمنقة وسمورة ، واسترقة وليون ، وضد مملكة ليون كلها ؛

وذلك حتى يقرر الملك انفصاله عن قريبتيه .

ولما تولى أنوسان الثالث كرسى البابوية بمد ذلك بقليل ، حاول مرة أخرى بالرسائل والرسل ، أن يحمل الملكين على الخضوع لأوامر الكنيسة ؛ فلما لم تثمر مساعيه ، ولما اضطر أسقف أوفيدو الذى أبدى طاعته للكرسى الرسولى أن يفر اجتناباً لنقمة الملك ، كرر البابا أنوسان قرار الحرمان على يد الراهب رينر ؛ ولم يجد الرسول الذى أرسله الملك إلى رومة - ليشرح لأولى الأمر ما يترتب على إلغاء الزواج من المضار - من يصنى إليه

فهل كان ثمة أدعى يومئذ إلى اضطراب اسبانيا من تلك الحال ؟ فى كل آونة كانت جموع عديدة من المسلمين تنفذ إلى أراضي النصارى ، لأن الهدنة المعقودة انقضت أجلها ، وكانت قشتالة وليون اللتان اتحدتا فى الظاهر ، تضطرم كل منهما نحو الأخرى بغضباً وحقداً ، ولم تتفقا إلا على أمر واحد ، هو محاربة البرتغال ، بالرغم من المعاهدات المعقودة ، وإعداد جيوشهما للانتقاض على بعضها . وكانت ليون تعانى أشنع ضروب الاضطراب ، ذلك لأن الأخبار حتى الذين يناصرون البابا منهم ، كانوا يشكون من أن قرار الحرمان لا يترتب عليه سوى بث الكفر والذيلة ، وأنه متى أبطلت الشعار والوعظ ، خبت حماسة الشعب ضد المسلمين ، وأن رجال الدين يفقدون مكانتهم ، إذا لم يزاولوا مهمتهم فى خدمة الدين ، واستنزال البركات على الناس . أما فى أراجون فقد كان الملك بيدرو الثانى فى حرب مستمرة مع الأمراء التابعين له ، وكان هؤلاء يحارب بعضهم بعضاً ؛ وأذكى هذه الفوضى ، ما عمد إليه سانشو السابع ملك ناغارا من عقد الحلف الصريح مع الموحدين بالرغم من نهى البابا ووعيده ، ذلك لأنه رأى فى هذا التحالف سبيله الوحيدة للتمكن من مقاومة ملكى قشتالة وأراجون المتحدين ضده ؛ بيد أنه ما كاد يذاع أمر هذا التحالف ، حتى رأى السكان الخصيان من حقهما أن يغزوا ناغارا ، وأن يفتسوا أراضيها فيما بينهما .

وكان سانشو السابع مذولى العرش فى سنة ١١٩٤ م يفكر فى التحالف

مع الموحدين ليقاوم تفوق جاره المطرد . وكانت نافارا لا تزال يومئذ تملك ولايات البشكنس ؛ ولكنها كانت صغيرة الحجم بالنسبة لضخامة قشتالة وأراجون ، وما يملك من الأراضي المجاورة ؛ ولم يوفق سانشو السادس إلى رد جاريه القويين عن غزو مملكته إلا نظراً لطبيعة أراضيه التي تتخللها جبال وعرة ومفاوز ضيقة ، ونظراً لثقل الشعب النافاري بأسرته الملكية ؛ فاذا طرحت الاعتبارات الدينية جانباً فقد كانت مبادئ السياسة الحكيمة تملى بأن الحلف بين الموحدين والنافاريين أمر طبيعي .

وكان سانشو ملك نافارا قد بدأ — عقب موقعة الأرك — عدوانه ضد قشتالة ، وتحالف مع ملك ليون على محاربة ألفونسو النبيل ؛ ومن المرجح أن الموحدين هم الذين دفعوا النافاريين يومئذ إلى القيام بهذا العدوان ضد قشتالة ؛ ولقد حاول ملك قشتالة — في لقاء وقع بينه وبين الملك سانشو في طركونة وشهده ملك أراجون — أن يقنعه بوجود التعاون فيما بينهما على محاربة أعداء النصرانية ، وأن يجعله على الوقوف معه ضد ليون . ولكن لاح يومئذ لملك نافارا أن الظروف سانحة ليعمل على سحق تفوق جاره ، وكانت عروض الموحدين مغرية ، فلم يحجم عن التحالف معهم ، ولم يخجل ببواعث الدين أو الشرف ، أو يعبأ بوعيد البابا أنوسان الثالث .

وبينما كانت قشتالة تتلقى هجمات الموحدين والليونيين في نفس الوقت ، وبينما كانت أراجون في عهد ملكها الفتى بيدرو الثاني الذي خلف ألفونسو الثاني يمزقها الخلاف ، وتطاول الأمراء الأقوياء التابعين للعرش ، كان ملك نافارا يؤمل أن يفدو سيد إسبانيا النصرانية بمعاونة الموحدين . وكان يعقوب المنصور الظافر في موقعة الأرك قد وعده بأن يزوجه ابنته ، وأن يجعل مهرها الأراضي النصرانية ، بل كانت الأندلس فوق ذلك مطمح أنظاره ؛ نعم كان على سانشو أن يعترف بسيادة سلطان الموحدين ، ولكن كان من حقه أن يزاول سلطته الموكية دون منازع في الأراضي التي يحكمها . أما كون المنصور

قد اشترط على سانشو في هذه المعاهدة أن يمتنق الإسلام فسألة لا يمكن القلع بصحتها^(١) .

وأراد سانشو أن يخفى خطته وألا يفضحها قبل الأوان ، فأرسل أسقف بلبونة إلى رومة ، يؤكد للبابا سلسلتان الثالث أنه أبعد ما يكون عن فكرة التحالف مع المسلمين ؛ وهذا في الوقت الذي أعد فيه كل شيء لعقد هذا التحالف مع الموحدين . وما كاد أسقف بلبونة يعود من رومة ، وتهدأ الاشاعات المتعلقة بالتحالف مع المسلمين ، حتى عهد سانشو بحكم الملكة إلى بعض الأكابر الأكفاء وعهد بالدفاع عن حصونه المشحونة بالبره إلى أقدر وأخلص القوامس ؛ وسار في قوة كبيرة من الفرسان إلى زيارة سلطان الموحدين لكي يتم المفاوضات معه ، ويعقد قرانه على ابنة يعقوب المنصور .

ولما كانت الروايات الأسبانية النصرانية ، تلتزم الصمت إزاء هذا التحول من جانب ملك نافارا إلى أعداء دينه ، وذلك فيما عدا رديك الطليطلي الذي يشير إليها في عبارة موجزة ، فليس أمامنا سوى الاعتماد على الروايات العربية ، ورواية روجر دى هوفدن الانكليزية ، وكلتاها تناقض الأخرى في جميع تفاصيلها . ومن الواضح أن الروايات العربية تخلط بين سفارة يوحنا ملك إنكلترا^(٢) إلى سلطان الموحدين محمد ولد يعقوب المنصور وخلفه ، وبين رحلة سانشو ملك نافارا . إذ تضع تاريخ هذه الرحلة في سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) . وذلك حينما قدم أمير المؤمنين من المغرب إلى إشبيلية لمتابع الحرب في إسبانيا . كذلك تشير الرواية

(١) هذا ما تقوله الروايات النصرانية دون غيرها ؛ ولم نجد لهذه الرواية أثراً في المصادر الإسلامية ، وقد يكون المنصور ارتضى أن يعقد حلفاً مع ملك نافارا ، ولكننا نشك كل الشك في كونه ارتضى أن يزوجه ابنته ، خصوصاً لما هو مأثور عن الموحدين من شدة التمسك بالعقيدة ، وعدم التسامح ، وفي حالة واحدة فقط يمكن أن تتصور صحة هذه الرواية ، وهو أن اعتناق ملك نافارا للإسلام كان شرطاً جوهرياً لتزويجه من أميرة موحدية .

(٢) يوحنا John ملك إنكلترا المشار إليه هنا هو أصغر أبناء هنري الثاني ، حكم بعد موت أخيه ريتشارد الملقب بقلب الأسد من سنة ١١٩٠ إلى سنة ١٢١٦ م . ولم نجد في سيرته ما يفيد أنه أوفد سفارة إلى ملك الموحدين .

العربية إلى سانشو فقط باسم ملك بيونة . ولكن من الواضح أن القصة التي يوردها المؤرخون المسلمون ، تدل في مجموعها على أنها تتعلق بسانشو السابع ملك نافارا . وتصف الرواية العربية رحلة سانشو إلى بلاط سلطان الموحدين على النحو الآتي : « ما كاد ملك بيونة يسمع بمقدم أمير المؤمنين إلى إشبيلية حتى أرسل يستأذنه في زيارته فأذن له . وقد استقبل اللعين مع زوجته ، ووزرائه وحشمه ، وحاشيته العديدة ، أينما حل على طول الطريق من حدود النصرارى حتى قرمونة ، بمنتهى الإكرام ؛ وفي قرمونة احتجز منه ألف فارس ، ولم يترك له سوى ألف أخرى ككاشية له . وأمر سلطان الموحدين فاصطف الجند صفان من قرمونة إلى إشبيلية ، وهم في أحسن الثياب ، وقد رفقوا حراهم وسيوفهم ، ومر من بينها ملك نافارا ؛ واستقبله أمير المؤمنين عند باب إشبيلية في خيمة نفحة ؛ ورأى محمد لكى يجمع بين المجاملة وبين الاحتفاظ بعزته ، أن يرتب دخوله إلى الخيمة من جانب ، في نفس الوقت الذى يدخلها فيه ملك النصرارى من الجانب الآخر ؛ وقاد الملكين إلى الأريكة مما شيخ من أشياخ الأندلس يعرف الأسبانية ؛ وبعد المحادثة الأولى التى تولى فيها الزعيم الأندلسى الترجمة ، سار محمد إلى إشبيلية على رأس حرسه في موكب نفخ ؛ وقدم الملك النصرانى هدية إلى سلطان الموحدين ، هى مصحف قديم يتوارثه آباؤه ، وكان موضوعاً في صندوق من الذهب مضمخ بالمسك ، وغطاؤه من حرير أخضر ، مرصع بالذهب ، والأحجار الكريمة من الزمرد والياقوت وغيرها . وبعد أن استبقى محمد ضيفه مدى حين في إشبيلية معزراً مكرماً ، وغمره بمجزيل التحف ، عاد أخيراً إلى أراضيه . »

والروايات النصرانية عن رحلة سانشو أقل تفصيلاً ، ولكنها أقرب إلى الحقيقة . وقد قام بها سانشو عقب وقوفه على موت المنصور ، في جماعة كبيرة من الفرسان ، وكان ذلك في أواخر سنة ١١٩٨ أو أوائل سنة ١١٩٩ م . وهذا ما تؤيده جميع الوقائع والظروف الأخرى . ولم ير سانشو في موت صديقه المنصور ما يحمله على الإحجام عن القيام بهذه الرحلة البعيدة ؛ وقد تخلف مدى حين في

الأندلس ، في انتظار عودة الرسل الذين أوفدهم إلى محمد خليفة المنصور ؛ فلما عاد أولئك ، وأبلغوه أن محمداً يكن نحوه من عواطف الصداقة مثل ما كان أبوه ، اعتزم أن يتابع الرحلة إلى مراکش ، إلى بلاط سلطان الموحدين . فاستقبله محمد بأجل حفاوة ، ووافق على زواج أخته بملك ناغارا ، ولكنه لم يشأ بحثاً في مسألة التنازل عن أملاكه الأسبانية إليه ؛ فلم ير سانشو أن يعجل بمسألة الزواج ، ولكنه قبل أن يشترك مع فرسانه في معاونة الموحدين على إخماد فتنة قامت يومئذ في جبال غمارة ، وأبدى شجاعة عظيمة^(١) .

وبينما كان سانشو مقيماً في بلاط سلطان الموحدين ، مؤملاً أن يقدّم بمعاونته ملبكا على جميع أسبانيا ، إذا به يفقد معظم أملاكه الصغيرة . ذلك أن ألفونسو النبيل ، وحليفه بيدرو ملك أراجون ما كادا يعلنان بسفر سانشو إلى بلاط الموحدين ، حتى قررا أنهما في حل من جميع المعاهدات السابقة التي عقدها مع ناغارا بحجة أن ملكهما قد تحالف مع أعداء أسبانيا التاريخيين ؛ ثم زحفا على ناغارا بجيشهما المشترك (سنة ١١٩٩ م) ، ليقسماها فيما بينهما ؛ بيد أنهما أقيا في هذا السبيل صعباً لم يتوقعاها . فقد دافعت الحصون المشحونة بالبرية والسلاح دفاعاً قوياً ، وبعد حصار طويل استطاع ألفونسو ، أن يفتتح حصن فكتوريا ، وأن يسترد

(١) لم تشر الرواية العربية إلى مقدم سانشو ملك ناغارا إلى مراکش وإقامته مدى حين في بلاط الموحدين . ولكنها تشير إلى وفوده على أمير المؤمنين محمد الناصر بن المنصور ، وهو بالأندلس ؛ وتقول هذه الرواية ، إن الناصر لما عبر بجيوشه إلى الأندلس للفوز سنة ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ارتاع ملوك النصارى ، وكتب إليه عدة منهم يسألونه المهادنة والسلام ، ووفد عليه منهم ملك بنبلونة (وبنبلونة هي عاصمة مملكة ناغارا) مستلماً طالباً للصلح ، ويقال إنه قدم إليه كتاب الذي كتبه إلى هرقل ملك الروم يستشفع به وقد كان يتوارثه آباؤه ، فاحتفل الناصر لهدومه ، ثم عقد له الصلح ما دامت دولة الموحدين ، وأجابه إلى جميع مطالبه (راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٩٣) . وذكر ابن خلدون أن الذي وفد على الناصر بالأندلس يومئذ هو «الببوح» صاحب ليون (الفرس التاسع؟) وأنه قدم عليه عام موقعة القباب (سنة ٦٠٧ هـ) فداخله وأظهر له التنصح فبذل له أموالاً ثم غدر به (ج ٤ ص ١٨٣) أما الرواية التي أوردتها المؤلف تقلد عن المصادر العربية فهي رواية ابن أبي زرع في روض القرطاس وهو يشير إلى الملك الوافد على الناصر بأنه ملك «بيونه» ويصف وفوده عليه في اشبيلية بافاضة (ص ١٥٥)

ولايات ألبه وبسكونيه ، وجوبسكوا ، وهي التي كانت من قبل ملكا لقشتالة ؛ وقطع
لأهلها عهداً بأن يترك لهم الاحتكام إلى شرائعهم وتقاليدهم ، اكتساباً لمحبتهم .
وكان ملك أراجون أقل توفيقاً ، فلم يستطع أن يفتتح إلا بضعة أماكن
صغيرة على الحدود ؛ ودافعت بنبلونة وغيرها من المدن الكبيرة أعظم دفاع ، ولقيت
أعظم توفيق في رد جارها البغيض . وأخيراً عاد الملك سانشو إلى مملكته ، بعد أن
أيقن أنه إذا كان يستطيع أن يحصل على أميرة موحدية زوجة له فإنه لا يستطيع
الحصول بأى حال على حكم الأندلس والأملاك الإسلامية الأخرى في اسبانيا ،
وقد قطع المفاوضة بعد أن تحقق خيبة السعى ، وعاد إلى مملكته بعد أن
غاب عنها عامين (سنة ١٢٠١ م) . ووصل في الوقت المناسب ليقود جنده
المخلصين مرة أخرى للكفاح الشاق ضد الأعداء الأقوياء ، واستطاع بمعاونة
الكونت دي بوجوليز زعيم بسكونية الثائر ضد قشتالة أن يسترد معظم الأماكن
المفقودة ؛ ثم تدخل الأحرار ، وعقدت الهدنة بين الفريقين لمدة ثلاثة أعوام .
ولكن الولايات البشكنسية بقيت في حوزة قشتالة . ولم يمض قليل على ذلك
حتى أنشأ سانشو ، جماعة مسلحة لطاردة عصابات اللصوص التي كانت تغيث
في البلاد (سنة ١٢٠٤م) ، فكانت هذه الجماعة نواة لجمعية الأخوة المقدسة
(الهيرمانداد) .

أما في ليون فقد ابث الاضطراب على شدته ، وانقسم الأحرار إلى فريقين ،
أحدهما يؤيد زواج الملك بالأميرة القشتالية برنجاريا ، والآخر وهو أقلهما بعارض
في هذا الزواج ؛ وكان الملك يبدى في أعماله كثيراً من القوة والعنت ، فشكل من
وقف في سبيل حكومته ، سواء من رجال الدين ، أو المدنيين ، أمر بزجه إلى
السجن ، إذا لم يبادر بالفرار اتقاء العقاب الدائم . ولم له لم يكن حب زوجه والتعلق
بها هو الباعث الوحيد على تشدده في هذه القضية ، بل هو بالأخص تفكيره في
مصير أبنائه الذين رزق بهم من زوجه ، وكونهم إذا أُلنى الزواج ، لا يعتبرون
من الأولاد الشرعيين ، وما يتحتم عليه عندئذ من رد مهر برنجاريا ، وهو أمر

خطير بالنسبة لليون ، إذ يوجد بين الأراضى التى يتعين ردها ، عدد من الحصون القوية الواقعة على الحدود .

ولما أدرك البابا أنوسان الثالث ما يترتب على قراره الصارم ، من النتائج السيئة ، نزل على ملتزم بمض الأحبار الليونيين ، وأمر بتخفيف القرار بحيث يسمح بإقامة الشعائر الدينية والكنسية ، على أنه يجب بالنسبة للملك وزوجه ابنة ملك قشتالة ، وجميع الكهنة الذين شملهم أمر الحرمان ، أن تغلق الكنائس ، وأن يصمت الأحبار . ومع ذلك فقد احتفل بتنصيب أول ولد جاء من هذا الزواج — وهو فرديناند الذى لقب فيما بعد بالقدس — فى كنيسة ليون الكبرى فى احتفال باذخ ، وذلك فى سنة ١١٩٩ م . وبعد أن أعقبه ابن وبنت آخر ، احتفل برلمان ليون (الكورتيس) بإعلان فرديناند الولد البكر وليا للمهد فى سنة ١٢٠٤ م . وبعد ذلك ارتضت برنجاريا الطلاق تحقيقا لسكينة المملكة وسلامها ، وتنازلت عن المطالبة برد المهر ، وعادت إلى أبيها فى قشتالة ؛ وعلى أثر ذلك ، أمر البابا بإلغاء قرار الحرمان بواسطة الأساقفة القشتاليين ، وأن يرفع الحظر عن ملكي ليون ، وأن يُعترف مع ذلك بشرعية الأولاد ، واستحقاقهم الميراث .

وما كاد السلام يعقد مع البابا حتى اضطرت نيران الحرب على أشدها بين البيتين الملكيين اللذين تصافيا من قبل ، أعنى بين قشتالة وليون ، وذلك من جراء فسخ هذا الزواج ؛ وكان ملك قشتالة يصر على وجوب رد الأماكن التى وهبها لابنته مهراً لزوجها ، وكان البابا يؤيد هذا المطلب . على أن الأقوال وحدها لم تكن تكفى لتسوية هذا النزاع ، وكان الشعب منذ بعيد يتوقع جزاً اضطراب المصومة بين الملكيتين ، وكانت جمهرة المؤمنين ترى طائفة من الظواهر والأحداث المزعومة ، وتتخذها علامة على اقتراب زمن لا بد أن تسيل فيه الدماء ؛ وقد صحت نبوءتهم ؛ فان حرباً طاحنة دامت عدة أعوام خربت قشتالة وليون ؛ ولم تفلح جهود البابا فى تهدئة الخواطر المضطربة ، وردت اقتراحاته فى سبيل الصلح بازدياد ، إذ كان المفروض أنه هو السبب الوحيد فى إثارة هذا النزاع .

ولكنهم أصغوا إلى صوت السلام والوساطة حينما نظم الموحدون أهباتهم
الضخمة للاستفادة من هذا النزاع وإخضاع إسبانيا النصرانية ؛ وكان لابد من
عود النصارى إلى الاتحاد حتى لا تسقط إسبانيا غنيمة في يد المسلمين . وهنا فقط
عقد ملكا ليون وقشتالة الصلح ، وارتضى القونسو ملك ليون أن يعطى زوجه
الملكة برنجاريا الأماكن المتنازع عليها ما دامت مقيمة لدى أبيها في قشتالة ،
وهكذا أنقذ ملك ليون على الأقل شرفه بهذا التصرف الشهم .

الفصل الثاني

موقعة ناقاس دى تولوزا

أو موقعة العقاب

لما توفى يعقوب المنصور ، ولى العرش ولده الذى اختاره من قبل لولاية عهده :
وكان محمد الملقب بأبى عبد الله الناصر لدين الله ، فى أطيب سنى عمره ، حينما خلف
أباه فى الحكم ؛ وكان حسن القامة ، نحيفاً ، أبيض ، أشهل العينين ، كثيف
الحاجبين ، طويل الأهداب ، كبير الاحية ؛ وكانت نظراته تشع ذكاء وتفكيراً^(١)
بيد أنه بالرغم من كفايته وثقافته لم يكن يحسن اختيار وزرائه وقادته ، فكان
كثيراً ما يمهّد بأهم شؤون الدولة إلى رجال عاجزين ، يوليهم كل ثقته .

وقد اضطر فى بداية حكمه — مثل جميع أسلافه — أن يعمل على إخماد ثورات
عديدة نشبت أولاً فى جبال غمارة ؛ وما كادت تتمد حتى تلتها ثورات قام بها
خصوم ظن الموحدون أنهم سيقومون نهائياً . وكان هؤلاء هم المرابطين . وكانوا
بعد انهيارهم التام فى المغرب والأندلس ، قد لقوا فى الجزائر الشرقية (جزائر
البليار) ملاذاً أخيراً ، وأقاموا بها حكومة منهم ، ثم انضوا . بعد ذلك تحت لواء
محمد بن سعد بن مردينش أمير بلنسية ، وأخيراً اعترفوا مختارين بحكم الموحدين
وذلك منذ سنة ١١٧٢ م (٥٦٧ هـ) بيد أنهم عملوا فى الخفاء على استدعاء أنصارهم
تباطاً إلى ميورقة . ولما شغل محمد الناصر بإخماد ثورة نشبت بالقرب من فاس ،

(١) روض القرطاس ص ١٥٣ والراكمى ص ١٢٥ .

رأى المرابطون الفرصة سانحة ليجربوا طالهم في الحرب مرة أخرى ، وحاولوا أن يجذبوا البربر إلى جانبهم ، وسرعان ما يسأم البربر كل حكم . ونهض المرابطون بزعماء ينجي بن إسحاق الميورقي ، وهو من عقب يوسف بن تاشفين ، وساروا في السفن من ميورقة إلى إفريقية واستولوا على عدة مدن في أحواز قرطاجنة القديمة (تونس) ، وهرعت إلى جانبهم جموع كبيرة من البربر ، واضطر محمد الناصر أن يحشد جميع قواته ليحول دون تقدم الثوار ؛ ذلك أن زعيم الثوار كان قائداً عظيماً وافر الخبرة بفنون الحرب . بيد أن المرابطين لم يوفقوا مع ذلك إلى استرداد سلطانهم ، وكان نجمهم قد أفل نهائياً ؛ وكانت ثورتهم آخر مجهود لحزب نهض للمرة الأخيرة ، ثم انهار بعد هزائمه المتوالية لكي لا ينهض بعد ؛ وألقى المرابطون ملاحداً أخيراً في أسوار المهديّة ، الواقعة على الشاطئ تجاه صقلية ، ولكن المدينة اضطرت بال رغم من مناعتها وبسالة ينجي بن إسحاق في الدفاع عنها — أن تدعن أمام هجمات الموحدين العنيفة ، وقد سلطوا عليها من آلات الحصار والمنجنقات ما لم ير من قبل ضخامة وإحكاما ، وأخذوا يرمونها كل يوم بمئات من الأحجار الكبيرة والكرات الحديدية ، ويدكون بذلك أسوارها دكا . وعفا محمد الناصر عن أهل المدينة وعن ينجي الميورقي عفو الكرام ، بعد أن استنفدوا كل وسائل الدفاع وسلموا إليه المدينة ، وذلك في سنة ٦٠١ هـ (١٢٠٥ م) (١) .

ولكن تسامح سلطان الموحدين لم يكن له من أثر إلا أن يشجع المرابطين على الثورة من جديد ، فلم تمض ثلاثة أعوام حتى تزعم ينجي بن إسحاق جموع الثوار مرة أخرى ، وقد قويت بانضمام عدد كبير من النافقين من قبيلة زناتة إليها . ولكن المرابطين هزموا للمرة الثانية في موقعة دموية ، وكاد أن يسحق جيشهم عن آخره ، وفر ينجي ناجياً بنفسه . ورأى الناصر أن يعمل على استئصال شأفة هذا الحزب نهائياً ، فأمر بإرسال حملة بحرية إلى جزيرة ميورقة ، حيث كان عبد الله أخو ينجي بن إسحاق يتولى الحكم . ونزلت قوات الموحدين في الجزيرة

بالرغم من مقاومة المرابطين العنيفة ، وحاصرت عاصمة الجزيرة واستولت عليها
عنوة ، وأسر عبد الله واحتز رأسه ، وأرسل محظا إلى مراکش ، وعلقت جثته
على بعض جدران المدينة . ولم تبد الجزيرتان منورقة وباسة أية معارضة ،
بل خضعتا للفاتحين (سنة ٦٠٤ هـ - ١٢٠٨ م) . وهكذا انتهت الانقراض
الآخيرة لسيادة المرابطين .

وعندئذ فقط استطاع سلطان الموحدين أن يوجه عنايته إلى شبه الجزيرة
الأسبانية لكي يرفع فيها راية الإسلام على النصرانية ؛ وبعد أن أقام في مختلف
المدن المغربية أبنية عظيمة نغمة يخلد بها ذكره ، اعتزم أن يبذل أسلافه بأعمال
الحرب الضخمة في شبه الجزيرة .

ولم يكن القشتاليون الظمكى إلى الحرب يستطيعون البقاء دون حرب ؛ فبعد
أن قاموا بمعاونة الفرنسيين على محاربة الإنجليز في « جويان » ، في حرب قليلة
الأهمية (سنة ١٢٠٤ م) ، وبعد أن عقدوا الصلح مع جيرانهم النصارى ، ولا سيما
بتدخل البابا ، أخذ ملك قشتالة ألفونسو النبيل يتأهب لمحاربة المسلمين بكل ماله
من قوى ، وكانوا قد ركنوا إلى السكينة منذ وفاة يعقوب المنصور .

وبعد أن حصن ألفونسو قلعة « مورا » الواقعة على الحدود تحصيلًا قويا
(سنة ١٢٠٩ م) سار في جيش من القشتاليين وفرسان قلعة رباح إلى الأندلس ،
فانتسف الحقول ، ونهب القرى ، وقتل السكان ، وسبي منهم جموعا كبيرة . ثم
عاد إلى قشتالة ، واتى ملكى نافارا وأراجون ، ووثق معهما عهد الصلح ، وحصل
منهما على وعد بتأييده وإمداده بالجند حين الخطر لمحاربة العدو المشترك ، واعتزم
بعد ذلك أن يعمل لمحو وصمة هزيمة الأرك بإحراز نصر باهر على الموحدين . وفي
العام التالى سار مرة أخرى إلى الأندلس ، وخرب أراضى جيان وبياسة
واندوجار ، ووصل إلى أحواز مرسية ثم عاد إلى طليطلة مثقلا بالغنائم .

ولما وقف محمد الناصر على اعتداء النصارى المتكرر على الأندلس ، أعلن
الجهاد ، مؤملا أن يستطيع بواسطة القوات الضخمة التى يرسلها من المغرب إلى

اسبانيا أن يسحق الممالك النصرانية بلا مرء ؛ وحشدت في جنوبي الجزيرة خمسة جيوش ضخمة ، يتكون أولها من القبائل البربرية ، والثاني من الجنود المغربية ، والثالث من الجنود الأندلسية ، والرابع من الجنود الموحدية أو الجنود النظامية التي تحشد وفقاً لنظام عسكري معين ؛ ويتكون الخامس من المتطوعة من جميع أنحاء المملكة ويضم وحده مائة وستين ألف مقاتل من الفرسان والمشاة . وإذا لم يكن في وسعنا أن نأخذ بالتقديرات المغرقة التي تقدمها الرواية العربية — إذ هي تقدم إلينا أرقاماً تخرج عن طور المعقول — فإنه من الممكن أن يقدر الجيش الذي حشده محمد الناصر لمحاربة اسبانيا النصرانية بنحو نصف مليون مقاتل^(١) . وفي ٢٥ ذي القعدة سنة ٦٠٧ (أوائل مايو سنة ١٢١١) جاز سلطان الموحدين بنفسه إلى الأندلس ونزل في جزيرة طريف ، ثم غادرها بعد أيام قلائل إلى إشبيلية .

ولكن محمدا ارتكب خطأ فادحاً إذ أرسل خيرة جنده إلى حصن سربطره^(٢) الجبلي المنيع ، وأهلك بذلك قوامهم ؛ ولبت الجيش أمام هذا الحصن ثمانية أشهر ، وهو ممتنع عليه . وأصر محمد نزولاً على نصيح حاجبه أبي سعيد بن جامع — وكان الموحدون يشكون في صدق نيته ، ولكن محمداً يضع فيه كل ثقته — على ألا يتقدم قبل الاستيلاء على الحصن . وهكذا استمر الحصار طول الصيف حتى دخل الشتاء ؛ وعانى المغاربة في هذه الجبال الوعرة من قسوة الطقس ما لا يحصى ، وأودى المرض بحياة آلاف منهم ، وأخذت وسائل تموين هذا الجيش الضخم تصعب يوماً فيوماً . وأرسل ألفونسو ملك قشتالة ولده فرديناند على رأس جيش نفذ إلى ولاية استرامادوره محاولاً أن يرغم الموحدين على رفع الحصار ، ولكن هذه المحاولة لم تفلح ، ونجح الملك بفقد ولده الذي أودت بصحته وحياته مشاق الحرب ؛ وقيل في بعض الروايات إنه توفي مسموماً بيد يهود مجريط . وسقطت قلعة سربطره أخيراً بفعل الجوع في يد الموحدين ، ولكن مقاومتها

(١) راجع الاستقصاء ج ١ ص ١٩١ .

(٢) سربطره أو سربطره كما هي في ابن خلدون ج ٦ (ص ٢٤٩) وبالأفريقية Salvatierra .

الطويلة الباسلة كانت سبباً في إنقاذ اسبانيا النصرانية^(١) .

وكان ملك قشتالة قد أرسل جرهاارد أسقف سقوية إلى البابا أنوسان الثالث ليرجوه أن يرسل الصيحة إلى أم أوروبا النصرانية ، لكي تنظم حملة صليبية ضد المسلمين في الأندلس ؛ وأرسل ردرىك مطران طليطلة (ردريك الطليطلى) — وهو المؤرخ الشهير الذى دون تاريخ وطنه — وعدة آخر من الأخبار ، إلى فرنسا وإلى الأمم الواقعة فى شرقها ، ليثيروا بذلائقهم حماسة الشعوب النصرانية من البرنيه إلى البحر الأسود ، لكي تساهم فى كفاح الصليب المقدس .

وفى الوقت الذى كان فيه البابا ومطران طليطلة يعملان للحصول على معاونة أوروبا النصرانية ضد المسلمين ، كان ألفونسو النبيل يعمل لجمع كلمة الملوك الأسبان ضد الموحدين ؛ ودعا فى سبيل هذه الغاية إلى مؤتمر عقد فى قونقه ، ولم يشهده — إلى جانب ألفونسو — سوى بيدرو الثانى ملك أراجون ، ولكن شهده مندوبون من قبل باقى الملوك النصارى ، ووعدوا بتقديم العون من جند ومال . وهكذا انقضى عام ١٢١١ م فى القيام بأهبات عظيمة لتابعة الحرب ؛ وقبل انتهاء الشتاء اجتمعت فى طليطلة عاصمة قشتالة التى اتخذت مكاناً لاجتماع الجند قوات عظيمة ؛ وفى أوائل العام عاد المطران ردرىك ومعه جمع غفير من الفرنسيين ؛ وتلا ذلك أن اجتمعت وفود مدن اسبانية كثيرة ، وفرسان الولايات القشتالية المختلفة ، وأساتذة فرسان قلعة رباح ، وشتت ياقب ، والاسبنتارية والداوية ، ورؤساؤهم وإخوانهم المحاربون ؛ واجتمع القوامس والفرسان القشتاليون إلى الملك ألفونسو النبيل فى أكل هيئة وسلاح ، إظهاراً لمكانتهم وإرهاقاً لمدومهم ؛ وكان القوامس من أسرة لارا يمتازون بالشجاعة والفروسية والغنى ؛ ويمتاز السكونت ديجو لوبيز ، ولوبى دياز دى هارو بالفطنة والبراءة فى القتال ؛ وكان يرأس فرسان قلعة رباح جوميز راميريز ، وفرسان شنت ياقب بيدرو آرياس ؛ ويرأس الاسبنتارية ولد جوتيرو هرمنجلد ؛ وكان الأساقفة يرأسون صفوف المحاربين من المدن

(١) راجع فى حوادث هذا الحصار روض القرطاس من ١٠٦ و ١٠٧ .

المختلفة ، وقد تولوا الانفاق على حشدهم ؛ وأرسلت المجالس البلدية رجالها الصالحين للقتال مجهزين بالخيول والسلاح ، وأحمال المؤن ، ليستطيعوا إمداد المحتاجين من فاضل طعامهم .

ومع أنه وفدت على اسبانيا جموع المحاربين من جميع البلدان الأوربية ليقاتلوا دفاعاً عن النصرانية متقلدين الصليبان ، فقد كان الفرنسيون أكثر الوافدين عدا ؛ وقدم جيوم أسقف بوردو ، وأسقف نانت وغيرهما من الأحرار الفرنسيين في جماعة بأسلة من الفرسان ، وجيش كبير من المشاة من ولايات جويان ولينوج وسانتونج وبري وبواتو وأنجو وبريتانيا ؛ وقاد أرنولد مطران أربونة خصم الألبين العنيد^(١) جيشاً من لانجدوك وبروفانس وبرجونية ، يضطرم شغفاً للقاء المسلمين . ووفق أرنولد إلى ما هو أهم من ذلك ، وهو أن يحمل بذلاقتة وضراعتة ملك نافارا — بعد أن كان غاضباً من ملك قشتالة — أولاً على أن يؤيد قضية اسبانيا بالمال والجند ، ثم بالأخص على التعهد بأن يسير في فرسانه ، وأن يشترك بنفسه في القتال .

وفي شهر مايو ، اجتمع في قشتالة من المحاربين الصليبيين الذين هرعوا من جميع أنحاء أوروبا لمساونة اسبانيا ، زهاء ألفين من البارونات مع حاشياتهم ، وعشرة آلاف من الفرسان وحملة الحراب ، وخمسين ألفاً من المشاة ، أو بمباراة أخرى اجتمع من هؤلاء جيش يبلغ زهاء سبعين ألف مقاتل . وكانت في الطريق قوات أخرى لم تصل إلا فيما بعد . وفي أول يونيه ، في يوم عيد التثليث ، قدم بيدرو الثاني ملك أراجون في جيشه الضخم ، واستقبله ملك قشتالة بمنتهى الحفاوة ؛ وكان يصحبه في هذه الحملة معظم الأمراء التابيين ومشاهير الفرسان ، وطائفة كبيرة من فرسان الداوية ، وقد كانت لهم في أراجون أملاك شاسعة . وأخيراً قدمت الأمداد من ليون وجليقية والبرتغال ؛ وكانت القوات البرتغالية تتألف من

(١) الألبين Albigences هم فرقة من الملاحدة ظهرت في جنوبي فرنسا في أوائل القرن الحادي عشر ، واتخذوا مدينة « الهى » مركزهم ومنها اشتقوا اسمهم ، وشهروا على الكتلثة ومبادئها ورسومها حرباً شديدة . واستمروا يبتنون عقائد الإلحادية حتى نظم سيمون دي مونفور في أوائل القرن الثاني عشر عليهم حرباً صليبية ، انتهت بتمزيق شملهم .

عدد كبير من الفرسان والمشاة البارعين يقودهم أمير برتغالى هو بيدرو ثالث أبناء الملك سانشو الأول ؛ وكانت القوات الليونية بقيادة سانشو فرنانديز أخى ملك ليون ؛ ولم يحضر ملك ليون بنفسه إذ قامت يدينه وبين ملك قشتالة خصومة جديدة من أجل بعض أماركن على الحدود . أما ملك نافارا فلم يكن استكمل أهيته بعد ، وكان قدومه منتظراً .

وكانت طليطلة وأحوازها تقدم يومئذ منظرآ يفيض حركة وحياء ، وكانت جموع المحاربين من الكتلة بحيث تعذر أن تضمهم المدينة جميعاً ، واضطرت ألوف كثيرة منهم أن تقيم فى الخيام خارج المدينة ، فى الحدائق الملكية والحقول ، وكانوا مزيجاً من الأزياء والسلاح ، والعمادات واللغات . وكان من الصعب أن يسود النظام والسلام بين هاته الشعوب المتباينة . وكان ملك قشتالة قد أعد كليات عظيمة من المؤن ، بحيث أمكن بالرغم من كثرة الجموع أن تمون كلها دون نقص ، وقدم الملك ألفونسو إلى جموع الوافدين الخيام والأطعمة ، والخليل ، وكل ما يحتاج إليه ؛ ومع ذلك فإنها لم تحجم عن قطف ثمار أشجار الفاكهة فى أحواز المدينة وإتلافها ، وقطع أخشاب الكروم والأشجار الحرقها واستعمالها فى إنضاج الطعام . واقتربت بهذه الفوضى التى سادت جميع الوافدين أموراً خطيرة ؛ من ذلك أنها بدأت فى مطاردة يهود طليطلة ، وبذل ألفونسو مجهوداً عنيفاً لى يحول دون قتلهم جملة ، ومع ذلك فقد قتل كثيرون منهم فى بداية هذا الانفجار .

وليس أدل على الأهمية التى كان يعلقها الغرب يومئذ على هذه الحملة الصليبية ضد مسلمى الأندلس ، من اشتراك الجموع فيها بصورة فعلية ، وكون آلاف منهم كانوا يتقلدون الصليب ؛ كذلك لا ريب فى أن مقادير عظيمة من المال والسلاح والمؤن أرسلت إلى ملك قشتالة من فرنسا وإيطاليا . وكان ذلك مما مكّن الملك ألفونسو النبيل من أن يعد جيش الوافدين الذى بلغ فى أوائل يونيه سنة ١٢١٢ م أكثر من عشرة آلاف فارس ، ومائة ألف من المشاة ، فضلاً عن المؤن ، برواتب مالية ، قدرها عشرون شلناً للفارس ، وخمسة شلنات لكل محارب من المشاة ،

هذاعدا ما كان يقدمه من الهدايا النفيسة إلى القادة والزعماء .
 وفي رومة أمر البابا أنوسان الثالث بالصوم ثلاثة أيام والاكتفاء بالخبز والماء
 التماسا لانتصار الجيوش النصرانية ؛ وأقيمت الصلوات العامة ، وعمد رجال الدين
 والرهبان والراهبات إلى ارتداء السواد والسير حفاة ، وسارت المواكب في
 الطرقات خاشعة متمهلة من كنيسة إلى أخرى . وألقى البابا نفسه موعظة صليبية ،
 طلب فيها إلى النصراني أن يضرعوا إلى الله التماسا لنصر الاسبانيين .
 ولما غصت طليطلة وأحوازها بمجموع المحاربين ، واستراحوا من وعناء السفر ،
 تأهب الجيش النصراني للسير إلى لقاء العدو في ٢٠ يونيو سنة ١٢١٢ م ونظمت
 القوات في ثلاثة جيوش ، حتى لا يصاب الجند أثناء السير بنقص في المؤن ؛ وسار
 في الطليعة جيش الوافدين ، وقد قدرته بعض الروايات بستين ألف محارب على
 الأقل ، وقدره البعض الآخر بمائة ألف ؛ وكان تحت إمرة القائد القشتالي ديجو
 لوبيز دى هارو ، ويقود وحداته المختلفة مطران أربونة ومطران بوردو ، وأسقف
 نانت ، وعدو من القوامس من غربي فرنسا وجنوبها . وكان يقود الجيش الثاني
 الملك بيدور الثاني ، وهو مؤلف فقط من الأرجونيين والقطلونيين ، وفرسان
 الداوية . أما الجيش الثالث وهو أضخم الجيوش الثلاثة ، ويتألف من جنود
 قشتالة وليون والبرتغال ، وفرسان قلعة رباح وشتن ياقب والاسبثارية ، فكان
 يقوده ملك قشتالة ، ويقود وحداته كبير أساتذة جمعيات الفرسان ، والأمير الليوني
 سانشو فرنانديز ، والأمير البرتغالي بيدرو ، وردريك مطران طليطلة ، وخمسة
 أساقفة آخر . وتقدر الرواية عدد الفرسان في هذا الجيش بثلاثين ألفا ، ولكنها
 لم تحدثنا عن عدد المشاة .

وفي اليوم الخامس من بدء السير من طليطلة ، في الرابع والعشرين من يونيو
 هاجم المحاربون الوافدون حصن مجلون وقتلوا جميع من فيه ؛ ولكن المؤن أخذت
 في النقص . وأخذت حرارة الجو ترهقهم ، فبدأ كُن حاستهم خبت على أثر هذا
 المجهود الأول ، وفكر كثير منهم في العود إلى الوطن ، وكان ملك قشتالة أول من

قدم إلى مجلون في اليوم التالي ، فهدأ روعهم بتوزيع المؤن الوفيرة عليهم واستطاع أن يقنعهم بالسير معه إلى قلعة رباح ، وكانت بها حامية قوية من الموحدين ؛ ولقى النصارى في عبور نهر وادى يانه الذى تقع عليه المدينة صعبا فادحة ، إذ كان المسلمون قد نثروا على جناحيه الصنابير والخوازيق الحديدية ؛ وهاجت الجيوش الثلاثة قلعة رباح من جوانبها الثلاثة المنيعه ، حتى سقطت المدينة في أيديهم ، ولكن القلعة كانت مجهزة بالأبراج العالية والأسوار المنيعه ، وكان يخشى أن تقتضى حصاراً طويلاً . وأبدى ملك أراجون والمحاربون الوافدون في اقتحام المدينة شجاعة عظيمة ، ولكنهم تكبدوا أفدح الخسائر .

وقبل أن يعود النصارى إلى مهاجمة القلعة ، عقد مجلس حربى للبحث فيما إذا لم يكن من الأفضل أن يقتصر على تطويق القلعة ، دون محاولة افتتاحها ، وأن يبدأ بالسير توالى لمهاجمة المدو (المسلمين) ، وكان يربط على مسيرة بضعة أيام ، في نهاية مقاطعة « منشا » ، بين جيان وقرطبة . ولكن غلب رأى بوجوب مهاجمة القلعة ، إذ كان من المعروف أنها تحوى أموالا طائلة ، وكميات عظيمة من المؤن ، التى بدأ النصارى يشعرون بنقصها . وما كاد المسلمون يقفون على نية عدوهم ، حتى بعث قائد الموحدين^(١) ، سرا وتحت جنح الليل ، رسولا إلى ملك قشتالة ، يعمده بتحف عظيمة وتسليم القلعة إذا سمح للحامية أن تنسحب بسلاحها ؛ وكان ملك قشتالة يميل إلى إجابة هذا الطلب لكى يستولى على القلعة بسرعة ؛ ولكن الأرجونيين والمحاربين الوافدين أبوا الإصغاء إلى أية تسوية تحقن بها دماء الحامية . بيد أنه لما أبدى المسلمون عزيمتهم على المقاومة بأفعى ما استطاع ، وافق النصارى أخيراً على أن تنسحب الحامية دون سلاحها . وهنا أبدى الأمراء الأسباب تفوقهم في فهم الحق ومبادئ الفروسة على إخوانهم في الدين من أبناء أمم الغرب الأخرى . ذلك أنه بالرغم مما حصل عليه المسلمون و قلعة رباح من حق الانسحاب آمنين على أنفسهم ، أراد المحاربون الوافدون أن يقتلوا بالنسليمين

(١) كان هذا القائد هو أبو الهجاج يوسف بن قاسم ، وكان من ش. ميراجيد ؛ وقد

فصل صاحب روض القلطاس . ووقفه وسعيه لإمداد المسلمين (ص ١٥٧)

عند انسحابهم . ولكن ألفونسو ويبيدرو والفرسان الأسبان أعلنوا بقوة وحماة أنهم لا يسمحون بمثل هذا النكث ، وتولوا حماية المسلمين من كل أذى حتى ابتمدوا آمنين . ووجد ألفونسو في قلعة رباح كميات عظيمة من المؤن قسمها بالنصف بين المحاربين الوافدين ، وبين الأرجونيين ، ولم يحتفظ منها — فيما قال — لنفسه أو لجنده بشيء ؛ ولكن المحاربين الوافدين اعتقدوا فيما يبدو أن ملك قشتالة قد استأثر لنفسه بجميع التحف والنفائس . وسلمت قلعة رباح نفسها إلى جمعية الفرسان التي تسمت باسمها ، والتي ملكتها من قبل . وألقي الاستيلاء على قلعة رباح بذور الشقاق في الجيش النصراني . ذلك أن المحاربين الوافدين ، أسخطهم أن تنجو الحامية من بطشهم ، وحقدوا على ألفونسو لأنه فيما اعتقدوا حرّمهم من الغنائم المنشودة ، وأبوا — بحجة عدم احتمالهم لجواسيبانيا الحار — أن يتابعوا الحرب من أجل المملكة الأسبانية قائلين إنهم وفوا بعهدهم في مقاتلة المسلمين بما خاضوا من معارك أمام أسوار مجلون وقلعة رباح ؛ وأيدهم مطران بوردو أعظم أحبارهم ، في غضبتهم وفي قرارهم ، وتمسكوا برأيهم بالرغم من كل رجاء وإقناع ووعود ؛ وفي الحال بدأوا السير عائدين إلى أوطانهم ، ولم ير الأسبان باعثاً لهذا الرحيل الفجائي لأولئك المحاربين المتحمسين من أجل الصليب سوى الحنين القاهر إلى الوطن ، أو وسوسة الشيطان . وقد وقع افتراقهم عن الجيش الأسباني على مقربة من جيش الأعداء (المسلمين) ، الذي كانت تعد العدة لمهاجمته ، وأغضوا عن قضية دينهم وعن شرفهم ، لإرضاء لشهوتهم في الانتقام من ملك قشتالة ، الذي بالغ في الاساءة إليهم فيما زعموا ؛ ولم يبق من أولئك المحاربين سوى أرنولد أسقف أربونة والكونت تيوبالد بلاسكون ، وهو أسباني المولد ، وكانا قد أتيا إلى اسبانيا بنحو مائة وخمسين فارساً من لانبجودك وبواتو ، وغادر الباقون وهم زهاء خمسين ألف مقاتل الجيش الأسباني صوب جبال البرنيه ، غاضبين حاقدين ، وخشى الأسبان عواقب اعتدائهم ونهبهم ، فأغلقوا في وجههم جميع المدن . ومع أن رحيل هذا العدد الجم في تلك الآونة كان شديد الوقع على النصراني

الأسبان ، فإنهم لم يفقدوا مع ذلك شجاعتهم ، بل ساروا إلى لقاء العدو بعزم أقوى ، وأذكى شجاعتهم استيلاؤهم على حصن الأرك ، وهو المكان الذى لقي فيه ملك قشتالة قبل ذلك بسبعة عشر عاماً هزيمة الشنعاء ، وما حدث عندئذ من مقدم سانشو ملك نافارا ، وقد سد الفراغ الذى أحدثه الراحلون بفرسانه ، وهم بالرغم من قلة عددهم ، أشد براعة وإقداماً .

وعلى أثر ذلك سار الملوك الثلاثة المتحالفون إلى مدينة سرطيرة ، وهى القلعة التى افتتحتها سلطان المرابطين فى العام السابق بعد حصار طويل . وعرض الملوك هنا جيشاً لم تخرج أسبانيا النصرانية مثله من قبل ؛ بيد أنهم لم يقفوا بسرطيرة لمناعتها واتقاء الحصار لاطائل منه ، واخترقوا فى الثانى عشر من يونيو ممر مورادال فى جبال سيارا مورينا (جبل الشارات) لى يلقوا العدو فى ناحيتها الأخرى .

وكان محمد الناصر قد عمل إلى ذلك الحين على اجتناب المعركة بالرغم من كثرة جموعه خشية بأس المحاربين الصليبيين فى الجيش الأسبانى . ذلك لأن شهرة الفرسان الفرنج كانت قد سارت من المشرق إلى المغرب ، ولكنه لما وقف على رحيل أولئك المحاربين ، أخذ يسمى إلى لقاء العدو ، مؤملاً أن ينزل بالنصارى الأسبان هزيمة كالتى أنزلها بهم أبوه فى موقعة الأرك . وكان يحز فى نفسه فقد قلعة رباح ؛ وبالرغم من أن حاكمها ابن قادس بذل كل ما يستطيع للدفاع عنها ، فإن الناصر اعتقد فيما يظهر ، أنه قصر فى هذا الواجب ؛ ولذا ما كاد ابن قادس يصل مع الناجين من جنود الحامية إلى المعسكر ، حتى أمر الناصر بقتله جهاراً نزولاً على نصيح وزيره أبى سميد بن جامع ، وكان رجلاً كثير اللس يبغيض كل الزعماء الموحدين والأندلسيين ؛ وكان لمقتله أثر سيئ فى الجيش كله ، ولا سيما بين جند الأندلس ، ذلك لأنهم كانوا يعلمون أن ابن قادس قد بذل كل المستطاع ، وأن مقتله لم يقع إلا بتحريض الوزير الذميمة .

وعلى أثر سقوط قلعة رباح ، غادر محمد الناصر مع جيشه الرئيسى مدينة جيان ، وسار إلى ضفة نهر الوادى الكبير اليمنى نحو بياسة ، واحتلت سريرات من

خيرة جنده ممرات جبل الشارات (سيارامورينا) المؤدية إلى أبدة وبياسة . ومع ذلك فقد استطاع النصارى بعد أن نفذوا إلى ممر مورادال أن ينتزعوا بعد معركة عنيفة قلعة فيرال الواقعة في قمة الجبل ، وكان الموحدون قد قصروا في شحنها بالمدد الكافي من الجند . ولكن النصارى لم يفتنموا بأخذها كثيراً ؛ ذلك لأنه لم يكن في استطاعتهم نظراً لانعدام المياه في تلك المغاوز الشاقة ، أن يعالوا المكث بها دون التمرض لأعظم الأخطار ؛ هذا إلى أنهم لم يروا سبيلاً للاستيلاء على الممرات الجبلية التي شحنت بالرجال ورتب الدفاع عنها أعظم ترتيب . وكان المسلمون عند ما رأوا تمذر الدفاع عن الآكام المرتفعة ، قد احتلوا بخيرة جندهم الممر الذي يفضى من أعلى الجبل إلى سهل تولوزا . وقد أكد ألفونسو ملك قشتالة في رسائله إلى البابا أنوسان الثالث ، أنه يستحيل على قوى العالم كلها أن تخترق هذا الممر إذا تولى الدفاع عنه ألف مقاتل فقط . ففي ذلك المأزق الخطر ، كان يتمذر القيام بأية خطوة أخرى ، وكان يبدو أن خير ما يمكن عمله ، أو بالحرى أن المخرج الوحيد الممكن لاتقاء الهلاك من الجوع والعطش في ذلك الجبل الوعر هو الارتداد ومحاولة دخول الأندلس من طريق آخر . وبينما كان ملك قشتالة يصصر على رفض أية حركة ارتداد — لأنه كان يأبى أن ينسب النصر إلى الأعداء في حين أنه لم يشترك معهم بعد — إذ تقدم راع من رعاة هذا المكان ، ووعد بإرشاد الجيش إلى طريق يقع في مرتفع آخر ويمكن سلوكه دون أن يفتن العدو ، وينحدر الجيش منه إلى سهل أبدة دون أن يتمكن العدو من إعاقته . ولما تحقق الملوك — بإرسال القائد المحرب ديجو لويز دى هارو لمعاينة الطريق — من صحة هذه الرواية ، أمضوا في نفس اليوم (يوم السبت ١٤ يولييه) برحيل الجيش ؛ وسار النصارى بإرشاد الراعى ، الذى اعتبر عندئذ منقذاً أرسل من عند الله ، فاحتلوا المرتفع المذكور ، وكان به بسيط شاسع يصلح لنزول الجيش ، وحصنوا السكان ، وبقي الملوك في مكانهم مع القوات الاحتياطية لإخفاء لحركة الجيش عن المسلمين ؛ ثم غادروا في النهاية قلعة فرال فاحتلها المسلمون على الأثر ، معتقدين أن النصارى قد ركنوا إلى الفرار .

ولكن سرعان ما وقف المسلمون على مكان عدوهم الجديد ؛ وبالرغم من المزايا التي حصل عليها النصارى باحتلال هذا المكان ، فإن سلطان الموحدين ، واثقاً من تفوق قواته ، دعاهم إلى القتال في نفس اليوم ؛ ولكن الملوك الأسبان لم يقبلوا هذه الدعوة ، إذ كان جيشهم منهوك القوى من أثر السير إلى مكانه الجديد ، ولم يكن قد تم تحصين المعسكر .

وفي اليوم التالي نظم محمد الناصر جيشه لخوض المعركة ، ولكن الملوك النصارى آثروا الاعتصام بموقعهم المنيع ، ولم يسمحوا إلا لبعض الفرسان الهواصل بالالتحام مع العدو في مبارزات ثنائية . ولم يرد النصارى أن يكبدوا صفو الأحد بأعمال الحرب الدموية ، بل أرجأوها إلى اليوم التالي . ولم يكن من الميسور أن تؤجل المعركة بعد ؛ إذ بدأت المؤن في النقص واضطروا إلى مراعاة أشد الاقتصاد في الماء . ووقف الناصر على أحوال المعسكر النصراني من بعض الخوذة ، وأخذ يفاخر بأنه لن تمضي ثلاثة أيام أخرى حتى يقع الملوك الثلاثة المحصورون في الربي وجيوشهم أسرى في يديه .

وبعد أن عكف الجند النصارى على الصلاة والدعاء وتلقوا البركة لخوض المعركة ، والغفران البابوي العام على يد الأساقفة ، رتب الملوك الأسبان في الصباح الباكر ، من يوم ١٦ يولييه جندهم لخوض المعركة على النحو الآتي ، وقد رابط البعض على سفح الجبل ، والبعض فوق الربي : تزعم ألفونسو ملك قشتالة قاب الجيش ، مع احتفاظه بنوع من الإشراف على الجيش كله ، وكان القلب يضم أربعة فرق ، تتألف الأولى من سكان الجبال القشتالية ويقودها ديجو لويز ؛ وتتألف الثانية من فرسان قلعة رباح وشتت ياقب والاسبترية والداوية وبعض جنده الحدود القشتالية ، ويقودها الكونت جونزالو نونيز دى لارا ؛ والثالثة تتألف من جنود وفرسان من قشتالة القديمة واشتوريش وبسكوينه ويقودها الكونت ردريك دياز كاميروس ؛ وتتألف الرابعة من الجند الاحتياطى من طليطلة وبعض قوات ليون ، ويقودها الملك نفسه ؛ وكان يرافق القوات الاحتياطية ، فضلاً عن المطران

ردريك الطليطلى مؤرخ هذه الواقعة ، عدة أساقفة من قشتالة وليون مع جندهم . وكان يقود الجناح الأيمن سانشو ملك نافارا الباسل ، مؤلفاً من فرسانه ومن جند سُريا وآبله وسقوبية ومدينة سالم ، وكذلك من الفرسان الفرنسيين الذين أتى بهم أرنولد مطران أربونة ، وجند جليقية والبرتغال وعلى رأسهم الأمير البرتغالي . أما الجناح الأيسر فكان ينقسم أيضاً إلى أربع فرق ؛ ويتألف كله من قوات أراجون ما عدا بعض جند المشاة القشتاليين ، ويقوده الملك بيدرو ومن حوله الأحرار والعظماء والأرجونيين .

وقسم محمد الناصر الذي يربط بقواته تجاه النصارى في سهل تولوزا ، جيشه وفق الأوضاع الموحدة إلى خمس فرق . وكانت الفرقة الأمامية تتألف من المتطوعة ، وهم الذين يتطوعون من تلقاء أنفسهم للجهاد أو الموت في سبيل الإسلام ، وتقدرهم الرواية العربية بمائة وستين ألف مقاتل . واصطفت القوات الأندلسية في الميمنة والقبائل البربرية في الميسرة . وأما القلب والقوات الاحتياطية فكانت تتألف من صفوة الجيش من الجند المغاربة والنظاميين ، أو بمباراة أخرى من الجند الموحدين . وضرب محمد الناصر قبته الفخمة الحمراء ، في وسط الصفوف وارتبط أمامها جواده المسرج ؛ وقعد في داخلها على درقته ، إيذاناً باقتراب المعركة ؛ واحتاط بالقبعة حرس الأمير مشاة وفرساناً ، من الموحدين والعبيد ؛ وشهر الجند في اتجاه العدو حراهم فكانت سداً منيعاً دون اختراقه الموت ؛ ومدت في الوقت نفسه حول القبة نصف دائرة من السلاسل الحديدية القوية ، حتى أصبح سلطان المسلمين وكأنه يجلس في حصن منيع . وكان بوسع النصارى أن يروا من الرابي العالية جموع المسلمين التي لا تحصى ، وقبة سلطان الموحدين الحمراء ، وأن يميزوا ما حولها من الجوع .

ولما تمت أهبات المعركة خرج سلطان الموحدين من قبته ، وهو يرتدى عباءة حرب سوداء . من مغلقات جده عبد المؤمن ، وقد رفع المصحف باحدى يديه ، وشهر سيفه بالأخرى ، وأعطى إشارة القتال والهجوم ، بينما كان قرع

الطبول الضخمة يدوى بشدة في جميع الأنحاء .

وما كادت جموع التطوعة من جانب المسلمين تلتقي بجنود الجبال القشتاليين وجموع الفرسان من جانب النصارى ، ويشتبك الفريقان في معركة حامية ، ويتحرك الجناحان في كل من الجيشين تجاه بعضهما حتى غدت المعركة عامة . وكان هجوم التطوعة المسلمين شديداً في البداية ، ولكنهم لم يستطيعوا اختراق صفوف الفرسان القشتاليين ؛ ذلك أن هؤلاء كانت تؤيدهم جماعات الفرسان الدينية ، فاستطاعوا أن يردوا جموع المدو وأن يعزقوها ، واستشهد ألوف من المسلمين في سبيل دينهم . ولكن القشتاليين حينما عمدوا إلى مطاردة التطوعة المسلمين ، وتقدموا بذلك ظافرين ، من قلب الجيش الإسلامى حيث حشدت صفوة الجند ؛ لقوا أشد مقاومة ، وسرعان ما اضطروا إلى مغادرة مراكزهم الأمامية ، وارتدوا فارين وتابعهم الفرسان القشتاليون في فرارهم .

ولما رأى ملك قشتالة من الربى تطور المعركة على هذا النحو السيئ ، أراد أن يسير بنفسه على رأس الجنود الليونيين والطليطليين ، وهم جماعة مختارة كانت تؤلف القوة الاحتياطية ، وأن يقتحم الميدان ليحاول محاولة اليأس الأخيرة ؛ وكانت كلماته التي قالها لطران طليطلة وهي « إن الساعة قد حانت لنلقى الموت المجيد » تدل على أنه لم يكن يؤمل النصر بعد . ولكن اعتراضات المطران والقواسم ردت ألفونسو عن أن يخوض بنفسه أعظم الأخطار . وأرسلت في الوقت نفسه قوات من أشجع الجنود لإمداد الجيش المرتد ، وسار الأخبار أنفسهم على رأس الجند إلى قلب المعركة ، وهم يرفعون أعلاما عليها صورة المسيح والمذراء ، ويثيرون بذلك أعظم الحماسة في نفوس الجند .

وانتهزت جماعات الفرسان والجند الجيليون فرصة تقدم الأمداد الجديدة ، ليلموأشمتهم وينظموا جموعهم ، ثم عادوا فاستأنفوا زحفهم بمؤازرة القوى الجديدة وهم يحطمون كل مقاومة في اتجاه قلب الجيش الإسلامى حيث كان محمد الناصر وحرسه . وفي الوقت الذي صوبوا فيه هجومهم على دائرة السلاسل الحديدية التي

احتشدت من ورائها ألوف مؤلفة من الحرس شاهرين الحراب ، كان جناح الجيش الاسلامى قد حط ؛ ذلك أنه سرعان ما بدأت الموقعة حتى ركن الأندلسيون الذين كانوا يقاتلون مرغمين مع الموحدين إلى الفرار ، وترتب على ذلك أن وقع اضطراب عظيم في الجيش الاسلامى ، ولم يصمد في القتال ، سوى جند الموحدين النظاميين والحرس من السود والمغاربة ، فقد لبثوا من وراء السلاسل يقاومون النصارى ، ويحاولون انتزاع التصر منهم ؛ ولبثوا من وراء هذا المعقل الصناعى يردون الهجمات التى يصوبها النصارى إليهم من كل صوب بشجاعة وجلد لامثيل لهما ؛ ولكن الفرسان النصارى ضاعفوا جهودهم لتحطيم الدائرة الحديدية ، ووثب الكونت القارونونى دى لارا على رأس كتيبة من الفرسان القشتاليين وفى يده العلم الملكى ، فاقترعهم الدائرة غير مبال بالحراب المصوبة أمامها ؛ واقتحمها فى الوقت نفسه الملسكان سانشو ويبيدرو من الجانبين المتقابلين ، ونفذوا إلى قلب الجيش الاسلامى ، بعد أن مزقوا الجموع التى تصدت لهما .

ولما حطمت الدائرة الدفاعية غدا نصر النصارى تاما حاسما . وكانت هزيمة المسلمين فادحة . ولبث محمد الناصر يذكى حماسة حرسه حتى آخر لحظة ؛ ولما رأى الهزيمة حلت ببجيشه ، ووقف على موت ولده الأكبر الذى قتل فى المعركة وهو يقاتل قتال الأبطال ، لم يرد فيما يبدو أن يعيش بعد ، فقمع فى خيمته على درقته ، والعدو الظافر يدنونه . فأقبل إليه أعرابى ، ونبأه بفرار جنده ، وناشده ألا يقعد بعد ، فقال محمد « صدق الرحمن وكذب الشيطان » ؛ ثم امتطى صهوة جواده أخيراً ، وغادر ميدان الحرب مسرعاً مع نفر من أصدقائه المخلصين ، واتجه صوب بيباسة ، ولكنه لم يقف بها ، بل سار منها توا إلى إشبيلية .

وتعرف هذه الموقعة التى أحرز فيها النصارى هذا النصر الباهر ، وكانت ضربة قاضية لسيادة الإفريقيين فى اسبانيا ، فى الرواية الأسبانية بموقعة نافاس دى تولوزا Navas di Toloza أو موقعة أبده ؛ ولكنها تعرف فى الرواية الاسلامية بموقعة العقاب^(١) ، ويضع المؤرخون المسلمون تاريخها فى يوم ١٥ صفر

(١) يتبع المؤلف فى سياق حديثه عن الموقعة رواية ابن أبى زرع فى روض القرطاس =

سنة ٦٠٩ هـ ، الموافق ١٦ يولييه سنة ١٢١٢ م ، ويمتبرونه من أسود أيام تاريخهم ؛ وينسبون الهزيمة من بعض الوجوه إلى غطسة مليكهم ، إذ وضع كل ثقته في مئآت ألوف الجند ، وفي دربتهم ، وفي مقدرة قواده ، وفقد بذلك عون البارى جل وعلا ؛ ويرمون من جهة أخرى الأندلسيين بالجبن والخيانة إذ ركنوا إلى الفرار بعد معارك قصيرة . أما النصارى فينسبون نصرهم على عدو يفوقهم ~~ضعفين~~ في العدد إلى عون الله ، الذى هبى لهم بما عمدوا إليه قبل الموقعة من الصلاة والابتهاال ؛ ولذا فإنهم لم ينسوا أن يقدموا شكرهم إلى الله فى حفلة قداس نظمها الأحرار والأسراء فى ميدان الحرب ، ورنلت فيها أناشيد الشكر والعرفان .

وإذا قارنا الروايات العربية والنصرانية ، وجدناها تتفق جميعاً ، فى أن عدد القتلى من المسلمين كان عظيماً جداً ؛ بل نجد المؤرخين المسلمين خلافاً لعادتهم يصورون هزيمتهم بأعظم مما يقدر الأسباب خسائر أعدائهم . ولما كان الملوك الأسباب قد أئذروا بالموت كل أسبابى يأمر مسلماً ، فقد هلك من المسلمين أثناء الفرار أكثر مما هلك فى الموقعة ذاتها . ذلك أن الأسباب لبثوا مدى أربع ساعات يطاردون أعداءهم الفارين ويقتلون كل من ظفروا به . وتقول الروايات العربية إنه لم ينبج من الجيش الإسلامى وقوامه ستمائة ألف مقاتل سوى مائة ألف ، وهو قول يحمل طابع المبالغة^(١) . ويقدم إلينا ثلاثة شهود عيان هم الملك ألفونسو ، ومطراناً طليطلة وأربونة عن خسائر المسلمين أرقاماً أقل ؛ فيقدرها ردريك الطليطلى بمائتى ألف ، والملك ألفونسو بمائة وخمسة وثمانين ألف فارس ، وعدد لا يحصى من المشاة . (وذلك وفقاً لأقوال بعض حشم السلطان محمد الدين أمروا فيما بعد) ، قتل منهم

== (ص ١٥٧ وما بعدها) وتعرف الموقعة فى معظم الروايات الإسلامية ، بموقعة العقاب ، وتسمى فى روض القرطاس أيضاً بمحصن العقاب (ص ١٥٨) ، ويضع ابن خلدون تاريخها فى أواخر صفر سنة ٦٠٩ هـ (ج ٦ ص ٢٤٩) راجع أيضاً المراكشى ص ١٨٣ ، والحلل الموشية ص ١٢٢ والاستقصاء ج ١ ص ١٩٣ .

(١) راجع روض القرطاس ص ١٥٩ ، والحلل الموشية ص ١٢٢ والمراكشى .

أثناء الموقعة نحو مائة ألف فقط ، وهلك القسم الأعظم أثناء الفرار . ويقدر المطران أرنولد خسائر المسلمين خلال الموقعة بستين ألفاً فقط ، ويقول إنه من الممكن أن يكون قد هلك منهم أكثر من ذلك أثناء الفرار . وقدرت الأميرة القشتالية برنجاريا في خطابها إلى أختها الملكة بلانكا ملكة فرنسا ، قتلى المسلمين بخمسة وثمانين ألفاً منهم خمسة عشر ألف امرأة قتلن بعد الموقعة . بيد أن الروايات النصرانية الوثيقة تجمع على أن خسائر النصارى كانت طفيفة جداً ، وتقدم إلينا أرقاماً لا يمكن تصورها . ذلك أن الملك ألفونسو والمطران رديك يؤكدان أنه لم يقتل من جانب النصارى سوى خمسة وعشرين ، ويقدر مطران أربونة خسائر النصارى بخمسين ، وتقدرهم برنجاريا بمائتين . وتقول الملكة بلانكا في رسالتها إلى أميرة شبنانيا أن قتلى النصارى بلغوا أربعمائة في الهجمة الأولى . ولكن من الواضح أنه حين المارك الأولى في بدء الموقعة حينما ارتد القشتاليون والفرسان أمام الموحدين بخسائر كبيرة ، لا بد أن يكون عدد القتلى من النصارى كبيراً ، ويقدم إلينا الراهب البريكوس الذي عاش قريباً من الموقعة ووعى أخبارها أحسن تفسير لهذا الرقم الضئيل لقتلى النصارى ، فيقول إنه هلك في الموقعة من المسلمين مائة ألف ، ولكن هلك من النصارى في نفس الوقت عدد كبير ، وإنه حينما انتهت الموقعة بالنصر ، لم يهلك من النصارى في مطاردة المسلمين سوى نحو ثلاثين مقاتلاً .

وظفر الأسبان في معسكر المسلمين بغنائم لا تقدر ، من الذهب والفضة ، وثمانين الثياب ، والأقمشة الحريرية ، والبسط ، والآنية الثمينة ، والنقود . ولم يعمد إلى النهب سوى المشاة وقسم من الفرسان الأرجونيين ، بينما شغل باقي الفرسان بالقضاء على قلول الجيش المهزم . ودهش الظافرون لما لقوا من دواب الجمل والمؤن ، ووجدوا من السهام وحراب الرمي والرمح في ميدان القتال وفي المعسكر كيات عظيمة جعلوا وقودهم منها أباناً ولم يأتوا مع ذلك على نصفها ، وذكر أحد المعاصرين أن نقلها كان يقتضى آلافاً من دواب الجمل .

وقد أشارت النسخة المطبوعة من الرواية الأسبانية العامة التي تحمل اسم ألفونسو الحكيم ، والتي تفيض بالقصص الخرافية ، إلى الموقعة بإيجاز ، ولكنها تزعم أنه حدث قبيل الموقعة بقليل أن ظهر في السماء صليب كبير شديد اللمعان بشيراً بالنصر المحقق . بيد أن هذه المعجزة لم يرد ذكرها في رواية المطرانين اللذين شهدا الموقعة ولا في رواية الملك ألفونسو ؛ بل لم يرد ذكرها في النسخ الخطية الوثيقة للرواية الأسبانية العامة ، فن المدهش إذاً أن نرى كثيراً من المؤرخين الأسبان يرددون ذكر هذه المعجزة ، ويمتقدون في صحتها ؛ وهذا مما لا يشفع فيه أنها كانت تذكر في العصر القديم ، في القديس الذي يعقد في ١٦ يولييه من كل عام في طليطلة ، باسم « ظفر الصليب » .

وكان من آثار هذا النصر العظيم أن استطاع النصارى بسهولة أن يفتحوا عقب الموقعة بأيام قلائل عدة حصون مثل فرال ، وبلقس وبانيوس وتولوزا وبياسة . ولم يكن في بياسة سوى المرضى والضعاف ، والظاهر أنها كانت بمثابة المستشفى للجيش . وكان هؤلاء التمساء قد احتشدوا في مسجد المدينة الكبير ، ينتظرون مصيرهم جزعين ؛ فشاعت قسوة النصارى أن يجهزوا عليهم جميعاً بالسيف ما عدا قلائل منهم أخذوا أسرى . بل ذهب النصارى الذين أعمتهم نشوة الظفر في قسوتهم وبطشهم إلى أسفل درك حينما هاجوا مدينة أبده التي اعتصم بأسوارها القوية بعض فلول الجيش المهزم وسكانها العزل ؛ وكان المسلمون يأملون نظراً لمناعة المدينة الطبيعية والحربية أن يردوا هجمات أعدائهم حتى يحل فصل الشتاء ، ونظم النصارى في الواقع على المدينة هجوماً طاماً خسروا فيه كثيراً من القتلى ، ولم يسفر عن أى نجاح ؛ لولا أن استطاع الأرجونيون أن يتسلقوا الأسوار في أضعف نقطة فيها ، وأن يحتلوها . ولكن القلعة وبقي أطراف المدينة بقيت على ثباتها رغم جهود الأسبان ؛ وعندئذ رأى الملوك والقوامس أن خير الطرق وأكثرها إنسانية هي أن يقبل النصارى ما عرضه المسلمون ، وكان المسلمون حينما سقطت بعض أجزاء السور في يد الأرجونيين قد خشوا الماقبة ،

وأرسلوا إلى الملوك النصارى يمرضون عليهم فدية قدرها ألف ألف قطعة من الذهب (دينار) على أن يتركوا المدينة حرة يسكنها المسلمون وفقاً لشريعتهم وشعائر دينهم ؛ وهكذا قبل العرض وعقد الملوك مع المدينة اتفاقات بهذا المعنى نظراً لما أنسوه من صماب في افتتاحها . ولكن الأحرار العظيمين إلى دماء المسلمين ، أعلنوا بطلان هذا الاتفاق ، وطلبوا أن تسلم المدينة دون قيد ولا شرط ، فشاء ضعف الملوك أن ينقضوا العهد المقطوع ، منتحايين لذلك عذراً ، هو أن المسلمين بعد أن فتحوا أبواب المدينة للنصارى ، لم يؤدوا الفدية المفروضة عليهم في الحال ؛ وسرعان ما أطلق النصارى العنان لقسوتهم في معاملة هؤلاء المنكوبين ؛ فقتل من المسلمين في أبده زهاء ستين ألفاً ، وسبي مثل هذا القدر ، وهدمت الدور بعد أن خلت المدينة من سكانها ، وعندئذ أبدى الأحرار رضاهم ، ورتلوا أناشيد الشكر ضارحين إلى المولى أن يشملهم برحمته .

وانساق النصارى بعد أخذ أبده إلى اللهو والإغراق ، وهما قرينا حسن الطالع والسمة ، حتى استنفدت المؤن بسرعة ، وشعروا بنقص شديد في الحاجات الضرورية ؛ ثم دبت إليهم الأمراض وأهلكت منهم ألفاً ، فاضطر الجيش أن يمود أدراجه إلى قلعة رباح ، دون أن يتابع نصره بعد ؛ وهناك التقوا بالدوق ليوبولد النمساوي ، الذي قدم للعون في كتيبة من الجند ، فشكروه على حسن اهتمامه ؛ ولما علم أن الحرب قد انتهت عاد مع قريبه الملك بيدرو إلى أراجون . ودخل الملكان الأخران طليطلة في حفل نغم ، وسارا في موكب لا نهاية له من الأمراء والأحرار والجند وأفراد الشعب ، إلى كنيسة المذراء حيث أقيمت صلوات الشكر على ما أوتوا من النصر ، وتقرر تخليداً لهذه الموقعة المظفرة أن يحتفل في السادس عشر من يولييه كل عام في طليطلة ، ثم في قشتالة كلها فيما بعد ، باقامة حفل عظيم للشكر يسمى « بظفر الصليب » ، وأرسلت إلى البابا طائفة من الهدايا النفيسة منها خيمة حريرية ، وطبق كبير من الذهب ، وعلم محلي بالذهب ، وعرضت هذه الهدايا في كنيسة القديس بطرس تذكراً للنصر .

الفصل الثالث

بيدرو الثاني ملك أراجون

تحدثنا فيما تقدم عن القسط الذي قام به بيدرو في محاربة المسلمين في شبه الجزيرة ، ولا سيما عما قام به في موقعة العقاب ، وكذلك عن تحالفه مع قشتالة ضد ليون ونافارا ، ونقتصر هنا على التحدث عنه فيما يتعلق بتاريخ أراجون وحدها . خلف بيدرو الثاني ، وهو في الثالثة والمشرين ، في الحكم أباه ألفونسو ، في ١٦ مايو سنة ١١٩٦ ؛ والظاهر أن أمه الملكة سانشا حاولت أن تنهز فرصة حداثة فتنازعها الحكم ولقب الملك . ذلك أنه لم يضع يده على المملكة ، ولم يتلقب باللقاب الملك إلا بعد ذلك ، في المجلس الذي عقد في دروكة في ١٣ سبتمبر سنة ١١٩٦ بموافقة الطبقات الثلاث والملكة الأرملة ؛ وفيه جددت أيضاً جميع القوانين والحريات التي صدرت عن ألفونسو الأول ، وراميرو الثاني ، وريغوند برنجار الرابع ، وصودق عليها .

وما كاد بيدرو يلى الحكم حتى عمد إلى العمل على تأييد سلطة العرش ضد أتباعه الأقوياء من البارونات ، وهم عقب الفاتحين الأوائل ، فاسترد الوظائف العليا والإقطاعات التي كانت تتوارثها الأسر الكبيرة وفقاً للتقاليد ، معتمداً في ذلك على حقوق العرش ، وذلك لكي يوزعها من جديد وفق رأيه وتقديره . بيد أنه رأى اتقاء لما يشيره ذلك من سخط الأشراف أن يترك لهم الأراضي المقطوعة وما يتعلق بها من حقوق القضاء الأدنى لتبقى لهم بطريق التوارث ؛ وذلك بشروط خاصة تتعلق بالإخلاص للعرش ومعاونة الجيش وغيرها . أما السلطة القضائية

فتمعود إلى الملك . وقد قام الملك يومئذ بتوزيع خمسمائة وسبعين ضيعة لإقطاعية من سبعمائة توزيعاً جديداً ، ولكن المرجح أن أصحابها لم يذعنوا جميعاً لهذا التغيير . أما القضاة فكان يمينهم الملك ، إما لأجل معين أو لمدى الحياة ؛ وكان يختارهم من أكابر الأشراف (البارونات) Ricos أو يختارهم من بين صغار الناس ، أعنى من بين الفرسان Cavalleros بيد أنه كان يختارهم في الغالب من بين هؤلاء ؛ وكان معين دائماً فارساً في منصب قاضى القضاة لكي يحمد من نفوذ البارونات القوى حداً شديداً . وقد كان هذا فيما يبدو منشأ القضاء الأرجونى ، الذى علا سلطانه فيما بعد على سلطان الملك ذاته . وكان القاضى الأكبر ، أو قاضى القضاة ، فى عصر بيدرو الثانى الذى يعتبر مؤسس هذه السلطة القضائية ، يعتبر أعظم سلطة فى الدولة ، لا بالنسبة للرعية فيما بينهم فقط ، ولكن أيضاً فيما يتعلق بمنازعات الرعية ضد العرش . وكان عليه أن يحمى حقوق الحكومة ، وأن يمثل — باعتباره كبير القضاة — شخص الملك . كما أن عليه أن يحمى حقوق الأشراف والرعية من أطعام الملك ؛ وكان يتوقف على براعة الإدارة الحكومية ما إذا كانت هذه السلطة القضائية العليا يمكن أن تعمل لتوطيد السلطة الملوكية وتقويتها أم لا ، وقد كانت فى الحالة الأخيرة تنتزع من السلطة الملوكية أهم امتيازاتها .

وقد فقدت الاثنتا عشرة أسرة من البارونات — وهى التى كانت حتى عصر بيدرو الثانى تقبض فى أرجون على معظم الأراضى والغلات ، وتسيطر على الجيش والفرسان ، عدا السلطة القضائية ، فى ظل بيدرو الثانى — امتيازها فى الانفراد بتكوين طبقة الأشراف . ورفع بيدرو بعض موظفى البلاط ، والفرسان الذين يصطفهم ، إلى طبقة الأشراف العليا ، وأقطعهم جزءاً من الأراضى والغلات ، فاستطاعوا بذلك أن يقتدوا بالبارونات فى استئجار الفرسان ، وأطلق عليهم أيضاً لقب البارونات Ricos ، بيد أنه كان يطلق عليهم بارونات البلاط أو البارونات المملكون de Mesnada تمييزاً لهم من البارونات بالمولد . وكان هذا تقليداً للنظام القوطى فى تقسيم الأشراف إلى قسمين يطلق عليهما Gardingi و Palatini ؛

والأولون هم الذين يستطيعون وفقاً لولدهم وحقوقهم أن يملكوا الأرض ،
والآخرون هم الذين يتولون الوظائف ويملكون الأرض بمنحة من الملك .
وفضلاً عن ذلك ، فقد كانت الأمة في أراجون وفي معظم الممالك النصرانية
الأسبانية تقسم من حيث التمتع بالحرية إلى سبع طبقات ، أو بالحرى إلى سبعة
دروع على مثل ما كانت عليه في ألمانيا وفرنسا وإيطاليا ؛ والدروع الأول يحمله
الملك ، لأنه ليس مسئولاً أمام أحد ، والثاني يحمله أكابر الأحرار ، والثالث
البارونات بلولده ، لأنهم لا يستولون إلا أمام الملك فقط ؛ والرابع البارونات
الملكيون ، إذ هم عرضة للمسئولية أمام البارونات بالمولد ، وإن كانوا مثلهم في
حق التمتع بامتلاك الأرض . ومن هذه الطبقات الأربع تتألف طبقة الأشراف
العليا . والطبقة الخامسة هم حملة الأعلام الأحرار الذين لا يؤدون جزية ما ،
والسادسة تتألف من الفرسان ، وهم الذين يقطعهم البارونات من الصنفين ؛
والطبقة السابعة والأخيرة تتألف من باقي الأحرار ، وعامة سكان المدن الأحرار
الذين ولدوا في ظل الزواج .

وكانت مملكة أراجون قد نقصت مساحتها على أثر وفاة ألفونسو الثاني ،
وذلك نظراً لاقطاع ولاية بروفانس منها وإعطائها لأخي بيدرو الأصغر ألفونسو .
ولكن حدودها أصلحت بذلك ، وتخلصت من تلك المقاطعة النائية التي كانت
ترغم دائماً على حمايتها بالسيف من عدوان جيرانها الطامعين . بيد أن علائق
الأخوين بقيت وثيقة ؛ ولما هاجم ألفونسو أمير (كونت) بروفانس ، الكونت
دى فوركالكييه وحلفاؤه ، خف بيدرو إلى إنجاد أخيه في جيش ضخم ، وارتاع
الأعداء ، فأذعنوا إلى طلب الصلح ، وعقد الصلح بين الفريقين في سنة ١٢٠٢ م .
وعلى أثر ذلك عقد بيدرو قرانه بمارى ابنة الكونت جيوم الثامن صاحب
مونبلييه ، ووارثته بعد وفاته في ١٢٠٢ م ؛ وكانت هذه الأميرة قد اقترنت من
قبل بالكونت برناردى كومنيج ، وطلقت منه بحجة القرابة ؛ وفي يونيو سنة
١٢٠٤ ، احتفل ملك أراجون بزواجه بمارى ، وتمهد بالألا يتصرف في شيء من

أراضيها الموروثة ، كما تمهد لسكان مونبلييه الذين وافقوا على هذا الزواج بحمايتهم وتركهم أحراراً في التمتع بمبادئهم وتقاليدهم .

وبعد أن انتهى بيدرو من تنظيم شؤون مملكته الداخلية ، بمقد المجالس النيابية ، وأخذ المنازعات الداخلية ، وعمل على الحد من غطرسة الأشراف ، وعقد الصلح مع أمه سانشا ، وكانت ذات صلة وثيقة بكثير من الأمراء التابعين ، وكانت تؤلف حزباً للمناوأة العرش ، ففكر في أن التاج الأرجوني قد يكسب كثيراً من القدس والاعتبار إذا تسلمه من يدرجل من رجال الدين ؛ وكان بيدرو يشغف بمظاهر البذخ والبهاء ؛ بيد أن ذلك لم يكن وحده هو الباعث على ما اعتزمه من أن يتوج في رومه ؛ ولكنه كان يمول بالأخص على أن مثل هذا التتويج يدحض دعوى الأشراف الأرجونيين في أنهم أصحاب الحق في منح التاج ، ويقضي نهائياً على دعاوى ملوك قشتالة ، الذين كانت لهم السلطة العليا على أراجون حتى سنة ١١٧٧ م . وعلى ذلك فقد سافر بيدرو في حاشية كبيرة من الأشراف القطلونيين والبروفنسيين ورجال الدين ، إلى مرسيليا ثم إلى جنوة ؛ ثم غادر وحاشيته جنوة في خمس سفن بحجة السفر إلى بيزا ليعقد معها حلفاً لفزو الجزائر الشرقية (البليار) ، ولكنه لم يقف في بيزا بل رسا عند مصب نهر التيبر في ٨ نوفمبر سنة ١٢٠٤ ؛ وكان البابا أنوسان الثالث قد رتب كل شيء للاحتفال باستقباله في رومه .

وفي اليوم الثالث من مقدم بيدرو ، في يوم القديس مارتن ، خرج البابا والكرادلة في جمع حافل من رجال الدين والأشراف والشعب إلى دير «بنكراتيوس» وهناك بارك أسقف أوستيا ملك أراجون أمام الجمع الحاشد ؛ ثم وضع البابا التاج على رأسه ، وقدم إليه شارات الملك . وعلى أثر ذلك ألقى الملك القسم الآتي : «أنا بطرس (بيدرو) ملك أراجون أقسم وأتمهد ، بأن أكون دائماً مخلصاً ومطيعاً لسيدي البابا أنوسان وخلفائه ، وأن تكون مملكتي على مثل هذا الإخلاص والطاعة ، وأن أحافظ على دين الكاثوليكية وأقم كل ضروب الإلحاد ،

وأن أحمى حريات الكنيسة وحقوقها ، وأن أعمل على تحقيق العدالة والسلام في جميع أراضي المملكة ؛ كان الله والإنجيل في عونى .

وبعدئذ سار بيدرو في ثيابه الملوكية بجانب البابا إلى كنيسة القديس بطرس ؛ ووضع على هيكلها التاج والصولجان ، ورضاً إلى أنه يقدم مملكته إلى القديس بطرس ، وهنا قدم إليه البابا السيف ، دلالة على أنه يرد إليه المملكة مع خضوعه لأداء الجزية ؛ ووضع بيدرو على الهيكل وثيقة ، يقدم فيها مملكته إلى كرسى القديس بطرس ، ويتعهد هو وخلفاؤه بأن يؤدي إليه جزية سنوية قدرها ستون قطعة من الذهب ، ويتطلب نظير ذلك حماية البابا وتمضيده .

وصدر قرار بابوي يحدد رسوم التتويج للوك أراجون ومملكاتها ؛ وملخصه أنه يجب أن يجرى التتويج في سرقسطة على يد مطران طرّ كونه باسم البابا ، وذلك بعد أن يطلب الملك الإذن بذلك إلى صاحب السيادة عليه في رومة .

ولما عاد بيدرو إلى مملكته ، أبدى البارونات والفرسان تدمراً من خضوعه لأداء الجزية للكرسى البابوي ، وحاول الملك أن يهدئ خواطرم بتأكيده أنه تنازل عن حقوقه هو ولم يفرط في شيء من حقوقهم ، بيد أنهم رأوا في هذا التصرف افتثاً على حقوقهم خصوصاً عند اختيار الملك في حالة انعدام الوارث المباشر ، ورأوا أنه يحمل المملكة فروضاً جديدة لا تمود عليها بأية فائدة . وكذلك رأوا أن هذه الخطوة من جانب بيدرو في تحرير السلطة الملوكية من نفوذهم تقضى على كثير من ضروب تدخلهم في حقوق العرش . ذلك أنه لم يكن من المعقول أن يخضع بيدرو العلوح مختاراً لأداء الجزية دون أن يحقق من وراء ذلك منافع خاصة ؛ وقد كان أهون عليه أن يرتضى الخضوع الأسمى للبابا البميد ، من أن يرغم على الخضوع لصولة الأشراف الأقرين .

على أن بيدرو لم يحفل لسخط الأمراء التابمين ، يدل على ذلك ما عمد إليه في العام التالى من اتخاذ إجراءات كان من المحقق أن تزيد في هذا السخط ؛ ذلك أنه لما كان مثل كثير من أسلافه ، قد بدء ثروات العرش وموارد الدولة بالاغداق

على السكائن والأديار ، والمبالغة في البذخ والإسراف ، فقد رأى نفسه مضطراً للقيام بأعبائه الكبيرة ، إلى فرض ضريبة جديدة . وكانت موارد العرش قد أنفق معظمها في هبات إلى رجال الدين وجماعات الفرسان ؛ ولم يبق من الميسور أن تسد الضريبة العادية كثيراً من المطالب نظراً لأن جميع الأحرار والأشراف والقادة كانوا يعفون من أدائها ، وكانت تعفى منها كذلك مدن بأسرها مثل سرقسطة . ففي نوفمبر سنة ١٢٠٥ ، أصدر بيدرو مرسوماً ملكياً بفرض ضريبة جديدة عرفت باسم Monedaje ، وبمقتضاها يجب على جميع الأشراف الأكابر منهم والأصاغر ، وكذلك الرعايا الأحرار في المدن ، أن يؤدوا عن جميع الثروات العقارية والمنقولة ، اثنتي عشرة فلساً عن كل ما قيمته جنيه . ولم يستثن رؤساء الجند — الذين كانوا يعفون دائماً من الضرائب — من أدائها ، إلا إذا التحقوا بهيئة الفرسان . وقد كان هؤلاء يخدمون في الجيش باستمرار ، وعليهم أثناء الحرب — فضلاً عن الإنفاق على أنفسهم — أن يتحملوا نفقات إنشاء الطرق وأسوار الحصون والأبواب والقناطر وغيرها ، ولهذا كان من الإجحاف أن يعامل هؤلاء مثل غيرهم في شأن الضرائب .

وما كاد بيدرو يصدر قراره بتلك الضريبة الجائرة ، حتى قامت ضده جميع طبقات الشعب ؛ واتحد البارونات والفرسان ، أمضى أكابر الأشراف وأصاغرهم — وقد كانت مصالحهم تتعارض دائماً — على مقاومة الضريبة الجديدة ، بقوام المشتركة ؛ وحدث حذوهم مدينة سرقسطة التي اتحدت مع المدن الأخرى في تنفيذ هذه الخطة ؛ واضطر الملك إزاء ذلك إلى تخفيض الضريبة الجديدة ، ولكنه لم يسحب قراره بشأنها ، وهكذا كانت هذه الضريبة ، أحياناً معتدلة وأحياناً جائرة وفقاً للظروف والأحوال .

وليس أدل على ما كان يشعر به بيدرو من حاجة إلى المال أحياناً ، من أنه أثناء محاربتة لسانشو السابع ملك نافارا (سنة ١٢٠٩) اضطر بالرغم من سير الحرب في صالحه أن يعقد معه الصلح ، نظير حصوله على عشرين ألف قطعة من

الذهب ، وأنه في الحرب التي شهرها على المسلمين ، والتي انتهت بهزيمتهم في أبدة لم يكن يستطيع القيام بها ، لو لم يأذن له البابا في الحصول على قسط من إيراد كنائس المملكة للاتفاق عليها . وقد سنت في ذلك الحين في قطلونية ضريبة أخرى ، فرض أداؤها على كل من يملك ثورين ، وما لبثت أن فرضت في أرجاء المملكة كلها .

ولما انتهى بيدرو من الحرب في أبدة (سنة ١٢١٢م) ، استطاع لأول مرة أن يوجه كل عنايته إلى أملاكه فيما وراء البرنيه . وكانت حروب الألبين قد أثارت في هذه المنطقة اضطرابات عظيمة . وليس من موضوعنا أن نتحدث عن قيام فرقة « القلدين » الملاحدة^(١) وانتشارها في تلك الأنحاء ، ويكفي أن نقول إن المجلس الكنسي الذي عقد في « لومبر » في سنة ١١٦٥م ، قد قضى باللعنة على سكان لانجدوك الثأرين ، الذين عرفوا فيما بعد ذلك بالاجتهاد والسكينة . ولكن لم يوجد في ذلك الحين من يضطلع بتنفيذ هذا الحكم ، ولم يرغب ملكا إنكلترا وفرنسا في إجراء هذه المطاردة العنيفة ضد الملاحدة بالسيف . بيد أنه لما أصدرت اللجنة البابوية في سنة ١١٧٨م ، حكمها ضد إقليم « ألبي » كله ، عمد الكونت روجيه الثاني صاحب بزييه وقرقشونة وألبي ورازيه ، وهو من أتباع الكونت دى تولوز وملك أراجون إلى الدفاع عن رعاياه ؛ فاضطر البابا عندئذ إلى أن يصدر ضد الكونت قرار الحرمان الكنسي ، وأن يرسل إليه حملة صليبية ولكنه لم يمين من وراء ذلك شيئا ؛ والظاهر أن ألفونسو الثاني ملك أراجون لم يكن يرى في هذه القلاقل اللاحدية ، سوى وسيلة لتوطيد هيئته في لانجدوك ضد الكونت دى تولوز ، ولهذا كان يجتنب كل ما يمكن أن يثير ضده سكان هذه الأنحاء ؛ ولم يكن مع ذلك يحاكي الملاحدة ، ولكنه كان من جهة أخرى يقاوم كل إجراء عنيف يحاول وكلاء الكرسي البابوي القيام به وبجملته عيبا ، وذلك

(١) م فرقة من الملاحدة مثل الألبين ، ألقاها بطرس فالديس Peter Waldes وهو تاجر من ليون ، في سنة ١١٧٦م ، وقد انتشرت في بروفانس ولومبارديا وشمال اسبانيا .

بالتدخل عن حمايتهم ؛ على أن ابنته وخلفه بيدرو الثانى كان فى ذلك أشد وطأة ؛ ذلك أنه ما كاد يرقى العرش ، حتى أصدر عدة قرارات ضد الملاحدة الذين حرمتهم الكنيسة ، وأمرهم بمغادرة أراضيه ، وإلا كان نصيب المخالفين نزع أملاكهم وإعدامهم حرقاً . ولما زار بيدرو لانبجودوك فى سنة ١٢٠٣م ، معترفاً السفر إلى رومة لمتوج هنالك ، أبدى ميله إلى التدخل بحزم فى شأن هذه القلائل اللاحدة ، وحرصه بالأخص بعض الأساقفة الأسبان والقديس دومنيك على أن يستأصل شأفة اللاحاد فى الحال بالنار والسيوف ؛ ولما زار قرقشونة ، حيث اعتنق جميع السكان تقريباً مبادئ « الثلدين » ، استدعى بعض القلدين أمام مندوب البابا ليشرحوا مذهبهم ، وليحكم بنفسه على ما إذا كانت مبادئهم تخالف الدين . وقد اقتنع الملك بأن مبادئهم تخالف تعاليم الكنيسة الكاثوليكية ، وأن التهم التى يرمون بها كانت صحيحة عادلة ؛ وفى حفلة تتويجية فى رومه ، تعهد بيدرو ألا يدخر وسعاً فى مطاردتهم وسحقهم . على أنه لم يتمكن من تحقيق خطته ، نظراً لما نشب بينه وبين سكان مونبلييه من منازعات ، ولما اضطر إليه من تخصيص جميع عنايته لمقاومة الأشراف الثائرين فى أراجون ؛ هذا إلى ما كان يراه من أن محاربة المسلمين كانت أهم وأجدى .

أما عداوته للقلدين ، فتبدو واضحة فى أنه حينما أرسل البابا أنوسان حملة صليبية ضد الكونت ريمون روجيه صاحب بزييه ، والتمس الكونت إلى بيدرو معاونته بوصفه تابعاً له ، أبى بيدرو ، وخربت بزييه وقتل أهلها سواء كانوا ملاحدة أو مؤمنين ؛ وأنقذت أربونة نفسها بالمبادرة إلى الخضوع ؛ وأما قرقشونة التى تولى الكونت بنفسه الدفاع عنها ، فقد أرغمت — بعد أن رفض بيدرو الشفاعة المنشودة فى شأنها — على التسليم من أثر الجوع ؛ وأسر الكونت ، ولبت طويلاً فى الأسر ، ثم قتل بطريقة لا نعرفها ؛ ومنح المندوب البابوى أملاك الكونت الأسير إلى الكونت سيمون دى مونفور دون أن يستأذن فى ذلك صاحب الجزية . وغضب ملك أراجون من ذلك أيما غضب ، وأبى إقرار هذا التصرف ،

وشجع فرسان الولاية على الثورة ضد سيمون بأن وعدهم بالتأييد والعون . بيد أنه كان من صفات بيدرو أن لا يثبت في تصرفاته على حال ، ولا يفي بموعده ووعوده . ذلك أنه ما لبث أن نزل على رغبات البابا ، لكي يحصل بذلك على طلاق زوجه النبيلة ماري دي مونبلييه ، وصادق على تعيين سيمون دي مونفور أميراً (كونتاً) لقرقشونة ، أملاً في تحقيق هذا الطلاق . وفي سنة ١٢١١ م ، تلقى ملك أراجون عهد الطاعة من الكونت ، ووعد فوق ذلك بتزويج ابنه «جاييم» أو يعقوب من بنت الكونت ، وأرسل ابنه الطفل مع الكونت ليتربى في بلاط قرقشونة ، عربوناً للوفاء بهذا الوعد .

بيد أنه ما كاد يرضى البابا ، ومطارد الألبين (يريد الكونت دي مونفور) بهذا التساهل ، حتى عاد فأغضبهما ، بتحالفه الوثيق مع الكونت ريمون دي تولوز الذي كان المندوب البابوي وسيمون دي مونفور يعملان لاغتصاب ولايته ، ورأى الكونت ريمون أن يعمل على اجتناب ذلك ، فتنازل عن الولاية لابنه الذي زوجه ملك أراجون بأخته سانشا . ولما عمد سيمون دي مونفور إلى حصار تولوز ، رد عنها بخسارة . ولكن سيمون الذي ساء ببراعته الحربية ما لبث أن استرد طاعته ، وعاد — ضد إرادة البابا — يتابع بنفسه فتوحاته في أراضي الكونت دي تولوز ؛ وعندئذ حاول صهره بيدرو أن يسمى لدى البابا بكل ما وسع لعقد الصلح بين الفريقين ؛ فمول البابا على عقد مؤتمر اجتمع في مدينة آرل في سنة ١٢١١ م ، تحت رئاسة المندوب البابوي ؛ وشهد ملك أراجون والكونت دي تولوز . ولكن طلبت إليهما شروط مهينة ففادرا المدينة آسفين ؛ وأصدر المؤتمر قراره ضد الأضعف أي الكونت دي تولوز ، بالحرمان الكنسي ، ووافق البابا على هذا القرار ؛ وتولى الكونت سيمون دي مونفور تنفيذ هذا القرار بنجاح خصوصاً وأن ملك أراجون كان مشغولاً في ذلك الوقت بمحاربة المسلمين في موقعة العقاب .

ولما عاد بيدرو إلى مملكته وعلم بما أصاب الكونت دي تولوز

الكونت دى قوا والكونت دى كومينج من الشدة على يد الحملة الصليبية ،
حول على التدخل لدى البابا من أجل أصدقائه مرة أخرى . ولكن كل ما استطاع
الوصول إليه هو أن المسألة كلها بحثت في مؤتمر جديد عقد في « لافور » ، وحال
فيه منت المندوبين البابويين وتمصهم دون الوصول إلى أية تسوية ، ورفضت فيه
أعدل المطالب بإباء مثير ، بل لم يبلغ فيه التماس الكونتات إلى البابا .

فعمدئذ استشاط ييدرو لذلك غضباً ، واعتزم أن يساعد الكونتات المطاردين
وأن يحميهم بكل ما وسع ، وأن ينزل ميدان الحرب ضد خصومهم جهاراً ؛
ووجه نغمته بأدى ذى بدء إلى تابعه الكونت سيمون دى مونفور أداة العنف
البابوى ، ودعاه إلى النزال ، وأعلن بطلان حق الجزية الذى منحه إياه ؛ فحاول
الكونت فى البداية أن يهدى غضب الملك ، ولكنه لما رأى خيبة مسما
نهض لمقاومته مع جميع السادة التابعين له وأعلن الحرب ضده جهاراً فى خدمة
الكنيسة . ولم تثمر دعوات البابا عندئذ إلى السلم ، ولم يحدث وعيده لبيدرو
بالحرمان إذا لم يكف عن حماية الملاحدة أترأ ؛ ذلك أن التعصب والخبث كانا يرميان
بالاحاد عندئذ كل مجاهد ضد العنف والظلم والجشع .

ونزل ييدرو ميدان الحرب فى ربيع سنة ١٢١٣ م إلى جانب الكونت دى
تولوز والكونت دى قوا والكونت دى كومينج ، معتزماً أن يرد عليهم أملاكهم .
ولما وصل إلى قلعة موريه التى تقع على قيد بضع ساعات من تولوز وحاصرها خف
سيمون دى مونفور فى جيشه الصليبي إلى لقائه . ولما كان الحلفاء قد أحملوا احتلال
المضايق الجبلية التى كانت تحول دون تقدم الجيش الصليبي ، فقد استطاع هذا
الجيش أن يعبر نهر الجارون وأن ينفذ إلى قلعة موريه المحاصرة ، وأن يدهو ييدرو
إلى خوض المعركة فى اليوم التالى ، وهو الموافق ١٣ سبتمبر سنة ١٢١٣ ، وكان
ملك أراجون فى تصرفه فارساً شجاعاً أكثر منه قائداً حريصاً . ذلك أنه رفض
نصح الكونت دى تولوز الحكيم بأن يترك الهجوم للعدو ، حيث يصبح نصرهم
فى تلك الحالة أمراً محققاً ، وجملته شجاعته وشهوته للحرب أن يستبدل سلاحه

الملكى بسلاح فارس ، وأن يتقدم إلى لقاء العدو في أول صف ؛ على أنه عرف ، بالرغم من تشكره ، ووجه الأعداء الهجوم إليه ؛ ولكن الملك البطل لم يرعه ذلك ولبت يرد الفرسان الذين ينقضون عليه من كل صوب ، حتى سقط صريعاً ؛ وكان موته ضربة شديدة للجيش المتحالف الذى كان مؤلفاً بالأخص من الجند المشاة ؛ ومع أنه لم يشتبك في الموقعة بحد - إذ الواقع أن بيدرو كان يقاتل في نفر من الفرسان ، فرسان الصليبيين بقيادة الكونت سيمون - فإنه لم يلبث أن ركن إلى الفرار بلا انتظام وقد سرى إليه الروح ، وحلت به الهزيمة الساحقة ؛ وزعم خصومه بذلك أن نصرهم كان معجزة ، إذ قالوا إنهم استطاعوا بألف وخمسة مائة مقاتل - هم الفرسان الذين اشتبكوا مع فرسان بيدرو - أن يهزموا جيشاً من مائة ألف .

وقد اشتهر بيدرو حتى بين خصومه بالفروسة والشجاعة ؛ وكان يدعمهما ما يتمتع به من قوام ضخم ، وقوة جسمية نادرة . وكانت خلاله مثل معاصره الملك رتشارد الإنكليزي مزيجاً عجيباً من العواطف النبيلة والكريمة والموكية ، مع الصلابة والقسوة والإسراف والتهتك . وكان شاعراً غنائياً (تروبادرو) - وقد انتهت إلينا قصيدة من شعره - ومغنياً للحب ، وحامياً كريماً للنساء ، ولكنه كان في تصرفه نحو الأم والأزواج قاسياً متجنياً . وكان كثير التقلب في أهوائه ؛ وقد أراد أن ينفصل عن زوجه النبيلة ماري دي مونبلييه التي اشتهرت بالفضيلة والتقى ، والظاهر أن البابا أنوسان الثالث كان يميل في البداية إلى إجابة مطلبه ، ولعل ذلك من باب السياسة حتى يستميل إليه بيدرو ؛ فلما أعلن بيدرو نفسه حامياً ومدافعاً عن الأمراء المطاردين في لانجدوك ، أبى البابا نزولاً على نصيح الكرادلة أن يمنحه الطلاق المرغوب .

الفصل الرابع

تاريخ مملكتي ليون وقشتالة

منذ موقعة العقاب حتى اتحادها

ما لبثت المنازعات أن ثارت بين ليون وقشتالة عقب موقعة العقاب والنصر على الموحدين ، وأضرت بسير الفتوح ؛ ثم اقتضى التزام الهدنة والقعود عن الحرب لحظاً صرّوع ، عصف بشبه الجزيرة كلها ، ولا سيما قشتالة ، وقضى الجوع على حياة ألوف عديدة ، واضطر الموسرون أنفسهم إلى تناول أغذية كانوا يأنفون منها من قبل ، ومن ثم كان من المتعذر التفكير في تنظيم حملة كبيرة لمقاتلة المسلمين ، وأخفقت الحملات الصغيرة التي نظمت لأن الجيوش كان ينقصها الطعام .

ولم يمض سوى قليل على مقدم ألفونسو النبيل إلى طليطلة عاصمة مملكته ، حتى وصلته الأنباء باعتداء ملك ليون على أراضيه . وكان ملك ليون قد احتل القلاع الواقعة على ضفاف دويّة على حدود المملكتين عقب إخلائها من الجند ، وادعى أن قشتالة انتزعتها ظلماً من ليون ، وشجعه هذا النجاح على إعلان الحرب على ملك البرتغال أيضاً ، وكان قد استولى عنوة على أملاك أخته ؛ وسار ألفونسو ملك ليون من مدينة رديك وجليقية بجيشين لمحاربة البرتغاليين ، وهزمهم هزيمة ساحقة في « بورتلا دي بالديفر » .

ولم يكن ألفونسو النبيل ملك قشتالة إذاء اضطرام الحصومة بين الأمراء النصارى على هذا النحو ليتوقع نجاحاً في محاربة المسلمين ؛ وكان ألفونسو أقل

هؤلاء الملوك أطهما ، وكان يرجو مخلصاً أن يسود السلام بين النصارى ، ولهذا لم يكن يتردد فى بذل أية تضحية تقتضيها مصلحة اسبانيا . وقد سعى إلى عقد الصلح بين ليون والبرتغال ، ليستطيع حملهما على التعاون فى حملة مشتركة ضد المسلمين ، وزاد على ذلك أن نبذ كل فكرة فى استرداد الأماكن التى انتزعها الليونيون قسراً على حدود مملكته ، ورأى أن يهدم بعض القلاع المجاورة لتطميناً لملك ليون وإزالة لشكوكه ، وفى نظير ذلك وعده ألفونسو ملك ليون بالمعونة فى الحملة القادمة ضد الموحدين . ولكن ألفونسو ملك قشتالة نزل وحده إلى ميدان الحرب فى أوائل العام التالى فى سنة ١٢١٣ م ، ومع أنه افتتح القصر (أو قصر أبى دانس) وتقدم بجيشه من طلبيرة إلى بسائط أشبيلية ، فإن الحملة كلها أخفقت لأن الأمداد الليونية والبرتغالية لم تصل به واستطاع المسلمون فى أشبيلية أن يردوا فرق النصارى الخفيفة ، وأن يغيروا بأمره قائدهم على أراضى قشتالة ، بيد أنهم عادوا فارتدوا بسرعة أمام أهل طليطلة .

وفى أواخر هذا العام وفى ألفونسو ملك ليون بعده ، وسار إلى محاربة المسلمين ؛ وزحف إلى القنطرة تعاونه فرقة من الفرسان القشتاليين واقتحمها ، بينما سار ملك قشتالة إلى الأندلس معولاً أن يلتقى هنالك بجيش ليون ؛ ولكنه علم أن ملك ليون بعد أن حاصر «كاسيرس» عبتاً ، ارتد إلى أراضيه ؛ فوجه عندئذ جيشه إلى أشبيلية ، وسار إلى بيباسه وحاصرها ثلاثة أشهر دون جدوى . ولكنه اضطر من جراء نقص المؤن وتفشى المرض وشدة الإعياء فى جيشه أن يعود أدراجه دون أن يحقق شيئاً يذكر .

والظاهر أن القحط العظيم الذى عصفت باسبانيا يومئذ ، قد أرغم قادة الحرب على أن يلتزموا السكينة حيناً ، فلا تحدثنا بشيء من أخبار الحرب فى أوائل سنة ١٢١٤م ؛ وفى ذلك الحين سار ألفونسو ملك قشتالة إلى برغش ودعا ألفونسو ملك البرتغال إلى لقائه فى «بلازنسيا» على حدود المملكة ، وربما دعى ألفونسو ملك ليون إلى هذا الاجتماع أيضاً . ومن الواضح أن هذا الاجتماع المدبر كان يرى أولاً

إلى توثيق أواصر السلام بين القصور النصرانية المتجاورة المرتبطة بروابط القرى،
وثانياً إلى تنظيم حملة مشتركة ضد أعداء النصرانية ؛ ولكن حدث أثناء هذه
التدابير أن حرض ملك قشتالة وهو في طريقه إلى بلازنسيا ، في قرية على مقربة
من اريثالو . وفي السادس من أكتوبر سنة ١٢١٤ توفى ألفونسو النبيل ، ومن
حواله زوجه الملكة الينورا وابنته برنجاريا والمطران رديك الطليطلي ؛ وتوفى في
الثامنة والخمسين من عمره ، بعد أن حمل لقب ملك قشتالة أكثر من خمسين عاما ،
ودفن في دير لاس ولجاس في برغش ؛ ولبثت صورته التي ربما رسمها مصور
معاصر ، محفوظة — عصرآ — في إحدى كنائس برغش ؛ وهو يبدو في هذه الصورة
متوسط القد بوجه وسيم يفيض حياة ، ووجهة مستديرة ، وشعر أسود ، وعينين
زرقاوين ، وأنف أقي . وتجمع الروايات كلها على مديحه ؛ وكان يتقدحاسة لنشر
الدين المسيحي ، ومن ثم كانت غزواته المتوالية ضد المسلمين ، وقد ضحى في هذا
السبيل بما لم يضححه أى ملك أسباني آخر في هذا العصر ؛ وكان بذله للكنائس
والأديار ، وعطفه على الفقراء ، وعدله الشامل ، وشهامته نحو الأعداء ، وشجاعته
في الحروب ، تكسبه احترام الأسيار والفرسان والشعب ، وكذلك احترام
المسلمين . وقد عمل بالأخص على رفع شأن الطبقة الوسطى لتكون عضداً جديداً
للمعرش ضد مطامع أمراء المملكة الأقوياء ؛ وكان نصيراً للفنون والعلوم ، وقد
خلد ذكره بإنشاء أول جامعة نصرانية في اسبانيا ؛ وأنشئت في بالانسيا في سنة
١٢٠٩م ، بناء على اقتراح المطران رديك الطليطلي — وكان عالماً كبيراً قام
بدراسات كثيرة في باريس وإيطاليا — كراسى لدراسة العلوم الدينية والمدنية ،
واستدعى لها الأساتذة من فرنسا وإيطاليا ، وأجريت عليهم الأرزاق السنوية ،
وعينت أيضاً برعاية الفنون على يد أقطاب الفن . ونقلت هذه الجامعة النصرانية
الأولى في اسبانيا فيما بعد إلى بلد الوليد ، وليس إلى شلمنقه كما يزعم خطأ بعض
الكتاب المحدثين . وكل ما يأخذه المؤرخون الأسبان على هذا الملك العظيم أنه
كان يشغف بيهودية حسناء شغفاً مبرحاً ، وأنها لبثت سبعة أعوام تسيطر عليه ،

وفى وسعنا أن ندرك لماذا لزم الخبران المعاصران ، رديك الطليل ولوة التطيل ، الصمت إزاء هذا الغرام المشين فى هذا المصر .

ولم يمش من أبناء ألفونسو الأربعة من بعده سوى أصغرهم هنرى الأول ، وكان وقت وفاة أبيه فى العاشرة من عمره . وتولت أم الملك القاصر الملكة الينورا الحكم بالوصاية عليه لأيام قلائل فقط ، ثم لحقت بزوجها إلى القبر فى ٣١ أكتوبر سنة ١٢١٤ م .

وعندئذ تولت الوصاية على الملك أخته برنجاريا ، وهى مطلقة ألفونسو التاسع ملك ليون ؛ وكانت كبرى بنات ألفونسو النبيل ، وقد جعلها أبوها الملك فى وصيته وارثة العرش إذا توفى أخوها وماشت من بعده ؛ أما أخواتها الأصغر منها فكان ، أوراكا زوجة ألفونسو الثانى ملك البرتغال ، وبلانكا زوجة لويس الثامن ملك فرنسا ، والينورا التى تزوجت فيما بعد من يعقوب (چايم) ملك أراجون . وأثار تولى برنجاريا للوصاية أيما قلق ؛ ذلك أن الكبراء القشتاليين الطامعين كانوا يكرهون أن يربى ملكهم المستقبل على يد امرأة ، ويكرهون من جهة أخرى أن تبقى الحكومة حتى بلوغ الملك لرشده — وقد حدد بسن الرابعة عشرة — فى يد غير أيديهم . وكان على رأس أشرف قشتالة ، أسرة لارا الشهيرة القوية ، التى بذلت كل ما فى وسعها لتجعل الملك الطفل فى حوزتها ، لىكى تفوز بما فاز به أسلافها وقت حداثة ألفونسو النبيل من القبض على زمام الحكم . ولم تقو الأميرة الوصية برنجاريا لضعفها على مقاومة الأشرف الأقوياء ، الذين كان يظاهرونهم رجال الدين وفريق من الشعب ؛ ورأت خشية من أن تزج بقشتالة فى غمار الحرب الأهلية من جديد ، أن تأخذ بالنصح السيئ ، وأن تنزل مختارة عن الوصاية ، وذلك فى مجلس عقد فى برغش فى سنة ١٢١٥ م ، وأرغمت أن تعين مكانها فى الوصاية الكونت القارونينز دى لارا ، ليتولى الحكم وليسهر على تربية الملك الطفل . على أنه ألزم بأن يقسم بين يدي المطران رديك الطليل ، بألا يزال حقا من حقوق السيادة قبل إخطار الملكة (هكذا كانت تسمى برنجاريا يومئذ نفسها) وموافقتها ، وفى ذلك

ما يدل على أن برنجاريا لم تنزل في الواقع عن الحكم ، ولكن تخلت فقط من إدارة المملكة وتربية الملك إلى الأشراف وإلى أسرة لارا زعيمة الأشراف . وكان مما احتفظت به برنجاريا من حقوق السيادة ، توزيع الاقطاعات واستردادها ، وإعلان الحرب ، وعقد المحالفات ، ورفع الضرائب والرسوم ؛ فكل هذه الحقوق لا يزالها القارو نونيز ؛ وكان عليه أن يتولى كل ما يتعلق بشخص الملك وشؤون المملكة ، وأن يترك الجميع في حقوقهم ووظائفهم ، وأن يعقد السلام مع الممالك النصرانية المجاورة .

وما كاد الكونت القارو دي لارا ، يتسلم الملك بناء على ذلك ، حتى عمد إلى الحكم دون أن يتقيد ذرة بنصوص القسم . بيد أنه يجب ألا ننسى ، أن المصدر الذي نستقى منه ما يتعلق بظروف فشتالة يومئذ ، كان من المراضين صراحة لأسرة لارا ، ولئن صدقنا كل ما يرويهِ رديك الطليطلى -- وهو يخفى مع ذلك أنه يضطرم بغضا لآل لارا - فإن الكونت القارو نونيز أثار بطغيانه بنقض جميع الطبقات ؛ فطارد الأشراف ، ونهب أموال التجار الأغنياء في المدن ، واستولى على جزء من أعشار الكنائس بحجة أنه يحتاج إلى هذا المال لمحاربة المسلمين ؛ ولم يمنعه من المضي في مطاردة رجال الدين سوى القرار السكسنى الذى أصدره ضده المطران .

ولارِب أن برنجاريا تحمل بعض التبعة في نشوب الحرب الأهلية . ذلك أنها اضطرت سخطا لانتزاع الوصاية وتربية أخيها منها ، فسعت إلى تخيير أصدقائها للعمل على إسقاط الوصاية الجديدة ، وإعادة الملك الطفل إلى حوزتها ؛ واجتمع فريق من الأشراف الذين ينتمون تفوق أسرة لارا في بلد الوليد وقرروا إعادة الوصاية إلى الدونا برنجاريا . ومن ذلك الحين شهر الكونت دي لارا عليها الحرب علانية ، فنزع أملاكها وأمرها بمغادرة المملكة ؛ فلجأت برنجاريا إلى حصن « أولتيو » وشجعت أنصارها على المضي في المقاومة وبذلك سارت الحرب الأهلية سيرها . وحالت يقظة الكونت القارو دون فرار الملك الطفل إلى أخته ؛

ورأى تمكيناً لسلطانته عليه ، أن يزوجه بالرغم من أنه لم يجاوز الثانية عشرة ، وسافر الكونت بنفسه إلى البرتغال وحمل ملكها ألفونسو الثانى على الموافقة على تزويج ابنته بالملك هنرى ، واصطحب معه الأميرة ، واسمها مافدا إلى قشتالة وعقد زواجهما على الملك . على أن الكونت لم يوفق إلى تحقيق غايته ، ذلك أن الملك الطفل لم يبد ميلاً إلى زوجه . وأعلن البابا أنوسان الثالث ، بناء على طلب برنجاريا ، بطلان الزواج بسبب القرابة الوثيقة ، وذلك على يد أسقفى برغش وبالانسيا ، وهكذا عادت مافدا إلى البرتغال ، وذلك بعد أن حاول الكونت دى لارا عبثاً أن يقترب منها .

وحدث أثناء أن كان الوصى يقيم مع مليكه فى بلدة مقوده من أعمال ولاية طليطلة ، أن أرسلت برنجاريا سرا إلى ذلك السكان خادما ليتجسس عن أحوال أخيها وطريقة تربيته ، وربما أيضاً لكي يبحث عن خير العارق لاختطافه . ولكن الوصى الساهر لم يخف عليه أمر هذا الرسول ، فأمر بالقبض عليه وإعدامه وزعم الكونت أنه عثر معه على خطاب بخاتم برنجاريا وتوقيعها ، وفيه مايدل على أنها كانت تعتزم أن تقتل أخاها بالسم ؛ ولكن قليلاً من الناس آمن بزعم الوصى وكاد رأى يجمع على تبرئة برنجاريا من مثل هذا التدبير المشين ، ويستشف منه خبث الكونت دى لارا . ولما كان رجال الدين ، وفريق من الأشراف ، وعدة مدن ، يناصرون برنجاريا — وهو ما اضطر الكونت إلى مغادرة ولاية طليطلة والذهاب إلى وبدة الإقامة فيها — فقد رأى الكونت إزاء تفاقم غضب الشعب وازدياد قوة الملكة ، أنه لا بد من معالجة الموقف بسرعة ، والضرب على يدا أعدائه قبل أن يظفروا بالتغلب عليه ؛ فأعلن باسم الملك الذى يصالحه أينما كان ، ويحرمه بكل ما وسع ، أن الذين يناصرون حزب برنجاريا يعتبرون جميعاً عصاة خائنين ، وكان الإحجام عن محاربة الملك عظيماً إلى حد أن المدن وجوع الشعب انضوت كلها تحت لواء الوصى ، ولم تستطع حصون الأشراف الذين يعضدون برنجاريا ، أن تقاوم القوى المتغلبة عليها مقاومة ناجحة ، كذلك بدت الملكة وقد فقدت كل

شجاعته وعزمها ؛ ومع أنها لم تنزل ميدان الحرب ضد الكونت ، فقد كانت جموعها تتناقص كل يوم ، وكانت الحصون الموالية لها تسقط تباعاً في يد الكونت .

وفي الوقت الذي يئست فيه الملكة برنجاريا من كسب قضيتها وامتنعت مع نفر قلائل من الأشراف المخلصين ببعض الحصون المنيعه ، وأخذ الوصى يمين في مطاردة جميع الذين خاصموه ، حدث حادث فجأى حول مجرى الحرب الأهلية إلى اتجاه جديد . ذلك أن الكونت القارو نونيز غادر بلد الوليد بعد أن أقام فيها مع الملك حيناً ، إلى بالانسيا ؛ وهناك نزل في قصر الأسقف ، وقرر أن تكون نفقات البطانة الملكية من أموال الأسقفية ، وفي ذات يوم كان الملك الفتى يلعب في الفناء مع بعض أقرانه من أبناء الأكابر ، فانطلق أثناء اللعب سهم أصاب أحد أبراج القصر ، فسقطت منه قطعة من الحجر ، فأصابت الملك في رأسه وجرحته جرحاً بالماً توفي منه لأيام قلائل ، وذلك في السادس من يونيو سنة ١٢١٧ م . ولم يكن قد بلغ الرابعة عشرة بعد ، ولم يكن قد مضى على وفاة أبيه سوى عامين وثمانية أشهر ، ثم تبعه إلى القبر .

ولابد أن هذا الحادث المحزن قد اعتبر في قشتالة توفيقاً عظيماً ، ذلك أن الدعامة التي كان يستند إليها سلطان الوصى المستبد الطامع ، وهي الملك الذي يحقق باسمه كل عسف ، قد انهارت ، وكان الملك ألفونسو النبيل قد سن في وصية سابقة له أنه إذا توفي دون عقب من الذكور ، فإن عرش قشتالة يؤول من بعده إلى كبرى بناته الدونا برنجاريا ، ثم إلى أعقابها الشرعيين ، ولما كان الأحبار والأشراف قد وافقوا على وصية ألفونسو هذه ، ولم يبق كذلك عذر لأنصار أسرة لارا في رفض الطاعة للملكة ، فقد بويعت بالطاعة في الحال على يد المجلس النيابي (الكورتيس) المنعقد في بلد الوليد ، وذلك بالرغم من تخلف الوصى عن الخضوع ؛ وكانت المرأة الدكية ، حالماً وقفت على موت أخيها الملك ، وكان الكونت القارو يجتهد في إخفاء النبأ — قد أرسلت بعض خاصتها إلى ليون ، حيث أحضروا معهم ولدها فرديناند الذي رزقت به من زواجها بملك ليون ألفونسو التاسع ، وهو الزواج الذي ألغاه البابا .

ولم يرد الكونت دى لارا أن يعقد أى تفاهم ما لم يسلم إليه الانفانت (ولى العهد) فرديناند الذى يرث العرش بعد وفاة أمه ، ليقوم بتربيته وحراسته ، ولكن برنجاريا لم تقبل قط مثل هذا الحل بعد الذى شهدته من عبر التجربة الماضية . وهنا قامت فى البلاد أحزاب ثلاثة ، كان أقواها الحزب الذى ينضوى تحت لواء برنجاريا الملكى ، وكان الأحرار والشعب يخلصون لها ، وكذلك الفرسان من خصوم آل لارا . وكان على رأس الحزب الثانى الكونت الثارو نونيز دى لارا ، وتحت يده جيش لا بأس به ، وفى حوزته كثير من الحصون ؛ وإلى جانب هذين الحزبين المتخاصمين ، كان ثمت خصم ثالث هو الفونسو ملك ليون ، زوج برنجاريا السابق ، ووالد ولى العهد فرديناند ، وكان يدعى عرش قشتالة باعتباره أكبر أعضاء الأسرة سنا ، وقد أرسل أخاه سانشو فى جيش كبير إلى قشتالة للاستيلاء عليها . وعندئذ بادرت برنجاريا بمؤازرة القوات والفرسان فى قشتالة الجديدة واسترامادوره ، إلى اتخاذ إجراء حاسم لسحق الحزبين الخصيمين . ولما كانت تعلم حق العلم أن الشعب القشتالى لا يرضى عن حكم النساء ، فقد اعتزمت أن تضحي بنفسها فى سبيل ولدها ، فأعلنت تنازلاها عن حقوقها فى العرش لولدها فرديناند — وكان يومئذ قد بلغ الثامنة عشرة من عمره — وذلك فى الميدان الكبير فى بلد الوليد ، وسلمته مقاليد الحكم فى محضر حافل من الناس ، وفى ٣١ أغسطس سنة ١٢١٧ ، تلقى فرديناند الثالث الذى لقب بالقدس فيما بعد ، يمين الطاعة فى كنيسة بلد الوليد الكبرى . وحملت هذه الخطوة الحاسمة ملك ليون والكونت دى لارا على الاتحاد ، وذلك بعد أن حاول الكونت عبثاً أن يمحرض فليب الثانى ملك فرنسا ووالد خلفه لويس الثامن زوج الأميرة بلانكا أخت برنجاريا الصغرى ، على غزو قشتالة والاستيلاء عليها . وبينما سار الفونسو التاسع ملك ليون فى قواته إلى برغش متناسياً صالح أسرته إلى حد أنه تحالف مع الثايرين وشهر الحرب على ابنه الذى جعله وارث العرش من بعده ، كان الكونت الثارو يحاول بمؤازرة إخوته وأنصاره أن يضم نار الحرب الأهلية فى جنوبى قشتالة .

وحاولت برنجاريا في البداية بالرجاء والإقناع أن تحول دون تحالف قوات ليون وقوات الثوار ، وتوسط أسقفا برغش وبلنسية لدى زوجها السابق في هذا السبيل ، ولكن الملك الطامع المتحفز لم يرد أن يصفى إلى شيء من هذا الرجاء - وقد كان يضطرم سخطا ، لأنهم رفعوا ابنه إلى العرش دون إذنه ، مع أنه هو صاحب هذا العرش في زعمه ، ففضى في توغله في قشتالة ، وأمرع إلى برغش عاصمتها القديمة يحاول افتتاحها ، ولكن ما اتخذته برنجاريا من الإجراءات الحكيمة وما أبداه فرديناند من الحزم والشجاعة ، وما أبداه سواد الشعب القشتالي من الغيرة في مؤازرته ، ما لبثت أن حملت ملك ليون على أن يعود أدراجه إلى أراضيه ، ذلك أنه شهد حين محاصرته لبرغش ، كيف يتفانى القشتاليون في الدفاع عنها ، وأنس في جيشه الفصور والمعجز ، فبادر بالعودة إلى ليون قبل أن تحمل به الهزيمة وهو ساخط أشد السخط لأن الكونت دى لارا خدعه بتصوير ميول الشعب القشتالي على غير حقيقتها .

ولما زال الخطر الدائم من ناحية ليون بسلام ، وحُطِم أنصار الكونت دى لارا بالعرف والبطش ، عمد فرديناند إلى الاحتفال بدفن رفات سلفه الملك هنرى ، وكان جثمانه لا يزال في حوزة أعدائه ، فدفن في المقبرة اللوكية في برغش بأعظم تكريم .

وبدأ فرديناند حكمه في ظروف صعبة ، بالرغم من المزايا التي حققت . ذلك أن كثيراً من الحصون في ولاية ريوجا وفي قشتالة القديمة ، وكذلك على ضفة نهر دويره اليمينية كانت لا تزال في أيدي آل لارا ؛ بل إن برغش نفسها لم تكن في مأمن ؛ وعاث الثوار أيما عيث في أنحاء مختلفة من قشتالة دون أن يتمكن فرديناند من قمع غزواتهم ؛ وكانت أسرة لارا تحتكم على أموال طائلة ، وفي وسعها أن تمسك من الجند ماشاءت ؛ أما ملك قشتالة ، فكان بالعكس في أشد الحاجة إلى المال ، حتى أن والدته اضطرت أن تبيع جميع حلالها للمعاونة في نفقات الحرب ، وهكذا كان فرديناند عاجزاً عن متابعة الحرب ؛ وهنا حدث حادث في غاية

التوفيق ، وهو أن الكونت دى لارا وقع أسيراً في يد فرسان الملك ، في الوقت الذى كان يتأهب الفريقان فيه لخوض المعركة على مقربة من بالانسيا Palencia ؛ فالتقى الثوار أنفسهم بلا زعيم ، واضطر الكونت لكي يفتدى حريته ، أن يقطع عهداً بالخضوع ، وأن يسلم الحصون التي يحتلها أنصاره . ولم يمض قليل حتى اضطر أخوا الكونت ، وهما فرديناند وجوانزالو ، إلى الخضوع أيضاً وتسليم ما بيدهما من الحصون . والظاهر أن وعيد البابا هونوريوس بأن يقضى بالحرمان على كل تأثر ضد حكومة فرديناند كان له أثر عميق في إخماد الحرب الأهلية في قشتالة (سنة ١٢١٨ م) . ومن ذلك الحين ساد سلطان فرديناند في أرجاء قشتالة كلها .

ولكن آل لارا الثائرين لم يخلدوا إلى السكينة طويلاً . فلم يمض نصف عام حتى ثاروا من جديد وزحفوا على منطقة بالانسيا بقوات كبيرة وخربوها كما يفعل الأعداء . ولما سار فرديناند في جيش كبير لمحاربة الثائرين مرة أخرى ، ورأى آل لارا أن قواتهم دون قوات الملك ، ساروا إلى ليون ليطلبوا المدد منها وأفلحوا في تخريب الأرب على محاربة ابنه مرة أخرى ؛ وما كاد الجيش الليونى يمبر حدود قشتالة حتى أرسل فرديناند قوة إلى ليون لتميث في منطقة شلمقة ؛ ولما التقى الأرب والابن وجها لوجه ، حاول بمض الأساقفة والكبراء التوسط بينهما لمعد الصلح قبل الالتحام في المعركة ، وعاون مرض الكونت دى لارا الفجأى على ميل ملك ليون إلى إثبات الصلح ، وعقدت الهدنة في الحال بين الفريقين . وما لبث الكونت المريض أن توفى وهو يضطرم سخطا لأنه لم يكن في سعيه لتعطيم عرش فرديناند أكثر توفيقاً . وارتدى الكونت قبيل وفاته ثياب جماعة شنت ياقب ، ودفن في اقليش على نفقة الملكة برنجاريا التي كان في حياته أشد الناس خصومة لها ، ذلك أن الكونت أنفق كل ماله في الحرب وتوفى فقيراً . وهكذا عقد السلام الدائم بين قشتالة وليون ؛ واقتنع ملك ليون أخيراً بأنه ليس من اللائق أن يعضد الثائرين على ولده ، وعاون على محاربة آخر زعيم لأسرة لارا وهو الكونت فرديناند شقيق الثارو ، حتى اضطر إلى الفرار من المملكة (سنة ١٢١٩ م) ، ثم عبر البحر إلى

مراكش ملتجئاً إلى المسلمين ، ولم يلبث أن توفى هنالك مرتدياً قبيل وفاته ثياب فرسان الاسبشارية .

ولما استتب السلام في المملكة ، احتفل فرديناند في برغش بزواجه بالأميرة بياتريس ابنة القيصر فيليب فون هو هنشتاوفن . وقبل عقد الزواج أعلن الملك نفسه فارساً وارتدى ثياب الفرسان بعد أن باركها له أسقف برغش ، وشهد هذا الحفل كبراء المملكة مع نسائهم ، ونواب الطبقات ، وهدد كبير من الفرسان .

وحدثت في الأعوام التالية في قشتالة وليون ثورات عديدة قام بها بعض الأشراف المغامرين ، ولكن الوثام لبث بالرغم من ذلك سائداً بين ملكي قشتالة وليون ؛ وكان يقوم بهذه الثورات في قشتالة دائماً أنصار آل لارا ، وكان زعماء الثورة إذا ما رأوا فشل جهودهم فروا عادة إلى المسلمين . وحدث في مملكة ليون خلاف بين الملك وأخيه سانشو فرنانديز ؛ ذلك أن سانشو جمع أربعين ألف مقاتل بحجة أنه سيقودهم إلى مراكش لخدمة سلطان الموحدين ، ولكنه لما عبر حدود ليون إلى الأندلس ، كشف عن حقيقة مشروعه ، وهو أنه يريد أن يؤسس له مملكة مستقلة في اسبانيا ، فانفض عنه معظم الجند ، ولكنه امتنع بمن بقى على ولائه في جبال الشارات (سييرا مورينا) حتى توفى في سنة ١٢٢٠ م في حفلة صيد كان يطارد فيها دجاً .

وفي الأعوام التالية ، كان الأب والابن يسيران في قوات قشتالة وليون كل عام تقريباً لمحاربة المسلمين . كذلك كان ملكاً أراجون والبرتغال يسيران لهاربة المسلمين كلما سمحت بذلك أحوال بلادهما المضطربة ، وكانت قشتالة وليون تعاملان بالأخص على استغلال ما تجوزه الأندلس من الاضطراب والفوضى بسبب انحلال سلطان الموحدين . فكانا يبيعان عونهما للأمراء المسلمين الثائرين تباهاً ، وكانا في نفس الوقت يحاربان ابن هود^(١) الذي خرج على الموحدين وانتزع منهم معظم بلاد

(١) هو محمد بن يوسف بن محمد بن عبد العظيم بن أحمد بن سليمان المستعين بن هود ، وهو الناصر على دولة الموحدين في أوائل المائة السابعة كما سيبيء .

الأندلس ، ويثبتان بذلك في بلاد المسلمين أعظم ضروب الاضطراب والروع ؛ وسوف نتحدث فيما بعد عن الحروب التي خاضها الليونيون والقشتاليون إلى جانب الموحدين كخلفاء لهم ، ولهذا نفضل ذكرها هنا ؛ ونكتفي بأن نقول هنا إن ألفونسو التاسع ملك ليون حقق لنفسه في تلك الحروب شهرة عظيمة ، وإن فرسان القنطرة ماونوه خير معاونة ؛ وكان قسم من فرسان قلعة رباح قد اتخذوا من القنطرة مركزاً لهم ، وجعلوا من أنفسهم جماعة خاصة وأطلقوا عليها اسم هذه القلعة وذلك في سنة ١٢١٩ م ؛ وكانت معظم حروب ألفونسو التاسع ضد ابن هود ، المتغلب على معظم أرجاء الأندلس . ولما افتتح ألفونسو ماردة من المسلمين في سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ) ، سار المسلمون إلى محاربته في جيش ضخم قوامه ستون ألفاً من المشاة ، وعشرون ألفاً من الفرسان ؛ فلم يرعه تفوق الأعداء في العدد ، واشتبك معهم في معركة أحرز فيها نصراً باهراً ، وكان هذا النصر مثار الدهشة حتى أن بعض الروايات الدينية المعاصرة نسبته إلى عون شنت ياقب (القديس يعقوب) وفرقة من الملائكة ؛ وترتب على هذا النصر أن سقطت بطليوس في يد الليونيين .

وكان هذا النصر آخر عمل حربي قام به ألفونسو التاسع ملك ليون . وحدث أثناء رحلة قام بها ليحجج إلى قبر شنت ياقب وليقدم إليه صلاة الشكر عما أحرز من نصر ، أن مرض وتوفي في ٢٣ سبتمبر سنة ١٢٣٠ م بعد حكم دام اثنين وأربعين عاماً ؛ ودفن في بلدة شنت ياقب حيث يرقد أبوه أيضاً ؛ ومع أنه اشتهر بالعدالة والتقوى ولا سيما على يد معاصره الأسقف لوقا التطيلي ، فإن التاريخ يقص علينا الكثير من أعماله مما يتنافى مع هذا المديح ؛ وكان ألفونسو يبز في الفروسة جميع الأمراء التابعين له ؛ وكان كثير البذل لرجال الدين ، يهب كل ما يقنمه من الحروب تقريباً إلى الأديار ؛ كثير البر بالمساكين والعطف عليهم ؛ بيد أنه كان كثير القسوة والبطش نحو الفرسان الناهيين ، يلقى بهم من فوق الأبراج أو يفرقهم في البحر ، أو يشنقهم أو يحرقهم في ماء يغلي ، أو يسلمهم أحياء . وقد استطاع بهذه الوسائل الفظيمة أن يحقق السلام والعدالة في مملكته حسبما يقول مؤرخ معاصر . وكان لسوء الحظ

كثير الإصغاء لوشاية الناصحين المغرضين ؛ بيد أنه كان من صالح المملكة أن كان يصنى إلى رجاء زوجه برنجاريا واقتراحتها مما أدى إلى تهذيب بعض القوانين القديمة وإصلاح بعض الميوس . وكان شغوقاً بالأبنية الفخمة ، وقد شيد منها الكثير في مملكته ؛ فأنشأ في ليون قصر أعظيما ، وملجأ لإقامة المساكين من الوافدين لزيارة شنت ياقب ؛ وبنى أبراج ليون التي أزالها المنصور أو هدم بعض أجزائها ؛ وأنشأ بجوار شنت ياقب كنيسة فخمة ، كما أنشأ كثيرا من الأبراج والحصون في مختلف أنحاء المملكة ، وشحنها بالسكان والمقاتلين .

كذلك أصلح ألفونسو الطرق وعيدها ، وابتنى القناطر على الأنهر وأبدى حبه وتقديره للعلوم بتأسيس جامعة شلمنقة الشهيرة في سنة ١٢٢٢ م . وقد ظن البعض خطأ أن الجامعة النصرانية التي أنشئت من قبل في بالانسيا ، قد نقلت فيها بعد إلى شلمنقة ؛ على أن ذلك لم يكن من اليسور يومئذ ، إذ كانت ليون وقشتالة كل منهما منفصلة عن الأخرى ؛ ومن الواضح أن الملك ألفونسو التاسع ، قد احتذى في عمله مثل جامعة بالانسيا القشتالية ، وأبدى بذلك أنه لا يقل في مملكته تقديراً لأهمية العلوم عن مملكة قشتالة .

وقد تزوج ألفونسو التاسع مرتين ؛ ورزق من زواجه الأول بالأميرة البرتغالية الدوناريزا ، ابنتين هما سانشا ودولشا ، وابن يدعى فرديناند توفى رشيداً في سنة ١٢١٤ م . ورزق من زواجه الثاني بالأميرة القشتالية برنجاريا ، بأربعة ، ابنتين هما فرديناند وألفونسو ، وابنتين هما برنجاريا وقسطنطينة ؛ ومع أن الزوجين قد ألفيا على يد البابا بسبب القرابة الوثيقة ، فإن الأولاد الذين أعقبوا منهما قد اعترف بصحة نسبهم ؛ وبذا كان فرديناند الذي ولي عرش قشتالة ، عند وفاة أبيه أيضاً صاحب الحق بمولده في عرش ليون ، وبالرغم من أنه كان أصغر بعض أخواته ، فإنه لم يكن لمولاه سوى حقوق على التاج ، متى توفى والده دون عقب من الذكور ؛ ومع أن ألفونسو التاسع كان قد عهد بالعرش من بعده إلى ولده فرديناند فقد ظهر عند فتح وصيته أن يجعل ابنتيه سانشا ودولشا وارثتين لمملكته .

وكان فرديناند ، حينما تلقى نبأ وفاة أبيه ومضمون وصيته ، يخوض الحرب ضد المسلمين ، ويشغل بحصار مدينة جيان . وانقسمت مملكة ليون إلى فريقين ، أحدهما وعلى رأسه الأساقفة يؤيد ولاية فرديناند ، وهو الذى أقسموا له بيمين الطاعة من قبل باعتباره ملكهم المستقبل ؛ والآخر يؤيد نصوص الوصية الملكية ويعتبر الأميرتين هما صاحبتا العرش ؛ وكان الفريق الثانى قويا بالأخص فى سموره وجليقية واشتوريش ؛ وكانت مدينة ليون نفسها تنقسم على هذا النحو ، حتى عمد حاكمها الكونت ديجو دياز ، بعد أن رغب بالمال والوحد ، إلى تأييد حزب فرديناند . وبأمر فرديناند إلى ليون دون تأخر ، وفقاً لنصح أمه الحكيمة بلاريب ؛ وهناك بعد أن أقسم باحترام حقوق المملكة وحرياتهما ، تلقى فى الكنيسة الكبرى بيمين الطاعة من رجال الدين والأشراف ونواب الطبقات ، وذلك بالرغم من أن معظم البلاد كانت فى قبضة خصومه ؛ وأسمرت والدة الأميرتين وليتى العهد ، الملكة تريزا من البرتغال إلى ابنتيهما فى جليقية لى تشهر الحرب على فرديناند بأقصى ما استطاع ، واعتزم فرسان قبرشتن ياقب ، وأشراف جليقية وأشتوريش أن يؤبدوا دعوى الأميرتين ؛ ولاح أن حرباً أهلية جديدة ستجتاح الممالك الأسبانية ؛ ولكن الملكة برنجاريا وفقت بحكمتها واعتدالها إلى التدخل لوقف الحرب ؛ فدعت الملكة تريزا إلى مقابلتها فى «بلنسية»^(١) الواقعة على نهر منهو ؛ وهنا استطاعت أرملتنا الملك ألفونسو التاسع أن تسويا فيما بينهما النزاع القائم بين أولادهما ؛ واتفق على أن تتنازل الأميرتان وليتا العهد عن حقوقهما فى التاج ، وأن تعترفاً بفرديناند ملكاً شرعياً على ليون ؛ وفى نظير ذلك تحصلان مدى الحياة على إيراد سنوى قدره ثلاثون ألف قطعة من الذهب .

وعلى أثر هذا الاتفاق أعلن فريناند ملكاً على جميع أنحاء مملكة ليون . ومن ذلك الحين تتحد مملكتا قشتالة وليون — ومعهما إسترامادوره وجليقية واشتوريش — نهائياً . ومع أنه لم يصدر بومئذ مرسوم باتحادهما ، فإنه يجب أن

(١) هى غير نهر بلنسية المروف

نعتبر من ذلك الوقت (سنة ١٢٣٠ م) ، أنه قد اتخذت بالفعل قرارات هامة فيما يتعلق بوراثة العرش خلاصتها أن قشتالة وليون هما مملكة واحدة لا مملكتان ، وأن العرش فيها يؤول إلى أكبر البنين ، فإذا لم يوجد عقب من الذكور ، آل إلى الفرع النسوي . وقد أسند عندئذ إلى ألفونسو أخى فرديناند الأصغر نصيب في حكومة ليون . واتحاد قشتالة وليون هذا هو أعظم حادث في تاريخ اسبانيا في القرن الثالث عشر ؛ وكان نذيراً بآتمام انحلال سيادة المسلمين في اسبانيا ، والحجر الأساسى للفتوحات العظيمة التى قام بها فرديناند فى الأندلس .

الفصل الخامس

اضمحلال وسقوط سلطان الموحدين

في الأندلس

لم تكن موقعة العقاب سبباً في تخطيط قوى الخليفة محمد الناصر بالأندلس فقط ، ولكنها أفضت فوق ذلك إلى تخطيط سلطان الموحدين في المغرب . وإذا كان النصارى لم يوفقوا إلى استغلال ظفرهم في موقعة العقاب بما كان يملئ الذكاء وضعف العدو ، فإن الخلافة الموحدية التي جردت منه كل قواها لم تنهض من هزيمتها قط ، ولم ينقطع ألفونسو النابيل ملك قشتالة طول حياته عن الخروج إلى محاربة المسلمين ، ولكنه كان مفرق القوى بسبب خصومته الجديدة لليون . وكان أشد من ذلك اضطراب الممالك الأسبانية ، وهو ما أدى إلى تأخير غزو المسلمين بضعة أعوام ؛ ويرجع ذلك إلى ما حدث في نحو عامين من وقوع ثلاثة عروش نصرانية تحت سلطان الوصاية ؛ وكان يشغل عرش قشتالة وأراجون ، — وهما أهم ممالك شبه الجزيرة — أميران قاصران ؛ أما البرتغال فكان يشغل عرشها ملك يغلب لديه الدهاء والطمع أكثر مما تغلب الشجاعة وصفات الفروسة . وبينما كانت الممالك النصرانية — وهي تتمتع عندئذ بقسط عظيم من القوة والمنعة — تنحدر على هذا النحو إلى الاضطراب والفوضى ، في ظل الوصايات المخربة ، وما يترتب عليها من حروب أهلية تضطرم خلالها أطماع الأشراف ، والبغضاء والتنازع والحقد ، وقرارات « الحرمان » ، والقتل والتخريب ، إذا بسلطان الموحدين

ينهار في الأندلس أولا ، ثم ينهار بعد ذلك في المغرب ، وتقوم على أنقاضه أسر جديدة ، ولكنها لا تضارع الموحدين في قوتها ومنعتها .

غادر محمد ميدان الحرب الذي غص بالقتل من جنده مسرعا إلى إشبيلية ؛ وهناك سحق في بادرة من غضبه جميع أشياخ الموحدين المحليين ، وكذلك لم يسلم من سخطه زعماء الأندلس الذين كانوا في مقدمة الفارين من الموقعة ، والذين ينسب إليهم هزيمته ؛ فقتل منهم عدة ، وعزل منهم من كان يلى مناصب النفوذ والثقة . بيد أنه لم يذكر أن البغض يثير البغض ، فبعد أن صب جام غضبه على الأندلسيين كالمطر المغترس ، عاد إلى إفريقية لا لكي يحشد جيشا جديدا يسترد به هيبة الموحدين الحربية ، ولكن لكي يحاول نسيان كدره وهزيمته بالانفاس في ملاذه وشهواته . ولم يبق يومئذ بشيء من شؤون الحكم سوى أن عين لولاية عهد له أبا يعقوب يوسف الملقب بالمستنصر بالله^(١) ، وكان يومئذ طفلا في العاشرة من عمره ؛ ولما انتهى من هذا التعمين ، ترك شؤون الحكم كلها للطفل ووزرائه واعتكف في قصره وحداائقه بمراكش ، وأطلق العنان لأهوائه وملاذه . وقضى هذا الأمير الذي كان يشغف بالحرب والجهاد ، أمدا قصيرا ، لا يجاوز العام ، في هذا القصر الصاخب ؛ ثم دس له خدمه السم ، فانتزعه من مسراته ، وأودى بحياته ولما يجاوز الرابعة والثلاثين من عمره ، وذلك في الحادى عشر من شعبان سنة ٦١٠ هـ (٢٥ ديسمبر سنة ١٢١٣ م)^(٢) . وقد حكم خمسة عشر عاما وبضعة أشهر . أما الرواية التي يقول بها مؤرخ عربى ، ومفادها أن محمداً كان يشتغل بمحشد جيش آخر لكي يحصو هزيمته ، وأنه توفى أثناء أهباته بمدينة سلا ، فعلى خلط ظاهر

(١) في روض القرطاس أنه لقب بالمستنصر بالله (س ١٦٠) ، ولكن في ابن خلدون (ج ٦ ص ٢٥٠) وفي الحلل الموشية (س ١٢٢) أنه المستنصر بالله .

(٢) إن ما يورده المؤلف من أيام الناصر الأخيرة ووفاته يتفق مع رواية صاحب روض القرطاس (س ١٦٠) بيد أنه يقول لنا إن الناصر توفى مسموما بأمر وزرائه ، حيث دست له لآخذى الجوارى السم في قديم من الحر ، لأنه كان قد غزم على قتلهم ، فاجلوه بالقتل . وجاء في الحلل الموشية أنه توفى ما وغما (س ١٢٢) .

بما حدث في وفاة عبد المؤمن . ومع أن الناصر كان بطبيعته يتمتع بخلال بديمة فإنه مذولى الحكم ، ترك إدارة الشؤون لطائفة من الوزراء المكروهين ومنهم من هو حاطل من كل كفاية ، فكان ذلك من الأسباب القوية التي أدت إلى تصدع سلطان الموحدين من أسسه ؛ ومما يستحق الذكر أيضاً أن محمداً هو سلطان المغرب الذى بعث إليه جون (يوحنا) ملك إنجلترا في سنة ١٢١٣ م ، بسفارة ، يقدم إليه فيها ملكه وحياته ، ويتمهد بدفع الجزية ، وبند النصرانية واعتناق الإسلام ، إذا أمدّه بالجند ؛ ولكن سلطان الموحدين لم ير في ذلك العرض غنياً يذكر ، فرفض مقترحات الملك جون بكبرياء وازدراء .

وإذا كانت دولة الموحدين قد بدأت من قبل دور انحلالها ، فإنها أخذت في ظل الحكومات اللاحقة تتجدر سراها ، حتى أنه لم يكن من اليسور بمد على وصى أن يمثل لأنها ضنها ؛ وليس أخطر على دولة ممزقة من حكم صبي قاصر ؛ بل إن الدول القوية المنظمة ، كثيراً ما تنهار من جراء ذلك في أعوام قليلة ، فبالك بدولة قد أخذت منذ حين تتمزق إلى عناصر خصيمة .

وكان الخليفة أبو يعقوب يوسف المستنصر بالله ، الملقب أيضاً بالنصور بالله ، — حينما تولى الملك بعد وفاة أبيه — دون الحادية عشرة من عمره ؛ وكان أضعف من أن يتولى مقاليد الحكم بنفسه ، فتركها لأعمام طامحين ، ووزراء ذوى أثره وخلال سيئة ، لا يبحثون إلا عن مصالحهم وسلطانهم ، ويسومون الشعب في المقاطعات التي يحكمونها الخسف في سبيل مطامعهم المضطربة ؛ وكان يحكم الأندلس أربعة من أعمام المستنصر لا أحد لسلطانهم ، هم السيد أبو محمد عبد الله بن النصور ويحكم بلنسية ودانية ، وشاطبة ومرسية ؛ والسيد محمد ويحكم قرطبة ؛ والسيد أبو على ويحكم إشبيلية ، والسيد أبو عبد الله ويحكم جنوبي الأندلس . وأقطع السيد أبو على حكم المقاطعات والمناصب بالمال وفقاً لأهواله ونصح معاونه ؛ وبذلك أتمد الرجال الأكفاء ، ولا سيما الأندلسيين ، فقد ساء لهم ذلك ، واضطهدوا ضراحة ؛ واختفى العدل بتاتا ، لأن القضاة الذين اضطروا إلى شراء مناصبهم ، حاولوا

— باضطهاد الشعب وظلمه — أن يستردوا ما خسروا أو يضاعفوه .

فأثار هذا الاستبداد بين مسلمى الأندلس — وقد كانوا يرون في الموحدين ظالمين — أيما سخط على المغاربة ، حتى كانت تكفى شرارات قلائل لتضرم من جديد نار الحرب الأهلية في جنوبى اسبانيا ؛ وقد أدى إليها بالفعل سير الحرب المشؤم ضد النصارى ؛ وبالرغم من أن الدول النصرانية كانت يومئذ عاجزة — من جراء الحرب الأهلية والقحط والتفرق — أن تقوم باستعدادات كبيرة لمحاربة المسلمين ، فإنها مع ذلك لم تمتنع بتاتا عن محاربة عدوها التاريخي ؛ وكانت الغزوات المنفرقة التي قام بها ألفونسو ملك ليون ، وفرسان قلعة رباح وستت جولييان (فرسان القنطرة) ، والبرتغال ، والمطران رديك الطليطلى مع فرسان قشتالة ، تستغرق نشاط الحاميات الموحدية وجند الحدود كله ، حتى إنه لم يكن بوسعها أن تمنى بحركات الثوار في الداخل عناية كافية ؛ وفقد الموحدون هيبتهم تباعا ، ولم يعد يثبت اسمهم ما كان يثبت من قبل من الخوف والروع ؛ وسقطت عدة من القلاع والحصون في يد النصارى ؛ ففي يولييه سنة ١٢١٣ م ، افتتح ألفونسو النبيل ملك قشتالة حصن القصر ، ونفذت القوات القشتالية الخفيفة حتى ظاهر إشبيلية ؛ وفي العام التالي ، استولى ألفونسو التاسع ملك ليون عنوة على حصن القنطرة ، وهو الحصن الذي اتخذ فيه بعد (سنة ١٢١٩) فريق من فرسان قلعة رباح مركزا لهم ، وتسموا باسمه ؛ وثبتت عندئذ مدينتا القصور (كسيرس) وبياسة بعد أن حاصرهما اللهونيون والقشتاليون دون طائل ؛ وحالت الحرب الأهلية التي اضطرت في قشتالة وليون بين سنتي ١٢١٥ و ١٢١٨ م ، وهي التي أثارَت ضرامها أسرة لارا القوية ، دون قيام النصارى بغزوة كبيرة ضد المسلمين ، ولكن جماعات الفرسان ورجال الدين لم ينقطعوا عن القيام بغزوات في أرض الأندلس ، وقلما كانت تلحقهم الهزيمة ؛ وزاد في جرأتهم ما كانوا يصيبيونه من الغنائم الكبيرة ، فكان الغزاة يتقدمون حتى أبواب إشبيلية وقرمونه ، وهم يخربون وينتسفون كل أرض وطشها أقدامهم ، ولم تكن قسوتهم الوحشية قاصرة

على المحاربين من خصومهم ، بل كانت تشمل النساء والأطفال والشيوخ ؛ فكان الخوف والروع يتقدمان الغزاة النصارى ، أينما حلوا ، وكان الموحدون يقاتلون قتال اليأس وقد فقدوا في النهاية كل شجاعة وكل ثقة في قوتهم ومنعتهم .

ومجمل باضمحلال سيادة الموحدين في اسبانيا عود السلام بين قشتالة وليون ، واضطرام الخوصومة حول العرش في أسرة الموحدين الملوكية . وقد عقد ألفونسو الأول ملك ليون الصلح مع ولده فرديناند ملك قشتالة ، وحشد الاثنان قواتهما المتحدة لمحاربة العدو المشترك ، ولبثا كل عام تقريبا يقودان فرسانهما الظمئين إلى القتال إلى غزو الأراضي الإسلامية واقتناص الغنائم ؛ وفي تلك الأثناء كان سلطان الموحدين المستنصر ، خلافاً لأسلافه المحاربين ، يمتكف في قصره بمراكش ، منغمساً في اللهو والترف ، لا يحيط به سوى العبيد والجواري ، ولا يفكر إلا في ملاذ ؛ وبدلاً من أن يعنى بشؤون الحكم ، كان يلهو بما لا يليق بأمر من رعى الأبقار وتربيتها ؛ ومع أنه لم يجاوز الحادية والعشرين ، فقد ذبلت صحته وتخطمت من جراء اللهو العنيف ، ودنا سراحاً من القبر ؛ ولقيت حياته المباشرة نهاية غير مجيدة ؛ فقد توفى بين أبقاره وهو يروضها ، إذ هجمت عليه بقرة شرود منهن وضربت به بقرنيها في موضع القلب ، فتوفى لساعته ، وذلك في الثالث عشر من ذى الحجة سنة ٦٢٠ هـ ، الموافق ٦ يناير سنة ١٢٢٤ م (١) .

والواقع أن المستنصر نفسه لا يحمل تبعة خلاله السيئة وفشله في الحكم ؛ ذلك أن أقاربه ووزراءه كانوا يدفعون به إلى غمر اللهو ويجعلونه غير أهل لأى عمل جدى ، وذلك لكي ينتزعوا مقاليد الحكم لأنفسهم من هذا الفنى القاصر ، وقد حققوا غايتهم ؛ ولكنهم دفعوا في نفس الوقت بالملكة إلى براثن الفوضى والحرب الأهلية .

ومهدت وفاة المستنصر الفجائية دون عقب ، لأقاربه الذين كانوا يحكمون مقاطعات المملكة مستغلين فرصة واسمة لمحاولاتهم وأطماعهم ؛ وسرعان ما أفضى

(١) روض الفطاس ص ١٦١ .

النزاع حول العرش الى اضطرام الحرب الأهلية . وقام في الحال بالأمر في سراكنش عم أبي المستنصر ، أبو مالك عبد الواحد ، وكان يعيش من قبل عيشة الترهب والتبتل ؛ وقام بالأندلس ابن أخيه عبد الله أبو محمد وهو ولد بمقوب المنصور ، وأعلن نفسه أميراً على مرسية باسم العادل بالله ، واعترف أخوه أبو علي إدريس والى إشبيلية بسيادته ؛ ولم يكتف العادل بما أحرزه من الاستقلال بالأندلس ، فأوهم إلى أصدقائه وأنصاره في سراكنش بالثورة على أبي مالك عبد الواحد ، وكان منكبا على لموه وملاذه ، فخلع في ١٣ صفر سنة ٦٢١ هـ (٨ سبتمبر سنة ١٢٢٠ م) ، ثم قتل بعد ذلك بثلاثة أيام ، ولم يطل حكمه سوى ثمانية أشهر . بيد أن العادل لم يستقر في عرشه اللطخ بالدماء سوى القليل ، ثم أسقطه أولئك الذين رفعوه ؛ ذلك أنه حاول أن يحد من غطرسة الولاة والقضاة والأشياخ وأطاعهم ، وأن يقيم العدل والنظام ثانية في تسيير الشؤون ، وأن يرد هيبة السلطان كما كانت من قبل ، ولكنه لقي معارضة من كل جانب ؛ ووقع الانفجار في الأندلس بادئ ذي بدء ، حيث رفع أقارب العادل من السادة الموحدين — وهم محمد صاحب قرطبة ، وأبو علي صاحب إشبيلية ، وعبد الرحمن صاحب بلنسية ، ومحمد والى بياسة — علم الثورة ؛ ونحالف محمد مع الجند القشتاليين الذين نفذوا إلى الأواشي الإسلامية ، ضد من بقى على إخلاصه من جند العادل ، واستطاع فرديناند ملك قشتالة بذلك أن يحتل حصون بياسة وأندوجار ومرطوس ، وأن يحصل على ربيع مواردها . ورأى العادل خشية من أن يفتقد الأندلس كلها أن يعقد حلفا مع ملك قشتالة ، وعين محمد والى بياسة^(١) قائداً عاما لقوات الموحدين بالأندلس ، وحصل فرديناند في الحال على أهم الحصون الواقعة على الحدود ؛ وانتهز خصوم العادل هذه الفرصة فشهرها به لدى الشعب ، وأبى قائد حصن كابيلا أن ينفذ أمر العادل وأن يسلم المدينة إلى ملك قشتالة ؛ ورأى أهل قرطبة أن النصارى قد أحاطوا بهم من كل صوب . وأخذوا يتوقعون سقوط المدينة في أيديهم . وأخذ النخط يشتد تباعاً من

(١) ويسى البياسي لأنه قام ودعا لنفسه بمدينة بياسة (روض القرطاس ص ١٦٨) .

جراء المهادنة المعقودة مع النصارى ، ورأى الناس فى العادل خارجاً على الإسلام ، وحذف اسمه من خطبة الجمعة ، وجهر الناس بالدعاء عليه فى المساجد ، واعتبروه عدواً لله ومقتصباً للعرش بلا حق ، وانتهى الأمر بأن كسب الثوار الحرس إلى جانبهم ؛ وفى ذات يوم اقتحموا القصر وطلبوا إلى العادل أن ينزل عن العرش مختاراً ، فأبى وصرح بأنه لن ينزل بأى حال عند مطلبهم ، فقبضوا عليه ، ووضعوا رأسه فى حوض نافورة مملوء بالماء ، وأقسموا بالألا يخرجوه منه حتى يمان تنازله ؛ فأصر العادل على رفضه بشدة ؛ فوضعوا عمامته فى عنقه ، وأخذوا فى خنقه ورأسه مغمور فى الماء ، وهكذا توفى هذا الأمير ضحية لصرامته وأطباع أقاربه وكبراء مملكته ، وذلك فى الحادى والعشرين من شوال سنة ٦٢٤ هـ ، الموافق ٥ أكتوبر سنة ١٢٢٧ م ، بعد حكم دام ثلاثة أديام وثمانية أشهر وبضعة أيام . وحدث فى نفس الوقت أن قتل محمد صاحب قرطبة غيلة ؛ وحاولت مدينة يباسة التى منح قلعتها كبير فرسان قلعة رباح ، أن تطرد النصارى ، ولكن جهودها ذهبت كلها عبثاً . ولما استولى فرديناند على حصن كايلا بمد أربعة أشهر ، استطاع أن ينقذ فرسان قلعة رباح المحصورين فى قلعة يباسة ، وأن يأخذ المدينة نفسها ؛ وغادر المدينة سكانها ، واحتل النصارى هذا المركز الهام ، وقد كان دعامته ذات شأن لما تلا من الفتوح فى الأندلس .

وكان مدبر الفتنة ورأس المؤامرة التى فقد فيها العادل عرشه وحياته ، أخا العادل ، أبا على إدريس والى الأندلس المتقدم ذكره ؛ وكان مقامه من قبل فى إشبيلية ، ثم انتقل بعد ذلك إلى مالقة ، وابتلى له بها قصران فخماً ، وعمل على استئلال سخط الزعماء فى الأندلس للحط من هيبة أخيه ؛ ولما تم له ذلك فى الأندلس ، سهل عليه أن يقوض سلطان العادل فى المغرب ، وأن ينزعه من عرشه ، ويقضى على حياته ؛ وكما أن العادل استطاع أن يرقى العرش بطريق الثورة والخيانة والقتل ، فكذلك كان سقوطه ؛ ولم يوفق أخوه أبو على الذى أعلنه الثوار ملكاً باسم المأمون ، إلى أن يفوز بحكم أهدأ من حكمه ، وحله فقد كل نظام وطاعة على أن

يحكم بيد من حديد ، ولما كان مجلسا الحسين والسبعين اللذان أنشأهما أمراء
الموحدين وفقا لتعاليم المهدي ، قد أصبحا أكبر عضد للإصلاح بالنظام والفوضى
من جراء سوء استعمال السلطة ، فقد حاول المأمون قبل كل شيء ، أن يحطم من
سلطة هذين المجلسين ، وأن يردهما إلى سابق حالتهما كهيئة استشاريتين فقط ،
وأن يلغيهما إذا استطاع ؛ وكان يؤازره في ذلك وزيره الأكبر الأمير أبو زكريا
ابن علي ، وكان من رأيه أنه يجب لإقامة حكومة قوية رشيدة ، أن يكون ثمة
شريعة غير شريعة الله ، ورأى الأمير ؛ وكتب المأمون أو كتب وزيره المذكور
باسمه بهذا المعنى وثيقة يعارض بها شريعة المهدي ونظام حكومته ، ويبين فيها
عيوب هذا النظام وسوء إدارته ، ويعرب عن رغبته في العمل على إصلاح دستور
الدولة المهدية . فرأى الزعماء في تصريح الأمير ، ورأى فيه أعضاء المجلسين
بالأخص تهديدا لامتيازاتهم ، وحاولوا أن يعارضوا بكل قواهم ذلك النظام المطلق
الذي يريد أن يقيمه المأمون ، والذي هو في الواقع نظام الحكم المعتاد في الدول
الاسلامية ، لما فيه من حد لحقوقهم ؛ فلم تزد هذه المعارضة المأمون إلا نشاطا
في تنفيذ مشروعه الإصلاحى ، وسرعان ما استحال هذا الصراع في سبيل الحياة
أوالوت بين السلطين إلى حرب أهلية ، وعوقب مجلسا الدولة أعنى مجلس الحسين
والسبعين من جراء معارضتهما بالحل ؛ ومع ذلك فقد أعلن المجلسان قياهما ،
وأعلنا بطلان حكومة المأمون ، وزعما لأنفسهما الحق في اختيار خلف لحكومة
العادل ، وناديا في الحال بولاية أبي زكريا يحيى ، ولد الخليفة السابق محمد الناصر
وهو سبى في الرابعة عشرة من عمره^(١) ، وأقسما له بيمين الطاعة ، فتلقب بالمعتصم
بالله ، وبأمر أنصاره الذين رفعوه إلى العرش بارساله إلى الأندلس على رأس قوة
من الجنود ، ليعمل على إسقاط المأمون عن العرش ، وكان يومئذ بالأندلس ،
وما كاد المأمون يقف على مقدم خصمه المعتصم حتى سار إلى لقائه في جيش ضخم
يعاونه بعض الجنود القشتاليين ، وهزمه في معركة شديدة نشبت بينهما في شدونة ،

(١) في روض الفرات أنه كان يومئذ في السادسة عشرة من عمره (س ١٦٥) .

وفر الأمير المهزم في فل جيشه القليل إلى مفاوز جبال البشرات ، حتى تسنح الفرصة مرة أخرى لمنازعة خصمه المأمون . ولما كان النصارى قد انتهزوا فرصة الحرب الأهلية بين المسلمين للقيام بغزوات عديدة في الأندلس ، وعبروا الحدود الإسلامية ظافرين من كل صوب ، فقد آثر المأمون أن يتحول إلى مقاتلة النصارى على أن يمضى في مطاردة فلول المعتصم في أعماق الجبال ؛ فانقلب فجأة إلى مقاتلة القشتاليين ، وكانوا يومئذ قد اجتاحت أراضى الأندلس حتى ظاهرا غرناطة وضربوا الحصار عند عودتهم حول جيّان ، وأخذهم على غرة ، فانهزموا وركبوا إلى الفرار بعد أن تكبدوا خسائر فادحة ؛ وكان من ثمار هذا النصر الذى وقع في سنة ١٢٢٨ م (٦٢٥ هـ) أن أنقذت جيّان ، واستردت عدة من حصون الحدود المفقودة ، وأصاب المسلمون غنائم عظيمة .

وبعد أن حصن المأمون حدود الأندلس الموحدية على هذا النحو ، بادر بالعودة إلى المغرب ليعاقب الزعماء الذين دبّروا خلعهم أو الذين تخلفوا عن بيعته ، فركب البحر من لشبيلية في أسطول ضخم ، ولما وصل إلى مقربة من سبتة حاول إبراهيم بن غانية أمير البحر من قبل المعتصم ، أن يعترض نزوله إلى البر ، فقاتله وهزمه ، وترك المأمون جنده المشاة ، وسار في قوة من الفرسان فقط ، فوصل إلى مراکش بسرعة عظيمة ، حتى أن أحداً من خصومه لم يجد وقتاً للفرار ، وسقط أعضاء المجلسين الذين بالغوا في خصومته جميعاً في يده أسرى ، ف قضى عليهم بالإعدام بتهمة الخيانة ، وقام في الحال حرسه بتنفيذ هذا الحكم .

ولم يقتصر الأمر على العاصمة ، بل تناول المقاطعات أيضاً ، وجد المأمون في مطاردة جميع أنصار النظام القديم ، ونفذت أوامره الدموية بمنتهى الصرامة ، حتى أنه لم يمض سوى القليل حتى أرسلت زهاء خمسة آلاف من رؤوس القتلى إلى مراکش ، وعلفت على أسوارها ؛ وبثت حكومة المأمون الصرامة الذعر والروع في كل مكان ؛ وألقى المأمون في حرسه من الأندلسيين والسود أداة قوية مستعدة لتنفيذ أوامره ، وفقد زعماء الموحدية الذين استطاعوا الفرار من الموت .

كل شجاعة وكل عزم ، ومع أن مجلسي الحسين والسيعين لبثا قائمين بالأمم .
فإن أعضائها الجدد كانوا من صنائع المأمون ، ولم يسمح لهم بالتدخل في شأن من
شؤون الدولة ، وكل ما هنالك أنهم كانوا يعاونون وزير العدل ، وكان عليهم أن
يصادقوا دون جدال على كل خرق للشرع والقانون - ولكي يعدل دستور دولة
الموحدين من أساسه ، أعلن أن مؤسسه المهدي مختال ومحتال ، ومحى ذكره من
الصلاة ومن المنابر ، وأبطلت جميع النقود والنقوش التي تحمل اسمه ؛ وكان طبيعياً
أن يعتبر الشعب المأمون إثر ذلك ملحدًا ومرتداً وكافراً ، وألا يحول دون انفجار
الثورة العامة عليه سوى بطشه وقوة حرسه ؛ ومن ثم فقد اضطر المأمون إلى
المضي في هذا الحكم الرهيب ، ولم يتح له أن يستبدله بغيره ، بالرغم من أنه قد
أنفيت في ظله الألوف ، ولم ترفع رؤوس القتلى عن جدران المدينة بالرغم من أنها
كانت تسمع الهواء من جراء اشتداد الحر ؛ وكان المأمون يقول : « ها هنا مجانين
هذه الرؤوس أحراز لها ، وروايحها عطرة عند المحبين كريهة عند المبغضين . . .
وأنا أعرف بما يتطلبه الخير العام ^(١) » .

وبينما كان المأمون يحكم المغرب بيد من حديد ، ويرد أنصار خصومه بعد أن
هزمهم غير مرة ، إلى أعماق جبال الأطلس ، إذا بمعظم أراضي الأندلس يخرج عن
قبضة الموحدين ؛ ففي منطقة مرسية قام أبو عبد الله محمد بن يوسف سليل بني هود
أمراء مرسية السابقين ، وسرعان ما ألحق العربي النبيل في بغض عرب الأندلس
للمغاربة الموحدين أكبر عصد ؛ كذلك لم يكن ينقصه تمضيد الفرسان النصاري الذين
كانوا - كما كان السيد الكنبيطور - يخرجون للحرب والفتوح ؛ واستولى محمد بن
هود على مرسية دون كبير مشقة ، ونادى بنفسه أميراً لها باسم المتوكل على الله ،
وحاول أن يكسب الأندلسيين إلى جانبه بسرعة ، وأن يؤلبهم على قتال الموحدين
فأذاع أنه يسعى إلى تحريرهم من نير المغاربة المرهق ، وأنه إن يفرض عليهم سوى

(١) وردت هذه التفاصيل جميعها عن حكم الإرهاب الذي بسطه المأمون في الحلال الموشية
س ١٢٤ و ١٢٥ ؛ وقد نقلنا قوله الأخير عن الرؤوس منها ما عدا العبارة الأخيرة .

الضرائب الشرعية ، وأن يعمل على إقامة شرائع الإسلام الحقبة ، وأعلن المتوكل أن الموحدين كفار ، وأمر أن يحتفل بتطهير المساجد التي دنسها فقهاؤهم وارتدى السواد بهذه المناسبة ، وأمر الزعماء بإرتدائه ، لا باعتباره شعار الحداد كما يقول رديك الطليطلي ، ولكن لكي يميز حزبهم من غيره ، وذلك لأن المتوكل ، رأى أن يعترف بسيادة بني العباس خلفاء بغداد ، وشعارهم السواد ، لكي يستعين بذلك على قتال الموحدين .

ولم يمض سوى قليل ، حتى سارعت — بعد مرسية — معظم بقاع الأندلس إلى طاعة ابن هود ، ومبايعته ، ومنها مدن جيان وقرطبة وماردة وبطليوس ؛ وزاد في قوته وسلطانه ما أعلنه من أنه عدو لدود للنصارى ، وأن الخليفة العباسي قد أقر إمارته على الأندلس ؛ واضطر المتوكل في بدء إمارته أن يخوض مع ألفونسو التاسع ملك ليون معارك شديدة ؛ واستطاع ألفونسو أن يفتتح عدة حصون على الحدود في مقاطعة استرامادورة ، وأن يهزم جيش المتوكل الضخم في معركة هائلة انتهت باستيلاء الليونيين على ماردة ، وهي مدينة عظيمة على ضفة وادي يانة ، وعلى بطليوس وهي إحدى الحصون النعمة ، وذلك في سنة ١٢٣٠ م (٦٢٧ هـ) .

ولم يدخر المتوكل وسعاً في العمل على إسقاط المأمون ، أو معاونة منازعه على العرش المعتصم يحيى بن الناصر ، الذي أرسل من جديد جنوداً إلى الأندلس لمحاربة جند المأمون ؛ كذلك لم يفته أن يحسن الانتفاع بثورة أخى المأمون ، أبي موسى بن المنصور ، والى سبته ؛ ولم يكن من الصعب عليه — وقد حظى بمؤازرة الشعب الأندلسي كله — أن يهزم زعيم الموحدين ، بعد أن كان التوفيق يحالفه في عدة معارك دموية ، وأن ينتزع منه حصن غرناطة المنيع (سنة ١٢٣٠ م) ؛ وفقد الموحدون مدينة بعد أخرى ، ومقاطعة بعد أخرى ؛ ولم يروا أمامهم سبيلاً للاحتفاظ بما تبقى سوى عون النصارى الأسبانيين ؛ وكما حاول الأمويون ، ثم المرابطون من بعدهم ، في آخر أيامهم أن يحتفظوا بسلطانهم المضطرب بمعاونة المرتزقة

النصارى ، فكذلك شأن الموحدين^(١) .

وهكذا اتخذ أمير المؤمنين اثني عشر ألفاً من المرتزقة القشتاليين في خدمته ، وأرسلوا إلى المغرب لحماية العاصمة مراكش وإقليم المغرب من عدوان منافسه يحيى وأنصاره ، ونزل لقاء ذلك إلى ملك قشتالة عن عشرة من حصون الحدود ، ودفع إليه مبالغ طائلة من المال ، وسمح بإقامة كنيسة للنصارى في مراكش ، وتعهده بالآلات يتعرض أحد في مملكة الموحدين كلها للنصرانية والنصارى بسوء ، وأن يؤذن للنصارى في الأندلس بقرع النواقيس في كنائسهم . أما ما قيل من أنه اشترط في معاهدة الصلح بين الملكين ، أنه إذا اعتنق الاسلام نصراني ، فإن إسلامه يكون باطلاً ، وأنه إذا اعتنق النصرانية مسلم فإن يتعرض له أحد بشيء ، فما يشك فيه كل الشك ، كما أنه يشك أيضاً في صحة ما نسب إلى المأمون من أنه قال في خطبة ألقاها في الشعب ، إن المهدي مؤسس الدعوة المهدية وحكومة الموحدين مخادع مضلل ، « وإنه لا مهدي إلا عيسى ابن مريم عليه سلام الله وبركاته » ، ذلك أنه إذا كان المأمون ، كما يبدو صديقاً للنصرانية ، فإنه لم يكن باستطاعته أن يجاهر بذلك دون أن يفقد في الحالة عرشه وحياته^(٢) .

ولم يدخر المأمون وسماً في تحطيم خصومه ؛ ومع ذلك فقد كان يرى — والألم يحز في نفسه — كيف ينهار سلطانه يوماً بعد يوم ، وذلك بالرغم من أن حلفاءه النصارى كانوا ينشطون إلى معاونته بالغزوات المستمرة والمعارك المظفرة ضد محمد ابن هود ؛ ولسكن الأندلسيين لم تكن لترضيهم مخالفة لانسارى ، بل كانت بالعكس

(١) تحدث ابن خلدون عن ثورة ابن هود على الموحدين وحروبه معهم بأسهاب في الجزء الرابع من ١٦٨ و ١٦٩ .

(٢) يورد صاحب روض القرطاس جميع هذه الشروط ، التي اشترطها ملك قشتالة على المأمون نظير إمداده بالجند القشتاليين ومنها إقامة الكنيسة بمراكش ، وعدم الاعتراف بإسلام النصراني إذا أسلم ، وعدم التعرض للسلم المرتد . كذلك يقول لنا إن المأمون خطب الناس بجامع المنصور ، وأمن المهدي وقال : « أيها الناس لا تدعوه بالمعصوم وادعوه بالذموم ، إنه لا مهدي إلا عيسى ، ولما قد نبذنا أمره النجس ... الخ » (ص ١٦٧) ويؤيد ابن خلدون هذه الرواية في بعض تفاصيلها (ج ٦ ص ٢٥٣) .

حافزاً لهم على معاونة خصوم المأمون . وحدث أيضاً أن فقدت مقاطعة بلنسية الخصبة الغنية . ذلك أن واليها السيد أبا عبد الله محمد أخا المأمون ، لجأ في حماية سلطانه من المتوكل والأندلسيين الشائرين إلى طلب العون من جاييم الأول ملك أراجون ، وتعهد بأن يؤدي له الجزية ، وأن يكون تابعاً له ، فاشتد لذلك سنخبط البلنسيين ، والتفوا حول أحد زعمائهم وهو أبو جيل زيان بن أبي الحللات مدافع ابن أبي الحجاج الجذامى سليل آل مردنيش أمراء بلنسية السابقين ، وطردهوا الأمير المرابطي ، ونادوا بزيان أميراً عليهم ؛ فلم يجد السيد أبو عبد الله أمامه سوى الالتجاء إلى ملك أراجون يطلب حمايته ، وأجابه جاييم إلى سؤاله باعتباره تابعه سيما وقد اعتنق السيد وبناته النصرانية^(١) ، وألقى جاييم عندئذ حجة لغزو بلنسية ، مؤملاً أن يحظى بالتأييد والعون من أنصار الأمير الموحدى فيها .

وفي تلك الأثناء ثار والى سبتة السيد أبو موسى أخو المأمون ، وانضم بقواته إلى ثوار الأندلس ؛ واستطاع يحيى الناصر بالرغم من الحماية النصرانية أن يفتح مراکش ، وهدم الكنيسة التي أقيمت فيها ، ونهب النصارى واليهود وقتلهم^(٢) . فعمدئذ رأى المأمون أن يترك الأندلس إلى مصيرها ، وإلى خلفائه النصارى ؛ وركب البحر من إشبيلية — وهي المدينة الوحيدة الهامة التي بقيت للموحدين في الأندلس — إلى إفريقية ، لكي يسترد مراکش قبل كل شيء ؛ ومن النادر أن تقص سيرة أسرة على شفا الانهيار بوضوح وصدق ، فالأورخ الذي ينتسب إلى هذا الحزب أو ذاك يقص حوادث هذا العصر المضطرب في الغالب وفقاً لما يهوى ؛ ومن ثم فانه ليس من المحقق ما إذا كان المأمون قد توفى بالصرع قبل أن يصل إلى مراکش ، أو أنه خاض مع يحيى الناصر معركة وهزمه ثم أصابه الموت فجأة وهو يدبر الأمر لاسترداد الأندلس ؛ وقد توفى في الثلاثين من شهر ذى الحجة سنة ٦٢٩ هـ (١٦ أكتوبر سنة ١١٣٢ م) ، بعد حكم دام

(١) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧

(٢) راجع روض القرطاس ص ١٦٩ .

خمسة أعوام ، كدبرته الحروب المستمرة مع الثوار ؛ وكان موته نذيراً بانتهيار سلطان الموحدين في المغرب بعد أن تم انهياره في الأندلس قبيل موته ؛ وبقيت في المغرب من سلطان الموحدين أنقاض لبثت بعد ذلك زهاء نصف قرن ، ونحن نقص هنا سيرتها بإيجاز ، وإن كانت لا تكاد تمت بصلة ما إلى تاريخ الأندلس .

وبعد وفاة المأمون حاول الحزب الذي رفع ابن أخيه أباً زكريا إلى العرش ، أن يحصل لرشحته على المبايعة العامة ، واسكن الحزب المعارض كان أقوى ، فعمل بتأييد الحرس النصراني على تولية ولد المأمون أبي محمد عبد الواحد ؛ وهو صبي في الرابعة عشرة من عمره ، وتلقب بالرشيد ؛ واعترف بولايته معظم أقطار المغرب ، وقسم من الأندلس يشمل إشبيلية والجزيرة ؛ أما يحيى فقد استمر أربعة أعوام أخرى يخوض معارك دموية كان يهزم فيها دائماً ، ثم توفي على مقربة من فاس ، وذلك في شهر رمضان سنة ٦٣٣ هـ (يونيه سنة ١٢٣٦ م) ، ولكن لم تنقطع بوفاته دسائس الأحزاب المختلفة ، وهي دسائس جد عبد الواحد في قمها ؛ وهكذا استمر يمشى محوطاً بالقلاقل والفتن ، حتى وقع حادث سيء أودى فجأة بحياته ؛ ذلك أن جواده جمح ذات يوم ورخص به إلى بركة أو نافورة في حديقة ففرق ، وتوفي في التاسع من جمادى الثانية سنة ٦٤٠ هـ (٤ ديسمبر سنة ١٢٤٢ م) ، وذلك بعد أن حكم عشرة أعوام وبضعة أشهر ؛ ولم يجاوز عند وفاته الرابعة والعشرين من عمره ؛ وفي أثناء حكمه فقد المسلمون في الأندلس قرطبة وإشبيلية وأراضي كثيرة أخرى ، استولى عليها النصارى من محمد بن هود وزيان بن أبي الحلات .

وعلى أثر وفاة عبد الواحد نادى الموحدون بأخيه أبي الحسن علي — الملقب بالسميد — سلطاناً عليهم ، وكان حكمه أحفل بالمصائب من حكم أسلافه ؛ وألقى الموحدون خصوماً جدداً في بني زيان وبني مرين ، الذين أخذوا ينازعونهم السيادة في المغرب ؛ وكان السميد أكثر توفيقاً في محاربة بني مرين ، إذ هزمهم في معركة شديدة بمعاونة المرتزقة النصارى الذين في خدمته ؛ بيد أنه هزم بعد ذلك

في موقعة نشبت بينه وبين يحيى بن زيان أمير تلمسان ، وقتل أثناء القتال ، ولا يمض على حكمه ستة أعوام بعد ، وكان مقتله في ٢٩ صفر سنة ٦٤٦هـ (٢٤ يونيو سنة ١٢٤٨م) . وفي أثناء حكمه حاصر النصارى مدينة إشبيلية ، وهى آخر قاعدة كبيرة بقيت بيد الموحدى بالأندلس ، ولم يستطع أن يعدها بالمعاونة الكافية ، فسقطت في يد فرديناند الثالث ملك قشتالة .

وخلفه في حكومة مراکش عمر بن أبى إبراهيم إسحاق ، وهو من أحفاد أبى يعقوب يوسف ، وتلقب بالمرتضى ؛ وكان أميراً عاقلاً حسن الخلال ، فنشط لمقاومة خصوم أسرته مزوداً بجميع الوسائل والقوى خلا حسن الطالع ؛ ولم تفد جهوده — لإعادة نظم المهدي وتعاليمه إلى سابق مكانتها بعد أن أبطل المأمون بعضها — شيئاً في توطيد سلطانه ؛ ذلك أنه متى انهارت أسس دولة من الدول فإنه لن تحول دون سقوطها دعائم قديمة مقوضة ؛ ولم يتأثر الشعب ذرة بحج المرتضى إلى قبر المهدي في تينال ، جرباً على سنة الأوائل من خلفاء الموحدى ؛ ذلك أنه لم يكن يرى في مؤسس دولة الموحدى بعد نبيا ورسولاً ، بل اعتاد أن يرى فيه — وفقاً لأقوال حكومة المأمون — محتالاً مخادعاً . وهكذا فانه بينما كان المرتضى يحاول عبثاً برد القديم أن يقل المملكة من عثارها ، كانت النواحي تخرج عن قبضة الموحدى واحدة بعد أخرى ؛ وكانت أنقاض سيادتهم في الأندلس تؤول إلى أمير غرناطة محمد بن الأحمر ، أو إلى قشتالة والبرتغال ؛ ونشبت في سبتة ثورة لم يقو المرتضى على إخمادها ؛ وسقطت فاس في يد المرينيين ؛ وتفاقم الخطاب بخروج أمير من أمراء الموحدى ، هو أبو الملاء إدريس بن أبى حفص بن إبراهيم ابن عبد المؤمن الملقب بأبى دبوس ، وكان خروجه في ٢٥ محرم سنة ٦٦٥هـ (٢٥ أكتوبر سنة ١٢٦٦م) وحاول أن يعمل لإسقاط عمر ، وانزعج الملك لنفسه ، فتحالف مع بنى مرين ، وسلمهم مدينة مراکش بطريق الخيانة فاحتلوها ، وفر عمر المرتضى ناجياً بنفسه ، مندوذاً من جميع أصدقائه ، فهام حيناً على وجهه حتى قتله عبده المرافق له غيلة ، وذلك في ٢٢ صفر سنة ٦٦٥هـ (٢١ نوفمبر سنة ١٢٦٦م)

بعد أن حكم تسعة عشر عاماً إلا بضعة أشهر ؛ وحسن ذكره في الناس فيما بعد فكانوا يحجون إلى قبره كما يحجون إلى قبر قديس .

وعلى أثر ذلك ولي إدريس أبو دبوس — بمعاونة المرينيين — ذلك العرش المضطرب ، الذي عاون هو على تقويضه ؛ وقبض على أبناء سلفه وزجهم إلى السجن تأميناً لحكومته ، بيد أنه لم يمض سوى القليل حتى أدرك إدريس معاونة المرينيين على حقيقتها . ذلك أنهم طلبوا إليه أن يحكم باسمهم باعتباره تابعاً لهم ، فأبى إدريس مغضباً ؛ وعندئذ نشبت الحرب بين الفريقين ؛ فحشد إدريس كل ما تبقى له من قوى الموحدين ، وبعد أن دام القتال بينهما حيناً ، وكان النصر بينهما سجالاً ، التحم الفريقان في العام الثالث ، في الثاني من محرم سنة ٦٦٨ هـ (أول سبتمبر سنة ١٢٦٩ م) ، في معركة دموية على ضفاف نهر وادي الغفير ؛ فقتل إدريس وهو يقاتل بمنتهى البسالة ، وذلك بعد أن مرق جيشه وسحق في كل ناحية وقتل معه سواد الموحدين في ميدان الحرب ؛ وكانت هذه المقتلة ، هي مقتل سيادة الموحدين ؛ فانهارت دولتهم ، بعد أن قامت مدة واحد وخمسين ومائة عام ، وانتهت بالرابع عشر من أمصاتهم ، وهو إدريس أبو دبوس ، لكي تمعنها دولة بني مرين .

الفصل السادس

نزاع چايم الفاتح مع عميه وحروبته ضد المسلمين

في الجزائر الشرقية ومملكة بلنسية حتى خضوع هذه

المملكة لسيادة أراجون

كان نبأ موت بيدرو نذير اضطرام فتن شديدة بين أشراف أراجون وقطالونية ؛ كذلك نهض أخوا الملك المتوفى وهما سانشو وفرناندو في الحال مطالبين بالعرش ، منكبين صحة مولد چايم (خايم) أو يعقوب ، لأن بيدرو نفسه كان يعتبر زواجه من ماريا باطلاً ؛ ولكن البابا كان قبيل وفاة بيدرو قد أعلن صحة هذا الزواج ، ولذلك أعلن معظم رجال الدين ، وفريق كبير من الفرسان تأييدهم لچايم ، باعتباره وارثاً للعرش ؛ وأرسلوا سفيراً إلى البابا أنوسان الثالث ، وحصلوا بمعاونته على استلام وارث العرش من الكونت سيمون دى مونفور ؛ وأحضر « چايم » وهو طفل في السابعة من عمره إلى أراجون برفقة بطرس مطران بنقنت والكونت ريمون برنجار صاحب بروفانس ، وذلك سنة ١٢١٤ م ؛ وفي مجلس النواب الذي عقد في لارده ، وشهده رجال الدين ، والأشراف والفرسان ، وكذلك عشرة نواب عن كل مدينة ، أعلن چايم ملكاً شرعياً للبلاد ؛ ولما كان الهمان قد استطاعا أثناء غياب چايم عن أراجون أن يحشد كل منهما فريقاً كبيراً من الأنصار ، ولم يحضرا مجلس النواب ، فقد رأى المطران أن يطلب إلى الحاضرين أن يقسموا بمين الطاعة في الحال للملك ، وهو ما لم يحدث قط من قبل في أية تولية سابقة .

وأصدر المجلس قراراً بأن تسند تربية الملك الطفل وحراسته إلى أستاذ فرسان الداوية في مملكة أراجون وهو وليم دى مونريدون ، وهو من أشراف قطلونية الذين امتازوا بوافر عنايتهم وفروستهم وثقاتهم ، وأن يسند حكم البلاد إلى ثلاثة منحكام المقاطعات ، منهم اثنان عن أراجون ، والثالث عن قطلونية ؛ وأسندت الوصاية إلى سانشو كونت روسيون حتى لا تهضم حقوق العميين .

ولكن هذه الإجراءات لم تنجح في قمع الفتنة من البلاد ، بل زادت بها اضطراباً ؛ وكانت أطماع عمى الملك للذين لم ينزلا عن دعواهما في العرش ، أهم أسباب القلاقل في البلاد ؛ وكانا يميلان فقط لتحقيق مصالحهما الخاصة ، وينفقان موارد البلاد في سبيل أغراضهما ، وترتب على ذلك أن انهارت موارد البلاط المالية ، وكانت قد اضمحلت من جراء إسراف بيدرو ؛ وكان القضاة المملكيون يبيعون العدالة ليحصلوا قوتهم ؛ وبذا كان كل شيء ينذر بأحلال المملكة . وهنا نهض الشيخ الأمين الموقر كمينو كورنل ، فعمل على إنقاذ المملكة من السقوط ، وعلى تأمين العرش لـ جاييم ، الملك الذي يعاني نوعاً من الأسر ؛ ذلك أنه عقد حلفاً بين المخلصين من مواطنيه ، وعمل هؤلاء على تسهيل الفرار للملك الفتى من حصن مونزون حيث كان سجيناً تحت إشراف عمه الطموح سانشو ، وأحضره إلى سرقسطة ، وذلك في سنة ١٢١٧ م ؛ ومع أن جاييم لم يكن في ذلك الوقت يجاوز العاشرة من عمره ، فإنه كان يبدو من حيث نموه الجسمي والعقلي فوق سنه ؛ وكان يعنى بشؤون الدولة بمعاونة بعض الوزراء الأكفاء ؛ وفي العام التالي استدعى مجلساً نيابياً في لارده ، وفيه اتفق مع عمه سانشو ، على أن يقطعه أملاً كاشاسمة ، ودخلاً حسناً ؛ ولقاء ذلك نزل سانشو عن الوصاية ، وعن دعواه على العرش ، وأقسم عين الطاعة المنشود .

وهنا ظهر العم الآخر فرناندو ، وغدا أخطر عدو للملك . وكان أقوى الأشراف الإقطاعيين يضطرمون عناداً ومعارضة ويرفضون الإذعان للأوامر الملكية ، وسرعان ما شهبوا على الملك الفتى حرباً شعواء ؛ فانهز فرناندو هذه

الفرصة ليعمل على نزع ابن أخيه عن العرش ، والتف حوله الخوارج والثوار ؛ وحاول كل حزب أن يحصل على شخص الملك لكي يستطيع الحكم باسمه ؛ وهكذا وقع چايم في يد آل مونكادو وآل آهوني ، وهما أسرتان قويتان ، لم يلبثا أن استأثرا بجميع السلطات ؛ وكان فرناندو يشترك في جميع هذه الحوادث ، وقد استطاع أن يسيطر على مدن سرقسطة ووشقة وجاغة وأن يحماها على الانفصال عن المملكة ؛ ولكن الخلاف والحسد اللذان دبا إلى الحلفاء ، وخلفا منهم أحزاباً جدداً ، وتصرف چايم الحكيم في جميع المآزق ، قصت على عمل الأطايع والخيانة ؛ وكلما اعتقد فرناندو أنه أوشك على تحقيق الغاية بمدت عنه ؛ واستطاع چايم أن يوثق أواصر تحالفه مع قشتاله بزواجه من الينور ابنة ألفونسو النبيل (سنة ١٢٢١ م) ، وعاون ذلك على تسوية الخلاف بين الأحزاب الخصيمة لدى قصير ؛ ولكن سرعان ما عاد فرناندو وأنصاره الأقوياء إلى غطرسهم ؛ وفي سنة ١٢٢٥ م ، استطاع چايم أن يفر من قبضة خصومه الأفوياء مرة أخرى ؛ وحاول — باشهار الحرب على المسلمين — أن يسترد هيئته الملكية ، ولكنه لم يوفق في البداية ، إذ لم يتبمه إلى ميدان الحرب سوى القليل من البارونات والفرسان ؛ على أن الملك الفتى لم يهن عزيمه من قلة أهوانه والصعاب المحدقة به ، وما زال مصراً على تأييد حقوقه بالسيف ضد جمهرة الخوارج عليه ، وقد أبدى في ذلك من الاقدام والجرأة والجلد ، مثلما أبدى من البراعة في الحرب ، والذكاء ، وضبط النفس . وكانت معظم المدن قد انحازت إلى فرناندو ، وانحاز إليه أيضاً فريق من رجال الدين ، وأعلن معظم البارونات والفرسان خصومتهم الملك ، وتبع الكثيرون منهم فرناندو ؛ وكانت مدن سرقسطة ووشقة وجاغة الثلاثة مما يرباط التحالف الوثيق تعتبره حاميتها والمدافع عنها . ولكن چايم استطاع في النهاية ، بمفاوضات بارعة مع الأحزاب ومساندة زعماء الحزبين الكبيرين في قطلونية ، وما أبداه من العزم والحزم ، أن ينزع سلاح خصومه ؛ وما لبث أن انفص عن فرناندو معظم أنصاره فجأة ، فغارت عزائمهم ، وبادر بالخضوع لچايم

والتماس عفوه ورأفته ، وذلك في مدينة طرطوشة في سنة ١٢٢٧ م . ولم يرد الملك أن يدفع بالقسوة خصومه إلى صراع اليأس ، فلم يكتف بالعفو عن عمه ، بعد أن بايعه بالطاعة وأقسم له يمين الاخلاص ، بل زاد على ذلك أن أقطعه ثلاثين ضيعة من ضياع الفرسان ، وشمل بمفوه جميع أنصاره ؛ وعهد بقمع الفتن الباقية إلى مطران طركونة وأسقف لاردة ، وأستاذ فرسان الداوية في أراجون ؛ وهكذا تمت تهدئة البلاد بسرعة بعد أن عصفت بها الحرب الأهلية طويلاً ؛ واحتفل بعود السكينة إلى البلاد بتنظيم مواكب الشكر والحفلات الشعبية .

وما كاد يستتب الهدوء الداخلي ، ويطمئن چايم إلى توطد عرشه حتى عاوده شغفه القديم الذي لازمه منذ الصبا في مقارعة أعداء دينه ، واعتزم أن يخصص كل عنايته لمحاربة المسلمين ؛ ولا ريب أنه كان حكماً بعيد النظر حينما بادر بعد قمع الفتن الداخلية ، إلى أن يفتح للبارونات والفرسان الظمئين إلى السكفاح ميداناً للحرب ، يستطيعون أن يخصصوا فيه حياتهم للحرب والقتال دون إضرار بالوطن . ذلك أن غزوات چايم ضد المسلمين كانت إلى حد ما وسيلة لاجتناب الحرب الأهلية ، وكان قد حاول أن يقوم بمثل هذا الدور في صباه ؛ بيد أن الوقت لم يكن قد حان يومئذ للقيام به ، إذ كان لابد من تحقيق وحدة البلاد بآدى ذى بدء . وقد أنشأ چايم في بداية حكمه جمعية عرفت بجماعة الرحمة لكي تعمل على اقتداء النصارى من أسر المسلمين ، وعين لرياستها أحد مؤدبيه ، وهو الشيخ الورع بيدرو نولاسكو ، وربما كان لهذا الشيخ كبير أثر في كون چايم قد خصص حياته كلها لمحاربة المسلمين .

وفي سنة ١٢٢٨ م ، حينما كان چايم يعقد بلاطه في طركونة ، وبرفته جبهة كبيرة من البارونات والفرسان ، تقرر في إحدى المآدب أن تنظم حملة ضد جزيرة ميورقة ؛ ومن قبل چايم حاول بضعة من ملوك أراجون افتتاح الجزائر الشرقية (جزائر البليار) ، وكانت ولاية قطلونية أيضاً قد استطاعت أن تشهر عليها مدى حين حروباً موفقة . وأثار بيدور مارتل وهو بحار مجرب من طركونة ،

أطلع الحضور وغضبهم ، بما قصه عليهم من غنى الجزيرة وخصبها ، وما يقوم به سكانها من آن إلى آخر من سبي النصارى ، وما يضمه أميرها الأرجونيين من البغضاء والعداوة . وعندئذ طلب الحضور إلى الملك أن يشهر الحرب على الأمير المسلم — وكان هذا الأمير يعامله أيضاً بصف واهتقار — فأعلن الملك استعداده للمبادرة إلى ذلك ، وأقسم أنه لن يعتبر نفسه ملكاً شرعياً قبل أن يتم افتتاح ميورقة .

ولما كان أهل قطلونية نظراً لما يزاولونه من التجارة البحرية يهتمون بهذا المشروع أعظم اهتمام ، فقد رأى چايم أن يستمد بالأخص على معاونتهم . وفي ديسمبر ١٢٢٨ م عقد مجلس نيابى فى برشلونة ، تقرر فيه أن يوطد السلام الداخلى قبل كل شئ . وصرح نواب الطبقات للملك بأن يجبى « ضريبة الماشية » عن كل زوج من الثيران بصفة استثنائية ، وهى الضريبة التى كانت فيما بعد تجبى مرة واحدة عند ولاية كل ملك ؛ وأوضح كل من الحضور نوع المساعدة التى يمتزم بتقديمها إلى الملك فى هذه الحملة . ووعده چايم — من جانبه — بأن يقسم جزءاً مما يفتح على جميع الذين ساهموا فى هذا الفتح كل بنسبة ما قدم من عون ؛ ونذب لتحديد هذا الجزء والجزء الذى يخصص له لجنة من أسقف برشلونة وبعض الأشراف ؛ ولم تنس الكنيسة ورجال الدين ، إذ خصص لهم جزء لا بأس به ؛ وبعد أن تم التفاهم على تقسيم الأرض المفتوحة على هذا النحو ، تقرر أن يكون ثمر سالو مكان الاجتماع ، وأن يبدأ فى تنفيذ المشروع فى نهاية مايو سنة ١٢٢٩ م .

وكان انحلال سيادة الموحدين السريع قد انتهى يومئذ إلى حالة يرثى لها مما يمهّد لنجاح مثل هذا المشروع . وكان السيد أبو عبد الله محمد المنصور ، أخو المأمون والحاكم على بلنسية والجزائر الشرقية ، قد نزع من ولايته قبل ذلك بقليل على يد الأمير زيان بن أبى الحملات ، وأخرج من أرضه ؛ وفر السيد المزعول إلى ملك أراجون ، وكان قد تعهد له من قبل بأداء الجزية وسأله أن يحارب مفتصب ولايته ، وأن يعيد إليه أرضه ؛ فأكرم چايم وفادة الأمير الفار ، ووعده بأن ينظم حملة من أجله ؛

وأومده بأن الحملة التي كانت أعدت من قبل لغزو ميورقة ، إنما أعدت من أجله وفي سبيل معاونته .

وفي الوقت المحدد اجتمع الجيش الذي آخذ الصليب شماره ، وأبحر في مائة وخمسين سفينة كبيرة ، وعدد كبير من الزوارق الصغيرة ، وانضم إلى الحملة كثير من الجنويين وأهل بروفانس .

وكانت جزيرة ميورقة يومئذ تحت حكم واليها أبي عثمان سميد بن حكيم بن عمر القرشي وأصله من طابرة بغرب الأندلس وبها ولد ، وكان يحكمها من قبل الأمير أبي جميل زيان بن مدافع . وكان قد علم بأمر الحملة التي تهدد الجزيرة منذ البداية فحشد جيشاً ضخماً ، رتبته في الأماكن التي يخشى أن ينزل منها الجيش المهاجم ؛ وبلغ عدد الجند المسلمين يومئذ نحو اثنين وأربعين ألف مقاتل . ومع ذلك فقد استطاع النصارى النزول إلى الجزيرة في منتصف الليل بسلام ، قبل أن يستطيع المسلمون رددهم ، واستولوا على الشواطئ . على أن هذه البداية الموفقة ، لم يعقبها ما كان منظوراً من النجاح ؛ ذلك أن النصارى كانوا ياتقون في كل خطوة يتقدمونها دخول الجزيرة صعباً ويتكبدون خسائر ، وياتقون في كل مكان كميناً ومعارك يأس ومقاومة بأسلة ؛ وقد سقط كثير من قادة الجيش الصليبي في المعارك الدموية قبل أن يستطيع التقدم إلى عاصمة الجزيرة ويتاح له أن يحاصرها . ونهض عندئذ راهب دومينكي اسمه مجويل ياق في الجند مواعظ ملتهبة لكي يستبقي حماسهم وشغفهم بالقتال ، ويحفزهم إلى الجلد والاستبسال ؛ هذا إلى ما كان يذكرهم من أمل الحصول على ثروات المدينة وكنوزها ؛ وهكذا سار الحصار في طريقه بالرغم من بطئه وما كان يحيط به من الصعاب . ولكن حدث بعد أن سلم بعض زعماء الأرض السهلة ، وأبدت المدينة المحصورة رغبتها في التسليم وعقد الصلح ، أن هب مسلحو الجزيرة جميعاً إلى المقاومة من جديد ؛ والظاهر أنهم كانوا يتوقعون نزول الأمطار ودخول الشتاء ؛ عندئذ لم يتردد جاييم في أن يهاجم المدينة للاستيلاء عليها ؛ وكان من المحتم عليه يومئذ أن يجد مخرجاً موفقاً للحملة كلها ،

إذ كان من المتعذر عليه أن يبقى طويلاً في جزيرة لا تتسع إلا لحرب صغيرة . ففى آخر يوم من سنة ١٢٢٩ م (صفر سنة ٦٢٧ هـ) قاد چايم جنوده لمهاجمة المدينة ، بعد أن شهدوا القداس وترودوا الموت ، وهزم المسلمين الذين خرجوا للقائه ، وطاردهم ، واستولى على المدينة عنوة ، وغادرها المسلمون فارين ، وامتنع الوالى سعيد بن حكم بالقلمة أياماً آخر ، ولكنه لما لم ير أملاً فى الإنقاذ ، استسلم للظافر ، وبأبىه بالطاعة على أداء الجزية^(١) .

ومع ذلك فقد استطاع فريق كبير من المسلمين أن يظل محتفظاً باستقلاله ، معتصماً بكهوف الجبال ومغاورها . واضطر چايم أن يعود إلى الجزيرة مرتين ، فى سنتي ١٢٣٢ و ١٢٣٣ ، وذلك لى بحارب الزعماء الذين لم يقدموا طاعتهم ويطاردهم فى معاقلمهم ، ولكنى بحمى الجزيرة أيضاً من غزوات مسلمى تونس ، وقد حاولوا العمل على استردادها من النصارى ؛ وجد چايم فى إخضاع الجزيرة ، وكان قد أفر من قبل واليهما السابق سعيد بن حكم حاكماً عليها ، معتقداً أن فى ذلك ما يخفف وطأة سيادة النصارى على الشعب المغلوب ؛ ولكن المنازعات اضطرت

(١) تختلف الرواية العربية فى أمر والى ميورقة وقت سقوطها فى يد النصارى فيقول ابن أبى سعيد إنه كان عندئذ أبو يحيى بن أبى عمران النينى ؛ وقال الخزومى فى تاريخ ميورقة إن أميرها يومئذ كان محمد بن على بن موسى ، وقد وليها منذ سنة ست وستائة ؛ وقد حقق عليه ملك النصارى بتكرار اعتدائه على السفن التابعة له فى مياه الجزائر الشرقية فجهز حملة لمحاربته ، واستولى على ميورقة فى يوم ١١ صفر سنة ٦٢٧ هـ ، وأسر الوالى وعذب ومات من العذاب بعد ذلك بيسير (راجع نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٤) . وأما سعيد بن حكم ، فقد كان عندئذ والياً لجزيرة منورقة ثمانية الجزائر المرفقية ، فلما سقطت ميورقة فى يد النصارى ثار بجزيرته ، ثم تصالح مع النصارى على أداء الجزية (نفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٥) . وذكر ابن الأبار فى الحلة السيرة ، وهو معاصر لهذه الحوادث ، رواية أخرى مفادها أن سعيد بن حكم تغلب على ميورقة قبل سقوطها فى يد النصارى بقليل ، وعين من قبل واليهما وهو يومئذ القاضى أبو عبد الله محمد أحمد بن هشام والياً لمنورقة ؛ ثم ثار بالقاضى وانتزع منه ميورقة وانفرد بحكمها منذ سنة ٦٣١ هـ ؛ ولما كان ابن الأبار يتفق مع باقى الروايات فى أن سقوط ميورقة فى يد النصارى كان فى صفر سنة ٦٢٧ هـ ، فعنى ذلك أن القاضى كان والياً وقت سقوطها ، وأنه تصالح مع ملك النصارى ثم ثار به سعيد بن حكم وحل مكانه فى حكمها مع تمهده بإداء الجزية للنصارى (الحلة السيرة ص ٢٥٥) .

داخل الجزيرة بين المسلمين، ووقع التفاهم بينهم وبين مسلمي إفريقية؛ ولذلك رأى
 چايم حينما ذهب إلى الجزيرة للمرة الثالثة في سنة ١٢٣٣م ألا يبقى للمسلمين من
 ضروب الحرية سوى القليل؛ وحصل البارونات والفرسان القطلونيون الذين
 ظهروا في هذه الحرب، على معظم الأرض المفتوحة بطريق الإقطاع، وكذلك
 خضع المسلمون في جزيرة منورقة لسيادة النصارى، وقدم زعمائها طاعتهم للملك
 أراجون واعترفوا بسيادته. ولم يكن من الصعب على مطران طركونة أن يفتح
 أصغر الجزائر الشرقية، وهي جزيرة يابسة التي أقطعها الملك لسكنيسته، وقد
 استولى عليها في سنة ١٢٣٥م بمعاونة البارونات والفرسان القطلونيين؛ ثم إن
 الأمير بيدرو البرتغالي — الذي عاش فيما يبدو حين منغيا في مراكش، وجاء
 بعد ذلك إلى قطلونية وحصل على إمارة ولاية أوردقة (أورجل)^(١) بزواجه من
 صاحبها الكونتيسة — استولى على جزرتي ميورقة ومنورقة من چايم بدلا
 من ولايته.

وعلى أثر فتح الجزائر الشرقية، وقع فتح أهم، هو فتح بلنسية. وكان السيد
 أبو عبد الله محمد، الذي يسميه النصارى «زيت أبو زيت»^(٢) قد فر منذ
 سنة ١٢٢٩م ملتجئا إلى ملك أراجون، ليعاونه على محاربة مفتصب أرضه أبي جيل
 زيان، فوعده الملك بتحقيق مطلبه وعقد معه حلفا بذلك؛ وتعهد السيد من جانبه
 بأن ينزل إلى أراجون عن ربع الأراضي التي يستردها؛ وفي الوقت الذي شغل فيه
 چايم بفتح ميورقة، أخذ السيد محمد بمعاونة الفرسان الأراجونيين، ولا سيما
 بمعاونة بيدرو فرنانديز دي أراجرا، وبلاسكو دي الوسون، يشهر الحرب على
 خصمه؛ ولكن السيد لم يوفق في هذه الحرب، إذ كان يعتمد على قوى قليلة،
 وكان الدفاع عن الأراضي المغزوة قويا منيعا.

(١) هي بالأفريقية Urgel، وهي ولاية صغيرة تقع في شمال غرب قطلونية و سفح
 جبال البرنية.

(٢) وأصله بالعربية أبو زيد وهو كنية السيد.

بيد أنه لما انتهى چايم من إخضاع ميورقة في سنة ١٢٣٣ م (٦٢٧ هـ) واشترك بنفسه في الحرب ضد بلنسية ، أخذ التوفيق يحالف الغزاة . وأرغمت برّيانة^(١) ، الواقعة على البحر ، بعد حصار دام شهرين ، على التسليم ، بالرغم من دفاعها المجيد ؛ وسقطت من بعدها عدة من الحصون ، وكذلك حصن بنيسكولا ، وكلها حصون أمامية لحصن بلنسية الكبير . وبذل الأمير أبو جميل زيان كل جهد مستطاع ليقف تقدم الأرجونيين ، بل حاول فوق ذلك أن يقوم بنزو أراضيهم ؛ وعقد في هذا السبيل حلفا مع محمد بن هود ، الذي يسيطر على غرناطة ومرسية وجزء كبير من الأندلس ؛ وشجعه أملة في أن يبادر ابن هود إلى نصرته بجيش ضخم ، على أن يسير لمحاصرة حصن شنتمرية ابن رزين (شنتمرية الشرق) وهو من أهم الحصون الأرجونية ؛ بيد أن التوفيق لم يحالفه ؛ واستطاعت الحامية النصرانية التي كان يقودها بيدرو فرنانديز دى أزاجرا بكثير من الشجاعة والجلد أن تحطم كل جهود زيان ، فاضطر بعد محاولات عقيمة أن يمود أدراجة إلى بلنسية .

واجتمعت عدة عوامل لتعاون ملك أراجون في مشروعه لغزو بلنسية ؛ فقد استطاع في مجلس النواب الذي عقد في مونزون في أكتوبر سنة ١٢٣٦ ، أن يحمّد منازعات الأحزاب التي عادت إلى الظهور في أراجون ، وأن يحقق حريات البلاد ، بحيث أتيح له أن يدعو جميع البارونات والفرسان الإقطاعيين وكذلك المدن إلى الانضمام إلى الجيش . وكذلك عمّد البابا جريجورى التاسع إلى تأييد المشروع ، وأعلن في جميع أمم الغرب النصرانية ، أن الحرب ضد بلنسية هي حرب صليبية ؛ وكان من أثر ذلك أن قدمت فيما بعد جموع من فرنسا وإنكلترا لتشارك في هذه الحملة . وقرر چايم عزمه الأكيد على أن يفتتح بلنسية ، وأقسم ألا يعود إلى مملكته إذا لم يقز بفتحها ؛ وحذا حذو الملك كثير من البارونات والفرسان ، وكان لذلك وقع حسن في الجيش كله .

(١) هي بالأفريقية Burriana وهي ثغر صغير يقع شمال بلنسية .

وفي سنة ١٢٣٧ م زحف چايم على مملكة بلنسية بنذرهما بالويل ، بجيش يقدره النصارى بألف من الفرسان وستين ألفاً من المشاة ، وتقدره الرواية العربية بأكثر من ثمانين ألفاً . وكان الأمير زيان في حالة سيئة ، خصوصاً وأن حليفه محمد بن هود ، الذي كان يعتمد على عونهما ، إنما اعتمد ، وكان عندئذ يدر إمداده بأسطول وجيش ، قتل عندئذ في ثغر المرية ، وغاض كل أمل في الانتفاع بقواته . وهنا حاول زيان أن يتقى العاصفة التي تنذر ، بأن يعرض تسليم جميع الحصون الواقعة بين طرطوشة ونهر الوادي الكبير ؛ ولكن چايم أراد أن يفتن الفرصة السانحة بأكملها ورفض كل عرض من هذا القبيل .

وبذل فرسان زيان — وهم كثرة — كل ما استطاعوا ليحولوا دون تقدم الجيش النصراني ، واشتبكوا معه في معارك مستمرة ؛ ومع ذلك فلم يكن من الميسور أن يردوا جيشاً يفيض حماسة للقنال في سبيل دينه ، ويفريه أمل الحصول على غنائم عظيمة ؛ وهكذا سقطت جميع القلاع والحصون الواقعة حول بلنسية تباعاً ، وأحاط النصارى بالمدينة من البر والبحر ، وذلك في السابع عشر من رمضان سنة ٦٣٥ هـ (مايو سنة ١٢٣٨ م) ومع ذلك فقد لبث أبو جميل زيان يؤمل النجدة ، وقد أرسل في طلبها إلى الأندلسيين ، وكذلك إلى أقربائه بني زيان في إفريقية ؛ ولكن الأندلسيين كانت تشغلهم الحروب الأهلية ، ويهدم نصارى قشتالة ، فلم يكن بوسعهم أن يلبوا النداء ؛ وأما بنو زيان في إفريقية فقد جهزوا أسطولاً صغيراً ، وحاولوا النفاذ به إلى ثغر بلنسية ، ولكن حال دون بغيثهم الأسطول المحاصر ، والمواصف الشديدة ، فمادوا إلى إفريقية من حيث أتوا ، دون أن ينفعوا البلنسيين بشيء^(١) .

(١) راجع في سقوط بلنسية ، نفع الطيب ج ٢ ص ٥٧٨ -- ٥٨٠ وابن خلدون ج ٤ ص ١٦٧ و ١٨٣ ، وكان الأمير زيان حينما حاصر النصارى بلنسية وتوقع سوء المصير ، قد استعان بصاحب إفريقية (تونس) الأمير أبي زكريا بن أبي حفص ، وأوفد إليه كاتبه الصغير أبا عبد الله بن الأبار الفضاعي صاحب كتاب التكملة (تكملة الصلة لابن يشكوال) ، وأعقاب السكتاب ، والحالة السيرة وغيرها ، سفيراً يرجوه العون والإمداد ، وأنشد ابن الأبار بهذه =

ولما طال الحصار واشتدت وطأته ، وبلغ الإعياء بالمسلمين مبلغه من الهجمات المستمرة ، ويئس زيان من الانجاد ، اضطر أن يفاوض النصارى في تسليم المدينة ؛ وعقدت معاهدة التسليم بين الفريقين في الثامن والعشرين من سبتمبر سنة ١٢٣٨ م (١٧ صفر سنة ٦٣٦ هـ) ، وذلك بالرغم من سخط البارونات والفرسان ، إذ كان يحدوهم أمل الغنيمة والنهب . واشترط أن تسلم بالنسبة إلى ملك أراجون ، على أن يؤمن جميع سكانها في أنفسهم ، وأن تكفل لهم حرية الهجرة بجميع أموالهم إلى حيث شاءوا ، وأن من آثروا البقاء في بلنسية منهم ؛ كفلت لهم الحرية في مزاوله شعائرهم وشرائعهم وعاداتهم ، وألا يدفعوا من المكوس أكثر مما يدفع رعاء ملك النصارى الآخرون ؛ وأنه يجب في ظرف عشرين يوماً أن تسلم إلى ملك أراجون جميع الحصون والمواقع الواقعة على ضفة نهر شقر اليسرى ؛ وفي نظير ذلك بمنح ملك أراجون إلى زيان ورعاياه المسلمين الهدنة لمدة سبعة أعوام . وفي اليوم المحدد دخل ملك أراجون ثغر بلنسية في موكب نفخ ؛ وفي الحال حول مسجدها

= المناسبة بين يدى السلطان أبى زكريا قصيدته الشهيرة التى تعتبر من فخر الفصائد في رثاء دولة الإسلام بالأندلس ، ومطلعها .

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا	إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمت	فلم يزل منك عن النصر ملتصا
وحاش مما تعانیه حشاشتها	فطالما ذاق البلى صباح مسا
يا للجزيرة أضحي أهلها جزرا	للحادثات وأمسى جدها تمسا
في كل شارقة لئلا يبارقة	يعود مآتمها عند العدا عرسا
وكل غاربة أخجال شائبة	تثنى الأمان حذارا والسرور أسى
تقاسم الروم لآتت مقامهم	إلا عقائلها المحجوبة الانسا
وفي بلنسية منها وقرطبة	ما ينسف النفس أو ما ينزف النفسا
مدائن حلها الإشراك مبتسما	جذلان وارتحل الايمان مبتئسا
وصيرتها العوادي الفانيات بها	يستوحش الطرف منها ضف ما أنسا

وهي طويلة وبها روائع من البيان المؤثر . وبإدراك الأمير أبو زكريا الحفصى إلى إعانة أهل بلنسية ، وبعت إليهم في سفنه بالجند والمؤن ، ولكن ذلك لم ينقذ بلنسية من قضائها المحتوم . ولما سقطت بلنسية رجع ابن الأبار بأهله إلى تونس واستقر بها ، ولابن الأبار رسالة بليغة مؤثرة في رثاء بلنسية أوردها صاحب نفع الطيب (ج ٢ ص ٥٩٧ وما بعدها) . وفي روض القرطاس أن سقوط بلنسية في يد النصارى كان في سنة ٦٤٧ هـ ، وهو خطأ واضح (ص ١٨٣) .

الجامع على يد أسقف طركونه إلى كنيسة للنصارى ؛ وغادر المسلمون المدينة ، ومزهاء خمسين ألف نفس في نحو خمسة أيام ، وهاجروا إلى ما وراء نهر شقر ، لأنهم اعتقدوا أنهم أصبحوا غير آمنين في ظل حكم النصارى ؛ هذا إلى ما شهدوه من أن عدالة ملك النصارى وحدها كانت تحميهم من غضب فرسانه ؛ وقسمت منازل المدينة ومناطقها بين رجال الدين والبارونات والفرسان ، وأهل المدن التي اشتركت في الفتح بنسبة ما اشتركت به الجند ؛ وكان أغلب الفرسان الذين أحرزوا الأملاك في بلنسية ، وعددهم ثلاثمائة وثمانون من أهل قطلونية ؛ وكان هؤلاء أكثر ميلاً من أهل أراجون إلى البقاء في تلك الأراضي البديعة الحصبة التي سميت بمخ حديقة كبرى ؛ وقد أسندت إليهم بالأخص مهمة الحراسة والحرب ، ورتب منهم مائة فارس يبقون دائماً تحت السلاح ، ثم يستبدلون بغيرهم كل أربعة أشهر . ونظراً لكثر النازحين من القطلونيين ، كانت القوانين واللوائح التي يسنها جايم لبلنسية تصدر باللغة القطلونية ، وهو ما كان يثير سخط الأراجونيين .

ورأى جايم أن عمله يكون ناقصاً إذا لم يتم الاستيلاء على مملكة بلنسية كلها ، وخصوصاً على المنطقة الواقعة على الضفة اليمنى لنهر شقر ، وعلى حصونها الهامة . كذلك كان جايم يود أن يسبق قشتالة التي أخذت في الإغارة على أراضي مرسية ، قبل أن تستولى على هذه المنطقة . ولما كان الأمير زيان لا يزال قائماً بمحاربة معظم زعماء هذه النواحي ، فقد كان يوسع جايم في البداية أن يقوم بحملاته وفتوحه ضد المسلمين دون أن ينتهك نصوص الهدنة التي عقدت بينه وبين زيان . وفي الوقت الذي كان فيه زيان يحاول في جموع المسلمين التي هاجرت من بلنسية أن يمتاض عما فقدته من مملكته بفزو أراضي مرسية ، والاستيلاء على بعضها بالفعل ، عبر فرسان الداوية والقديس يوحنا وكثير من الفرسان القطلونيين نهر شقر ، وتوغلوا فيما وراءه حتى ظاهر شاطبة ، وافتتحوا عدة من الحصون ، وأحرزوا على جموع المسلمين الكثيفة عدة انتصارات نسبت إلى المعاونة الإلهية أكثر مما نسبت إلى قوتهم وشجاعتهم ؛ ولم يمض قليل على ذلك حتى طرح جايم جانباً كل اعتبار يتعلق باحترام نصوص الهدنة ، وعمد إلى افتتاح باقي أراضي مملكة بلنسية بكل

ماوسع من عزم وقوة ؛ واحتج المسلمون وأميرهم زيان بشدة على هذا الانتهاك وهذه الخيانة ، وقالوا إنهم لم يسلموا إليه بلنسية إلا مقابل عقد الهدنة لبضعة أعوام ، وكان أشق ما في هذه الغزوة الاستيلاء على حصن شاطبة المنيع بموقعه ، ولم يكن من الميسور أن يتقدم النصارى في فتوحهم دون الاستيلاء عليه . وكان النصارى قد حاصروا شاطبة عبثاً في سنة ١٢٤٠ م (٦٣٨ هـ) ، واضطر جاييم أن يترك الحصار ، ومع ذلك فإنه لم ييأس ولم تنفر همته ، ولجأ إلى جميع الوسائل من الخديعة والإقناع والوعيد والعنف ليحقق بغيته بالاستيلاء على المدينة . وقد وفق بعد جهود طالت أربعة أعوام إلى أن يكسب حاكم شاطبة — وهو من أنصار الموحدين — بالوعود المغرية ؛ وكان قد حاول عبثاً أن يحصل على معاونة القشتاليين ؛ واستولى جاييم على شاطبة في سنة ١٢٤٤ م (٦٤١ هـ) ، وكان لذلك وقع أليم في نفس ملك قشتالة إذ كان يود أن يفتتح المدينة لنفسه ؛ واشترط أن يبقى المسلمون في شاطبة في أملاكهم آمنين ، بل استمرت إحدى قصبات المدينة في قبضتهم زهاء عامين ، وحصل حاكمها لنفسه ولأنصاره على حصن مريزه ، وبلاده .

وفي نحو هذا التاريخ — قبله أو بعده بقليل — استولى جاييم على ثغر دانية ؛ وكان صاحبها الزعيم الباسل يحيى بن محمد عيسى أبو الحسين ، أحد أنصار الأمير المنكود محمد بن هود ؛ وقد أبدى في الدفاع عن المدينة كثيراً من الشجاعة والبراعة ، ولكنه اضطر أخيراً إلى التسليم ، بعد أن ضربها ملك أراجون من البر والبحر بالمنجنقات ؛ ودخل جاييم ثغر دانية في مستهل ذي الحجة سنة ٦٤١ هـ (مايو سنة ١٢٤٤ م)

وكان المسلمون لا يزالون كثرة في هذه الأنحاء ، يثرون ضد النصارى كلما ساحت الفرصة ؛ ولهذا لم يهدأ بال جاييم ، ولم يمتد فتحه كاملاً ، قبل أن يطرد جميع السكان المسلمين من المملكة ، وقد تم ذلك في سنة ١٢٥٣ م (٦٥١ هـ) وتلت مملكة غرناطة جميع اللاجئين ، وزاد بذلك سكانها وقوتها ، وأسبغ فتح مملكة بلنسية على جاييم لقب « الفاتح » .

الفصل السابع

فتوح فرديناند الثالث في جنوبي اسبانيا ونهاية سلطان الموحدين في الأندلس

بينما كان چايم ملك أراجون يفزو مملكة بلنسية ، كان فرديناند ملك قشتالة ينتهز فرصة اضطراب مسلمي الأندلس وتفرق كلمتهم ، وينتزع منهم مدنها واحدة بعد أخرى ، حتى غدا سيد المنطقة كلها . وكان المتوكل محمد بن هود قد استطاع بعد موت سلطان الموحدين المأمون في سنة ١٢٣٢ م (٦٢٩ هـ) أن يسيطر على معظم قواعد الأندلس ، وكان سلطانه يمتد من مالقة على المرية وغرناطة وقرطبة حتى مرسية ، بينما كان أبو عبد الله محمد بن الأحمر النصرى يسيطر على أرجونة ووادي آش وبياسة وجيان ، ويحكم بعض الأمراء الموحدين لإشبيلية وما حولها من النواحي ؛ وكان جميع أولئك الأمراء المسلمين يحقد بعضهم على بعض ويحارب بعضهم بعضاً بشدة ومضاء ، وكان ذلك مما يسهل مهمة محاربتهم على عدو خارجي مثل فرديناند يملك قوات ضخمة ، ويمكنه بانتهاز هذه الظروف الملائمة من أن يسير من فتح إلى فتح .

واستطاع فرديناند في أعوام قليلة ، بصداقته ومخالفته لهذا الأمير طوراً وخصومته لذلك طوراً آخر ، أن يقوم بفتوح هامة في الأندلس ، وأن يستولى على عدد كبير من الحصون الواقعة على الحدود ، وأن يعيث في البسائط أما عيث ، وأن يقتل ويأسر ألوفاً من السكان : أجل كان النصارى الاسبان كلما أمنوا انتقام

خصوصهم ، ازدادوا قسوة وعنفاً ، ولم يكن الشيوخ والنساء ، بل الأطفال بمنجاة من سفكهم .

وما كاد فرديناند يوطد عرشه في ليون ، ويخضع الأحزاب الخصيمة لصولته حتى عمد إلى إظهار الحرب على المسلمين بكل ما وسع من قوة ؛ وسير أخاه الانفانت ألفونسو ، والقائد الشجاع الفاربيريز على رأس جيش إلى منطقة قرطبة ، فاغترا بما أحرزا هناك من نجاح أيما غرور ، حتى أنهما تقدما إلى إشبيلية ، ثم تجاوزاها إلى فخص شريش على نهر وادي لكة (الجوادليث) ، وهو المكان الذي استطاع طارق أن يقضى فيه على مملكة القوط ، في الموقعة التي نشبت بينه وبين الملك رديريك (لدرىق) . وساد الروح الذي أثاره النصارى بعنفهم وقسوتهم جميع أرجاء الأندلس ، واشتد سخط الشعب على أولئك الأمراء الذين شغلوا بالانضال حول السلطة ، وتركوا البلاد لأعداء الدين يعمنون فيها نهباً وعيثاً دون أن يردعهم رادع ؛ ورأى المتوكل محمد بن هود أن ينزل على صوت الشعب أخيراً وأن يغم بذلك مؤازرته ، فترك الحرب التي كان يخوضها ضد ابن الأحمر ، وأذاع نداء عاما في الأندلس كلها إلى حرب الجهاد ضد النصارى ؛ وحشدت رغبة الانتقام والحماسة الدينية حول ابن هود جوماً كبيرة ، ووفد من إفريقية ذاتها كثير من المسلمين يدفعهم حب الاستشهاد ؛ وخرج المتوكل على رأس جيش ضخم من المشاة والفرسان ، ولاقى النصارى في فخص شريش على ضفاف وادي لكة حيث كانوا يحرسون غنائمهم وأسراهم ودوابهم ؛ وكان عددهم قليلاً لا يمدو ألفاً وخمسمائة مقاتل . وكان من الواضح أنه لا مفر لهم من الهلاك . ذلك أن جيش المسلمين كان من الكثرة بحيث استطاع أن يطوق النصارى تطويقاً تاماً ؛ ولكن النصارى لم يسمهم إزاء هذا المأزق السيء إلا أن يجمعوا أمرهم ، وذكر قائدهم الفاربيريز ما أبداه طارق في نفس المكان من بطولة ، وما أحرزه في موقعة شريش بجنده القليل من النصر على جيش ضخم ، وحث جنده بنفس الكلمات على أن يخوضوا معركة الموت ؛ وبعد أن أمر بقتل الأسرى المسلمين وعددهم خمسمائة حتى لا تشغله

حراستهم أثناء المعركة ، خاطب القشتاليين بقوله : « البحر من ورائكم ، والمدو أمامكم ، ولا نجاة لكم إلا بعمون الله ، فهيا بنا نفتدى الموت غالياً » . وبعد أن تضرعوا إلى الله والقديس ياقب ، واعترفوا وتلقوا الغفران ، احتشدوا عند بزوغ الفجر في صفوف متراسة ، وقاد المقدمة الفار پيريز ، وقاد البقية الانفانت ألفونسو ، ووثبوا إلى الهجوم من الجانبين بقوة وعزم ، تحت صوت الأبواق ، وقرع الطبول ، ونفخ القرون ، وصيحة الحرب المروعة يلقيها الجند . وسرعان ما التف الفرسان المسلمون بكثرة حول النصارى من كل صوب ، ولاح هلاكهم محققا ، ولكن القشتاليين واجهوا حراب الأعداء بصفوف متراسة لا تخترق ، وردوا الفرسان المسلمين على أعقابهم ، وشقوا طريقهم إلى صفوف المشاة التي اختل نظامها من جراء ارتداد الفرسان ، وسحقوا كل معارضة في طريقهم . وهكذا استطاع النصارى بالرغم من خسارتهم الفادحة أن يفروا من الهلاك . ومع أن المتوكل سير جنده لمطاردتهم ، فإنه لم يستطع أن يلحق بهم كبير أذى . ولاح هذا النصر للنصارى كأنه مفاجأة مدهشة ، حتى أنهم نسبوه إلى معونة القديس ياقب ، وزعموا أن القديس ياقب ظهر أثناء المعركة على فرس أبيض ، وكان يقاتل المسلمين ويلقى الرعب في قلوبهم ، ويلجئهم إلى الفرار . وزعم النصارى فوق ذلك لى يزيدوا من روعة هذا النصر ، أنهم لم يفقدوا في هذه الموقعة الدمية سوى رجل واحد ، وأن هذا الرجل قد عاقبه الله بالموت لأنه لم يتصاف قبيل المعركة مع خصومه كما فعل الباقون . وتتفق الروايات النصرانية والإسلامية على أن هذه الموقعة قد حدثت في سنة ١٢٣٣ م (نهاية سنة ٦٣٠ هـ) .

وفي العام التالى ، حينما حل وقت افتتاح الغزو ، سارت عدة فرق من الجند القشتاليين إلى الأندلس غازية ، فأحرزت كلها قسماً من النجاح . وكان فرسان الجماعات الدينية قد افتتحوا في أوائل العام بقيادة آدم أسقف بلازنسيا ، حصون ترواله ، ومجسيله ، ومدلين ، والهائج . وافتتح فرسان القديس ياقب حصن منطيل . وفي الصيف خرج الملك فرديناند نفسه في قواته ، وطوق مدينة أبده بآلات

الحصار حتى سلمت ودخلها القشتاليون في سبتمبر سنة ١٢٣٤م (٦٣١هـ) ، بعد أن سمح لحاميتها الإسلامية بالانسحاب .

وتلا الاستيلاء على أبده فتح أمم ، هو فتح قرطبة . وكان التوكل بن هود ، حينما سقطت أبده يسير إلى غرناطة بجيش ضخم لمحاربة ابن الأحمر ، ففي تلك الآونة سار قسم من الجيش النصارى الذى حاصر أبده مع قوات أخرى إلى منطقة أندوجار ، وطأوا في تلك الناحية ، وأسروا كثيراً من المسلمين ؛ وعلّموا من هؤلاء الأسرى أن قرطبة في حالة سيئة ، وقد أهملت وسائل الدفاع عنها ؛ وتطوع من بينهم بعض الخونة لمعاونة النصارى على افتتاح هذه القاعدة الأندلسية الهامة ؛ وعمل النصارى بالمثل القائل : في الجرأة نصف النجاح ، فسارت الفرقة الصغيرة من الجند النصارى تحت جناح الظلام في هدوء حتى وصلت إلى قصبة قرطبة الأمامية المسماة بالشرقية (أو شرقية قرطبة) ، وذلك في ٨ يناير سنة ١٢٣٦م ؛ وساعد هطل المطر على إخفاء حركاتهم .

ووضع النصارى ، بإرشاد الخونة من الأسرى ، السلام على الجدران ، وصعد عليها عدة من الفرسان المغامرين دون أن يشعر بهم الحرس ؛ ولما اقتربوا من أحد الأبراج التى تأوى بعض الحراس — وكان منهم حارس قد اشتراه النصارى — رد النصارى عليهم نداءهم مخادعين بأنهم من سرايات التفتيش ؛ وهكذا دم النصارى الحراس المخلصين وقتلهم بسرعة ، وهدموا الجدران دون أن يشعر بهم أحد من المسلمين ؛ واستولوا بذلك على أحد الأبراج المنيع ، وعلى قسم من السور ، وعلى البابسمى باب صراطوس ، وقتلوا حراسه ، وفتحوه ، فدخل منه إلى المدينة زملاؤهم المتربصون فى الخارج ؛ وفاجأ النصارى أحياء الضاحية بالمهجوم ، وجرى دم السكان المسلمين غزيراً .

وحينما لاح الصبح علم الناس بما وقع من مدمامة القسبة الشرقية ، وعندئذ بادر نفر من أشجع رجال الحامية إلى مهاجمة المعتدين فى الحال ، وأخرجوهم غير مرة من شوارع القسبة ، وأجأوهم إلى داخل البرج ، ولكنهم لم يستطيعوا

مهاجمة البرج نفسه ، وبقى النصارى بذلك مسيطرين على القسبة ، وجدوا في تحصينها بجميع الوسائل ، بوضع المتاريس وإقامة العمدة وغيرها .
ورأى النصارى أنهم لا يستطيعون بجمعهم القليل غزو مثل هذه المدينة العظيمة ، التي يؤلف سكانها الذكور وحدهم جيشاً بأسره ، فأرسلوا على عجل رسولا إلى قائد هذه المنطقة القار بيريز دى كاستروس ، وكذلك إلى الملك فرديناند نفسه ، راجين إرسال المدد السريع لإتمام فتح قرطبة .

وسار القار بيريز بجميع جند الحدود ممن استطاع أن يقطعهم من حاميات الحصون ، وانضم إلى الجند الذين ملكوا القسبة الشرقية ، ولكن عددهم لم يكن مع ذلك كافياً للقيام بأعمال ذات شأن . أما فرديناند الذى كان يقيم عندئذ في مملكة ليون ، فما كاد يقف على هذا النبأ ، حتى اهتم له بأبما اهتمام ، وسار في الحال في ثلاثين فارساً فقط ، وأصدر الأوامر بأن تتبعه جموع الفرسان بأسرع ما استطاع ، وكذلك فرسان الجماعات الدينية والمدن أخذوا يجتمعون بسرعة وينضمون إلى الجيش . ولما كانت الأنهر قد فاضت بماء المطر الغزير ، وكان الوقت مبكراً لم تجر العادة فيه باثهار الحرب ، فقد عاق ذلك سير الجند ، واجتماع الصفوف ؛ ولهذا سار فرديناند في قوة صغيرة إلى مدينة رديك ، ثم اخترق ولاية استرامادوره إلى مدينة القلعة ، وبمضى ينهب النصارى الرابطين في ضاحية قرطبة بمقدمه السريع ، متى اجتمع لديه الجند الذين أمر بمحشدهم من كل صوب .

فأذكى ذلك من عزائم النصارى في قرطبة إلى الدروة . أما أهل قرطبة أنفسهم فقد تولاهم الفزع والروع ؛ واتجه أملهم الوحيد في النجاة إلى المتوكل محمد بن هود ، وأرسلوا إليه الرسل طالبين الانجاء بأسرع ما استطاع . ولم يكن ابن هود يجهل أى خطر يتعرض له الإسلام في الأندلس إذا سقط هذا الحصن المنيع في يد النصارى ؛ ومن ثم فانه لم يتردد في أن يحشد في الحال جيشاً ضخماً ، وأن يسير على عجل لإنقاذ المدينة المهددة ؛ فلما وصل إلى استجة ، علم بأن النصارى بقيادة ملكهم فرديناند قد اقتربوا من قرطبة في جيش ضخم ؛ وهنا ذكر المتوكل

ما أصابه من قبل في معارك خاضها مع قوات نصرانية أقل عدداً ، ولم تحقق له الكثرة العددية أى تفوق أو مزية ، وخشى المواجهة إذا اشتبك دون تبصر في معركة لم يتحقق فيها بعد من قوى قوة أعدائه ؛ ولما عقد المجلس الحربى كان المتوكل من رأى قاده الذين نصحوا بإرسال الرسل للتحقق أولاً من مبلغ قوى فرديناند ومواقفها الحقيقية ، ولم يوافق على رأى الذين نصحوا بالبحث عن العدو توا ومهاجمته على الأثر .

وكان في جيش المسلمين فارس جليقي يدعى لورنسيوس سوارز ، كان الملك فرديناند قد نفاه من المملكة بسبب أعماله العنيفة ، نفرج منها مع بعض أتباعه من الجند والتحق بخدمة المتوكل ؛ فاستدعاه المتوكل ، وعهد إليه بأن يأتى إليه في ظرف ثلاثة أيام بمعلومات وثيقة عن جيش فرديناند . وكان سوارز يبحث قبل كل شيء عن صالحه ، فرأى الفرصة سانحة لكي يحصل على عفو الملك فرديناند ، وإذن العودة إلى وطنه ؛ فأنسل إلى المعسكر النصراني ، وتوصل إلى مقابلة الملك ، ونبأه بحقيقة مهمته ، وبأنه قد اعتزم مخادعة المسلمين ، وأنه سيقدم إليهم عن قوى النصراني وصفاً لا يجراؤن معه على محاولة إنقاذ قرطبة ، وأنه يجب إحكاما للخدمة المسلمين ، وخشية من أن يحصلوا على معلومات أخرى ، أن يأمر الملك بمضاعفة نيران الحرس ليلاً .

ولما علم المتوكل من سوارز إثر عوده أن الجيش النصراني يتفوق بكثيرته تفوقاً كبيراً ، وأنه حسن الأهبة والتسلح ، ساوره التردد في أن يشتبك معه في موقعة ؛ وبينما هو في تردده وحيرته فيما يفعل ، إذ وصلتته أنباء من أبى جميل زيان أمير بلنسية حملته على أن يعتمز أمره ؛ ذلك أن زيان حينما شدد عليه چايم ملك أراجون الضغط أرسل يستغيث بأخيه في الدين ، ويطلب إليه المدد السريع ، ويعدده نظير ذلك بخضوعه وطاعته إليه . وهكذا لاح لابن هود أمل في الاستيلاء على مملكة بلنسية ، وخشى في الوقت نفسه أن يكون جنده مازالوا متأثرين بذكريات معاركه السابقة مع النصراني ، وأن يكونوا غير أهل للاشتباك

مع جيش فرديناند في معركة ظافرة ، فترك قرطبة إلى مصيرها ، وهو يميز نفسه ويمنيها بأن أهل قرطبة ، وهم كثرة حاشدة ، قد يستطيعون رد النصارى ، وأنه حتى إذا سلمت المدينة ، فإنه من الميسور استردادها ، خصوصا وأنه يتمتع على النصارى أن يمكنوا سلطانهم من السكان المسلمين .

وكانت تضطرم في تلك الأثناء حول قرطبة عدة معارك دموية شديدة ؛ وكان القرطبيون يقاتلون بمنتهى الشجاعة من أجل الوطن والحرية والحياة طالبا خالجهم أمل الانتقاذ والغوث ، ويدافعون عن أنفسهم بمنتهى الشدة والبسالة في الشوارع والميادين ، ويبعدون ضروبا رائمة من الجلد والاحتمال ؛ ولكنهم لما علموا بأن المتوكل سوف يتركهم إلى مصيرهم ، وأنه سار بالفعل إلى نجدة أمير بلنسية ، خبت شجاعتهم ، وحل الخور واليأس لديهم مكان القوة والبسالة . وأما فرديناند ، فإنه بالعكس ، فضلا عن استقدام الجند من جميع الأنحاء بمد تحسن الجو ، أخذ يشدد في حصار المدينة بكل ما وسع ، واستمر يبالبغ في التصنيق عليها ، حتى اضطر أهلها إلى البدء في مفاوضات من أجل التسليم ؛ بيد أنهم لم يحصلوا منه على أكثر من عهد بتأمين النفس والحرية ، ولم يسمح لهم بالاحتفاظ بشيء من أملاكهم وأموالهم ؛ وفي ٢٣ شوال سنة ٦٣٣ هـ الموافق ٢٩ يونيه سنة ١٢٣٦ م سقطت قرطبة في يد النصارى بعد أن لبثت تحت حكم المسلمين خمسمائة وخمسة وعشرين عاما^(١) .

وما كاد النصارى يستولون على المدينة حتى وضعوا صليبا فوق مسجدتها الجامع ، الذى أقامه الخلفاء الأمويون بمنتهى البذخ والبهاء ، ورفعت راية ملك

(١) راجع في حوادث سقوط قرطبة ، ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و ١٨٣ ، ويسمى ابن خلدون فرديناند ملك قشتالة المستولى على قرطبة : « هراوند » (ص ١٨٣) مع أنه يسمى فرديناند عادة « بفردلند » (راجع ص ١٨٢) . وكذلك روض القرطاس ص ١٨٣ ، ونفع الطيب ج ٢ ص ٥٨٥ ، ويذكر المقرئ هنا أن غرناطة سقطت في يد النصارى في ٢٣ شوال سنة ٦٣٦ هـ ، وهو تحريف ظاهر فيما يتعلق بالسنة . والجميع عليه أنها سقطت في سنة ٦٣٣ هـ .

قشتالة على أبراج « القصر » ، وانتظم موكب في طليعته الكهنة المختلفون وفرسان الجماعات الدينية وجمهرة كبيرة من الفرسان ، ودخلوا المسجد الجامع وهم ينشدون أناشيد الحمد والشكر ؛ وفي الحال قام يوحنا أسقف أوسمه بتحويل المسجد إلى كنيسة نصرانية ، وأقام به القداس . ولما عثر فرديناند بالنوايس التي انتزعها الحاجب المنصور فيما مضى من كنيسة القديس ياقب ضمن غنائمه ، وحملها الأسرى النصارى على أكتافهم إلى قرطبة ، أمر بأن تعاد بالمثل إلى مكانها الأصلي على أكتاف الأسرى المسلمين .

وغادر المسلمون المغلوبون قرطبة بقلوب محزونة ، وتفرقوا في باقي مدن الأندلس ، واقتسم النصارى الأملاك والدور المهجورة ؛ ولما ذاع نبأ سقوط قرطبة ، خضع كثير من القلاع والحصون ، وكان أهمها حصون : بياسة ، وأستجة ، والمدور ، ورتفيله ، وأشتبه .

وفي تلك الأثناء توفى المتوكل ، محمد بن هود ، فجأة ؛ فأثارت وفاته انقلابا كبيرا في الأندلس ، إذ كان حتى وفاته أقوى الأمراء المسلمين في جنوبي اسبانيا . وكان بعد أن ترك قرطبة إلى مصيرها قد سار إلى المرية معزما أن ينقل جنده منها بالسفن كي يصل بسرعة إلى بلنسية ، وينجد زيان ضد الأرجونيين ؛ فاستقبله عبد الرحمن صاحب المرية في قصره أعظم استقبال ، واحتفل لقدمه بإقامة المآدب والحفلات الشائقة . ولكنه لما آوى إلى غرفته للنوم ، انقض عليه مضيفه الخبيث الغادر ، وقتله خنقا ، وذلك في ٢٧ جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ (سنة ١٢٣٧ م) . وفي صباح الغد ، أذيعت إشاعة مفادها أن المتوكل توفى بالصرع بسبب الإفراط في السكر^(١).

(١) كان صاحب المرية يومئذ ، وهو الذي يسميه المؤلف بعبد الرحمن ، هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله الأموي الرميى وزير ابن هود ؛ وكان يدعو ذا الوزارتين ؛ وقد ولاه حكم المرية . ويذكر لنا ابن خلدون أن ابن هود حينما قدم على وزيره في المرية توفى في الحمام ، بيد أنه يشير إلى رواية قتله واتهام وزيره بذلك (ج ٤ ص ١٦٩) . وأورد المقرئ تفاصيل أخرى عن علاقة ابن هود بوزيره الرميى ، وعن وفاته (نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ و ٥٨٣) .

وقد أنفق المتوكل أيام حكمه كلها في نضال مستمر ضد الاضطراب والثورة ،
 وضد أطباع الزعماء المسلمين ، وغزوات النصارى . ولم يكن من الميسور إزاء
 هذه الفوضى الشاملة والأخطار العديدة ، أن توطد دعائم الحكم ، وأن تجتمع له
 أسباب القوة . وكان المتوكل ، وهو عقب بنى هود الدين كانت لهم من قبل دولة
 قوية في سرقسطة ، يرى آسفاً أن الإسلام في جنوبي اسبانيا يقترب أيضاً من
 نهايته . وليس أدل على أهمية شخصه — كعامل في جمع كلمة الأندلس — من أنه
 سرعان ما أذيع موته حتى تفرق الجيش الذى كان يقوده ، وعيناً حاول القادة
 أن يمدوا الجند إلى الصفوف . وقد أشاد شاعر العصر أبو بكر محمد بن أحمد
 الصابوني بخلال ابن هود وشجاعته ، في قصائد غراء . واتهم المتوكل بأنه لم
 يكن قويا في دينه ، وأن ذلك كان سبب هلاكه .

وآل ترات معظم الولايات التى حكمها ابن هود إلى محمد بن نصر بن الأحمر ،
 أمير جيان وأرجونه ؛ ولم يقتصر الأمر على استيلائه على الارية على يد حاكمها
 الغادر عبد الرحمن ، ولكنه استولى أيضا على غرناطة الحصن الهام ، وقاعدة
 مملكة ابن هود ، بدعوة من أهلها ، وذلك في رمضان سنة ٦٣٥ هـ (أبريل
 سنة ١٢٣٨ م) ، وبها جمل مقر حكمه .

وسرعان ما اعترفت بطاعته أيضا مالقة وكثير غيرها من مدن الأندلس .
 أما لإشبيلية وشريش ومدن الغرب (غربى الأندلس) فقد احتفظت باستقلالها
 أو انضوت تحت حكم الموحدين المحتضر .

وحكم في باقى أراضى المتوكل — أى فى مرسية — فى البداية — أخوه على بن
 يوسف عضد الدولة ، ونودى به أميراً عليها فى الرابع من محرم سنة ٦٣٦ هـ
 (١٢٣٨ م) ، ولكن حكمه لم يطل أمده ، إذ استولى على مملكته أبو جميل زيان بن
 مدافع بن يوسف بن سعد الجذامى ، وذلك فى الخامس عشر من رمضان من نفس
 العام ، وأسر ، ثم قطع رأسه بعد ذلك بأيام قلائل^(١) . وعلى أثر ذلك اختلف الزعماء

(١) ابن الأبار فى الحلة السراء ص ٢٥٠ .

واضطرم القتال بينهم من أجل رئاسة المدينة ، وسادتها الفوضى الشاملة^(١) .

وفي الوقت الذي كان فيه چايم ملك أراجون يتابع فتوحاته في شرق اسبانيا بعد أن انتزع قلعة بلنسية من أبي جيل زيان ، وقضى على إمارته في ولاية بلنسية ، كان محمد بن الأحمر النصرى يزداد في جنوبي اسبانيا قوة وسلطانا ، وكان ينضوي تحت لوائه كل مسلم يعنيه إنقاذ الإسلام ؛ وكان مولده بمحصن أرجونه Arjuna في أسرة قديمة عريقة في النبل ، وكان قد ترك فلاحه الأرض (إذ كان كالرومان القدماء يفلح ضيعته بنفسه) ، وهرع إلى ميدان الحرب أيام خليفة الموحدين المأمون ، حينما ساد الاضطراب جميع أرجاء الأندلس ، وسقطت فريسة لغزوات النصارى ؛ وأذكت محاسن الصدف ، وعلامات ونبوءات عرضت له بإحراز السلطان ، شجاعته في المارك إلى الدروة ؛ ولما تفاقت الخطوب على الأندلس من جراء غزوات النصارى المنظمة ، منحه الزعماء المتطلعون إلى العون لقاء شجاعته الرئاسة أولاً في أرجونه ، وهى موطن أسرته بنى نصر ، ثم على الدن المجاورة لها ؛ فوطد فيها رياسته بالرغم من معارضة ابن هود ، وبسطها من بعد وفاته على جزء كبير من جنوبي اسبانيا .

وأخذ محمد بن الأحمر يحشد من حوله جميع المسلمين الذين غادروا البلاد التي افتتحها النصارى ، وسرعان ما غدا عضد الإسلام الوحيد ، وأصبح كل من لم يؤيده ويلتف حوله يعتبر خارجا على الإسلام ؛ ثم دعا الشعب بأسره إلى محاربة النصارى ، وبعد أن حشد جموعا كبيرة من الفرسان ، وكذلك جيشا ضخما من المشاة ، سار إلى أرض النصارى ، وعسكر أمام قلعة مرطوس ، وكاد يتغلب عليها لولا أن قدم لإنجاده جيش من النصارى ، فرفع ابن الأحمر الحصار عنها ، ولكنه لم يحجم عن الاشتباك مع النصارى في معركة أحرز النصر فيها ،

(٢) راجع ابن خلدون ج ٤ ص ١٦٩ و ١٧٠ ؛ وفي روايته أن الذى ولى مرسية بعد وفاة ابن هود ولده أبو بكر محمد الملقب الواقى ؛ وتناوبها من بعده عدة من الزعماء . راجع أيضا نفح الطيب ج ٢ ص ٥٨١ .

(سنة ١٢٣٨ م — ٦٣٦ هـ) ، وبذلك أعاد الثقة إلى نفوس جنده في قوة المسلمين . واستطاع فرديناند بعد غزوات عديدة ، ومهاجمات لبعض المدن الصغرى ، أن يضم بالصلح والتراضي ولاية بأسرها ، هي مملكة مرسية . وكانت مرسية ، منذ مقتل محمد بن هود ، قد اقتسمها رهط من الزعماء ، وأصبح لكل مدينة ، بل وكل قلعة ، حاكم مستقل ، ينحصر نشاطه في أن ينازع جاره ملكية مدينته أو منطوقته ، أو أن يدفع عدوانه عن أملاكه . وهكذا شملت الحرب الأهلية جميع الولاية ، وعانى الشعب أروع الآلام من عسف الزعماء الطامعين المتطلعين إلى الحكم والسلطان . ولما بدا أن أمير غرناطة محمد بن الأحمر يرى إلى أن ينتهز فرصة تفرق الزعماء ، والاستيلاء على بلنسية ، وهو ما كان يرجوه الشعب لكي يتخلص من نير الطغاة الأصاغر ، آثر أولئك الزعماء أن يحتفظوا بسلاطنتهم كأتباع للملك قشتالة ، على أن ينزلوا عنه لابن الأحمر ، أو أن يتحدوا على مقاومته ؛ ولما نعى إليهم أن ألفونسو أكبر أولاد الملك فرديناند ، قدم إلى حدود الولاية على رأس قواته ، أرسل كل منهم إليه رسولا للمفاوضة وتقرير الشروط التي يرى أن يخضع للملك قشتالة وفقاً لها . وفي « الكراز » وقعت الشروط التي يخضع بمقتضاها محمد بن علي بن هود وإلى مرسية ، وحكام لقنت ، وأريولة ، والحامه ، ولبيط ، وعقيقه ، وجنجاله ، وخلاصتها أن يبقى هؤلاء متمتعين بحكم مدنهم وموارد دخلهم ، وعليهم في مقابل ذلك أن يدينوا بالطاعة للملك قشتالة باعتباره سيدهم الأعلى ، وأن يؤدوا له الجزية ، وأن يتعهدوا بأخذ جنود من النصاري في القلاع والحصون . ولكن والي لورقة ، أبا بكر عزيز بن عبد الملك بن خطاب أبي أن يدخل في هذا الاتفاق ، إذ كان يدعى السلطان على مملكة مرسية بأسرها باعتباره خلفاً للمتوكل محمد بن هود ، بيد أنه لم يستطع أن يحتفظ إلا بثلاث مدن هي لورقة وموله وقرطاجنة ، وكان ينبغي عنه حاكما في كل من موله وقرطاجنة . كذلك كانت مدينتا شاطبة ودانية اللتان تبعدان عن أملاكه تترفان بسلاطانه ، وقد ولي عليهما أبا الحسين يحيى بن أحمد حاكما من قبله .

وبعد أن تلقى ألفونسو طاعة زعماء « الكراز » وهي مدينة تقع على مقربة من منابع نهري شقورة والوادي الكبير ، وبذلك كفّل لهم الحماية ضد أي اعتداء ، سار في عدد كبير من الفرسان القشتاليين والزعماء الخاضعين إلى مدينة مرسية ، فدخلها بين مظاهر الاحتفال الفخمة (سنة ١٢٤٣ م - ٦٤١ هـ) ، ورتب في المراكز الهامة ، في الأراضي الجديدة ، جنوداً حكمية تسهر على ولاء المسلمين . وحاول ألفونسو عند عودته أن يرغم والي لورقة الذي أصر على رفض الخضوع على التسليم بالسيف . واستطاع أن يفتح قلعة مولدة الواقعة على نهر شقوره (Segura) . ولكنه أخفق في افتتاح قلعتي لورقة وقرطاجنة ، واكتفى بالعيش في أرضهما (سنة ١٢٤٤ م)

وهنا استطاع فرديناند لأول مرة أن يحارب أمير غرناطة بنجاح . فأرسل ولده ألفونسو مرة أخرى بجيش لافتتاح لورقة وقرطاجنة ، ومن ثم تهديد غرناطة من هذه الناحية ، وسار بنفسه بجيش آخر من أندوجار إلى جيان ، وخرب هذه المنطقة ، وأرسل قسماً من جيشه بقيادة نونيو جونزالز دي لارا إلى قلعة أرجونة لمحاصرتها . ولما كانت أرجونة غير مستعدة لحصار طويل ولم تزود بالذخائر (خصوصاً وقد كان القحط يعصف يومئذ بمحوي أسبانيا) فقد فتحت أبوابها للنصارى ، وغادرها سكانها الذين أمنوا في أنفسهم ، إلى أماكن أخرى من أملاك أمير غرناطة ؛ وشجع النصارى هذا النجاح فتابعوا فتوحهم واستولوا على حصون قسطنطية ، وبجالجر ، ومنتجر ، وكارتجر ؛ وفي ربيع نفس هذا العام (١٢٤٤ م) زحفوا على وادي قرطبة ، ولم يلق الفرسان القشتاليون مقاومة تذكر ، حتى وصلوا إلى ظاهر غرناطة ذاتها ، وبدأوا حصارها في الحال ، ولكن تقدم الوقت وقيام المحصورين بهجمات عنيفة كانت تكبد القشتاليين خسائر فادحة ، وزحفت قوة إسلامية على مرطوس وراء خطوط القشتاليين ، كل هذه حملات النصارى على رفع الحصار ، والارتداد إلى أراضيهم ، وكانت هجمات المسلمين تتوالى عليهم حين العودة . وفي تلك الأثناء خرجت مرسية من قبضة النصارى مرة أخرى ؛

ذلك أن بغض المسلمين لزعمائهم الذين يعتمدون في تمكين سلطانهم على الجند القشتاليين كان يشهد يوماً عن يوم ؛ فلما سار أبو جميل زيان عقب فقده لبلنسية واستيلاء چايم ملك أراجون عليها ، إلى مدينة مرسية ، وغزا أراضيها بقوة لا بأس بها ، هب المسلمون لتحطيم النير الذي فرض عليهم ، ونادت شاطبة ودانية ، ومدن أخرى بانقضواها تحت لواء أمير بلنسية السابق . وسار عزيز بن عبد الملك والى لورقة في قوائمه لمحاربتة ، ولكنه هزم وقتل في معركة دامية (٢٦ رمضان سنة ٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م)^(١) ، ومكن هذا النصر زيان من الاستيلاء على لورقة وقرطاجنة وعدة أماكن أخرى ؛ ولم يستطع القشتاليون مقاومته ، فطردوا من كل مكان . ولما كان ملك أراجون يسير قواته أثناء ذلك لافتتاح شاطبة ودانية وكلماتها تقع في أراضي مرسية ، وتعتبرها قشتالة واقعتين تحت سيادتها ، فقد كان تطور الحوادث على هذا النحو نذيراً باضطرام الخلاف بين المملكتين على حقوق الفتح في أراضي مرسية .

وفي العام التالي ، أعنى سنة ١٢٤٥ م (٦٤٣ هـ) ، اعتزم ابن الأحمر أمير غرناطة أن يشحن قلعة جيان بالمؤن والسلاح ، إذ كان يتوقع أن يهاجم ملك قشتالة هذه القلعة الواقعة على الحدود ، فأرسل إليها قافلة من ألف وستائة من دواب الحمل محملة بالمؤن والدخائر ، وسارت من غرناطة إلى جيان في حراسة خمسمائة فارس ، فلما علمت قوات النصارى على الحدود بأمر هذه القافلة ، سارت إلى منطقة جيان مما يلي غرناطة ، وتربصت لمهاجمتها والاستيلاء عليها . ولكن المسلمين علموا بهذا السكين في الوقت المناسب ، وعادت القافلة إلى غرناطة . وأدرك النصارى من ذلك أن جيان ليست مزودة بالمؤن الكافية ، فوجهوا عنايتهم لافتتاحها ، وبدأوا حصارها بتخريب جميع المناطق المحيطة بها ، حتى تصبح وقد غاض أملها في تلقى أى قسط من المؤن ، ومع أن النصارى كانوا متفوقين في العدد ، فقد

(١) راجع في ترجمة عزيز بن عبد الملك الحلة السيرة ص ٢٤٩ وما بعدها ، وفي رواية

ابن الأبار أن وفاته كانت في جمادى الأولى سنة ٦٣٥ هـ :

دافعت الحامية عن المدينة ببسالة نادرة ؛ بيد أنه لما كانت جميع القلاع والحصون القريبة منها قد وقعت في يد النصارى ، ولم يوفق ابن الأحمر حينما سار في قواته من غرناطة بسرعة لإنجاد جيان بل هزمه النصارى ، فقد كان من الواضح أنه يتمذر على هذه القلعة التى تنقصها جميع وسائل الدفاع ، أن تصبر طويلا على هجمات القشتاليين ، وأمر فرديناند - الذى أقسم بالاستيلاء على المدينة - قواته بمتابعة الحصار بالرغم من قسوة الشتاء وهطل الأمطار ، خلافا لما درج عليه النصارى فى غزواتهم .

ولما رأى أمير غرناطة عقم المضى فى المقاومة ، وأدرك أن فرديناند لن يقف فى فتوحه عند الاستيلاء على جيان ، اعتزم أن يقوم بخطوة حاسمة لتأمين أراضيه من عيث النصارى ، بل وحمايتها بمعاونتهم ؛ فسار إلى لقاء فرديناند ، فى معسكره أمام جيان واثقا كل الثقة فى شهامته ، وعرفه بشخصه وبالغرض الذى أتى من أجله ؛ وقدم طاعته إلى ملك قشتالة باعتباره سيده الأعلى ، وصرح بأنه يحكم كل أراضيه من قبله على أداء الجزية ، ثم قبل يده إيدانا بالخضوع له ؛ ودعش الملك فرديناند لما رأى من ثقة عدوه بالأمس ومن عروضة ، وأبت عليه شهامته أن يخيب ظن الأمير ؛ وفى الحال نهض لمعاينة ابن الأحمر ، وسماه صديقه وحليفه وصرح بأنه لن يمتدى على شئ من أراضيه ؛ وهكذا عقدت بين الأميرين معاهدة يحتفظ فيها أمير غرناطة بكل أراضيه ومدنه ، ويتمهد بأن يؤدى إليه جزية سنوية قدرها خمسون ألف مثقال من الذهب ، وأن يعاونه كلما طلب بمعد معين من الفرسان لمحاربة أعداء قشتالة ، سواء أكانوا من النصارى أو من المسلمين ؛ وتمهد أمير غرناطة فوق ذلك بأن يشهد اجتماع المجلس النيابى (الكورتيس) أسوة بباقي الأمراء التابعين للعرش ، وأن يشهد كل حفلات البلاط الرسمية ؛ وسلمت قلعة جيان إلى فرديناند رهينة بصدق التعاقد ، ودخلها على أثر عود ابن الأحمر إلى غرناطة ، وذلك فى أبريل سنة ١٢٤٦ م (نهاية سنة ٦٤٣ هـ) ، بعد أن حاصرها عشرة أشهر ، وحول مسجدها الجامع إلى كنيسة ، ورتبت بها حامية قشتالية كبيرة .

وكان انتهاء الحرب ضد غرناطة بهذه السرعة الفجائية ، في نفس الوقت الذى تفتتح فيه الغزوات ، مشجعا لفرديناند على أن يضطلع بمشروع ضخم آخر . ذلك أن أمير غرناطة قد أصبح صديقا لملك قشتالة يدين له بالولاء ، وعليه بوصفه تابعا له أن يعاونه بقواته في كل حرب يخوضها ؛ وكان فرديناند قد اضطر أن يرجئ افتتاح مرسية — حيث تضاءلت قوى الأحزاب من جراء المارك المستمرة ، واعترف عدة من الزعماء بسيادة فرديناند — خوفاً من الاصطدام بأراجون ؛ وكان الخلاف على حق افتتاح شاطبة ودانية على وشك الوقوع بالفعل ؛ ولذا كان من الطبيعي أن يوجه فرديناند جيوشه المظفرة إلى ناحية أخرى يستطيع أن يحقق فيها فتوحا أهم ، لا ينازعه في شأنها أحد من جيرانه النصارى ، تلك هي غياض الأندلس المباركة ، ومدينة إشبيلية الغنية ؛ وقلعتا قرمونه وقسنطينة المنيعتان ، وهى التى يحقق له افتتاحها امتلاك نهر الوادى الكبير كله ، ويقضى على البقية الباقية من سلطان الموحدين فى اسبانيا .

فلم تمض ثمانية أشهر على الاستيلاء على جيان ، حتى كان فرديناند قد رتب فيها كل شيء ؛ ثم خرج فى جيشه ، وبعد أن طلب إلى تابعه الجديد أمير غرناطة أن يسير معه إلى ميدان الحرب فى فرسانه وفقا لشروط الماهدة ، انقض على كورة قرمونة^(١) ، وعاث فيها أيماعيث وانتسف فيها كل شيء ، وهو تمهيد لحصار المدن الكبيرة حتى يتعذر تموينها لبضعة أعوام . وفى الموعد المحدد حشد أمير غرناطة خمسمائة فارس حسمى الأبهة إلى جانب الجيش القشتالى ؛ وكان أول مكان حاصره النصارى قلعة وديره ؛ ولم يثبت المسلمون — اضعفهم — طويلا ، فبعثوا إلى محمد بن الأحمر وسلموا إليه المدينة ، مؤميين أن يبعدوا منه كسولين معاملة أفضل ؛ وكاد ذلك يمكر صفو الملائق بينه وبين فرديناند ، واسكن كليهما كان عاقلا مستعدا للتضحية الأقل لاغتنام الأكثر ؛ فسلم ابن الأحمر المدينة إلى فرديناند بدوره فى البداية إلى حليفه كفتيح أول . وسهل امتلاك هذه القلعة الواقعة بمحوار

(١) وفى ياقوت قرمونية .

إشبيلية انتساف أراضيها باستمرار ، والتوسع في تخريب بسائلها حتى شريش وقرمونة ، وكان يحاصرها يومئذ فرسان القديس ياقب وقلمة رباح ؛ وحصل فرديناند على إلف البابا بأخذ أعشار الكنائس ليستعين بها على نفقات الحرب الكبيرة .

وكان من الواجب قبل أن يتمكن النصارى من محاصرة لإشبيلية بنجاح أن يتغلبوا على ما حولها ، وأن يستعينوا أيضاً بأسطول يقطع عنها الميرة من جهة البحر . ولم يستطع النصارى تحقيق الشطر الأول إلا في بداية سنة ١٢٤٧م (٦٤٤هـ) حيث انتسفوا الحدائق والكروم وأعواد الشجر ، وجميع المحاصيل ، في كل مكان أبدى السكان فيه معارضة ؛ على أن معظم المسلمين آثروا التسليم والانصواء تحت لواء النصارى كرهاً يؤدون الجزية ، وآثرت قرمونة وقسنطينة ولوره ، والقوله ، وهي جميعاً حصون منيعة كان بوسعها أن تحتمل الحصار طويلاً ، — بعد أن لبثت أشهراً تنتظر عبثاً ، وعرض عليها النصارى عقد الهدنة — أن تبادر بالخضوع ، فتغنى عطف الظافر ، على أن تتعرض بالمقاومة الشديدة لقسوته ، كما حدث لقلمة قنطالان التي اقتحمها النصارى ، وقتلوا كل من فيها ؛ واستطاع ابن الأحمر أمير غرناطة أن يحمل — بالنصح والإقناع — عدة حصون على التسليم ؛ وأن يحصل من الملك فرديناند على وعد ، ألا يستعمل العنف حيث لا ضرورة لاستماله ، وأن يقدم النصارى شروطهم إلى كل مدينة وقلمة قبل أن يبدأوا حصارها . وبذلك استطاع ابن الأحمر أن يحقق كثيراً من الدماء ، واستولى النصارى بمعاونته على عدة من الحصون ، منها جويلان ، وقلمة ريه ، وجربنة ، وغيرها .

وفي أوائل سنة ١٢٤٧م ، أنشأ النصارى في ثغر سنتاندر برياسة ريموند بونافاشيوس ، وهو سيد من برغش ، أسطولاً من ثلاث عشرة سفينة شراعية ، وسار هذا الأسطول ورسا عند مصب نهر الوادي الكبير ؛ واجتمعت في الوقت نفسه جميع القوات التي طلب حشدتها ؛ وعندئذ شرع النصارى في تطويق

إشبيلية ؛ وكان أهل لإشبيلية قد اختاروا لرياستهم يومئذ أميراً من الموحدين هو السيد أبو عبد الله ، وعهدوا إليه بالدفاع عن المدينة ، ودعا السيد أبو عبد الله ابن أخيه أبا الحسن بن أبي على حاكم قرمونة لمعاونته في تنظيم الدفاع ، فبادر إلى تلبية دعوته ، لما رأى من أن لإشبيلية قد غدت مقصد فرديناند ؛ وتلفت المدينة من إفريقية بعض المعاونة ؛ وأدرك السيدان أهمية المحافظة على طريق البحر وبقائه مفتوحاً ، لكي يتسنى لإشبيلية تلقي المؤن باستمرار ، فاستقدا من الموحدين في إفريقية أسطولاً صغيراً رسا في مصب الوادى الكبير عن ثغر شنت لقر لمنع سير الأسطول القشتالى فى النهر .

ولكن الأسطول القشتالى استطاع بعد عدة معارك شديدة أن يحرز النصر ، وأن يفرق أو يعطل عدداً من سفن المسلمين ، وأن بأسر السفن الباقية ، وعمل الجند القشتاليون من جانبهم على إخلاء الشاطئ من الأعداء ؛ وهكذا استطاعت سفن النصارى أن تمخر عباب النهر . ومنذ ٢٠ أغسطس سنة ١٢٤٧م (٦٤٤هـ) كانت لإشبيلية قد طوقت من كل مكان من البر والبحر ، واستمر الحصار طوال العام بأسره ؛ وجمع النصارى كل ما يحتاجون إليه ، وأقاموا الخيام فى كل ناحية ، حتى بدا كأن مدينة أخرى قد أقيمت إلى جانب المدينة المحصورة .

وبعد أن لبثت لإشبيلية محصورة طول الشتاء ، وقد قطع عنها كل مدد من المؤن ، وكذلك ردت الأمداد التى حاول المسلمون فى غربى الأندلس إرسالها بقيادة محمد والى لبلة ، حشد فرديناند فى أوائل سنة ١٢٤٨م قوات أضخم ، للاسراع فى افتتاح هذه القاعدة الهامة من قواعد الأندلس ؛ وتنافس الكبراء والفرسان الأسبان فى المساهمة فى هذا الفتح . وفى شهر مارس قدم إلى المعسكر النصرانى ولد الملك وولى عهده ألفونسو فى قوة مختارة من الجند القشتاليين ، وفى صحبته ألفونسو ولى عهد أراجون ، وبيدرو ولى عهد البرتغال ، وصاحب (كوت) أوركلة ، ومعهم جمهرة من الفرسان الأراجونيين والقطلونيين والبرتغاليين ثم وفد من بعدهم لوبيز دى هارو ومعهم قوة من جند بسكونية وقشتالة القديمة ؛

وقدم يوحنا مطران شنت ياقب في قوة مخفارة من جند جليقية ؛ كما قدمت قوات من مدينة سالم ومدلين وقورية وغيرها ؛ وقدم معظم الأساقفة وكثير من الأحرار والرهبان من جماعات القديس دومينيك والقديس فرنسيس والقديس بندكت ، وأخذوا يلهبون بمواعظهم حماسية الجند ؛ وقدم محمد بن الأحمر أمير غرناطة ، - وفق تهمده - بقوة من الفرسان ، وعسكر أمام برج الفرج ، وأدى بحكمته وشجاعته ، وما قدمه من فرسان حسنى الأهبة ، لملك قشتالة خدمات جليلة ؛ وإذا صحت الروايات الإسلامية ، فإن إشبيلية لم تقطع عن تلقى المؤن من طريق البحر ، وذلك بالرغم من أنه قد نشبت عند مصب الوادى الكبير معارك دموية شديدة ؛ وأخيراً قرر النصارى وفقاً لنصح ابن الأحمر أن يطوقوا المدينة تطويقاً تاماً ، وكانوا قد حاصروها مدى ثمانية عشر شهراً ؛ وفى الثالث من شهر مايو سنة ١٢٤٨م نزلوا عند نصح أمير غرناطة ، ونصح أمير البحر ريموند ، وأحرقوا سفن المسلمين فى ميناء إشبيلية ، وذلك بان دفعوا إليها بحراقتين تحملان آنية محملة بالكبريت والقار وغيرها من المواد الملتهبة ، ثم دفعوا بعض السفن الثقيلة نحو قنطرة السفن بقوة الريح والتيار ، فخطموا سفنها المثبتة معا بسلاسل الحديد ، وقطعوا بذلك المواصلات بين المدينة ، وبين قلعة طريانة ؛ واستولى النصارى على قلعتى طريانة وجوليس ، ثم اقتحموا ضاحية الصفار وباب مقرينة ، ولم يبقوا فيها على أحد ، ومع ذلك فقد دافع المسلمون عن أنفسهم أشد دفاع ، واستعملوا فى قتالهم كثيراً من الآلات القاذفة والمكاحل ، وأنزلوا بالنصارى أضراراً فادحة ، وكانت مقذوفاتهم تشق الجواد المدرع من جانب إلى آخر .

وفى النهاية أضنى الحصار أهل إشبيلية ، ولاسيما بعد أن يسوا من الإنجاد ، وأخذ شبح القحط يهددهم ، فنزلوا على حكم الظروف مرغمين وبدأوا المفاوضات فى تسليم المدينة ، متمسكين ببعض الشروط . وتقول الروايات النصرانية إن فرديناند لم يقبل أية مناقشة فى الشروط ، وتقول الروايات الإسلامية إنه قبل الشروط مغتبطاً . لكن محر الاستيلاء على المدينة ، أما شروط التسليم فتتلخص فيما يلى :

أن يكون المسلمون أحراراً في أن يبقوا في المدينة أحراراً آمنين محتفظين بمنازلهم وأموالهم لا يؤدون سوى الضرائب العادية ، أو أن يهاجروا منها بعد أن يبيعوا أملاكهم ؛ وأن يمنح الذين يرغبون في الهجرة شهراً كاملاً ، وأن يقوم النصارى بتسهيل رحيلهم سواء بالدواب في طريق البر ، أو بالسفن في طريق البحر ، وأن يسمح الملك فرديناند لأبي الحسن وإلى المدينة (والظاهر أنه كان آخر من ولى الأمر فيها) — وهو الذى يسميه النصارى أورانتس Orantes أن يبقى في إشبيلية ، وأن يمنحه مبلغاً من المال لنفقته . بيد أنه أثر الهجرة ، وما كاد ينتهى من تسليم مفاتيح المدينة حتى ركب البحر في نفس اليوم ، أى في ٢٣ نوفمبر سنة ١٢٤٨ م الموافق ٦٤٦ هـ إلى سبتة وإفريقية حيث لحق بآله ، وكانوا يومئذ يتنازعون مع بنى مرين على السلطان .

وهكذا انتهى سلطان الموحدين في إشبيلية بعد أن حكموها مائة وبضع سنين ؛ وقد حكمها المسلمون منذ فتح الأندلس خمسمائة وسبعة وثلاثين عاماً ؛ وقد غادرها من المسلمين ثلاثمائة ألف ، وسار فريق منهم برفقة فرسان قلعة رباح إلى فريش ، ونزح القليل مع الموحدين إلى إفريقية ، وذهب آخرون إلى لبلبة وغربي الأندلس ، وقصد أكثرهم إلى كورة غرناطة حيث وعدم ابن الأحمر بحسن الوفاة والحماية . ودخل فرديناند المدينة بعد ذلك في موكب نغم ، وقد حملت أمامه صورة السيدة العذراء ، وركب إلى جانبه ولده وولى عهده ألفونسو ، ومن ورائه باقى أبنائه ، ثم تبهم ألفونسو ولى عهد أراجون ، وبيدرو ولى عهد البرتغال ، فجميع الأحرار المرافقين للجيش ورؤساء فرسان الجماعات الدينية ، واصطف من حولهم كبراء المملكة والفرسان ؛ وقصد الموكب إلى المسجد الجامع ؛ فقام الأحرار بتحويله إلى كنيسة ، ورفع في الوقت نفسه علم النصرانية وعلم ملك قشتالة على قمة البرج الأعلى للكنيسة الجديدة وهو الذى سمي « بالجيرالدا » Giralda ، وصنع بباقي المساجد ما صنع بالمسجد الجامع ، وشهد المسلمون بأفئدة مكلمة ، كيف أزيلت قبور آبائهم وأجدادهم خلال هذا التغير .

ولما انتفى النصارى من تحويل إشبيلية إلى مدينة نصرانية رأى فرديناند أن يفتح أيضاً جميع المدن الواقعة على مصب الوادى الكبير وفي منطقة وادى لكة ، واستطاع أن يخضع بالفتح أو بالإرهاب فى سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) ، شريش الفرنتيرة ، ومدينة شذونة (مدينة سدوينا) وقلمة الغزال ، وبلش ، وقادس ، وشنت لقر ، وئفر شنتمرية ، وروطة ، وأرك وغيرها^(١) ، بل لقد فكر فرديناند قبل أن يتم إجلاء المسلمين عن الأندلس ، فى أن يعبى البحر بأسطول إلى إفريقية ويغزو هنالك ويفتح ؛ وقام أسطول قشتالة بالفعل بقيادة أمير البحر ريموند بونفاشيوس بإحراز نصر على الأسطول المغربى فى سنة ١٢٥١ م (٦٤٩ هـ) ، بيد أنه لم يوفق إلى الاستفادة من هذا النصر نظراً لوفاة فرديناند بعد ذلك بقليل

(١) هى الأفرنجية على التوالى Medina — Sidonia ، Xeres de la Fronterra ، Arcos ، Rota ، St Maria del Ponto St Lucar ، Velez ، Alcalá de Gazules

الفصل الثامن

تاريخ البرتغال من عهد سانشو الأول
حتى افتتاح ألفونسو الثالث لولاية الغرب

١ — سانشو الأول الملقب بالمعمر

كان سانشو الأول قد ظهر منذ عهد أبيه ألفونسو بشجاعته وبراعته في الحروب . ولما تولى العرش — في ٦ ديسمبر سنة ١١٨٥ — رأى أن يتبع فيما يختص بملاقاته بالكرسى الرسولى ورجال الدين سياسة أخرى غير التي اتبعها سلفه . وكانت البرتغال بلاريب مدينة بقيامها كملكة مستقلة إلى حماية البابا ؛ ومن ذلك الحين كف القيصر ألفونسو ريمونديز عن محاربتها وقبل وساطة البابا ، ولم ينس ألفونسو هنريكيز طول حياته لمن يدين بعرشه بعد السيف ، ولبت على خضوعه نحو الكرسى الرسولى وعلى جوده نحو البابا والكنائس والأديار . بيد أنه لما ولى ابنه سانشو العرش ، كانت ظروف اسبانيا قد تغيرت تغيراً عظيماً ، فشغلت الممالك الاسبانية النصرانية الأربع بقتال بعضها البعض ، وقتال الموحدين بلا انقطاع ؛ واستطاعت البرتغال أن تبرز من القوة ما أحرزته الممالك المجاورة ، وأن تحافظ على استقلالها دون حماية البابا ؛ وكان سانشو يغير حلفاءه وفقاً لما تملى به الحكمة والمصلحة ؛ وكان — حسب ما ذكرنا من قبل — يشار على محاربة المسلمين دون كمال . وقد افتتح كثيراً من حصون الحدود ، وعمرها بالسكان النصراني ، وأسبغ عليه التاريخ من أجل ذلك لقب « المعمر » Poplador وكان كأمير مستنير يعمل على تأييد

النظام والسلام والرفاهية في مملكته ، ثم على تخفيف أعباء الحرب وغيرها من المكوس عن كاهل الشعب قدر استطاعته ؛ وقد شمل جماعات الفرسان بوافر جوده ، وعمل دائماً على توثيق روابطها ومصالحها بالعرش ؛ ومنح كثيراً من المدن والأماكن حقوقاً وحريات خاصة ، فساعد ذلك على تقدمها ورفع شأنها ، وشجع الزراعة أعظم تشجيع ، ووزع الأراضي المجربة والمهملة على فقراء الزراع لزرعها ، وأذكى هم المال المجدين بالمنح والامتيازات ، وأسبغ الفلاحون البرتغاليون على ملكهم لقب « الفلاح » رمزاً إلى مالقوا من رعايته وحمايته .

وكانت مدينة شلب بعد أن افتتحها النصارى بمعاونة الجند الصليبيين من جنوبي ألسانيا ، قد سقطت مرة أخرى في يد الموحدين وذلك نظراً لوقوعها في قلب الأراضي الإسلامية ؛ ولكن سانشو عاد فافتتحها المرة الثانية في سنة ١١٩٧ م (٥٩٣ هـ) ، وهدمها حتى غدت قاعاً صفصفاً ، ولبثت فقراً مدى حين ، وفقد المسلمون بفقدائها حصناً من أمنع الحصون .

ولم تلق البرتغال في الأعوام التالية سوى القليل من عدوان المسلمين ؛ ولكن خصاماً نشب بين سانشو وبين البابا ساستان الثالث من أجل زواج ابنته ببن عمها ألفونسو ملك ليون ؛ ثم نشب خصام عنيف آخر بينه وبين خلفه البابا أنوسان الثالث الذي ارتقى كرسي البابوية في سنة ١١٩٨ م . وكان هذا الخبر أشد صلابة وحرصاً من سلفه على تنفيذ حقوق البابوية ومطالبها ؛ فطالب سانشو بالجزية التي تعهد بأدائها ألفونسو هنريكز للكرسي الرسولى وقدرها مائة قطعة من الذهب . ومع تسليمه بأن ألفونسو هنريكز قد دفع من قبل إلى الكنيسة ألف قطعة من الذهب كأثر من آثار ورعه وتقواه ، فإن هذه الهبة لا يمكن أن تعتبر أداء مقدماً لجزية عشرة أعوام كما أراد أن يعتبرها سانشو ، وإيس هنالك ما يدل على أن سانشو قد خضع لوجهة نظر البابا ؛ ذلك أنه بالرغم من مصادقة البابا على معاهدة الصلح بين قشتالة والبرتغال ، وإنذاره بمعاينة الخائف بالحرمان ، وحمايته البرتغال بذلك من نكث قشتالة ، فإن سانشو لم يسلك نحو رجال الدين

مسلكا وديا . أجل لقد سمح للبابا بأن يشرف على تنظيم أحوال الكنائس في البرتغال ، وأن يرتب علائق جماعات الفرسان الدينية بالأساقفة ؛ ولكنه لم يكن يصبر على أى تصرف من الأحرار البرتغاليين أو البابا يرى فيه مساساً بهيبة العرش . وهذا ما أثبتته سانشو في فرصتين ، الأولى في خصام نشب بينه وبين أسقف بورتو ، والثانية في موقفه نحو أسقف قلمرية ؛ ذلك أن سانشو بالرغم من التجارب المحزنة التي عرّفها ملوك إسبانيا النصرانية فيما عقده من زيجات لم ترض الكنيسة عنها ، عقد ألفونسو زواج ولى عهده ألفونسو من إحدى قريباته الأقربين هي أوراكا ابنة ألفونسو التاسع ملك ليون (سنة ١٢٠٨ م) ؛ ولكن أسقف بورتو الذى سبق أن غاضبه مراراً من قبل ، وظن مع ذلك أنه أرضاه بمجوده وصلاته ، اعترض على هذا القران بشدة ، وأبى أن يبارك العروسين ؛ وزاد على ذلك أنه حينما قدم الملك وولى عهده إلى بورتو لم يقم نحوها بإجراءات التكريم العادية ، وأعلن قرار الحرمان الدينى ضد الزوجين الجديدين . وهنا استشاط سانشو من الأسقف غضباً ، وأمر بالقبض عليه ، ومصادرة أملاكه وأمواله ، ومعاينة كل من آثر أن يتبع أقواله على اتباع الأوامر الملكية . ثم أطلق سراح الأسقف بعد ذلك بقليل حينما وعد بأن يسحب قرار الاعتراض والحرمان ، ولكنه لم يف بوعده ، بل فر إلى رومة ليستصرخ البابا . وأمر أنوسان الثالث المبعوث البابوى في سموره بأن يعمل على تسوية المشكل ، فترد إلى الأسقف جميع حقوقه ويسحب قرار الاعتراض ، على أن لا يعود الملك إلى التدخل في شؤون الكنيسة . ولسنا نعرف كيف انتهت هذه المصومة ، مما يدل على أن سانشو لبث هو الظافر المتغلب ؛ وقد حدث ذلك في سنة ١٢١٠ م .

وحدث قبل أن تنتهى هذه المصومة أن نشب خصام أشد بين الملك وبين أسقف قلمرية . وكان الملك كثير العدوان على الحقوق الأسقفية ، هذا إلى ما يمانيه الأحرار من حفلات الصيد الملكية ، واضطراهم إلى إضافة كثير من الناس والحيوان ؛ وكثيراً ما كان الملك يسخر من رجال الدين ويحقرهم ويبدى

مغضبهم عليهم ، وفوق ذلك فقد ألقى بعضهم إلى السجن . واحتج أسقف قلورية على هذه الأمور لدى الملك أولاً ؛ فلما لم تثمر شكواه ، كتب إلى البابا مباشرة متخطياً في ذلك مطران براغا نظراً لميله إلى الملك ، ووصف له إلحاد الملك وصفاً مثيراً ، وزعم في كتابه أن الملك يضيف لديه امرأة عرافة تسدى إليه النصيح كل يوم . ثم إن الأسقف أعلن قرار الحرمان الكنسي في دائرته ، ولكن سانشو أراد كعادته أن يأخذ كل شيء بالعنف ؛ فقبض على الأسقف قبل أن يتمكن من الفرار وسجنه . ولما علم البابا أنوسان بما حدث اهتم بأمر الأسقف ، وطلب الترضية إلى الملك ، ولكن سانشو أبى كل ترضية وتمسك بموقفه . يسد أنه لم يلبث أن مرض بعد ذلك بقليل وشعر بدنو أجله ؛ وهنا وهنت إرادته ، وساوره الندم وسمى إلى طلب الصفح ، ووعد بالترضية ، حتى يظفر بالغفران من رجال الدين ؛ وعلى أثر ذلك أعلن مطران براغا تبرئته من الحرمان وكل عقوبة أخرى . والواقع أن سانشو قدم الدليل في وصيته على أنه لم يكن يحقد على رجال الدين ؛ فقد كتب وصيته قبل وفاته بعامين (في أكتوبر سنة ١٢٠٩ م) بمصادقة ومشهد عدة من الأساقفة والكبراء ؛ وفيها يجرى الصلوات للأحبار ويطرح جميع نصوصها لمصادقة البابا ، ويوصى له بمائة سبيكة من الذهب ؛ وقد صادق عليها البابا ولم يجد فيها موضعاً للطعن . ولم يعيش سانشو لمصادقة البابا على الوصية ، وإلغاء قرار الحرمان على يده ، إذ توفي في ٢٧ مارس سنة ١٢١١ م ؛ وفي السابع من يونيو من نفس العام ، قبل أن يصل نبأ وفاته إلى رومة أقر البابا أنوسان الثالث إجراءات مطران براغا ، وصادق على الوصية ، ووعد بأن يعنى بالعمل على تنفيذها .

٢ — ألفونسو الثاني الملقب بالبازن

عنى سانشو الأول بأن يرتب لجميع أولاده موارد ثابتة ، وعلى ذلك فقد منح في وصيته لبناته أيضاً أراضى معينة يملكها ؛ وكان ألفونسو قد أقسم بأن يترك

لأخواته ما خصهن به والدهن ؛ ولكن هؤلاء رفضن أن يعترفن بسيادة الملك على الأراضي المقطوعة لهن ، واعتبر ألفونسو هذا الرفض من الأمور التي لا يمكن التسامح فيها . وكان هذا سبب الخصام . ذلك أن الأميرات خشية من تهديد أخيهن لهن في حقوقهن حسبما يرينها ، قصدن إلى البابا أنوسان الثالث ، الذي وعد بأن يسهر على تنفيذ الوصية . فأعلن البابا دون درس الموضوع ، أنه حامى الأميرات ؛ ولم يقنع هؤلاء بهذه الحماية فسمعن في طلب المساعدة الخارجية خشية من عدوان أخيهن ، وكان ألفونسو التاسع ملك ليون على أهبة لأن يبذل هذه المساعدة . وكان يقيم في بلاطه ولي عهد البرتغال بيدرو ، الذي غادر المملكة لخصام عائلي ؛ فسار هذا الأمير مع ولد أخته تيريرا وهو فرديناند ولي عهد ليون على رأس القوات المحاربة ، وغزا البرتغال ، وعاث في أرضها ، ليرغم الملك ألفونسو الثاني على أن يرفع الحصار عن الأماكن التي اختص بها الأميرات ، بيد أن الجيش الفاتح بالرغم مما لقيه من مساعدة البرتغاليين ، وافتتاحه لبعض الحصون ، وبالرغم من أن مبعوثي البابا أعلنوا قرار الحرمان ضد ملك البرتغال ، لم يستطع أن يحول دون سقوط أملاك الأميرات في يد أخيهن . وهنا فقط أبدى ألفونسو الثاني استعداده للصالح . وفي أثناء الهدنة التي عقدت سار بيدرو مع القوات البرتغالية للاشتراك في محاربة المسلمين في موقعة العقاب وأبدى شجاعة وبطولة . بيد أنه لم يمحض سوى القليل حتى سار إلى مراكش ملتجئاً إلى سلطان الموحدين الذي كان يحاربه من قبل ، ثم حارب إلى جانبه ضد الخارجين عليه في المغرب .

وفي تلك الأثناء نشبت الحرب في البرتغال بين الملك وأخواته من جديد ؛ وأصدر مندوبو البابا الذين عهد إليهم بتسوية النزاع حكماً في منتهى التعسف ، إذ قرروا دون البحث فيما إذا كان ألفونسو الثاني محقاً في محاربة أخواته أم متجنيباً عليهن ، أن يلزم بنفقات الحرب كلهما ؛ ولما أبى ألفونسو أن يذعن لهذا الحكم ، صدر ضده قرار الحرمان الديني مرة أخرى ، ولكن البابا أنوسان كان بعيد النظر فسارع إلى إصلاح الخطأ ، وقضى بعد بحث جديد لأسباب النزاع بإلغاء

حكم مندوبيه ، وإلغاء قرار الحرمان الذى صدر ضد الملك ، وبأن يمهّد بالأماكن المتنازع عليها إلى فرسان الداوية ، وأن يعطى دخلها إلى الأميرات ، وأن تبقى خاضعة لحقوق الملك وسلطانة . أما نفقات الحرب وما ترتب عليها من الأضرار فيقدرها بعض العدول وتوزع على الفريقين بالإنصاف ؛ وصدر الحكم البابوى فى ٧ إبريل سنة ١٢١٦ م فاستقبله الفريقان بالرضى .

وعندئذ فقط استطاع ألفونسو الثانى أن يشهر الحرب على المسلمين ، وكان قد رسا فى تلك الآونة (يوليه سنة ١٢١٧ م) فى مياه اشبونة أسطول من ثلاثمائة سفينة مشحونة بالجند الصليبيين ، القادمين من جنوبي ألمانيا ، لإصلاح ما فسد من السفن أثناء المرحلة ؛ وكانت الحملة تحت قيادة الكونت فلهم صاحب هولند ، وجورج فون فيد ؛ فاستجاب معظم رجالها لدعوة رجال الدين البرتغاليين وأستاذ الفرسان ، وحملهم تقدم الفصل ، وأمل الظفر بالغنائم العظيمة ، على التخليف فى البرتغال ، والقيام بحملة ضد المسلمين . ولم يرفض هذا العرض سوى الفريزيين ، فأبحروا إلى فلسطين فى ثمانين سفينة . وسار باقى رجال الحملة مع الفرسان البرتغاليين ، وفرسان القديس ياقب ، وفرسان الداوية والاسبغارية ، وحاصروا قصر أبى دانس ؛ وفى الحال حشد ولاية قرطبة وجيان وإشبيلية جيشاً إسلامياً ضخمًا ، سار إلى إنجاد القلعة ، ولكن هزمه النصارى ؛ ونسب النصارى نصرهم فى تلك الموقعة إلى معونة فرقة من الملائكة فى صفة الفرسان كانوا يقاتلون إلى جانبهم فى ثياب بيض ؛ وسقط من المسلمين فى تلك الموقعة أربعة عشر ألفاً (١٠ سبتمبر سنة ١٢١٧ - ١٤٦١ هـ) ولم يتمكن النصارى بالرغم من هذا النصر الباهر من الاستيلاء على القصر إلا بعد ذلك بستة أسابيع ؛ وعومت المدينة التى فتحت أبوابها للمحاصرين فى ٢١ أكتوبر سنة ١٢١٧ ، معاملة مدينة فتحتم عنوة ، فقتل من أهلها كل من كان أهلاً للحمل السلاح ؛ وأخذ باقى

(١) وردت تفاصيل هذه الموقعة فى روض القرطاس (ص ١٦١) ، ويطلق على مدينة قصر أبى دانس بالأفريقية Alcazar do sal .

السكان أسرى ؛ وسلمت المدينة بعد ذلك إلى فرسان شنت ياقب ، لما أظهرهم أثناء القتال من شجاعة فائقة ، ولم يسافر الجند الصليبيون إلا في أوائل العام التالي بعد أن قضوا الشتاء في اشبونة ، فغادروا مياه البرتغال إلى فاسطين .

ولم يكن ميسوراً في ذلك الوقت الذي تمقدت فيه شؤون البرتغال الكنسية أن يطول أمد الوئام بين الملك وأساقفة المملكة ؛ فقد طالب الملك الأساقفة بنصيبهم من نفقات الحرب من متحصل أملاكهم الواسعة ؛ ولم يكن يتاح للملك دائماً أن يجمع جرائم رعاياه ، التي كان يرتكب معظمها بسبب النظم السيئة وامتيازات رجال الدين ، كذلك رأى الملك أن يقدم رجال الدين الذين يخالفون قوانينه إلى القضاء العادي ليحاسبهم على مسلكهم ؛ فاحتج اسطفان مطران براغا على هذه الأمور كلها بشدة ، فكان جواب الملك أن نزع منه بعض أملاكه ؛ فاستشاط المطران غضباً ، وأصدر قرار الحرمان والتحریم ؛ فلم يعبأ الملك بذلك ، واضطر الأسقف أن يسمي إلى السلامة بالفرار ؛ وحاول البابا هوغوريوس في كتابين متتاليين أرسلهما إلى الملك أن يصلح بينه وبين الأسقف ، وحثهما على القسيان والصفح ، فذهبت جهوده عبثاً ، وعندئذ أصدر هوغوريوس — بتحريض المطران الفار — قراراً (في ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٢١) ، ينذر فيه الملك بأنه إذا لم يبادر إلى إنصاف المطران ، فإنه يصدر قرار الحرمان والتحریم ضد المملكة كلها ، ثم يأمر بمنزله وتولية أمير آخر على العرش . ثم أصدر البابا أمراً آخر يطالب فيه الملك بالخضوع والطاعة ويكرر وعيده في حالة المخالفة ، ولكن الملك لم يذعن مع ذلك ولم يسلم ، بيد أنه ما لبث أن مرض وتوفي في ٢٥ مارس سنة ١٢٢٣ م . وقد عجز ألفونسو في أواخر حكمه من متابعة الحرب بنفسه نظراً لبدائته المفرطة ، وهي التي أسبغت عليه لقب « البادن » بيد أنه كان مع ذلك يدير شؤون المملكة بكفاية ؛ وقد غير نظم البلاط ومنح حقوقاً خاصة لكثير من المدن ، وعنى بإصدار طائفة من القوانين الجديدة . وكان قد دعا عقب توليه العرش ، في العام الأول من حكمه ، المجلس النيابي (الكورتيس) إلى الانمقاد في قلمرية ، وأصدر بموافقة عدة قوانين ونظم عامة ،

أدرجت فيما بعد في مجموعة القوانين التي أصدرها ألفونسو الخامس . ونص في هذه القوانين على احترام الحرية الشخصية ، وأصلحت إجراءات المرافعات ، ونص على تأمين الملكية ، وعلى إلغاء المكوس الظالمة ، وتأييد بعض امتيازات الكنيسة ورجال الدين ، كما ألغيت منها بعض الامتيازات المفرقة .

٣ — سانشو الثاني الملقب بذي الثوب الكهنوتي

كان سانشو الثاني في العشرين من عمره حينما خلف أباه على العرش ، وكانت مهمته الأولى أن يصلح بينه وبين رجال الدين ؛ ففي المجلس الديبالي الذي عقده في قلرية في يونية سنة ١٢٢٣ وضع اتفاق يقص على أن يحتفظ رجال الدين بجميع الحقوق التي آلت إليهم في عهدى الملوك السابقين ، وأن تلتى جميع الحقوق والسلطات التمسفية التي كانت الكنيسة تشكو منها بحق ، وزيد على ذلك أن منح الأساقفة سلطات جديدة على حساب العرش ؛ ومع أن الملك اعتبر حامياً للكنيسة ، فإنه لم يكن يسمح له بأن يقضى في الخصومات التي تنشأ فيما بين رجال الدين .

وعقد الملك مع مطران براغا اتفاقا خاصا تعهد فيه بأن يدفع له ستة آلاف قطعة من الذهب ، وأن يعوضه عن جميع الأضرار التي نزلت به من جراء النزاع ؛ وقام المطران من جانبه بإلغاء قرار الحرمان والتحریم ، وتبرئة الموتى الذين دفنوا من قبل دون تبريك وفقا لطقوس الكنيسة .

كذلك عقد سانشو الصلح بينه وبين عماته ؛ فنزل لهم عن الأماكن التي وهبت لهم بمقتضى وصية جده ، وقرر لهم راتباً سنوياً قدره أربعة آلاف قطعة من الذهب ؛ واعترف الأميرات من جانبهن بسلطة الملك ، وأن يقدمن إليه وقت الحرب الجند اللازمين ، وأن تستعمل السكة الملكية في أملاكهن ؛ وبعد وفاتهن تؤول الأماكن والحصون الهامة التي بأيديهن إلى العرش ؛ أما باقى أملاكهن فتوزع على الكنائس والأديار التي خصصت لها . وفي مقابل ذلك أيضاً رد فرديناند ملك ليون وقتئذ (سنة ١٢٣١) حصن سنت اشتين الذي استولى عليه

إلى سانشو ١ وهكذا سوى هذا النزاع الذى طال أمده بين أفراد الأسرة الملكية .
ولما انتهى سانشو من ترتيب جميع الشؤون التى يمكن أن تمس سلام المملكة
الداخلى ، وقطع فى الحكم بضعة أعوام يدير الأمور بحزم وفطنة ، عول على أن
يشهر الحرب على المسلمين ؛ وكانوا فى تلك الفترة يكثرون من الإغارة والعيث فى
أطراف المملكة الجنوبية تارة بقيادة الأمراء الموحدين ، وتارة بقيادة خصومهم .
وكان قد استولى عنوة على مدينة الواس فى سنة ١٢٢٦ ، وشحنها بالسكان
النصارى الذين أعطاهم حق المشاركة فى احتلال يابره ؛ وفى الأعوام التالية كثر
غزواته للأراضى الإسلامية . ولما أخذت دولة الموحدين فى الانهيار وقام ابن
هود بمحاول إنشاء دولة جديدة فى الأندلس والمغرب ، انتهز سانشو فرصة
الاضطراب الذى ساد المملكة الإسلامية ، وعمل على توسيع حدوده الجنوبية ،
فافتتح صربا ويورمنها وغيرها من القلاع ؛ وسر البابا جريجورى الحادى عشر
لهذه الفتوح أيما سرور حتى أنه أصدر فى ٢١ أكتوبر سنة ١٢٣٤ م قراراً وعد
فيه جميع النصارى الذين يحاربون مع الملك سانشو ضد المسلمين بغفران ذنوبهم ،
كما لو كانوا قد اشتركوا فى الحرب الصليبية فى الأراضى المقدسة ، على أنه يبدو أنه
لم يقصد البرتغال يومئذ لمحاربة المسلمين كثير من الصليبيين ، ومع ذلك فقد ضاعف
سانشو العزم فى فتوحاته . وكان من أهمها فيما بعد الاستيلاء على مدينة مارتلة ،
وهى مدينة كانت لموقعها الحصين تصلح قاعدة لفتوح أخرى ، وقد أعطاها سانشو
لفرسان شنت ياقب تمكيناً للمحافظة عليها . وترتبت على هذا الفتوح فتوحات أخرى
فى الأراضى الإسلامية ؛ وهوجم المسلمون من البر والبحر ؛ وأثار البابا حماسة
البرتغاليين بقرار جديد أصدره سنة ١٢٤٠ م ؛ وافتتح الفرسان البرتغاليون طابرة
وهى قلعة هامة فى الغرب فى سنة ١٢٤٣ م ؛ فوهبها سانشو أيضاً إلى فرسان
شنت ياقب ، وهى هبة صادق عليها البابا .

وبالرغم من أن الملك بذل جهد استطاعته لإرضاء رجال الدين وجد فى محاربة
المسلمين ، ونشر النصرانية ، وبالرغم من أنه كان يستند فى ذلك إلى تأييد البابا

فانه لم يستطع اجتناب النزاع مع جميع أساقفة المملكة ، فلم يكن هؤلاء ليهدا لهم بال قبل إسقاطه عن العرش .

وقد اضطر سانشو أن ينزل عن هيئته الملوكية لإرضاء لمطالب يوليان أسقف بورتو ؛ وكان هذا الخبر قد شكاً منذ أوائل حكم سانشو إلى البابا ، بأن الملك يبسط سلطته القضائية على أسقفية بورتو ، وأبى الأسقف بيدرو خالف يوليان أن يسمح للملك أن يكون له اختصاص في قضايا الأفراد العاديين أو المنازعات التي تقع بين رجال الدين ، أو أن يسمح لرعايا الأسقف بأن يؤخذوا للقتال مع الملك . ولو سلم الملك بهذه المطالب لهذا الأساقفة في دوائرهم كالأمراء المستقلين .

وقدم الأسقف شكواه في رومه إلى البابا ، فتولى الوساطة بينه وبين الملك ، وعقد اتفاق (في سنة ١٢٣٣ م) يتعهد الملك بمقتضاه باحترام الحريات والحقوق الكنسية ، ولكنه يتمسك مقابل ذلك بأنه إذا نشبت الحرب ضد المسلمين فعلى أسقف بورتو وكذلك أساقفة المملكة الآخرين أن يقدموا إليه الجند الممونة ، وبأن يكون للقضاة المسكينين وحدهم حق الفصل في الخصومات التي تقع بين الأفراد العاديين وبين رجال الدين ؛ على أن هذا الاتفاق لم يكن حاسماً للنزاع لأن البابا لم يصادق على هذه النقطة الأخيرة .

وسرعان ما اضطر النزاع من جديد بين المدنيين ورجال الدين فإنه لم يحض سوى القليل على تسوية النزاع مع أسقف بورتو ، حتى أخذ الموظفون المسكينون يتدخلون في الشؤون الدينية حسبما زعم مطران براغا . ولما لم يحقق الملك رغبة المطران في عمل الترضية اللازمة ، أصدر المطران قرار التحريم ضد أولئك الموظفين المسكينين ، وتوجه بشكواه إلى البابا ؛ ويدل مضمون هذه الشكوى بوضوح على أن منح الامتيازات المرفقة لطبقة من الطبقات مما يحمل الطبقات الأخرى على أن تستعمل وسائل العنف والضغط لتفوز بنوع من المساواة ؛ وقد كانت الشكوى في مجملها ضد الموظفين المسكينين أعنى ضد الملك الذي يعملون ويقضون باسمه وبأمره ، بيد أنها تضمنت أيضاً شكوى معينة ضد الملك ذاته ، منها أنه أثناء

سفراته يرهق الأديار والضياع الكنسية بطلب المال والمؤن ، وأنه يقبض لإيراد الكنائس الخالية لحسابه ويولى أمرها للمدنيين ، وأنه يدمى حق الحماية على بعض الكنائس الحرة ، ويسلمها إلى أشخاص من السفلة ؛ وأما الشكاوى التي قدمت في حق الموظفين ، فأهمها أنهم يرهقون المطران ورجال الدين بالقرارات المسالية لهم على الاشتراك في الحرب ، وينفقون على إطعام رجال الملك وخيله من أموال الكنائس ، ويرغمون الأحرار على اتباع النظم الدنيوية ، ومن ذلك إرغامهم على الحضور أمام القضاة المدنيين في قضايا النزاع على الملكية ، ومنعهم أن يتقبلوا الهبات أو الأوقاف من الأتقياء متى وصلت أملاكهم إلى حد معين ، وأنهم كثيراً ما يمنعون المطران من معاقبة القساوسة المدنيين ، وكثيراً ما يدخلون منازل القساوسة لأوهى الأعذار فيهبونهم ، ويسرقون أموالهم .

وفي ١٥ أبريل سنة ١٢٣٨ أصدر البابا قراراً بوجوب إلغاء هذه المساوىء ، وخول المطران في حالة ما إذا أصر الملك على موقفه ، أن يجسد ضده قرار الحرمان ؛ فإذا لم يكف هذا الإجراء ، لجأ البابا إلى وسائل أخرى ؛ ولم يجد سانشو في المرسوم البابوي ما يمس حقوقه الملكية بصورة مباشرة ، فوافق على تنفيذ النص الخاص بحرية الكنائس كما ورد في المرسوم ومراعاته ؛ وبذلك استطاع أن يجتنب العاصفة مرة أخرى .

على أن استسلام الملك لم يرق في أعين فريق كبير من الأشراف . ذلك أنه كلما ارتفعت مرتبة رجال الدين وزادت امتيازاتهم زاد عبء المعونة العسكرية ونفقات الحرب على الأشراف . وكان الأشراف قد اعتادوا أن يحصلوا بالعرف والعصب من رجال الدين ما كان يخلف بهم أداؤه مختارين لو وزعت الحقوق والواجبات بصورة عادلة ، بحيث كانت امتيازات رجال الدين ، امتيازات اسمية أكثر منها فعلية . وكان على رأس خصوم الأحرار ، أخ فنى للملك هو الأنفانت فرديناند صاحب صربيا ؛ وكان قد ارتكب ضد الكنائس والأديار كثيراً من ضروب المسف ، حتى أن مطران براغا جعل قرار الحرمان

يشمله . ووُجه اللوم إلى الملك كره أخرى لأنه لم يجمع عدوان آله وسجبه ؛ واضطر الأنفانت فرديناند أن يذهب إلى رومه (سنة ١٢٣٩م) ليقدم ضراعتة إلى البابا وليحصل على عفوه ؛ فعفا عنه البابا مقابل تمهده بالآلا يعتدى بعد على شيء من حقوق الكنيسة . ولكن سانشو لم يكن باستطاعته أن يرغم جميع أشراف مملكته الذين يرتكبون العسف ضد الكنيسة ، على مثل هذا الخضوع . واستمر سانشو مدى أعوام أخرى يبذل أعظم الجهود في أداء واجبات الحاكم اليقظ ، يتابع الحرب ضد المسلمين بنجاح ، ويكافح داخل المملكة ضروب الإخلال بالنظام والعسف أينما ظهرت ، ويدير دفة الحكم بمنتهى العناية والحرص ؛ بيد أن الصعاب كانت تتفاقم في سبيله ، فقد بدأ الأشراف بالتحرك ، وكان أخص أقاربه على تفاهم معهم ، وكان رجال الدس يبتغونه ، ويتربصون الفرصة لإسقاطه ؛ ولهذا لم يكن غريباً أن ينحدر سانشو بعد هذه الأعوام الطويلة التي قضاه في جهود عقيمة إلى نوع من السأم والخور ، وأن يعمد أعداؤه إلى انتهاز هذا الطرف لإسقاطه ؛ واضطر سانشو أن يقف الحرب ضد المسلمين بعد أن تخاف من طاعته فريق من الأشراف ، وحتى الحدود غدت دون دفاع كاف ضد غزوات المسلمين ؛ وعمد الأخبار - بدلا من البحث لدى الأشراف المخالفين عن سبب اضمحلال سير الحرب ، ومحاولة إقناعهم بالخضوع - إلى اتهام الملك بالإهمال والتواكل ، وتمريض المملكة بذلك إلى الخطر ، وانحازوا خفية إلى الثائرين . وقد كان اضطراب أية ثورة ينذر سانشو بالويل . ذلك أن أخويه الفونسو وفرديناند ، وعمه بيدرو كانوا يماثلون الحركة الثورية ، وكان لكل منهم حزب من الثوار ؛ وكان الجلود الذي لزمه سانشو يومئذ ، وخضوعه المطلق لنفوذ زوجته السيء ، وهى الملكة ماريالوبيز دى هارو ، مما يثبط هم أقرب أنصاره ويشجع خصومه على اتخاذ خطوات سريعة حاسمة .

ولما كان سانشو دون ولد ، فقد كان ذلك يحفز الأشراف إلى الاهتمام بأمر المملكة ؛ وكانت أطماعهم تتفق مع أمانى الثوار في خلع الملك عن عرشه . وكان

المعتقد أنه لا ينقص مثل هذه الخطوة سوى موافقة الكنيسة ؛ ولهذا أنجه التوار وعلى رأسهم الأخبار بشكواهم إلى البابا أنوسان الرابع ، وكان يومئذ يعقد في ليون مجلساً كنسياً (سنة ١٢٤٥م) لخلع القيصر فردريك الثاني ؛ فأصدر كتاباً إلى الملك بأن يعمل على تلافى أسباب الشكوى ، وأن يقدم الترضيات اللازمة ، وإلا اضطر الأب المقدس إلى أن يتخذ في حق ملك البرتغال ومملكة البرتغال خطوات شديدة أخرى .

وذهب في تلك الآونة أيضاً إلى المجلس الكنسى في ليون أسقفا بورتو وقلرية ومطران براغا ليعرضوا شكواهم شخصياً على البابا ؛ وكان يصحبهم عدة من الأشراف البرتغاليين كسفراء للملك يدافعون عن حقوقه ، بيد أنه تبين فيما بعد أنهم خائنون لقضية مليكهم ؛ وما كاد الأخبار والأشراف البرتغاليون يصلون إلى ليون حتى قدموا شكواهم ضد مليكهم ، وطلبوا عزله عن الملك ، وتولية أخيه الأنفانت الفونسو مكانه ؛ وكان هذا الأمير قد غدا بزواجه من الكونتيسة مانيلده صاحبة بولونيا ، أميراً لهذه الولاية ؛ وكان قد توثقت صلاته بالكنيسة منذ أعوام ، وكان يعد بأن يقود جيشاً إلى المشرق لمحاربة الغزاة التتار ، وأن ينظم حملة صليبية ضد مسلمى الأندلس ؛ وكان الأخبار والأشراف الخوارج يرون فيه أداة لينة لتنفيذ خطتهم . واستجاب البابا أنوسان الرابع لرغبات هؤلاء النفر القلائل ، وقبل أن يصله من البرتغال جواب كتابه السابق ، أصدر في ٢٤ يولييه سنة ١٢٤٥م قراراً بعزل الملك سانشو الثاني ، محتجاً بأنه اغتصب بعض الأملاك الكنسية ، وترك الفوضى تغمر البلاد بمعجزه وإهماله ، وتنصيب أخيه الأنفانت الفونسو صاحب بولونيا مكانه في الحكم ، وقد كان من حقه أن يخلف سانشو في الملك إذا توفى دون عقب ؛ وكان القرار يحمل بالفاظه معنى إقامة الفونسو وصياً لا ملكاً ، ولكن تبين فيما بعد أن المقصود هو العزل الحقيقي . وكان الفونسو يومئذ في باريس لدى خالته الملكة بلانكا والدة القديس لويس ، فانقلب عائداً إلى البرتغال . بيد أنه اضطر أن يقطع في البداية لزعماء الأخبار الذين

ذكرناهم عهداً بأن يحترم جميع امتيازات رجال الدين ، وأن ييذل لهم امتيازات وحقوقاً أخرى ، وأن يؤيد كل القوانين العامة والحقوق الخاصة ، بل تعهد لهم بأن يعطيهم نصيباً في حكم المملكة .

قطع الفونسو على نفسه هذه العهود في سبتمبر سنة ١٢٤٥م مشروطاً مع ذلك ألا تنصر بحقوقه أو حقوق المملكة ، ثم ترك لزوجته إدارة الإمارة ، وركب البحر مع الأبحار والأشراف البرتغاليين ، عائداً إلى البرتغال ، فوصل إلى ثغر اشبونه في نهاية سنة ١٢٤٥م ؛ وفي الحال أقبل الشعب على مبايعته بالطاعة والخضوع . وكان تطور الحوادث على هذا النحو مفاجأة لسانشو ، فما تصور قط أن تفضي الأزيمة إلى مثل هذه النهاية ، ولم يفكر في الاستعداد لمحاربة خصمه وإخضاعه بقوة السيف . ذلك أن الفونسو كان معه رجال الدين وفريق من الأشراف ؛ ولم يكن لرأى الشعب يومئذ قيمة في تأييد هذا أو ذاك ، ولكنه كان ينحاز حتماً إلى الجانب الذي تؤيده الكنيسة والأشراف . هذا إلى أن مطران براغا وأسقف قلورية ، قد استصدرا من البابا مرسوماً يخولهما أن يوقعا العقوبات الكنسية على كل مخالف للحكومة الفونسو ، وهكذا اضطر سانشو أن يبحث عن سلامة نفسه ؛ ففر إلى قشتالة ، ولجأ إلى ملكها فرديناند الثالث « المقدس » ، فاستقبله في طليطلة ، ووعدته — عملاً بنصح الأساقفة وبعض الأشراف — بالمعاونة والتأييد ضد ثوار مملكته الذين نزعوه من العرش .

وخرج سانشو على رأس جيش جهزه له ملك قشتالة ، ومعه ألفونسو أكبر أبناء فرديناند الثالث ، وزحف على البرتغال ، بيد أن محاولته كان مقضياً هائها بالفشل . ذلك أن ألفونسو الثالث أمير البرتغال الجديد ، بادر إلى استمالة كثير من أنصار سانشو المترددين ، بالوعود والمطايا ، وإلى إرهاب أولئك الذين أصروا على معارضته وإخضاعهم ؛ ولم يبق إلى جانب الملك القديم سوى عدد من القلاع التي ثبت أصحابها على ولائهم ؛ فلما غزا الجيش القشتالي الأراضي البرتغالية ، لقيه ألفونسو في قوى ضخمة ؛ بيد أنه قبل أن يشتبك معه في القتال ، حاول أن يقنع

القشتاليين بالحسنى أن يعودوا إلى بلادهم ؛ وبعث إلى الأنفانت ألفونسو يطلعه على القرار البابوي ، وكيف أنه تلقى الحكم من الأب المقدس ، وأن كل من يقف في سبيله يعرض نفسه لمقوبة الحرمان ؛ كذلك حث الأبحار الأنفانت على المود ؛ ورأى الأمير أنه لا يستطيع أن يحمل من تلقاء نفسه تبعة خطوة قد تعرض عواقبها قشتالة ذاتها للخطر ، فعاد بالجيش إلى قشتالة دون أن يشتبك مع البرتغاليين في موقعة ما . وربما رأى سانشو في تصرف القشتاليين من الحكمة وبعد النظر ، أكثر مما أبدوا من وفاء بمهودم . ومع ذلك فقد آثر أن يعود ليميش في قشتالة على أن يحاول أن يجوز تقلبات الحرب في مملكته . وقد كان أنصاره المخلصون يسيطرون على كثير من القلاع ، وكان في وسعهم أن يهددوا حكومة ألفونسو أعواماً أخرى ، ولكن سانشو آثر فيما يظهر دعة الحياة الخاصة ؛ وعاش الأمير الذي كان ولوفاً بالحرب ثلاثة أعوام أخرى كما يعيش الرهبان ، بين الاستغفار والصلاة وأداء الصدقات ؛ وهو أكثر اتصالاً بالعالم الآخر منه بهذا العالم . وقد نعتقد أن لقبه وهو « ذو الثوب الكهنوتي » اشتق من هذه الحياة التي عاشها في أعوامه الأخيرة ؛ ولكننا نعلم في الواقع أن هذا اللقب يرجع إلى أن والدته كانت قد ألبسته وهو طفل — على أثر مرض خطر أصابه — ثوب راهب تبركا بالقديس أوغسطين ووفاء لنذر نذرته متى شفى . وتوفي سانشو في طليطلة في يناير سنة ١٢٤٨ م .

ومع أن سانشو قد نبذ عرشه ، وترك أنصاره إلى مصيرهم ، فإنه مضت أعوام أخرى قبل أن يوطد ألفونسو سلطانه في سائر أنحاء المملكة ، وقد اضطر إلى أن يحاصر كثيراً من القلاع مدداً طويلة ؛ ولم يستطع تغلباً عليها إلا بالجوع . وكانت قلعة قلورية ما تزال تقاوم حتى موت سانشو ؛ وكان حاكمها مارتى دى فريتاس يدافع عنها وهو يعاني كل ما يفرضه حصار أعوام من ضروب الضيق والإرهاق ؛ بل لقد أبى أن يسلمها حتى بعد أن جاءت الأنباء بوفاة سانشو ، وطلب أن يتحقق بنفسه أولاً من صدق الخبر ؛ فأعطاه ألفونسو أماناً وإذناً

بالسفر ، فسافر إلى طليطلة ؛ وطلب أن يفتح قبر سانشو ، وهناك وضع بين يديه مفتاح قلعة قلمرية . ولما اطمأن إلى أنه أدى واجب الولاء للملكة تاما ، عاد إلى القلعة ، وسلمها إلى ألفونسو .

٤ — فتوح ألفونسو الثالث في ولاية الغرب

لم يتخذ ألفونسو الثالث لقب الملك إلا بعد وفاة سانشو ، وعلى أثر ذلك دعا نواب الطبقات الثلاث إلى الاجتماع ، فبايعوه بالطاعة باعتباره « أميراً ماسكا » ؛ أما قبل ذلك فكان يلقب فقط بالقائم بشؤون الدولة أو نائب الملك . وما كاد ألفونسو يطمئن إلى توطد عرشه ، حتى أخذ يفكر في استئناف الفتح في ولاية الغرب (غربي الأندلس) ؛ وكانت الظروف يومئذ أشد ما تكون موافقة لإعلان الحرب على المسلمين ؛ ذلك أن سقوط إشبيلية في يد فرديناند الثالث في ذلك الحين قد أثار الروح في باقي الأراضي الإسلامية . وكان سانشو الثاني قد افتتح معظم ولاية الغرب ، واستولى على عدة من القلاع الواقعة على ضفة وادي يانة اليسرى مثل موره وصربا ويامونت ، فلم يبق على تنمة إخضاع الأراضي الواقعة غربي مصب وادي يانة سوى الاستيلاء على بعض الحصون .

وكانت دولة الموحيدين قد انهارت تمام الانهيار ، وساد التفرق بين مسلمي الأندلس ، وغدا أقوى أمراءهم ، أمير غرناطة من أتباع ملك قشتالة ، فلم يكن من الممكن أن تعتمد الحصون الإسلامية في ولاية الغرب على أية مساعدة من الخارج ؛ وكان في وسع ألفونسو أن يطمئن إلى نجاح غزواته ؛ وقد بدأ بمحاصرة قلعة فارو الواقعة بين شلب وطبيرة ، فطوقها من البر والبحر ؛ ومرطبان ما اقتنع المسلمون بمبث المقاومة ، وجنحوا إلى تسليم المدينة (١٢٤٩م — ١٢٤٧م) وأنفق على أن يحتفظ المسلمون الذين لم يرغبوا في الهجرة بأموالهم ، بدينهم وأموالهم وشراعتهم ، وأن يكونوا رعايا الملك البرتغال ، يؤدون إليه من الضرائب ما كانوا يؤدونه فعلا إلى أمراءهم المسلمين ؛ وتلا الاستيلاء على فارو ، سقوط

المدن المجاورة بسهولة ؛ وكانت البفيرة قد أخذت قبل ذلك بقليل ؛ ولم تستطع لوله وما جاورها أن تقوم بمقاومة تذكر ، فلم يأت منتصف سنة ١٢٥٠ م (٦٤٨ هـ) حتى سقطت ولاية الغرب كلها في أيدي البرتغاليين . وفي العام التالي عبر البرتغاليون نهر وادي يانه ، ومضوا في فتوحهم على ضفته اليسرى في قلب الأندلس ، واستولوا على قلعتي أروشه وأرسينه الواقعتين على مقربة من لبله ؛ وشجر الخلاف من أجل هذه الفتوح بين ملك البرتغال وملك قشتالة ، وسوف نقص فيها بعد كيف سوى هذا الخلاف بين الملكين ، وكذلك ما تبقى من سيرة الفونسو الثالث .

وهكذا غدت مملكة البرتغال — التي لم تكن عند قيامها في عهد مؤسسها الملك الفونسو هنريكز (ابن الربق) سوى الرقعة الممتدة بين نهري منهو ومنديجو — بفضل جهود البرتغاليين وشجاعتهم ، في ظرف قرن فقط ، ضمت ما كانت عليه ؛ وكان الملك الفونسو الأول قد استطاع خلال عدة حروب موفقة أن يدفع حدود المملكة إلى ما وراء نهر التاجه ، وأن يفتح العاصمة أشبونه ؛ ثم غزا ولده سانشو الأول ولاية الغرب ، وافتتح منها عدة حصون ، بيد أن هذه الفتوح لم تكن ثابتة نظرا لبعد هذه الحصون وعزلتها ؛ ولم يمهّد طريق الفتوح الثابتة في الغرب إلا بعد أن افتتح الفونسو الثاني بمساعدة الجند الصليبيين قصر أبي دانس ؛ ثم جاء سانشو الثاني فأبدى همة مضاعفة ، وقام بفتح بعد فتح ، من الفاس إلى يامونت وطبيره ، وافتتح كل الأراضي الواقعة على ضفتي نهر وادي يانه الأسفل حتى مصبه ، ومهد بذلك السبيل إلى إتمام افتتاح ولاية الغرب ، وكان هذا الفتح من نصيب أخيه وخلفه الفونسو الثاني ، في منتصف القرن الثالث عشر . ولم تزد مملكة البرتغال حتى يومنا في حجمها على ما كانت عليه في بداية حكم الفونسو الثالث .

الفصل التاسع

أحوال الدول الاسبانية

حتى وفاة فرديناند الثالث

يستمد فرديناند الثالث شهرته وعظمته في التاريخ الاسباني بالأخص من فتوحه ؛ ذلك أنه لم يوفق ملك اسباني في القرن السابق من المعصور الوسطى إلى ماوفق إليه من اجتناب جميع المنازعات مع جيرانه من الملوك ، حتى لا يشغل في حروبه ضد المسلمين ؛ ولم يكن ثمة ريب في أن الحماسة الدينية لنشر النصرانية كانت أهم البواعث التي حملته على خوض الحرب مع المسلمين بلا انقطاع ، بيد أنه لم ينفصل مع ذلك مصالح المملكة السياسية ، فقد بقي مثلاً على ارتباطه الوثيق مع أمير غرناطة . أما موقفه إزاء جاييم ملك أراجون ، فقد كان بحيث يخشاه هذا الملك دائماً نظراً لما كان ينشأ من خلاف بينه وبين أكبر أولاده وكثير من أشرف مملكته ؛ على أن فرديناند لم يكن ليخشى من أراجون شيئاً على سلامة أراضيه ؛ ذلك لأن فتوح جاييم في مملكة مرسية لم تكن تهدد قشتالة في شيء . وليس هناك ما يدل على أن فرديناند كان يطمح إلى امتلاك نافارا عقب وفاة ملكها سانشو السابع بلا عقب ، وقد كان النافاريون والأرجونيون يقاتلون معاً مثل هذا التوسع من جانب قشتالة ؛ ولكن فرديناند كان أعقل من أن يقدم على مثل هذه الخطوة العقيمة ، التي كانت لتحول بلا ريب دون فتوحه في الأندلس ؛ ومع أن ملك قشتالة كان قليل التدخل في شؤون البرتغال الداخلية ، فإنه مع ذلك تولى حمايته سانشو الثاني

حينما فقد عرشه على يد رجال الدين ، ثم حاول أن يردّه إلى عرشه بقوة السيف (سنة ١٢٤٦م) ؛ ولكن حال دون تحقيق مشروعه قرار الحرمان البابوي ، و وفاة الملك المخلوع عقب ذلك ، وكان يقيم في ظل رعايته في طليطلة . كذلك يستمد چايم ملك أراجون شهرته بالأخص من فتوحاته ؛ وقد اشتهر أيضاً بأنه مشرع ومقنن ؛ ولكنه لم يكتسب هذه الصفة إلا في النصف الأخير من حكمه وهي فترة تتصل بمصر آخر لا نعى به هنا . وأبدى چايم في مسألة وراثة العرش كثيراً من الضعف والتردد ، وكاد يقضى من جرائها على جميع ما أداه من خير لمملكته ؛ ذلك أنه طلق زوجته الينور بحجة القرابة حينما أصبحت لا تزوق له ؛ ومع ذلك فقد اختار ولده الفونسو الذى أعقبه منها وليا لعهده المملكة كلها ، وذلك على يد المجلس النيابى الذى عقده في طر كونه سنة ١٢٣٢م .

وكان هذا التصرف من جانب چايم مناقضاً للمعاهدة التى عقدها مع سانشو السابع ملك نافارا ؛ وكان هذا الملك — الذى لم يقم منذ موقعة العقاب بأى عمل حربى يذكر — يعيش مع جاره في سلام دائم ، معتصماً بمحبته ، بيد أنه استيقظ من جهوده ، مذ ضم فرديناند الثالث عرش قشتالة وليون في مملكة واحدة ؛ وعقد مع ملك أراجون في الاجتماع الذى تم بينهما في تطيله (سنة ١٢٣١م) معاهدة تحالف وثيق ضد قشتالة ، نص فيها على أن يتبنى كل من الملكين زميله ، وأن يخلفه في عرشه ، وذلك بالرغم من أن چايم كان له ولد ، وكان سانشو قد اختار من قبل ولد أخته الكونت تيوبولد أمير شبنانيا ليخلفه في عرش نافارا .

فلما أعلن چايم في العام التالى ولده الفونسو وليا لعهده ليخلفه في جميع مملكته ، قضى بذلك على معاهدته مع ملك نافارا . بيد أنه تقدم نحو عرش نافارا بطلبات محجفة ، حينما توفى سانشو السابع في السابع من أبريل سنة ١٢٣٤م ، في الثمانين من عمره ؛ واختار نواب الطبقات بالإجماع ابن أخته الكونت تيوبولد أمير شبنانيا ملكاً شرعياً لنافارا . وكان عدول ملك أراجون

عن دعواه الباطلة ضد نافارا ، يرجع بالأخص إلى اشتغاله بالغزو في أراضي المسلمين أكثر مما يرجع إلى اعتراضات رجال الدين والبابا جريجورى التاسع . وهكذا بقى تيوبولد حتى وفاته ملكاً لمملكته بلا منازع ، وخلفه فى العرش عقبه . أما تاريخ هذه الأسرة الجديدة التى تولت عرش نافارا ، والتى تدين لمؤسسها بتنظيم الدولة وتزويدها بكثير من القوانين الحكيمة ، فيدخل فى تاريخ العصر التالى .

وكان تصرف فرديناند إزاء چايم ملك أراجون مليئاً بالشهامة . ذلك أن چايم طلق زوجته الأميرة الينور القشتالية بحجة القرابة ، واختار الفونسو ولد (سنة ١٢٣٢م) ولياً لمهده ، ولكنه ماد فانتزع منه بعض أجزاء المملكة ليعطيها لأبنائه من زواجه الثانى ؛ ومع ذلك فقد بذل فرديناند كل ما فى وسعه لى يهدى بوساطته ما ترتب على تصرفات چايم التمسفية من الاضطرابات فى أراجون ؛ ولما تزوج چايم فى سنة ١٢٣٥م بالأميرة يولانتا ابنة اندرياس الثانى ملك المجر ، ورزق منها بأولاد جدد ، قرر على يد المجلس النيابى الذى عقد فى دروقه سنة ١٢٤٣م ، أن يعطى ولده من زواجه الأول الفونسو ، أراجون وحدها ، وأن يعطى ولده من زواجه الثانى بيدرو ولاية قطلونية . وقد أثار هذا التصرف من جانب چايم غضب ولى المهده وجميع الأشراف ؛ وكادت أن ترتب عليه حرب دموية بين الوالد والابن ، لولا أن وفق فرديناند بتدخله إلى اجتنابها ؛ ذلك أنه أرسل ولده البكر الفونسو ، إلى ملك أراجون ، فعمد مؤتمراً فى المسيرة (سنة ١٢٤٤م) ، واستطاع أن يسوى النزاع القائم بين قشتالة وأراجون على حق الفتوح فى ولاية مرسية ، وأن يسوى فى نفس الوقت ماشجر من خلاف بين الأحزاب الأراجونية . كذلك عمده الفونسو ولى عهد قشتالة خطبته على يولانتا ابنة چايم توثيقاً لملائق الصداقة بين المملكتين المتجاورتين ، واشترط أن تعطى الأماكن المحتاف عليها بين قشتالة وأراجون كمهر لها .

وما كاد النظام يستتب في أراجون حتى وجه چايم كل عنايته لتزويد المملكة بالقوانين الكفيلة بتقديم الشعب ورفاهته ؛ فأعد في أوائل سنة ١٢٤٧ م على يد المجلس النيابي المنعقد في وشقة تشريعاً جديداً قام بوضعه جماعة من علماء القانون والعرف ؛ وكان واضحاً أن هذا التشريع الجديد يرمى إلى الحد من امتيازات الأشراف ، والتوسع في حقوق الطبقة الوسطى . وجمعت قوانين المملكة المختلفة في هذا التشريع وشرح منها ما كان غامضاً ، ونقح منها ما كان في حاجة إلى التفتيح ؛ ونص على أنه في الأحوال الغامضة يُرجع إلى رأى ذوى النزاهة والمعرفة الذين خبروا هذه الشؤون ؛ وأضيفت إلى التشريع أيضاً مجموعة الأوامر القديمة المتعلقة بالحقوق الشخصية ، وإجراءات المرافعات ، والنظم الإدارية . ولم تبحث الأصول الدستورية ، وقصد بذلك على ما يلوح أن تمنح الامتيازات التى يتمتع بها الأمراء التابعون بمضى الزمن ، على أن چايم لم يخطر فى باله أن الحقوق الملكية التى لم تسجل بوضوح ستغدو هى ذاتها موضعاً لاعتداء الأمراء ، وهو ما وقع بالفعل فيما بعد .

وكان ثمة فكرة مشثومة تلاحق الملك چايم وهى تقسيم المملكة بين أبنائه . وما كاد ينتهى من تزويد أراجون بالقوانين الصالحة ، وهى خير قوانين عرفت يومئذ في أوروبا ، حتى أخذت تغلب عليه تحريضات زوجه البارعه الطموحة يولانتا . وكانت الملكة تريد أن يمنح جميع أبنائها مناطق من أراضى المملكة ، فاستطاعت أن تحمل زوجها على أن يضع لها تقسيماً جديداً (سنة ١٢٤٨ م) ؛ وبمقتضى هذا التقسيم خص ألفونسو ، ولد الملك من زواجه الأول ، بولاية أراجون فقط ، ومنح بيدرو أكبر أبناء يولانتا ولاية قطلونية وجزيرة ميورقة وباقي الجزر الشرقية ، وحصل أخوه چايم على ولاية بانسية ، وفرناندو على إمارة روسيون وكونفلان ، وشرطانية ومونبلييه ، وعدة أماكن أخرى شمالى البرنيه ؛ أما أصغرهم سانشو فقد التحق برجال الدين ، ولم يحصل على شئ ، بيد أنه رقى رغم حداثته إلى أرفع المناصب الدينية .

وما لبث هذا التقسيم أن أثار في أراجون حرباً أهلية أخرى ، وثار ألفونسو أكبر الأبناء من جديد ، ونحالف معه الأنفانت البرتغالي بيدرو صاحب بلنسية الغنى بموارده ، وكان قد تنازل عن ميورقه لقاء بلنسية . وقد أرغم الأميران مدى حين على مفادرة المملكة ، بيد أنهما انضما في معظم أنصارهما — وهم أشجع فرسان أراجون وبلنسية — إلى الملك فرديناند الثالث ، وقدا إاليه خدمات جلى في محاصرة إشبيلية وافتتاحها ؛ ولهذا كان من الواضح لجاييم أن ابتعادها عن المملكة لم يضع للعرب حداً ، ولكنه أرجأها فقط . ورأى جاييم لكى يحول دون تفاقم الاضطراب فى المملكة ودون تدخل قشتالة فى شؤونها الداخلية أن يدعو نواب الطبقات إلى الاجتماع فى القنيس (سنة ١٢٥٠ م) ؛ واختار النواب عدة محكمين للفصل فى منازعات الأحزاب والعمل على التوفيق بينها ؛ ويرجع الفضل بالأخص إلى نصيح فرديناند فى أن ولى العهد ألفونسو ، والأمير البرتغالى — وكانا يقيمان يومئذ فى إشبيلية — انتهيا بالخضوع إلى هيئة المحكمين . وكان ملك قشتالة يرجو مخلصاً أن يعود السلام الداخلى إلى أراجون ، وعلى هذا فقد اضطر ولى العهد ألفونسو أن يخضع إلى القرار الذى أصدرته هيئة المحكمين التى ندهبها مجلس النواب فى برشلونه فى ٢٦ مارس سنة ١٢٥١ ، وإن لم يكن هذا القرار فى صالحه ؛ وكان القرار يقضى بأن يخص ألفونسو بأراجون وحدها والفتوح الجديدة فى ولاية بلنسية ، ويؤيد منح ولاية قطلونية للولد الثانى بيدرو ، وأن يعطى الولد الثالث جاييم جزيرتى ميورقة ومنورقة ومونبلييه ، والولد الرابع فرديناند ولاية روسيون وشرطانية وكونفلان . وهكذا حمل جاييم بحبه الأعمى لأولاده من زواجه الثانى على أن يمزق مملكة أراجون ، فى الوقت الذى عظمت فيه قوتها بافتتاح بلنسية ، وفى الوقت الذى استطاعت فيه قشتالة باتحادها مع ليون وفتوحها فى جنوبى اسبانيا أن تقضى على التوازن بين الدول الاسبانية ؛ بيد أن حكم جاييم الطويل الحازم ، وموت ولى العهد ألفونسو قبل أبيه حالاً دون انقسام وحدات المملكة الرئيسية وهى أراجون وقطلونية وبلنسية . أما فرديناند ملك قشتالة فقد استطاع

بالمكس أن يوطد وحدة الأراضي التي ورثها ، والتي افتتحها ، وأن يغم بذلك عرفان الأمة الاسبانية التي اعتبرته بحق مؤسس المملكة الاسبانية .

ولما شعر فرديناند بدنو أجله ، استدعى ولده وولى عهده ألفونسو ، وهو الذى اختير منذ مولده فى سنة ١٢٢٢ م على يد مجلس برغش لولاية العهد ، وأوصاه بحضور الأشراف أن يعنى بأمر إخوته الجلسة وأن يكون لهم بمثابة الأب ، وأن يعامل الملكة — وهى جان دى بونتيه التى تزوجها فرديناند فى سنة ١٢٣٨ م بعد وفاة زوجه الأولى بياتريس — بمنتهى الرفق والتبجيل ، وأن يترك الأمراء التابعين حقوقهم وامتيازاتهم ، وألا يفرض شيئاً من الضرائب إلا إذا قضت بذلك الضرورة القاهرة ، وأن يسهر على تحقيق العدالة بين الناس دون تفريق بين أحد منهم ، وأن يحكم الملكة فى خشية من الله . وفى ٣٠ مايو سنة ١٢٥٢ م توفى فرديناند مأسوفاً عليه من الجميع بعد أن حكم قشتالة خمسة وثلاثين عاماً ، وحكم ليون اثنتين وعشرين عاماً . ودفن فى إشبيلية آخر فتوحه ، وكان قد جعلها قاعدة لمملكته ؛ وأسبغ عليه معاصروه — نظراً لورعه وتقواه — لقب « المقدس » ، ورويت عن قبره أساطير عديدة ؛ وخلق عليه البابا كليمينوس العاشر لقب القداسة فى سنة ١٦٧٧ ، تحقيقاً لرغبة الملك كارلوس الثانى .



ومنذ تولت الأسرة البرجونية عرش قشتالة وليون ، وقعت فى نظم الحكم فى هاتين الدولتين تغييرات عديدة وإن تكن غير جوهرية . وكان أثر النظم والتقاليد الفرنسية قد أخذ يبدو مذنبوات الأسرة النافارية عرش قشتالة ، ولكن زاد هذا الأثر ظهوراً ، مذ وليت الأميرة البرجونية المتفرعة من أسرة كاييه الملكية ، عرش المملكة الاسبانية . فزادت سلطة الملك بعد أن كانت محدودة جداً ، وألغى مبدأ حق الانتخاب ؛ وكان حصول الملوك على حق اختيار أولياء العهد راجعاً بالأخص إلى أن الفتوح التى يقومون بها فى الحروب الموفقة ، تعتبر ملكاً خالصاً لهم يتصرفون فيه بما شاءوا ، وكان الملك يحصل فى هذه التصرفات على موافقة

الكبراء من الأشراف والقواد والأساقفة ، وهم الذين حققت هذه الفتوح على أيديهم ، ولكن هذه الموافقة لم تكن فرضاً لازماً ، وإنما كانت تؤخذ فقط لتسهيل إجراءات التصرف ؛ ومن ثم فقد تبوأ معظم ملوك قشتالة وليون العرش بطريق الوصايا الملكية من أسلافهم ، وهي وصايا كانت يصادق عليها دائماً كبراء المملكة ؛ وكان لكل ملك أن يقسم ولايات المملكة بين أبنائه . ولكن مملكة تقوم على مبدأ الانتخاب تأبى مثل هذا التقسيم . وكان فرديناند الثالث ، الذى تولى عرش ليون بالرغم من إرادة أبيه وحرمانه إياه فى وصيته ، أول من وضع لخير المملكة قانوناً يحرم تقسيم مملكة قشتالة وليون المتحدة (وذلك فى سنة ١٢٣٠ على ما يظهر) ولكن لم ينص فيه صراحة — فى حالة ما إذا لم يوجد عقب مباشر من الذكور — ماذا يتبع فى توريث الفروع أو إلى أى حد يفضل فرع الذكور ، على الأعقاب من الإناث . ومع أن فرديناند الثالث كان يسيطر على نحو ثلثي شبه الجزيرة ، وقد دفع أطراف مملكة قشتالة إلى حدود لم يوفق إليها أحد من أسلافه ، فإنه لم يفعل ما فعله ملوك قشتالة السابقين من ادعاء السيادة على باقى الممالك النصرانية ولم يتخذ كبعض أسلافه لقب القيصر .

وكانت الحقوق الملكية ونظم البلاط فى هذا العصر باقية على النحو الذى شرحناه من قبل^(١) ؛ فالوزير الأول يسمى « محافظ القصر » Majordomus ويليه وزير الحرب أو حامل السلاح Armiger ؛ وكان وزير العدل يسمى Merinus Major ؛ ويتولى توقيع المراسيم والتصرفات الملكية السجل الملكى والمستشار الملكى . وحدث أثناء عهد الوصاية على الفونسو النبيل ، وهنرى الأول ، أن استطاع الأشراف أن يفتصبوا معظم سلطات الحكم ؛ وكان سن الرشد قد عين عند بلوغ الملك الرابعة عشرة ؛ وقد بلغت غطرسة الأشراف يومئذ حدا عظيما بحيث كان من المألوف أن يرفضوا طاعة الملك ، بل لقد زعموا لأنفسهم يومئذ حقا خطراً على كيان المملكة هو أن فى وسعهم أن يرفضوا

(١) راجع ص ١٣٢ وما بعدها من الجزء الأول من هذا الكتاب .

الولاء للملك وأن يختاروا أميراً غيره ؛ وقد استطاع الفونسو النبيل ، وكذلك فرديناند الثالث في أعوام حكمه الأخير أن يحطما سلطان الأشراف — وقد كانوا ينفون من الضرائب ويملكون الضياع الواسعة والحصون والقلع — وذلك بالأخص بمعاونة رجال الدين الأقوياء الأثرياء ، ورفع الطبقات الأخرى من الناحية الاجتماعية ؛ وبما يذكر في ذلك أن الفونسو النبيل قد نزع من الأشراف هيبتهم ، واضطهدهم ، وسلب المدن والفلاحين لمحاربتهم ؛ وعاون الكفاح المستمر ضد المسلمين في المدن ، ولا سيما في أطراف المملكة الجنوبية على إنهاض الروح العسكرية ؛ وكانت هذه المدن كلها تقريباً تحكم نفسها طبقاً لقوانينها وتقاليدها الخاصة fueros ، وهي التي حصلت عليها أو انتزعتها من الملك ؛ وكانت تنزل إلى ميدان الحرب بأعلامها وقوادها مجهزة أحسن تجهيز ، وكثيراً ما تحرز النصر الباهر على العدو ، وتعود جيوشها مثقلة بالغنائم ؛ وظهرت بالأخص في هذا الميدان عدة مدن من قشتالة الجديدة واسترمدوره مثل آبله ، وصوريا ، وسقوية ، ومدينة ردريك ، وشلمنقة وغيرها . وفي أواخر القرن الثاني عشر صادق على مرسوم أصدره الفونسو النبيل منظم لورثة العرش زعماء خمسين مدينة منها اثنتا عشرة تقع شمال نهر دويره ، وتقع الباقية في جنوبه ، وتقع في المنحدر الجنوبي لوادى الرملة منها أربع عشرة ، وتقع في المنحدر الشمالى الشرقى أربع وعشرون . ولما كان فرديناند الثالث قد افتتح في القرن الثالث عشر عدة مدن كبيرة مثل بياسة وأبدة وجيان وقرطبة وإشبيلية وغيرها وشحنها بالسكان النصارى ، فقد كانت الطبقة الثالثة يومئذ غنية بمددها ؛ وكان نواب الطبقة الثالثة يمثلون عندئذ في المجالس النيابية ؛ ومن الخطأ أن يقال إن نواب الطبقة الثالثة مثلوا في السكورتيس (البرلمان) لأول مرة في عهد الفونسو الحادى عشر في سنة ١٣٢٥ م ؛ وكانت المدن التي تمتعت فيما بعد ، في سنة ١٣٤٩ ، في مملكة قشتاله وإيون المتحدة بحق إرسال نوابها إلى البرلمان ثمانى عشرة فقط .

وكان ابتعاد مجلس البرلمان (السكورتيس) خلال القرنين الثانى عشر والثالث

عشر من الشؤون الكنسية يبدو شيئاً فشيئاً ، وغدت الشؤون الكنسية تبحث في مجالس خاصة (synod) ؛ وكان الأساقفة يمثلون في البرلمان كسابق عهدهم ، ولكن - بالأخص - باعتبارهم من الكبراء والأشراف ؛ وكان الكورتيس يدعى في هذه المصوّر بالأخص في أحوال ثلاث :

أولاً - حين صدور المراسيم الملكية الخاصة بوراثة العرش والوصاية ، وإصدار القوانين ، أو إصدار النظم المتعلقة بإدارة شؤون الدولة ، مما يجب أن يحوز مصادقة الأشراف .

ثانياً - عند إعلان الحرب على المسلمين ، وذلك للمصادقة على توزيع نفقات الحرب ، وتقرير عدد الجند الذين يجب حشدهم .

ثالثاً - عند فرض الضرائب وتقريرها ؛ ولما كانت هذه المسألة تهم المدن بنوع خاص ، فقد جرت العادة شيئاً فشيئاً أن يدعى مأمورو الملك وزعماء المدن إلى مجالس الكورتيس ؛ ولم يكن لهؤلاء حق التصويت في هذا الشأن ، ولكن كان لهم أن يبدوا رأيهم ، وأن يبدوا اعتراضاتهم في الأحوال التي يرون فيها فداحة الضرائب . وكان يوجد ثمة إلى جانب الضرائب العادية فروض وخدمات أخرى ، مثل تقديم المؤن والأقوات للجيش وأعمال التحصينات والحراسة في المدن والأماكن القريبة من حدود الأعداء .

هذا ، ولما كان لكل مدينة وكل ضيعة وكل دير تقريباً قانون خاص تجرى العدالة بمقتضاه ، فقد كان من الممكن يومئذ نظراً لتعجى الأشراف وسيادة حق القوة ، أن يقع التصادم بين مختلف القوانين ؛ بيد أن مثل هذا التصادم كان أقل مما نتصور . فقد كانت كل جهة تتمسك بقانونها دون أن تعابى بمعارضة الآخرين . وكان السكان الذين يستقرون في المدن المفتوحة حديثاً يحصلون على قانون جديد ، يقتبسونه عادة من مدينة سبقت لهم السكنى فيها . بيد أنه كان يجب الحصول على مصادقة الملك . وقد رأى فرديناند الثالث - لكي يحقق نوعاً من المساواة في التقنين في أراضي مملكته - أن يصدر تشريعاً عاماً يستند بقدر الاستطاعة إلى

القانون القوطي وإلى القوانين الخاصة المختلفة . بيد أن هذا المشروع لم يتحقق ، وأصدر ولده وخلفه ألفونسو العاشر تشريعا جديداً ، ولكن على أسس أخرى غير التي رآها أبوه .

كذلك وضع فرديناند الثالث الأسس الأولى لمجلس قشتالة الملكي ، وهو عبارة عن محكمة استئناف عليا لجميع المملكة . وكانت هذه المحكمة تتألف من عشرة من كبار الشترعين من رجال الدين والمدنيين ؛ وكانت هي الملاذ الأخير في المنازعات ، وفي وسعها أن تنقح أحكام الحاكم الدنيا أو تميد النظر فيها أو تنقضها ؛ بيد أن المستأنف كان ملزماً بأن يودع مبلغاً كبيراً قدره ألف وخمسمائة دبلون (عملة اسبانية) ، يضيع عليه إذا لم يحكم لصالحه .

وكما أن فرديناند الثالث ، لم يستطع أن يبسط سيادة قشتالة على باقي الممالك النصرانية ، فكذلك لم يحاول مطران طليطلة أن يحدد السيادة التي كانت لكنيستته على باقي الكنائس الاسبانية ؛ وقد كان مطرانا شنت ياقب وطركونه يمارضان في ذلك أشد المعارضة . وظهرت هذه المعارضة بشكل واضح منذ عهد المطران رديك الطليطلي حيث احتج زملاؤه على طوافه في دوائرهم بهيئة رسمية وإصدار البراءات وغيرها من أعمال وظيفته ؛ وعقد يومئذ مجتمع ديني (سنة ١٢٤٠ م) تقرر فيه أن مطران طليطلة مريض الأماكن التي يمر بها على هذا النحو إلى الحرمان . ولم يرض البابا عن هذا القرار ، ولكن المطارنة الأسبان أمروا على رفض سيادة مطران طليطلة عليهم . ولم يغيروا موقفهم حتى عند ما تولى سانشو ولد فرديناند الثالث منصب المطران في سنة ١٢٥١ م .

ونلاحظ فيما يتعلق بالشؤون الكنسية أن هيبة الأساقفة ورجال الدين قد عانت كثيراً من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين ، فكثيراً ما تولى الأساقفة القيادة ، وكثيراً ما حرضوا على أعمال القسوة ضد المسلمين ؛ وترتب على ذلك أن شابت الوحشية طباع الشعب ورجال الدين . ثم تلا ذلك ظروف عزنة جنح فيها الملوك - بالرغم من معارضة الكنيسة - إلى الزواج من أقاربهم ؛

وجلبوا بذلك قرار الحرمان والتحریم على أنفسهم وعلى الشعب ، واضطهدوا رجال الدين الذين أطاعوا البابا ، وأبدى فريق من الشعب احتقاره للآخرين ؛ وغاضت المواطن الدينية حسب اعتراف الأساقفة أنفسهم شيئاً فشيئاً ؛ بيد أنها عادت فقويت من جديد في ظل حكم فرديناند المستنير . وحذا هذا الملك الورع ، الذى اضطر أيضاً إلى حماية سلطته من رجال الدين ، حذو الفونسو النبيل ، في إنشاء الأسقفيات والكنائس والأديار في المدن التى فتحت حديثاً ؛ وتمسك الملوك بحقهم القديم في تعيين الأساقفة ، وشدد في هذا التمسك الفونسو النبيل وفرديناند المقدس ؛ وشدد الكرسي الرسولى من جانبه في إنكار هذا الحق على الملوك . كذلك كان على رجال الدين أن يقدموا الجند إلى الجيش أسوة بالأشراف ؛ بل كان على الأساقفة أن يؤدوا قسماً من أعشار الكنائس كضريبة حرب للمعاونة في الكفاح ضد المسلمين . بيد أنهم لم يكونوا يؤدونه إلا بموافقة البابا . وفيما عدا ذلك كان رجال الدين يتمتعون بالإعفاء من الضرائب منذ أيام الفونسو النبيل ، ولم يتمتعوا بهذا الامتياز من قبل . كذلك تقرر في عهد هذا الملك ألا يضع الملك يده على تركات الأخبار وألا يستغلها بصورة مؤقتة ، بل تترك بحمايتها إلى خلفائهم ، وكان على الأخبار مقابل ذلك أن يصلوا من أجل صحة الملك ورفاهته ؛ وكان فرديناند الثالث يشجع العمل على تحسين أخلاق الكهنة ؛ واستطاع المندوب البابوى ، الذى كثيراً ما تولى عقد الاجتماعات الكنسية ، وجماعات الرهبان الجديدة من الدومنيكيين والفرنسيسكانيين ، الذين ذاعت هيئاتهم في اسبانيا منذ تأسيسها في سنة ١٢١٨ ، بما أبدوا من ضروب الاعتدال والورع والتقشف ، أن يكونوا قدوة للكهنة الذين طغت عليهم المواطن الدنيوية وأن يردوهم إلى حظيرة الدين . بيد أنه مما لا يمكن إنكاره أن التمسك الدينى ، وشهوة الكهنة إلى السلطان ، واعتناق الخرافات الدينية ، قد أخذت يومئذ تنفشر في اسبانيا .

وهنا أخذت الحرب ضد المسلمين تزداد عنفاً وقسوة ، وأخذ اليهود قسراً إلى التنصير بالرغم من اعتراض البابا على ذلك ، وأرغموا على أن يلبسوا من الثياب

ما يميزهم ، ومنعوا من تحصيل أعشار الكنائس ؛ وعوقب الذين ينتمون إلى الألبين^(١) ، أو يعتنقون مبادئ غير الكاثوليكية بالموت حرقاً ؛ وكان الملك فرديناند الثالث يعمت الملاحدة أشد المقت ، حتى أنه تولى بنفسه في بالانسيا (سنة ١٢٣٦ م) إضرام النار في محرقة أعدت لإحراق ملحد . ولم يذع في عصر من العصور عن ظهور المعجزات مثلما أذيع عنها في النصف الأول من القرن الثالث عشر ؛ فخيماً أحرز النصرى في الحرب نصراً باهراً ظهر القديس ياقب ، أو الفارس القديس جورج ، أو السيدة المذراء في المعركة ، ومعهما مدد غير منتظر لأولئك الذين أشرفوا على الهلاك ؛ وقيل إن راهباً من ليون يدعى مارتن معروفاً بغبائه وجهله ، نزل عليه القديس إيزيدور ، وأطعمه الكتاب المقدس ، فلي بذلك علماً وحكمة ، واستطاع أن يؤلف كتباً عديدة في أعوص المسائل الدينية ؛ ولما ذاعت التعاليم الإلحادية التي يرجع بعضها إلى مبادئ الألبين ، أصدر المجمع الديني المنعقد في طركونه سنة ١٢٣٣ م قراراً بتحريم قراءة العهدين القديم والجديد على المدينين حتى في غير الاجتماعات العامة . وكذلك ذاع يومئذ اكتشاف آثار القديسين ورفاتهم ، ووضعها في الكنائس في المدن الكبيرة ؛ وعرفت اسبانيا في ذلك الوقت أيضاً قديسين معاصرين مثل القديس دومنيك مؤسس الهيئة المعروفة باسمه ، وقد أعلن قديساً في سنة ١٢٣٤ م

وكان من جراء الحروب المستمرة ضد المسلمين أن أسبغت حتماً على الأمة الاسبانية لوناً شديداً من الخشونة والقسوة ، ولم يحل دون تحولها إلى نوع من الحمجية المطلقة سوى شرف الفروسة وال عاطفة الدينية ، بيد أننا لا نجد أثر هاتين الخلتين الشهيرتين دائماً في الشعب الاسباني ؛ ففي أثناء حروب أمعرق كاسترو ولارا في قشتالة ، والحروب الأهلية التي وقعت في عهد هنرى الأول ، وأثناء حادثة الملك چايم ، بدا كأن الصفات الرفيعة قد غاضت في نفوس الفرسان ولم يبق مكانها سوى الرذائل من العنف والاضطهاد والعنت والتمرد تسود هذه

(١) سبق أن أشرنا إلى مذهب الألبين في هامش ص ١١٠ من هذا الجزء

الأراضي التمسّة ، حتى لقد كان رجال الدين والنساء فرائس لهذا الاعتداء . ولما كان رجال الدين قد أثروا من جراء الهبات المتواصلة والإعفاء من كل الضرائب — بل ومن أداء ضريبة الحرب ضد المسلمين أحياناً — فكثيراً ما كان الفرسان والأشراف يحقدون عليهم ، وينبذون منهم بالمنف ما يرونه زائداً عن حاجتهم . وقد قتل مطرانان في طركونه بيد اثنين من أكابر أشراف المملوكية ، وكثيراً ما وقع النهب والقتل والحرق دون خشية من الله ؛ ولم يبد الناس من الطاعة للملك إلا بقدر ما رأوه ضرورياً ؛ وكثيراً ما كان الملوك أنفسهم يقدمون الأمثلة السيئة من أعمال العنف ، مثل جاييم حينما أمر بقطع لسان أسقف جيرونه ، ولولم يعمد الفونسو النبيل في أواخر عهده وكذلك فرديناند الثالث إلى كبس جراح الفرسان بمحزم وقوة ، لأنهارت نظم الدولة كلها في قشتالة . ومن المدهش حقاً أن نرى رجال الدين في هذا العصر الذى ساد فيه قانون القوة ، يقيمون الفونسو النبيل بإلغاء « حق الإنقاذ »^(١) ، وسن عقوبات شديدة لمن يرتكب النهب من السفن الجانحة .

وليس من المستغرب أن تزدهر الفنون والعلوم في مثل هذه العصور التى سادها الاضطراب والفوضى ، فقد دلت التجربة في كثير من البلدان على أنه كثيراً ما تزدهر العلوم في ظل قمعة السلاح . وفي هذا العصر بالذات أسست الجامعات الأولى التى عرفتها اسبانيا النصرانية في بالانسيا وشلمنقة . على أن ازدهار العلوم والفنون في قشتالة وأراجون يرجع بالأخص إلى العصر التالى ولا سيما في عهدي الفونسو العاشر والفونسو الحادى عشر .

ولا تقدم إلينا المصادر فيما يتعلق بأراجون التى يحفل تاريخها الدستورى بكثير من المسائل الهامة ، قبل عهد جاييم سوى قليل من الوثائق المتناثرة ، كذلك من الواضح أن هذا الملك وخلفاءه قد سنوا كثيراً من النظم الدستورية التى لم

(١) المقصود هنا حق الاستيلاء على تمويض مقابل مساعدة السفينة على النجاة

من الفرق .

نعمت على أصولها في عصور سابقة . وقد تناولنا فيما تقدم كل ما يتعلق بتاريخ أراجون الداخلى من الشؤون الهامة في القرون الأولى من العصور الوسطى ، وذلك عند الكلام على حكم الملك بيدرو الثانى ؛ أما غير ذلك من الشؤون فيرجع إلى عصر لاحق .

وقد نستعرض في لحظة سريعة تلك العصور التي قامت فيها السيادة النصرانية على شبه الجزيرة الاسبانية ، ونسأل بعد تأمل أهم حوادث هذه السيرة ، أليس من المسلم به أنها عبارة عن صراع دموى حافل بالتقلبات شهره الاسبان ضد المسلمين في سبيل امتلاك شبه الجزيرة ، وهى ملكية رأى أبناء القوط دائماً أنها من حقوقهم الخالدة . وقد استطاع فرديناند المقدس وجايم الفاتح لأول مرة أن يحطوا تفوق الإسلام نهائياً ، وأن يحققوا للاسبان سيادة الأراضى الاسبانية بالرغم من أنها بقيت مدى حين مسرحاً لهذا الصراع ، وبقي المسلمون في مملكة غرناطة في رقعة من الأرض تمتد بين مملكتي قشتالة وأراجون وتشرف على المضيق .

إن السيف يفتح الأراضى ، ثم ينظمها القانون إلى دول ؛ وقد بقى الفرسان ورجال الدين هما الدعائم اللتان تمدان الشعب الاسبانى بالقوة اللازمة لسيطرة العرب العربى المغربى . ولما خف عبء الصراع الدائم ، ولم يبق المرء عاماً بعد عام يعيش في المعسكر ويخوض ميدان الحرب ، زادت عناية الاسبان بالزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والفنون . ولم يكن من اليسور قبل أن تسقط بالنسيية وقرطبة وإشبيلية في يد النصارى أن تزدهر الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم بين النصارى كما ازدهرت بين جيرانهم المسلمين . ذلك لأن النصارى كانوا يسيطرون فقط على القسم الشمالى المجذب من شبه الجزيرة ، ولأن الأيدى المملكة كانت تؤخذ دائماً للحرب ، ولأن الدول النصرانية فيما عدا قطلونية كانت منقطعة عن البحر الأبيض المتوسط ، ولأن الحرب وحدها كانت سبيل الشرف والثراء والصيت . وكانت النظم التأسيسية ترى كلها إلى توزيع الحقوق ، حينما

تفرض أعباء الحرب ، ولم يكن يستثنى من ذلك رجال الدين . فلما توطدت حياة اسبانيا في شبه الجزيرة بعد صراع دام خمسة قرون أمكن أن يعنى التشريع بحقوق الأفراد بعد الجهود التي بذلت للعناية برفاهة الدولة ورخائها ؛ ولم تكن الحرب أو الضرورة القاهرة عندئذ باعث النظم التأسيسية ؛ ولكن كان التوسع الحرفى الحقوق هو الذى يوجه التشريع ، وكان التشريع ينظم أسس الدولة .

الفصل العاشر

نظم الدولة وفنون الحرب وأحوال الحضارة

في دولتي المرابطين والموحدين

كانت دولة المرابطين تشبه في قيامها ونموها وازدهارها خليفاتها ، دولة الموحدين شهماً عجمياً : كلتاها قد وضع أسسها داعية ديني ، وقاد الجند الذين غمرتهم الحماسة الدينية قادة عظام موهوبون من نصر إلى نصر ، وأنشأوا من هذه الفتوح دولة زودوها بنظم ، وأسرة ملوكية ورائية . بيد أنه ما كادت العوامل التي حركت هذه الشعوب — وخلقته ونظمت كل شيء — يفيض معيها ، وما كادت حماسة الشعوب تنجو ، وتفترهم السلطان الحربية ، حتى انهارت هاتان الدولتان المسكريتان بمثل السرعة التي قامتتا بها .

وكان من أشد العوامل التي ساعدت على بسط سيادة هاتين الدولتين في شمال إفريقيا ، رغبة البربر والمغاربة الذين فرض العرب عليهم سلطانهم ، في أن يحطموا نير السيادة الأجنبية ، وأن يلتفوا حول الأسر القومية ؛ ولكن الأمر كان على عكس ذلك في اسبانيا المسلمة حيث لم تكن كتلة الشعب من المغاربة ، بل كانت عربية (مصرية أسيوية) ، فقد كانت الدولتان المغربيتان ، تعبران بالرغم من كونهما قد استدعيتا لمحاربة النصارى ، غاصبتين ليس غير ؛ وكان الزعماء والأسر الملوكية بالأخص ، وهم الذين جنت سيادة الإفريقيين على حقوقهم ، يبنضونهم ويحقدون عليهم ؛ وحتى بعد أن فنى معظم الأسر العربية العربية في

الأندلس وفي شرق اسبانيا ، لم يكن من اليسور إخضاع الشعب بغير القوة القاهرة . ومع أن الحروب المستمرة ضد النصارى الأسبان كانت تحتم الاحتفاظ في شبه الجزيرة بقوى ضخمة ، فإن اسبانيا المسلمة كانت مع ذلك ، في ظل دولة المرابطين ، وكذلك في ظل دولة الموحيدين ، أغنى ولاية في الدولة المغربية ؛ كما أنها كانت في نفس الوقت أشد أجزائها تضرراً لعسف الحكام العسكريين ؛ وكان من الطبيعي أن يترتب على غزو هذه القبائل المغربية الخشنة ، انهيار الثراء العظيم والنعماء السابغة اللذين عرفتهما الأندلس من قبل في عهد الدولة الأموية وعهد ملوك الطوائف ، وأن تفتقر العناية بالعلوم والفنون ؛ بيد أنه من المدهش أن نرى مسلمي الأندلس في تلك المصوّر المضطربة التي ساد فيها الخراب والعيث ، ينافسون إخوانهم المسلمين في المشرق في جميع نواحي العلوم والحضارة .

١ — نظم الدولة وفنون الحرب عند المرابطين

كانت نظم الدولة التي قامت عليها مملكة المرابطين من صنع يوسف بن تاشفين ، فهو الذي أعطى المملكة حدودها ودعامتها الأساسية . واستطاع بمد أن أسس الماصمة مراكن ، وافتتح أقطار المغرب والأندلس أن يتخذ — باعتباره زعيم المرابطين في الشؤون الدينية والدنيوية — ألقاب الخلافة وأمير المؤمنين دون أن يكون من فروع الدوحة النبوية ، تشبهاً في ذلك بأعظم أمراء الإسلام في عصره ، خلفاء بغداد العباسيين ، وخلفاء القاهرة الفاطميين ، وأن يجعل الملك متوارثاً في أسرته ؛ وكانت تقام صلاة الجمعة في المساجد باسم هذا السلطان المطلق ، وتضرب السكة باسمه في جميع أنحاء المملكة . وكان لون المرابطين السواد على مثل الدولة العباسية ؛ يحملون الأعلام السود ، ويرتدون المعاطف السوداء .

وكان كل سلطان يختار أثناء حياته ولي عهده بنفسه ، وكان يختار عادة من بين أبنائه أنجحهم وأكفاهم للاضطلاع بالحكم ؛ فقد اختار يوسف بن تاشفين مثلاً لولاية عهده أصغر أبنائه . وكان من أهم عوامل الخلاف على وراثة العرش فيما

بعد ، أنه لم يصدر قانون صريح ينظم وراثته العرش ، في حالة ما إذا فاته أمير المؤمنين القائم أن يختار خلفه . وكان تعيين ولي العهد يجري وفقاً لرسوم نخبة ، فيعقد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء ، وتعرض عليه رغبة السلطان ، ويصرح المجتمعون بأنهم يقبلون ولي العهد المختار سلطانهم المستقبل ويبايعونه بالطاعة إذا شاء ذلك أميرهم ؛ وللأمير إذا شاء أن يقبل ولي عهده وأن يختار بدلاً منه ؛ ويجب على الوزير أن يحرر وثيقة بوراثة العرش ، تودع في المحفوظات الملكية .

ومتى تولى سلطان المرابطين الحكم بايعة بالطاعة أولاً أفراد أسرته ، ثم الأسماء المرابطون ، وأقسموا له بيمين الإخلاص والطاعة ، ثم يتلوهم زعماء القبائل وعمال الحكومة ؛ ويخطر الشعب بمرسوم يتلى في المساجد ، ويستبدل اسم الملك الراحل في خطبة الجمعة باسم الملك الجديد .

ويُعهد بحكم الأقاليم إلى الأسماء المرابطين الذين لم يولوا الملك ؛ وكانت الأندلس أهم هذه الأقاليم ، ويعهد بولايتها عادة إلى الأمير الذي يمين لولاية العهد ، ويلقب عندئذ بلقب خاص به وهو « النائب » ؛ ويتخذ مراكز الحكم على الأغلب في غرناطة أو إشبيلية أو قرطبة ؛ ويلي الأندلس في الأهمية ولاية فاس ، وهي عاصمة المملكة الثانية ، وفيها حاول الأسماء المرابطون من آل تاشفين أكثر من مرة أن ينشئوا مملكة مستقلة .

ويعاون أمير المؤمنين في القيام بأعباء الحكم مجلس للدولة مؤلف من الوزراء ؛ وينتقل هذا المجلس معه أثناء الحرب ؛ ويوزع الوزراء فروع الإدارة والحكم بين أنفسهم ؛ ويتولى رئاسة المجلس كبير الوزراء أو الوزير الأول ؛ ويتولى الوزير الكاتب إعداد جميع الوثائق الرسمية العامة .

ويقوم نظام الدولة كله على أسس عسكرية ؛ وأمير المؤمنين هو قائد الجيش الأعلى ؛ وولاته هم في الوقت نفسه من قواد الجيش يتزعمون منه أقساماً معينة ، بل كان قضاء المدن أنفسهم أيضاً من القواد العسكريين ؛ وكان معظم الموظفين في

البلاط وفي الولايات ينتمون إلى قبيلتي لمتونة وكدالة الحريبتين ، وهما اللتان يرجع إليهما أصل المرابطين أنفسهم . هذا وقد عمل يوسف بن تاشفين على الاحتفاظ بمعظم طرائقهم في تنظيم فنون الحرب . وكان اللمتونيون شعباً وافر البراعة شديد المراس في الحرب لا يفرون أمام عدو مهما تفوق عليهم في العدد ؛ وكانوا يرتبون صفوفهم في المعركة ببراعة ؛ ومع أن قوتهم الأصلية كانت تقوم على الفرسان ، فإنهم كانوا يقدمون في الصف الأول أشجع جندهم من المشاة ، يتقلدون الحراب الطويلة ، ويفرسونها في الأرض .

وقد أكمل يوسف بن تاشفين تنظيم اللمتونيين وأعدهم للحرب أعظم إعداد ؛ وكانت دعامة جيشه قوة من الفرسان حسنة الدربة مزودة بأفضل سلاح ، وصل عددها في عهده إلى مائة ألف مقاتل ؛ وكانت كل فرقة تحمل علمها الخاص من مختلف الألوان ، وعليه رسوم ونقوش خاصة ، ولها زعيمها الخاص ، ويخرج الجيش إلى الحرب تحت قرع الطبول وصوت الأبواق ، وقد رتب الصفوف حسب القبائل .

وكان ترتيب المعركة عند المرابطين يقوم على نظام خماسي . ويتقدم الجيش ، الجند المشاة ، ووحدات الفرسان الخفيفة ، وحملة القسي ، وحملة النبال ، ويرتبون في الجناحين ؛ ويتكون القلب من وحدات الفرسان المرابطة الثقيلة ، وهي التي كان لها على الأغلب القول الحسم في المارك ؛ وكانت القوى الخلفية أو القوى الاحتياطية ، يقودها الخليفة بنفسه إذا كان مصاحباً للجيش ، وتتألف من صفوة جنود الجيش ، وقوى الحرس المختلفة . وكان لكل قسم من القوى المقاتلة قائده الخاص ؛ ويجتمع القادة جميعاً في مجلس الحرب الذي يعقد قبيل المعركة ويتلقون الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى ؛ وكان الجند ينظمون وفقاً للأقاليم والمدن ، فيؤلف الأندلسيون مثلاً قسماً خاصاً من الجيش ، يحمل أعلام إشبيلية وقرطبة وجيان ومالقة وغرناطة وغيرها . ولكن قوى الحرس الخاص كانت تؤلف من أشجع الجند من مختلف الولايات ، ويشترط في قبولهم أن يكونوا من ذوى القوام

الحسن ، والشجاعة الفائقة ، والقوة والبراعة . وجمع يوسف بن تاشفين بواسطة تجار الرقيق في إقليم غانة عدداً كبيراً من العبيد ، واختار منهم أوفرهم وزودهم بالسلاح والخيل ، ودرّبهم على جميع فنون القتال ، وأنشأ منهم حرسه الخاص . الأسود من ألفى رجل . وأنشأ على مثل هذا النمط حرساً خاصاً من الأندلسيين ، يتألف من فتيان من النصارى المهادين الذين يحتم عليهم اعتناق الإسلام ؛ وكان يوسف يحبهم بمطقة وصلاته ، وينعم على من امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة بمختلف الهبات من الخيل والثياب والسلاح والعبيد . وكان على بن يوسف أول أمير مرابطي اختار حرسه الخاص من بين النصارى ، وهو تصرف كان له وقع سيّئ بين المسلمين المحافظين .

وكان الجند عند السير ينظمون كما لو كانوا على وشك خوض المعركة ؛ وكانت الأقوات والخيام تحمل وراء الجيش على ظهور الدواب ؛ ويتبعها الرعاة وهم يقودون قطعان الماشية من كل صنف ؛ ومتى حط الجيش رحاله ، أقيم معسكر في منتهى الانتظام . وكان يوسف بن تاشفين لا يقتصر في استعمال الجمال على حمل الأتقال ، ولكنه كان في حروبه بالأندلس ضد النصارى يستعملها بالأخص مكان الخيل لكي يستعين بمنظرها الغريب على بث الروع في نفوس الأعداء ، ويقال إن هذه الخطة نجحت في موقعة بطليوس ؛ ومما يلفت النظر أنه لم يرو قط أنهم استعملوها الفيلة في الحرب مثلما كان يعمل القرطاجنيون القدماء .

وكان المرابطون في أيامهم الأول ، حينما قامت دولتهم وازدهرت ، يقاتلون في الحروب تحت قيادة يوسف بمنتهى الإقدام والشجاعة ، ويطلبون الموت شهداءً في سبيل الإسلام اجتناءً لنعيم جنة الخلد ؛ ومن ثم كانت هجراتهم من العنف بحيث لم يبق أحد على ردم ؛ وكان هذا الشغف بالكفاح يبدو بنوع خاص في الجهاد ضد النصارى الأسبان ؛ وكانت الصلاة تقام قبل بدء المعركة ، ومتى تمت هزيمة العدو ، أقيمت أهرام من رؤوس القتلى النصارى ، وأذن المؤذنون عليها للصلاة كأنها مآذن ؛ وأذيت أنباء النصر بين الشعب من منابر المساجد .

وقرى منها للناس بيان أمير المؤمنين عن الموقعة .
وكان الخليفة يختص من الفنائم بالخمس وفقاً لأحكام الإسلام ، ويوزع الباقي
بين الجند .

والظاهر أن المرابطين بالرغم من بساطتهم في المعارك ، وبالرغم من أنهم كانوا
يمرفون آلات الحصار وطرائق رميها ، لم يكونوا على براعة كافية بفنون
الحصار ؛ ويرجع السبب في ذلك إلى أن دعامة قوتهم كانت ترتكز إلى الفرسان ،
وهم أقل براعة في فنون الحصار . على أنهم كانوا يجيدون الامتناع بالقلاع ،
ويجيدون تحصينها ، وقد دللوا في مواطن كثيرة على أنهم يحسنون الدفاع عن
الأماكن الحصينة .

وكان الأسطول يتألف من سفن النقل أكثر مما يتألف من سفن القتال ،
وذلك لأن الغرض الأساسي من إنشائه ، هو حفظ المواصلات بين المغرب
والأندلس ونقل الجند ؛ وقد استخدم الأسطول في فتح بلنسية والجزائر الشرقية
(البليار) ولكن لم تنشأ أية موقعة بحرية .

وكانت إسبانيا المسلمة فيما يتعلق بالحكم والإدارة في ظل المرابطين ، كلها
عبارة عن معسكر ضخم ، وذلك نظراً لاضطرار الحرب ضد النصارى بلا انقطاع ،
ولأن المرابطين كانوا يرتابون في ولاء الأندلسيين ؛ وهكذا كانت الأندلس تعامل
دائماً كولاية على وشك الخروج والثورة ، ويحتلها باستمرار سبعة عشر ألف
فارس من المرابطين ، يقيمون في المدن والقلاع الهامة ؛ منها في إشبيلية حامية من
سبعة آلاف ، وفي غرناطة حامية من ثلاثة آلاف ، وفي قرطبة حامية من ألف ؛
وكان كل فارس يتقاضى مرتباً شهرياً قدره خمسة دنانير مرابطية ، هذا عدا الطعام
المجاني ؛ وكان قواد هذه الحاميات وكذلك الولاة وقضاة المدن ، ومعظم الموظفين
من المغاربة ، ولاسيما من اللمتونيين ؛ أما المسلمون من الأصول العربية والمصرية
والسورية والفارسية فقد أهملوا وأغضى عنهم ؛ وعلى هذا فقد كان من الطبيعي
ألا يرى مسلمو الأندلس في المرابطين سوى طغاة ظالمين . وفي عهد يوسف بن

تاشفين كان من المعتذر أن تبدو المساوى التي كان من المحتوم أن تترتب على نظمه وصنوف الظلم والإرهاق التي يرتكبها الولاة ، لأنه كان من وقت إلى آخر يعاوف بنفسه أرجاء مملكته الشاسعة ، ويتحرى أحوال المدن وحكوماتها ، ويستمع إلى الظلامات ، ويتخذ ما يجب لإقامة العدل وحفظ الأمن ؛ ولكن المساوى غلبت في عهد الملوك الضعفاء بسرعة ولا سيما في الأندلس ؛ وكان الأندلسيون أكثر احتمالا لخشونة الجند والقادة ، لأنهم كانوا على الأقل رجالا تغلب عليهم البساطة والعسكرة ، بعيدين عن الخداع والجشع ؛ ولكنهم لم يحتملوا القضاة والعلماء الذين اختصوا بالفصل في شؤونهم ؛ ذلك لأنهم بدلا من أن يولموا العدل والحماية كانوا يفلبون في معاملتهم الظلم والاضطهاد والخديعة والجشع وكل صنوف الشر والإرهاق ؛ وكان الموكلون بتحصيل الضرائب عادة من اليهود ، يجمعون المكوس من المسلمين والنصارى المهادين ، طبقا لعدد الأنفس ، وكانوا بذلك أداة في يد الموظفين يوجهونهم وفق أهوائهم وجشعهم ؛ ثم انتهى الأمر بأن هذا الجند حذو الموظفين وأخذوا يمتدون في المدن على حريات الأفراد وأموالهم ، وهكذا جنح الشعب إلى الثورة ، وانتهى الرابطون بأن فقدوا الأندلس سريعا حينما غزاها الموحدون .

وكان لا يزال يقطن جنوبي اسبانيا في أوائل القرن الثاني عشر ، كثير من النصارى المهادين Mozarabes^(١) ، وكانوا يتمتعون بحرية الشعائر ، ويحتفظون ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاةهم ؛ ولكن حدث أن نار النصارى المهادون ليرفعوا عنهم النير الأجنبي ، وليساعدوا ألفونسو الأول ملك أراجون في حملته ضد غرناطة ومالقة ، فترتب على ذلك أن عمل خليفة المرابطين على تشريد معظم السكان النصارى ونقلهم من الأندلس إلى إفريقية^(٢) ؛ فهلك معظمهم من الحرمان وتمير الطقس ، ودخل بعضهم في جيش الخليفة ، وحارب معه ، وأبقى

(١) راجع الهامش في ج ١ ص ١٥٣ .

(٢) راجع تفصيل ذلك في الجزء الأول ص ١٥٤ — ١٥٦ .

أمير المؤمنين على ابن تاشفين أن النصارى يستطيعون أن يؤدوا كثيراً من الخدمات ، فعين في بلاطه فرساناً من النصارى ، وأنشأ منهم فرقة خاصة في الجيش ، أسدّت إليه خدمات طيبة في حربه ضد الموحدين ؛ وعهد إلى النصارى بتحصيل الضرائب في المغرب ، على نحو ما كان يحدث في الأندلس من قيام اليهود بهذا العمل .

ولم يتمتع اليهود - وكان عددهم كبيراً في المغرب والأندلس - بنوع من التسامح إلا في عهد خلفاء يوسف بن تاشفين . وقد كان يوسف شديد العداء لليهود ، وكان يريد أن يرغمهم على اعتناق الإسلام ، لأنهم في زعمه ، وكما ورد في بعض الكتب القديمة ، تعهدوا أيام النبي باعتناق الإسلام ، إذا لم يظهر مسيحهم المنتظر بعد خمسمائة عام . ولم يستطع اليهود اتقاء الاضطهاد إلا بعد أن بذلوا مبالغ طائلة من المال ، واشتروا بذلك سلامتهم وحرية شعائرهم .

ولم يبد سلاطين المرابطين كبير عناية بأمر العلوم والفنون والشعر ، وتقدم المعارف ؛ وقد اضطهدوا كل ما عنيت الدول العربية بتشجيعه من قبل ؛ وطاردوا العلوم الفلسفية والكلامية التي تنكرها التعاليم المرابطية ، وحظروا قراءة الكتب التي تحتويها وأحرقوها علناً ؛ وكذلك حرّمت وأحرقت جميع الكتب التي تتضمن قصص الفروسة والقصص العادى ، ولم يحذ الأسماء المرابطون حذو أسلافهم العرب إلا في فن العمارة ؛ فقد أنشأ يوسف بن تاشفين بالأخص كثيراً من المساجد والشكنات والقياسر ، والمساكين ، واختط الشوارع والأسواق ، ولم يدخر وسعاً في العمل على ترقية جميع المنشآت الضرورية والنافعة .

٢ - نظم الدولة وفنون الحرب عند الموحدين

كانت نظم الدولة عند الموحدين ترجع إلى أسس دينية ؛ وكانت أقل طغياناً من نظم المرابطين ، وكان الموحدون أقل عداءاً للتربية والعلوم ؛ ومع ذلك فقد كانت نظمهم كلها ترمي إلى تأسيس دولة عسكرية ؛ ومن ثم فقد كانت دواتهم تشبه دولة المرابطين من وجوه كثيرة ، سواء في قيامها أو نموها ثم سقوطها .

وكانت دولة الموحدين ترى إلى إحياء مجد الإسلام الذابل في شمال إفريقيا ، وإن لم يكن ذلك على يد أسرة عربية ، بل على يد أسرة من أهل البلاد . وقد وضع أسس هذه الدولة داعية ديني ، زعم أنه المهدي محيي مجد الإسلام في المغرب وإمام الدولة الجديدة .

وقد لقيت نظم الدولة التي وضعها المهدي تغييرات جوهرية على يد مؤسس الدولة الموحدية ، ووارث سلطان المهدي ، ونعمي عبد المؤمن بن علي ، وهو من أعظم القادة والساسة في العصور الوسطى ؛ وقد كان شأنه في تأسيس أمرته أعظم من شأن يوسف بن تاشفين بالنسبة للأسرة الرابطية . ويسمى بعض المؤرخين العرب سلاطين الموحدين ببنو عبد المؤمن ، نسبة إلى مؤسس الأسرة . وكان عبد المؤمن أحد العشرة الذين اختارهم الإمام المهدي ليكونوا وزراءه . ووضع فيهم أعظم الثقة ؛ وقد زود منذ فتوته بأعظم سلطة ، واستطاع بعد موت سيده ، بدهائه وعظيم هيئته وبراعته الحربية التي دلل عليها من قبل ، أن يستخلص السلطان لنفسه ؛ وبعد أن قضى على دولة الرابطين ، تبوأ عرش مراکش ، ونادى بنفسه خليفة الموحدين وأمير المؤمنين ، ووضع الممالك الجديدة التي شملت حدود الدولة الراحلة ، نظماً اشتقت من نظم الموحدين وتماثل المهدي وصيغها بنظمه العسكرية الخاصة ؛ ودعى في الخطبة في المساجد التي طُهرت من جديد لخليفة الموحدين كما كان يدعى لخليفة الرابطين من قبل ؛ بل لقد أمر عبد المؤمن بهدم مساجد مراکش وبنائها من جديد ؛ وضرب الموحدون سكة جديدة مربعة مكان السكة الرابطية المستديرة ، ونقش عليها إلى جانب اسم الخليفة القائم والعبارات الإسلامية المعتادة اسم المهدي أيضاً ، وهو مما يؤكد أصل الدولة الديني ؛ كذلك ذكر اسم المهدي في الصلاة ، وكان يحُج إلى قبره في تينمال ، كما يحج إلى قبر النبي . (كذا)

وكان لون الموحدين السياسي البياض ؛ ويرتدى الموحدون المعاطف البيضاء في الحفلات الرسمية ؛ وكانوا يستعملون إلى جانب البياض ، اللون الأخضر ، بيد

أنهم كانوا يقصرون استعماله ، فيما يظهر ، على بعض المناسبات الخاصة ، ولا سيما عند إعلان الجهاد ضد النصارى .

وكذلك لم يكن عند الموحدين قانون ثابت لوراثته العرش ؛ وكان السلطان يختار بنفسه ولي عهده من ولده وفقاً لمشيئته ، وذلك بغض النظر عن حقوق الولد البكر ؛ ولما انقطع تسلسل الوراثة من الأب إلى الابن ، مجلت المنازعات على العرش بإنهيار المملكة ؛ وكان بوسع أمير المؤمنين أن يحصل لولى العهد الذى اختاره على مبايعة بالطاعة من مجلس الدولة والزعماء ، بل كان يشركه أحياناً فى الحكم معه ككثيريك فى الملك ، وفى تلك الحالة يذكر اسمه فى الخطبة إلى جانب اسم أمير المؤمنين ؛ وكانت مدينة تينمال التى دفن بها المهدي ، أيضاً مدفناً للولك الموحدين .

وعندما يتولى السلطان الملك ، يبايعه بالطاعة أولاً الحاضرون من أمراء نبى عبد المؤمن ، ثم الوزراء ، ومجلس الدولة ، والزعماء ، ثم الشعب أخيراً ؛ ويذاع نبأ جلوسه فى جميع أنحاء المملكة ؛ ويتخذ كل سلطان شعاراً خاصاً لتوقيعه وأعلامه الملكية .

وكان الأمراء الموحدون ينعمون أنفسهم بلقب السيادة فيقدم اسمهم دائماً لقب « السيد » ؛ وتوزع بينهم ولايات المملكة ؛ وكان ذلك من أهم الأسباب التى مجلت باضمحلال دولة الموحدين إذ ثارت المنازعات على العرش ، ولم يكن يميز الأمير الطموح أن يعمل لاستقلاله عن العرش ، بل أن يدعى الخلافة لنفسه .

وكان يماون أمير المؤمنين فى تصريف شؤون الحكم عشرة وزراء كان كبيرهم يتخذ لقب الحاجب كما كانت الحال أيام الأمويين ؛ وكثيراً ما كان السلطان يعين أولاده فى سلك الوزارة ؛ وكان الحاجب يقوم بتبليغ المراسيم والأوامر التى يصدرها الخليفة شفويًا ؛ وإذا اقتضى الأمر اصدار مراسيم مكتوبة ، وقمها

الحاجب كما يوقعها الوزير الكاتب^(١) ، وكان يتولى الإشراف على القضاء ثلاثة من الوزراء يسمون قضاة في نفس الوقت ؛ وثلاثة فقهاء يقومون بالنظر في كل ما يتعلق بالدين والتعليم والمعارف ؛ ويتولى الشؤون المالية وزير يسمى والى الخزانة ؛ وهؤلاء الوزراء جميعاً لم يكن غملمهم قاصراً على أعباء الحكم وشؤون الدولة ، بل كانوا أيضاً موظفين في البلاط ، عليهم أن يعنوا بكل ما يتعلق بشخص الخليفة ، باعتبارهم خدامه الأوائل ، وعلى ذلك فقد كان من بينهم الطبيب الخاص ، والنديم ، والقارى ، والأمين .

وكان ثمة إلى جانب هؤلاء الوزراء العشرة مجلسان يماونان أمير المؤمنين في تصريف الشؤون ؛ ولم يكن في اجتماع هذين المجلسين ما يحدد من إرادة أمير المؤمنين أو سلطانه ، وإنما كان القصد من إنشائهما أن يجد أمير المؤمنين في معاونتهما وسيلة لتخفيف أعباء المهام عن كاهله ؛ وكان أمير المؤمنين يعمد بالبحث والفصل في الأعمال التي ليست لها أهمية خاصة إلى مجلس الحسين ، وبالأعمال الأقل أهمية إلى مجلس السبعين . ثم حدث أثناء حكم المستنصر ، وقت أن كان قاصراً تحت الوصاية ، أن اغتصب أعمامه وأبناء أعمامه السلطة في الأقاليم ، وانتزع مجلسه الدولة أيضاً لنفسيهما كثيراً من السلطة ، حتى أصبحا يقرران أمر وراثه العرش ، ويمينان أو يمزلان ، وفق مشيئتهما ، خليفة بعد خليفة . ولكن الخليفة المأمون عول على أن يسترد سلطان العرش المطلق ؛ ولما أصدر أعضاء المجلسين قراراً بهزله أمر بهم فأعدموا ؛ وغير في نظام المجلسين وأنشأهما من جديد حرصاً على المظاهر ؛ وقصر عملهما على معاونه وزير العدل ، والفصل في المنازعات بين الأشخاص العاديين ، وحظر عليهما التدخل في أى شأن من شؤون الدولة . وأراد المأمون أيضاً أن يحمل الشعب على احترام نظامه الجديد ، فذهب إلى حد الطعن في نظام المهدي ، وفي شخص مؤسسه ، وأعلن أن المهدي مخاتل مخادع ، وكتب

(١) هو الوزير الذى يتولى كتابة الوثائق السلطانية وصياغتها ؛ ومنصبه يقابل منصب كاتب ديوان الإنشاء في الدول المصرية .

كتاباً في المساوىء التى يرتكها مجلسا الدولة ، ونوه بأهمية المبدأ القائل بأنه لا يصح أن يوجد إلى جانب الحكومة المطلقة أية سلطة أخرى أو قوانين أخرى غير شريعة الله (أى القرآن) وإرادة الأمير .

وكان عبد المؤمن قد قام قبل ذلك بإحداث بضعة تغييرات فى النظام الأساسى الذى وضعه المهدي ؛ وكان المهدي قد قسم الموحدىن جميعاً إلى عشر طبقات ؛ وكانت هذه الطبقات العشر تأتى قبل باقى الشعوب الخاضعة لسلطان الموحدىن ؛ وكانت الطبقة الأولى وفقاً لهذا النظام تتألف من الوزراء المشرة ، وتتألف الثانية من مجلس الخمسين ، والثالثة من مجلس السبعين ، والرابعة من العلماء ، والخامسة من الحفاظ والمحدثين ، والسادسة من أقرباء المهدي ، والسابعة من أبناء قبيلة هرغة وهى قبيلة المهدي ، والثامنة من أهل تينمال ، والتاسعة من أهل جرميوت ، والعاشر من باقى جنود الموحدىن ؛ وكان لسكل طبقة من هذه الطبقات مكان خاص للاجتماع فى السلم ووقت الحرب ، وعند السير ، وحين إقامة المعسكرات . ولما تولى عبد المؤمن الحكم ، أنقى نظام الطبقات العشر ولم يبق منه سوى مجلسى الخمسين والسبعين . أما النظم العسكرية فتركها برمتها على ما كانت عليه وقت المهدي ، ولم يحدث فيها سوى تحسينات يسيرة بوصفه قائد الجيش الأعلى ؛ وكانت دعامة جيش الموحدىن ، على تقيض جيش المرابطين ، ترتكز إلى قوة المشاة ؛ وكان تقسيم الجيش كله ، يجرى حسب الطريقة الجرمانية القديمة ، على نظام المشريات ؛ ولكل وحدة قائدها الخاص ؛ وكانت الصفوف تكتسب على هذا النحو براعة فى حركاتها وتحولاتها ، إذ كان الجند والقادة على جانب عظيم من المران ؛ وكان المشاة من جند الموحدىن يحشدون بالأخص من القبائل البربرية ، ويحملون حراًباً طولها اثنتا عشرة قدماً ، وتسمى « الأهراس » ، يلقونها فى وجوه أعدائهم بمنتهى العنف .

وكان لإنشاء جيش الموحدىن يقوم على عناصر مختلفة من الجند ؛ وكانت نواة الجيش تتألف من الجند النظاميين والحرس ، وهم نخبة بارعة فى جميع ضروب

القتال ؛ وكان الحرس يتألف من العبيد ومن رجال القبائل ؛ وفي أواخر أيام دولة الموحدين أنشئ أيضاً حرس من الأندلسيين ، وحرس من الأسبان . أما باقي الجند النظاميين فكانوا من الذين يجب على القبائل المغربية أن تقدمهم إلى الخدمة العسكرية وفقاً لنظام خاص ، وكانوا يدربون على الفنون العسكرية زمناً طويلاً ؛ وإلى جانب هذه الجنود النظامية التي كان يزودها الأمير بالسلاح ، وتعنى الدولة بالإنفاق عليها ، كانت القبائل عند ما تنشب الحرب تقدم نصيبها من المشاة والفرسان والسلاح والمؤن ؛ وعند ما تنشب حرب الجهاد ضد الأسبان النصارى كان يدعى المتطوعون إلى القتال في سبيل الله ؛ وكانت هذه الجنود المختلفة تحارب في المعركة ، تفرق بينها أعلامها المختلفة الألوان والأشكال ، ولكن بحيث يتخذ قوادها بالاتفاق مع القائد الأعلى نفس الأماكن التي خصصت لهم من أمير المؤمنين .

وكان كل ما يتعلق بالحرب ينظم تنظيمًا دقيقاً ؛ وكان النظام الصارم يسود أثناء السير وفي المعسكر ؛ ولما كنا قد تحدثنا فيما تقدم في تاريخ عبد المؤمن عن نظام السير لدى الموحدين ونظام إقامة المعسكر ، فإنا نكتفي بالإحالة عليه اتقاء التكرار^(١) .

وكانت تتخذ قبل الإقدام على خوض المعركة عدة إجراءات ، فيعمد عادة مجلس حربي ، يبحث فيه أمير المؤمنين — أو القائد الأعلى في غيبته — مع قواد الوحدات المختلفة خطة المعركة ، ويتقرر فيه متى وأين تقوم كل فرقة بالهجوم أو الارتداد ، أو الانتظار في المؤخرة . وكان من أهم فنون الحرب لدى الموحدين ، خدع الحرب ، ولم يشتبكوا في موقعة ما دون أن يدبروا فيها نوعاً من الكمين لأعدائهم ، كأن يصنعوا الفرار ونحو ذلك ؛ وكانوا يستطلعون على يد عيونهم وقواتهم الخفيفة كل ما يتعلق بالعدو من عدده ومواقعه وأحواله ، ثم يرتبون خطتهم على أساس هذه المعلومات .

(١) راجع ما كتبه المؤلف عن ذلك في ص ٥٥ و ٥٦ من هذا الجزء .

ومتى استقر الرأي على خوض المعركة ، فإن أمير المؤمنين بعد أن يستعرض الجند ، وبعد أن يتم ترتيبهم للقتال ، يضرب قبته الحمراء ، يخفق عليها علمه الأبيض ، ويستحضر فرسه المطهمة ، ثم يرتدى ثوب عبد المؤمن الحربي ، ويجلس في خيمته على درعه ، وفي إحدى يديه سيفه السلول ، وفي الأخرى المصحف ؛ وكانت هذه نذر اقتراب المعركة .

وكان نظام المعركة يقوم عند الموحدين عادة على فكرة الترتيب^(١) ؛ وكل قسم من الجيش يوضع تحت إمرة قائد خاص ، ويؤلف جانباً من الزوايا الأربع لترتيب المعركة ؛ وكانت قوة الجيش الرئيسية تتألف من المشاة النظاميين ، وتوضع في الصفوف الأولى ، وتسليح بحراب طويلة جداً ، يتقلدها الجند بأيديهم وأرجلهم ؛ وبلى هؤلاء صفوف من الجند قد سلحوا بالسيوف وتقلدوا الدروع الكبيرة المستديرة ، ثم يليهم حملة النبال والقسي ؛ وكانت قوة الفرسان تحمل المكان الأوسط من المربع ، ويخصص لها أمكنة معينة في جميع جوانب المربع وتفتح لها مخارج سرية ، بحيث تستطيع صفوف الفرسان أن تنطلق منها كما تنطلق من القلعة المحصورة ، ثم تعود إلى أماكنها الداخلية ، دون أن تحمل بنظام المشاة ؛ ويقوم بالهجوم الأول أوثاك المتطوعون الذين وهبوا أنفسهم في سبيل الله ، تحت قرع الطبول وصوت الأبواق والقرون ، رافعين أعلامهم الخضراء ، تؤيدهم القوات الخفيفة ؛ فإذا استطاع العدو أن يرد هؤلاء وأن يتقدم حتى مواقف الجنود الموحدة النظامية ، وقف حملة الحراب أمامه كالسد الحديدي الذي لا يخترق ، واستقبل حملة القسي والنبال المهاجمين بسيل من السهام والحجارة ؛ فإذا استطاع العدو أيضاً أن يخترق صفوف حملة الحراب ، وقف أمامه حملة السيوف والدروع متأهبين لرده ، وأمكن للفرسان أن يخفوا إلى معاونتهم من الأماكن الداخلية ؛ وحتى لو استطاع العدو أن يتغلب على القلب والجناحين ، ولاج له بعد احتلال الأماكن الداخلية أنه قد أحرز النصر ، ففي الإمكان أن

(١) راجع الحلل الموشية ص ٩٨ ؛ وقد أشير إلى هذا النظام في الجزء الأول ص ٢٠٩ .

تستمر المقاومة ؛ وحينئذ تتقدم قوات الضلع الرابع من المربع ، وهي الاحتياطى المكون من صفوة الجند ، ولا سيما جند الحرس الخاص ، ويقودها القتال أمير المؤمنين بنفسه ، وكثيراً ما كانت تبرز النصر بشجاعتها وخبرتها ؛ وكانت هذه القوات تتمتع أحياناً داخل دائرة من السلاسل الحديدية ، تبرز منها الحراب الطويلة ، فتشخن بذلك فى العدو قتلاً ؛ ولما كانت قوة الجيش الرئيسية لدى المرابطين والنصارى الأسبان تتألف من صفوف الفرسان الثقيلة ، فقد كانت هذه الطريقة فى ترتيب أوضاع المعركة ، تفيد أياً فائدة فى رد العدو الذى يتفوق فى قوى الفرسان .

وكان الموحدون يتفوقون كثيراً على المرابطين فى فن الحصار ، وكانت أمنع المدن تتحطم أمام آلات الحصار والقذف التى يستعملونها ؛ وكان عبد المؤمن بنوع خاص أستاذاً فى هذا الفن الحربى ؛ وكان يستعمل بتأييد العناصر ، حيثما عجزت شجاعة الجند وآلات الحصار ؛ ففى حصار فاس التى قاومت أسوارها المنيعة كل جهوده ، استعان على إسقاطها بمياه النهر ، وذلك بأن سلطها على المدينة بعد أن حجزها حينئذ فى خزانات كبيرة ، ثم أطلقها فجأة فى مجارى صناعية على أسوار المدينة ؛ وأحرق وأسقط أبراج وهران بواسطة نار محرقة يؤيدها قصف الآلات ؛ وافتتح المهدية بوسائل مماثلة ، وحطم جدرانها التى بلغ من سمكها أن كان يسير عليها فارسان متجاوران ؛ واستطاع الموحدون أيضاً الاستيلاء عنوة على مراکش وذلك بالرغم من قلاعها المنيعة وسكانها الكثيرين ؛ واستولى الموحدون فى الأندلس على كثير من القلاع ، حسبما ذكرنا فى سياق تاريخهم ؛ وسقط فى أيديهم كثير من القلاع الواقعة فى أصعب المنحدرات والمفاوز الجبلية وذلك بفضل آلات حصارهم العنيفة التى كانت تقذف كتلاً هائلة من الحجارة ، وكرات منتهبة من الحديد . وليس فى وسعنا أن نقول بطريق التحقيق أن هذه الآلات كانت مدافع ، وإن الموحدين كانوا قد عرفوا البارود يومئذ ؛ بيد أنه يحتمل أن تكون هذه هى الحقيقة . ذلك أنه لم يمض قليل على ذلك ، أعنى فى

أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ، حتى شاع بين مسلمي إفريقيا استعمال الآلات القاصفة التي تقذف الكرات الملتهبة ؛ ووصف هذه الآلات لا يدع مجالاً للشك في أن هذه الكرات كانت تقذف بواسطة البارود .

كذلك كان للموحدين قوة بحرية لا بأس بها ؛ فضرورة الاتصال الدائم بين إفريقيا وإسبانيا ، ونقل مئات ألوف الجند إلى شبه الجزيرة كانتا تحتملان الاحتفاظ بأسطول نقل ؛ بيد أن أمراء الموحدين كانوا إلى جانب ذلك يحتفظون بأسطول حربي ؛ وقد افتتحووا الجزائر الشرقية وكثيراً من الثغور الواقعة على البحر بعمارة أسطولهم ؛ وفي عهد يوسف أبي يعقوب ، نشبت عدة مواقع بحرية بين الموحدين والقطلونيين على مقربة من طرطوشة ، وأحرز أمير البحر الموحدى كثيراً من ضروب التفوق . وفي حصار المهديّة التي كان يحتلها النورمانيون أصحاب صقلية ، قدم من صقلية أسطول نصراني من مائتي سفينة ليحاول إنقاذ المدينة فهاجمه أمير البحر الموحدى عبد الله بن ميمون ، وكان لديه أسطول كبير من السفن الأندلسية والمغربية ، ونشبت بين المسلمين والنصارى معركة بحرية كبيرة ، لم تكن فيها براعة النورمانيين في البحر شيئاً ، وأحرز المسلمون عليهم نصراً باهرأ ، وأحرقوا وأغرقوا جانباً من سفنهم واستولوا على جانب آخر منها .

وكان عبد المؤمن قد وضع حدود الولايات والناطق المختلفة ، وفرض على كل منها الضرائب المناسبة لحالتها وثروتها ومحاصيلها ، وكذلك ما يجب أن تقدمه كل منها من الجند من مختلف الأصناف سواء في حرب الجهاد المقدسة ضد النصارى أو في مقاتلة أى عدو آخر من أعداء الملكة . وكان ينظر في ذلك إلى عدد السكان وحالة المكان ؛ فثلاً كانت مراكش تقدم أربعاًة بحار وثلثها مائة وخمسون ، وتقدم كل من طنجة وسبتة . ومرسى عريف ووهران ومرسى حنين مائة بحار ، وتقدم الأندلس ثمانمائة ؛ وكانت قبيلة كومية وحدها وهى من بطون زانة تقدم عشرين ألف فارس ، وذلك لشهرتها بترية الخيل ؛ كذلك كان يحدد نصيب كل منطقة ودائرة من السلاح عدداً وصنفاً ، وعدد الخيل ودواب

الحمل والجمال ؛ وكانت تقام مصانع السلاح في مختلف أنحاء المملكة ، وتصنع فيها السهام والسيوف والحرايب والدروع وغيرها من أدوات الهجوم والدفاع . وأنشئت المدارس الحربية لكي تحفظ الروح العسكرية بين الموحدين وتعاون على إخراج القادة الأكفاء والمحاربين البواسل ؛ وكان يجمع لها الفتيان بالآلوف وبالأخص من قبيلة مصمودة ، وزاعى بينهم وحدة السن ، فيدرسون آثار المهدي وتعاليمه ويحفظونها عن ظهر قلب ، ثم يتدربون على استعمال جميع صنوف السلاح وفنون الركوب والسباحة ، ويدرسون كل ما يتعلق بالحصار والبحر والقتال ؛ وكانوا يتبارون في السباق ، ورمى الحرايب ، والقتال بالقوس والدروع ، والركوب ، والسباحة ؛ وكانت تقام بجوار مراكش بركة ، وضمت فيها القوارب والأفلاك وسفن الحرب الصغيرة ، وفيها يتعلم الطلاب التجديف ، وقيادة السفن ، وكل ما تتطلبه الحرب البحرية من فنون ومهارة ؛ وكان هؤلاء الفتيان الذين يسمون بالحفاظ يمرضون من وقت إلى آخر أعمالهم وبراعتهم أمام أمير المؤمنين ؛ ويخص أولئك الذين يمتازون منهم بالبراعة والجرأة والعزم وحضور البديهة بجوائز الأمير وصالته ، أو يتلقون منه ثناء ومديحه في عبارات مشجعة ، فكان ذلك يذكى همم الفتيان للحظوة برضى الأمير وعطفه ؛ وكان التعليم في هذه المدارس الحربية على نفقة الحكومة ويمنح الطلاب الخليل والسلاح مجاناً ؛ وكان يتخرج فيها بين أولئك الحفاظ معظم القواد ، وحكام القلاع ، وكبار الضباط .

وهناك كثير من الدلائل تؤيد أن الجند النظاميين الموحدين كانوا يتقاضون مرتباً ؛ وذكر بعض المؤرخين المسلمين أن بعض الأسراء كانوا يهبون الجند كثيراً من المال لكي يكسبهم إلى جانبهم .

وفيما يتعلق بإدارة المملكة التي أمر عبد المؤمن بمسحها جميعاً من حدود الصحراء إلى جبال سيارا مورنيا (جبل الشارات) في إسبانيا ، ومن المحيط الأطلنطي إلى الحدود المصرية ، فقد رأى أمير المؤمنين عبد المؤمن نزولاً على رغبة أشياخ القبائل ، أن يقسم إدارة الولايات بين أبنائه الأسراء (السادة) على أن تكون

هذه الإدارة وراثية في عقبهم ؛ وكان يقوم بالعمل إلى جانب هؤلاء السادة نفر من الحكام (النواب) والوزراء يتوارث أبناؤهم وأقاربهم مناصبهم أيضاً ؛ وكانت هذه الولايات أو الإمارات تقسم إلى دوائر ، لكل دائرة حاكمها أو قاضيا الخاص ؛ فمثلا كانت ولاية بلنسية تشمل دوائر شاطبة ودانية ومرسية والجزائر الشرقية ؛ وكانت ولاية قرطبة تشمل دوائر بياسة وجيان وأبدو وأندوجار وغيرها ؛ وولاية إشبيلية تشمل دوائر الغرب وشريش وشذونة وأستجة وقرمونة ومالقة ؛ وولاية غرناطة تشمل دوائر المرية ووادي آش والمنتكب وغيرها . وكانت الضرائب تفرض على الولايات وفقاً لحالة السكان وتربة الأرض ، وكذلك وفقاً لخصبها وإنتاجها ونوع الإنتاج وثروتها من الدواب . وكان من المتبع عند جلوس الخليفة الجديد أن تترك المكوس المتأخرة ، وأن يوزع بيت المال مبالغ كبيرة على الفقراء ؛ وكان المشرف على بيت المال والمدير لأموال الدولة يلقب بوالى الخزانة . وكان الوزراء ورجال البلاط والحشم يتقاضون مرتباتهم من الخليفة ، وكذلك يتناول القضاة والفقهاء من الخزانة الموحدة جرايات منتظمة ، وكثيراً ما كانت تزداد هذه الجرايات في عهد الأمراء الأجواد ، وكانت جميع المنشآت العامة مثل المساجد والحصون (القصبات) والقصور والأبراج وجسور الماء والشوارع والقناطر ، والمستشفيات والملاجئ ينفق عليها من خزانة الدولة ؛ وكذلك يتقاضى الأطباء والمرضون في المستشفيات مرتباتهم منها ؛ وكان الدخل يتكون في مملكة الموحدين ، فضلاً عن الضرائب العامة ، من محصول الذهب والفضة المستخرج من مناجم إفريقية والأندلس ، ومن الغنائم التي تؤخذ في الحرب ، حيث كان للخليفة وفقاً للشريعة الإسلامية أن يتقاضى منها الخمس . وقد كان هذا الدخل عظيماً بلاريب ؛ يدل على ذلك ما قام به الخليفة يوسف أبو يعقوب وولده المنصور في المغرب والأندلس من الأبنية العظيمة من متحصل المناجم وغنائم الحرب . وكان المنصور سبي الأداء بالنسبة للقائمين بشأن البناء ؛ وقد كان هؤلاء يظلمون بنفقات البناء ، بيد أنهم قلما كانوا يصبرون على هذه النفقات نظراً لضخامتها ؛

ذلك لأن حقوقهم كانت تؤدي ببطء ، وقلما كانوا يجراءون على المطالبة بها ؛
فاذا وقفوا إلى تقديم مطالبهم برفق ولباقة وفي الوقت المناسب ، ألفوا قبولاً من
الخليفة وأداء سريعاً .

ولما أخذت مملكة الموحدين في الاضمحلال عقب موقعة العقاب في عهد
حكومة المستنصر الضعيفة ، واستطاع الولاة (السادة) من أعضاء الأسرة الملكية
أن يندشئوا لأنفسهم حكومات مستقلة ، عمدوا إلى تنظيم الإدارة والمناصب وإجراء
العدالة وفقاً لأهوائهم ؛ فكان القاضي أو الوالي لا يستطيع الاحتفاظ بمنصبه
إلا إذا لم يتقدم آخر إلى إحراز هذا المنصب بدفع ثمن أكبر مما دفعه هو . ذلك
أن المناصب كلها غدت سلماً تباع وتشترى ، وعكف الموظفون الذين جروا على
شراء مناصبهم بالمال الطائل ، بدلا من تحقيق العدالة والنظام بين الناس ، على
امتصاص دماءهم بشراسة ؛ فكان هذا من العوامل التي عجلت بسقوط
دولة الموحدين .

٣ — لمحة عن حضارة الأندلس

في عهد المرابطين والموحدين

ظهر المرابطون من بين سكان الصحراء البدو الساذجين ، فكانوا أعداء
لكل حضارة عربية ؛ ومن ثم كانت حكومتهم كريح الصحراء اللافح حين يهب
على الفياض النضرة ، تعمل لتحطيم جميع العلوم والفنون والصنائع التي وصلت
في ظل السيادة العربية في الأندلس إلى ذروة التقدم والازدهار ؛ وكان أولئك
الحكام القساة يفتنون القبائل العربية وثقافتها ، ويعملون على سحق هذه الثقافة
بكل ما وسعوا ؛ فكانوا يطاردون العلماء الذين ينحرفون عن معتقداتهم ويحرقون
كتبهم ، ويعملون بالأخص على تحطيم الروح الشعرية الأندلسية التي كانت تجد
متمتها في قريض الفروسة والقصص المفرق . وكانت قراءة هذه الكتب تحظر
ويعاقب قارئها بأشد العقوبات ، وتعدم أيما وجدت ؛ وكانت المعاهد والمدارس

والمكتبات تنفاد شيناً فشيناً ، وكان قيام البقية الباقية منها يرجع إلى أن سيادة المرابطين لم تطل بعد القضاء على الأسر الملكية في الأندلس أكثر من نصف قرن ، وإلى أن الأواخر من ملوك المرابطين قد غمرهم سحر التمدن دون أن يشعروا فكفوا عن مطاردة الحضارة والثقافة المربيتين ، ومالوا إلى مصادقة الشعراء والعلماء ، ولاسيما أولئك الذين شادوا في نظمهم ونثرهم بمدح حكومتهم وغزواتهم . على أن سيادة المرابطين كان لها من جهة أخرى أثر حسن في تكييف روح الشعب الأندلسي ، فقد حلت في ظلها مكان الفروسة الهائلة ، والملاهي الناعمة ، والدعابة المصطنعة ، والفتور النسوي : روح حربية قوية ، واعتدال متقشف ، وذكاء فطري ، ورجولة متينة .

ولقي فن العمارة ، الذي يهواه أغلظ الطغاة لدى المرابطين قبولاً وتشجيعاً ؛ بيد أنه لم يصل في ظلهم إلى ما وصل إليه في عهد أسلافهم ، أو عهد أخلافهم الموحدين ؛ وعنى ملوك المرابطين بالأخص بإنشاء المساجد العديدة ذات الأبراج العالية ، وإنشاء الأسوار القوية حول المدن ، والقلاع النيعمة (القصبات) ، والقصور الشاسعة ؛ وكانوا يراعون في جميع منشآتهم العناصر الضرورية قبل عناصر الفخامة والجمال . وقد أنشأوا مع ذلك بعض أبنية من المرمر ذات حدائق غناء ، وفساق بديعة ؛ على أن هذه المنشآت الفخمة كانت دائماً قليلة نادرة بحيث عني المؤرخون بذكرها عناية خاصة .

ولم يكن الموحدون أيضاً من حماة العلوم والحضارة ؛ وقد نشأوا أيضاً في مهاد القبائل العسكرية الساذجة ؛ بيد أنهم لم يبدوا من النلو في مطاردة الثقافة مثل ما أبداه أسلافهم ؛ وقد أبطلوا مطاردة القبائل المربية ، وأباحوا دراسة تعاليم الفيلسوف الفزالي بعد أن حظرت في عهد المرابطين ، وأباحوا قراءة كتبه وغيرها من الكتب المحظورة ، وأطلقوا حرية العلوم والفنون ؛ ولما وقفوا على أسرار الحضارة المربية التي أخذت تنهض من جديد ، غدوا من حماها ، وعنوا بتشجيع بعض أصناف العلوم ونشرها ؛ وازدهرت الزراعة والصناعة والتجارة في نفس

الوقت في جميع أنحاء المملكة ، وغمرت الشعب موجة من الرخاء ، وهو من العناصر المشجعة للتقدم العقلي بين الشعوب ؛ وازدهرت الزراعة في الأندلس بنوع خاص ، وعولجت بالأساليب الفنية ، وتقدمت زراعة الفاكهة ، وكانت تزرع في ولايتي بلنسية وإشبيلية بالأخص مساحات كبيرة من قصب السكر ؛ وتنمو حول مدينة إشبيلية غابات كبيرة من الزيتون ، وبالقرب منها نحو مائة ألف معمصة لاستخراج الزيت ؛ وكانت الترع تخرق جميع أرجاء ولاية بلنسية وتروى أراضيها ؛ وكانت تقوم إلى جانب مصانع السلاح العديدة ، مصانع مختلفة أخرى ولاسيما مصانع الصناعات الجلدية في قرطبة ، ومصانع الورق في شاطبة ؛ وقد عرف ورق الكتان في إسبانيا منذ القرن الثاني عشر ، وكتبت معاهدة صالح عقدت في سنة ١١٧٨ م بين الفونسو الثاني ملك أراجون والفونسو ملك قشتالة على ورق من هذا النوع ؛ وكانت التجارة تزدهر أيما ازدهار في ثغور المرية ، وبلنسية ، ودانية ، ومالقة ، وإشبيلية .

وكانت المعاهد والمدارس التي أسست في مراکش وفارس ترمي بالأخص إلى تخريج الجند البارعين أكثر مما ترمي إلى تخريج العلماء ، بيد أن العناية في هذه المؤسسات لم تكن تقتصر على تربية الأجسام وتدريبها على فنون الحرب وحمل السلاح ، بل كانت تشمل تثقيف العقول ، وتزويدها بالمعارف الضرورية ، وتعاليم المهدى الدينية ؛ ثم كانت تنشأ معاهد خاصة بالعلماء ، وتميز طوائفهم وفقاً لمختلف الدرجات والكفايات ، وينحون مختلف الهبات والصلات ؛ وفي ذلك كله ما يدل على أن الموحدين كانوا يعنون بنواح أخرى غير الحرب وأنهم كانوا يشجعون العلوم والفنون ؛ بيد أنه لا ينكر أن ملوك الموحدين كانوا يعنون قبل كل شيء بالعلوم والفنون الضرورية التي يمكن الانتفاع بها في الحياة بسهولة ، أكثر من عنايتهم بالعلوم النظرية الخالصة ، فتراهم مثلاً يشجعون الطب والأطباء ، ويرفعونهم أحياناً إلى مرتبة الوزارة ، وينشئون المستشفيات للمرضى وذوى العاهات والعمى والمرج والضعفاء ، وينشئون

الشوارع والقناطر ؛ وفي البقاع المنعزلة القليلة السكان ينشئون الفنادق وأحواض الماء والآبار لينتفع بها السابلة ، ويحصنون الحدود ، ويزودون المدن بالقلاع والمساجد والشكنات والمخازن وجسور الماء .

وابتغى عبد المؤمن من الأموال التي غنمها من المرابطين عدة أبنية نفحة في مراكش ؛ وكان من بين المساجد والمعاهد التي أنشأها المسجد الجامع الذي يتبع القصر ، وهو من صنع المهندس الشهير « الأحوص » الملقب ، وقد أنشأ على أبداع طراز وفن ؛ وكان بهذا المسجد مخارج وأروقة بدعة الصنع ، وممرات سرية تمتد خفية إلى القصر ، بحيث يستطيع أمير المؤمنين أن يزور المسجد وأن ينادره دون أن يراه أحد . وكان منبر هذا المسجد قطعة فنية رائعة ، صنع من خشب الصندل الأحمر والأصفر ، وصنع كل ما فيه من إطارات ومزالج ومقاطيع ومسامير من الذهب والفضة صناعة فائقة ؛ وكانت المقصورة التي يجلس بها أمير المؤمنين أثناء صلاة الجمعة ذات تركيب عجيب ؛ فقد كانت حسب أقوال المؤرخين المسلمين تسع نحو ألف شخص ، وكانت تتحرك بواسطة عجلات ثبتت في أسفلها ، ولها ستة أذرع أو جوانب تمتد بواسطة مفاصل متحركة ؛ وقد صنعت هذه العجلات والمفاصل بحيث لا يترتب عليها عند تحريكها أقل صوت ، بل تدور جميعاً في أتم سكون ، ونظمت المحركات بطريقة هندسية دقيقة بحيث تتحرك جميعاً في وقت واحد متى رفع الستار عن أحد البابين اللذين يدخل منهما أمير المؤمنين إلى المسجد عند صلاة الجمعة ؛ وكانت المقصورة تبرز من جانب ، ويبرز المنبر من الجانب الثاني ، وتلتف الجوانب في نفس الوقت حول مجلس أمير المؤمنين ، كذلك نظم المنبر بحيث يفتح بابه متى صعد إليه الخطيب ، ويفلق من تلقاء نفسه متى اتخذ الخطيب مكانه ، وذلك كله دون أن يسمع أو يرى أثر لهذه المحركات ، كذلك نظمت أبواب المقصورة على هذا النمط ذاته .

وأنشأ عبد المؤمن في ظاهر مراكش حديقة غناء تبلغ مساحتها ثلاثة أميال مربعة وغرس فيها أطيب الفواكه وأندر الفراس وأكثرها تنوعاً ؛ وكان الماء

يجلب إليها من أغصان ، وقد صنعت فيها عدة فساق بديمة ؛ وكان إيراد أشجار الزيتون يقدر وحده في كل عام بثلاثين ألف دينار موحدى .

وأنشأ في تونس ، في أعلى مكان منها ، حصناً ذا أبراج جميلة ، مثلثة الزوايا ، وأقيمت بين المدينة والحصن عدة مدارس ومعاهد ؛ وأوصل الماء الحلو من رباط الفتح إلى سلا بواسطة قنطرة مائية ؛ وأراد أن يخلد ذكرى زعيم من زعماء القبائل افتداه بحياته في مؤامرة دبرت لقتله ، فابتنى له مدفنًا عظيمًا ، وأمر أن تبنى عشرة أسر من كل قبيلة مغربية إلى هذا المكان وتبنى حوله مدينة جديدة سميت بالبطحاء وغدت مزاراً يحج الناس إليه من كل فج^(١) . كذلك أتم عبد المؤمن تحصين جبل طارق ، وأشرف على إتمامها الأحوص المهندس الفنان .

وكان يوسف ولد عبد المؤمن أيضاً من عشاق البناء ؛ وفي عهده أنشئ في مارتله برج شاهق العلو ؛ وعنى بالأخص أن ينفش في إشبيلية عدة أبنية عظيمة منها مسجد نفخ وإلى جانبه عدة مدارس ومعاهد ، ومنها قنطرة من السفن على نهر الوادى الكبير ، ثبتت فيها السفن مما بالسلاسل ، وخازن كبيرة ، وأسواق للفاكهة ، ورصيف بطول النهر ، ومراسى للتفريغ زودت بالدرج ؛ كذلك أنشأ قنطرة مائية تمت إشبيلية بماء الشرب ؛ وعنى عناية خاصة باستغلال مناجم الذهب والفضة في إفريقية والأندلس ، وكان منها مناجم غنية جدا في مدينة جيان . وكان يعقوب المنصور ولد يوسف أشد منه شغفاً بالأبنية الفخمة ؛ وقد ذكر المؤرخون المسلمون بين المنشآت العديدة التي أمر بإقامتها عدة ؛ منها في مراکش مساجد بأبراج عالية وقصور ذات حدائق غناء ، وحصن ذو أبراج عالية ، ومنها مدينتان جديدتان إحداها بجوار سلا ، وهى رباط الفتح ولها مسجد نفخ ، والأخرى في الأندلس على نهر الوادى الكبير وتسمى حصن الفرج ؛ وأتم المنصور مسجد إشبيلية الكبير ذا المنارة العالية ، وزود برجه بزر ضخمة ؛ وكان هذا الزر من الضخامة بحيث اقتضى الأمر توسيع الباب الذى أدخل منه ؛ وكانت الأعواد

(١) راجع ص ٥٩ من هذا الجزء .

الحديدية التي تحملها تزن أربعين ربعا ، وصنمها ورفعها إلى أعلى المنارة العلم أبو الليث. الصقلي ، وموهت تلك التفاتيج بما قيمته مائة ألف دينار ؛ وسمى هذا البرج فيما بعد بالجيرالدا Giralda ، وكان يستعمل في الوقت نفسه مرصدا لرصد النجوم^(١) ؛ ورفع الزر الضخم إلى قمة المنارة بطريقة فنية استعملت فيها الآلات ، وذلك بإشراف الرياضى والفلسكى الشهير جبر الذى ينسب إليه اكتشاف الجبر خطأ ؛ وابتنى محمد ولد المنصور حول مدينة فاس أسوارا جديدة ، وكان عبد المؤمن قد هدم أسوارها وزودها بقلعة ضخمة ، وأنشأ في كثير من المدن الأخرى تحصينات قوية ؛ وأنشأ في مراكش مسجدا فخما في مكان بمنزل قليل السكان ، وأمر سكان الأحياء المجاورة أن يصلوا فيه وأن يلقوا المساجد التي في أحيائهم ، وزود الحى الذى يقطنه الأندلسيون بماء الشرب بواسطة قنطرة مائية ، وأنشأ المأمون قبل أن يعقل العرش ، وقت أن كان واليا لإشبيلية في ثغر مالقة قصرأ عظيما سمي بالقصر السعيد . أما فيما يتعلق بالعلوم ، وهى التى استؤنفت في عهد الموحدين ، فقد كانت المعاهد المغربية في مراكش وفاس وتونس ، والمعاهد الأندلسية في إشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية يومئذ مجمع العلوم والمعارف التى كانت ذاتمة في ذلك العصر ؛ وكان على رأس هذه المعاهد عمداء ، كان منهم بعض اليهود الذين أبدوا في العلوم براعة خاصة في ظل الموحدين في القرنين الثانى عشر والثالث عشر ؛ وكانت هذه المعاهد تقدم إلى الطلاب كتباً دراسية في كل العلوم لتكون لهم مقدمة وتمهيدا ، وكانت المحاضرات تفتح وتختتم بالاحتفالات والخطاب ؛ ويؤدى الطلبة بعد إتمام الدراسة امتحانا في مختلف العلوم ؛ وكانت هذه المعاهد كلها مزودة بالمكتبات ، ولا يزال يوجد إلى اليوم في مكتبة الاسكوريال فهرس للمكتبات والمؤلفات التى كانت موجودة في معاهد غرناطة في أوائل القرن الثالث عشر . وإذا استثنينا المؤلفات التى تعنى بالثقافة العربية أو الأندلسية المحضة والتى لم يكن لها تأثير في سير الحركة العقلية الأوروبية ، مثل كتب الدين والفقه واللغة

(١) راجع روض الفطاس ص ١٥١ . وكذلك الهامش في ص ٨٨ من هذا الجزء .

والبلاغة والشعر ، التي كتبت في الأندلس في القرنين الحادى عشر والثانى عشر ،
والتي عرفنا من بعضها أجزاء كاملة كما عرفنا محتويات البعض الآخر وذلك
بالأخص من مؤلف العلامة الغزيرى^(١) ، فانه يبق علينا أن نتحدث عما أداه
الأندلسيون والمغاربة في عهد المرابطين والموحدين ، في الفلسفة والرياضة والعلوم
الطبيعية والتاريخ ؛ ولا بد لنا هنا أن نذكر الكتاب اليهود المعاصرين ، وهم
الذين كتبوا عن آثارهم الدينية وعن اللغة العبرية ، كما كتبوا عن الفلسفة والعلوم
الطبيعية والطب ، وذلك لأنهم وضعوا مؤلفاتهم باللغة العربية أو تلقوا دراساتهم
بالأخص في المعاهد العربية أو تولوا التدريس فيها .

فإن القرن الحادى عشر وضع يهوذا شويج الفامى قاموساً عبرياً ، ومباحث
قيمة عن الإنشاء والترقيم في اللغة العبرية ، لم يطبع منها شيء حتى وقتنا ، وفي
القرن الثانى عشر ازدهرت المباحث العلمية اليهودية في اسبانيا بنوع خاص ،
وكتب الرّبن يهوذا لاوى المتوفى سنة ١١٥٣ م عن الحقيقة والإلهيات في الدين
اليهودى ، ووضع ابن عزرا الطليطلى المتوفى سنة ١١٦٧ م ، والمسمى بالحكيم
الكبير ، شرحاً لفظياً لنصوص كتب العهد القديم ، وكتب عدة مؤلفات في
النحو والفلسفة والفلك والطب ، ولم يطبع من كتبه الطبية سوى القليل ؛
واشتهر آل كنجى ، وهم يوسف الأب ، وكان موجوداً نحو سنة ١١٦٠ م ، وابناء
موسى وداود اللذان عاشا في أواخر القرن الثانى عشر ، بشروحهم للعهد القديم
والأجرومية العبرية ، على أن أشهر مشاهير الكتاب والعلماء اليهود هو الرّاب
موسى بن ميمون القرطبى المولود سنة ١١٣٩ م والمتوفى سنة ١٢٠٥ م ، وهو
علامة ضليع تولى التدريس في جامعة إشبيلية ، ثم عين طبيباً للسلطان صلاح
الدين ، ثم عميداً لأحد معاهد الإسكندرية ، ثم عميداً لأحد معاهد القاهرة ،

(١) مؤلف الغزيرى Casiri المشار إليه هنا ، هو الفهرس الذى وضعه الغزيرى اللبنانى
في أواخر القرن الثامن عشر باللاتينية للكتب العربية الموجودة في قصر الأسكوريال بنوان
« المكتبة العربية الاسبانية » Bibliotheca Arabico-Hispana Escorialensis وصف
فيه محتويات هذه الكتب وأتى على ملخصات الكثير منها .

وبها توفى ، وكتب ابن ميمون مؤلفات عديدة في جميع العلوم تقريباً ، ولكن لم يطبع منها سوى القليل ؛ وهي تتناول بالأخص شرح الكتب الدينية اليهودية والطب والفلسفة ؛ وقد أرغمه القرار الذي أصدره عبد المؤمن — مهدداً اليهود بالموت ومصادرة الأملاك — على أن يعتنق الإسلام في الظاهر ؛ بيد أنه سرعان ما انتهر الفرصة للسفر إلى مصر ، وهناك اشتغل حيناً بالتجارة في الأحجار الكريمة .

وازدهرت الفلسفة بالأخص في معاهد الأندلس ؛ وكانت العلوم الطبيعية والرياضية ترتبط بالفلسفة عادة ؛ ومنذ النصف الأول من القرن الحادى عشر نبع أبو على الحسين بن سينا^(١) المتوفى سنة ١٠٣٧ (٤٢٨ هـ) في الفلسفة والطب .

وكتب أبو حامد محمد الغزالى الطوسى المتوفى سنة ١١١٩ م (٥١٣ هـ) عدداً عظيماً من الكتب واشتهر بالأخص بكتابه «تهافت الفلاسفة» ، وأفتى جميع معاهد الأندلس والغرب بإشارة سلطان المرابطين بأن هذا الكتاب يحتوى على آراء إلحادية ، ومنعت قراءته وأحرقت نسخة أبيها وجدت^(٢) ؛ ولكن مؤسس دولة الموحدين (المهدى) أعاد مكانة أعظم فلاسفة الإسلام الدينيين في المغرب إلى ما كانت عليه ، بل عادت أعظم مما كانت في أى وقت ، وذلك بالرغم من أن كثيراً من علماء الأندلس كانوا يخالفون آراء الغزالى ؛ بيد أنه من الأسف أن مؤلفات هذا المفكر العظيم الذى تحتل كتبه وحدها حيزاً عظيماً في الآداب العربية لم ينشر منها سوى القليل^(٣) .

وكان أبو جعفر بن الطفيل الأشبلى المتوفى سنة ١١٧٦ م (٥٧١ هـ) أوفر

(١) يسمى الأفرنج ابن سينا Avicenna كما هو معروف وسوف نثبت الأسماء الأفرنجية لأولئك العلماء في نهاية الكتاب مع مقابلها العربى .

(٢) هذا ما ذكره المؤلف ولكن الحقيقة أن كتاب الغزالى الذى منع وصوله بالأندلس والمغرب في عهد المرابطين هو كتاب إحياء علوم الدين (راجع الحاشية في ص ١٩٦ من الجزء الأول) .

(٣) كتب المؤلف ذلك منذ نحو قرن . أما اليوم فإن عشرات من مؤلفات الغزالى قد طبعت غير مرة ، وهي ذائعة في جميع أنحاء العالم الإسلامى .

خطا ، فقد طبعت رسالته الشهيرة «حى بن يقطان» بنصها العربى ، وطبعت ترجمتها اللاتينية والألمانية ، وحازت إعجاب المفكر العظيم لايبنتز^(١) ؛ وهى قصة صبي ترك وحيداً فى جزيرة منعزلة ، واستطاع بواسطة التأمل وحده أن يؤمن بوجود الخالق وأن يتعرف قوانين الطبيعة .

واشتهر أبو الوائيد محمد بن أحمد بن رشد بالأخص من بين الفلاسفة الأندلسيين الذين استطاعوا بترجمهم وشروحهم وتعليقاتهم أن يعمدوا لدراسة الفلسفة اليونانية ولاسيما فلسفة أرسطو بين المفكرين المسلمين ؛ وقد ولد بقرطبة وتوفى سنة ١١٩٨ م (٥٩٤ هـ) ؛ وكان كثير الكتابة متضلماً فى علوم كثيرة ؛ وقد تفوق بنوع خاص فى الطب والفلسفة ؛ ومن مؤلفاته التى طبعت وذاعت شرحه القيم لفلسفة أرسطو ، وشرحه لجمهوريه أفلاطون (وهو فيلسوف لايعمل إليه المفكرون المسلمون على العموم) ، وردده على كتاب الغزالي «تهافت الفلاسفة» بكتاب سماه «تهافت التهافت» . كذلك يحتل ابن رشد المقام الأول بين علماء الأندلس فى علم الطب ، ولاسيما من أجل نظرياته الطبية التى يحاول أن ينوّه فيها بالفروق القائمة بين تعاليم أرسطو وتعاليم جالينوس ، وأن يدافع عن نظريات الأول ضد نظريات الثانى^(٢) .

والى جانب مشاهير الأطباء مثل أبى بكر بن زكريا الرازى ، وابن سينا وابن ميمون مؤلف «مختصرات جالينوس» وماسويه بن حمش الماردىنى المتوفى سنة ١١٦٠ م مؤلف كتاب «الأدوية والمعالجة» ، يجب أن نذكر أبا القاسم خاف ابن عباس القرطبى المتوفى سنة ١١٢٣ م (٥١٦ هـ) ، وقد نبغ فى الطب والجراحة والصيدلة نبوغاً فائقاً ، واشتهر بكتبه القيمة عن الجراحة والآلات الجراحية ، وعلاج النقطة ، والأورام السرطانية ، وأمراض النساء ، وتحضير الأدوية ؛ ولم يطبع بعد كتابه الجامع فى علم الطب ؛ والظاهر أنه كان عارفاً باستعمال حرق المخروط القطنى على الجلد ؛ وكان يستعمل عملية استخراج الحصى من القنضب بنجاح .

(١) لايبنتز Leibnitz فيلسوف وعالم رياضى ألماني (١٦٤٦ — ١٧١٦) .

(٢) أوردنا ترجمة موجزة لابن رشد فى هامش ص ٦٥ من هذا الجزء .

واشتهر أبو مروان عبد الملك بن زهر الأشبيلي المتوفى سنة ١١٦٨ م (٥٦٤ هـ) بالأخص بقوة الملاحظة الخاصة ، وهو أوفر الأطباء المسلمين علما وبراعة ؛ ويبدو ذلك بوضوح في كتابه « التيسير في المداواة والتدبير » ؛ وقد شغل مدى أعوام طويلة منصب الطبيب الخاص لسلطان الموحدين أبي يعقوب .

وأما في العلوم الطبيعية ولا سيما في التاريخ الطبي ، فقد نبغ بالأخص العلامة النبأى ضياء الدين عبد الله بن أحمد بن البيطار الماتى المتوفى سنة ١٢٤٨ م (٦٤٦ هـ) وقد تولى الوزارة في أواخر حياته لحكومة دمشق ، وسما شأنه ؛ وساح في جميع الأقطار المعروفة يومئذ في أوربا وإفريقية وآسيا ، وضمن نتائج دراساته وبحوثه كتابه المعروف عن ممالك الطبيعة الثلاث ، وفيه يتحدث بالترتيب الأبجدي عن خواص النبات والسموم والحيوانات ؛ ولم يطبع من مؤلفه سوى جزء صغير .

وأما في الكيمياء — وهي في الواقع علم ندين به كله إلى العرب — فقد قام الأطباء والعلماء الطبيعيون الأندلسيون باكتشافات هامة ؛ بيد أنه من الصعب أن نعين الأوقات التي تمت فيها هذه الاكتشافات .

كذلك يدين العالم في الرياضيات بكثير من الفضل للعلماء العرب والأندلسيين وقد كان علم الجبر أهم ما اكتشفوه في هذا الميدان ؛ على أن هذا العلم لا يستقى اسمه من اسم العلامة جبر الأشبيلي الذي عاش في القرن الثاني عشر ، والذي كتب كتابا عن « الدوائر » ، ولكن يستقيمه من كلمة « الجبر » العربية ، ومعناها جبر الأعداد الكسرية إلى مجموع واحد ؛ ويسمى العرب ما نسميه نحن « بالجبر » « الجبر والمقابلة » ؛ والمعروف عن ثابت بن قرّة أنه كان من أعظم علماء الجبر ؛ كذلك كان ابن رشد متفوقا في الرياضيات ، وقد وضع مختصرا لكتاب « المجسطى » لبطليموس ؛ وطبقت الرياضة أيضا في دراسة الموسيقى ، وعرف الأندلسيون الأنغام المسجلة « النوتات » قبل أن يعرفها مكتشفها الزعوم جيدو دي أريتسو ويذيعها في إيطاليا .

وكان الفلك من العلوم المحبوبة عند العرب ؛ وكان الملوك ، وكذلك الأسر

المغربية يشجعون دراسته تشجيعاً كبيراً ؛ وكان التنجيم يرتبط بهذا العلم أياما ارتباطاً . وقد ابتنى سلطان الموحدين يعقوب المنصور في سنة ١١٩٦ م (٥٩٢ هـ) في مسجد إشبيلية الجامع برجا عالياً ليكون مرصداً ؛ ومن الواضح أنه أول مرصد بني في أوربا ؛ ووضع المنصور في سنة ١١٥٧ م (٥٤٥ هـ) أزياجاً فلكية عن كسوف الشمس ، وكتب معاصره البتراجي Alpetragius المراكشي رسالة عن الأجرام ترجمت إلى اللاتينية وطبعت ، ولكن أزياج المنصور لم تطبع .

أما كون البوصلة اختراعاً عربياً فما لاشك فيه ، يدل على ذلك ما كان يستعمل من قبل من الألفاظ لوصف اتجاه الأبرة الممغنطة مثل قولهم « الشارون » للدلالة على الشمال ، و « الأفرون » للدلالة على الجنوب ، وهي ألفاظ اشتقت من العربية ؛ ولم يقتصر العرب على استعمال هذا الاختراع في رحلاتهم البحرية منذ القرن الثاني عشر ، بل استعملوه أيضاً في رحلاتهم الصحراوية ؛ كذلك كان يستعمل في الحياة اليومية لتعيين اتجاه القبلة للصلاة ، ومعرفة مواقع الجهات الأربع .

كذلك وضع مسالمو الغرب في تلك العصور مؤلفات قيمة في علم الجغرافيا ، وأهم هذه المؤلفات هو الكتاب الضخم الذي وضعه الشريف الإدريسي ، أبو عبد الله بن محمد السبتي الذي عاش حوالى سنة ١٠٩٩ إلى سنة ١١٧٥ م ، (٤٩٢ - ٥٧٠ هـ) . وقد وضع الإدريسي مؤلفه في صقلية في سنة ١١٥٣ م (٥٤٨ هـ) بعنوان « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » . بيد أنه لم يطبع منه سوى مختصر فقط^(١) ، وعمل الإدريسي أيضاً لملك صقلية روجر (رجار) الثاني كرهة أرضية جغرافية من الفضة ، وقد طبع كوندى من « نزهة المشتاق » الجزء الخاص بإسبانيا ، ونشر منه العلامة الألماني هارتمان قطعاً أخرى .

(١) طبع مختصر نزهة المشتاق المشار إليه في سنة ١٥٩٧ م في رومة في مجلد واحد ؛ ويوجد بدار الكتب نسخة فتوغرافية غير كاملة من نزهة المشتاق ؛ وقد طبعت منه أجزاء مختلفة ؛ وتولى العلامة المستشرق دوزي نشر القسم الخاص بالأندلس والمغرب مع ترجمته الفرنسية .

وأما فيما يتعلق بالتاريخ ، فإن عصر المرابطين لم يكن مشجعاً على كتابته ، إذ كانت حكومتهم تُخضع المؤلفات التاريخية لرقابة صارمة ، وكانت تأمر بحرق جميع الكتب التي لا تروق لها . فلما جاءت حكومة الموحدين أبدت تسامحاً في البداية وألفت رقابة المؤلفات التاريخية ، وصححت بالكتابة عن تاريخ الدولة ؛ ومع ذلك فقد كان لزاماً على المؤرخين أن يكتبوا بمعاف عن الأسرة الموحدية ، وقد هدد خلفاء عبد المؤمن المؤرخين بالموت إذا كتبوا عن حكومتهم أموراً لا تسر . ومع ذلك فانا نجد في بعض المؤلفات الأندلسية المعاصرة أقوالاً تدل على أن مؤلفيها لم يخشوا من قول الحقيقة ، وكثيراً ما ترد بها مطاعن شديدة على سلاطين الموحدين ووزرائهم ؛ ولم يطبع إلى اليوم مؤلف منها بنصه الكامل ولكن الغزيرى أورد شذوراً منها ، وترجمت أقسام كبيرة وصغيرة منها في مؤلفي دومي Dombay وكوندى Condé ، وإليك أهم أولئك المؤرخين :

أبو مروان حيّان بن خلف بن حسين بن حيّان المتوفى سنة ١٠٨٦ م (٤٧٩ هـ) كتب تاريخاً للأندلس في عشر مجلدات^(١) ، ومؤلفاً تاريخياً آخر في ستين جزءاً ، وكتابه أهم المصادر بالنسبة لبداية عصر المرابطين ، ومن أهم المؤلفات التاريخية في عصره ، ويغلب الصدق على روايته .

الحُمَيْدِي ، وهو أبو عبد الله بن محمد بن أبي نصر المتوفى حوالي سنة ١١٠٠ م (٤٩٣ هـ) ، وقد كتب تراجم لمشاهير رجال الأندلس ، وهو قيم بالأخص فيما يتعلق بتراجم العلماء^(٢) ، وأهم منه أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال القرطبي المتوفى سنة ١١٨٣ م (٥٧٨ هـ) ، ومؤلفاته مصدر في منتهى الأهمية لتاريخ القرن

(١) هو كتاب المقنيس في أخبار أهل الأندلس ؛ ولم يصلنا منه سوى قطع صغيرة ؛ وقد طبعت إحداها أخيراً بعناية بعض المستشرقين ؛ وأما الكتاب الثاني فهو كتاب «المبين» ؛ وقد ترجم له ابن خلكان (ج ١ ص ٢١٠) وذكر أن مولده في سنة ٣٦٧ هـ ووفاته سنة ٤٦٩ هـ (٢) كتاب الحميدى المشار إليه هو كتاب جذوة المقنيس في تاريخ علماء الأندلس وترجمته في ابن خلكان (ج ١ ص ٦١٤) .

الحادى عشر وقسم من القرن الثانى عشر^(١) .

أبو على بن رشيد وابن ختم ، وقد عاشا فى أواسط القرن الثانى عشر وعاصرا المهدي ، وكتبنا عن قيام دولة الموحدين وحياة المهدي ، وحملنا عليه صراحة ، وقد اختصرهما أبو مروان الذى عاش فى القرن الثالث عشر .

ابن الأبار القضاى البلبسى الذى عاش فى أواسط القرن الثالث عشر ، وقد انتفع فى تاريخه عن اسبانيا بكتب المؤلفين السابقين ؛ وهو بالنسبة لتاريخ بنى هود فى مرقسطة والمرابطين والموحدين مصدر فى غاية الأهمية ؛ وقد وصف لنا أحوال دولة الموحدين فى أواخر أيامها ، وكذلك فتوح النصارى فى الأندلس ، وصف معاصر وشاهد عيان^(٢) .

ابن الخطيب (وهو لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد) ، وقد ولد بمدينة لوشة من أعمال غرناطة سنة ١٣١٣م (٧١٣هـ) وتوفى سنة ١٣٧٤م (٧٧٦هـ) ؛ ألف فضلا عما كتبه من المؤلفات التاريخية العديدة كتاباً عن تاريخ ملوك الاسبان ، وكتاباً آخر عن أعلام الاسبانيين وكلاهما قيم فى بابيه ، وقد أورد الغزيرى منهما شذوراً فى معجمه^(٣) . وكان من معاصريه ابن عبد الحليم الغرناطى ،

(١) أشهر كتب ابن بشكوال كتاب الصلة الذى ذيل به على كتاب علماء الأندلس لابن الغرسي ، وقد تناول فيه أخبار علماء الأندلس وأعيانها حتى عصره ؛ وطبع فى مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية .

(٢) كتب ابن الأبار المتوفى سنة ٦٥٩ هـ تكملة لكتاب الصلة لابن بشكوال ترجم فيها لأعيان أهل الأندلس وعلمائها وشعرائها ، وطبع فى مجلدين ضمن المكتبة الأندلسية ، وله أيضاً كتاب الحلة السيرة فى تراجم بعض أعيان الأندلس منذ الفتح إلى عصره ؛ طبع بناية المستشرق دوزى وهو قيم جداً بالنسبة لتاريخ الطوائف وتاريخ الأندلس فى القرن السادس الهجرى .

(٣) كان ابن الخطيب من أعظم وزراء الأندلس وكتابها وشعرائها فى القرن الثامن الهجرى ؛ وله ثبت حافل من المؤلفات التاريخية والأدبية ، منها كتاب « الاحاطة فى أخبار غرناطة » وهو أشهرها ، وتاريخ الدولة النصرانية ؛ ورعاية الكتاب . والسحر والشعر . والكتيبة الكامنة فى أدباء المائة الثامنة وغيرها . وله رسائل وقصائد لا تحصى . وقد أفرده له القرى صاحب نفع الطيب من مؤلفه مجلدين كبيرين ألم فيها بكثير من أخباره وآثاره .

وقد كان مؤرخاً ذا شأن لدولى المرابطين والموحدين ، وقد ترجم مؤلفه التاريخى من فاس ومراكش - وهو الذى اعتمد فى وضعه على المصادر العربية فى تاريخ إفريقيا والأندلس وكذلك على المحفوظات الملكية - بنصه إلى الاسبانية بمناية كوندى ، وقد نقل فيه عن المؤرخين السابقين مثل ابن حيان وغيره ، أحياناً شذوراً برمتها وأحياناً بطريق التلخيص^(١).

« تم الكتاب »

(١) كتاب ابن عبد الحليم الفرناطى المشار إليه هنا هو كتاب « الأنيس المطرب بروض القرماس فى أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس » وهو فى الواقع من تأليف أبى الحسن على بن عبد الله بن أبى زرع القاسى ، وتسبته إلى ابن عبد الحليم الفرناطى ضعيفة ، وقد نشر هذا الكتاب بمناية المستشرق تورنبرج مع ترجمة لائىنية بمدينة أوبسالة سنة ١٨٤٣ ؛ وقد انتقم به المؤلف انتفاعاً كبيراً .

ملحق

لفهرس الأعلام الجغرافية والتاريخية

نشرنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب (ص ٢٦٩) فهرساً للأعلام الجغرافية والتاريخية الأندلسية ومقابلها الأوربى ؛ وقد وردت بالجزء الثانى أعلام جغرافية وتاريخية جديدة لم ترد بالجزء الأول ، فرأينا أن نثبتها فى هذا الملحق على النحو الآتى :

Abulcasis	أبو القاسم (خلف بن عباس القرطبى)
Alcantra	القنطرة
Alcázar, Alcazar da sol	القصر أو قصر أبى دانس
Alicante	لقنت (وقد وردت بحرفة فى ج ١)
Avempace. Avenpace	ابن باجه
Avenzoar	ابن زهر الأشبيلى
Averroes	ابن رشد
Avicenna	ابن سينا
Burriana	بريانه
Cintrin	شفترين
Guadelete.	وادی لكه
Maimonides	موسى بن ميمون
Miquenezza, Miquenzenza	مكناسة الأندلس

— ٢٦٥ —

Navas di Tolosa	حصن المقاب أو موقعة المقاب
Osma	أوسمه
Rasis	الرازي (أبو بكر بن زكريا)
Salvatierra	سربطرة أو شربطرة
Segura	نهر شقورة (وقد وردت بحرفة في ج ١)
Turgiello-Turillo	ترجالة
Urgel	أورقلة
Xucar	شقور — جزيرة شقور

فهرس الموضوعات

الجزء الثاني

الكتاب الرابع

سيادة الموحدين

والحكومات الخماسية النصرانية في شبه الجزيرة الاسبانية

صفحة

الفصل الأول : تاريخ اسبانيا النصرانية منذ وفاة القيصر ألفونسو ريمونديز

حتى ولاية الملك الفونسو الثاني الأرجوني الحكم ... ٢

الفصل الثاني : قيام جماعات الفرسان الدينية في اسبانيا والبرتغال ... ١١

الفصل الثالث : صراع أمرتي كاسترو ولارا في سبيل السيادة في قشتالة ١٩

الفصل الرابع : تاريخ مملكتي البرتغال وليون منذ وفاة القيصر الفونسو

إلى وفاة الفونسو هنريكيذ وفرديناند الثاني ٣٧

الفصل الخامس : تاريخ اسبانيا النصرانية في عهد الفونسو الثاني ملك

أراجون ٣٥

الفصل السادس : تاريخ الموحدين في الأندلس منذ افتتاح غرناطة ، حتى

وفاة يعقوب المنصور الظافر في معركة الأرك ٤٩

صفحة

- ١ - تنظيم حكم الموحدين في عهد عبد المؤمن ٤٩
- ٢ - باقى غزوات الموحدين فى الأندلس بقيادة عبد المؤمن ٥٩
- ٣ - حكم أبى يعقوب يوسف وحروبہ ٦٤
- ٤ - يعقوب بن يوسف وموقعة الأرك ٧٦

الكتاب الخامس

اضمحلال سيادة الموحدين وازدياد تفوق قشتالة وأراجون

فى النصف الأول من القرن الثالث عشر

الفصل الأول : حال اسبانيا بعد موقعة الأرك حتى موقعة تولوزا أو موقعة

العقاب ٩٤

الفصل الثانى : موقعة نافاس دى تولوزا أو موقعة العقاب ١٠٥

الفصل الثالث : بيدرو الثانى ملك أراجون ١٢٥

الفصل الرابع : تاريخ مملكتى ليون وقشتالة منذ موقعة العقاب حتى

اتحادهما ١٣٦

الفصل الخامس : اضمحلال وسقوط سلطان الموحدين فى الأندلس ١٥١

الفصل السادس : نزاع جايم الفاتح مع عمه وحروبہ ضد المسلمين فى الجزائر

الشرقية ومملكة بلنسية حتى خضوع هذه المملكة لسيادة

أراجون ١٦٧

الفصل السابع : فتوح فرديناند الثالث فى جنوبى اسبانيا ونهاية سلاطان

الموحدين فى الأندلس ١٨١

مقدمة

الفصل الثامن: تاريخ البرتغال من عهد سانشو الأول حتى افتتاح الفونسو

الثالث لولاية الغرب ٢٠٠

١ — سانشو الأول الملقب بالمعمر ٢٠١

٢ — الفونسو الثاني الملقب بالبادن ٢٠٣

٣ — سانشو الثاني الملقب بذي الثوب السكهنوتي ٢٠٧

٤ — فتوح الفونسو الثالث في ولاية الغرب ٢١٥

الفصل التاسع: أحوال الدول الأسبانية حتى وفاة فرديناند الثالث ٢١٧

الفصل العاشر: نظم الدولة وفتون الحرب وأحوال الحضارة في دولتي

المرايطين والموحدين ٢٢٢

١ — نظم الدولة وفتون الحرب عند المرايطين ٢٢٣

٢ — نظم الدولة وفتون الحرب عند الموحدين ٢٣٩

٣ — لمحة عن حضارة الأندلس في عهد المرايطين والموحدين ٢٥٠

ملاحق لفهرس الأعلام الجغرافية والتاريخية ٢٦٤

